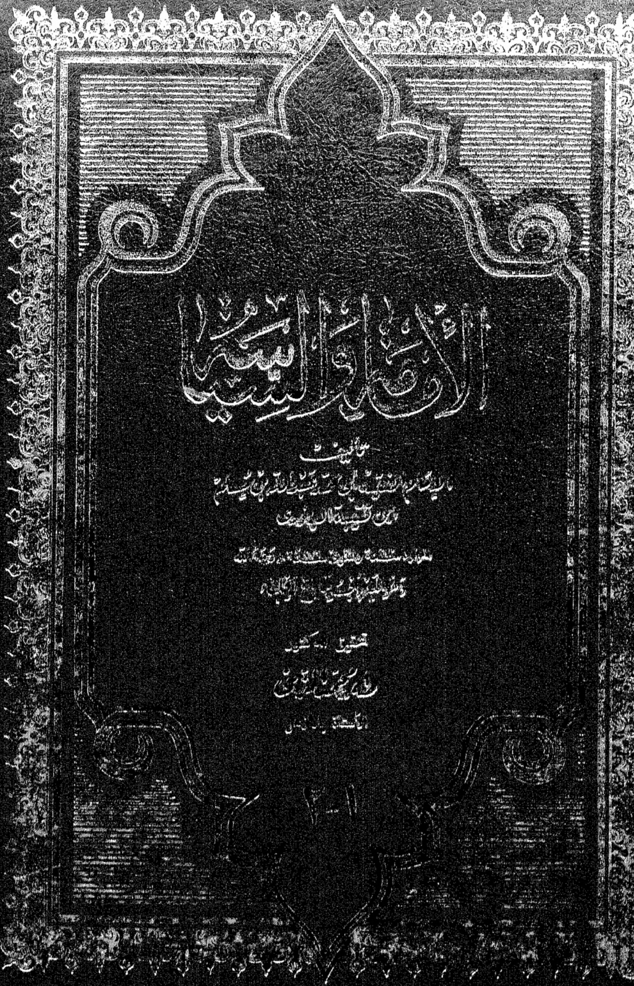



الإمامة والسياسة

اهـــــــــداء2005

أ.د.عباس عبد الحميد
جامعة الإسكندرية



الإمامة والسياسة

تأليف

الإمام الفقيه أبي محمد عبد الله بن مسلم
ابن قتيبة الدينوري

المولود سنة ٢١٣ والمتوفى سنة ٢٧٦ هـ رحمه الله

وهو المعروف بتاريخ الخلفاء

تحقيق الدكتور

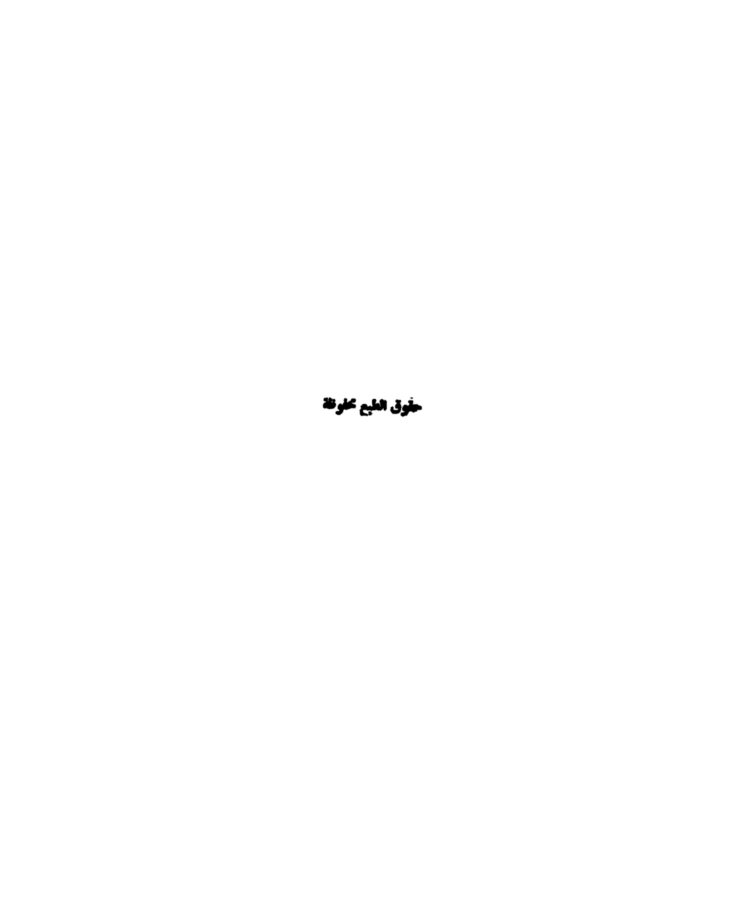
طه محمد الزيني

الأستاذ بالأزهر

الجزء الأول

الناشر

مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع



مقدمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

وبعد ، فإن عبد الله بن مسلم بن قتيبة من العلماء المبرزين فى كثير من الفنون ، وله تآليف فى التفسير والحديث واللغة والنحو والتاريخ ،ومن أشهر كتبه وأكثرها سيراً بين الناس،وأحبها إلى قلوبهم كتابه الإمامة والسياسة الذى تناول فيه تاريخ حقبة من أحفل حقب الإسلام بالتاريخ المجيد ، والأحداث الجسام التى دل تصرف المسلمين فيها على عقل راجح ، وقدم راسخة فى السياسة وتدبير شئون الملك ، والعمل على جمع الشمل ، وإبعاد الفرقة عن الأمة الإسلامية، مما جعل قراءة هذا الكتاب واجباً على كل من يريد معرفة تاريخ قومه من المسلمين الأولين وفيهم جلة الصحابة وخيار التابعين ، وفيهم الخلفاء الراشدون ، ومن بعدهم من ملوك المسلمين الذين رفعوا رايته ، ووسعوا سرادقه ، وعدلوا بين الناس وأنصفوا الظالم من المظلوم ، وكانوا قدوة للحكام العادلين .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين خير الخلق أجمعين محمد بن عبد الله صاحب السيرة العطرة والتاريخ المجيد، وعلى آله وأصحابه الذين عزروه ونصروه وحملوا الأمانة من بعده فقاموا عليها خير قيام وأضاءوا طرق الحياة لسالكيها بالعدل والحكمة والاستقامة، ورفعوا شأن دينهم ومعتنقيه، ودفعوا إلى المجد والعزة اتباع رسولهم ومحبيه، وكان منهم النجوم الذين يستضاء بها في ظلمات الحوالك، والملوك الذين يعاش في أكنافهم ويستظل بظلهم، والعباد الذين عرفت المساجد جنوبهم وظهورهم، وبواطن أقدامهم، والزهاد الذين كانت الدنيا لا تساوى عندهم غدوة أو روحة في سبيل الله.

وبعد، فإن كتاب « الإمامة والسياسة » للعالم الفاضل المؤرخ العظيم عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى، من أشهر الكتب تداولاً بين قراء العربية، لما حواه من تاريخ حقبة عزيزة على نفس كل مسلم حبيبة إلى قلبه جديرة بالذكر على لسانه، فيها عرف المسلمون العزة، ونعموا بالسعادة، وأقاموا صروح العدالة، وقوضوا قوائم الظلم، وطمسوا معالم الكفر، وأوقدوا مشاعل الإيمان بهمة يتقاعس عن دركها الزمن، وعزة لا ينال منها الوهن، وقد وكل إلىّ تحقيق هذا الكتاب، ليخرج في ثوب قشيب يحسن عند الرائى منظره، ويطيب عند قارئه مخبره، ويحبب الناشئة في تاريخهم، ويقربهم من أيام أجدادهم، حتى يستشعروا عظمة أمتهم، وينهجوا في حياتهم نهجهم، ويبنوا كما بنوا، ويجاهدوا كما جاهدوا ولا يناموا عن إحياء تراثهم، واسترجاع ميراثهم الذى تكالبت عليه ذئاب الأمم من الكفار، ومن والاهم من الذين لا يهمهم سوى الدنيا، ولا يرون إلا العاجلة ،ولا ينظرون إلى الآجلة، والله من ورائهم محيط.

وقد لبيت الدعوة وقمت بجهد في هذا الكتاب أعتبره قليلاً، ولكنه مفيد، فجعلت لبعض الموضوعات عناوين جديدة توضحها وشرحت بعض الجمل لبيان غوامضها، وعلقت تعليقات مختصرة على بعض الأحداث التاريخية تقربها من القارىء وتقرب القارىء منها، وترجمت للمؤلف حتى يعرف الناس الرجل الذى يقرءون كتابه من هو ويلموا بنبذة من تاريخه.

وأسأل الله أن يجعل الكتاب مثمراً نافعاً لكل من يقرؤه، إنه نعم المولى ونعم النصير؟

طه الزينى

ترجمة ابن قتيبة

هو عبد الله بن مسلم بن قتيبه الدينورى أبو محمد من أئمة الأدب والتاريخ والنحو وغيرها من العلوم وهو من المصنفين المكثرين ، ولد ببغداد وسكن الكوفة ، ثم ولى قضاء الدينور مدة فنسب إليها ، وتوفى ببغداد ٢٧٦ هـ سنة ٨٨٩ م وكان ميلاده سنة ٢١٣ هـ سنة ٨٢٨ م .

ومن كتبه « تأويل مختلف الحديث ، وأدب الكاتب والمعارف ، وكتابى المعانى عيون الأخبار ، والشعر والشعراء ، والإمامة والسياسة ، ويعرف بتاريخ الخلفاء وكتاب الأشربة ، والرد على الشعوبية ، وفضل العرب على العجم ، ومشكل القرآن ، والاشتقاق الغريب القرآن والمسائل والأجوبة ، وغير ذلك فهو من علماء العرب الذين يشار إليهم بالبنان الذين أفادوا اللغة العربية وأهلها أيما فائدة ، رحمه الله وجزاه خير الجزاء على ما قدمت له من خير وما حوى جنانه من علم ، إنه سميع الدعاء .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

قال أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة رحمه الله تعالى :

نفتتح كلامنا بحمد الله تعالى،ونقدس ربنا بذكره والثناء عليه، لا إله إلا هو لا شريك له ، الذى اتخذ الحمد لنفسه ذكراً ، ورضى به من عباده شكراً وصلى الله على سيدنا محمد الذى أرسله بالهدى ، وختم به رسل الله السعدا ، صلاة زاكية ، وسلم تسليماً كثيراً أبداً .

فضل أبى بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما

حدثنا ابن أبى مريم ، قال حدثنا أسد بن موسى ، قال حدثنا وكيع ، عن يونس بن أبى إسحاق ، عن الشعبى ، عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، قال : كنت جالساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم،فأقبل أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ،فقال عليه الصلاة والسلام : هذان سيدا كهول[1] أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا النبيين والمرسلين عليهم السلام ولا تخبرهما ياعلى .

حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحمانى رضى الله عنه ، حدثنا أحمد بن حواش الحنفى ، قال حدثنا ابن المبارك ، عن عمر بن سعيد ، عن أبى مليكة، قال : سمعت ابن عباس رضى الله عنه يقول : وضع عمر رضى الله عنه على سريره فتكنفه[2] الناس يدعون ويصلون قبل أن يرفع[3] ، فلم يرعنى إلا رجل قد أخذ بمنكبى[4] من ورائى ، فالتفت فإذا على بن أبى طالب كرم الله وجهه يترحم على عمر رضى الله عنه ، وقال : والله ما خلفت أحداً أحب إلى أن

---

(١) الكهول جمع كهل ، وهو من ظهر الشيب برأسه وكان له مهابة فى النفس ، وقيل من جاوز الثلاثين إلى إحدى وخمسين سنة .

(٢) أحاطوا به .

(٣) أى قبل أن يحمل ليذهب به إلى القبر .

(٤) المنكب الكتف .

التى الله تعالى بمثل عمله منك ياعمر ، وأيم الله إن كنت لأرجو أن يجعلك الله مع صاحبك[1] ، وذاك أنى كنت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ذهبت أنا وأبو بكر وعمر ، وكنت أنا وأبو بكر وعمر ، وإن كنت لأظن[2] أن يجعلك الله تعالى معهما . وأخبرنا ابن أبى شيبة ، قال : حدثنا يزيد بن الحباب ، عن موسى بن عبيد ، قال : أخبرنى أبو معاذ وأبو الخطاب ، عن على رضى الله عنه ، قال : بينما أنا جالس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أقبل أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، فقال ياعلى هذان سيدا كهول أهل الجنة ، إلا ماكان من الأنبياء عليهم السلام ، ولا تخبرهما .

حدثنا الوليد بن مسلم ، عن عبد الله بن عبد العلى عن القاسم بن أبى عبد الرحمن رضى الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لقد هممت أن أبعث إلى الأمم رجالا يدعونهم إلى الإسلام ويرغبونهم فى الدين ، فأبعث أبى بن كعب ، وسالما مولى أبى حذيفة ، ومعاذ بن جبل ، كما فعل عيسى بن مريم عليهما السلام[3] ، فقالوا : يارسول الله أفلا تبعث أبا بكر وعمر رضى الله عنهما ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : هما لا بد لي منهما ، هما منى بمنزلة السمع والبصر .

سؤال عمر بن عبد العزيز عن استخلاف الرسول لأبى بكر

وحدثنا ، قال : أخبرنا ابن المبارك ، قال : أخبرنا محمد بن الزبير ، قال : أرسلنى عمر بن عبد العزيز إلى الحسن البصرى،رحمهما الله تعالى ، أسأله إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم استخلف أبا بكر رضى الله عنه ، فأتيته فاستوى جالساً ، وقال : إى والذى لا إله إلا هو ، استخلفه ، وهو كان أعلم بالله تعالى ، وأتقى لله تعالى ، من أن يتوثب[4] عليهم لو لم يأمره .

استخلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضى الله عنه

عن ابن أبى مريم ، قال : حدثنا العريانى ، عن أبى عون بن عمرو بن تيم الأنصارى رضى الله عنه ، وحدثنا سعيد بن كثير ، عن عفير بن عبد الرحمن قال : حدثنا بقصة استخلاف

---

(١) يريد بصاحبه أبا بكر رضى الله عنه .
(٢) الظن هنا معناه الرجحان أى الأرجح .
(٣) أى على عيسى وأمه مريم السلام ، ومعنى كما فعل عيسى بن مريم أى كما جعل له حواريين يعلمون الناس الدين .
(٤) يتوثب عليهم أى يأخذ الخلافة بالرغم عنهم ودون موافقتهم .

رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر ، وشأن السقيفة ،وما جرى فيها من القول ، والتنازع بين المهاجرين والأنصار وبعضهم يزيد على بعض فى الكلام ، فجمعت ذلك وألفته على معنى حديثهم،وبجاز لفتهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج فى مرضه الذى قبض فيه ، متوكئاً على الفضل بن العباس رضى عنهما ، وغلام يقال له ثوبان رضى الله عنه ، ثم رجع صلى الله عليه وسلم فدخل منزله ، وقال لغلامه اجلس على الباب ولا تحجب أحداً من الأنصار رضى الله عنهم ، فأحدقوا بالباب ، وقالوا للغلام ائذن لنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : عنده نساؤه رضى الله تعالى عنهن ، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بكاءهم ، فقال من هؤلاء ؟ فقيل له الأنصار رضى الله عنهم يبكون، فخرج صلى الله عليه وسلم متوكئا على علىّ والعباس رضى الله عنهما فدخل المسجد واجتمع الناس إليه ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنه لم يمت نبى قط إلا خلف وراءه تركة وإن تركتى فيكم الأنصار رضى الله عنهم ، وهم كرشى[1] التى آوى إليها ، أوصيكم بتقوى الله تعالى ، والإحسان إليهم ، فقد علمتم أنهم شاطروكم[2] وواسوكم فى العسر واليسر نصروكم فى النشط والكسل ، فاعرفوا لهم حقهم ، واقبلوا من محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم .

ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منزله وهو معصوب الرأس شديد الوجع ، فلما كانت الصلاة أتى بلال المؤذن رضى الله عنه يدعو إلى الصلاة ، ففتح صلى الله عليه وسلم عينيه ، وقال للنساء : ادعون لى حبيبى ، فعرفت عائشة رضى الله عنها أنه يريد أبا بكر ، فقالت: أرسل إلى عمر ، فإن أبا بكر رجل رقيق ، وإن قام مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم افتضح من البكاء ، وعمر أقوى منه ، فأرسلت إلى عمر رضى الله عنه ، فأتى فسلم ، ففتح رسول الله صلى الله عليه وسلم عينيه ، فرد السلام، ثم أطرق عنه ، فعرف عمر أنه لم يرده ، فلما خرج أقبل صلى الله عليه وسلم عليهن وقال : ادعون لى حبيبى فقالت عائشة رضى الله عنها : يارسول الله ، إن أبا بكر رجل رقيق ، أمرت عمر يصلى بالناس ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنكن صواحبات يوسف عليه السلام ، ادعون لى حبيبى إنما أفعل ما أومر فدعى أبو بكر رضى الله تعالى عنه .

---

(١) الكرش هنا : الجماعة : أى هم جماعتى التى آوى وأسكن إليها .
(٢) شاطروكم . تقاسموا معكم أموالهم .

استخلاف أبى بكر رضى الله عنه فى الصلاة بالناس

فلما جاء قال له : اذهب مع المؤذن ، فصل بالناس ، فلم يزل أبو بكر رضى الله عنه يصلى بالناس حتى كان اليوم الذى مات فيه رسول الله وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين .

اختلاف الصحابة على موضع دفنه صلى الله عليه وسلم

فأتمروا فقال قائل يدفن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كان يصلى فى مقامه ، فقال أبو بكر رضى الله عنه. معاذ الله أن نجعله وثنا نعبده! وقال قائل: ندفنه صلى الله عليه وسلم فى البقيع ، حيث دفن إخوانه من المهاجرين والأنصار . فقال أبو بكر : إنا نكره أن نخرج قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين أظهرنا إلى البقيع،قالوا : فما ترى يا أبا بكر ؟ قال : سمعته صلى الله عليه وسلم يقول : ماقبض نبي قط إلا دفن جسده حيث قبض روحه . قالوا : فأنت والله رضا ومقنع[١] .

وكان العباس بن عبد المطلب رضى الله تعالى عنه قد لقى عليا كرم الله وجهه ، فقال : إن النبي صلى الله عليه وسلم يقبض ، فاسأله إن كان الأمر لنا بينه وإن كان لغيرنا أوصى بنا خيراً ،

محاولة العباس مبايعة الإمام على

فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم قال العباس لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه : أبسط يدك أبايعك ، فيقال : عم رسول الله بايع ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ،ويبايعك أهل بيتك ، فإن هذا الأمر إذا كان لم يقل[٢] ، فقال له على كرم الله وجهه : ومن يطلب هذا الأمر غيرنا ؟ وقد كان العباس رضى الله عنه لقى أبا بكر فقال : هل أوصاك رسول الله بشىء ؟ قال : لا . ولقى العباس أيضا عمر ، فقال له مثل ذلك . فقال عمر : لا . فقال العباس لعلى رضى الله عنه : ابسط يدك أبايعك ويبايعك أهل بيتك .

ذكر السقيفة وما جرى فيها من القول

وحدثنا ، قال : حدثنا ابن عفير عن أبى عون عن عبدالله بن عبد الرحمن الأنصارى رضى الله عنه . أن النبي عليه الصلاة والسلام لما قبض ، اجتمعت الأنصار رضى الله عنهم إلى سعد بن عبادة ، فقالوا له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قبض . فقال سعد لابنه قيس رضى الله عنهما : إنى لا أستطيع أن أسمع الناس كلاماً لمرضى ، ولكن تلق منى قولى فأسمعهم ، فكان سعد يتكلم ، ويحفظ ابنه رضى الله عنهما قوله ، فيرفع صوته ، لكى يسمع قومه ، فكان مما قال رضى الله عنه ، بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه : يا معشر الأنصار إن لكم سابقة فى

---

(١) أى أنت نرضى بحكمك ونقنع بكلامك .
(٢) أى إذا بويع بالخلافة لأحد لا يقال منها .

الدين وفضيلة فى الإسلام ليست لقبيلة من العرب ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبث فى قومه بضع عشرة سنة ، يدعوهم إلى عبادة الرحمن ، وخلع الأوثان ، فما آمن به من قومه إلا قليل ؛ والله ما كانوا يقدرون أن يمنعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يعرفوا دينه ، ولا يدفعوا عن أنفسهم ، حتى أراد الله تعالى لكم الفضيلة ، وساق إليكم الكرامة ، وخصكم بالنعمة ، ورزقكم الإيمان به وبرسوله صلى الله عليه وسلم ، والمنع له ولأصحابه والإعزاز لدينه ، والجهاد لأعدائه ، فكنتم أشد الناس على من تخلف عنه منكم ، وأثقله على عدوكم من غيركم ، حتى استقاموا لأمر الله تعالى طوعاً وكرهاً ، وأعطى البعيد القيادة[1] صاغراً داحراً حتى أثخن الله تعالى لنبيه بكم الأرض[2] ، ودانت بأسيافكم له العرب ، وتوفاه الله تعالى وهو راض عنكم قرير العين ، فشدوا أيديكم بهذا الأمر ، فإنكم أحق الناس وأولاهم به

فأجابوه جميعاً : أن قد وفقت فى الرأى ، وأصبت فى القول ، ولن نعدو ما رأيت توليتك هذا الأمر ، فأنت مقنع ولصالح المؤمنين رضا . قال فأتى الخبر إلى أبى بكر رضى الله عنه ، ففزع أشد الفزع ، وقام معه عمر رضى الله عنهما ، فخرجا مسرعين إلى سقيفة بنى ساعدة ، فلقيا أبا عبيدة بن الجراح رضى الله عنه فانطلقوا رضى الله عنهم جميعاً ، حتى دخلوا سقيفة بنى ساعدة ، وفيها رجال من الأشراف ، معهم سعد بن عبادة رضى الله عنه ، فأراد عمر رضى الله عنه أن يبدأ بالكلام ، وقال : خشيت أن يقصر أبو بكر رضى الله عنه عن بعض الكلام . فلما تيسر عمر للكلام ، تجهز أبو بكر رضى الله عنه وقال له : على رسلك ، فستكفى الكلام ، فتشهد أبو بكر رضى الله عنه ، وانتصب له الناس ، فقال : إن الله جل ثناؤه بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ، فدعا إلى الإسلام ، فأخذ الله تعالى بنواصينا[3] وقلوبنا إلى ما دعا إليه ، فكنا معشر المهاجرين أول الناس إسلاماً ، والناس لنا فيه تبع ، ونحن عشيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن مع ذلك أوسط العرب أنساباً ، ليست قبيلة من قبائل العرب إلا ولقريش فيها ولادة . وأنتم أيضاً والله الذين آووا ونصروا ، وأنتم وزراؤنا فى الدين ، ووزراء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنتم إخواننا فى كتاب الله تعالى وشركاؤنا فى دين الله عز وجل وفيما كنا فيه من سراء وضراء ، والله ما كنا فى خير قط إلا كنتم معنا فيه . فأنتم أحب الناس إلينا ، وأكرمهم علينا ، وأحق الناس بالرضا بقضاء الله تعالى ، والتسليم لأمر الله

---

(١) أعطى القيادة : خضع لحكم المسلمين وقيادتهم له .
(٢) أثخن بكم الأرض : غلب بكم أهل الأرض .
(٣) النواصى جمع ناصية وهى مقدم الرأس والمراد جذب الله عقولنا وقلوبنا إلى مادعا إليه .

عز وجل ولما ساق لكم ولإخوانكم المهاجرين رضى الله عنهم ، وهم أحق الناس فلا تحسدوهم ، وأنتم المؤثرون على أنفسهم حين الخصاصة ، والله ما زلتم مؤثرين إخوانكم من المهاجرين ، وأنتم أحق الناس ألا يكون هذا الأمر واختلافه على أيديكم ، وأبعد أن لا تحسدوا إخوانكم على خير ساقه الله تعالى إليهم ، وإنما أدعوكم إلى أبى عبيدة أو عمر ، وكلاهما قد رضيت لكم ولهذا الأمر ، وكلاهما له أهل . فقال عمر وأبو عبيدة رضى الله عنهما : ما ينبغى لأحد من الناس أن يكون فوقك يا أبا بكر أنت صاحب الغار ثانى اثنين ، وأمرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاة فأنت أحق الناس بهذا الأمر . فقال الأنصار : والله ما نحسدكم على خير ساقه الله إليكم ، وإنا لكما وصفت يا أبا بكر والحمد لله ، ولا أحد من خلق الله تعالى أحب إلينا منكم ، ولا أرضى عندنا ولا أيمن ولكنا نشفق مما بعد اليوم ، ونحذر أن يغلب على هذا الأمر من ليس منا ولا منكم ، فلو جعلتم اليوم رجلا منا ورجلا منكم بايعنا ورضينا ، على أنه إذا هلك اخترنا آخر من الأنصار فإذا هلك اخترنا آخر من المهاجرين أبداً ما بقيت هذه الأمة ، كان ذلك أجدر أن يعدل فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم وأن يكون بعضنا يتبع بعضاً ، فيشفق القرشى أن يزيغ فيقبض عليه الأنصارى ، ويشفق الأنصارى أن يزيغ فيقبض عليه القرشى . فقام أبو بكر ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال : إن الله تعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم رسولاً إلى خلقه ، وشهيداً على أمته ليعبدوا الله ويوحدوه وهم إذ ذاك يعبدون آلهة شتى ، يزعمون أنها لهم شافعة ، وعليهم بالنة نافعة ، وإنما كانت حجارة منحوتة ، وخشباً منجورة[1] ، فاقرءوا إن شئتم « إنكم وما تعبدون من دون الله » ، « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » ، وقالوا « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم ، فخص الله تعالى المهاجرين الأولين رضى الله عنهم بتصديقه ، والإيمان به ، والمواساة له والصبر معه على الشدة من قومهم ، وإذلالهم وتكذيبهم إياهم وكل الناس مخالف عليهم ، زار[2] لهم ، فلم يستوحشوا لقلة عددهم وإزراء الناس بهم واجتماع قومهم عليهم ، فهم أول من عبد الله فى الأرض ، وأول من آمن بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وهم أولياؤه وعشيرته ، وأحق الناس بالأمر من بعده لا ينازعهم فيه إلا ظالم ، وأنتم يا معشر الأنصار من لا ينكر فضلهم ولا النعمة العظيمة لهم فى الإسلام ، رضيكم الله تعالى أنصاراً لدينه ولرسوله ، وجعل إليكم مهاجرته

---

(١) منجورة : أى صنعها النجار .
(٢) زار : عائب عليهم محقر لهم .

فليس بعد المهاجرين الأولين أحد عندنا بمنزلتكم ، فنحن الأمراء ، وأنتم الوزراء ، لاتفتات [١] دونكم بمشورة ، ولا تنقضى دونكم الأمور .

فقام الحباب بن المنذر بن زيد بن حرام رضى الله عنه ، فقال : يا معشر الأنصار : املكوا عليكم أيديكم ، فإنما الناس فى فيئكم [٢] وظلالكم ، ولن يجير مجير [٣] على خلافكم ، ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم ، أنتم أهل العز والثروة وأولو العدد والنجدة ، وإنما ينظر الناس ماتصنعون ، فلا تختلفوا ، فيفسد عليكم رأيكم ، وتقطع أموركم . أنتم أهل الإيواء والنصرة ، وإليكم كانت الهجرة ، ولكم فى السابقين الأولين مثل ما لهم ، وأنتم أصحاب الدار والإيمان من قبلهم ، والله ما عبدوا الله علانية إلا فى بلادكم ، ولا جمعت الصلاة إلا فى مساجدكم ، ولا دانت العرب للإسلام إلا بأسيافكم ، فأنتم أعظم الناس نصيباً فى هذا الأمر ، وإن أبي القوم ، فمنا أمير ومنهم أمير . فقام عمر رضى الله عنه ، فقال : هيهات لا يجتمع سيفان فى غمد واحد ، إنه والله لا يرضى العرب أن تؤمركم ونبيها من غيركم ، ولكن العرب لاينبغى أن تولى هذا الأمر إلا من كانت النبوة فيهم ، وأولو الأمر منهم ، لنا بذلك على من خالفنا من العرب الحجة الظاهرة ، والسلطان المبين ، من ينازعنا سلطان محمد وميراثه ، ونحن أولياؤه وعشيرته ، إلا مدل بباطل ، أو متجانف [٤] لإثم ، أو متورط فى هلكة . فقام الحباب بن المنذر رضى الله عنه ، فقال : يا معشر الأنصار : املكوا على أيديكم ، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه ، فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر ، فإن أبوا عليكم ما سألتم فأجلوهم عن بلادكم ، وتولوا هذا الأمر عليهم ، فأنتم والله أولى بهذا الأمر منهم ، فإنه دان لهذا الأمر ما لم يكن يدين له بأسيافنا ، أما والله إن شئتم لنعيدنها جذعة [٥] ، والله لا يرد على أحد ما أقول إلا حطمت أنفه بالسيف . قال عمر بن الخطاب : فلما كان الحباب هو الذى يجيبنى ، لم يكن لى معه كلام ، لأنه كان بينى وبينه منازعة فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنهانى عنه ، فحلفت أن لا أكلمه كلمة تسوؤه أبداً . ثم قام أبو عبيدة ، فقال : يامعشر الأنصار أنتم أول من نصر وآوى ، فلا تكونوا أول من يبدل ويغير .

---

(١) افتات عليه : طغى على حقه واستأثر به .

(٢) الفىء : الظل .

(٣) أجار فلان على فلان ، أى نقض حكمه وخالفه .

(٤) متجانف : مائل ومرتكب للإثم .

(٥) نعيدنها جذعة : نعيد الحرب بيننا وبينكم قوية .

مخالفة بشير بن سعد ، ونقضه لعهدهم

قال : وإن بشيراً لما رأى ما اتفق عليه قومه من تأمير سعد بن عبادة ، قام حسداً لسعد ، وكان بشير من سادات الخزرج ، فقال : يا معشر الأنصار ، أما والله لئن كنا أولى الفضيلة فى جهاد المشركين ، والسابقة فى الدين ، ما أردنا إن شاء الله غير رضا ربنا ، وطاعة نبينا ، والكرم لأنفسنا ، وما ينبغى أن نستطيل بذلك على الناس ، ولا نبتغى به عوضاً من الدنيا فإن الله تعالى ولى النعمة والمنة علينا بذلك . ثم إن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من قريش ، وقومه أحق بميراثه ، وتولى سلطانه ، وأيم الله لا يرانى الله أنازعهم هذا الأمر أبداً فاتقوا الله ولا تنازعوهم ولا تخالفوهم .

بيعة أبى بكر الصديق رضى الله عنه

قال : ثم إن أبا بكر قام على الأنصار ، فحمد الله تعالى ، وأثنى عليه ، ثم دعاهم إلى الجماعة ، ونهاهم عن الفرقة ، وقال : إنى ناصح لكم فى أحد هذين الرجلين : أبى عبيدة بن الجراح ، أو عمر فبايعوا من شئتم منهما ، فقال عمر : معاذ الله أن يكون ذلك وأنت بين أظهرنا ، أنت أحقنا بهذا الأمر ، وأقدمنا صحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأفضل منا فى المال ، وأنت أفضل المهاجرين وثانى اثنين ، وخليفته على الصلاة ، والصلاة أفضل أركان دين الإسلام ، فمن ذا ينبغى أن يتقدمك ، ويتولى هذا الأمر عليك ؟ أبسط يدك أبايعك . فلما ذهبا يبايعانه سبقهما إليه بشير الأنصارى فبايعه،فناداه الحباب بن المنذر :يابشير بن سعد ، عُقَّتْك [1] عُقاقُ ما اضطرك إلى ما صنعت ؟ حسدت ابن عمك على الإمارة ؟ قال لا والله ، ولكنى كرهت أن أنازع قوما حقا لهم . فلما رأت الأوس ما صنع قيس [2] بن سعد وهو من سادات الخزرج ، ومادعوا إليه المهاجرين من قريش ، وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة ، قال بعضهم لبعض وفيهم أسيد بن حضير رضى الله عنه : لئن وليتموها سعدا عليكم مرة واحدة ، لا زالت لهم بذلك عليكم الفضيلة ، ولا جعلوا لكم نصيباً فيها أبدا ، فقوموا فبايعوا أبا بكر رضى الله عنه ، فقاموا إليه فبايعوه ؟ فقام الحباب بن المنذر إلى سيفه فأخذه ، فبادروا إليه فأخذوا سيفه

---

(١) عقتك : خالفتك لنا ، عقاق : مر لأن العقاق هو المر .
(٢) ورد الاسم هنا قيس بن سعد وقبل ذلك بشير بن سعد ، والصحيح الأول .

منه ، فجعل يضرب بثوبه وجوههم ، حتى فرغوا من البيعة ، فقال فعلتموها يا معشر الأنصار ، أما والله لكأنى بأبنائكم على أبواب أبنائهم ، قد وقفوا يسألونهم بأكفهم ولا يسقون الماء . قال أبو بكر : أمنا تخاف يا حباب ؟ قال : ليس منك أخاف ، ولكن ممن يجيء بعدك . قال أبو بكر : فإذا كان ذلك كذلك ، فالأمر إليك وإلى أصحابك ، ليس لنا عليكم طاعة ، قال الحباب : هيهات يا أبا بكر ، إذا ذهبت أنا وأنت ، جاءنا بعدك من يسومنا الضيم .

تخلف سعد بن عبادة رضى الله عنه عن البيعة

فقال سعد بن عبادة : أما والله لو أن لى ما أقدر به على النهوض ، لسمعتم منى فى أقطارها زئيراً يخرجك أنت وأصحابك ، ولألحقتك بقوم كنت فيهم تابعاً غير متبوع ، خاملا غير عزيز ، فبايعه الناس جميعاً ، حتى كادوا يطئون سعداً . فقال سعد : قتلتمونى . فقيل : اقتلوه قتله الله فقال سعد : احملونى من هذا المكان ، فحملوه فأدخلوه داره وترك أياما ، ثم بعث إليه أبو بكر رضى الله عنه : أن أقبل فبايع ، فقد بايع الناس ، وبايع قومك ، فقال : أما والله حتى أرميكم بكل سهم فى كنانتى من نبل ، وأخضب[1] منكم سنانى ورمحى ، وأضربكم بسيفى ما ملكته يدى ، وأقاتلكم بمن معى من أهلى وعشيرتى ، ولا والله لو أن الجن اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتكم حتى أعرض على ربى ، وأعلم حسابى . فلما أتى بذلك أبو بكر من قوله ، قال عمر : لا تدعه حتى يبايعك ، فقال لهم بشير بن سعد : إنه قد أبى ولج ، وليس يبايعك حتى يقتل ، وليس بمقتول حتى يقتل ولده معه ، وأهل بيته وعشيرته ، ولن تقتلوهم حتى تقتل الخزرج ، ولن تقتل الخزرج حتى تقتل الأوس ، فلا تفسدوا على أنفسكم أمراً قد استقام لكم ، فاتركوه فليس تركه بضاركم ، وإنما هو رجل واحد ، فتركوه وقبلوا مشورة بشير بن سعد ، واستنصحوه[2] لما بدا لهم منه . فكان سعد لا يصلى بصلاتهم ، ولا يجمع[3] بجمعتهم ، ولا يفيض[4] بإفاضتهم ، ولو يجد عليهم أعواناً لصال بهم ، ولو بايعه أحد على قتالهم لقاتلهم ، فلم يزل كذلك حتى توفى أبوبكر رحمه الله ، وولى عمر بن الخطاب ، فخرج إلى الشام ، فمات بها ، ولم يبايع لأحد ، رحمه الله . وإن بنى هاشم اجتمعت عند بيعة الأنصار إلى

---

(١) أخضب : الخضاب الحناء . والمراد حتى أسيل دمكم على سنانى ورمحى .
(٢) استنصحوه : وجدوه ناصحاً لهم عاملا لخيرهم .
(٣) أى لا يصلى الجمعة معهم .
(٤) أى لا يمشى معهم فى الحج .

على ابن أبى طالب ، ومعهم الزبير بن العوام رضى الله عنه ، وكانت أمه صفية بنت عبد المطلب ، وإنما كان يعد نفسه من بنى هاشم ، وكان على كرم الله وجهه يقول : ما زال الزبير منا حتى نشأ بنوه ، فصرفوه عنا ، واجتمعت بنو أمية إلى عثمان ، واجتمعت بنو زهرة إلى سعد وعبد الرحمن بن عوف ، فكانوا فى المسجد الشريف مجتمعين ، فلما أقبل عليهم أبو بكر وأبو عبيدة وقد بايع الناس أبا بكر قال لهم عمر : مالى أراكم مجتمعين حلقا شتى[1] ، قوموا فبايعوا أبا بكر ، فقد بايعته وبايعه الأنصار ، فقام عثمان بن عفان ومن معه من بنى أمية فبايعوه ، وقام سعد وعبد الرحمن بن عوف ومن معهما من بنى زهرة فبايعوا . وأما على والعباس بن عبد المطلب ومن معهما من بنى هاشم فانصرفوا إلى رحالهم ومعهم الزبير بن العوام ، فذهب إليهم عمر فى عصابة فيهم أسيد بن حضير وسلمة بن أسلم ، فقالوا : انطلقوا فبايعوا أبا بكر ، فأبوا ، فخرج الزبير بن العوام رضى الله عنه بالسيف ، فقال عمر رضى الله عنه : عليكم بالرجل فخذوه فوثب عليه سلمة بن أسلم ، فأخذ السيف من يده ؛ فضرب به الجدار ، وانطلقوا به فبايع وذهب بنو هاشم أيضاً فبايعوا .

إباية على كرم الله وجهه بيعة أبى بكر رضى الله عنهما

ثم إن عليا كرّم الله وجهه أتى به إلى أبى بكر وهو يقول : أنا عبد الله وأخو رسوله ، فقيل له بايع أبا بكر ، فقال : أنا أحقّ بهذا الأمر منكم ، لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لى ، أخذتم هذا الأمر من الأنصار ، واحتججتم عليهم بالقرابة من النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وتأخذونه منا أهل البيت غصبا ؟ ألستم زعمتم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم لما كان محمد منكم ، فأعطوكم المقادة ، وسلموا إليكم الإمارة ، وأنا احتجّ عليكمّ بمثل ما احتججتم به على الأنصار نحن أولى برسول الله حيا وميتا فأنصفونا إن كنتم تؤمنون وإلا فبوءوا بالظلم وأنتم تعلمون . فقال له عمر : إنك لست متروكا حتى تبايع ، فقال له علىّ : احلب حلبا لك شطره[2] ، واشدد له اليوم أمره يردده عليك غداً . ثم قال : والله يا عمر لا أقبل قولك ولا أبايعه . فقال له أبو بكر : فإن لم تبايع فلا أكرهك ، فقال أبو عبيدة بن الجراح لعلىّ كرّم الله وجهه : يابن عمّ إنك حديث السنّ وهؤلاء مشيخة قومك ، ليس لك مثل تجربتهم ، ومعرفتهم بالأمور ، ولا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر منك ، وأشد احتمالا واضطلاعا

---

(١) حلق : جمع حلقة وهو القوم المجتمعون المستديرون فى اجتماعهم كالحلقة

(٢) أى أفعل فعلا يكون لك منه نصيب فانت تبايعه اليوم ليبايعك غداً .

به ، فسلم لأبى بكر هذا الأمر ، فإنك إن تعش ويطل بك بقاء ، فأنت لهذا الأمر خليق وبه حقيق ، فى فضلك ودينك ، وعلمك وفهمك ، وسابقتك ونسبك وصهرك . فقال علىّ كرّم الله وجهه : الله الله يا معشر المهاجرين ، لا تخرجوا سلطان محمد فى العرب عن داره وقعر بيته ، إلى دوركم وقعور بيوتكم ، ولا تدفعوا أهله عن مقامه فى الناس وحقه ، فوالله يا معشر المهاجرين ، لنحن أحق الناس به ـ لأنا أهل البيت ، ونحن أحق بهذا الأمر منكم ما كان فينا القارئ لكتاب الله ، الفقيه فى دين الله ، العالم بسنن رسول الله ، المضطلع بأمر الرعية ، المدافع عنهم الأمور السيئة ، القاسم بينهم بالسوية ، والله إنه لفينا ، فلا تتبعوا الهوى فتضلوا عن سبيل الله ، فتزدادوا من الحق بعدا . فقال بشير بن سعد الأنصارى : لو كان هذا الكلام سمعته الأنصار منك يا علىّ قبل بيعتها لأبى بكر ، ما اختلف عليك اثنان . قال : وخرج علىّ كرّم الله وجهه يحمل فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم على دابة ليلا فى مجالس الأنصار تسألهم النصرة ، فكانوا يقولون : يا بنت رسول الله ، قد مضت بيعتنا لهذا الرجل ولو أن زوجك وابن عمك سبق إلينا قبل أبى بكر ما عدلنا به ، فيقول علىّ كرّم الله وجهه أفكنت أدع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته لم أدفنه ، وأخرج أنازع الناس سلطانه ؟ فقالت فاطمة : ما صنع أبو الحسن إلا ما كان ينبغى له ، ولقد صنعوا ما لله حسيبهم وطالبهم .

كيف كانت بيعة على بن أبى طالب كرم الله وجهه

قال . وإن أبا بكر رضى الله عنه تفقد قوما تخلفوا عن بيعته عند على كرم الله وجهه ، فبعث إليهم عمر ، فجاء فناداهم وهم فى دار على ، فأبوا أن يخرجوا فدعا بالحطب وقال : والذى نفس عمر بيده . لتخرجن أو لأحرقنها على من فيها ، فقيل له يا أبا حفص . إن فيها فاطمة ؟ فقال وإن ، فخرجوا فبايعوا إلا عليا فإنه زعم أنه قال : حلفت أن لا أخرج ولا أضع ثوبى على عاتقى حتى أجمع القرآن ، فوقفت فاطمة رضى الله عنها على بابها ، فقالت : لاعهد لى بقوم حضروا أسوأ محضر منكم ، تركتم رسول الله صلى الله عليه وسلم جنازة بين أيدينا ، وقطعتم أمركم بينكم ، لم تستأمرونا ، ولم تردوا لنا حقا . فأتى عمر أبا بكر ، فقال له : ألا تأخذ هذا المتخلف عنك بالبيعة ؟ فقال أبو بكر لقنفد وهو مولى له : اذهب فادع لى عليا ، قال فذهب إلى على فقال له : ما حاجتك ؟ فقال يدعوك خليفة رسول الله ، فقال على : لسريع ما كذبتم على رسول الله . فرجع فأبلغ الرسالة ، قال : فبكى أبوبكر طويلا . فقال عمر الثانية : لا تمهل هذا المتخلف عنك بالبيعة ، فقال أبو بكر رضى الله عنه لقنفد : عد إليه ، فقل له : خليفة رسول الله يدعوك لتبايع ، فجاءه قنفد ، فأدى ما أمر به ، فرفع على صوته فقال سبحان الله ؟ لقد ادعى

ما لبس له ، فرجع قنفذ ، فأبلغ الرسالة ، فبكى أبوبكر طويلا ، ثم قام عمر ، فمشى معه جماعة ، حتى أتوا باب فاطمة ، فدقوا الباب ، فلما سمعت أصواتهم نادت بأعلى صوتها : يا أبت يارسول الله ، ماذا لقينا بعدك من ابن الخطاب وابن أبي قحافة ، فلما سمع القوم صوتها وبكاءها ، انصرفوا باكين ، وكادت قلوبهم تنصدع ، وأكبادهم تنفطر ، وبقي عمر ومعه قوم ، فأخرجوا عليا ، فمضوا به إلى أبي بكر ، فقالوا له : بايع ، فقال : إن أنا لم أفعل فمه ؟ قالوا : إذاً والله الذي لا إله إلا هو نضرب عنقك ، فقال : إذاً تقتلون عبد الله وأخا رسوله ، قال عمر : أما عبد الله فنعم ، وأما أخو رسوله فلا ، وأبو بكر ساكت لا يتكلم ، فقال له عمر : ألا تأمر فيه بأمرك ؟ فقال : لا أكرهه على شيء ما كانت فاطمة إلى جنبه ، فلحق على بقبر رسول الله صلى الله عليه وسلم يصيح ويبكي ، وينادي : يابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني . فقال عمر لأبي بكر ، رضي الله عنهما : انطلق بنا إلى فاطمة ، فإنا قد أغضبناها ، فانطلقا جميعاً ، فاستأذنا على فاطمة ، فلم تأذن لهما ، فأتيا علياً فكلماه ، فأدخلهما عليها ، فلما قعدا عندها ، حولت وجهها إلى الحائط ، فسلما عليها ، فلم ترد عليهما السلام ، فتكلم أبو بكر فقال : ياحبيبة رسول الله والله إن قرابة رسول الله أحب إلى من قرابتي ، وإنك لأحب إلى من عائشة ابنتي ، ولوددت يوم مات أبوك أني مت ، ولا أبقى بعده ، أفتراني أعرفك وأعرف فضلك وشرفك وأمنعك حقك وميراثك من رسول الله إلا أني سمعت أباك رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا نورث ، ما تركنا فهو صدقة ، فقالت : أرأيتكما إن حدثتكما حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تعرفانه وتفعلان به ؟ قالا : نعم . فقالت : نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله يقول : رضا فاطمة من رضاى ، وسخط فاطمة من سخطى ، فمن أحب فاطمة ابنتي فقد أحبنى ، ومن أرضى فاطمة فقد أرضانى ، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطنى ؟ قالا نعم سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ قالت : فإني أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتمانى وما أرضيتمانى ، ولئن لقيت النبي لأشكونكما إليه ، فقال أبو بكر أنا عائذ بالله تعالى من سخطه وسخطك يافاطمة ؛ ثم انتحب أبو بكر يبكي ، حتى كادت نفسه أن تزهق ، وهي تقول : والله لأدعون الله عليك في كل صلاة أصليها ، ثم خرج باكياً فاجتمع إليه الناس ، فقال لهم : يبيت كل رجل منكم معانقاً حليلته ، مسروراً بأهله ، وتركتموني وما أنا فيه ، لا حاجة لي في بيعتكم ، أقيلوني بيعتي . قالوا : ياخليفة رسول الله ، إن هذا الأمر لا يستقيم ، وأنت أعلمنا بذلك ، إنه إن كان هذا لم يقم لله دين ، فقال : والله لولا ذلك وما أخافه من رخاوة هذه العروة مابت ليلة ولي في عنق مسلم بيعة ، بعد ما سمعت ورأيت من فاطمة . قال : فلم يبايع على كرم الله وجهه حتى ماتت فاطمة رضي الله عنهما ، ولم تمكث بعد أبيها إلا خمساً وسبعين ليلة . قال : فلما توفيت أرسل على إلى أبي بكر : أن أقبل إلينا ، فأقبل

أبو بكر حتى دخل على علي وعنده بنو هاشم فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد يا أبا بكر : فإنه لم يمنعنا أن نبايعك إنكار لفضيلتك ، ولا نفاسة عليك ، ولكنا كنا نرى أن لنا فى هذا الأمر حقا ، فاستبددت علينا ، ثم ذكر على قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يزل يذكر ذلك حتى بكى أبو بكر . فقال أبو بكر رضى الله عنه : لقرابة رسول الله أحب إلى من قرابتى ، وإنى والله لا أدع أمراً رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعته إن شاء الله تعالى . فقال على : موعدك غداً فى المسجد الجامع للبيعة إن شاء الله . ثم خرج فأتى المغيرة بن شعبة ، فقال : الرأى يا أبا بكر أن تلقوا العباس ، فتجعلوا له فى هذه الإمرة نصيباً ؛ يكون له ولعقبه ، وتكون لكما الحجة على علي وبنى هاشم ، إذا كان العباس معكم . قال : فانطلق أبو بكر وعمر وأبو عبيدة والمغيرة حتى دخلوا على العباس رضى الله عنه . فحمد الله أبو بكر ، وأثنى عليه ، ثم قال : إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم نبياً وللمؤمنين ولياً ، فمن الله تعالى بمقامه بين أظهرنا ، حتى اختار له الله ما عنده ، فخلى على الناس أمرهم ، ليختاروا لأنفسهم فى مصلحتهم ، متفقين غير مختلفين ، فاختارونى عليهم والياً ، ولأمورهم راعياً ، وما أخاف بعون الله وهنا ولا حيرة ولا جبناً ، وما توفيقى إلا بالله العلى العظيم ، عليه توكلت وإليه أنيب . وما أزال يبلغنى عن طاعن يطعن بخلاف ما اجتمعت عليه عامة المسلمين ، ويتخذكم لجأ ، فتكونون حصنه المنيع ، فإما دخلتم فيما دخل فيه العامة ، أو دفعتموهم عما مالوا إليه ، وقد جئناك ونحن نريد أن نجعل لك فى هذا الأمر نصيباً ، يكون لك ولعقبك من بعدك ، إذ كنت عم رسول الله ، وإن كان الناس قد رأوا مكانك ومكان أصحابك ، فعدلوا الأمر عنكم وعلى رسلكم بنى عبد المطلب ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم منا ومنكم ، ثم قال عمر : إى والله ، وأخرى أنا لم نأتكم حاجة منا إليكم ، ولكنا كرهنا أن يكون الطعن منكم فيما اجتمع عليه العامة ، فيتفاقم الخطب بكم وبهم ، فانظروا لأنفسكم ولعامتكم . فتكلم العباس ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : إن الله بعث محمداً كما زعمت نبياً ، وللمؤمنين ولياً ، فمن الله بمقامه بين أظهرنا حتى اختار له ما عنده ، فخلى على الناس أمرهم ليختاروا لأنفسهم ، مصيبين للحق ، لا مائلين عنه بزيغ الهوى ، فإن كنت برسول الله طلبت فحقنا أخذت ، وإن كنت بالمؤمنين طلبت فنحن منهم متقدمون فيهم ، وإن كان هذا الأمر إنما يجب لك بالمؤمنين فما وجب إذ كنا كارهين ؛ فأما ما بذلت لنا فإن يكن حقاً لك فلا حاجة لنا فيه وإن يكن حقاً للمؤمنين فليس لك أن تحكم عليهم وإن كان حقنا لم نرض عنك فيه ببعض دون بعض . وأما قولك إن رسول الله منا ومنكم ، فإنه قد كان من شجرة نحن أغصانها ، وأنتم جيرانها . قال : ثم خرج أبو بكر إلى المسجد الشريف ، فأقبل على الناس ، فعذر علياً بمثل ما اعتذر عنه ، ثم قام على فعظم حق أبى بكر ، وذكر فضيلته

وسابقته ، ثم مضى فبايعه ، فأقبل الناس على علىّ ، فقالوا : أصبت يا أبا الحسن وأحسنت .
قال: فلما تمت البيعة لأبى بكر أقام ثلاثة أيام يقيل الناس ويستقيلهم ، يقول قد أقلتكم فى بيعتى، هل من كاره؟ هل من مبغض؟ فيقوم علىّ فى أول الناس فيقول: والله لا نقيلك ولا نستقيلك أبداً، قد قدمك رسول الله صلى الله عليه وسلم لتوحيد ديننا ، من ذا الذى يؤخرك لتوجيه دنيانا ؟ .

خطبة أبى بكر الصديق رضى الله عنه

قال : ثم إن أبا بكر قام خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال : أيها الناس،إن الله الجليل الكريم العليم الحكيم الرحيم الحليم ، بعث محمداً بالحق ، وأنتم معشر العرب كما قد علمتم ، من الضلالة والفرقة ، ألف بين قلوبكم ونصركم به وأيدكم ، ومكن لكم دينكم ، وأورثكم سيرته الراشدة المهدية ، فعليكم بحسن الهدى ولزوم الطاعة ، وقد استخلف الله عليكم خليفة ليجمع به ألفتكم ، ويقيم به كلمتكم،فأعينونى على ذلك بخير،ولم أكن لأبسطيداً ولا لساناً على من لم يستحل ذلك إن شاء الله ، وايم الله ما حرصت عليها ليلا ولا نهاراً ولا سألتها الله قط فى سر ولا علانية ، ولقد قلدت أمراً عظيما ، مالى به طاقة ولايد، ولوددت أنى وجدت أقوى الناس عليه مكانى ، فأطيعونى ما أطعت الله ، فإذا عصيت فلا طاعة لى عليكم ، ثم بكى وقال : اعلموا أيها الناس أنى لم أجعل لهذا المكان أن أكون خيركم ، ولوددت أن بعضكم كفانيه ، ولئن أخذتمونى بما كان الله يقيم به رسوله من الوحى ماكان ذلك عندى ، وما أنا إلا كأحدكم ، فإذا رأيتمونى قد استقمت فاتبعونى ، وإن زغت فقومونى ، واعلموا أن لى شيطاناً يعترينى أحياناً ، فإذا رأيتمونى غضبت فاجتنبونى ، لا أؤثر فى أشعاركم وأبشاركم ، ثم نزل .
ثم دعا عمر الأوجاه[1] من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما ترون لى من هذا المال ؟ فقال عمر : أنا والله أخبرك مالك منه . أما ما كان لك من ولد قد بان عنك وملك أمره ، فسهمه كرجل من المسلمين ، وأما ما كان من عيالك وضعفة أهلك، فتقوت منه بالمعروف وقوت أهلك . فقال : ياعمر إنى لأخشى ألا يحل لى أن أطعم عيالى من فىء المسلمين . فقال عمر : يا خليفة رسول الله ، إنك قد شغلت بهذا الأمر عن أن تكسب لعيالك . قال : ولما تمت البيعة لأبى بكر ، واستقام له الأمر، اشرأب النفاق بالمدينة ، وارتدت العرب،فنصب لهم أبو بكر الحرب ، وأراد قتالهم ، فقالوا: نصلى ولا نؤدى الزكاة . فقال الناس: اقبل منهم ياخليفة رسول الله ، فإن العهد حديث ، والعرب كثير ، ونحن شرذمة قليلون ، لاطاقة لنا بالعرب ، مع أنه

---

(١) الأوجاه جمع وجه وهو ذو الفضل والكرامة .

قد سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله » . فقال أبو بكر : هذا من حقها ، لابد من القتال . فقال الناس لعمر . اخل به فكلمه لعله يرجع عن رأيه هذا ، فيقبل منهم الصلاة ، ويعفيهم من الزكاة ؟ فخلا به عمر نهاره أجمع ، فقال : والله لو منعونى عقالا(١) كانو يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه ، ولو لم أجد أحداً أقاتلهم به لقاتلتهم وحدى ، حتى يحكم الله بينى وبينهم ، وهو خير الحاكمين ، وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أمرت أن أقاتل الناس على ثلاث : شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة » فوالله الذى لا إله إلا هو لا أقصر دونهن ، فضرب منهم من أدبر بمن أقبل ، حتى دخل الناس فى الإسلام طوعاً وكرهاً . وحمدوا رأيه ، وعرفوا فضله .

قال أبو رجاء العطاردى : رأيت الناس مجتمعين وعمر يقبل رأس أبى بكر ويقول : أنا فداؤك ، لولا أنت لهلكنا . فحمد له رأيه فى قتال أهل الردة .

مرض أبى بكر واستخلافة عمر رضى الله عنهما

قال : ثم إن أبا بكر عمل سنتين وشهوراً ، ثم مرض مرضه الذى مات فيه ، فدخل عليه أناس من أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام ، فيهم عبد الرحمن ابن عوف ، فقال له : كيف أصبحت ياخليفة رسول الله ، فإنى أرجو أن تكون بارئاً ؟ قال : أرى ذلك ؟ قال : نعم قال أبو بكر : والله إنى لشديد الوجع ، ولما ألقى منكم يامعشر المهاجرين أشد على من وجعى ، إنى وليت أمركم خيركم فى نفسى ، فكلكم ورم أنفه(٢) إرادة أن يكون هذا الأمر له . وذلك لما رأيتم الدنيا قد أقبلت . أما والله لتتخذن نضائد(٣) الديباج ، وستور الحرير ، ولتألمن النوم على الصوف الأذربى(٤) ، كما يألم أحدكم النوم على حسك السعدان(٥) ، والله لأن يقدم أحدكم

---

(١) العقال : زكاة عام من الإبل والغنم ، وفى رواية عناقا بدل عقال ، والعناق أنثى المعز والمراد بهذه الرواية لو منعونى شيئاً قليلا لقاتلتهم .

(٢) ورم أنفه : غضب .

(٣) نضائد : جمع نضيدة وهى الوسادة والديباج : المنقوش المزين .

(٤) الأذربى : نسبة إلى أذربيجان من بلاد العجم ، وصوفها مشهور بجودته ونعومته .

(٥) حسك السعدان : الحسك نبات له ورق كورق الرجلة له شوك صلب ذو ثلاث شعب ملتصق بعضه ، والسعدان مكان ، والسعدان نبات له شوك تشبه الواحدة منه حلمة الثدى ، والمراد كما تألمون النوم على الشوك الصلب .

فضرب عنقه فى غير حدث خير له من أن يخوض غمرات الدنيا. فقال له عبد الرحمن بن عوف : خفض عليك من هذا يرحمك الله ، فإن هذا يهيضك[١] على مابك ، وإنما الناس رجلان : رجل رضى ماصنعت ، فرأيه كرأيك ، ورجل كره ماصنعت ، فأشار عليك برأيه ، ما رأينا من صاحبك[٢] الذى وليت إلا خيراً ، وما زلت صالحاً مصلحاً ، ولا أراك تأسى على شىء من الدنيا فاتك. قال: أجل، والله ما آسى إلا على ثلاث فعلتهن، ليتنى كنت تركتهن، وثلاث تركتهن ليتنى فعلتهن، وثلاث ليتنى سألت رسول الله عنهن، فأما اللاتى فعلتهن وليتنى لم أفعلهن، فليتنى تركت بيت على وإن كان أعلن على الحرب ، وليتنى يوم سقيفة بنى ساعدة كنت ضربت على يد أحد الرجلين أبى عبيدة أو عمر فكان هو الأمير وكنت أنا الوزير، وليتنى حين أتيت بذى الفجاءة السلمى أسيراً أنى قتلته ذبيحا أو أطلقته نجيحاً، ولم أكن أحرقته بالنار. وأما اللاتى تركتهن وليتنى كنت فعلتهن، ليتنى حين أتيت بالأشعث بن قيس أسيراً أنى قتلته ولم أستحيه، فإنى سمعت منه، وأراه لا يرى غياً ولا شراً إلا أعان عليه ، وليتنى حين بعثت خالد بن الوليد إلى الشام ، أنى كنت بعثت عمر بن الخطاب إلى العراق ، فأكون قد بسطت يدى جميعاً فى سبيل الله : وأما اللاتى كنت أود أنى سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهن ، فليتنى سألته لمن هذا الأمر من بعده؟ فلا ينازعه فيه أحد ، وليتنى كنت سألته : هل للأنصار فيها من حق ؟ وليتنى كنت سألته عن ميراث بنت الأخ والعمة ، وإن فى نفسى من ذلك شيئاً .

ثم دخل عليه أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : ياخليفة رسول الله ، ألا ندعو لك طبيباً ينظر إليك ؟ فقال : قد نظر إلى[٣]. قالوا : فماذا قال ؟ قال : إنى فعال لما أريد . ثم قال لهم : انظروا ماذا أنفقت من بيت المال ، فنظروا فإذا هو ثمانية آلاف درهم ، فأوصى أهله أن يؤدوها إلى الخليفة بعده. ثم دعا عثمان بن عفان فقال : اكتب عهدى ، فكتب عثمان وأملى عليه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عهد به أبو بكر بن أبى قحافة آخر عهده فى الدنيا نازحا عنها ، وأول عهده بالآخرة داخلا فيها : إنى استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ، فإن تروه عدل فيكم ، فذلك ظنى به ورجائى فيه ، وإن بدل وغير فالخير أردت ، ولا أعلم الغيب ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون . ثم ختم الكتاب ودفعه ، فدخل عليه المهاجرون والأنصار حين

---

(١) يهيضك : يضعفك .
(٢) يريد عمر رضى الله عنه .
(٣) يريد أن الله هو الطبيب وقد نظر إليه .

بلغهم أنه استخلف عمر ، فقالوا : نراك استخلفت علينا عمر ، وقد عرفته ، وعلمت بوائقه فينا وأنت بين أظهرنا ، فكيف إذا وليت عنا وأنت لاق الله عز وجل فسائلك ، فما أنت قائل؟ فقال أبو بكر : لئن سألنى الله لأقولن : استخلفت عليهم خيرهم فى نفسى . قال : ثم أمر أن تجتمع له الناس ، فاجتمعوا ، فقال : أيها الناس قد حضرنى من قضاء الله ما ترون ، وإنه لا بد لكم من رجل يلى أمركم ، ويصلى بكم ، ويقاتل عدوكم ، فيأمركم ، فإن شئتم اجتهدت لكم رأيى ، ووالله الذى لا إله إلا هو لا آلوكم فى نفسى خيرا ، قال : فبكى وبكى الناس ، وقالوا : ياخليفة رسول الله . أنت خيرنا وأعلمنا ، فاختر لنا ، قال : سأجتهد لكم رأيى ، واختار لكم خيركم إن شاء الله ، قال : فخرجوا من عنده ، ثم أرسل إلى عمر فقال : يا عمر ، أحبك محب ، وأبغضك مبغض ، وقدماً يحب الشر ، ويبغض الخير . فقال عمر : لا حاجة لى بها ، فقال أبو بكر : لكن بها إليك حاجة ، والله ما حبوتك بها ، ولكن حبوتها بك . ثم قال : خذ هذا الكتاب واخرج به إلى الناس ، واخبرهم أنه عهدى ، وسلهم عن سمعهم وطاعتهم . فخرج عمر بالكتاب وأعلمهم ، فقالوا : سمعاً وطاعة ، فقال له رجل : ما فى الكتاب يا أبا حفص ؟ قال : لا أدرى ، ولكنى أول من سمع وأطاع . قال : لكنى والله أدرى ما فيه : أمرته عام أول ، وأمرك العام .

ولاية عمر بن الخطاب رضى الله عنه

قال : ولما توفى أبو بكر وولى عمر وقعد فى المسجد مقعد الخلافة، أتاه رجل، فقال : يا أمير المؤمنين ، أدنو منك فإن لى حاجة ؟ قال عمر : لا . قال . الرجل : إذاً أذهب فيغنينى الله عنك، فولى ذاهباً ، فاتبعه عمر ببصره ، ثم قام فأخذه بثوبه ، فقال له : ما حاجتك ؟ فقال الرجل : بغضك الناس ، وكرهك الناس ، قال عمر : ولم ويحك ؟ قال الرجل : للسانك وعصاك ، قال : فرفع عمر يديه ، فقال : اللهم حببهم إلى وحببنى إليهم . قال الرجل : فما وضع يديه حتى ما على الأرض أحب إلى منه .

وكان أهل الشام قد بلغهم مرض أبى بكر ،واستبطئوا الخبر، فقالوا : إنا لنخاف أن يكون خليفة رسول الله قد مات وولى بعده عمر ، فإن كان عمر هو الوالى فليس لنا بصاحب ، وإنا نرى خلعه . قال بعضهم : فابعثوا رجلا ترضون عقله ، قال : فانتخبوا لذلك رجلا ، فقدم على عمر ، وقد كان عمر استبطأ خبر أهل الشام ، فلما أتاه قال له : كيف الناس ؟ قال : سالمون صالحون ، وهم كارهون لولايتك ، ومن شرك مشفقون[1] ، فأرسلونى أنظر : أحلو أنت أم مر ؟ قال : فرفع عمر يديه إلى السماء وقال : اللهم حببنى إلى الناس ، وحببهم إلى .

---

(١) مشفقون : خائفون .

قال : فعمل عمر عشر سنين بعد أبي بكر ، فوالله ما فارق الدنيا حتى أحب ولايته من كرهها . لقد كانت إمارته فتحاً ، وإسلامه عزاً ونصراً ، اتبع في عمله سنة صاحبيه وآثارهما ، كما يتبع الفصيل أثر أمه ، ثم اختار الله له ما عنده .

قتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه

قال عمرو بن ميمون : شهدت عمر بن الخطاب يوم طعن ، فما منعني أن أكون في الصف الأول إلا هيبته ، فكنت في الصف الذي يليه ، وكان عمر لا يكبر حتى يستقبل الصف المتقدم بوجهه ، فإن رأى رجلاً متقدماً من الصف أو متأخراً ضربه بالدرة ، فذلك الذي منعني من التقدم . قال : فأقبل لصلاة الصبح ، وكان يغلس بها[1] ، فعرض له أبو لؤلؤة غلام المغيرة ابن شعبة ، فطعنه ثلاث طعنات ، فسمعت عمر وهو يقول : دونكم الكلب ، فإنه قد قتلني ، وماج الناس ، فجرح ثلاثة عشر رجلاً ، وصاح بعضهم ببعض : دونكم الكلب ، فشد عليه رجل من خلفه ، فاحتضنه ، وماج الناس ، فقال قائل : الصلاة عباد الله ، طلعت الشمس . فدفعت عبد الرحمن بن عوف ، فصلى بأقصر سورتين في القرآن ، واحتمل عمر ، ومات من الذين جرحوا ستة أو سبعة ، وجرى الناس إلى عمر ، فقال : يا ابن عباس ، اخرج فناد في الناس أعن ملأ ورضى منهم كان هذا ؟ فخرج فنادى ، فقالوا : معاذ الله ، ما علمنا ولا اطلعنا ؛ قال : فأتاه الطبيب فقال : أى الشراب أحب إليك ؟ قال : النبيذ فسقوه نبيذاً ، فخرج من بعض طعناته. فقال الناس: صديد،اسقوه لبناً،فخرج اللبن؛فقال الطبيب : لا أرى أن تمسى، فما كنت فاعلاً فافعل،فقال لابنه عبد الله: ناولني الكتف[2]،فلو أراد الله أن يمضي ما فيه أمضاه،فمحاها بيده،وكان فيها فريضة الجد . ثم دخل عليه كعب الأحبار،فقال : ياأمير المؤمنين،الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ، قد كنت أنبأتك أنك شهيد ، قال:ومن أين لي بالشهادة وأنا بجزيرة العرب ؟ ثم جعل الناس يثنون عليه ، ويذكرون فضله . فقال : إن من غررتموه لمغرور ، إني والله وددت أن أخرج منها كفافاً[3] كما دخلت فيها ، والله لو كان لي اليوم ما طلعت عليه الشمس لافتديت به من هول المطلع ، فقالوا : يا أمير المؤمنين لا بأس عليك ، فقال : إن

---

(١) يغلس بها : يصليها مبكرا وفي وقت الغلس وهو آخر ظلمة الليل .

(٢) الكتف : عظم الكتف وكانوا يكتبون على العظام والجريد .

(٣) الكفاف : بفتح الكاف المثل : أى أن أخرج منها كفافاً كما دخلت فيها لا على ولا لي.

يكن القتل بأساً ، فقد قتلني أبو لؤلؤة ؟ قالوا : فإن يكن ذلك فجزاك الله عنا خيراً . فقال : لا أراكم تغبطونني بها ، فوالذي نفس عمر بيده ما أدري علام أهجم[1] ، ولوددت أني نجوت منها كفافاً لا لي ولا علي ، فيكون خيرها بشرها ، ويسلم لي ما كان قبلها من الخير . ودخل علي بن أبي طالب فقال : يا علي ، أعن ملأ منكم ورضى كان هذا ؟ فقال علي : ما كان عن ملأ منا ولا رضى ، ولوددنا أن الله زاد من أعمارنا في عمرك . قال : وكان رأسه في حجر ابنه عبد الله ، فقال له : ضع خدي بالأرض ، فلم يفعل ؟ فلحظه وقال : ضع خدي بالأرض لا أم لك ، فوضع خده بالأرض ، فقال : الويل لعمر ولأم عمر إن لم يغفر الله لعمر ؟ ثم دعا عبد الله بن عباس وكان يحبه ويدنيه ويسمع منه ، فقال له : ياابن عباس ، إني لأظن أن لي ذنباً ، ولكن أحب أن تعلم لي أعن ملأ منهم ورضى كان هذا ؟ فخرج ابن عباس ، فجعل لا يرى ملأ من الناس إلا وهم يبكون ، كأنما فقدوا اليوم أبصارهم ، فرجع إليه فأخبره بما رأى . قال : فمن قتلني ؟ قال : أبو لؤلؤة المجوسي غلام المغيرة بن شعبة . قال عبد الله : فرأيت البشر في وجهه ، فقال : الحمد لله الذي لم يقتلني رجل يحاجني بلا إله إلا الله يوم القيامة . ثم قال : يا عبد الله ، ألا لو أن لي ما طلعت عليه الشمس وما غربت لافتديت به من هول المطلع ، وما ذاك والحمد لله أن أكون رأيت إلا خيراً ، فقال له ابن عباس : فإن يك ذاك يا أمير المؤمنين ، فجزاك الله عنا خيراً ، أليس قد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعز الله بك الدين والمسلمون محبسون بمكة ؟ فلما أسلمت كان إسلامك عزاً أعز الله به الإسلام ، وظهر النبي وأصحابه ، ثم هاجرت إلى المدينة ، فكانت هجرتك فتحاً ، ثم لم تغب عن مشهد شهده رسول الله من قتال المشركين ، وقال فيك رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم كذا وكذا ، ثم قبض رسول الله وهو عنك راض ، ثم ارتد الناس بعد رسول الله عن الإسلام ، فوازرت الخليفة على منهاج رسول الله ، وضربتم من أدبر بمن أقبل ، حتى دخل الناس في الإسلام طوعاً وكرهاً ، ثم قبض الخليفة وهو عنك راض ، ثم وليت بخير على ما يلي أحد من الناس . مصر الله بك الأمصار ، وجبي بك الأموال ، ونفى بك العدو ، وأدخل الله على أهل كل بيت من المسلمين توسعة في دينهم ، وتوسعة في أرزاقهم ، ثم ختم الله لك بالشهادة ، فهنيئاً لك ، فصب الله الثناء عليك صباً ، فقال : أتشهد لي بهذا يا عبد الله عند الله يوم القيامة ؟ قال نعم ، فقال عمر : اللهم لك الحمد .

---

(١) أي علام أنا مقبل عليه من الآخرة .

تولية عمر بن الخطاب الستة الشورى وعهده إليهم

قال : ثم إن المهاجرين دخلوا على عمر رضى الله عنه وهو فى البيت من جراحه تلك ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، استخلف علينـا ، قال : والله لا أحملكم حيا وميتاً ، ثم قال : إن استخلفت فقد استخلف من هو خير منى ، يعنى أبا بكر ؛ وإن أدع فقـد ودع من هو خير منى يعنى النبى عليه الصلاة والسلام ، فقالوا : جزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين ، فقال : ماشاء الله راغباً ، وددت أن أنجو منها لا لى ولا علىّ .

فلما أحس بالموت قال لابنه : اذهب إلى عائشة ، وأقرئها منى السلام ، واستأذنها أن أقبر فى بيتها مع رسول الله ومع أبى بكر ، فأتاها عبد الله بن عمر ، فأعلمها ، فقالت : نعم وكرامة ثم قالت : يا بنى أبلغ عمر سلامى ، وقل له : لا تدع أمة محمد بلا راع ، استخلف عليهم ، ولا تدعهم بعدك هملا ، فإنى أخشى عليهم الفتنة ؛ فأتى عبد الله فأعلمه ، فقال : ومن تأمرنى أن أستخلف ؟ لو أدركت أبا عبيدة بن الجراح باقياً استخلفته ووليته ، فإذا قدمت على ربى فسألنى وقال لى : من وليت على أمة محمد ؟ قلت إى ربى ، سمعت عبدك ونبيك يقول : لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح ، ولو أدركت معاذ بن جبل استخلفته ، فإذا قدمت على ربى فسألنى : من وليت على أمة محمد ؟ قلت : إى ربى ، سمعت عبدك ونبيك يقول : إن معاذ ابن جبل يأتى بين يدي العلماء يوم القيامة . ولو أدركت خالد بن الوليد لوليته ، فإذا قدمت على ربى فسألنى : من وليت على أمة محمد ؟ قلت إى ربى ، سمعت عبدك ونبيك يقول : خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سله على المشركين ، ولكنى سأستخلف النفر الذين توفى رسول الله وهو عنهم راض ، فأرسل إليهم فجمعهم ، وهم على بن أبى طالب ، وعثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف رضوان الله عليهم وكان طلحة غائباً ، فقال : يا معشر المهاجرين الأولين ، إنى نظرت فى أمر الناس ، فلم أجد فيهم شقاقاً ولا نفاقاً ، فإن يكن بعدى شقاق ونفاق فهو فيكم ، تشاوروا ثلاثة أيام . فإن جاءكم طلحة إلى ذلك ، وإلا فأعزم عليكم بالله أن لا تتفرقوا من اليوم الثالث حتى تستخلفوا أحدكم ، فإن أشرتم بها إلى طلحة ، فهو لها أهل ، وليصل بكم صهيب هذه الثلاثة الأيام التى تشاورون فيها ، فإنه رجل من الموالى لا ينازعكم أمركم ، وأحضروا معكم من شيوخ الأنصار ، وليس لهم من أمركم شىء ، وأحضروا معكم الحسن بن على وعبد الله بن عباس ، فإن لهما قرابة ، وأرجو لكم البركة فى حضورهما ، وليس لهما من أمركم شىء ، ويحضر ابنى عبد الله مستشاراً ، وليس له من الأمر شىء . قالوا : يا أمير المؤمنين إن فيه للخلافة موضعاً فاستخلفه ، فإنا راضون به

فقال : حسب آل الخطاب تحمل رجل منهم الخلافة ، ليس له من الأمر شيء . ثم قال : يا عبد الله إياك ثم إياك لا تتلبس بها ، ثم قال : إن استقام أمر خمسة منكم وخالف واحد فاضربوا عنقه ، وإن استقام أربعة واختلف اثنان فاضربوا أعناقهما ، وإن استقر ثلاثة واختلف ثلاثة فاحتكموا إلى ابنى عبد الله ، فلأى الثلاثة قضى فالخليفة منهم وفيهم. فإن أبى الثلاثة الآخرون ذلك فاضربوا أعناقهم ؛ فقالوا : قل فينا يا أمير المؤمنين مقالة نستدل فيها برأيك ونقتدى به . فقال : والله ما يمنعنى أن أستخلفك يا سعد إلا شدتك وغلظتك ، مع أنك رجل حرب . وما يمنعنى منك يا عبد الرحمن إلا أنك فرعون هذه الأمة . وما يمنعنى منك يا زبير إلا أنك مؤمن الرضا ، كافر الغضب . وما يمنعنى من طلحة إلا نخوته وكبره ، ولو وليها وضع خاتمه فى إصبع امرأته . وما يمنعنى منك يا عثمان إلا عصبيتك وحبك قومك وأهلك، وما يمنعنى منك يا على إلا حرصك عليها ، وإنك أحرى القوم إن وليتها أن تقيم على الحق المبين . والصراط المستقيم. أوصى الخليفة منكم بتقوى الله العظيم، وأحذره مثل مضجعى هذا ، وأخوفه يوما تبيض فيه وجوه وتسود وجوه ، يوم تعرضون على الله لا تخفى منكم خافية ، ثم غشى عليه حتى ظنوا أنه قد قضى فجعلوا ينادونه ولا يفيق من إغمائه ، فقال قائل : إن كان شيء ينبه فالصلاة ، فقالوا : يا أمير المؤمنين الصلاة ، ففتح عينيه فقال : الصلاة هأنذا ، ولاحظ فى الإسلام لمن ترك الصلاة ، فصلى وجرحه يثعب دما [1] ، ثم التفت إليهم وقال : قد قومت لكم الطريق فلا تعوجوه ، ثم التفت إلى على بن أبى طالب ، فقال : لعل هؤلاء القوم يعرفون لك حقك وشرفك وقرابتك من رسول الله ، وما آتاك الله من العلم والفقه والدين فيستخلفوك ، فإن وليت هذا الأمر فاتق الله يا على فيه ، ولا تحمل أحداً من بنى هاشم على رقاب الناس ، ثم التفت إلى عثمان فقال يا عثمان ، لعل هؤلاء القوم يعرفون لك صهرك من رسول الله وسنك وشرفك وسابقتك فيستخلفوك ، فإن وليت هذا الأمر فلا تحمل أحداً من بنى أمية على رقاب الناس . ثم دعا صهيبا فقال : يا صهيب ، صل بالنـــاس ثلاثة أيام ، ويجتمع هؤلاء النفر ويتشاورون بينهم : اخرجوا عنى ، اللهم ألفهم واجمعهم على الحق ، ولا تردهم على أعقابهم ، وول أمر أمة محمد خيرهم . فخرجوا من عنده ، وتوفى رحمه الله تعالى من يومه ذلك ، ودفن وصلى عليه صهيب .

---

(١) يثعب دما : يتفجر دما .

ذكر الشورى وبيعة عثمان بن عفان رضى الله عنه

ثم إنه بعد موت عمر اجتمع القوم فخلوا فى بيت أحدهم ، وأحضروا عبد الله بن عباس ، والحسن بن على ، وعبد الله بن عمر ، فتشاوروا ثلاثة أيام ، فلم يبرموا فتيلا ، فلما كان فى اليوم الثالث قال لهم عبد الرحمن بن عوف . أتدرون أى يوم هذا ؟ هذا يوم عزم عليكم صاحبكم أن لا تتفرقوا فيه حتى تستخلفوا أحدكم، قالوا : أجل . قال : فإنى عارض عليكم أمراً ، قالوا: وما تعرض ؟ قال : أن تولونى أمركم، وأهب لكم نصيبى فيها ، وأختار لكم من أنفسكم ، قالوا : قد أعطيناك الذى سألت ، فلما سلم القوم قال لهم عبد الرحمن اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم ، فجعل الزبير أمره إلى على ، ، وجعل طلحة أمره إلى عثمان ،وجعل سعد أمره إلى عبد الرحمن بن عوف .

قال المسور بن مخرمة : فقال لهم عبد الرحمن : كونوا مكانكم حتى آتيكم . وخرج يتلقى الناس فى أنقاب المدينة متلثما لايعرفه أحد ، فما ترك أحدا من المهاجرين والأنصار وغيرهم من ضعفاء الناس ورعاعهم إلا سألهم واستشارهم . أما أهل الرأى فأتاهم مستشيرا ، وتلقى غيرهم سائلا ، يقول : من ترى الخليفة بعد عمر ؟ فلم يلق أحدا يستشيره ولا يسأله إلا ويقول عثمان، فلما رأى اتفاق الناس واجتماعهم على عثمان . قال المسور: جاءنى رضىالله عنه عشاء ، فوجدنى نائما فخرجت إليه فقال : ألا أراك نائما ، فوالله ما اكتحلت عينى بنوم منذ هذه الثلاثة ، ادع لى فلاناً وفلاناً (نفراً من المهاجرين) فدعوتهم له ، فناجاهم فى المسجد طويلا ، ثم قاموا من عنده ، فخرجوا ، ثم دعا علياً فناجاه طويلا ثم قام من عنده على طمع ، ثم قال : ادع لى عثمان ، فدعوته ،فناجاه طويلا حتى فرق بينهما أن آنت صلاة الصبح ، فلما صلوا جمعهم ، فأخذ على كل واحد منهم العهد والميثاق . لئن بايعتك لتقيمن لنا كتاب الله وسنة رسوله ، وسنة صاحبيك من قبلك ؟ فأعطاه كل واحد منهم العهد والميثاق على ذلك ، وأيضاً لئن بايعت غيرك لترضين ولتسلمن ، وليكونن سيفك معى على من أبى فأعطوه ذلك من عهودهم ومواثيقهم ، فلما تم ذلك أخذ بيد عثمان ، فقال له عليك عهد الله وميثاقه لئن بايعتك لتقيمن لنا كتاب الله وسنة رسوله وسنة صاحبيك ، وشرط عمر أن لا تجعل أحداً من بنى أمية على رقاب الناس ، فقال عثمان : نعم . ثم أخذ بيد على ، فقال له : أبايعك على شرط عمر أن لا تجعل أحداً من بنى هاشم على رقاب الناس ، فقال على عند ذلك : مالك ولهذا إذا قطعتها فى عنقى ؟ فإن على الاجتهاد لأمة محمد حيث علمت القوة والأمانة استعنت بها ، كان فى بنى هاشم أو غيرهم ؟ قال عبد الرحمن : لا والله حتى تعطينى هذا الشرط ؟ قال على : والله لا أعطيكه أبداً ، فتركه ،

فقاموا من عنده؛ فخرج عبد الرحمن إلى المسجد، فجمع الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إنى نظرت فى أمر الناس، فلم أرهم يعدلون بعثمان، فلا تجعل يا على سبيلاً إلى نفسك، فإنه السيف لا غير. ثم أخذ بيد عثمان فبايعه وبايع الناس جميعاً؛ قال: فكان عثمان رضى الله عنه ست سنين فى ولايته، وهو أحب إلى الناس من عمر بن الخطاب رضى الله عنه. وكان عمر رجلا شديدا قد ضيق على قريش أنفاسها، لم ينل أحد معه من الدنيا شيئاً إعظاما له وإجلالا، وتأسيا به واقتداء، فلما وليهم عثمان ولى رجل لين.

قال الحسن البصرى: شهدت عثمان وهو يخطب وأنا يومئذ قد راهقت الحلم، فما رأيت قط ذكراً ولا أنثى أصبح وجها ولا أحسن نضرة منه. فسمعته يقول: أيها الناس. اغدوا على أعطياتكم فيأخذونها وافية، أيها الناس اغدوا على كسوتكم، فيغدون فيجاء بالحلل فتقسم بينهم، حتى والله سمعت أذناى: يامعشر المسلمين اغدوا على السمن والعسل فيغدون فيقسم بينهم السمن والعسل، ثم يقول: يامعشر المسلمين اغدوا على الطيب، فيغدون فيقسم بينهم الطيب من المسك والعنبر وغيره، والعدوان والله منفى والأعطيات دارة والخير كثير، وما على الأرض مؤمن يخاف مؤمنا، من لقى فى أى البلدان فهو أخوه وأليفه، وناصره ومؤدبه فلم يزل المال متوفراً، حتى لقد بيعت الجارية بوزنها ورقاً، وبيع الفرس بعشرة آلاف دينار وبيع البعير بألف، والنخلة الواحدة بألف. ثم أنكر الناس على عثمان أشياء أشرا وبطراً. قال ابن عمر: لقد عيبت عليه أشياء لو فعلها عمر ما عيبت عليه.

ذكر الإنكار على عثمان رضى الله عنه

قال عبد الله بن مسلم: حدثنا ابن أبى مريم وابن عفير قالا: حدثنا ابن عون، قال: أخبرنا الحول بن ابراهيم وأبو حمزة الثمالى وبعضهم يزيد على بعض والمعنى واحد، فجمعته وألفته على قولهم، ومعنى ما أرادوا عن على بن الحسين، قال: لما أنكر الناس على عثمان بن عفان صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإن لكل شىء آفة، ولكل نعمة عاهة، وإن آفة هذا الدين وعاهة هذه الملة، قوم عيابون طعانون، يرونكم ما تحبون، ويسرون ما تكرهون. أما والله يا معشر المهاجرين والأنصار، لقد عبتم على أشياء ونقمتم أموراً قد أقررتم لابن الخطاب مثلها، ولكنه وقمكم[1] وقمعكم، ولم يجترئ أحد يملأ بصره منه

---

(١) وقمكم: قهركم، وقمعكم: وقفكم عند حدودكم.

ولا يشير بطرفه إليه . أما والله لأنا أكثر من ابن الخطاب عدداً ، وأقرب ناصراً وأجدر إلى أن قال لهم : أتفقدون من حقوقكم شيئاً ؟ فما لى لا أفضل فى الفضل ما أريد ، فلم كنت إماما إذا ؟ أما والله ما عاب على من عاب منكم أمرا أجهله ، ولا أتيت الذى أتيت إلا وأنا أعرفه .

قال : وقدم معاوية بن أبى سفيان على أثر ذلك من الشام ، فأتى مجلساً فيه على ابن أبى طالب ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعمار بن ياسر ، فقال لهم : يامعشر الصحابة ، أوصيكم بشيخى هذا خيراً ، فوالله لئن قتل بين أظهركم لأملأنها عليكم خيلا ورجالا ،ثم أقبل على عمار بن ياسر فقال : يا عمار ، إن بالشام مئة ألف فارس ، كل يأخذ العطاء ، مع مثلهم من أبنائهم وعبدانهم ، لا يعرفون علياً ولا قرابته ، ولا عماراً ولا سابقته ، ولا الزبير ولا صحابته ، ولا طلحة ولا هجرته ، ولا يهابون ابن عوف ولا ماله ، ولا يتقون سعدا ولا دعوته ، فإياك ياعمار أن تقعد غدا فى فتنة تنجلى ، فيقال : هذا قاتل عثمان ، وهذا قاتل على . ثم أقبل على ابن عباس فقال : يا ابن عباس ، إنا كنا وإياكم فى زمان لا نرجو فيه ثوابا ، ولا نخاف عقابا ، وكنا أكثر منكم ، فو الله ما ظلمناكم ولا قهرناكم ولا أخرناكم عن مقام تقدمناه ، حتى بعث الله رسوله منكم ، فسبق إليه صاحبكم ، فو الله مازال يكره شركنا ويتغافل به عنا حتى ولى الأمر عليه وعليكم ، ثم سار الأمر إلينا وإليكم فأخذ صاحبنا على صاحبكم لسنه ، ثم غير فنطق ونطق على لسانه ، فقدأ و قدتم ناراً لاتطفأ بالماء ، فقال ابن عباس . كنا كما ذكرت حتى بعث رسوله منا ومنكم ، ثم ولى الأمر علينا وعليكم ، ثم صار الأمر إلينا وإليكم ، فأخذ صاحبكم على صاحبنا لسنه ، ولما هو أفضل من سنه ، فوالله ما قلنا إلا ما قال غيرنا ، ولا نطقنا إلا بما نطق به سوانا ، فتركتم الناس جانبا ، وصيرتمونا بين أن أقمنا متهمين أو نزعنا معتبين (١) وصاحبنا من قد علمتم ، والله لايهجهج مهجهج إلا ركبه(٢) ، ولا يرد حوضا إلا أفرطه(٣) . وقد أصبحت أحب منك ما أحببت : وأكره ما كرهت ؛ ولعلى لا ألقاك إلا فى خير .

---

(١) ملومين .
(٢) أى لا يصيح صائح مستنكراً إلا أخذ على يده .
(٣) أفرطه : ملأه حتى سال الماء منه وفاض .

ذكر القول والمجادلة لعثمان ومعاوية رضى الله عنهما

قال : وذكروا أن ابن عباس قال : خرجت إلى المسجد فإنى لجالس فيه مع على حين صليت العصر ، إذ جاء رسول عثمان يدعو عليا ، فقال على نعم ؟ فلما أن ولى الرسول أقبل على فقال : لم تراه دعانى ؟ قلت له : دعاك ليكلمك ؛ فقال انطلق معى ، فأقبلت فإذا طلحة والزبير وسعد وأناس من المهاجرين ، فجلسنا فإذا عثمان عليه ثوبان أبيضان ، فسكت القوم ، ونظر بعضهم إلى بعض ، فحمد الله عثمان ، ثم قال : أما بعد ، فإن ابن عمى معاوية هذا قد كان غائباً عنكم وعما نلتم منى ، وما عاتبتكم عليه وعاتبتمونى ، وقد سألنى أن يكلمكم وأن يكلمه من أراد ؛ فقال سعد بن أبى وقاص : وما عسى أن يقال لمعاوية أو يقول إلا ما قلت أو قيل لك ؟ فقال على ذلكم تكلم يا معاوية ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد يا معشر المهاجرين وبقية الشورى فإياكم أعنى وإياكم أريد ، فمن أجابنى بشىء فمنكم واحد ، فإنى لم أرد غيركم ، توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم فبايع الناس أحد المهاجرين التسعة ، ثم دفنوا نبيهم ، فأصبحوا سالماً أمرهم ، كأن نبيهم بين أظهرهم ؛ فلما أيس الرجل من نفسه بايع رجلا من بعده أحد المهاجرين ؛ فلما احتضر ذلك الرجل شك فى واحد أن يختاره ، فجعلها فى ستة نفر بقية المهاجرين ، فأخذوا رجلا منهم لا يألون عن الخير فيه ، فبايعوه وهم ينظرون إلى الذى هو كائن من بعده ، لا يشكون ولا يمترون ، مهلاً مهلا معشر المهاجرين ، فإن وراءكم من إن دفعتموه اليوم اندفع عنكم ، ومن إن فعلتم الذى أنتم فاعلوه دفعكم بأشد من ركنكم وأعد من جدكم ، ثم استن عليكم بسنتكم ، ورأى أن دم الباقى ليس بممتنع بعد دم الماضى ، فسددوا وارفقوا ، لا يغلبكم على أمركم من حذرتكم، فقال على بن أبى طالب : كأنك تريد نفسك يابن اللخناء لست هنالك ، فقال معاوية : مهلا عن شتم بنت عمك ، فإنها ليست بشر نسائك . يا معشر المهاجرين ، وولاة هذا الأمر ، ولاكم الله إياه فأنتم أهله ، وهذان البلدان مكة والمدينة مأوى الحق ومنتهاه ، إنما ينظر التابعون إلى السابقين ،والبلدان إلى البلدين فإن استقاموا استقاموا ، وأيم الله الذى لا إله إلا هو لئن صفقت إحدى اليدين على الأخرى لا يقوم السابقون للتابعين ، ولا البلدان للبلدين ، وليسلبن أمركم ولينقلن الملك من بين أظهركم ، وما أنتم فى الناس إلا كالشامة السوداء فى الثور الأبيض فإنى رأيتكم نشبتم فى الطعن على خليفتكم ، وبطرتم معيشتكم وسفهتم أحلامكم ، وما كل نصيحة مقبولة ، والصبر على بعض المكروه خير من تحمله كله .

قال : ثم خرج القوم وأمسك عثمان ابن عباس ، فقال له عثمان : يابن عمى ويابن خالى ، فإنه لم يبلغنى عنك فى أمرى شىء أحبه ولا أكرهه على ولا لى ، وقد علمت أنك رأيت بعض

ما رأى النـــاس ، فمنعك عقلك وحلمك من أن تظهر ما أظهروا ، وقد أحببت أن تعلمنى رأيك فيما بينى وبينك فأعتذر ؛ قال ابن عباس : فقلت يا أمير المؤمنين ، إنك قد ابتليتنى بعد العافية ، وأدخلتنى فى الضيق بعد السعة ، ووالله إن رأيى لك أن يجلّ سنك، ويعرف قدرك ، وسابقتك ، والله لوددت أنك لم تفعل ما فعلت مما ترك الخليفتان قبلك ، فإن كان شيئاً تركاه لما رأيا أنه ليس لهما علمت أنه ليس لك كما لم يكن لهما ، وإن كان ذلك لهما فتركاه خيفة أن ينال منهما مثل الذى نيل منك تركته لما تركاه له ، ولم يكونا أحق بإكرام أنفسهما منك بإكرام نفسك ؛قال: فمامنعك أن تشير على بهذا قبل أن أفعل مافعلت؟ قال: وما علمى أنك تفعل ذلك قبل أن تفعل ؟ قال : فهب لى صمتاً حتى ترى رأيى . قال : فخرج ابن عباس ، فقال عثمان لمعاوية : ما ترى ، فإن هؤلاء المهاجرين قد استعجلوا القدر ، ولا بد لهم مما فى أنفسهم ، فقال معاوية : الرأى أن تأذن لى فأضرب أعناق هؤلاء القوم . قال : من ؟ قال : على وطلحة والزبير ، قال عثمان: سبحان الله ! أقتل أصحاب رسول الله بلا حدث أحدثوه، ولا ذنب ركبوه؟ قال معاوية: فإن لم تقتلهم فإنهم سيقتلونك . قال عثمان : لا أكون أول من خلف رسول الله فى أمته بإهراق الدماء . قال معاوية : فاختر منى إحدى ثلاث خصال ؟ قال عثمان : وما هى ؟ قال معاوية : أرتب لك ها هنا أربعة آلاف فارس من خيل أهل الشام ، يكونون لك ردءاً وبين يديك يداً قال عثمان : أرزقهم من أين ؟ قال : من بيت المال ، قال عثمان : أرزق أربعة آلاف من الجند من بيت مال المسلمين لحرز دمى ؟ لا فعلت هذا . قال : فثانية ، قال : وما هى ؟ قال : فرقهم عنك فلا يجتمع منهم اثنان فى مصر واحد ، واضرب عليهم البعوث والندب ، حتى يكون دبر بعير أحدهم أهم عليه من صلاته ؛ قال عثمان : سبحان الله ! شيوخ المهاجرين وكبار أصحاب رسول الله ، وبقية الشورى أخرجهم من ديارهم وأفرق بينهم وبين أهلهم وأبنائهم ؟ لا أفعل هذا . قال معاوية فثالثة ، قال : وما هى ؟ قال : اجعل لى الطلب بدمك إن قتلت ، قال عثمان . نعم هذه لك إن قتلت فلا يطل دمى .

قال : ثم خرج عثمان فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد أيها الناس ، إن نصيحتى كذبلنى ، ونفسى منتنى ، وقد سمعت رسول الله يقول : لا تمادوا فى الباطل فإن الباطل يزداد من الله بعداً ، من أساء فليتب ، ومن أخطأ فليتب ، وأنا أول من اتعظ، والله لئن ردنى الحق عبداً لأنتسبن نسب العبيد ، ولأكونن كالمرقوق الذى إن ملك صبر ، وإن أعتق شكر ، ثم نزل ، فدخل على زوجته نائلة بنت الفرافصة ، ودخل معه مروان بن الحكم ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أتكلم أو أسكت ؟ فقالت له نائلة : بل اسكت فوالله لئن تكلمت لتغرنه ولتوبقنه . فالتفت إليها عثمان مغضباً ، فقال : اسكتى ، تكلم يامروان ، فقال مروان : ياأمير المؤمنين إنك والله لوقلت

الذى قلت وأنت فى عز ومنعة لتابعتك ، ولكنك قلت الذى قلت وقد بلغ السيل الزبى[1] ، وجاوز الحزام الطبيين ، فانقض التوبة ولا تقر بالخطيئة .

ما أنكر الناس على عثمان رحمه الله

قال : وذكروا أنه اجتمع ناس من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ، فكتبوا كتاباً ذكروا فيه ما خالف فيه عثمان من سنة رسول الله وسنة صاحبيه ، وما كان من هبته خمس أفريقية لمروان وفيه حق الله ورسوله ، ومنهم ذوو القربي واليتامى والمساكين ، وما كان من تطاوله فى البنيان ، حتى عدوا سبع دور بناها بالمدينة : داراً لنائلة،وداراً لعائشة وغيرها من أهله وبناته ، وبنيان مروان القصور بذى خشب[2] ، وعمارة الأموال بها من الخمس الواجب لله ولرسوله ، وما كان من إفشائه العمل والولايات فى أهله وبنى عمه من بنى أمية أحداث وغلمة لا صحبة لهم من الرسول ولا تجربة لهم بالأمور ، وماكان من الوليد بن عقبة بالكوفة إذ صلى بهم الصبح وهو أمير عليها سكران أربع ركعات ثم قال لهم : إن شئتم أزيدكم صلاة زدتكم ، وتعطيله إقامة الحد عليه ، وتأخيره ذلك عنه ، وتركه المهاجرين والأنصار لا يستعملهم على شيء ولا يستشيرهم ، واستغنى برأيه عن رأيهم ، وما كان من الحمى الذى حمى حول المدينة ، وما كان من إدراره القطائع والأرزاق والأعطيات على أقوام بالمدينة ليست لهم صحبة من النبي عليه الصلاة والسلام ، ثم لا يغزون ولا يذبون[3] ، وماكان من مجاوزته الخيزران إلى السوط ، وأنه أول من ضرب بالسياط ظهور الناس ، وإنما كان ضرب الخليفتين قبله بالدرة والخيزران .

ثم تعاهد القوم ليدفعن الكتاب فى يد عثمان ، وكان ممن حضر الكتاب عمار بن ياسر والمقداد بن الأسود وكانوا عشرة ؛ فلما خرجوا بالكتاب ليدفعوه إلى عثمان والكتاب فى يد عمار ، جعلوا يتسللون عن عمار حتى بقى وحده ، فمضى حتى جاء دار عثمان ، فاستأذن عليه ، فأذن له فى يوم شات ، فدخل عليه وعنده مروان بن الحكم وأهله من بني أمية ، فدفع إليه الكتاب فقرأه ، فقال له : أنت كتبت هذا الكتاب ؟ قال : نعم ، قال : ومن كان معك ؟ قال كان معى نفر تفرقوا فرقاً[4]

---

(١) الزبي جمع زبية وهى المكان فى أعلى الجبل ، والطبيان تثنية طبي وهو ثدى الدابة وإذا جاوز حزام البرزعة الطبي فقد حان سقوطها ، والمعنى أن الأمر بلغ منتهاه وكاد يفلت زمامه من يدك .

(٢) ذوخشب بضم الخاء والشين موضع بالمدينة .

(٣) لا يذبون : لا يدافعون عن الإسلام .

(٤) فرقا: بفتح الفاء والراء : يعنى خوفاً منك.

منك ، قال : من هم ؟ قال : لا أخبرك بهم . قال : فلم اجترأت على من بينهم ؟ فقال مروان : يا أمير المؤمنين إن هذا العبد الأسود (يعنى عماراً) قد جرأ عليك الناس ، وإنك إن قتلته نكلت به من وراءه ، قال عثمان : أضربوه ، فضربوه وضربه عثمان معهم حتى فتقوا بطنه ، فغشى عليه ، فجروه حتى طرحوه على باب الدار ، فأمرت به أم سلمة زوج النبي عليه الصلاة والسلام ، فأدخل منزلها ، وغضب فيه بنو المغيرة وكان حليفهم ، فلما خرج عثمان لصلاة الظهر ، عرض له هشام بن الوليد بن المغيرة ، فقال : أما والله لئن مات عمار من ضربه هذا لأقتلن به رجلا عظيما من بنى أمية ، فقال عثمان : لست هناك .

قال : ثم خرج عثمان إلى المسجد ، فإذا هو بعلى وهو شاك معصوب الرأس ، فقال له عثمان : والله يا أبا الحسن ما أدرى : أشتهى موتك أم أشتهى حياتك ؟ فو الله لئن مت ما أحب أن أبقى بعدك لغيرك ، لأنى لا أجد منك خلفا ، ولئن بقيت لا أعدم طاغيا يتخذك سلما وعضداً ، ويعدك كهفا وملجأ ، لا يمنعنى منه إلا مكانه منك ، ومكانك منه ، فأنا منك كالابن العاق من أبيه : إن مات فجعه ، وإن عاش عقه . فإما سلم فنسالم ، وإما حرب فنحارب ، فلا تجعلنى بين السماء والأرض ، فانك والله إن قتلتنى لا تجد منى خلفا ، ولئن قتلتك لا أجد منك خلفا ، ولن يلى أمر هذه الأمة بادئ فتنة . فقال على : إن فيما تكلمت به لجوابا ، ولكنى عن جوابك مشغول بوجعى . فأنا أقول كما قال العبد الصالح : (فصبر جميل، والله المستعان على ما تصفون) . قال مروان : إنا والله إذا لنكسرن رماحنا ، ولنقطعن سيوفنا ، ولا يكون فى هذا الأمر خير لمن بعدنا . فقال له عثمان : اسكت ، ما أنت وهذا ؟ فقام إليه رجل من المهاجرين ، فقال له . يا عثمان ، أرأيت ما حميت من الحمى (آلله أذن لكم أم على الله تفترون) فقال عثمان . إنه قد حمى الحمى قبلى عمر لإبل الصدقة ، وإنما زادت، فزدت ، فقام عمرو بن العاص فقال . ياعثمان ، إنك ركبت بالناس نهابير[1] من الأمر ، فتب إلى الله يتوبوا ، فرفع عثمان يديه وقال توبوا إلى الله من كل ذنب ، اللهم إنى أول تائب إليك . ثم قام رجل من الأنصار : فقال : ياعثمان : ما بال هؤلاء النفر من أهل المدينة يأخذون العطايا ولا يغزون فى سبيل الله . وإنما هذا المال لمن غزا فيه وقاتل عليه ، إلا من كان من هذه الشيوخ من أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام ، فقال عثمان : فاستغفر الله وأتوب إليه . ثم قال : يا أهل المدينة ، من كان له منكم ضرع فليلحق بضرعه ومن كان له زرع فليلحق بزرعه فإنا والله لا نعطى مال الله إلا لمن غزا فى سبيله : إلا من كان من هذه الشيوخ من الصحابة . قال : فما بال هذا القاعد الشارب لا تقيم

(١) النهابير والنهابر : المهالك .

عليه الحد ؟ (يعنى الوليد بن عقبة) ، فقال عثمان لعلى : دونك ابن عمك فأقم عليه الحـد . فقال على للحسن: قم فاجلده. فقال الحسن ما أنت وذاك ؟ هذا لغيرك ، قال على : لا ، ولكنك عجزت وفشلت ، يا عبد الله بن جعفر ، قم فاجلده . فقام فضربه وعلى يعد ، فلما بلغ أربعين أمسك وقال : جلد رسول الله أربعين ، وأبو بكر أربعين : وكملها عمر ثمانين : وكل سنة .

حصار عثمان رضى الله عنه

قال وذكروا أنه لما اشتد الطعن على عثمان : استأذنه على فى بعض بواديه ينتحى إليها ! فأذن له ؟ واشتد الطعن على عثمان بعد خروج على : ورجا الزبير وطلحة أن يميلا إليهما قلوب الناس ، ويغلبا عليهم ، واغتنما غيبة على ، فكتب عثمان إلى على إذ اشتد الطعن عليه . أما بعد فقد بلغ السيل الزبى ! وجاوز الحزام الطبيين[1] . وارتفع أمر النـاس فى شأنى فوق قدره ! وزعموا أنهم لا يرضون دون دمى . وطمع فى من لا يدفع عن نفسه[2] .

وإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب[3]

وقد كان يقال : أكل السبع خير من افتراس الثعلب : فأقبل علىّ أولى.

فإن كنت مأكولا فكن خير آكل وإلا فأدركنى ولمـا أمزّق

قال حويطب بن عبد العزى : أرسـل إلى عثمان حين اشتد حصاره ، فقال : قد بدا لى أن أتهم نفسى لهؤلاء ، فأت عليا وطلحة والزبير، فقل لهم : هذا أمركم تولوه ، واصنعوا فيه ماشئتم فخرجت حتى جئت عليا ، فوجدت على بابه مثل الجبال من الناس ، والباب مغلق ، لا يدخـل عليه أحد ، ثم انصرفت ، فأتيت الزبير ، فوجدته فى منزله ليس ببابه أحد ، فأخبرته بما أرسلنى به عثمان ، فقال : قد والله قضى ما عليه أمير المؤمنين ، هل جئت عليا ؟ قلت : نعم ، فلم أخلص إليه ، فقمنا جميعاً ، فأتينا طلحة بن عبيد الله فوجدناه فى داره وعنده ابنه محمد ، فقصصنا عليـه ما قال عثمان ، فقال : قد والله قضى ما عليه أمير المؤمنين ، هل جئتم عليا ؟ قلنا نعم ، فلم نخلص إليه . فأرسل طلحة إلى الأشتر ، فأتاه فقال لى : أخبره ، فأخبرته بما قال عثمان ، فقال طلحة وقد دمعت عيناه : قد والله قضى ما عليه أمير المؤمنين ، فقام الأشتر فقال : تبعثون إلينا وجاءنا رسولكم بكتابكم ، وها هو ذا ، فأخرج كتابا فيـه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من المهاجرين الأولين وبقية الشورى ، إلى من بمصر من الصحابة والتابعين ، أما بعـد ، أن تعالوا إلينا

---

(١) سبق بيان معنى هذا الكلام ص ٣٥ .

(٢) يريد طمع فىّ الضعفاء .

(٣) الذى غلبه الناس كثيراً .

وتداركوا خلافة رسول الله قبل أن يسلبها أهلها ، فإن كتاب الله قد بدل ، وسنة رسوله قد غيرت ، وأحكام الخليفتين قد بدلت ، فننشد الله من قرأ كتابنا من بقية أصحاب رسول الله والتابعين بإحسان ، إلا أقبل إلينا ، وأخذ الحق لنا ، وأعطاناه ، فأقبلوا إلينا إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وأقيموا الحق على المنهاج الواضح الذى فارقتم عليه نبيكم ، وفارقكم عليه الخلفاء ، غلبنا على حقنا واستولى على فيئنا ، وحيل بيننا وبين أمرنا . وكانت الخلافة بعد نبينا خلافة نبوة ورحمة ، وهى اليوم ملك عضوض[1] . من غلب على شىء أكله . أليس هذا كتابكم إلينا ؟ فبكى طلحة ، فقال الأشتر : لما حضرنا أقبلتم تعصرون أعينكم ، والله لا نفارقه حتى نقتله ، وانصرف . قال : ثم كتب عثمان كتابا بعثه مع نافع بن طريف إلى أهل مكة ومن حضر الوسم يستغيثهم فوافى به نافع يوم عرفة بمكة ، وابن عباس يخطب، وهو يومئذ على الناس كان قد استعمله عثمان على الوسم ، فقام نافع ففتح الكتاب ، فقرأه ، فإذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عثمان أمير المؤمنين، إلى من حضر الحج من المسلمين ، أما بعد : فانى كتبت إليكم كتابى هذا وأنا محصور ، أشرب من بئر القصر ، ولا آكل من الطعام ما يكفينى ، خيفة أن تنفد ذخيرتى . فأموت جوعا أنا ومن معى ، لا أدعى إلى توبة أقبلها ، ولا تسمع منى حجة أقولها ، فأنشد الله رجلا من المسلمين بلغه كتابى إلا قدم على ، فأخذ الحق فى ، ومنعنى من الظلم والباطل . قال : ثم قام ابن عباس ، فأتم خطبته ، ولم يعرض لشىء من شأنه . وكتب إلى أهل الشام عامة ، وإلى معاوية وأهل دمشق خاصة : أما بعد فإنى فى قوم طال فيهم مقامى ، واستعجلوا القدر فى ، وقد خيرونى بين أن يحملونى على شارف[2] من الإبل إلى دخل[3] . وبين أن أنزع لهم رداء الله الذى كسانى[4] . وبين أن أقيدهم[5] ممن قتلت . ومن كان على سلطان يخطى ويصيب، فياغوثاه يا غوثاه، ولا أمير عليكم دونى ، فالعجل العجل يا معاوية، وأدرك ثم أدرك ، وما أراك تدرك .

---

(١) ملك عضوض، لاصق بأصحابه يصعب خلعهم منه ، أو شديد قوى على الناس .
(٢) الشارف من الإبل : المسن العجوز .
(٣) دخل بضم الدال وسكون الخاء جزيرة بين اليمن وبلاد البجة ، المراد خيروه بين النفى وبين الاستقالة من الخلافة .
(٤) رداء الله هو الخلافة .
(٥) أسلم لهم نفسى ليأخذوا القود منى فيقتلونى قصاصاً عن قتل من المسلمين .

تولية محمد بن أبي بكر على مصر

شكوى أهل مصر من ابن أبي سرح

قال : وذكروا أن أهل مصر جاءوا يشكون ابن أبي سرح عاملهم ، فكتب إليه عثمان كتابا يتهدده فيه، فأبى ابن أبي سرح أن يقبل ما نهاه عنه عثمان وضرب بعض من أتاه به من قبل عثمان من أهل مصر حتى قتله ، فخرج من أهل مصر سبع مئة رجل فنزلوا المسجد وشكوا إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مواقيت الصلاة ماصنع بهم ابن أبي سرح ، فقام طلحة فتكلم بكلام شديد وأرسلت عائشة إلى عثمان فقالت له : قد تقدم إليك أصحاب رسول الله وسألوك عزل هذا الرجل ، فأبيت إلا واحدة ، فهذا قد قتل منهم رجلا فأنصفهم من عاملك . ودخل عليه على وكان متكلم القوم، فقال له : إنما يسألونك رجلا مكان رجل، وقد ادعوا قبله دما، فاعزله عنهم واقض بينهم فإن وجب لهم عليه حق ، فانصفهم منه ، فقال اختاروا رجلا أوليه عليهم .

تولية محمد بن أبي بكر

فقالوا : استعمل محمد بن أبي بكر ، فكتب عهده وولاه ، وخرج معه عدد من المهاجرين والأنصار ، ينظرون فيما بين ابن أبي سرح وأهل مصر ، فخرج محمد ومن معه حتى إذا كانوا على مسيرة ثلاث ليال من المدينة : إذا هم بغلام أسود على بعير يخبط البعير ، كأنه رجل يَطلب أو يُطلب، فقال له أصحاب محمد : ما قصتك وما شأنك ؟ كأنك طالب أو هارب فقال أنا غلام أمير المؤمنين وجهنى إلى عامل مصر ، فقال له رجل : هذا عامل مصر معنا ، قال : ليس هذا أريد ، فأخبر محمد بأمره فبعث فى طلبه رجلا ، فجاء به إليه ، فقال له ، غلام من أنت ؟ فأقبل مرة يقول أنا غلام مروان ومرة يقول أنا غلام أمير المؤمنين ، حتى عرفه رجل . به لعثمان : فقال له محمد : إلى من أرسلك ؟ قال : إلى عامل مصر ؟ قال : بماذا ؟ قال : برسالة . قال أما معك كتاب ، قال : لا ، ففتشوه : فلم يجدوا معه كتابا ، قال وكانت معه إداوة[1] قد يبست : فيها شىء يتقلقل، فحركوه ليخرج فلم يخرج فشقوا إداوته ، فإذا فيها كتاب من عثمان إلى عبدالله ابن أبي سرح ، فجمع محمد من كان معه من المهاجرين والأنصار، ثم فك الكتاب بمحضر منهم ، فقرأه ، فإذا فيه : إذا أتاك محمد بن أبي بكر وفلان وفلان فاقتلهم ، وأبطل كتابهم ، وقر على عملك حتى يأتيك رأيى . فلما رأوا الكتاب فزعوا منه ، ورجعوا إلى المدينة .

---

(١) الإداوة سقاء من جلد يوضع فيه الماء ويسمى المطهرة لأن صاحبها يتطهر بما فيها من الماء ومعنى قد يبست : قد جفت لعدم وضع الماء فيها مدة طويلة .

رجوع محمد بن أبى بكر إلى المدينة

وختم محمد الكتاب بخواتم النفر الذين كانوا معه، ودفعه إلى رجل منهم، ثم قدموا المدينة، فجمعوا طلحة والزبير وعليا وسعدا، ومن كان من أصحاب رسول الله، ثم فكوا الكتاب بمحضر منهم، وأخبرهم بقصة الغلام، وأقرأهم الكتاب، فلم يبق أحد من أهل المدينة إلا حنق (1) على عثمان. وقام أصحاب النبى فلحقوا بمنازلهم: وحصر الناس عثمان، وأحاطوا به، ومنعوه الماء والخروج، ومن كان معه، وأجلب (2) عليه محمد بن أبى بكر.

حصار أهل مصر والكوفة عثمان رحمه الله

قال: وذكروا أن أهل مصر أقبلوا إلى على، فقالوا: ألم تر عدوا الله (3) ماذا كتب فينا؟ قم معنا إليه، فقد أحل الله دمه، فقال على، لا والله، لا أقوم معكم. قالوا: فلم كتبت إلينا؟ قال على: لا والله ما كتبت إليكم كتاباً قط: فنظر بعضهم إلى بعض. ثم أقبل الأشتر النخعى من الكوفة فى ألف رجل: وأقبل ابن أبى حذيفة من مصر فى أربع مئة رجل، فأقام أهل الكوفة وأهل مصر بباب عثمان ليلا ونهارا، وطلحة يحرض الفريقين جميعا على عثمان: ثم إن طلحة قال لهم: إن عثمان لا يبالى ما حصرتموه؟ وهو يدخل إليه الطعام والشراب فامنعوه الماء أن يدخل عليه.

مخاطبة عثمان من أعلى القصر طلحة وأهل الكوفة وغيرهم

قال: وذكروا أن عثمان لما منع الماء صعد على القصر، واستوى فى أعلاه ثم نادى: أين طلحة؟ فأتاه، فقال: يا طلحة، أما تعلم أن بئر رومة كانت لفلان اليهودى، لا يسقى أحدا من الناس منها قطرة إلا بثمن، فاشتريتها بأربعين ألفا، فجعلت رشائى (4) فيها كرشاء رجل من المسلمين، استأثر عليهم؟ قال: نعم. قال: فهل تعلم أن أحداً يمنع أن يشرب منها اليوم غيرى؟ لم ذلك؟ قال: لأنك بدلت وغيرت. قال: فهل تعلم أن رسول الله قال: من اشترى هذا البيت

---

(1) حنق: حقد وغضب.

(2) أجلب عليه: جمع عليه الناس ينتقدون عمله ويردونه عن طريقه الذى يرونه غير مستقيم.

(3) يريدون مروان بن الحكم.

(4) الرشاء: الحبل الذى يربط به الدلو عند إخراج الماء من البئر، والمراد جعلت نفسى كأحدكم فى سقى الماء مع أنها ملكى.

وزاده فى المسجد فله به الجنة ، فاشتريته بعشرين ألفا ، وأدخلته فى المسجد ؟ قال طلحة : نعم . قال : فهل تعلم اليوم أحداً يمنع فيه من الصلاة غيرى ؟ قال : لا . قال : لم ؟ قال : لأنك غيرت وبدلت . ثم انصرف عثمان وبعث إلى على يخبره أنه منع من الماء ، ويستغيث به ، فبعث إليه على ثلاث قرب مملوءة ماء ، فما كادت تصل إليه ، فقال طلحة : ما أنت وهذا ؟ وكان بينهما فى ذلك كلام شديد ، فبينما هم كذلك إذ أتاهم آت فقال لهم : إن معاوية قد بعث من الشام يزيد بن أسيد مدداً لعثمان ، فى أربعة آلاف من خيل الشام ، فاصنعوا ما أنتم صانعون ، وإلا فانصرفوا وكان معه فى الدار مئة رجل ينصرونه منهم عبد الله بن الزبير ، ومروان بن الحكم ، والحسن بن على ، وعبد الله بن سلام ، وأبو هريرة ، فلما سمع القوم إقبال أهل الشام ، قامو فألهبوا النار بباب عثمان ، فلما نظر أهل الدار إلى النار ، نصبوا للقتال وتهيئوا ، فكره ذلك عثمان قال : لا أريد أن تهراق فىّ محجمة[1] دم ، وقال لجميع من فى الدار : أنتم فى حل من بيعتى ، لا أحب أن يقتل فىّ أحد ، وكان فيهم عبد الله بن عمر ، فقال : يا أمير المؤمنين : مع من تأمرنى أن أكون إن غلب هؤلاء القوم عليك ؟ قال : عليك بلزوم الجماعة . قلت : فإن كانت الجماعة هى التى تغلب عليك ؟ قال عليك بلزوم الجماعة حيث كانت . قال : ثم دخل عليه الحسن بن على ، فقال مرنى بما شئت ، فإنى طوع يديك . فقال له عثمان : ارجع يا بن أخى ، اجلس فى بيتك حتى يأتى الله بأمره . ثم دخل عليه أبو هريرة متقلداً سيفه ، فقال : طاب الضراب ياأمير المؤمنين ، قد قتلوا منا رجلا ، وقد ألهبوا النار ، فقال عثمان : عزمت عليك يا أبا هريرة إلا ألقيت سيفك ، قال أبو هريرة : فألقيته فلا أدرى من أخذه . قال : ودخل المغيرة بن شعبة ، فقال له : يا أمير المؤمنين إن هؤلاء قد اجتمعوا عليك ، فإن أحببت فالحق بمكة ، وإن أحببت أن نخرق لك باباً من الدار فتلحق بالشام ففيها معاوية وأنصارك من أهل الشام ، وإن أبيت فاخرج ونخرج ، ونحاكم القوم إلى الله تعالى . فقال عثمان : أما ما ذكرت من الخروج إلى مكة ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يلحد بمكة رجل من قريش ، عليه نصف عذاب هذه الأمة من الإنس والجن ، فلن أكون ذلك الرجل إن شاء الله ، وأما ما ذكرت من الخروج إلى الشام ، فإن المدينة دار هجرتى ، وجوار قبر النبى عليه الصلاة والسلام ، فلا حاجة لى فى الخروج من دار هجرتى ، وأما ما ذكرت من محاكمة هؤلاء القوم إلى الله ، فلن أكون أول من خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمته بإهراق الدم .

---

(١) المحجمة : آلة يؤخذ بها الدم من المريض تشبه الحقنة عندنا الآن ، والمراد : دم قليل.

رؤية عثمان أبا بكر وعمر فى المنام

ثم قال : إنى رأيت أبا بكر وعمر أتيانى الليلة فقالا لى : صم فإنك مفطر عندنا الليلة ، وإنى أصبحت صائماً ، وإنى أعزم على من كان يؤمن بالله واليوم الآخر إلا خرج من الدار سالماً . فقالوا : إنا إن خرجنا لم نأمن على أنفسنا منهم ، فأذن لنا فنكون فى موضع من الدار فلما رأى ذلك علىّ بعث إلى طلحة والزبير وسعد وعمار ونفر من أصحاب محمد ، كلهم بدرى ، ثم دخلوا على عثمان ومعهم الكتاب والغلام والبعير ، فقال على : الغلام غلامك ، والبعير بعيرك ؟ فقال : نعم . قال : فأنت كتبت هذا الكتاب ؟ قال : لا ، وحلف بالله ما كتبت ، ولاأمرت به ولا علمت . فقال له : فالخاتم خاتمك ؟ قال : نعم . قال : فكيف يخرج غلامك ببعيرك وكتاب عليه خاتمك لا تعلم به ؟ فحلف بالله ما كتبت هذا الكتاب ، ولا وجهت ، ولا أمرت . فشك القوم فى أمر عثمان ، وعلموا أنه لا يحلف بباطل . فقال قوم منهم : لا يبرأ عثمان عن قلوبنا إلا أن يدفع إلينا مروان ، حتى نعرف كيف يأمر بقتل رجال من أصحاب رسول الله ، وقطع أيديهم بغير حق ، فإن كان عثمان كتبه عزلناه ، وإن كان مروان كتبه نظرنا فى أمره ، وما يكون فى أمر مروان ، فانصرف القوم عنه ، ولزموا بيوتهم ، وأبى عثمان أن يخرج إليهم مروان ، وخشى عليه القتل . فبلغ علياً أن عثمان يراد قتله ، فقال : إنا أردنا مروان، فأما قتل عثمان فلا ، ثم قال للحسن والحسين : اذهبا بسيفيكما حتى تقوما على باب عثمان ، ولا تدعا أحداً يصل إليه ، وبعث الزبير ابنه على كره ، وبعث طلحة ابنه كذلك، وبعث عدة من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أبناءهم ، يمنعون الناس أن يدخلوا على عثمان . ويسألوه أن يخرج مروان ، فأشرف عليهم عثمان من أعلى القصر ، فقال : يامعشر المسلمين ، أذكركم الله ، ألستم تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلب دار بنى فلان ، ليوسع بها للمسلمين فى مسجدهم . فاشتريتها من خالص مالى . وأنتم اليوم تمنعونى أن أصلى فيه . أذكركم الله يا معشر المسلمين . ألستم تعلمون أن بئر رومة كانت تباع القربة منها بدرهم . فاشتريتها من خالص مالى ، فجعلت رشائى كرشاء واحد من المسلمين ، وأنتم تمنعونى أن أشرب من مائها ، وأنا اشتريتها ، حتى إنى ما أفطر إلا على ماء البحر ؟ ألستم تعلمون أنكم نقمتم على أشياء ، فاستغفرت الله وتبت إليه منها ، وتزعمون أنى غيرت وبدلت ، فابعثوا على شاهدين مسلمين ، وإلا فأحلف بالله الذى لا إله إلا هو ما كتبت الكتاب ، ولا أمرت به ، ولا اطلعت عليه ، يا قوم (لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح) يا قوم لا تقتلونى فإنكم إن قتلتمونى كنتم هكذا ، وشبك بين أصابعه ، يا قوم إن الله رضى لكم السمع والطاعة ، وحذركم المعصية والفرقة ، فاقبلوا نصيحة الله ، واحذروا عقابه ، فإنكم إن فعلتم الذى أنتم فاعلون ، لا تقوم الصلاة جميعاً ،

ويسلط عليكم عدوكم ، وإنى أخبركم أن قوماً أظهروا للناس أنهم إنما يدعوننى إلى كتاب الله تعالى والحق ؛ فلما عرض عليهم الحق رغبوا عنه وتركوه ، وطال عليهم عمرى ، واستعجلوا القدر بى ، وقد كانوا كتبوا إليكم ، أنهم قد رضوا بالذى أعطيتهم ، ولا أعلم أنى تركت من الذى عاهدتهم عليه شيئاً ، وكانوا زعموا أنهم يطلبون الحدود ، وترك المظالم ، وردها إلى أهلها ، فرضيت بذلك ، وقالوا : يؤمر عمرو بن العاص ، وعبد الله بن قيس ، ومثلهما من ذوى القوة والأمانة ، وكل ذلك فعلت ، فلم يرضوا ، وحالوا بينى وبين المسجد ، فابتزوا ما قدروا عليه بالمدينة وهم يخيروننى بين إحدى ثلاث : إما أن يقيدونى بكل رجل أصبت خطأ أو عمداً ، وإما أن أعتزل عن الأمر ، فيؤمروا أحداً ، وإما أن يرسلوا إلى من أطاعهم من الجنود وأهل الأمصار ، فأرسلوا إليكم فأتيتم لتبتزونى من الذى جعل الله لى عليكم من السمع والطاعة ، فسمعتم منهم ، وأطعتموهم والطاعة لى عليكم دونهم، فقلت لهم : أما إقادة من نفسى فقد كان قبلى خلفاء، ومن يتول السلطان يخطىء ويصيب ، فلم يستقد من أحد منهم ، وقد علمت أنهم يريدون بذلك نفسى ، وأما أن أتبرأ من الأمر، فإن يصلبونى أحب إلى من أن أتبرأ من جنة الله تعالى وخلافته بعد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لى : يا عثمان ، إن الله تعالى سيقمصك قميصاً بعدى ، فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقانى ، ولم أكن استكرهتهم من قبل على السمع والطاعة ، ولكن أتوها طائعين ، يبتغون بذلك مرضاة الله ، وصلاح الأمة ، ومن يكن منهم يبتغى الدنيا فلن ينال منها إلا ما كتب له ، فاتقوا الله ، فإنى لا أرضى لكم أن تنكثوا عهد الله، وإنى أنشدكم الله والإسلام ألا تأخذوا الحق ولا تعطوه منى(وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء ، إلا ما رحم ربى) وإنى عاقبت أقواماً ، وما أبتغى بذلك إلا الخير ، وإنى أتوب إلى الله من كل عمل عملته ، وأستغفره ، أما والله لقد علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يحل دم أمرىء مسلم إلا فى إحدى ثلاث : الردة عن الإسلام ، والزنا بعد الإحصان، ولا والله ما كان ذلك منى فى جاهلية ولا إسلام ، أو رجل قتل رجلا فيقاد به . فقال بعضهم : إنه ليقول مقالا. وقال آخر : لئن سمعتم منه ليصرفنكم ، فأبوا، ورموه بالسهام ، واستقبلوه بما لا يستقبل به مثله ، ثم أشرف عليهم عبد الله بن سلام ، وكان من أهل الدار ، فقال : يا معشر من حاصر دار عثمان من المهاجرين والأنصار ، ممن أنعم الله عليهم بالإسلام ، لا تقتلوا عثمان. فوالله إن حقه على كل مؤمن لحق الوالد على ولده ، ووالله إن على حوائط المدينة اثنى عشر ألف ملك منذ أن أمدّ الله بهم نبيكم صلى الله عليه وسلم ، ووالله لئن قتلتموه ليسخطن عليكم ربكم، ولتتفرقن ملائكته عنكم وليقتلن بقتله أقواماً هم فى الأصلاب وما خلقوا فى الأرحام وإنى لأجده فى التوراة التى أنزل الله على موسى عليه السلام، وكتب بيده عز وجل إليكم بالعبرانى وبالعربى. خليفتكم المظلوم الشهيد والذى نفسى بيده لئن قتلتموه لا تؤدى بعده طاعة إلا عن مخافة، ولا توصل رحم

إلا عن مكافأة(١) وليقتلن به الرجال ومن فى الأصلاب. فقالوا الله: أيا يهودى، أشبع بطنك، وكسا ظهرك والله لا ينتطح فيه شاتان، ولا يتنافر فيه ديكان، فقال: أما الشاتان والديكان فصدقتم، ولكن التيسان(١) الأكبران يتناطحان فيه فحصبوه ورموه حتى شجوه. فالتفت إلى عثمان، فقال له: زعموا أنك أشبعت بطنى وكسوت ظهرى، فاصبر يا أمير المؤمنين، فو الذى نفسى بيده إنى أجدك فى كتاب الله تعالى المنزل: الخليفة المظلوم الشهيد، فرميت بالسهام من كل جانب، وكان الحسن بن على حاضراً، فأصابه سهم، فخضبه بالدم، وأصاب مروان سهم، وهو فى الدار، وخضب محمد بن طلحة، وشج قنبر مولى على فخشى محمد بن أبى بكر أن يغضب بنو هاشم للحسن فيثيروها فتنة.

قتل عثمان رضى الله عنه وكيف كان

قال: وذكروا أن محمد بن أبى بكر لما خرج الحسن بن على أخذ بيد رجلين، فقال لهما: إن جاءت بنو هاشم، فرأوا الدماء على وجه الحسن، كشفوا الناس عن عثمان، وبطل ما تريدون ولكن قوموا حتى نتسور عليه، فنقتله من غير أن يعلم أحد، فتسور هو وصاحباه من دار رجل من الأنصار، حتى دخلوا على عثمان، وما يعلم أحد ممن كان معه، لأن كل من معه كان فوق البيت، ولم يكن معه إلا امرأته، فدخل عليه محمد بن أبى بكر فصرعه، وقعد على صدره، وأخذ بلحيته، وقال: يانعثل(٢). ما أغنى عنك معاوية، وما أغنى عنك ابن عامر وابن أبى سرح. فقال له عثمان، لو رآنى أبوك رضى الله عنه لبكانى، ولساءه مكانك منى، فتراخت يده عنه، وقام عنه وخرج فدعا عثمان بوضوء فتوضأ، وأخذ مصحفاً، فوضعه فى حجره، ليتحرم(٣) به ودخل عليه رجل من أهل الكوفة بمشقص(٤) فى يده، فوجأ به(٥) منكبه مما يلى الترقوة، فأدماه ونضح الدم على ذلك المصحف، وجاء آخر فضربه برجله، وجاء آخر فوجأه بقائم سيفه، فغشى عليه، ومحمد بن أبى بكر لم يدخل مع هؤلاء، فتصايح نساؤه، ورش الماء على وجهه فأفاق، فدخل محمد بن أبى بكر وقد أفاق فقال له: أى نعثل، غيرت وبدلت وفعلت. ثم دخل رجل من أهل مصر، فأخذ بلحيته، فنتف منها خصله، وسل سيفه، وقال: افرجوا لى، فعلاه بالسيف، فتلقاه عثمان بيده: فقطعها، فقال عثمان أما والله إنها أول يد خطت المفصل، وكتبت

---

(١) يريد أن الإيمان ينزع من القلوب ويحل محله الخوف والحرص على الدنيا فالذى يصل رحمه يرجو منهم جزاء على صلته لهم أى لا يصلها ابتغاء وجه الله وإنما لغرض الدنيا

(٢) يريد عليا ومعاوية، والعرب تشبه الرجل الشجاع بالتيس، وهو ذكر المعز.

(٣) النعثل: الشيخ الأحمق، ورجل ذو لحية كان يشبه به عثمان رضى الله عنه.

(٤) يتحرم به: يصير به كأنه فى حرم لا يجرؤ أحد على قتله.

(٥) المشقص: نصل عريض أو طويل أو سهم فيه نصل عريض أو طويل.

(٦) وجأ به: ضرب به أو طعن به.

القرآن ، ثم دخل رجل أزرق قصير مجدر ، ومعه جرز[١] من حديد ، فمشى إليه فقال: على أي ملة أنت يانعثل ، فقال : لست بنعثل ، ولكنى عثمان بن عفان ، وأنا على ملة إبراهيم حنيفا وما أنا من المشركين . قال : كذبت، وضربه بالجرز على صدغه الأيسر فغسله الدم ، وخر على وجهه ، وحالت نائلة بنت الفرافصة زوجته بينه وبينه ، وكانت جسيمة ، وألقت بنت شيبة نفسها عليه ، ودخل عليه رجل من أهل مصر ، ومعه سيف مصلت ، فقال : والله لأقطعن أنفه ، فعالج امرأته عنه ، فكشف عنها درعها . فلما لم يصل إليه أدخل السيف بين قرطها ومنكبها ، فضربت على السيف،فقطع أناملها ، فقالت : يارباح ، غلام لعثمان أسود ومعه سيف، أعن عني هذا ، فضربه الأسود فقتله ، ثم دخل آخر معه سيف فقال : افرجوا لى ، فوضع ذباب السيف فى بطن عثمان ، فأمسكت نائلة زوجته السيف ، فحز أصابعها، ومضى السيف فى بطن عثمان فقتله ، فخرجت امرأته وهى تصيح ، وخرج القوم هاربين من حيث دخلوا ، فلم يسمع صوت نائلة ، لما كان فى الدار من الجلبة ، فصعدت امرأته إلى الناس ، فقالت إن أمير المؤمنين قد قتل. فدخل الحسن والحسين ومن كان معهما ، فوجدوا عثمان مقتولا قد مثل به فأ كبوا عليه يبكون وخرجوا فدخل الناس فوجدوه مقتولا فبلغ علياً الخبر وطلحة والزبير وسعدا ومن كان بالمدينة فخرجوا وقد ذهبت عقولهم ، فدخلوا عليه واسترجعوا ، وأ كبوا عليه يبكون ويُعولون حتى غشى على علي ثم أفاق،فقال لابنيه: كيف قتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب؟فرفع يده فضرب الحسن والحسين ، وشتم محمد بن طلحة ، ولعن عبدالله بن الزبير ، وخرج على وقد سلب عقله، لا يدرى ما يستقبل من أمره ، فقال طلحة : مالك يا أبا الحسن ضربت الحسن والحسين ؟ فقال : ياطلحة ، يقتل أمير المؤمنين ولم تقم عليه بينة ولا حجة ، فقال طلحة : لو دفع مروان لم يقتل . فقال على : لو دفع مروان قتل قبل أن تقوم عليه حكومة . فخرج على فأتى منزله ، وأغلق الباب ، وكتبت نائلة بنت الفرافصة إلى معاوية تصف دخول القوم على عثمان ، وأخذه المصحف ليتحرم به ، وما صنع محمد بن أبى بكر وأرسلت بقميص عثمان مضرجاً بالدم ممزقا ، وبالخصلة التى نتفها الرجل المصرى من لحيته ، فعقدت الشعر فى زر القميص ، ثم دعت النعمان ابن بشير الأنصارى ، فبعثته إلى معاوية، ومضى بالقميص حتى أتى على يزيد بن أسيد ممدا لعثمان بعثه معاوية فى أربعة آلاف ، فأخبرهم بقتل عثمان فانصرفوا إلى الشام . قال : ثم دخل أهل مصر الدار ؛ فلما رأوا عثمان مقتولا ندموا واستحيوا وكره أ كثرهم ذلك ، وثار أهل الدار فى وجوههم ، فأخرجوهم منها . ثم اقتتلوا عند الباب ، فضرب مروان بالسيف فصرع[٢] .

---

(١) الجرز بضم الجيم وسكون الراء : عمود من حديد .
(٢) صرع : طرح على الأرض .

دفن عثمان بن عفان رضى الله عنه

قال : وذكروا أن عبد الرحمن بن أزهر ، قال : لم أكن دخلت فى شىء من أمر عثمان ، لا عليه ولا له ، فإنى لجالس بفناء دارى ليلا بعدما قتل عثمان بليلة إذ جاءنى المنذر بن الزبير ، فقال : إن أخى يدعوك فقمت إليه ، فقال لى : إنا أردنا أن ندفن عثمان ، فهل لك ؟ قلت : والله ما دخلت فى شىء من شأنه ، وما أريد ذلك ، فانصرفت عنه ، ثم اتبعته ، فإذا هو فى نفر فيهم جبير بن مطعم، وأبو الجهم بن حذيفة ، والمسور بن مخرمة ، وعبد الرحمن ابن أبى بكر ، وعبد الله بن الزبير، فاحتملوه على باب وإن رأسه ليقول : طق طق ،فوضعوه فى موضع الجنائز ، فقام إليهم رجال من الأنصار ، فقالوالهم : لاوالله لا تصلون عليه . فقال أبو الجهم : ألا تدعونا نصلى عليه ، فقد صلى الله تعالى عليه وملائكته . فقال له رجل منهم : إن كنت فأدخلك الله مدخله ، فقال له : حشرنى الله معه . فقال له : إن الله حاشرك مع الشياطين ، والله إن تركنا كم به لعجز منا. فقال القوم لأبى الجهم اسكت عنهم وكف،فسكت ، فاحتملوه، ثم انطلقوا مسرعين كأنى أسمع وقع رأسه على اللوح ، حتى وضعوه فى أدنى البقيع فأتاهم جبلة بن عمر الساعدى من الأنصار ، فقال : لا والله لا تدفنوه فى بقيع رسول الله ، ولا نترككم تصلون عليه ، فقال أبو الجهم : انطلقوا بنا ، إن لم نصل عليه فقد صلى الله عليه، فخرجوا ومعهم عائشة بنت عثمان ، معها مصباح فى حق، حتى إذا أتوا بهحش كوكب[1] حفروا له حفرة ،ثم قاموا يصلون عليه ، وأمهم جبير بن مطعم ، ثم دلوه فى حفرته ؛ فلما رأته ابنته صاحت ، فقال ابن الزبير : والله لئن لم تسكتى لأضربن الذى فيه عيناك ، فدفنوه، ولم يلحدوه بلبن[2]،وحثوا عليه التراب حثوا .

بيعة على بن أبى طالب كرم الله وجهه وكيف كانت

قال : وذكروا أنه لما كان فى الصباح اجتمع الناس فى المسجد ، وكثر الندم والتأسف على عثمان رحمه الله ، وسقط فى أيديهم ، وأكثر الناس على طلحة والزبير واتهموهما بقتل عثمان ، فقال الناس لهما : أيها الرجلان ، قد وقعتما فى أمر عثمان ، فخليا عن أنفسكما ؛ فقام طلحة فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، إنا والله ما نقول اليوم إلا ما قلناه أمس ، إن عثمان خلط الذنب بالتوبة ، حتى كرهنا ولايته وكرهنا أن نقتله وسرنا أن نكفاه ، وقد كثر فيه اللجاج ، وأمره إلى الله ، ثم قام الزبير فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال أيها الناس إن الله قد رضى لكم الشورى ، فأذهب بها الهوى ، وقد تشاورنا فرضينا علياً فبايعوه ، وأما قتل عثمان فإنا

---

(١) حش كوكب : بضم الحاء موضعا بالمدينة .
(٢) اللبن بكسر الباء : الطوب غير المحروق .

تقول فيه إن أمره إلى الله ، وقد أحدث أحداثاً والله وليه فيما كان ، فقام الناس ، فأتوا علياً في داره ، فقالوا : نبايعك ، فمديدك ، لابد من أمير ، فأنت أحق بها ، فقال : ليس ذلك إليكم ، إنما هو لأهل الشورى وأهل بدر ، فمن رضى به أهل الشورى وأهل بدر فهوالخليفة ، فنجتمع وننظر في هذا الأمر فأبى أن يبايعهم ، فانصرفوا عنه ، وكلم بعضهم بعضا فقالوا : يمضي قتل عثمان في الآفاق والبلاد فيسمعون بقتله ، ولا يسمعون أنه بويع لأحد بعده ، فيثور كل رجل منهم في ناحية ، فلا نأمن أن يكون في ذلك الفساد فارجعوا إلى علي ، فلا تتركوه حتى يبايع ، فيسير مع قتل عثمان بيعة علي ، فيطمئن الناس ويسكنون فرجعوا إلى علي ، وترددوا إلى الأشتر النخعي ، فقال لعلي : أبسط يدك نبايعك ، أو لتعصرن عينيك عليها ثالثة ، ولم يزل به يكلمه ، ويخوفه الفتنة ، ويذكر له أنه ليس أحد يشبهه ، فمد يده ، فبايعه الأشتر ومن معه ، ثم أتوا طلحة ، فقالوا له : اخرج فبايع ، قال : من ؟ قالوا : علياً . قال : تجتمع الشورى وتنظر ، فقالوا : اخرج فبايع ، فامتنع عليهم . فجاءوا به يلببونه ، فبايعه بلسانه ومنع يده ، فقال أبو ثور ، كنت فيمن حاصر عثمان فكنت آخذ سلاحي وأضعه ، وعلي ينظر إلى لا يأمرني ولا ينهاني ، فلما كانت البيعة له ، خرجت في أثره ، والناس حوله يبايعونه ، فدخل حائطا من حيطان بني مازن ، فألجئوه إلى نخلة ، وحالوا بيني وبينه ، فنظرت إليهم وقد أخذت أيدي الناس ذراعه ، تختلف أيديهم على يده ثم أقبل إلى المسجد الشريف ، وكان أول من صعد المنبر طلحة فبايعه بيده ، وكانت أصابعه شلاء ، فتطيرمنها علي ، فقال: ما أخلقها أن تنكث ، ثم بايعه الزبير وسعد وأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم جميعاً ، ثم نزل فدعا الناس ، وأمر مروان ، فهرب منه ، وطلب نفراً من بني أميه وابن أبي معيط فهربوا ، وخرجت عائشة باكية تقول قتل عثمان رحمه الله ، فقال لها عمار : بالأمس تحرضين عليه الناس ، واليوم تبكينه ، ثم جاء عليّ إلى امرأة عثمان فقال لها : من قتل عثمان ؟ قالت : لا أدري ، دخل عليه رجال لا أعرفهم إلا أن أرى وجوههم ، وكان معهم محمد بن أبي بكر ، فدعا علي محمداً ، فسأله عما ذكرت امرأة عثمان ، فقال محمد : صدقت ، قد والله دخلت عليه ، فذكر لي أبي ، فقمت عنه ، وأنا تائب إلى الله تعالى ، والله ما قتلته ، ولا أمسكته ، فقالت : صدق ، ولكن هو أدخلهم . قال : ثم خرج طلحة ، فلقى عائشة ، فقالت له : ما صنع الناس ؟ قال : قتلوا عثمان . قالت : ثم ما صنعوا ؟ قال : بايعوا علياً ، ثم أتوني فأكرهوني وليبوني حتى بايعت . قالت : وما لعلي يستولي على رقابنا ، لا أدخل المدينة ولعلي فيها سلطان ، فرجعت . وكان الزبير خارجاً لم يشهد قتل عثمان ، وكان عمرو بن العاص بفلسطين يوم قتل عثمان ، فطلع عليه راكب من الحجاز ، فقال له:ما وراءك ؟ قال تركت عثمان محصوراً ، قال عمرو:قد يضرط العير والمكواة في النار[1]

---

(١) هذا مثل عربي : معناه أن عثمان لا ينفعه شيء .

ثم لبث أياماً ، فطلع عليه راكب آخر ، فقال له عمرو : ما الخبر ؟ قال : قتل عثمان . قال : فما فعل الناس ؟ فقال : بايعوا علياً . قال : فما فعل علي في قتلة عثمان ؟ قال : دخل عليه الوليد ابن عقبة فسأله عن قتله ، فقال : ما أمرت ولا نهيت ، ولا سرني ولا ساءني . قال : فما فعل بقتلة عثمان ؟ فقال : آوى ولم يرض ، وقد قال له مروان : إن لا تكن أمرت فقد توليت الأمر ، وإلا تكن قتلت فقد أويت القاتلين ، فقال عمرو بن العاص : خلط والله أبو الحسن ، قال : ثم كتب عمرو بن العاص إلى سعد بن أبي وقاص يسأله عن قتل عثمان : ومن قتله : ومن تولى كبره ؟ فكتب إليه سعد : إنك سألتني من قتل عثمان ؟ وإني أخبرك أنه قتل بسيف سلته عائشة ، وصقله طلحة ، وسمه ابن أبي طالب ، وسكت الزبير وأشار بيده ، وأمسكنا نحن ، ولو شئنا دفعنا عنه ، ولكن عثمان غير وتغير ، وأحسن وأساء ، فإن كنا أحسنا فقد أحسنا ، وإن كنا أسأنا فنستغفر الله ، وأخبرك أن الزبير مغلوب بغلبة أهله وبطلبه بذنبه ، وطلحة لو يجد أن يشق بطنه من حب الإمارة لشقه . قال : وكان ابن عباس غائباً بمكة المشرفة : فأقبل إلى المدينة وقد بايع الناس علياً . قال ابن عباس : فوجدت عنده المغيرة بن شعبة ، فجلست حتى خرج ، ثم دخلت عليه ، فسألني وساءلته : ثم قلت له : ما قال لك الخارج من عندك آنفاً ؟ قال : قال لي قبل هذه الدخلة ، أرسل إلى عبد الله بن عامر بعهده على البصرة ، وإلى معاوية بعهده على الشام ، فإنك تهدئ عليك البلاد ، وتسكن عليك الناس . ثم أتاني الآن ، فقال لي : إني كنت أشرت عليك برأي لم أتعقبه ، فلم أر ذلك رأياً ، وإني أرى أن تنبذ إليهما العداوة ، فقد كفاك الله عثمان ، وهما أهون موتة منه . فقال له ابن عباس : أما المرة الأولى فقد نصحك فيها ، وأما الثانية فقد غشك فيها ؛ قال : فإني قد وليتك الشام فسر إليها ؛ قال : قلت : ليس هذا برأي ، أترى معاوية وهو ابن عم عثمان مخلياً بيني وبين عمله ، ولست آمن إن ظفر بي أن يقتلني بعثمان ، وأدنى ما هو صانع أن يحبسني ويحكم علي ، ولكن اكتب إلى معاوية ، فمنه وعده ، فإن استقام لك الأمر فابعثني ؛ قال : ثم أرسل بالبيعة إلى الآفاق ، وإلى جميع الأمصار ؛ فجاءته البيعة من كل مكان إلا الشام ، فإنه لم يأته منها بيعة. فأرسل إلى المغيرة بن شعبة ، فقال له : سر إلى الشام فقد وليتكها . قال : تبعثني إلى معاوية وقد قتل ابن عمه ، ثم آتيه والياً ، فيظن أني من قتلة ابن عمه ؟ ولكن إن شئت ابعث إليه بعهده ، فإنه بالحرى إذا بعثت له بعهده أن يسمع ويطيع . فكتب علي إلى معاوية : أما بعد فقد وليتك ما قبلك من الأمر والمال : فبايع من قبلك ؛ ثم اقدم إلي في ألف رجل من أهل الشام . فلما أتى معاوية كتاب علي دعا بطومار فكتب فيه :

من معاوية إلى علي ، أما بعد ، فإنه :

ليس بيني وبين قيس عتاب غير طعن الكلى وضرب الرقاب

فلما أتى علياً الكتاب، ورأى ما فيه، وما هو مشتمل عليه، وكره ذلك، وقام فأتى منزله فدخل عليه الحسن ابنه، فقال له: أما والله كنت أمرتك فعصيتني، فقال له علي: وما أمرتني به فعصيتك فيه؟ قال: أمرتك أن تركب رواحلك، فتلحق بمكة المشرفة، فلا تتهم به، ولا تحمل شيئاً من أمره فعصيتني، وأمرتك حين دعيت إلى البيعة أن لا تبسط يدك إلا على بيعة جماعة، فعصيتني، وأمرتك حين خالف عليك طلحة والزبير أن لا تكرههما على البيعة، وتخلي بينهما وبين وجههما، وتدع الناس يتشاورون عاماً كاملاً، فوالله لو تشاوروا عاماً مازويت عنك، ولا وجدوا منك بداً، وأنا آمرك اليوم أن تقيلهما بيعتهما، وترد إلى الناس أمرهم، فإن رفضوك رفضتهم، وإن قبلوك قبلتهم، فإني والله قد رأيت الغدر في رءوسهم، وفي وجوههم النكث والكراهية. فقال له علي، أنا إذاً مثلك، لا والله يا بني، ولكن أقاتل بمن أطاعني من عصاني، وايم الله يابني ما زلت مبغياً علي منذ هلك جدك، فقال له الحسن: وايم الله يا أبت ليظهرن عليك معاوية، لأن الله تعالى قال (ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطانا) فقال علي يا بني، وما علينا من ظلمه، والله ما ظلمناه، ولا أمرنا ولا نصرنا عليه، ولا كتبت فيه إلى أحد سواداً في بياض، وإنك لتعلم أن أباك أبرأ الناس من دمه ومن أمره. فقال له الحسن: دع عنك هذا، والله إني لا أظن، بل لا أشك أن ما بالمدينة عاتق[1] ولا عذراء ولا صبي إلا وعليه كفل من دمه. فقال: يا بني إنك لتعلم أن أباك قد رد الناس عنه مراراً أهل الكوفة وغيرهم، وقد أرسلتكما جميعاً بسيفيكما لتنصراه وتموتا دونه، فنهاكما عن القتال، ونهى أهل الدار أجمعين. وايم الله لو أمرني بالقتال لقاتلت دونه، أو أموت بين يديه. قال الحسن، دع عنك هذا، حتى يحكم الله بين عباده يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون.

قال: ثم دخل المغيرة بن شعبة، فقال له علي: هل لك يا مغيرة في الله؟ قال: فأين هو يا أمير المؤمنين؟ قال: تأخذ سيفك، فتدخل معنا في هذا الأمر، فتدرك من سبقك، وتسبق من معك، فإني أرى أموراً لابد للسيوف أن تشحذ لها، وتقطف الرءوس بها، فقال المغيرة: إني والله يا أمير المؤمنين ما رأيت عثمان مصيباً، ولا قتله صواباً، وإنها لظلمة تتلوها ظلمات، فأريد يا أمير المؤمنين — إن أذنت لي — أن أضع سيفي وأنام في بيتي حتى تنجلي الظلمة ويطلع قمرها، فنسرى مبصرين، نقفو آثار المهتدين، ونتقي سبيل الجائرين. قال علي:

(١) العاتق: المرأة في منتصف عمرها، والعذراء البكر التي لم تتزوج.

قد أذنت لك ، فسكن من أمرك على ما بدا لك . فقام عمار فقال : معاذ الله يا مغيرة تقعد أعمى بعد أن كنت بصيرا . يغلبك من غلبته ، ويسبقك من سبقته ، انظر ما ترى وما تفعل ، فأما أنا فلا أكون إلا فى الرعيل الأول . فقال له المغيرة ، يا أبا اليقظان . إياك أن تكون كقاطع السلسلة : فر من الضحل[1] فوقع فى الرمضاء[2] . فقال على لعمار : دعه ، فإنه لن يأخذ من الآخرة إلا ما خالطته الدنيا ، أما والله يا مغيرة إنها التوبة المؤدية ، تؤدى من قام فيها إلى الجنة ، ولما اختار بعدها ، فإذا غشيناك فنم فى بيتك . فقال المغيرة : أنت والله يا أمير المؤمنين أعلم منى ، ولئن لم أقاتل معك لا أعين عليك ، فإن يكن ما فعلت صواباً فإياه أردت ، وإن يكن خطأ فمنه نجوت ، ولى ذنوب كثيرة ، لا قبل لى بها إلا الاستغفار منها .

خطبة على بن أبى طالب كرم الله وجهه

قال : وذكروا أن البيعة لما تمت بالمدينة ، خرج على إلى المسجد الشريف ، فصعد المنبر ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه ، ووعد الناس من نفسه خيراً ، وتألفهم جهده ، ثم قال : لا يستغنى الرجل وإن كان ذا مال وولد عن عشيرته ، ودفاعهم عنه بأيديهم وألسنتهم . هم أعظم الناس حيطة من ورائه ، وإليهم سعيه وأعطفهم عليه إن أصابته مصيبة ، أو نزل به بعض مكاره الأمور ، ومن يقبض يده عن عشيرته فإنه يقبض عنهم يداً واحدة ، وتقبض عنه أيد كثيرة ، ومن بسط يده بالمعروف ابتغاء وجه الله تعالى ، يخلف الله له ما أنفق فى دنياه ، ويضاعف له فى آخرته ، واعلموا أن لسان صدق يجعله الله للمرء فى الناس ، خير له من المال ، فلا يزدادن أحدكم كبرياء ، ولا عظمة فى نفسه ، ولا يغفل أحدكم عن القرابة أن يصلها ، بالذى لا يزيده إن أمسكه ، ولا ينقصه إن أهلكه . واعلموا أن الدنيا قد أدبرت ، والآخرة قد أقبلت ، ألا وإن المضمار[3] اليوم ، والسبق[4] غداً . ألا وإن السبقة[5] الجنة . والغاية النار ، ألا إن الأمل يشهى القلب ، ويكذب الوعد ، ويأتى بغفلة ، ويورث حسرة فهو غرور ، وصاحبه فى عناء ، فافزعوا إلى قوام دينكم ، وإتمام صلاتكم ، وأداء زكاتكم ، والنصيحة لإمامكم ، وتعلموا كتاب الله ، واصدقوا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأوفوا

---

(١) الضحل : الماء القليل .
(٢) الرمضاء : الأرض الشديدة الحرارة .
(٣) المضمار : مكان السباق .
(٤) السبق : السباق .
(٥) السبقة بضم السين وسكون الباء : ما يتسابق عليه .

بالعهد إذا عاهدتم ، وأدوا الأمانات إذا ائتمنتم وارغبوا فى ثواب الله ، وارهبوا عذابه ، واعملوا الخير تجزوا خيراً يوم يفوز بالخير من قدم الخير .

اختلاف الزبير وطلحة على علىّ كرم الله وجهه

قال : وذكروا أن الزبير وطلحة أتيا علياً بعد فراغ البيعة ، فقالا : هل تدرى على ما بايعناك يا أمير المؤمنين ؟ قال علىّ : نعم ، على السمع والطاعة ، وعلى ما بايعتم عليه أبا بكر وعمر وعثمان، فقالا : لا ، ولكنا بايعناك على أنا شريكاك فى الأمر ، قال على : لا ، ولكنكما شريكان فى القول والاستقامة والعون على العجز والأولاد ، قال : وكان الزبير لايشك فى ولاية العراق، وطلحة فى اليمن ، فلما استبان لهما أن علياً غير موليهما شيئاً ، أظهرا الشكاة[1] ، فتكلم الزبير فى ملأ من قريش ، فقال : هذا جزاؤنا من على ، قمنا له فى أمر عثمان ، حتى أثبتنا عليه الذنب ، وسببنا له القتل ، وهو جالس فى بيته وكفى الأمر . فلما نال بنا ما أراد ، جعل دوننا غيرنا ، فقال طلحة : ما اللوم إلا أنا كنا ثلاثة من أهل الشورى ، كرهه أحدنا وبايعناه ، وأعطيناه ما فى أيدينا ، ومنعنا ما فى يده ، فأصبحنا قد أخطأنا ما رجونا . قال : فانتهى قولهما إلى على فدعا عبد الله بن عباس وكان استوزره ، فقال له : بلغك قول هذين الرجلين ؟ قال نعم ، بلغنى قولهما . قال : فما ترى ؟ قال : أرى أنهما أحبا الولاية . فول البصرة الزبير ، وول طلحة الكوفة ، فإنهما ليسا بأقرب إليك من الوليد وابن عامر من عثمان ، فضحك على ، ثم قال : ويحك ، إن العراقين بهما الرجال والأموال ، ومتى تملكا رقاب الناس يستميلا السفيه بالطمع ، ويضربا الضعيف بالبلاء ، ويقويا على القوى بالسلطان ، ولو كنت مستعملاً أحداً لضره ونفعه لاستعملت معاوية على الشام ، ولولا ما ظهر لى من حرصهما على الولاية ، لكان لى فيهما رأى . قال : ثم أتى طلحة والزبير إلى على ، فقالا : يا أمير المؤمنين ، ائذن لنا فى العمرة ، فإن تقم إلى انقضائها رجعنا إليك ، وإن تسر نتبعك . فنظر إليهما على ، وقال : نعم ، والله ما العمرة تريدان ، وإنما تريدان أن تمضيا إلى شأنكما ، فمضيا .

خلاف عائشة رضى الله عنها على علىّ

قال : وذكروا أن عائشة لما أتاها أنه بويع لعلى . وكانت خارجة عن المدينة : فقيل لها : قتل عثمان . وبايع الناس علياً . فقالت : ما كنت أبالى أن تقع السماء على الأرض ، قتل والله مظلوماً ، وأنا طالبة بدمه ، فقال لها عبيد : إن أول من طعن عليه وأطمع الناس فيه لأنت ، ولقد قلت : اقتلوا نعثلا فقد فجر ، فقالت عائشة : قد والله قلت وقال الناس ، وآخر قولى خير من أوله ، فقال عبيد : عذر والله ضعيف يا أم المؤمنين . ثم قال:

---

(١) الشكاة : الشكوى والوجع .

منك البداء ومنك الغير ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الإمام وقلت لنا إنه قد كفر
فهبنا أطعناك فى قتله وقاتله عندنا من أمر

قال : فلما أتى عائشة خبر أهل الشام أنهم ردوا بيعة على ، وأبوا أن يبايعوه ، أمرت فعمل لها هودج من حديد ، وجعل فيه موضع عينيها ، ثم خرجت ومعها الزبير وطلحة وعبد الله بن الزبير ومحمد بن طلحة .

اعتزال عبد الله بن عمر وسعد بن أبى وقاص ومحمد بن مسلمة عن مشاهدة على وحروبه

قال : وذكروا أن عمار بن ياسر قام إلى على ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ائذن لى آتى عبد الله بن عمر فأكلمه ، لعله يخف معنا فى هذا الأمر ، فقال على : نعم ، فأتاه ، فقال له : يا أبا عبد الرحمن ، إنه قد بايع علياً المهاجرون والأنصار ، ومن إن فضلناه عليك لم يسخطك ، وإن فضلناك عليه لم يرضك ، وقد أنكرت السيف فى أهل الصلاة ، وقد علمت أن على القاتل القتل ، وعلى المحصن الرجم ، وهذا يقتل بالسيف ، وهذا يقتل بالحجارة ، وأن علياً لم يقتل أحداً من أهل الصلاة ، فيلزمه حكم القاتل . فقال ابن عمر : يا أبا اليقظان ، إن أبى جمع أهل الشورى ، الذين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، فكان أحقهم بها على ، غير أنه جاء أمر فيه السيف ولا أعرفه ، ولكن والله ما أحب أن لى الدنيا وما عليها وأنى أظهرت أو أضمرت عداوة على ؟ قال : فانصرف عنه ، فأخبر علياً بقوله ، فقال على : لو أتيت محمد بن مسلمة الأنصارى ، فأتاه عمار ، فقال له محمد : مرحباً بك يا أبا اليقظان على فرقة ما بينى وبينك ، والله لولا ما فى يدى من رسول الله صلى الله عليه وسلم لبايعت علياً ، ولو أن الناس كلهم عليه لكنت معه ، ولكنه يا عمار كان من النبى أمر ذهب فيه الرأى ، فقال عمار . كيف؟ قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا رأيت المسلمين يقتتلون أو إذا رأيت أهل الصلاة . فقال عمار : فإن كان قال لك : إذا رأيت المسلمين فوالله لا ترى مسلمين يقتتلان بسيفهما أبداً ، إن كان قال لك : أهل الصلاة ، فمن سمع هذا معك ، إنما أنت أحد الشاهدين ، فتريد من رسول الله قولا بعد قوله يوم حجة الوداع : دماؤكم وأموالكم عليكم حرام إلا بحدث ، فتقول: يا محمد ، لا تقاتل المحدثين . قال : حسبك يا أبا اليقظان . قال : ثم أتى سعد بن أبى وقاص فكلمه ، فأظهر الكلام القبيح ، فانصرف عمار إلى على ، فقال له على : دع هؤلاء ارهط ،

أما ابن عمر فضعيف ، وأما سعد فحسود ، وذنبى إلى محمد بن مسلمة أنى قتلت أخاه يوم خيبر : مرحب اليهودى .

هروب مروان بن الحكم من المدينة المنورة

قال : وذكروا أن مروان بن الحكم لما بويع على هرب من المدينة ، فلحق بعائشة بمكة . فقالت له عائشة : ما وراءك ؟ فقال مروان ، غلبنا على أنفسنا : فقال له رجل من أهل مكة : إياك وعلياً فقد طلبك ، ففر من بين يديه . فقال مروان : لم ؟ فوالله ما يجد إلىّ سبيلا . أما هو فقد علمت أنه لا يأخذنى بظن ، ولا ينصب إلا على اليقين ، وايم الله ما أبالى إذا قصر علىّ سيفه ما طال علىّ من لسانه . فقال الرجل : إذا أطال الله عليك لسانه طال سيفه . قال مروان كلا إن اللسان أدب ، والسيف حكم .

خروج على من المدينة

قال : وذكروا أن علياً تردد بالمدينة أربعة أشهر : ينتظر جواب معاوية ، وقد كان كتب إليه كتاباً بعد كتاب يمنيه ويعده أولا ، ثم كتاباً يخوفه ويتواعده فحبس معاوية جواب كتابه ثلاثة أشهر ، ثم أتاه جوابه على غير ما يحب ، فلما أتاه ذلك شخص من المدينة فى تسعمائة راكب من وجوه المهاجرين والأنصار من أهل السوابق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعهم بشر كثير من أخلاط الناس ، واستخلف على المدينة قثم بن عباس ، وكان له فضل وعقل ، وأمره أن يشخص إليه من أحب الشخوص ، ولا يحمل أحداً على ما يكره ، فخف الناس إلى على بعده ، ومضى معه من ولده الحسن والحسين ومحمد ، فلما كان فى بعض الطريق ، أتاه كتاب أخيه عقيل بن أبى طالب ، وفيه : بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد يا أخى ، كلأك الله ، والله جارك من كل سوء ، وعاصمك من كل مكروه على كل حال ، وإنى خرجت معتمراً ، فلقيت عائشة معها طلحة والزبير وذووهما ، وهم متوجهون إلى البصرة ، قد أظهروا الخلاف ، ونكثوا البيعة ، وركبوا عليك قتل عثمان ، وتبعهم على ذلك كثير من الناس ، من طغاتهم وأوباشهم ، ثم مر عبد الله بن أبى سرح ، فى نحو من أربعين راكباً ، من أبناء الطلقاء[1]، من بنى أمية ، فقلت ، لهم وعرفت المنكر فى وجوههم : أبمعاوية تلحقون ؟ عداوة والله إنها منكم ظاهرة غير مستنكرة ، تريدون بها إطفاء نور الله ، وتغيير أمر الله . فأسمعنى القوم وأسمعتهم ثم قدمت مكة ، فسمعت أهلها يتحدثون أن الضحاك بن قيس أغار على الحيرة واليمامة ، فأصاب ما شاء

(١) الطلقاء : أهل مكة الذين أطلقهم الرسول صلى الله عليه وسلم وعفا عنهم يوم فتح مكه .

من أموالها، ثم انكفأ راجعاً إلى الشام، وأف لحياة فى زهو جرأ عليك الضحاك، وما الضحاك إلا فقع بقرقر[1] فظننت حين بلغنى ذلك أن أنصارك خذلوك ، فاكتب إلىّ يابن أمى برأيك وأمرك، فإن كنت الموت تريد ، تحملت إليك ببنى أخيك ، وولد أبيك ، فعشنا ما عشت ومتنا معك إذا مت ، فوالله ما أحب أن أبقى بعدك ، فوالله الأعز الأجل إن عيشا أعيشه بعدك فى الدنيا لغير هنىء ، ولا مرىء ، ولا نجيع[2] ، والسلام. فكتب إليه على كرم الله وجهه : أما بعد ياأخى، فكلأك الله كلاءة من يخشاه ، إنه حميد مجيد . قدم على عبد الرحمن الأزدى بكتابك ، تذكر فيه أنك لقيت ابن أبى سرح ، فى أربعين من أبناء الطلقاء من بنى أمية ، متوجهين إلى المغرب، وابن أبى سرح يا أخى طال ماكاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصد عن كتابه وسنته وبغاها عوجا، فدع ابن أبى سرح وقريشا وتركاضهم[3] فى الضلال ، فإن قريشا قد اجتمعت على حرب أخيك ، اجتماعها على رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل اليوم ، وجهلوا حقى، وجحدوا فضلى ، ونصبوا لى الحرب ، وجدوا فى إطفاء نور الله ، اللهم فاجز قريشا عنى بفعالها ، فقد قطعت رحمى ، وظاهرت على ، وسلبتنى سلطان ابن عمى ، وسلمت ذلك لمن ليس فى قرابتى ، وحقى فى الإسلام ، وسابقتى التى لا يدعى مثلها مدعٍ ، إلا أن يدعى ما لا أعرف ، ولا أظن الله يعرفه ، والحمد لله على ذلك كثيرا . وأما ماذكرت من غارة الضحاك على الحيرة واليمامة ، فهو أذل وألأم من أن يكون مر بها ، فضلا عن الغارة ، ولكن جاء فى خيل جريدة[4] فسرحت إليه جنداً من المسلمين ، فلما بلغه ذلك ولى هاربا ، فاتبعوه فلحقوه ببعض الطريق ، حين همت الشمس للاياب ، فاقتتلوا ، وقتل من أصحابه بضعة عشر رجلا ، ونجا هارباً ، بعد أن أخذ منه بالمخنق[5] ، فلولا الليل ما نجا . وأما ما سألت أن أكتب إليك فيه برأيى ، فإن رأيى جهاد المحلين حتى ألقى الله ، لا يزيدنى كثرة الناس حولى عزة ، ولا تفرقهم عنى وحشة لأنى محق ، والله مع المحق ، وما أكره الموت على الحق لأن الخير كله بعد الموت لمن عقل ودعا إلى الحق. وأما ما عرضت به من مسيرك إلىّ ببنيك وبنى أبيك ، فلا حاجة لى فى ذلك ، فذرهم راشداً مهدياً ، فوالله ما أحب أن تهلكوا معى إن هلكت ، وأنا كما قال أخو بنى سليم :

---

(١) الفقع: بفتح الفاء وكسرها وسكون القاف نبات طرى أبيض ، والقرقرة بفتح القافين الأرض الواطئة والمعنى أن أمره هين كهذا النبات الذى يسهل نيله ولا يصعب جنيه ، ويقال للذليل هو أذل من فقع بقرقرة أو هو فقع بقرقرة على التشبيه بهذا النبات .

(٢) الطعام النجيع الذي يهنأ آكله .

(٣) التركاض : الإسراع .

(٤) جريدة : الخيل الجريدة التى لا رجّالة فيها يريد أنها لا خطر منها .

(٥) أخذ منه بالمخنق : ضيق عليه .

فإن تسأليني كيف صبري فإنني صبور على ريب الزمان صليب
عزيز على أن أُرىَ بكآبة فيشمت واشٍ أو يساء حبيب

كتاب أم سلمة إلى عائشة

قال : وذكروا أنه لما تحدث الناس بالمدينة بمسير عائشة مع طلحة والزبير ، ونصبهم الحرب لعلى ، وتألفهم الناس كتبت أم سلمة إلى عائشة أما بعد : فإنك سُدّة بين رسول الله وبين أمته ، وحجابك مضروب على حرمته ، قد جمع القرآن الكريم ذيلك ، فلا تندحيه (١) ، وسكن عقيرتك(٢) ، فلا تصحريها ، الله من وراء هذه الأمة ، قد علم رسول الله مكانك ، لو أراد أن يعهد إليك ، وقد علمت أن عمود الدين لا يثبت بالنساء إن مال ، ولا يرأب بهن إن انصدع، حماديات(٣) النساء غض الأبصار وضم الذيول ، ما كنت قائلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لو عارضك بأطراف الجبال والفلوات ، على قعود من الإبل ، من منهل إلى منهل ، إن بعين الله مهواك ، وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تردين ، وقد هتكت حجابه الذى ضرب الله عليك ، وتركت عهيداه (٤) . ولو أتيتُ الذى تريدين ، ثم قيل لى ادخلى الجنة لا ستحييت أن ألقى الله هاتكة حجاباً قد ضربه على ، فاجعلى حجابك الذى ضرب عليك حصنك ، فابغيه منزلا لك حتى تلقيه ، فإن أطوع ما تكونين إذا مالزمته ، وأنصح ما تكونين إذا ما قعدت فيه ، ولو ذكرتك كلاماً قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم لنهشتنى نهش الحية ، والسلام .
فكتبت إليها عائشة : ما أقبلنى لوعظك ، وأعلمنى بنصحك ، وليس مسيرى على ما تظنين ، ولنعم المطلع مطلع فزعت فيه إلىّ فئتان متناجزتان ، فإن أقعد ففى غير حرج ، وإن أحرج مالى مالا غنى بى عن الازدياد منه ، والسلام .

استنفار عدى بن حاتم قومه لنصرة على رضى الله عنه

قال : وذكروا أن ابن حاتم قام إلى على ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لو تقدمت إلى قومى أخبرهم بمسيرك وأستنفرهم ، فإن لك من طيىء مثل الذى معك . فقال على : نعم ، فافعل ، فتقدم عدى إلى قومه ، فاجتمعت إليه رؤساء طيىء ، فقال لهم : يا معشر طيىء ، إنكم أمسكتم

(١) لا تندحيه : لا توسعيه بخروجك إلى البصرة .
(٢) العقيرة : الصوت ، وتصحريها ترفعيها .
(٣) حماديات : جمع حمادى أى محامد النساء .
(٤) عهيداه : بضم العين وتشديد الهاء مفتوحة وسكون الياء : العهد .

عن حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشرك ، ونصرتم الله ورسوله فى الإسلام على الردة ، وعلىٌّ قادم عليكم، وقد ضمنت له مثل عدة من معه منكم ، فخفوا معه، وقد كنتم تقاتلون فى الجاهلية على الدنيا ، فقاتلوا فى الإسلام على الآخرة ، فإن أردتم الدنيا فعند الله مغانم كثيرة ، وأنا أدعوكم إلى الدنيا والآخرة ، وقد ضمنت عنكم الوفاء ، وباهيت بكم الناس ، فأجيبوا قولى ، فإنكم أعز العرب داراً ، لكم فضل معاشكم وخيلكم ، فاجعلوا أفضل المعاش للعيال وفضول الخيل للجهاد، وقد أظلكم علىٌّ والناس معه ، من المهاجرين والبدريين والأنصار ، فكونوا أكثرهم عدداً ، فإن هذا سبيل للحى فيه الغنى والسرور ، وللقتيل فيه الحياة والرزق ، فصاحت طيىء : نعم نعم، حتى كاد أن يصم من صياحهم . فلما قدم على طيىء أقبل شيخ من طيىء قد هرم من الكبر ، فرفع له من حاجبيه ، فنظر إلى علىٍّ ، فقال له أنت ابن أبى طالب ؟ قال نعم . قال : مرحبا بك وأهلا ، قد جعلناك بيننا وبين الله ، وعديا بيننا وبينك ، ونحن بينه وبين الناس ، لو أتيتنا غير مبايعين لك لنصرناك ، لقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأيامك الصالحة ،ولئن كان ما يقال فيك من الخير حقاً إن فى أمرك وأمر قريش لعجبا ، إذ أخرجوك وقدموا غيرك . سر ، فو الله لا يتخلف عنك من طيىء إلا عبد أو دعىّ إلا بإذنك . فشخص معه من طيىء ثلاثة عشر آلاف راكب .

استنفار زفر بن زيد قومه لنصرة على

قال : وذكروا أن زفر بن زيد بن حذيفة الأسدى ، وكان من سادة بنى أسد قام إلى على فقال : يا أمير المؤمنين ، إن طيئا إخواننا وجيراننا قد أجابوا عديا . ولى فى قومى طاعة ، فأذن لى فآتيهم . قال : نعم ، فأتاهم فجمعهم وقال : يا بنى أسد ، إن عدى بن حاتم ضمن لعلى قومه فأجابوه ، وقضوا عنه ذمامه ، فلم يعتل الغنى بالغنى ، ولا الفقير بالفقر ، وواسى بعضهم بعضا ، حتى كأنهم المهاجرون فى الهجرة ، والأنصار فى الأثرة ؛ وهم جيرانكم فى الديار ، وخلطاؤكم فى الأموال ، فأنشدكم الله لا يقول الناس غداً : نصرت طيىء وخذلت بنو أسد ، وإن الجار يقاس بالجار ، كالنعل بالنعل ، فإن خفتم فتوسعوا فى بلادهم ، وانضموا إلى جبلهم ، وهذه دعوة لها ثواب من الله فى الدنيا والآخرة . فقام إليه رجل منهم ، فقال له : يا زفر ، إنك لست كعدى ، ولا أسد كطيىء ، ارتدت العرب، فثبتت طيىء على الإسلام ، وجاد عدى بالصدقة ، وقاتل بقومه قومك ، فوالله لو نفرت طيىء بأجمعها لمنعت رعاؤها دارها ، ولو أن معنا أضعافنا لخفنا على دارنا ، فإن كان لا يرضيك منا إلا ما أرضى عدياً من طيىء ، فليس ذلك عندنا ، وإن كان يرضيك قدر ما يرد عنا عذر الخذلان ، وإثم المعصية ، فلك ذلك منا .

فسار معه من أسد جماعة ليست كجماعة طيء ، حتى قدم بها على عليّ .

توجه عائشة وطلحة والزبير إلى البصرة

قال : وذكروا أنه لما اجتمع طلحة والزبير وذووهما مع عائشة ، وأجمعوا على المسير من مكة ، وأتاهم عبد الله بن عامر ، فدعاهم إلى البصرة ، ووعدهم الرجال والأموال ، فقال سعيد ابن العاصي لطلحة والزبير : إن عبد الله بن عامر كلمه إلى البصرة ، وقد فر من أهلها فرار العبد الآبق ، وهم فى طاعة عثمان ، ويريد أن يقاتل بهم عليا ، وهم فى طاعة على ، وخرج من عندهم أميراً ، ويعود إليهم طريداً ، وقد وعدكم الرجال والأموال ، فأما الأموال فعنده ، وأما الرجال فلا رجل . فقال مروان بن الحكم . أيها الشيخان ، ما يمنعكما أن تدعوا الناس إلى بيعة مثل بيعة على ، فإن أجابوكما عارضتماه ببيعة كبيعته ، وإن لم يجيبوكما عرفتما مالكما فى أنفس الناس . فقال طلحة : يمنعنا أن الناس بايعوا علياً بيعة عامة ، فبم ننقضها ؟ وقال الزبير : ويمنعنا أيضاً من ذلك تثاقلنا عن نصرة عثمان ، وخفتنا إلى بيعة على . فقال الوليد بن عقبة : إن كنتما أسأتما فقد أحسنتما ، وإن كنتما أخطأتما فقد أصبتما [1] ، وأنتما اليوم خير منكما أمس . فقال مروان : أما أنا فهواى الشام ، وهواكما البصرة ، وأنا معكم وإن كانت الهلكة . فقال سعيد بن العاصى : أما أنا فراجع إلى منزلى . فلما استقام أمرهم ، واجتمعت كلمتهم على المسير ، قال طلحة للزبير : إنه ليس شيء أنفع ولا أبلغ فى استمالة أهواء الناس من أن نشخص لعبد الله بن عمر ، فأتياه فقالا : يا أبا عبد الرحمن ، إن أمنا عائشة خفت لهذا الأمر ، رجاء الإصلاح بين الناس ، فاشخص معنا ، فإن لك بها أسوة ، فإن بايعنا الناس فأنت أحق بها . فقال ابن عمر : أيها الشيخان ، أتريدان أن تخرجانى من بيتى ، ثم تلقيانى بين مخالب ابن أبى طالب ؟ إن الناس إنما يخدعون بالدينار والدرهم . وإنى قد تركت هذا الأمر عيانا فى عافية أنالها . فانصرفا عنه . وقدم يعلى بن منبه عليهم من اليمن ، وكان عاملا لعثمان ، فأخرج أربع مئة بعير ، ودعا إلى الحملان ، فقال الزبير : دعنا من إبلك هذه ، وأقرضنا من هذا المال ، فأقرض الزبير ستين ألفا ، وأقرض طلحة أربعين ألفا ، ثم سار القوم ، فقال الزبير : الشام بها الرجال والأموال ، وعليها معاوية ، وهو ابن عم الرجل ، ومتى نجتمع يولنا عليه ، وقال عبد الله بن عامر : البصرة ، فإن غلبتم عليا فلكم الشام ، وإن غلبكم على كان معاوية لكم جنة [2] ، وهذه كتب أهل البصرة إلىّ . فقال يعلى بن منبه ، وكان داهيا : أيها الشيخان ، قدرا قبل أن ترحلا أن معاوية قد سبقكم

---

(١) يريد إن كان حدث منكم إساءة وخطأ ، فقد حدث بعدها إحسان وإصابة .
(٢) جنة : بضم الجيم : وقاية وحمى .

إلى الشام وفيها الجماعة ، وأنتم تقدمون عليه غدا فى فرقة وهو ابن عم عثمان دونكم ، أرأيتم إن دفعكم عن الشام ، أو قال : أجعلها شورى ، ما انتم صانعون ؟ أتقاتلونه أم تجعلونها شورى فتخرجا منها ؟ وأقبح من ذلك أن تأتيا رجلا فى يديه أمر قد سبقكما إليه ، وتريدا أن تخرجاه منه ، فقال القوم : فإلى أين ؟ قال : إلى البصرة ، فقال الزبير لعبد الله بن عامر : من رجالُ البصرة ؟ قال ثلاثة ، كلهم سيد مطاع ، كعب بن سور[1] فى اليمن ، والمنذر بن ربيعة فى ربيعة ، والأحنف بن قيس فى مضر . فكتب طلحة والزبير إلى كعب بن سور : أما بعد ، فإنك قاضى عمر بن الخطاب ، وشيخ أهل البصرة ، وسيد أهل اليمن ، وقد كنت غضبت لعثمان من الأذى ، فاغضب له من القتل ، والسلام . وكتب إلى الأحنف بن قيس : أما بعد ، فإنك وافد عمر وسيد مضر ، وحليم أهل العراق ، وقد بلغك مصاب عثمان ، ونحن قادمون عليك ، والعيان أشفى لك من الخبر ، والسلام ، وكتب إلى المنذر : أما بعد ، فإن أباك كان رئيسا فى الجاهلية ، وسيدا فى الإسلام ، وإنك من أبيك بمنزلة المصلى[2] من السابق ، يقال : كاد أو لحق ، وقد قتل عثمانَ من أنت خير منه ، وغضب له من هو خير منك ، والسلام . فلما وصلت كتبهما إلى القوم ، قام زياد بن مضر ؟ والنعمان بن شوال ، وغزوان ، فقالوا : مالنا ولهذا الحى من قريش ؟ أيريدون أن يخرجونا من الإسلام بعد أن دخلنا فيه ؟ ويدخلونا فى الشرك بعد ما خرجنا منه ؟ قتلوا عثمان ، وبايعوا عليا ، لهم ما لهم ، وعليهم ما عليهم . وكتب كعب بن سور إلى طلحة والزبير : أما بعد ، فإنا غضبنا لعثمان من الأذى والغير باللسان ، فجاء أمر الغير فيه بالسيف ، فإن يك عثمان قتل ظالما ، فما لكما وله ؟ وإن كان قتل مظلوما فغيركما أولى به ، وإن كان أمره أشكل على من شهده ، فهو على من غاب عنه أشكل . وكتب الأحنف إليهما : أما بعد ، فإنه لم يأتنا من قبلكم أمر لا نشك فيه إلا قتل عثمان ، وأنتم قادمون علينا ، فإن يكن فى العيان فضل ، نظرنا فيه ونظرتم ، وإلا يكن فيه فضل فليس فى أيدينا ولا فى أيديكم ثقة ، والسلام . وكتب المنذر : أما بعد ، فإنه لم يلحقنى بأهل الخير إلا أن أكون خيرا من أهل الشر ، وإنما أوجب حق عثمان اليوم حقه أمس ، وقد كان بين أظهركم فخذلتموه ، فمتى استنبطتم هذا العلم ، وبدا لكم هذا الرأى ؟ فلما قرآ كتب القوم ساءهما ذلك وغضبا . ثم غدا مروان إلى طلحة والزبير ، فقال لهما : عاودا ابن عمر ، فلعله ينيب ، فعاوداه . فتكلم

---

(١) كعب بن سور : بضم السين وسكون الواو قاضى البصرة لعمر بن الخطاب رضى الله عنه

(٢) المصلى هو التالى للأول ، والسابق هو الأول .

طلحة ، فقال : يا أبا عبد الرحمن ، إنه والله لرب حق ضيعناه وتركناه ؛ فلما حضر العذر قضينا بالحق ، وأخذنا بالحظ ، إن عليا يرى إنفاذ بيعته ، وإن معاوية لا يرى أن يبايع له ، وإنا نرى أن نردها شورى ، فإن سرت معنا ومع أم المؤمنين صلحت الأمور ، وإلا فهى الهلكة . فقال ابن عمر : إن يكن قولكما حقا ففضلا ضيعت ، وإن يكن باطلا فشر منه نجوت ، واعلما أن بيت عائشة خير لها من هودجها ، وأنتما المدينة خير لكما من البصرة ، والذل خير لكما من السيف ، ولن يقاتل عليا إلا من كان خيرا منه ، وأما الشورى فقد والله كانت ، فقدم وأخرتما ، ولن يردها إلا أولئك الذين حكموا فيها ، فاكفيانى أنفسكما ، فانصرفا . فقال مروان : استعينا عليه بحفصة ، فأتيا حفصة ؛ فقالت : لو أطاعنى أطاع عائشة ، دعاه ، فاتركاه وتوجها إلى البصرة . وأتاهما عبد الله بن خلف ، فقال لهما : إنه ليس أحد من أهل الحجاز كان منه فى عثمان شىء إلا وقد بلغ أهل العراق ، وقد كان منكما فى عثمان من التحليب والتأليب ما لا يدفعه جحود ، ولا ينفعكما فيه عذر ، وأحسن الناس فيكما قولا من أزال عنكما القتل وألزمكما الخذل ، وقد بايع الناس عليا بيعة عامة ، والناس لاقوكما غدا ، فما تقولان ؟ فقال طلحة : ننكر القتل ، ونقر بالخذل ، ولا ينفع الإقرار بالذنب إلا مع الندم عليه ، ولقد ندمنا على ما كان منا . وقال الزبير : بايعنا عليا والسيف على أعناقنا ، حيث تواثب الناس بالبيعة إليه دون مشورتنا ، ولم نصب لعثمان خطأ فتجب علينا الدية ، ولا عمدا فيجب علينا القصاص . فقال عبد الله بن خلف : عذركما أشد من ذنبكما ، قال : فتهيأ القوم للمسير ، فقال طلحة والزبير : أسرعوا السير ، لعلنا نسبق عليا من خلاف طريقه إلى البصرة .

قال : وكتب قثم بن عباس إلى على يخبره أن طلحة والزبير وعائشة قد خرجوا من مكة ، يريدون البصرة ، وقد استنفروا الناس ، فلم يخف معهم إلا من لا يعتد بمسيره ، ومن خلفت بعدك فعلى ما تحب . فلما قدم على على كتابه غمه ذلك ، وأعظمه الناس ، وسقط فى أيديهم ، فقام قيس بن سعد بن عبادة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنه والله ما غمنا بهذين الرجلين كغمنا بعائشة ، لأن هذين الرجلين حلالا الدم عندنا ، لبيعتهما ونكثهما ، ولأن عائشة من علمت مقامها فى الإسلام ، ومكانها من رسول الله ، مع فضلها ودينها وأمومتها منا ومنك ، ولكنهما يقدمان البصرة ، وليس كل أهلها لهما ، وتقدم الكوفة ، وكل أهلها لك ، وتسير بحقك إلى باطلهم ، ولقد كنا نخاف أن يسيرا إلى الشام ، فيقال : صاحبا رسول الله وأم المؤمنين ، فيشتد البلاء ، وتعظم الفتنة ، فأما إذا أتيا البصرة وقد سبقت إلى طاعتك ، وسبقوا إلى بيعتك ، وحكم عليهم عاملك ، ولا والله ما معهما مثل ما معك ، ولا يقدمان على مثل ما تقدم عليه ، فسر فإن الله معك ، وتتابعت الأنصار فقالوا وأحسنوا . قال : ولما نزل طلحة والزبير

وعائشة بأوطاس ، من أرض خيبر ، أقبل عليهم سعيد بن العاصي على نجيب له ، فأشرف على الناس ، ومعه المغيرة بن شعبة ، فنزل وتوكأ على قوس له سوداء ، فأتى عائشة ، فقال لها : أين تريدين يا أم المؤمنين ؟ قالت : أريد البصرة ، قال : وما تصنعين بالبصرة ؟ قالت : أطلب بدم عثمان . قال : فهؤلاء قتلة عثمان معك . ثم أقبل على مروان فقال له : وأنت أين تريد أيضا ؟ قال: البصرة . قال : وما تصنع بها ؟ قال : أطلب قتلة عثمان ، قال : فهؤلاء قتلة عثمان معك ، إن هذين الرجلين قتلا عثمان « طلحة والزبير » ، وهما يريدان الأمر لأنفسهما ، فلما غلبا عليه قالا : نغسل الدم بالدم ، والحوبة[1] بالتوبة . ثم قال المغيرة بن شعبة : أيها الناس ، إن كنتم إنما خرجتم مع أمكم ، فارجعوا بها خيرا لكم ، وإن كنتم غضبتم لعثمان ، فرؤساؤكم قتلوا عثمان ، وإن كنتم نقمتم على علي شيئا ، فبينوا ما نقمتم عليه ، أنشدكم الله فتنتين في عام واحدا ، فأبوا إلا أن يمضوا بالناس ، فلحق سعيد ابن العاصي باليمن ، ولحق المغيرة بالطائف ، فلم يشهد شيئا من حروب الجمل ولا صفين ، فلما انتهوا إلى ماء الحوأب[2] في بعض الطريق ومعهم عائشة ، نبحها كلاب الحوأب ، فقالت لمحمد بن طلحة ، أى ماء هذا ؟ قال : هذا ماء الحوأب ، فقالت : ما أرانى إلا راجعة ، قال : ولم ؟ قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لنسائه : كأنى بإحداكن قد نبحها كلاب الحوأب ، وإياك أن تكونى أنت يا حميراء . فقال لها محمد بن طلحة : تقدمى رحمك الله ، ودعى هذا القول . وأتى عبد الله بن الزبير ، فحلف لها بالله لقد خلفته أول الليل ، وأتاها ببينة زور من الأعراب ، فشهدوا بذلك ، فزعموا أنها أول شهادة زور شهد بها فى الإسلام ، فلما انتهى إقبالهم على أهل البصرة ، ودنوا منها ، قام عثمان بن حنيف عامل البصرة لعلى بن أبى طالب فقال : يا أيها الناس ، إنما بايعتم الله (يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما) والله لو علم على أن أحدا أحق بهذا الأمر منه ما قبله ، ولو بايع الناس غيره لبايع من بايعوا ، وأطاع من ولوا ، وما به إلى أحد من صحابة رسول الله حاجة ، وما بأحد عنه غنى ، ولقد شاركهم فى محاسنهم ، وما شاركوه فى محاسنه ، ولقد بايعه هذان الرجلان وما يريدان الله ، فاستعجلا الفطام قبل الرضاع ، والرضاع قبل الولادة ، والولادة قبل الحمل ، وطلبا ثواب الله من العباد ، وقد زعما أنهما بايعا مستكرهين . فإن كانا استكرها قبل بيعتهما كانا رجلين من عرض قريش لهما أن يقولا ولا يأمرا ، ألا وإن الهدى ما كانت

---

(١) الحوبة : الإثم والذنب .

(٢) الحوأب : الوادى الواسع ، والمراد هنا موضع معروف بالبصرة .

عليه العامة ، والعامة على بيعة على ، فما ترون أيها الناس ؟ فقام حكم بن جبل العبدى ، فقال : نرى إن دخلا علينا قاتلناها ، وإن وقفا تلقيناهما والله ما أبالى أن أقاتلهما وحدى ، وإن كنت أحب الحياة ،وما أخشى فى طريق الحق وحشة ، ولا غيرة ولا غشا ولا سوء منقلب إلى بعث ، وإنها لدعوة قتيلها شهيد ، وحيها فائز ، والتعجيل إلى الله قبل الأجر خير من التأخير فى الدنيا ، وهذه ربيعة معك .

نزول طلحة والزبير وعائشة البصرة

قال : وذكروا أن طلحة والزبير لما نزلا البصرة ، قال عثمان بن حنيف : نعذر إليهما برجلين[1] ، فدعا عمران بن الحصين صاحب رسول الله ، وأبا الأسود الدؤلى ، فأرسلهما إلى طلحة والزبير ، فذهبا إليهما فناديا : ياطلحة فأجابهما ، فتكلم أبو الأسود الدؤلى ، فقال : يا أبا محمد ، إنكم قتلتم عثمان غير مؤامرين لنا فى قتله ، وبايعتم علياً غير مؤامرين فى بيعته ، فلم نغضب لعثمان إذ قتل ، ولم نغضب لعلى إذ بويع ، ثم بدا لكم ، فأردتم خلع على ، ونحن على الأمر الأول ، فعليكم المخرج مما دخلتم فيه . ثم تكلم عمران ، فقال : يا طلحة ، إنكم قتلتم عثمان ولم نغضب له إذ لم تغضبوا ، ثم بايعتم علياً وبايعنا من بايعتم ، فإن كان قتل عثمان صواباً فسيركم لماذا ؟ وإن كان خطأ فحظكم منه الأوفر، ونصيبكم منه الأوفى . فقال طلحة : ياهذان إن صاحبكما لا يرى أن معه فى هذا الأمر غيره ، وليس على هذا بايعناه ، وايم الله ليسفكن دمه . فقال أبو الأسود : يا عمران ، أما هذا فقد صرح أنه إنما غضب للملك . ثم أتيا الزبير فقالا : يا أبا عبد الله ، إنا أتينا طلحة ، قال الزبير : إن طلحة وإياى كروح فى جسدين ، وإنه والله يا هذان ، قد كانت منا فى عثمان فلتات ، احتجنا فيها إلى المعاذير ، ولو استقبلنا من أمرنا ما استدبرنا نصرناه، ثم أتيا فدخلا على عائشة، فقالا: يا أم المؤمنين، ما هذا المسير؟ أمعك من رسول الله به عهد؟ قالت: قتل عثمان مظلوماً، غضبنا لكم من السوط والعصا ، ولا نغضب لعثمان من القتل؟ فقال أبو الأسود: وما أنت من عصانا وسيفنا وسوطنا؟ فقالت: يا أبا الأسود ، بلغنى أن عثمان بن حنيف يريد قتالى. فقال أبو الأسود، نعم والله قتالا أهونه تندر منه الرءوس. وأقبل غلام من جهينة إلى محمد بن طلحة، فقال له : حدثنى عن قتلة عثمان، قال : نعم، دم عثمان على ثلاثة أثلاث، ثلث على صاحبة الهودج[2]،

---

(١) نعذر إليهما : نقطع عذرهما بإرسال رجلين إليهما ليكفا عما يريدان .

(٢) صاحبة الهودج : عائشة رضى الله عنها .

وثلث على صاحب الجمل الأحمر [١] ، وثلث على علىّ بن أبى طالب . فضحك الجهنى ، ولحق بعلى بن أبى طالب ، وبلغ طلحة قول ابنه محمد ، وكان محمد من عباد الناس ، فقال له : يا محمد ، أتزعم عنا قولك إنى قاتل عثمان ، كذلك تشهد على أبيك ؟ كن كعبد الله بن الزبير ، فو الله ما أنت بخير منه ، ولا أبوك بدون أبيه ، كفّ عن قولك ، وإلا فارجع فإن نصرتك نصرة رجل واحد ، وفسادك فساد عامة . فقال محمد : ما قلت إلا حقاً ، ولن أعود .

نزول على بن أبى طالب الكوفة

قال : وذكروا أن عليا لما نزل قريباً من الكوفة بعث عمار بن ياسر ، ومحمد بن أبى بكر إلى أبى موسى الأشعرى ، وكان أبو موسى عاملا لعثمان على الكوفة ، فبعثهما على إليه وإلى أهل الكوفه يستفزهم ، فلما قدما عليه قام عمار بن ياسر ، ومحمد بن أبى بكر ، فدعوا الناس إلى النصرة لعلى ، فلما أمسوا دخل رجال من أهل الكوفة على أبى موسى ، فقالوا : ما ترى ؟ أنخرج مع هذين الرجلين إلى صاحبهما ، أم لا ؟ فقال أبو موسى : أما سبيل الآخرة ففى أن تلزموا بيوتكم ، وأما سبيل الدنيا فالخروج مع من أتاكم ، فأطاعوه ، فتباطأ الناس على علىّ ، وبلغ عماراً ومحمداً ما أشار به أبو موسى على أولئك الرهط ، فأتياه فأغلظا له فى القول ، قال أبو موسى : إن بيعة عثمان فى عنقى وعنق صاحبكم ، ولئن أردنا القتال مالنا إلى قتال أحد من سبيل ، حتى نفرغ من قتلة عثمان .

خطبة أبى موسى الأشعرى

ثم خرج أبو موسى فصعد المنبر ، ثم قال : أيها الناس : إن أصحاب رسول الله الذين صحبوه فى المواطن أعلم بالله ورسوله ممن لم يصحبه ، وإن لكم حقا علىّ أؤديه إليكم ، إن هذه الفتنة النائم فيها خير من اليقظان ، والقاعد خير من القائم ، والقائم فيها خير من الساعى ، والساعى خير من الراكب ، فأغمدوا سيوفكم حتى تنجلى هذه الفتنة .

خطبة عمار بن ياسر

فقام عمار بن ياسر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، إن أبا موسى ينهاكم عن الشخوص إلى هاتين الجماعتين ، ولعمرى ما صدق فيما قال ، وما رضى الله من عباده بما ذكر . قال عز وجل : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما

---

(١) صاحب الجمل الأحمر : طلحة

على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا » وقال : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » فلم يرض من عباده بما ذكر أبو موسى من أن يجلسوا فى بيوتهم ويخلوا بين الناس ، فيسفك بعضهم دماء بعض ، فسيروا معنا إلى هاتين الجماعتين واسمعوا من حججهم ، وانظروا من أولى بالنصرة فاتبعوه ، فإن أصلح الله أمرهم رجعتم مأجورين وقد قضيتم حق الله ، وإن بغى بعضهم على بعض نظرتم إلى الفئة الباغية ، فقاتلتموها حتى تفىء إلى أمر الله ، كما أمركم الله ، وافترض عليكم ثم قعد . فلما انصرفا إلى على من عند أبى موسى وأخبراه بما قال أبو موسى ، بعث إليه الحسن بن علي ، وعبد الله بن عباس ، وعمار بن ياسر ، وقيس بن سعد ، وكتب معهم إلى أهل الكوفة :

كتاب علىّ إلى أهل الكوفة

أما بعد ، فإنى أخبركم عن أمر عثمان حتى يكون سامعه كمن عاينه ، إن الناس طعنوا على عثمان ، فكنت رجلا من المهاجرين أقل عيبه وأكثر استعتابه[1] ، وكان هذان الرجلان طلحة والزبير أهون سيرهما فيه اللهجة[2] والوجيف ، وكان من عائشة فيه قول على غضب ، فانتحى له قوم فقتلوه ، وبايعنى الناس غير مستكرهين ، وهما أول من بايعنى على ما بويع عليه من كان قبلى ، ثم استأذنا إلى العمرة ، فأذنت لهما ، فنقضا العهد ، ونصبا الحرب ، وأخرجا أم المؤمنين من بيتها ، ليتخذاها فتنة ،وقد سارا إلى البصرة ، اختياراً لأهلها ، ولعمرى ما إياى تجيبون ، ما تجيبون إلا الله . وقد بعثت ابنى الحسن ، وابن عمى عبد الله بن عباس ، وعمار ابن ياسر ، وقيس بن سعد ، فكونوا عند ظننا بكم ، والله المستعان .

فسار الحسن ومن معه ، حتى قدموا الكوفة على أبى موسى ، فدعاه إلى نصرة على ، فبايعهم ، ثم صعد أبو موسى المنبر ، وقام الحسن أسفل منه ، فدعاهم إلى نصرة على ، وأخبرهم بقرابته من رسول الله ، وسابقته ، وبيعة طلحة والزبير إياه ، ونكثهما عهده ، وأقرأهم كتاب على ، فقام شريح بن هانىء . فقال :

خطاب شريح بن هانىء

لقد اردنا أن نركب إلى المدينة ، حتى نعلم قتل عثمان ، فقد أتانا الله به فى بيوتنا ، فلا

---

(١) الاستعتاب : إزالة سبب عتبه ومحاولة إرضائه.

(٢) اللهجة : اللسان ، والإغراء والوجيف : الاضطراب ، ونوع من سير الخيل والإبل ، والمراد أهون أمرهما فى عثمان الإغراء بهوالإسراع فى النيل منه .

يخالفوا عن دعوته ، والله لو لم يستنصر بنا لنصرناه سمعا وطاعة ، ثم قام الحسن بن علي ، فقال : أيها الناس ، إنه قد كان من مسير أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ما قد بلغكم ، وقد أتيناكم مستنفرين ، لأنكم جبهة الأنصار ، ورءوس العرب ، وقد كان من نقض طلحة والزبير بعد بيعتهما وخروجهما بعائشة ما بلغكم ، وتعلمون أن وهن النساء وضعف رأيهن إلى التلاشي ، ومن أجل ذلك جعل الله الرجال قوامين على النساء ، وايم الله لو لم ينصره منكم أحد لرجوت أن يكون فيمن أقبل معه من المهاجرين والأنصار كفاية ، فانصروا الله ينصركم . ثم قام عمار بن ياسر فقال : يا أهل الكوفة ، إن كان غاب عنكم أنباؤنا فقد انتهت إليكم أمورنا ، إن قتلة عثمان لا يعتذرون من قتله إلى الناس ، ولا ينكرون ذلك ، وقد جعلوا كتاب الله بينهم وبين محاجيهم ، فبه أحيا الله من أحيا ، وأمات من أمات . وإن طلحة والزبير كانا أول من طعن ، وآخر من أمر ، وكانا أول من بايع عليا ، فلما أخطأهما ما أملاه نكثا بيعتهما ، من غير حدث . وهذا ابن بنت رسول الله الحسن قد عرفتموه . وقد جاء يستنفركم ، وقد أظلكم على في المهاجرين والبدريين والأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان . فانصروا الله ينصركم .

ثم قام قيس بن سعد ، فقال : أيها الناس ، إن الأمر لو استقبل به أهل الشورى كان على أحق بها ، وكان قتال من أبى ذلك حلالا ، فكيف والحجة على طلحة والزبير ، وقد بايعاه رغبة ، وخالفاه حسداً ، وقد جاءكم المهاجرون والأنصار .

دخول طلحة والزبير وعائشة البصرة

قال : وذكروا أنه لما نزل طلحة والزبير وعائشة البصرة ، اصطف لها الناس في الطريق ، يقولون : يا أم المؤمنين ، ما الذي أخرجك من بيتك ؟ فلما أكثروا عليها تكلمت بلسان طلق ، وكانت من أبلغ الناس ، فحمدت الله ، وأثنت عليه ، ثم قالت :

خطبة عائشة رضي الله عنها

أيها الناس ، والله ما بلغ من ذنب عثمان أن يستحل دمه ، ولقد قتل مظلوما ، غضبنا لكم من السوط والعصا ، ولا نغضب لعثمان من القتل ، وإن من الرأي أن تنظروا إلى قتلة عثمان ، فيقتلوا به ، ثم يرد هذا الأمر شورى ، على ما جعله عمر بن الخطاب .

فمن قائل يقول : صدقت ، وآخر يقول كذبت ، فلم يبرح الناس يقولون ذلك حتى ضرب بعضهم وجوه بعض ، فبينما هم كذلك أتاهم رجل من أشراف البصرة بكتاب كان كتبه طلحة

فى التأليب على قتل عثمان ، فقال لطلحة : هل تعرف هذا الكتاب ؟ قال : نعم . قال : فما ردك على ما كنت عليه ؟ وكنت أمس تكتب إلينا تؤلبنا على قتل عثمان ، وأنت اليوم تدعونا إلى الطلب بدمه ، وقد زعمتما أن عليا دعاكما إلى أن تكون البيعة لكما قبله ، إذ كنتما أسن منه ، فأبيتما إلا أن تقدماه لقرابته وسابقته ، فبايعتماه ، فكيف تنكثان بيعتكما بعد الذى عرض عليكما ؟ قال طلحة : دعانا إلى البيعة بعد أن اغتصبها وبايعه الناس ، فعلمنا حين عرض علينا أنه غير فاعل ، ولو فعل أبى ذلك المهاجرون والأنصار ، وخفنا أن ترد بيعته فنقتل ، فبايعناه كارهين . قال فما بدا لكما فى عثمان ؟ قالا : ذكرنا ما كان من طعننا عليه ، وخذلاننا إياه ، فلم نجد من ذلك مخرجاً إلا الطلب بدمه . قال : ما تأمرانى به ؟ قالا : بايعنا على قتال على ، ونقض بيعته ، قال : أرأيتما إن أتانا بعدكما من يدعونا إلى ما تدعوان إليه ، ماذا نصنع ؟ قالا : لا تبايعه . قال : ما أنصفتما ، أتأمرانى أن أقاتل عليا وأنقض بيعته وهى فى أعناقكما ، وتنهيانى عن بيعة من لا بيعة له عليكما ؟ أما إننا قد بايعنا عليا ، فإن شئتما بايعناكما بيسار أيدينا . قال : ثم تفرق الناس ، فصارت فرقة مع عثمان بن حنيف ، وفرقة مع طلحة والزبير ثم جاء جارية بن قدامة ، فقال : يا أم المؤمنين ، لقتل عثمان كان أهون علينا من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون ، إنه كانت لك من الله تعالى حرمة وستر فهتكت سترك ، وأبحت حرمتك إنه من رأى قتالك فقد رأى قتلك ، فإن كنت يا أم المؤمنين أتيتنا طائعة فارجعى إلى منزلك ، وإن كنت أتيتنا مستكرهة فاستعنى الله .

قتل أصحاب عثمان بن حنيف عامل علىّ على البصرة

قال : وذكروا أنه لما اختلف القوم اصطلحوا على أن لعثمان بن حنيف دار الإمارة ومسجدها وبيت المال ، وأن ينزل أصحابه حيث شاءوا من البصرة ، وأن ينزل طلحة والزبير وأصحابهما حيث شاءوا حتى يقدم على ، فإن اجتمعوا دخلوا فيما دخل فيه الناس ، وإن يتفرقوا يلحق كل قوم بأهوائهم ، عليهم بذلك عهد الله وميثاقه ، وذمة نبيه ، وأشهدوا شهودا من الفريقين جميعا . فانصرف عثمان ، فدخل دار الإمارة ، وأمر أصحابه أن يلحقوا بمنازلهم ، ويضعوا سلاحهم وافترق الناس ، وكتموا ما فى أنفسهم ، غير بنى عبد القيس ، فإنهم أظهروا نصرة على ، وكان حكيم بن جبل رئيسهم ، فاجتمعوا إليه ، فقال لهم : يامعشر عبد القيس . إن عثمان بن حنيف دمه مضمون ، وأمانته مؤداه ، وايم الله لو لم يكن على أميرا لمنعناه ، لمكانته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكيف وله الولاية والجوار ، فاشخصوا بأنصاركم ، وجاهدوا العدو ، فإما أن تموتوا كراما وإما أن تعيشوا أحرارا . فمكث عثمان بن حنيف فى الدار أياما ،

ثم إن طلحة والزبير ومروان بن الحكم أتوه نصف الليل فى جماعة معهم ، فى ليلة مظلمة سوداء مطيرة وعثمان نائم ، فقتلوا أربعين رجلا من الحرس ، فخرج عثمان بن حنيف ، فشد عليه مروان فأسره ، وقتل أصحابه ، فأخذه مروان ، فنتف لحيته ورأسه وحاجبيه ، فنظر عثمان بن حنيف إلى مروان فقال : أما إنك إن فتنى بها فى الدنيا ، لم تفتنى بها فى الآخرة .

تعبئة الفئتين للقتال

وذكروا أنه لما تعبأ القوم للقتال ، فكانت الحرب للزبير وعلى الخيل طلحة ، وعلى الرّجالة عبد الله بن الزبير ، وعلى القلب محمد بن طلحة ، وعلى المقدمة مروان ، وعلى رجال الميمنة عبد الرحمن بن عبادة ، وعلى الميسرة هلال ابن وكيع ، فلما فرغ الزبير من التعبئة قال : أيها الناس ، وطنوا أنفسكم على الصبر ، فإنه يلقاكم غدا رجل لا مثل له فى الحرب ولا شبيه ، ومعه شجعان الناس . فلما بلغ عليا تعبئة القوم عبأ الناس للقتال ، فاستعمل على المقدمة عبد الله بن عباس ، وعلى الساقة هندا المرادى ، وعلى جميع الخيل عمار بن ياسر ، وعلى جميع الرجالة محمد بن أبى بكر .

ثم كتب إلى طلحة والزبير : أما بعد ، فقد علمتما أنى لم أرد الناس حتى أرادونى ، ولم أبايعهم حتى بايعونى ، وإنكما لمن أراد وبايع ، وإن العامة لم تبايعنى لسلطان خاص، فإن كنتما بايعتمانى كارهين ، فقد جعلتما لى عليكما السبيل ، باظهاركما الطاعة ، وإسراركما المعصية ، وإن كنتما بايعتمانى طائعين ، فارجعا إلى الله من قريب . إنك يازبير لفارس رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريه ، وإنك يا طلحة لشيخ المهاجرين ، وإن دفاعكما هذا الأمر قبل أن تدخلا فيه ، كان أوسع عليكما من خروجكما منه إقراركما به ، وقد زعمتما أنى قتلت عثمان فبينى وبينكما فيه بعض من تخلف عنى وعنكما من أهل المدينة ، وزعمتما أنى آويت قتلة عثمان ، فهؤلاء بنو عثمان ، فليدخلوا فى طاعتى ، ثم يخاصموا إلى قتلة أبيهم ، وما أنتما وعثمان إن كان قتل ظالما أو مظلوما ؟ وقد بايعتمانى وأنتما بين خصلتين قبيحتين نكث بيعتكما ، وإخراجكما أمكما .

كتاب على إلى عائشة

وكتب إلى عائشة : أما بعد ، فإنك خرجت غاضبة لله ولرسوله ، تطلبين أمرا كان عنك موضوعا ، مابال النساء والحرب والإصلاح بين الناس ؟ تطالبين بدم عثمان، ولعمرى لمن عرّضك

للبلاء، وحملك على المعصية ، أعظم إليك ذنبا من قتلة عثمان وماغضبت حتى أغضبت ، وما هجت حتى هيجت ، فاتقى الله ، وارجعى إلى بيتك .

فأجابه طلحة والزبير : إنك سرت مسيرا له ما بعده ، ولست راجعا وفى نفسك منه حاجة ، فامض لأمرك ، أما أنت فلست راضيا دون دخولنا فى طاعتك ، ولسنا بداخلين فيها أبدا ، فاقض ما أنت قاض .

وكتبت عائشة : جل الأمر عن العتاب ، والسلام .

قال : ورجعت رسل على من البصرة . فمنهم من أجابه وأتاه ، ومنهم من لحق بعائشة وطلحة والزبير ، وبعث الأحنف بن قيس إلى على : إن شئت أتيتك فى مائتى رجل من أهل بيتى ، وإن شئت كففت عنك أربعة آلاف سيف ، فأرسل إليه على : بل كف عنى أربعة آلاف سيف ، وكفى بذلك ناصراً . فجمع الأحنف بنى تميم ، فقال . يا معشر بنى تميم ، إن ظهر أهل البصرة فهم إخوانكم وإن ظهر على فلن يهيجكم ، وكنتم قد سلمتم . فكف بنو تميم ، ولم يخرجوا إلى أحد الفريقين . قال : ولما كتب على إلى طلحة والزبير أتى زمعة بن الأسود إلى طلحة والزبير . فقال لهما : إن عليا قد أكثر إليكما الرسل ، كأنه طمع فيكما ، وأطمعتماه فى أنفسكما ، فاتقيا الله إن كنتما بايعتماه طائعين ، واتقيا الله علينا وعلى أنفسكما ، فإن اللبن فى الضرع ، ومتى يحلب لا يرجع ، وإن كنتما بايعتماه مكرهين فاخرقا هذا الوطب[1] ، وادفعا هذا اللبن ، فما أغنانا عن هذه الكتب والرسل . قال : فخرج طلحة والزبير وعائشة ، وهى على جمل عليه هودج ، قد ضرب عليه صفائح الحديد ، فبرزوا حتى خرجوا من الدور ومن أفنية البصرة ، فلما تواقفوا للقتال ، أمر على منادياً ينادى من أصحابه لا يرمين أحد سهما ولا حجرا ، ولا يطعن برمح حتى أعذر إلى القوم ، فاتخذ عليهم الحجة . قال : فكلم على طلحة والزبير قبل القتال ، فقال لهما : استحلفا عائشة بحق الله وبحق رسوله على أربع خصال أن تصدق فيها : هل تعلم رجلا من قريش أولى منى بالله ورسوله ، وإسلامى قبل كافة الناس أجمعين وكفايتى رسول الله كفار العرب بسيفى ورمحى ، وعلى براءتى من دم عثمان ، وعلى أنى لم أستكره أحدا على أنى لم أكن أحسن قولا فى عثمان منكما . فأجابه طلحة جوابا غليظا ، ورق له الزبير ، ثم رجع على إلى أصحابه فقالوا : يا أمير المؤمنين ، بم كلمت

---

(١) الوطب سقاء اللبن ، وهو القربة .

الرجلين ؟ فقال علي : إن شأنهما لمختلف أما الزبير فقاده اللجاج ، ولن يقاتلكم ، وأما طلحة فسألته عن الحق فأجابني بالباطل ، واقيته باليقين ، ولقيني بالشك ، فوالله ما نفعه حقي ، ولا ضرني باطله ، وهو مقتول غدا في الرعيل الأول . قال : ثم خرج علي على بغلة رسول الله الشهباء بين الصفين ، وهو حاسر ، فقال : أين الزبير ؟ فخرج إليه ، حتى إذا كانا بين الصفين اعتنق كل واحد منهما صاحبه وبكيا ، ثم قال علي : يا عبد الله ما جاء بك هاهنا ؟ قال : جئت أطلب دم عثمان . قال علي : تطلب دم عثمان ، قتل الله من قتل عثمان ، أنشدك الله يا زبير ، هل تعلم أنك مررت بي وأنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو متكئ على يدك فسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وضحك إلي ، ثم التفت إليك ، فقال لك : يا زبير ، إنك تقاتل عليا وأنت له ظالم ؟ قال : اللهم نعم . قال علي : فعلام تقاتلني ؟ قال الزبير : نسيتها والله ، ولو ذكرتها ما خرجت إليك ، ولا قاتلتك فانصرف علي إلى أصحابه ، فقالوا : يا أمير المؤمنين مررت إلى رجل في سلاحه وأنت حاسر ، قال علي أتدرون من الرجل ؟ قالوا : لا . قال : ذلك الزبير ابن صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم . أما إنه قد أعطى الله عهدا أنه لا يقاتلكم ، إني ذكرت له حديثا قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : لو ذكرته ما أتيتك . فقالوا : الحمد لله يا أمير المؤمنين ، ما كنا نخشى في هذا الحرب غيره . ولا نتقي سواه . إنه لفارس رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريه ، ومن عرفت شجاعته وبأسه ومعرفته بالحرب ، فإذا قد كفاناه الله فلا نعد من سواه إلا صرعى حول الهودج .

رجوع الزبير عن الحرب

قال : وذكروا أن الزبير دخل على عائشة ، فقال : يا أماه ، ما شهدت موطناً قط في الشرك ولا في الإسلام إلا ولي فيه رأي وبصيرة غير هذا الموطن فإنه لا رأي لي فيه ، ولا بصيرة ، وإني لعلي باطل . قالت عائشة : يا أبا عبد الله ، خف سيوف بني عبدالمطلب ، فقال : أما والله إن سيوف بني عبد المطلب طوال حداد ، يحملها فتية أنجاد. ثم قال لابنه عبد الله: عليك بحزبك ، أما أنا فراجع إلى بيتي . فقال له ابنه عبد الله : الآن حين التقت حلقتا البطان [1] ، واجتمعت الفئتان؟ والله لانغسل رءوسنا منها ، فقال الزبير لابنه ، لا تعد هذا مني جبناً ، فوالله

---

(١) البطان : حزام البرذعة وإذا التقت حلقتاه فقد استوت البرذعة على ظهر الدابة وأصبحت صالحة لركوبها ، والمراد : الآن حين انتهى الأمر وأصبح لا مفر من الحرب .

ما فارقت أحداً في جاهلية ولا إسلام ، قال : فما يردك ؟ قال : يردني ما إن علمته كسرك . فقام بأمر الناس عبد الله بن الزبير .

قتل الزبير بن العوام

قال : وذكروا أن الزبير لما انصرف راجعاً إلى المدينة أتاه ابن جرموز ، فنزل به ، فقال : يا أبا عبد الله ، أحييت حرباً ظالماً أو مظلوماً ثم تنصرف ؟ أتائب أنت أم عاجز ؟ فسكت عنه ، ثم عاوده فقال له : يا أبا عبدالله ، حدثني عن خصال خمس أسألك عنها . فقال : هات . قال : خذلك عثمان ، وبيعتك علياً ، وإخراجك أم المؤمنين . وصلاتك خلف ابنك ، ورجوعك عن الحرب . فقال الزبير : نعم أخبرك ، أما خذلي عثمان فأمر قدر الله فيه الخطيئة وأخر التوبة . وأما بيعتي علياً فوالله ما وجدت من ذلك بداً ، حيث بايعه المهاجرون والأنصار وخشيت القتل ، وأما إخراجنا أمنا عائشة فأردنا أمر وأراد الله غيره ، وأما صلاتي خلف ابني فإنما قدمته عائشة أم المؤمنين ولم يكن لي دون صاحبي أمر ، وأما رجوعي عن هذا الحرب[1] فظن بي ما شئت غير الجبن . فقال ابن جرموز : والهفاه على ابن صفية ، أضرمها ناراً ثم أراد أن يلحق بأهله ، قتلني الله إن لم أقتله ، ثم أتاه فقال له : يا أبا عبد الله كالمستنصح له ، إن دون أهلك فيافي ، فخذ نجيبي هذا ، وخل فرسك ودرعك ، فإنهما شاهدتان عليك بما تكره . فقال الزبير : أنظر في ذلك ليلتي ، ثم ألح عليه في فرسه ودرعه فلم يزل حتى أخذهما منه ، وإنما أراد ابن جرموز أن يلقاه حاسراً ، لما علم بأسه ، ثم أتى ابن جرموز الأحنف بن قيس ، فساره بمكان الزبير عنده وبقوله فقال له الأحنف : اقتله قتله الله مخادعاً ، وأتى الزبير رجل من كلب ، فقال له : يا أبا عبد الله ، أنت لي صهر ، وابن جرموز لم يعتزل هذا الحرب مخافة الله ، ولكنه كره أن يخالف الأحنف ، وقد ندم الأحنف على خذله علياً ، ولعله أن يتقرب بك إليه ، وقد أخذ منك درعك وفرسك ، وهذا تصديق ما قلت لك ، فبت عندي الليلة ثم أخرج بعد نومه ، فإنك إن فتهم لم يطلبوك . فتهاون بقوله ، ثم بدا له فقال له : فما ترى يا أخا كلب ؟ قال : أرى أن ترجع إلى فرسك ودرعك فتأخذهما ، فإن أحداً من الناس لا يقدم عليك وأنت فارس أبداً ، فأصبح الزبير غادياً ، وسار معه ابن جرموز وقد كفر[2] على الدرع فلما انتهى إلى وادي السباع استغفله فطعنه ، ثم رجع

---

(١) الحرب تذكر وتؤنث .

(٢) الدرع : هو قميص من حلق الحديد يلبس توقيا للسهام والسيوف ، والكفر الستر ومعنى كفر على الدرع لبس عليه ثوبا فستره به .

برأسه وسلبه إلى قومه ، فقال له رجل من قومه : يا بن جرموز ، فضحت والله اليمن بأسرها ، قتلت الزبير رأس المهاجرين ، ورأس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحواريه ، وابن عمته ، والله لو قتلته فى حرب لعز ذلك علينا ، ولسنا عارك ، فكيف فى جوارك وذمتك ؟ والله ليزيدنك على أن يشرك بالنار . فغضب ابن جرموز وقال والله ما قتلته إلا له ، ووالله ما أخاف ما أخاف فيه قصاصاً ، ولا أرهب فيه قرشياً ، وإن قتله على لهين .

مخاطبة على لطلحة بين الصفين

قال : وذكروا أن علياً نادى طلحة بعد انصراف الزبير ، فقال له : يا أبا محمد ما جاء بك ؟ قال : أطلب دم عثمان . قال على : قتل الله من قتله ، قال طلحة : فخل بيننا وبين من قتل عثمان ، أما تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إنما يحل دم المؤمن فى أربع خصال ، زان فيرجم ، أو محارب لله ، أو مرتد عن الإسلام ، أو مؤمن يقتل مؤمناً عمداً . فهل تعلم أن عثمان أتى شيئاً من ذلك ؟ فقال على : لا . قال طلحة : فأنت أمرت بقتله . قال على : اللهم لا . قال طلحة : فاعتزل هذا الأمر ، ونجعله شورى بين المسلمين ، فإن رضوا بك دخلت فيما دخل فيه الناس ، وإن رضوا غيرك كنت رجلا من المسلمين . قال على : أو لم تبايعنى يا أبا محمد طائعا غير مكره ؟ فما كنت لأترك بيعتى . قال طلحة : بايعتك والسيف على عنقى . قال : ألم تعلم أنى ما أكرهت أحدا على البيعة ، ولو كنت مكرها أحدا لأكرهت سعداً وابن عمر ومحمد ابن مسلمة ، أبوا البيعة ، واعتزلوا ، فتركتهم . قال طلحة : كنا فى الشورى ستة ، فمات اثنان وقد كرهناك ، ونحن ثلاثة ، قال على : إنما كان لكما ألا ترضيا قبل الرضى وقبل البيعة . وأما الآن فليس لكما غير ما رضيتما به ، إلا أن تخرجا مما بويعت عليه بحدث ، فإن كنت أحدثت حدثا فسموه لى . وأخرجتم أمكم عائشة ، وتركتم نساءكم ، فهذا أعظم الحدث منكم أرضى هذا لرسول الله أن تهتكوا سترا ضربه عليها ، وتخرجوها منه ؟ فقال طلحة : إنما جاءت للإصلاح . قال على : هى لعمر الله إلى من يصلح لها أمرها أحوج ، أيها الشيخ أقبل النصح وارض بالتوبة مع العار ، قبل أن يكون العار والنار .

التحام الحرب

قال : وذكروا أنه بينما الناس وقوف إذ رمى رجل من أصحاب على ، فجىء به إلى على ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، هذا أخونا قد قتل : فقال على : أعذروا إلى القوم . فقال عبد الرحمن

ابن أبى بكر : إلى متى ؟ قد والله أعذرنا وأعذرت إن كنت تريد الإعذار ، والله لتأذنن لنا فى لقاء القوم أو لنصرفن إلى متى تستهدف نحورنا للقتال والسلاح ، يقتلوننا رجلا رجلا ؟ فقال على : قد والله أرانا أعذرنا . أين محمد ابنى ؟ فقال : هأنذا . فقال : أى بنى،خذ الراية، فابتدر الحسن والحسين ليأخذاها ، فأخرهما عنها ، وكان على يؤخرهما شفقة عليهما ، فأخذ محمد الراية ، ثم قام على ، فركب بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم دعا بدرع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلبسها ، ثم قال : احزمونى ، فحزم بعمامة أسفل من سرته ، ثم خرج وكان عظيم البطن ، فقال لابنه : تقدم وتضعضع(١) الناس حين سمعوا به قد تحرك ، فبينما هم كذلك إذ سمعوا صوتا ، فقال على : ما هذا ؟ فقيل عائشة تلعن قتلة عثمان . فقال على ورفع بصره إلى السماء : لعن الله قتلة عثمان فى السهل والجبل ، وقد كان على عبأ الناس أثلاثا ، فجعل مصر قلب العسكر ، واليمن ميمنته ، وربيعة ميسرته ، وعبأ أهل البصرة مثل ذلك ، فاقتتل القوم قتالا شديدا ، فهزمت عن البصرة يمن على ، وهزمت ربيعة البصرة ربيعة على ، قال حبة بن جهين : نظرت إلى على وهو يخفق نعاسا فقلت له : تالله ما رأيت كاليوم قط ، إن بإزائنا لمائة ألف سيف ، وقد هزمت ميمنتك وميسرتك ، وأنت تخفق نعاسا ، فانتبه ورفع يديه ، وقال : اللهم إنك تعلم أنى ما كتبت فى عثمان سوادا فى بياض ، وأن الزبير وطلحة ألبا وأجلبا على الناس، اللهم أولانا بدم عثمان فخذه اليوم . ثم تقدم على فنظر إلى أصحابه يهزمون ويقتلون فلما نظر إلى ذلك صاح بابنه محمد ومعه الراية ، أن اقتحم ، فأبطأ وثبت ، فأتى على من خلفه ، فضربه بين كتفيه ، وأخذ الراية من يده ، ثم حمل ، فدخل عسكرهم وإن الميمنتين والميسرتين تضطربان ، فى إحداهما عمار ، وفى الأخرى عبد الله بن عباس ، ومحمد بن أبى بكر ، قال : فشق على فى عسكر القوم يطعن ويقتل، ثم خرج وهو يقول: الماء الماء ، فأتاه رجل بإداوة فيها عسل فقال له : ياأمير المؤمنين ، أما الماء فإنه لا يصلح لك فى هذا المقام ، ولكن أذوقك هذا العسل فقال : هات ، فحسا منه حسوة ، ثم قال : إن عسلك لطائفى(٢) ، قال الرجل : لعجبا منك والله يا أمير المؤمنين ، لمعرفتك الطائفى من غيره فى هذا اليوم ، وقد بلغت القلوب الحناجر فقال له على : إنه والله يابن أخى ماملأ صدر عمك شىء قط ، ولا هابه شىء ثم أعطى الراية لابنه ، وقال : هكذا فاصنع ، فتقدم محمد بالراية ومعه الأنصار حتى انتهى إلى الجمل والهودج وهزم ما يليه ، فاقتتل الناس ذلك اليوم قتالا شديداً حتى كانت الواقعة والضرب على الركب

---

(١) تضعضع الناس : خضعوا وذلوا.

(٢) طائفى : نسبة إلى الطائف وهى بلاد ثقيف بالحجاز .

وحمل الأشتر النخعي وهو يريد عائشة ، فلقيه عبد الله بن الزبير ، فضربه ، واعتنقه عبد الله فصرعه ، وقعد على صدره ، ثم نادى عبد الله : اقتلوني ومالكا[١] . فلم يدر الناس من مالك فانفلت الأشتر منه ، فلما رأى كعب بن سور الهزيمة ، أخذ بخطام البعير ، ونادى : أيها الناس ، الله الله . فقاتل وقاتل الناس معه ، وعطفت الأزد على الهودج ، وأقبل على وعمار والأشتر والأنصار معهم يريدون الجمل فاقتتل القوم حوله ، حتى حال بينهم الليل ؛ وكانوا كذلك يروحون ويغدون على القتال سبعة أيام ، وإن عليا خرج إليهم بعد سبعة أيام فهزمهم ، فلما رأى طلحة ذلك رفع يديه إلى السماء . وقال : اللهم إن كنا قد داهنا في أمر عثمان وظلمناه فخذ له اليوم منا حتى ترضى ، قال فما مضى كلامه حتى ضربه مروان ضربة أتى منها على نفسه ، فخر وثبتت عائشة ، وحماها مروان في عصابة من قيس ومن كنانة وبني أسد ، فأحدق بهم على بن أبي طالب ، ومال الناس إلى على ، وكلما وثب رجل يريد الجمل ضربه مروان بالسيف ، وقطع يده ، حتى قطع نحو عشرين يدا من أهل المدينة والحجاز والكوفة ، حتى إنى مروان من خلفه ، فضرب ضربة فوقع ، وعرقب الجمل الذى عليه عائشة . وانهزم الناس ، وأسرت عائشة ، وأسر مروان بن الحكم وعمرو بن عثمان ، وموسى بن طلحة ، وعمرو بن سعيد بن العاص ، فقال عمار لعلى : يا أمير المؤمنين ، اقتل هؤلاء الأسرى . فقال على : لا أقتل أسير أهل القبلة إذا رجع ونزع . فدعا على بموسى بن طلحة ، فقال الناس : هذا أول قتيل يقتل ، فلما أتى به على قال : تبايع وتدخل فيما دخل فيه الناس ؟ قال : نعم . فبايع وبايع الجميع وخلى سبيلهم ، وسأل الناس عليا ما كان عرض عليهم قبل ذلك فأعطاه ، ثم أمر المنادى فنادى : لا يقتلن مدبر ، ولا يجهز على جريح ، ولكم ما في عسكرهم وعلى نسائهم العدة ، وما كان لهم من مال في أهليهم فهو ميراث على فرائض الله . فقام رجل فقال : يا أمير المؤمنين ، كيف تحل لنا أموالهم ، ولا تحل لنا نساؤهم ولا أبناؤهم ؟ فقال : لا يحل ذلك لكم . فلما أكثروا عليه في ذلك : قال اقترعوا ، هاتوا بسهامكم ثم قال : أيكم يأخذ أمكم عائشة في سهمه ؟ فقالوا نستغفر الله . فقال : وأنا استغفر الله . قال : ثم إن عليا مر بالقتلى ، فنظر إلى محمد بن طلحة وهو صريع في القتلى ، وكان يسمى السجاد ، لما بين عينيه من أثر السجود . فقال : رحمك الله يا محمد ، لقد كنت في العبادة مجتهداً آناء الليل قواما ، وفي الحرور صواما ، ثم التفت إلى من حوله فقال : هذا رجل قتله بر أبيه فاختلفوا في طلحة وابنه محمد أيهما قتل قبل ؟ فشهدت عائشة

---

(١) يريد عبد الله بن الزبير بمالك : الأشتر ، وهو بذلك يشير إلى قول الشاعر : اقتلوني ومالكا : واقتلوا مالكا معي .

لمحمد أنها رأته بعد قتل أبيه ، فورثوا ولده فى مال طلحة . قال : وأتى محمد بن أبى بكر ، فدخل على أخته عائشة رضى الله عنها ، قال لها : أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : على مع الحق ، والحق مع على ؟ ثم خرجت تقاتلينه بدم عثمان ، ثم دخل عليهما على فسلم وقال : يا صاحبة الهودج ، قد أمرك الله أن تقعدى فى بيتك ، ثم خرجت تقاتلين . أترتحلين ؟ قالت أرتحل . فبعث معها على رضى الله عنه أربعين امرأة ، وأمرهن أن يلبسن العمائم ، ويتقلدن السيوف ، وأن يكن من الذين يلينها ، ولا تطلع على أنهن نساء ، فجعلت عائشة تقول فى الطريق فعل الله فى ابن أبى طالب وفعل ، بعث معى الرجال ، فلما قدمن المدينة وضعن العمائم والسيوف ، ودخلن عليها . فقالت : جزى الله ابن أبى طالب الجنة . قال : ودفن طلحة فى ساحة البصرة ، فأتى عائشة فى المنام . فقال : حولينى من مكانى ، فان البرد قد آذانى ، فحولته . وقال عبد الله ابن الزبير ، أمسيت يوم الجمل وفى بضع وثلاثون بين ضربة وطعنة ، وما رأيت مثل يوم الجمل قط ، ما ينهزم منا أحد ولا يأخذ أحد منا بخطام الجمل إلا قتل أو قطعت يده ، حتى ضاع الخطام من يدبنى ضبة ، فعقر الجمل . قال : دخل موسى بن طلحة على على ، فقال له على : إنى لأرجو أن أكون أنا وأبوك ممن قال الله فيهم « ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين » وأمسى على بالبصرة ذلك اليوم الذى أتاه فيه موسى بن طلحة ، فقال ابن الكواء : أمسيت بالبصرة يا أمير المؤمنين ؟ فقال : كان عندى ابن أخى . قال : ومن هو ؟ قال : موسى ابن طلحة . فقال ابن الكواء ، لقد شقينا إن كان ابن أخيك . فقال على : ويحك ، إن الله قد اطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم . ثم قال ابن الكواء : ياأمير المؤمنين ، من أخبرك بمسيرك هذا الذى سرت فيه ، تضرب الناس بعضهم ببعض ، وتستولى بالأمر عليهم ؟ أو أى رأيته حين تفرقت الأمة ، واختلفت الدعوة ، فرأيت أنك أحق بهذا الأمر منهم لقرابتك ؟ فان كان رأياً رأيته أجبناك فيه ، وإن كان عهداً عهده إليك رسول الله فأنت الموثوق به ، المأمون على رسول الله فيما حدثت عنه . فقال على : أنا أول من صدقه فلا أكون أول من كذب عليه . أما أن يكون عندى عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا والله ، ولكن لما قتل الناس عثمان نظرت فى أمرى ، فإذا الخليفتان اللذا ن أخذاها من رسول الله قد هلكا ولا عهد لهما ، وإذا الخليفة الذى أخذها بمشورة المسلمين قد قتل ، وخرجت ربقته من عنق ، لأنه قتل ولا عهد له ، قال ابن الكواء ، صدقت وبررت ، ولكن ما بال طلحة والزبير ؟ ولم استحللت قتالهما وقد شاركاك فى الهجرة مع رسول الله صلى الله علية وسلم ، وفى الشورى مع عمرو بن الخطاب ؟ قال على : بايعانى بالحجاز ، ثم خالفانى بالعراق ، فقاتلتهما على خلافهما ، ولو فعلا ذلك مع أبى بكر وعمرو لقاتلاهما .

مبايعة أهل الشام معاوية بالخلافة

قال : وذكروا أن النعمان بن بشير لما قدم على معاوية بكتاب زوجة عثمان ، تذكر فيه دخول القوم عليه ، وما صنع محمد بن أبي بكر من نتف لحيته ، في كتاب قد رققت فيه وأبلغت ، حتى إذا سمعه السامع بكى حتى يتصدع قلبه ، وبقميص عثمان مخضبا بالدم ممزقا ، وعقدت شعر لحيته في زر القميص . قال : فصعد المنبر معاوية بالشام ، وجمع الناس ، ونشر عليهم القميص ، وذكر ما صنعوا بعثمان ، فبكى الناس وشهقوا ، حتى كادت نفوسهم أن تزهق ، ثم دعاهم إلى الطلب بدمه ، فقام إليه أهل الشام ، فقالوا : هو ابن عمك ، وأنت وليه ، ونحن الطالبون معك بدمه ، فبايعوه أميرا عليهم ، وكتب وبعث الرسل إلى كور[1] الشام ، وكتب إلى شرحبيل بن السمط الكندى وهو بحمص ، يأمره أن يبايع له بحمص كما بايع أهل الشام ، فلما قرأ شرحبيل كتاب معاوية دعا أناسا من أشراف أهل حمص ، فقال لهم : ليس من قتل عثمان بأعظم جرما ممن يبايع لمعاوية أميرا ، وهذه سقطة ، ولكنا نبايع له بالخلافة ، ولا نطلب بدم عثمان مع غير خليفة . فبايع لمعاوية بالخلافة هو وأهل حمص ، ثم كتب إلى معاوية : أما بعد : فإنك أخطأت خطأ عظيما ، حين كتبت إلى أن أبايع لك بالإمرة ، وأنك تريد أن تطلب بدم الخليفة المظلوم وأنت غير خليفة ، وقد بايعت ومن قبلى لك بالخلافة . فلما قرأ معاوية كتابه سره ذلك ، ودعا الناس ، وصعد المنبر ، وأخبرهم بما قال شرحبيل ، ودعاهم إلى بيعته بالخلافة ، فأجابوه ، ولم يختلف منهم أحد ، فلما بايع القوم له بالخلافة ، واستقام له الأمر ، كتب إلى على :

كتاب معاوية إلى علىّ

سلام الله على من اتبع الهدى . أما بعد ، فإنا كنا نحن وإياكم يدا جامعة ، وألفة أليفة ، حتى طمعت يا بن أبي طالب فتغيرت ، وأصبحت تعد نفسك قويا على من عاداك . بطغام أهل الحجاز ، وأوباش أهل العراق وحمقى الفسطاط[2] وغوغاء السواد وايم الله لينجلين عنك حمقاها ، ولينقشعن عنك غوغاؤها انقشاع السحاب عن السماء . قتلت عثمان بن عفان ، ورقيت سلما أطلعك الله عليه مطلع سوء عليك لا لك . وقتلت الزبير وطلحة ، وشردت بأمك عائشة ، ونزلت بين المصرين[3] فمنيت وتمنيت ، وخيل لك أن الدنيا قد سخرت لك بخيلها ورجلها

---

(١) كور الشام : جمع كورة وهى المدينة والناحية .
(٢) يريد أهل مصر .
(٣) البصرة والكوفة .

وإنما تعرف أمنيتك لو قد زرتك فى المهاجرين من أهل الشام بقية الإسلام ، فيحيطون بك من وارائك ، ثم يقضى الله علمه فيك ، والسلام على أولياء الله .

رد الإمام علىّ على معاوية

فأجابه على : أما بعد ، فقدر الأمور تقدير من ينظر لنفسه دون جند ، ولا يشتغل بالهزل من قوله ، فلعمرى لئن كانت قوتى بأهل العراق ، أوثق عندى من قوتى بالله ومعرفتى به فليس عنده بالله تعالى يقين من كان على هذا ، فناج نفسك مناجاة من يستغنى بالجد دون الهزل ، فإن فى القول سعة ، ولن يعذر مثلك فيما طمح إليه الرجال . وأما ما ذكرت من أنا كنا وإياكم يدا جامعة فكنا كما ذكرت ، ففرق بيننا وبينكم أن الله بعث رسوله منا ، فآمنا به وكفرتم ، ثم زعمت أنى قتلت طلحة والزبير ، فذلك أمر غبت عنه ولم تحضره ، ولو حضرته لعلمته ، فلا عليك ، ولا العذر فيه إليك ، وزعمت أنك زائرى فى المهاجرين ، وقد انقطعت الهجرة حين أسر أخوك ، فإن يك فيك عجل فاسترفه[1] وإن أزرك فجدير أن يكون الله بعثنى عليك للنقمة منك ، والسلام .

قدوم عقيل بن أبى طالب على معاوية

قال: وذكروا أن عقيل بن أبى طالب قدم على أخيه على بالكوفة ، فقال له على: مرحباً بك وأهلا . ما أقدمك يا أخى : قال : تأخر العطاء عنا : وغلاء السعر ببلدنا ، وركبنى دين عظيم ، فجئت لتصلنى . فقال على : والله مالى مما ترى شيئاً إلا عطائى ، فإذا خرج فهو لك . فقال عقيل: وإنما شخوصى من الحجاز إليك من أجل عطائك ؟ وماذا يبلغ منى عطاؤك؟وما يدفع من حاجتى؟ فقال على . فهل تعلم لى مالا غيره؟ أم تريد أن يحرقنى الله فى نار جهنم فى صلتك بأموال المسلمين؟ فقال عقيل: والله لأخرجن إلى رجل هو أوصل لى منك : «يريد معاوية» ، فقال له على : راشداً مهدياً. فخرج عقيل! حتى أتى معاوية. فلما قدم عليه ، قال له معاوية: مرحبا وأهلا بك يا ابن أبى طالب. ما أقدمك على ؟ فقال : قدمت عليك لدين عظيم ركبنى، فخرجت إلى أخى ليصلنى ، فزعم أنه ليس له مما يلى إلا عطاؤه ، فلم يقع ذلك منى موقعاً ، ولم يسد منى مسداً ، فأخبرته أنى سأخرج إلى رجل هو أوصل منه لى ، فجئتك. فازداد معاوية فيه رغبة ، وقال : يا أهل الشام هذا سيد قريش ، وابن سيدها ، عرف الذى فيه أخوه من الغواية والضلالة ، فأثاب إلى أهل الدعاء إلى

---

(١) العجل : الاستعجال ، واسترفه : تأنّ واسترح .

الحق ، ولـكنى أزعم أن جميع ماتحت يدى لى ، فما أعطيت فقربة إلى الله ، وما أمسكت فلا جناح على فيه فأغضب كلامه عقيلا لما سمعه ينتقص أخاه ، فقال صدقت خرجت من عند أخى على هذا القول . وقد عرفت من فى عسكره ، لم أفقد والله رجلا من المهاجرين والأنصار، ولاوالله ما رأيت فى عسكر معاوية رجلا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم . فقال معاوية عند ذلك: ياأهل الشام ، أعظم الناس من قريش عليـكم حقاً ابن عم النبى صلى الله عليه وسلم . وسيدقريش: وها هو ذا تبرأ إلى الله مما عمل به أخوه . قال : وأمر له معاوية بثلاث مئة ألف دينار ، قال له: هذه مئة ألف تقضى بها ديونك ، ومئة ألف تصل بها رحمك ، ومئة ألف توسع بها على نفسك .

نعى عثمان بن عفان إلى معاوية

قال عبد الله بن مسلم : وذكر ابن عفير ، عن عون بن عبد الله بن عبدالرحمن الأنصارى ، قال : قدم الحجاج بن خزيمة الشام بكتاب معاوية : بعد قتل عثمان بأيام ، فقال له : أتعرفنى ؟ قال : نعم . أنت الحجاج بن خزيمة . . فما وراءك ؟ فقال الحجاج : أنا النذير العريان . أنعى إليك أمير المؤمنين عثمان . ثم قال : إنى كنت ممن خرج معيناً لعثمان مع يزيد بن أسد ، فتقدمت إلى الربذة فلقينا بها رجلا حدثنا عن قتل عثمان ، وزعم أنه ممن قتله . فقتلناه . وإنى أخبرك يامعاوية أنك تقوى على على بدون ما يقوى به عليك ، لأن من معك لا يقولون إذا قلت . ولا يسألون إذا أمرت،ولأن من مع على يقولون إذا قال : ويسألون إذا أمر ، فقليل ممن معك خير من كثير ممن معه . واعلم أن علياً لا يرضيه إلا الرضى ،وإن رضاه يسخطك ، ولست وعلى بالسواء ، لا يرضى على بالعراق دون الشام ، ورضاؤك بالشام دون العراق .

قال : وذكروا أنه لما فرغ من وقعة الجمل بايع له القوم جميعاً ، وبايع له أهل العراق ، واستقام له الأمر بها فـكتب إلى معاوية : أما بعد ، فإن القضاء السابق ، والقدر النافذ ، ينزل من السماء كقطر المطر ، فتمضى أحكامه عز وجل ، وتنفذ مشيئته بغير تحاب المخلوقين، ولارضا الآدميين ، وقد بلغك ما كان من قتل عثمان رحمه الله ، وبيعة الناس عامة إياى ، ومصارع الناكثين لى فادخل فيما دخل الناس فيه ، وإلا فأنا الذى عرفت ، وحولى من تعلمه ، والسلام .

فلما قدم على معاوية كتاب على مع الحجاج بن عدى الأنصارى ، ألفاه وهو يخطب الناس بدمشق ، فلما قرأه اغتم بذلك ، وأسره عن أهل الشام ، ثم قام الحجاج بن عدى خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا أهل الشام، إن أمر عثمان أشكل على من حضره، المخبر عنه كالأعمى،

والسميع كالأصم ، عابه قوم فقتلوه ، وغدره قوم فلم ينصروه ، فكذبوا الغائب واتهموا الشاهد. وقد بايع الناس عليا على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة عامة ، من رغب عنها رد إليها صاغراً داحرا ، فانظروا فى ثلاث وثلاث، ثم اقضوا على أنفسكم : أين الشام من الحجاز؟ وأين معاوية من على ؟ وأين أنتم من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بالإحسان ؟ قال : فغضب معاوية لقوله وقال : ياحجاج ، أنت صاحب زيد بن ثابت يوم الدار ؟ قال نعم ، فإن كان بلغك وإلا أحدثك ، قال : هات . قال : أشرف علينا زيد بن ثابت ، وكان مع عثمان فى الدار ، وقال : يامعشر الأنصار ، انصروا الله (مرتين)، فقلت : يازيد ، إنا نكره أن نلقى الله فنقول كما قال القوم : « ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا » ، فقال معاوية : انصرف إلى على ، وأعلمه أن رسولى على إثرك .

ثم إن معاوية انتخب رجلا من عبس ، وكان له لسان،فكتب معاوية إلى على كتابا عنوانه: « من معاوية إلى على ، وداخله : بسم الله الرحمن الرحيم لاغير » . فلما قدم الرسول دفع الكتاب إلى على ، فعرف على مافيه ، وأن معاوية محارب له ، وأنه لايجيبه إلى شىء مما يريد ، وقام رسول معاوية خطيبا ، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:هل هاهنا أحد من أبناء قيس عيلان، وبنى عبس وذبيان ؟ قالوا : نعم ، هم حولك ، قال : فاسمعوا ما أقول لكم ، يامعشر قيس ؛ إنى أحلف بالله لقد خلفت بالشام خمسين ألف شيخ ، خاضبين لحاهم من دموع أعينهم تحت قميص عثمان ، رافعيه على الرماح مخضوبا بدمائه ، قد أعطوا الله عهدا أن لايغمدوا سيوفهم ، ولا يغمضوا جفونهم ؛ حتى يقتلوا قتلة عثمان ، يوصى به الميت الحى ، ويرثه الحى من الميت ، حتى والله نشأ عليه الصبى ، وهاجر عليه الأعرابى ،وترك القوم تعس الشيطان ، وقالوا : تعسا لقتلة عثمان ، وأحلف بالله ليأتينكم من خضر[1] الخيل اثنا عشر ألفا ،فانظروا كم الشهب[2] وغيرها ؟ فقال له على : مايريدون بذلك ؟ قال : يريدون بذلك والله خبط رقبتك. فقال على: تربت يداك ، وكذب فوك ، أما والله لو أن رسولا قتل لقتلتك . فقام الصلت بن زفر فقال : بئس وافد أهل الشام أنت ورائد أهل العراق ، ونعم العون لعلى ، وبئس العون لمعاوية ، ياأخا عبس أتخوف المهاجرين والأنصار بخضر الخيل ، وغضب الرجال ؟ أما والله ما نخاف غضب رجالك ، ولا خضر خيلك ، فأما بكاء أهل الشام على قميص عثمان،فوالله ما هو بقميص يوسف ولا بحزن يعقوب ، ولئن بكوا عليه بالشام ، لقد خذلوه بالحجاز ، وأما قتالهم عليا ، فإن الله

---

(١) خضر الخيل : الخيل الخضر : خيل فى لونها غبرة مع سواد .
(٢) الشهب : البيض .

يصنع فى ذلك ما أحب . قال : وإن العبسى أقام بالعراق عند على ، حتى اتهمه معاوية ، ولقيه المهاجرون والأنصار فأشربوه حب على ؛ وحدثوه عن فضائله ، حتى شك فى أمره .

قدوم ابن عم عدى بن حاتم الشام

قال : وذكروا أن عدى بن حاتم قدم إلى على بالكوفة ، قبل أن يسير إلى البصرة ، فقال : ياأمير المؤمنين ؛ لسنا نخاف أحدا إلا معاوية ؛ وعندى رجل من قومى يريد أن يزور ابن عم له بالشام ، يقال له حابس بن سعد ، فلو أمرناه أن يلقى معاوية لعله أن يكسره ويكسر أهل الشام ؟ فقال له على : افعل ، فأغروه بذلك ، فلما قدم على ابن عمه ، وكان سيد طيء بالشام ، سأله فأخبره أنه شهد قتل عثمان بالمدينة المنورة ، وسار مع على إلى الكوفة ، وكان له لسان وهيبة ، فغدا به حابس إلى معاوية ، فقال : هذا ابن عمى ، قدم من الكوفة ، وكان مع على ، وشهد قتل عثمان بالمدينة ، وهو ثقة ، فقال له معاوية : حدثنا عن أمر عثمان ، قال نعم وليه محمد بن أبى بكر ، وعمار بن ياسر ، وتجرد فى أمره ثلاثة نفر ، عدى بن حاتم ، والأشتر النخعى ، وعمرو بن الحصين . ودب فى أمره رجلان : طلحة والزبير . وأبرأ الناس منه على بن أبى طالب ، ثم تهافت الناس على على بالبيعة تهافت الفراش ، حتى ضلت النعل[1] ، وسقط الرداء ، ووطىء الشيخ . ولم يذكر عثمان ، ولم يذكروه ، ثم تهيأ للمسير ، فخف معه المهاجرون والأنصار ، وكره القتال معه ثلاثة نفر : عبد الله بن عمر ، وسعد بن أبى وقاص ، ومحمد بن مسلمة ، فلم يستكره أحدا ، واستغنى بمن خف عمن ثقل ، ثم سار حتى انتهى إلى جبل طيء ، فأتاه منهم جماعة عظيمة ، حتى إذا كان فى بعض الطريق أتاه مسير طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة ، فسرح رسله إلى الكوفة ، فأجابوا دعوته ، ثم قدمها ، فحملوا إليه الصبى ودبت إليه العجوز ، وخرجت إليه العروس ، فرحا به وسرورا وشوقا إليه ، ثم سار إلى البصرة ، فبرز إليه القوم : طلحة والزبير وأصحابهما ، فلم يلبثوا إلا يسيرا ، حتى صرعهم الله ، وأبرزهم إلى مضاجعهم ، ثم صارت البصرة وما حولها فى كفة ، قال : وتركته وليس له هم إلا أنت والشام . فانكسر معاوية لقوله ، وقال : والله ما أظنه إلا عينا لعلى ، أخرجوه لايفسد أهل الشام . ثم قال معاوية : وكيف لايضيع عثمان ويقتل وقد خذله أهل ثقاته ، وأجمعوا عليه؟ أما والله لئن بقينا لهم لندرسنهم[2] درس الجمال هشيم اليبيس .

---

(١) ضلت النعل : ضاع الحذاء من الزحام .

(٢) لندرسنهم : لنقتلنهم ، وهشيم اليبس : يابس النبات الهش .

استعمال على عبد الله بن عباس على البصرة

قال : وذكروا أن علياً لما صار من البصرة بعد فراغه من أصحاب الجمل ، استعمل عليها عبد الله بن عباس ، وقال له : أوصيك بتقوى الله عز وجل ، والعدل على من ولاك الله أمره ، اتسع للناس بوجهك وعلمك وحكمك ، وإياك والإحن[1] ، فإنها تميت القلب والحق ؛ واعلم أن ما قربك من الله بعدك من النار ، وما قربك من النار بعدك من الله . اذكر الله كثيراً ولا تكن من الغافلين .

فلم يلبث على حين قدم الكوفة ، وأراد السير إلى الشام ، أن انضم إليه ابن عباس، واستعمل على البصرة زياد بن أبى سفيان .

ما أشار به الأحنف بن قيس على علىّ

قال : وذكروا أن الأحنف بن قيس قام إلى على فقال : يا أمير المؤمنين ، إنه إن يك بنو سعد لم ينصروك يوم الجمل ، فلن ينصروا عليك غيرك، وقد عجبوا ممن نصرك يومئذ ، وعجبوا اليوم ممن خذلك ، لأنهم شكوا فى طلحة والزبير ، ولم يشكوا فى عمرو ومعاوية ، وإن عشيرتنا بالبصرة فلو بعثنا إليهم فقدموا علينا ، فقاتلنا بهم العدو ، وانتصفنا بهم من الناس ، وأدركوا اليوم ما فاتهم أمس ، وهذا جمع قد حشره الله عليك بالتقوى ، لم نستكره شاخصاً ، ولم نشخص فيه مقيما ، ومن كان معك نافعك ، ورب مقيم خير من شاخص . وإنما نشوب الرجاء بالمخافة ، ووالله لوددنا أن أمواتنا رجعوا إلينا ، فاستعنا بهم على عدونا ، وليس لك إلا من كان معك ، ولنا من قومنا عدد ، ولا نلقى بهم عدواً أعدى من معاوية ، ولا نسد بهم ثغراً أشد من الشام .

كتاب الأحنف إلى قومه يدعوهم به إلى نصرة علىّ

قال : وذكروا أن علياً قال للأحنف بن قيس : اكتب إلى قومك . قال : نعم . فكتب الأحنف إلى بنى سعد : أما بعد ، فإنه لم يبق أحد من بنى تميم إلا وقد شقوا برأى سيدهم غيركم ، وعصمكم الله برأيى ، حتى نلتم مارجوتم ، وأمنتم مما خفتم ، وأصبحتم منقطعين من أهل البلاء ، لاحقين بأهل العافية ، وإنى أخبركم أنا قدمنا على تميم بالكوفة ، فأخذوا علينا بفضلهم مرتين :

---

(١) الإحن : الأحقاد .

مسيرهم إلينا مع على ، وتهيئهم للسير إلى الشام ، ثم انحشرنا معهم ، فصرنا كأنا لا نعرف إلا بهم، فأقبلوا إلينا ، ولا تتكلوا علينا ، فإن لهم أعدادنا من رؤسائهم فلا تبطئوا عنا ، فإن من تأخير العطاء حرمانا ، ومن تأخير النصر خذلانا . فحرمان العطاء القلة ، وخذلان النصر الإبطاء ولا تقضى الحقوق إلا بالرضا وقد يرضى المضطر بدون الأمل .

فلما انتهى كتاب الأحنف إلى بنى سعد ، ساروا بجماعتهم ، حتى نزلوا الكوفة .

كتاب أهل العراق إلى مصقلة (١)

قال : وذكروا أنه قام إلى على بعد انصرافه من البصرة إلى الكوفة ، وجوه بكر بن وائل، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، إن نعيا أخا مصقلة يستحى منك، لما صنع مصقلة، وقد أتانا اليقين أنه لا يمنع مصقلة من الرجوع إليك إلا الحياء ، ولم يبسط منذ فارقنا لسانه ولا يده ، فلو كتبنا إليه كتابا ، وبعثنا من قبلنا رسولا ، فإنا نستحى أن يكون فارقنا مثل مصقلة من أهل العراق إلى معاوية . فقال على : اكتبوا . فكتبوا : أما بعد ، فقد علمنا أنك لم تلحق بمعاوية رضا بدينه ، ولا رغبة فى دنياه ، ولم يعطفك عن على طعن فيه ، ولا رغبة عنه ، ولكن توسطت أمراً فقويت فيه الظن ، وأضعفت فيه الرجاء ، فكان أولاهما عندك أن قلت : أفوز بالمال ، وألحق بمعاوية . ولعمرنا ما استبدلت الشام بالعراق ، ولا السكاسك(٢) بربيعة ، ولا معاوية بعلى ، ولا أصبت دنيا تهنأ بها ، ولا حظاً تحسد عليه ، وإن أقرب ماتكون مع الله ، أبعد ما تكون مع معاوية ، فارجع إلى مصرك ، فقد اغتفر أمير المؤمنين الذنب ، واحتمل الثقل ، واعلم أن رجعتك اليوم خير منها غداً ، وكانت أمس خيراً منها اليوم ، وإن كان عليك حياء من أبى الحسن ، فما أنت فيه أعظم ، فقبح الله أمراً ليس فيه دنيا ولا آخرة . فلما انتهى كتابهم إلى مصقلة ، وكان لرسولهم عقل ولسان ، قال الرسول : يا مصقلة ، انظر فيما خرجت منه ، وفيما صرت إليه ، وانظر من أخذت ، ومن تركت ، وانظر من جاورت ، ومن زايلت ، ثم اقض بعقلك دون هواك . قال: وإن مصقلة مضى إلى معاوية بالكتاب ، فأقرأه إياه ، فقال معاوية : يا مصقلة إنك عندى غير ظنين ، فإذا أتاك شىء فاستره عنى ، فانصرف مصقلة إلى منزله ، فدعا الرسول فقال : يا أخا بكر ، إنما هربت بنفسى من على ، ولا والله ما يطول لسانى بغيبته ، ولا قلت فيه قط حرفاً بسوء ، اذهب بكتابى هذا إلى قومى .

---

(١) مصقلة : هو مصقلة بن هبيرة ، ترك عليا رضى الله عنه إلى معاوية طمعاً فى الدنيا.
(٢) السكاسك : حى من اليمن جدهم سكسك بن أشرس .

جواب مصقلة إلى قومه

قال: وذكروا أن مصقلة كتب إلى قومه: أما بعد، فقد جاءني كتابكم، وإني أخبركم أنه من لم ينفعه القليل لم ينفعه الكثير، وقد علمتم الأمر الذي قطعني من عليّ، وأضافني إلى معاوية، وقد علمت أني لو رجعت إلى علي وإليكم لكان ذنبي مغفورا: ولكني أذنبت إلى عليّ، وصحبت معاوية، فلو رجعت إلى عليّ أحدثت عيباً، وأحييت عاراً، وكنت بين لائمين، أولهما خيانة، وآخرهما غدر، ولكني أقيم بالشام، فإن غلب معاوية فداري العراق، وإن غلب علي فداري أرض الروم. فأما الهوى فإليكم طائر، وكانت فرقتي عليا على بعض العذر أحب إلى من فرقتي معاوية ولا عذر لي. ثم قال للرسول: يا ابن أخي، استعرض الناس عن قولي في علي. فقال: قد سألت، فقالوا خيراً. قال: فإني والله عليه حتى أموت. فرجع الرسول بالكتاب، فأقرأه علياً، فقال: كفوا عن صاحبكم، فليس براجع حتى يموت. فقال حصين: أما والله ما به إلا الحياء.

لحوق عبد الله بن عامر بالشام

قال: وذكروا أن عبد الله بن عامر لحق بالشام، ولم يأت معاوية، وخاف يوماً كيوم الجمل، فبعث إليه معاوية أن يأتيه، وألح عليه. فكتب ابن عامر: أما بعد، فإني أخبرك أني أقحمت طلحة والزبير إلى البصرة، وأنا أقول إذا رأى الناس أم المؤمنين مالوا إليها، وإن فر الناس لم يفر الزبير، وإن غدر الناس لم يغدر مروان، فغضبت عائشة، ورجع الزبير، وقتل مروان طلحة، وذهب مالي بما فيه، والناس أشباه، واليوم كأمس، فإن أتبعتني هواي، وإلا أرتحل عنك والسلام. فكتب معاوية إليه: أما بعد، فإنك قلدت أمر دينك قتلة عثمان، وأنفقت مالك لعبد الله بن الزبير، وآثرت العراق على الشام، فأخرجك الله من الحرب صفر اليدين، ليس لك حظ الحق، ولا ثأر القتيل. فلما انتهى كتابه إلى ابن عامر أتاه، فغمس يده معه، وبايعه، فلاطفه معاوية، وعرف له قرابته من عثمان.

ما أشار به عمار بن ياسر على عليّ

قال: وذكروا أن عمار بن ياسر قام إلى علي، فقال: يا أمير المؤمنين، إنما بايعناك ولا نرى أحداً يقاتلك، فقاتلك من بايعك، وأعطاك الله فيهم ما وعد في قوله جل وعز: «ثم بُغي عليه لينصرنه الله»، وقوله: «يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم»، وقوله: «فمن نكث فإنما ينكث على نفسه»، وقد كانت الكوفة لنا، والبصرة علينا، فأصبحنا على ما نحب، بين ماض مأجور، وراجع معذور، وإن بالشام الداء العضال: رجلا لا يسلمها أبداً إلا مقتولا أو مغلوباً، فعاجله قبل أن يعاجلك، وانبذ إليه قبل الحرب.

ما أشار به الأشتر على عليّ

قال : وذكروا أن الأشتر النخعيّ قام إلى عليّ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنما لنا أن نقول قبل أن تقول ، فإذا عزمت فلم نقل ، فلو سرت بنا إلى الشام بهذا الحدّ والجدّ ، لم يلقوك بمثله ، فإن القلوب اليوم سليمة ، والأبصار صحيحة ، فبادر بالقلوب القسوة ، وبالأبصار العمى .

كتاب عليّ إلى جرير بن عبد الله

قال : وذكروا أن علياً كتب إلى جرير بن عبد الله ، وكان على ثغر همذان ، كان استعمله عليه عثمان ، فكتب عليّ إليه مع زفر بن قيس : أما بعد ، فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ، ومالهم من دونه من وال . ثم إنى أخبرك عنا وعمن سرنا إليهم ، من جمع طلحة والزبير ، عند نكثهما بيعتهما ، وما صنعا بعاملى عثمان ابن حنيف : إنى هبطت من المدينة بالمهاجرين والأنصار ، حتى إذا كنت ببعض الطريق ، بعثت إلى الكوفة الحسن ابنى ، وعبد الله بن العباس ابن عمى ، وعمّار بن ياسر . وقيس بن سعد بن عبادة ، فاستنفرتهم بحق الله ورسوله فأجابوا ، وسرت بهم . حتى نزلت بظهر البصرة ، فأعذرت فى الدعاء ، وأقلت فى العثرة ، وناشدتهم عقد بيعتهم ، فأبوا إلا قتالى ، فاستعنت الله عليهم ، فقتل من قتل ، وولوا مدبرين إلى مصرهم ، فسألونى ما كنت دعوتهم إليه قبل اللقاء ، فقبلت العافية ، ورفعت عنهم السيف ، واستعملت عليهم عبد الله بن عباس ، وبعثت إليك زفر ابن قيس ، فاسأله عنا وعنهم .

خطبة زفر بن قيس

قال : وذكروا أنه لما قدم زفر على جرير بكتاب على ، وقرأه جرير ، قام زفر خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، إن علياً كتب إليكم بكتاب لا يقول بعده إلا رجيعاً من القول ، إن الناس بايعوا علياً بالمدينة غير محاباة ببيعتهم ، لعلمه بكتاب الله ، ورى الحقّ فيه ، وإن طلحة والزبير نقضا بيعة عليّ على غير حدث ، ثم لم يرضيا حتى نصبا له الحرب ، وألبا عليه الناس . وأخرجا أم المؤمنين عائشة من حجاب ضربه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم عليها ، فلقيهما فأعذر فى الدعاء ، وخشى البغى ، وحمل الناس على ما يعرفون ، فهذا عيان ما غاب عنكم . وإن سألتم الزيادة زدناكم .

خطبة جرير بن عبد الله البجليّ

قال : وذكروا أن جرير بن عبد الله قام خطيباً . فحمد الله . فقال : أيها الناس . هذا كتاب أمير المؤمنين عليّ بن أبى طالب . وهو المأمون على الدين والدنيا . وكان من أمره وأمر

عدوّه ما قد سمعتم ، فالحمد لله على أقضيته. وقد بايعه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والتابعون بإحسان ، ولو جعل الله هذا الأمر شورى بين المسلمين لكان علىّ أحق بها ، ألا وإن البقاء فى الجماعة ، والفناء فى الفرقة ، وعلىّ حاملكم على الحق ما استقمتم له ، فإن ملتم أقام ميلكم ، قال الناس : سمعاً وطاعة ، ورضانا رضا من بعدنا .

كتاب علىّ إلى الأشعث بن قيس

قال : وذكروا أن علياً كتب إلى الأشعث بن قيس مع زياد بن كعب . والأشعث يومئذ بأذربيجان عاملا لعثمان ، كان استعمله عليها : أما بعد ، فلولا هنات كن فيك كنت المقدم فى هذا الأمر قبل الناس ، فلعل أمراً يحمل بعضه بعضاً إن اتقيت الله ، وقد كان من بيعة الناس إياى ما قد بلغك ، وكان طلحة والزبير أول من بايعنى ، ثم نقضا بيعتى على غير حدث ، وأخرجا أم المؤمنين إلى البصرة ، فسرت إليهما فى المهاجرين والأنصار ، فالتقينا ، فدعوتهما إلى أن يرجعا إلى ما خرجا منه ، فأبيا . فأبلغت فى الدعاء ، وأحسنت فى البقاء ، وإن عملك ليس لك بطعمة ، ولكنه أمانة فى عنقك ، والمال مال الله ، وأنت من خزانى عليه حتى تسلمه إلىّ إن شاء الله ،وعلىّ أن لا أكون شر ولاتك .

خطبة زياد بن كعب

قال : وذكروا أن الأشعث بن قيس لما قرأ كتاب على ، قام زياد بن كعب خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، إنه من لم يكفه القليل لم يكفه الكثير ، وإن أمر عثمان لم ينفع فيه العيان ، ولم يشف منه الخبر ، غير أن من سمعه كمن عاينه ، وإن المهاجرين والأنصار بايعوا علياً راضين به ، وإن طلحة والزبير نقضا بيعة على ، على غير حدث ، وأخرجا أم المؤمنين على غير رضى ، فسار إليهم ، ولم ينلهم ، فتركهم وما فى نفسه منهم حاجة ، فأورثه الله الأرض ، وجعل له عاقبة المتقين .

خطبة الأشعث بن قيس

قال : فقام الأشعث بن قيس خطيباً ، فقال : أيها الناس ، إن عثمان رحمه الله ولانى أذربيجان ، وهلك وهى فى يدى ، وقد بايع الناس علياً ، وطاعتنا له لازمة ، وقد كان من أمره وأمر عدوه ما قد بلغكم ، وهو المأمون على ما غاب عنا وعنكم من ذلك .

مشورة الأشعث ثقاته فى اللحوق بمعاوية إلى الشام

قال : وذكروا أن الأشعث رجع إلى منزله ، فدعا أهل ثقته من أصحابه ، فقال لهم : إن

كتاب عليّ جاءني ، وقد أوحشني ، وهو آخذي بمال أذربيجان وأنا لاحق بمعاوية ، فقال القوم : الموت خير لك من ذلك ، أتدع مصرك وجماعة قومك ، وتكون ذنباً لأهل الشام ؟ .

كتاب جرير إلى الأشعث

قال : وذكروا أن جريرا كتب إلى الأشعث : أما بعد . فإنه أتتني بيعة عليّ فقبلتها . ولم أجد إلى دفعها سبيلا ، وإني نظرت فيما غاب عني من أمر عثمان ، فلم أجده يلزمني ، وقد شهده المهاجرون والأنصار ، فكان أوثق أمرهم فيه الوقوف ، فاقبل بيعته ، فإنك لا تلتفت إلى خير منه . واعلم أن بيعة علي خير من مصارع أهل البصرة . وقد تحلب الناقة الضجور[1] . ويجلس العَوْد[2] على البعير الدبر . فانظر لنفسك . والسلام .

إرسال عليّ جريرا إلى معاوية

قال : وذكروا أن جريراً لما قدم على عليّ قال له : يا جرير . انطلق إلى معاوية بكتابي هذا ، وكن عند ظني فيك ، واعلم يا جرير أنك ترى من حولي من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والبدريين والعقبيين[3] . وإني اخترتك عليهم ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : خير ذي يمن جرير ، فاذهب إلى معاوية بكتابي هذا ورسالتي ، فإن دخل فيما دخل فيه المسلمون ، وإلا فانبذ إليه بالحرب ، وأعلمه أني لا أرضى به أميراً ، والعامة لا ترضى به والياً ، فقال جرير : إني لأكره أن أمنعك معونتي ، وما أطمع لك في معاوية ، ويصنع الله ما يشاء .

كتاب عليّ إلى معاوية مرة ثانية

قال : وذكروا أن علياً كتب إلى معاوية مع جرير : أما بعد ، فإن بيعتي بالمدينة لزمتك وأنت بالشام ، لأنه بايعني الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوا ، فلم يكن للشاهد أن يختار ، ولا للغائب أن يرد ، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار ، فإذا اجتمعوا على رجل فسموه إماما كان ذلك لله رضا ، فإن خرج منهم خارج ردّوه إلى ماخرج منه ، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين ، وأولاه الله ما تولى ، وأصلاه جهنم وساءت مصيراً . وإن طلحة

---

(١) الناقة الضجور : التي ترغو عند حلبها .
(٢) العود : المسن من الإبل .
(٣) العقبيين : نسبة إلى العقبة ، والمراد بيعة العقبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

والزبير بايعانى بالمدينة ، ثم نقضا بيعتهما ، فكان نقضهما كردّتهما ، فجاهدتهما بعد ما أعذرت إليهما ، حتى جاء الحق ، وظهر أمر الله وهم كارهون ، فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، فإن أحب أمورك إلىّ العافية ، فإن تعرض للبلاء قاتلتك ، واستعنت بالله عليك ، وقد أكثرت الكلام فى قتلة عثمان ، فادخل فى الطاعة ، ثم حاكم القوم إلىّ أحملك وإياهم على كتاب الله ، فأما تلك التى تريدها فهى خدعة الصبى عن اللبن ، ولعمرى لئن نظرت بعقلك دون هواك ، لتجدنى أبرأ الناس من دم عثمان ، واعلم يا معاوية أنك من الطلقاء ، الذين لا تحل لهم الخلافة، ولا تعقد معهم الإمامة ، و لا تعرض فيهم الشورى ، وقد بعثت إليك وإلى من قبلك جرير بن عبد الله ، وهو من أهل الإيمان والهجرة السابقة ، فبايع ، ولا قوة إلا بالله .

قدوم جرير إلى معاوية

قال : وذكروا أن جريراً لما قدم على معاوية بكتاب على ، قام جرير بالشام خطيباً ، فقال : أيها الناس ، إن أمر عثمان قد أعيا من شهده ، فما ظنكم بمن غاب عنه ، وإن الناس بايعوا علياً ، وإن طلحة والزبير كانا ممن بايع ، ثم نقضا بيعته ، ألا وإن هذا الدين لا يحتمل الفتن، ألا وإن هذا الدين لا يحتمل السيف. وقد كانت بالبصرة أمس روعة ملمّة ، إن يشفع البلاء بمثلها فلا بقاء للناس ، وقد بايعت العامة علياً ، ولو ملكنا أمرنا لم نختر لها غيره ، فمن خالف هذا فقد استعتب(١) فادخل يا معاوية فيما دخل الناس فيه ، فإن قلت : إن عثمان ولانى ولم يعزلنى ، فإن هذا لو كان لم يقم لله دين ، وكان لكل امرئ ما هو فيه .

إشارة الناس على علىّ بالمقام بالكوفة

قال : وذكروا أن علياً استشار الناس ، فأشاروا عليه بالمقام بالكوفة عامه لملك ، غير الأشتر النخعى ، وعدىّ بن حاتم ، وشريح بن هانئ ، فإنهم قاموا إلى علىّ ، فتكلموا بلسان واحد ، فقالوا : إن الذين أشاروا عليك بالمقام ، إنما خوفوك بحرب الشام ، وليس فى حربهم شىء أخوف من الموت ونحن نريده . فقال لهم : إن استعدادى لحرب أهل الشام ، وجرير عندهم إغلاق للشام ، وصرف لأهله عن خير إن أرادوه ، ولكنى قد وقّت له وقتاً لا يقيم بعده إلا أن يكون مخدوعاً أو عاصياً ، ولا أكره لكم الإعداد ، وأبطأ جرير على علىّ بالشام حتى يئس منه ، وإن جريراً لما أبطأ عليه معاوية برأيه ، استحثه بالبيعة ، فقال معاوية لجرير :

---

(١) استعتب : استوجب العتاب

يا جرير ، إن البيعة ليست بخلسة ، وإنه أمر له ما بعده . فأبلعنى ريقى[1] .

مشورة معاوية أهل ثقته

قال : وذكروا أن معاوية دعا أهل ثقته فاستشارهم ، فقال عتبة بن أبى سفيان: استعن على هذا الأمر بعمرو بن العاص ، فإنه من قد عرفت ، وقد اعتزل عثمان فى حياته ، وهو لأمرك أشد اعتزالا إلا أن ترضيه .

كتاب معاوية إلى عمرو بن العاص

قال : وذكروا أن معاوية كتب إلى عمرو بن العاص وهو بفلسطين : أما بعد، فقد كان من أمر على وطلحة والزبير ما قد بلغك ، وقد سقط علينا مروان بن الحكم فى رافضة من أهل البصرة ، وقدم علىّ جرير بن عبد الله فى بيعة على ، وقد حبست نفسى عليك ، فاقدم على بركة الله ، والسلام .

ما سأل معاوية من علىّ من الإقرار بالشام ومصر

قال : وذكروا أن معاوية قال لجرير : إنى قد رأيت رأياً . قال جرير : هات . قال : أكتب إلى علىّ أن يجعل لى الشام ومصر جباية ، فإن حضرته الوفاة لم يجعل لأحد من بعده فى عنقى بيعة ، وأسلم إليه هذا الأمر ، وأكتب إليه بالخلافة . قال جرير : اكتب ما شئت .

وإنما أراد معاوية فى طلبه الشام ومصر ألا يكون لعلىّ فى عنقه بيعة ، وأن يخرج نفسه مما دخل فيه الناس ، فكتب إلى على يسأله ذلك ، فلما أتى علياً كتاب معاوية عرف أنها خدعة منه .

كتاب علىّ إلى جرير بن عبد الله

قال : وذكروا أن علياً كتب إلى جرير : أما بعد ، فإن معاوية إنما أراد بما طلب ألا يكون لى فى عنقه بيعة ، وأن يختار من أمره ما أحب ، وقد كان المغيرة بن شعبة أشار علىّ وأنا بالمدينة أن أستعمله على الشام ، فأبيت ذلك عليه ، ولم يكن الله ليرانى أتخذ المضلين عضداً ، فإن بايعك الرجل ، وإلا فأقبل .

---

(١) انتظر علىّ حتى أتروى فى الأمر .

استشارة عمرو بن العاص ابنيه ومواليه

قال : وذكروا أنه لما انتهى إلى عمرو بن العاص كتاب معاوية وهو بفلسطين ، استشار ابنيه عبد الله ومحمداً ، وقال : يا ابنى ، إنه قد كان منى فى أمر عثمان فلتات لم أستقبلها بعد ، وقد كان من هروبى بنفسى حين ظننت أنه مقتول ما قد احتمله معاوية عنى ، وقد قدم على معاوية جرير ببيعة على ، وقد كتب إلىّ معاوية بالقدوم عليه ، فما تريان ؟ فقال عبد الله وهو الأكبر: أرى والله أن نبى الله قبض وهو عنك راض ، والخليفتان من بعده كذلك .

وقتل عثمان وأنت غائب ، فأقم فى منزلك ، فلست مجعولا خليفة ، ولا تزيد على أن تكون حاشية لمعاوية على دنيا قليلة ، أوشكتما أن تهلكا فتستويا فيها جميعاً . وقال محمد : أرى أنك شيخ قريش ، وصاحب أمرها ، فإن ينصرم هذا الأمر وأنت فيه غافل ، يصغر أمرك ، فالحق بجماعة أهل الشام ، واطلب بدم عثمان ، فإنك به تستميل إلى بنى أمية . فقال عمرو : أما أنت يا عبد الله فأمرتنى بما هو خير لى فى دينى ، وأما أنت يا محمد فقد أمرتنى بما هو خير لى فى دنياى . ثم دعا غلاماً له يقال له وردان ، وكان داهياً ، فقال له عمرو : يا وردان احطط ، يا وردان ارحل ، يا وردان احطط ، يا وردان ارحل . فقال وردان : أما إنك إن شئت نبأتك بما فى نفسك ، فقال عمرو : هات ياوردان ، فقال : اعتركت الدنيا والآخرة على قلبك، فقلت مع على الآخرة بلا دنيا ، ومع معاوية الدنيا بغير آخرة ، فأنت واقف بينهما . فقال عمرو : ما أخطأت ما فى نفسى ، فما ترى يا وردان ؟ فقال : أرى أن تقيم فى منزلك ، فإن ظهر أهل الدين عشت فى عفو دينهم ، وإن ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك ، فقال عمرو : الآن حين شهرتنى العرب بمسيرى إلى معاوية ؟

قدوم عمرو إلى معاوية

قال : وذكروا أن عمرو بن العاص لما قدم إلى معاوية ، وعرف حاجته إليه باعده من نفسه ، وكايد كل واحد منهما صاحبه ، فقال عمرو لمعاوية : أعطنى مصر ، فتلكأ معاوية وقال : ألم تعلم أن مصر كالشام ؟ قال : بلى ولكنها إنما تكون لى إذا كانت لك ، وإنما تكون لك إذا غلبت عليا على العراق . وقد بعث أهلها بطاعتهم إلى علىّ . فدخل عتبة بن أبى سفيان على معاوية ، فقال : أما ترضى أن تشترى عمــراً بمصر إن هى صفت لك ؟ ليتك لا تغلب على الشام . فلما سمع معاوية قول عتبة بعث إلى عمرو ، فأعطاه مصر ، ولما كتب معاوية لعمرو بمصر ، كتب فى أسفل الكتاب : ولا ينقض شرطٌ طاعة . وكتب عمرو ، ولا تنقض طاعةٌ

شرطا ، وكايد كل واحدمنهماصاحبه ، وكان مع عمرو بن العاص ابن أخ له، جاءه من مصر ؛فلما جاء عمرو بالكتاب مسروراً به ، عجب ابن أخيه من سروره ، فقال : ياعمرو ألا تخبرنى بأى رأى تعيش فى قريش وقد أعطيت دينك غيرك ؟ أترى أهل مصر وهم قتلة عثمان يدفعونها إلى معاوية وعلى حى؟ أو تراها إن صارت إلى معاوية لا يأخذك بالجدل الذى قدمه ؟ فقال عمرو : يا بن أخى . إنه لأمر الله دون معاوية وعلىّ . يابن أخى لو كنت مع على وسعنى بيتى ، ولكنى مع معاوية . فقال : الفتى إنك لم ترد معاوية ، ولكنك تريد دنياه، ويريد دينك .فبلغ معاوية قول الفتى فطلبه فهرب ، فلحق بعلى ، وحدث عليا بأمر معاوية وعمرو ، وماقاله ، فسر على بذلك، وقرّبه .

مشورة معاوية عمراً رضى الله عنهما

قال : وذكروا أن معاوية قال لعمرو : ياأبا عبدالله ، طرقتنى فى ليلتى هذه ثلاثة أخبار ، ليس لى فيها ورد ولا صدر ، منها أن ابن أبى حذيفة كسر سجن مصر ، ومنها أن قيصر زحف بجماعة الروم ليغلب على الشام ، ومنها أن عليا قد تهيأ للمجىء إلينا ، فما عندك ؟ قال عمرو : كل هذا عظيم : أما ابن أبى حذيفة فخرج فى أشباهه من الناس ، فإن تبعث إليه رجلا يقتله ، وإن يقتل فلا يضرك : وأما قيصر فأهد له من وصائف الروم ومن الذهب والفضة ، واطلب إليه الموادعة ، تجده إليها سريعاً : وأما علىّ فوالله إن له فى الحرب لحظا ما هو لأحد من الناس ، وإنه لصاحب الأمر . قال معاوية : صدقت ، ولكنى أقاتله على ما بأيدينا ، ونلزمه دم عثمان : فقال عمرو : واسوأتاه ، إن أحق الناس ألا يذكر عثمان لأنا ولأنت . قال معاوية : ولم ؟ فقال عمرو : أما أنت فخذلته ومعك أهل الشام ، واستغاثك فأبطأت عليه ، وأما أنا فتركته عيانا ، وهربت إلى فلسطين . قال معاوية : دعنى من هذا ، هلم فبايعنى . فقال عمرو: لا والله لا أعطيك من دينى حتى آخذ من دنياك ، قال معاوية : صدقت، سل تعط ، قال عمرو: مصر طعمة . فغضب مروان بن الحكم ، وقال : ما بالى لا أشترى ، فقال معاوية : اسكت يابن عم ، فإنما يشترى لك الرجال . فكتب معاوية لعمرو : مصر طعمة .

كتاب معاوية إلى أهل مكة والمدينة وجوابهما

قال : وذكروا أن معاوية قال لعمرو : إنى أريدأن أكتب إلى أهل مكة والمدينة كتابا أذكر فيه قتل عثمان ، فإما أن ندرك به حاجتنا ، أو نكفهم عن المسير . فقال له عمرو : إلى من تكتب ؟ قال : إلى ثلاثة نفر : رجل لعلى لا يريد غيره ، ولا يزيده كتابنا فيه إلا بصيرة ، أو رجل يهوى عثمان . فلا يزيده على ما هو عليه ، أو رجل معتزل لا يريد القتال :

قال عمرو : على ذلك ؟ قال : نعم. قال : اكتب ، فكتب إلى أهل مكة والمدينة : أما بعد، فإنه مهما غاب عنا فإنه لم يفت علينا أن علياً قتل عثمان ، والدليل على ذلك أن قتلته عنده ، وإنما نطلب بدمه حتى يدفع إلينا قتلته ، فنقتلهم بكتاب الله تعالى ، فإن دفعهم إلينا كففنا عنـــه ، وجعلناها شورى بين المسلمين ، على ما جعلها عمر بن الخطاب ، فأما الخلافة فلسنا نطلبها ، فأعينونا يرحمكم الله ، وانهضوا من ناحيتكم .

جوابهما

قال : وذكروا أنه لما قرأ عليهم كتابه اجتمع رأيهم على أن يسندوا أمرهم إلى المسور بن مخرمة ، يجاوب عنهم ، فكتب إليه : أما بعد ، فإنك أخطأت خطأ عظيما ، وأخطأت مواضع النصرة ، وتناولتها من مكان بعيد ، وما أنت والخلافة يا معاوية ، وأنت طليق[1] ، وأبوك من الأحزاب[2] . فكف عنا ، فليس لك قبلنا ولى ولا نصير .

كتاب معاوية إلى ابن عمر

قال : وذكروا أن معاوية كتب إلى ابن عمر كتاباً خاصاً ، دون كتابه إلى أهل المدينة : أما بعد ، فإنه لم يكن أحد من قريش أحب إلىّ أن يجتمع الناس عليه منك بعد عثمان ، فذكرت خذلك إياه ،وطعنك على أنصاره ، فتغيرت لك ، وقد هون ذلك علىّ خلافك على علىّ ، وطعنك عليه ، وردنى إليك بعض ما كان منك ، فأعنا يرحمك الله على حق هذا الخليفة المظلوم ، فإنى لست أريد الإمارة عليك : ولكنى أريدها لك ، فإن أبيت كانت شورى بين المسلمين .

جـوابه

فكتب إليه عبد الله بن عمر : أما بعد ، فإن الرأى الذى أطمعك فى هذا هو الذى صيرك إلى ماصيرك . تركتُ علياً فى المهاجرين والأنصار ، وتركتُ طلحة والزبير وعائشة ، وأتبعك فيمن اتبعك؟! [3] وأما قولك إنى طعنت على علىّ فلعمرى ما أنا كعلىّ فى الإسلام والهجرة ،

---

(١) طليق : يعنى من الطلقاء الذين قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة اذهبوا فأنتم الطلقاء .

(٢) وأبوك من الأحزاب : يعنى أن أباه كان من المشركين الذين حاصروا المدينة فى غزوة الأحزاب .

(٣) استفهام إنكارى يعنى لا أتبعك .

ومكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن أحدث أمراً لم يكن إلينا فيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد ، ففزعت إلى الوقوف ، وقلت : إن كان هذا فضلا تركته ، وإن كان ضلالة فشر منه نجوت ، فأغن عنى نفسك .

كتاب معاوية إلى سعد بن أبى وقاص

قال : وذكروا أن معاوية كتب إلى سعد بن أبى وقاص : أما بعد ، فإن أحق الناس بنصرة عثمان أهل الشورى ، والذين أثبتوا حقه ، واختاروه على غيره ، وقد نصره طلحة والزبير ، وهما شريكاك فى الأمر والشورى ، ونظيراك فى الإسلام ، وخفّت لذلك أم المؤمنين ، فلا تكرهنّ ما رضوا ، ولا تردنّ ما قبلوا ، فإنما نردها شورى بين المسلمين .

جواب سعد ابن أبى وقاص لمعاوية

قال: وذكروا أن سعداً كتب إليه : أما بعد ، فإن أهل الشورى ليس منهم أحق بها من صاحبه ، غير أن علياً كان من السابقة ، ولم يكن فينا ما فيه ، فشاركنا فى محاسننا ، ولم نشاركه فى محاسنه ، وكان أحقنا كلنا بالخلافة ، ولكن مقادير الله تعالى التى صرفتها عنه ، حيث شاء لعلمه وقدَره . وقد علمنا أنه أحق بها منا ، ولكن لم يكن بد من الكلام فى ذلك والتشاجر ، فدع ذا . وأما أمرك يا معاوية ، فإنه أمر كرهنا أوله وآخره . وأما طلحة والزبير فلو لزما بيوتهما لكان خيراً لهما . والله تعالى يغفر لعائشة أم المؤمنين .

كتاب معاوية إلى محمد بن مسلمة الأنصارى

وكان فارس الأنصارى رضى الله عنهم ، وذا النجدة فيهم : أما بعد ، فإنى لم أكتب إليك وأنا أرجو مبايعتك ، ولكنى أذكرك النعمة التى خرجتَ منها ، إنك كنت فارس الأنصار ، وعدة المهاجرين ، فادعيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمراً لم تستطع فيه الإمضاء ، فهذا أعنى ، وعن قتال أهل الصلاة . فهلا نهيت أهل الصلاة عن قتل بعضهم بعضاً ؟ أو ترى أن عثمان وأهل الدار ليسوا بمسلمين ؟ وأما قومك الأنصار فقد عصوا الله تعالى ، وخذلوا عثمان ، وسائلهم وسائلك الله تعالى عن الذى كان يوم القيامة .

جوابه

قال : وذكروا أن محمد بن مسلمة كتب إليه : أما بعد ، فقد اعتزل هذا الأمر من ليس في يده من رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل الذى فى يدى ، وقد أخبرت بالذى هو كائن قبل أن يكون ، فلما كان كسرت سيفى ، ولزمت بيتى ، واتهمت الرأى على الدين ، إذ لم يصح لى معروف آمر به ، ولا منكر أنهى عنه ، ولعمرى يا معاوية ما طلبتَ إلا الدنيا ، ولا اتبعت إلا الهوى ، ولئن كنت نصرت عثمان ميتاً ، لقد خذلته حيا ، ونحن ومن قبلنا من المهاجرين والأنصار أولى بالصواب .

قال : فلما أجاب القوم معاوية بما أجابوه ، من الخلاف إلى ما دعاهم إليه قال له عمرو : كيف رأيت يا معاوية رأيى ورأيك ، أخبرتك بالأمر قبل أن يقع ، قال معاوية : رجوتَ ما خفت .

كتاب معاوية إلى علىّ رضى الله عنه

قال : وذكروا أن معاوية كتب إلى علىّ . أما بعد ، فلعمرى لو بايعك القوم الذين بايعوك وأنت برىء من دم عثمان ، كنت كأبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم ، ولكنك أغريت بعثمان المهاجرين ، وخذلت عنه الأنصار ، فأطاعك الجاهل ، وقوى بك الضعيف ، وقد أبى أهل الشام إلا قتالك ، حتى تدفع إليهم قتلة عثمان ، فإذا دفعتهم كانت شورى بين المسلمين ، وقد كان أهل الحجاز الحكام على الناس وفى أيديهم الحق ، فلما تركوه صار الحق فى أيدى أهل الشام ، ولعمرى ما حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل البصرة، ولا حجتك على طلحة والزبير ، لأن أهل البصرة بايعوك ، ولم يبايعك أحد من أهل الشام ، وإن طلحة والزبير بايعاك ولم أبايعك . وأما فضلك فى الإسلام ، وقرابتك من النبى عليه الصلاة والسلام ، فلعمرى ما أدفعه ولا أنكره .

جواب علىّ إلى معاوية

قالوا : فكتب إليه علىّ : أما بعد ، فقد جاءنى منك كتاب امرىء ليس له بصر يهديه ، ولا قائد يرشده ، دعاه الهوى فأجابه ، وقاده فاستقاده . زعمت أنك إنما أفسد عليك بيعتى خطيئتى فى عثمان ، ولعمرى ما كنت إلا رجلا من المهاجرين ، أوردت كما أوردوا وأصدرت كما أصدروا ، وما كان الله ليجمعهم على الضلال ، ولا ليضربهم بالعمى ، وما أمرت فيلزمنى خطيئة عثمان ، ولا قتلت فيلزمنى قصاص القاتل . أما قولك إن أهل الشام هم الحكام على الناس ، فهات رجلا من قريش الشام يقبل فى الشورى ، أو تحل له الخلافة ، فإن سميت كذّبك

المهاجرون والأنصار ، وإلا أتيتك به من قريش الحجاز . وأما قولك ندفع إليك قتلة عثمان فما أنت وعثمان ؟ إنما أنت رجل من بنى أمية ، وبنو عثمان أولى بعثمان منك ، فإن زعمت أنك أقوى على ذلك ، فادخل فى الطاعة ، ثم حاكم القوم إلىّ ، وأما تمييزك بين الشام والبصرة وذكرك طلحة والزبير ، فلعمرى ما الأمر إلا واحد ، إنها بيعة عامة ، لا يثنى عنها البصير ، ولا يستأنف فيها الخيار ، وأما ولوعك بى فى أمر عثمان ، فوالله ما قلت ذلك عن حق العيان ولا عن يقين الخبر ، وأما فضلى فى الإسلام ، وقرابتى من رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وشرفى فى قريش ، فلعمرى لو استطعت دفعه لدفعته .

قدوم عبيد الله بن عمر على معاوية

قال : وذكروا أن عبيد الله بن عمر قدم على معاوية الشام ، فسر به سروراً شديداً وسر به أهل الشام ، وكان أشد قريش سروراً به عمرو بن العاص فقال معاوية لعمرو : ما منع عبد الله أن يكون كعبيد الله؟ فضحك عمرو ، وقال : شبهت غير شبيه ، إنما أتاك عبيد الله مخافة أن يقتله علىّ بقتله الهرمزان ، ورأى عبد الله ألا يكون عليك ولا لك ، ولو كان معك لنفعك أو عليك لضرك .

تعبئة معاوية أهل الشام لقتال علىّ

قال : وذكروا أن معاوية بعث إلى رؤساء أهل الشام ، فجمعهم ثم قال : أنتم أهل الفضل ، فليقم كل رجل منكم يتكلم ، فقام رجل فقال : أما والله لو شهدنا أمر عثمان ، فعرفنا قتلته بأعيانهم لا استغنينا عن إخبار الناس ، ولكنا نصدقك على ما غاب عنا ، وإن أبغض الناس إلينا من يقاتل علىّ بن أبى طالب لقدمه فى الإسلام ، وعلمه بالحرب .

ثم قام حوشب فقال : والله ما إياك ننصر ، ولا لك نغضب ، ولا عنك نحامى ، ما ننصر إلا الله : ولا نغضب إلا للخليفة ، ولا نحامي إلا عن الشام ، فلف الخيل بالخيل ، والرجال بالرجال ، وقد دعونا قومنا إلى مادعوتنا إليه أمس ، وأمرناهم بما أمرتنا به ، فجعلوك بيننا وبين الله ، ونحن بينك وبينهم ، فمرنا بما تحب ، وانهنا عما تكره .

قال: فلما عزم معاوية على المسير إلى صفّين ، عبّأ أهل الشام ، فجعل على مقدمته أبا الأعور

السلمىّ ، وعلى ساقته بسر بن ارطأة ، وعلى الخيل عبيد الله بن عمر ، ودفع اللواء إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وعلى الميمنة يزيد العبسىّ ، وعلى الميسرة عبد الله بن عمرو ابن العاص ، ثم قال : يا أهل الشام ، إنكم قد سرتم لتمنعوا الشام ، وتأخذوا العراق ، ولعمرى ما الشام رجال العراق وأموالها ، ولا لأهل العراق بصر أهل الشام ولا بصائرهم ، مع أن القوم بعدّهم غيرهم مثلهم ، وليس بعدكم غيركم ، فإن غلبتموهم فلم تغلبوا إلا من قد أتاكم ، وإن غلبوكم عاقبوا من بعدكم ، والقوم لا قوكم بيصائر أهل الحجاز ، ورقة أهل اليمن ، وقسوة أهل مصر ، وكيد أهل العراق ، وإنما يبصر غدا من أبصر اليوم ، فاستعينوا بالصبر والصلاة ، إن الله مع الصابرين .

ثم سار معاوية فى ثلاثة آلاف وثمانين ألفا ، حتى نزل بصفّين ، وذلك فى نصف محرم ، وسبق إلى سهولة الأرض ، وسعة المناخ ، وقرب الفرات ، وكتب إلى علىّ يخبره بسيره .

تعبئة أهل العراق للقتال

قال : وذكروا أن علياً لما بلغه تأهب معاوية قال : أيها الناس ، إنما بايع معاوية أهل الشام ، وليس له غيرهم ولىّ ولا نصير ، وإنكم أهل الحجاز ، وأهل العراق ، وأهل اليمن ، وأهل مصر ، وقد جعل القوم معاوية بينهم وبين الله ، وليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وقد وادع القوم الروم ، فإن غلبتموهم استعانوا بهم ، ولحقوا بأرضهم ، وإن غلبوكم فالغاية الموت ، والمفر إلى الله العزيز الحكيم . وقد زعم معاوية أن أهل الشام أهل صبر ونصر ، ولعمرى لأنتم أولى بذلك منهم ، لأنكم المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان ، وإنما الصبر اليوم ، والنصر غداً .

قال : فجد الناس ونشطوا وتأهبوا ، فسار علىّ بالناس من الكوفة فى مئة ألف وتسعين ألفا ، فجعل على المقدمة الأشتر النخعى ، وعلى ساقته شريح ابن هانئ ، وعلى المهاجرين والأنصار محمد بن أبى بكر ، وعلى أهل البصرة عبد الله بن عباس ، وعلى الكوفة عبد الله بن جعفر ، وعلى جماعة الخيل عمار بن ياسر ، وعلى القلب الحسن بن على ، وسار على حتى نزل صفين ، وقد سبقه معاوية إلى سهولة الأرض . وسعة المناخ ، وقرب الفرات .

منع معاوية الماء من أصحاب علي

قال : وذكروا أنه لما نزل معاوية بصفين ، بعث أبا الأعور بمن معه ، ليحولوا بينهم وبين الفرات ، وأن أهل العراق لما نزلوا بعثوا غلمانهم ليستقوا لهم من الفرات ، فحالت خيل معاوية بينهم وبين الماء ، فانصرفوا ، فساروا إلى علي ، فأخبروه فقال علي للأشعث : اذهب إلى معاوية ، فقل له : إن الذى جئنا له غير الماء ، ولو سبقناك إليه لم نحل بينك وبينه ، فإن شئت خليت عن الماء ، وإن شئت تناجزنا عليه وتركنا ماجئنا له . فانطلق الأشعث إلى معاوية ، فقال له إنك تمنعنا الماء وايم الله لنشربنه ، فمرهم يكفوا عنه قبل أن نغلب عليه ، والله لا نموت عطشاً وسيوفنا على رقابنا . فقال معاوية لأصحابه : ما ترون ؟ فقال رجل منهم : نرى أن نقتلهم عطشا ، كما قتلوا عثمان ظلماً . فقال عمرو بن العاص : لا تظن يا معاوية أن عليا يظمأ وأعنة الخيل بيده ، وهو ينظر إلى الفرات ، حتى يشرب أو يموت دونه ، خل عن القوم يشربوا . فقال معاوية : هذا والله أول الظفر ، لاسقاني الله من حوض الرسول إن شربوا منه ، حتى يغلبوني عليه . فقال عمرو : وهذا أول الجور ، أما تعلم أن فيهم العبد والأجير والضعيف ومن لا ذنب له ؟ لقد شجعت الجبان ، وحملت من لا يريد قتالك على قتالك .

غلبة أصحاب علي على الماء

قال : وذكروا أن معاوية لما غلب على الماء اغتم علي لما فيه الناس من العطش ، فخرج ليلا والناس يشكون بعضهم إلى بعض ، مخافة أن يغلب أهل الشام على الماء ، فقال الأشعث : يا أمير المؤمنين ، أيمنعنا القوم الماء وأنت فينا ومعنا السيوف ؟ خل عنا وعن القوم ، فوالله لا أرجع إليك حتى أرده ، أو أموت دونه ، وأمر الأشتر أن يعلو الفرات فى الخيل ، حتى آمره بأمرى . فقال علي : ذلك لك . فانصرف الأشعث ، فنادى فى الناس : من كان يريد الماء فميعاده الصبح ، فإنى ناهض إلى الماء ، فأجابه بشر كثير ، فتقدم الأشعث فى الرجالة ، والأشتر فى الخيل ، حتى وقفا على الفرات ، فلم يزل الأشعث فى الرجالة يمضى ، حتى خالط القوم ، ثم حسر عن رأسه ، فنادى : أنا الأشعث بن قيس ، خلوا عن الماء . فقال أبو الأعور : أما والله قبل أن تأخذنا وإياكم السيوف فلا . فقال الأشعث : أظنها والله قد دنت منا ومنكم . قال : وبعث الأشعث إلى الأشتر أن أقحم الخيل ، فأقحمها الأشتر ، حتى وضع سنابكها فى الفرات ، وحمل الأشتر فى الرجالة ، فأخذت القوم السيوف فانكشف أبو الأعور وأصحابه ، وبعث الأشتر إلى علي : هلم يا أمير المؤمنين ، قد غلب الله لك على الماء ، فلما غلب أهل العراق على

الماء ، شمت عمرو بن العاص بمعاوية ، وقال : يا معاوية ، ما ظنك إن منعك على الماء اليوم كما منعته أمس ؟ أتراك ضاربهم كما ضربوك ؟ فقال : دع ما مضى عنك فإن عليا لا يستحل منك ما استحللت منه ، وإن الذى جاء له غير الماء .

دعاء علىّ معاوية إلى البراز

قال : وذكروا أن الناس مكثوا بصفين أربعين ليلة : يغدون إلى القتال ويروحون ، فأما القتال الذى كان فيه الفناء فثلاثة أيام . فلما رأى على كثرة القتال والقتل فى الناس ، برز يوما من الأيام ومعاوية فوق التل ، فنادى بأعلى صوته : يا معاوية فأجابه فقال : ما تشاء يا أبا الحسن ؟ قال على ، علام يقتتل الناس ويذهبون ؟ على ملك إن نلته كان لك دونهم ؟ وإن نلته أنا كان لى دونهم ؟ ابرز إلىّ ودع الناس ، فيكون الأمر لمن غلب . قال عمرو بن العاص أنصفك الرجل يا معاوية . فضحك معاوية وقال ، طمعت فيهـــا يا عمرو ، فقال عمرو ، والله ما أراه يجمل بك إلا أن تبارزه . فقال معاوية ، ما أراك إلا مازحا ، نلقاه بجمعنا .

براز عمرو بن العاص لعلىّ

قال : وذكروا أن عمرا قال لمعاوية : أتجبن عن على ، وتتهمنى فى نصيحتى إليك ؟ والله لأبارزن عليا ولو مت ألف موتة فى أول لقائه . فبارزه عمرو ، فطعنه علىّ فصرعه ، فاتقاه بعورته فانصرف عنه علىّ ، وولى بوجهه دونه . وكان على رضى الله عنه لم ينظر قط إلى عورة أحد ، حياء وتكرما ، وتنزها عما لا يحل ولا يجمل بمثله ، كرم الله وجهه .

قطع الميرة عن أهل الشام

قال : وذكروا أن عليا دعا زحر بن قيس ، فقال له : سر فى بعض هذه الخيل إلى القطقطانة[1] ، فاقطع الميرة عن معاوية ، ولا تقتل إلا من يحل لك قتله ، وضع السيف موضعه ، فبلغ ذلك معاوية ، فدعا الضحاك بن قيس ، فأمره أن يلقى زحر بن قيس فيقاتله ، فسار الضحاك فلقيه زحر فهزمه ، وقتل من أصحابه ، وقطع الميرة عن أهل الشام ، ورجع الضحاك إلى معاوية منهزما ، فجمع معاوية الناس ، فقال : أتانى خبر من ناحية من نواحىّ ،

---

(١) القطقطانة : بضم القافين موضع بالكوفة .

أمر شديد ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، لسنا في شيء مما أتاك ؛ إنما علينا السمع والطاعة ، وبلغ علياً قول معاوية وقول أهل الشام ، فأراد أن يعلم ما رأى أهل العراق ، فجمعهم ، فقال : أيها الناس إنه أتاني خبر من ناحية من نواحي . فقال ابن الكواء وأصحابه : إن لنا في كل أمر رأيا ، فما أتاك فأطلعنا عليه ، حتى نشير عليك . فبكى على ، ثم قال ظفر والله ابن هند باجتماع أهل الشام له ، واختلافكم على ، والله ليغلبن باطله حقكم ، إنما أتانى أن زحر بن قيس ظفر بالضحاك ، وقطع الميرة : ورأى معاويةُ هزيمة صاحبه ، فقال : يا أهل الشام ، إنه أتانى أمر شديد ، فقلدوه أمرهم ، واختلفتم على .

فقام قيس بن سعد ، فقال : أما والله لنحن كنا أولى بالتسليم من أهل الشام .

قدوم أبي هريرة وأبي الدرداء على معاوية وعلى

قال : وذكروا أن أبا هريرة وأبا الدرداء قدما على معاوية من حمص ، وهو بصفين ، فوعظاه وقالا له : يا معاوية ، علام تقاتل عليا وهو أحق بهذا الأمر منك في الفضل والسابقة؟ لأنه رجل من المهاجرين الأولين ، السابقين بإحسان ، وأنت طليق ، وأبوك من الأحزاب . أما والله ما نقول لك أن تكون العراق أحب إلينا من الشام ، ولكن البقاء أحب إلينا من الفناء ، والصلاح أحب إلينا من الفساد . فقال معاوية : لست أزعم أنى أولى بهذا الأمر من على ، ولكنى أقاتله حتى يدفع إلى قتلة عثمان . فقالا : إذا دفعهم إليك ماذا يكون ؟ قال : أكون رجلا من المسلمين . فأتيا عليا ، فإن دفع إليكما قتلة عثمان جعلتها شورى . فقدما على عسكر على ، فأتاهما الأشتر ، فقال : يا هذان إنه لم ينزلكما الشام حب معاوية ، وقد زعمتما أنه يطلب قتلة عثمان ، فممن أخذتما ذلك فقبلتماه ؟ أعمن قتله فصدقتموهم على الذنب ، كما صدقتموهم على القتل؟ أم عمن نصره ، فلا شهادة لمن جر إلى نفسه ، أم عمن اعتزلوا ، إذ علموا ذنب عثمان وقد علموا ما الحكم في قتله ؟ أم عن معاوية وقد زعم أن عليا قتله ؟ اتقيا الله ، فإننا شهدنا وغبتما ، ونحن الحكام على من غاب . فانصرفا ذلك اليوم ، فلما أصبحا أتيا علياً ، فقالا له : إن لك فضلا لا يدفع ، وقد سرت مسير فتى إلى سفيه من السفهاء ، ومعاوية يسألك أن تدفع إليه قتلة عثمان ، فإن فعلت ثم قاتلك كنا معك . قال على : أتعرفانهم ؟ قالا : نعم . قالا : فخذاهم ، فأتيا محمد بن أبي بكر ، وعمار بن ياسر ، والأشتر ، فقالا : أنتم من قتلة عثمان وقد أمرنا بأخذكم ، فخرج إليهما أكثر من عشرة آلاف رجل ، فقالوا نحن قتلنا عثمان ، فقالا : نرى أمراً شديداً ألبس علينا الرجل . وإن أبا هريرة وأبا الدرداء انصرفا إلى منزلهما بحمص ، فلما قدما حمص لقيهما عبد الرحمن بن عثمان ، فسألهما عن مسيرهما ، فقصا عليه

القصة ، فقال : العجب منكما أنكما من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أما والله لئن كففتما أيديكما ما كففتما ألسنتكما ، أتأتيان علياً وتطلبان إليه قتلة عثمان وقد علمتما أن المهاجرين والأنصار لو حرموا دم عثمان نصروه ، وبايعوا علياً على قتلته ، فهل فعلوا ؟ وأعجب من ذلك رغبتكما عما صنعوا ، وقولكما: لعلىّ اجعلها شورى ، واخلعها من عنقك ، وإنكما لتعلمان أن من رضى بعلى خير ممن كرهه ، وأن من بايعه خير ممن لم يبايعه ، ثم صرتما رسولى رجل من الطلقاء، لا تحلّ له الخلافة ، ففشا قوله وقولهما ، فهمّ معاوية بقتله ، ثم راقب فيه عشيرته .

وقوع عمرو بن العاص فى علىّ

وذكروا أن رجلا من همذان يقال له برد قدم على معاوية ، فسمع عمراً يقع فى على ، فقال له : يا عمرو ، إن أشياخنا سمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من كنت مولاه فعلى مولاه، فحق ذلك أم باطل ؟ فقال عمرو : حق ،وأنا أزيدك أنه ليس أحد من صحابة رسول الله له مناقب مثل مناقب على ، ففزع الفتى ، فقال عمرو : إنه أفسدها بأمره فى عثمان ، فقال برد : هل أمر أو قتل ؟ قال : لا ، ولكنه آوى ومنع . قال . فهل بايعه الناس عليها ؟ قال : نعم. قال : فما أخرجك من بيعته ؟ قال : اتهامى إياه فى عثمان. قال له :وأنت أيضاً قد اتهمت ، قال : صدقت فيها خرجت إلى فلسطين،فرجع الفتى إلى قومه فقال : إنا أتينا قوماً أخذنا الحجة عليهم من أفواههم . علىٌّ على الحق فاتبعوه .

كتاب معاوية إلى أبى أيوب الأنصارى

قال : وذكروا أن معاوية كتب إلى أبى أيوب الأنصارى ، وكان أشد الأنصار على معاوية: أما بعد ، فإنى ناسيتك ما لا تنسى الشيباء . فلما قرأ كتابه أتى به عليا ، فأقرأه إياه . قال على : يعنى بالشيباء المرأة الشمطاء لا تنسى ثكل ابنها ، فأنا لا أنسى قتل عثمان . فكتب إليه أبو أيوب : إنه لا تنسى الشيباء ثكل ولدها ، وضربتها مثلا لقتل عثمان ، فما نحن وقتلة عثمان ؟ إن الذى تربص بعثمان ، وثبط أهل الشام عن نصرته لأنت ، وإن الذين قتلوه غيرُ الأنصار ، والسلام .

ما خاطب به النعمان بن بشير قيس بن سعد

قال : وذكروا أن النعمان بن بشير الأنصارى وقف بين الصفين ، فقال : ياقيس بن سعد ، أما أنصفكم من دعاكم إلى مارضى لنفسه ، إنكم يامعشر الأنصار أخطأتم فى خذل عثمان يوم الدار ، وقتلكم أنصاره يوم الجمل ، وإقحامكم على أهل الشام بصفين ، فلو كنتم إذ خذلتم عثمان

خذلتم علياً ، كان هذا بهذا ، ولـكنكم خذلتم حقا ، ونصرتم باطلا ، ثم لم ترضوا أن تـكونوا كالناس ، حتى أشعلتم الحرب ، ودعوتم إلى البراز ، فقد والله وجدتم رجال الحرب من أهل الشام سراعاً إلى برازكم ، غير أنـكاس عن حربكم ، ثم لم ينزل بعلى أمر قط إلا هونتم عليه المصيبة ، ووعدتموه الظفر ، وقد والله أخلفتموه ، وهان عليكم بأسكم ، وما كنتم لتخافوا به أنفسكم ، من شدتـكم فى الحرب ، وقدرتـكم على عدوكم ، وقد أصبحتم أذلاء على أهل الشام ، لايرون حربكم شيئاً ، وأنتم أكثر منهم عدداً ومدداً ، وقد والله كاثروكم بالقلة ، فـكيف لوكانوا مثلـكم فى الـكثرة ؟ والله لاتزالون أذلاء فى الحرب بعدها أبداً ، إلا أن يكون معكم أهل الشام، وقد أخذت الحرب منا ومنـكم ما قد رأيتم ، ونحن أحسن بقيـة ، وأقرب إلى الظفر ، فاتقوا الله فى البقية .

فضحك قيس وقال : والله ما كنت أراك يا نعمان تجترئ على هذا المقام ، أما المنصف المحق فلا ينصح أخاه من غش نفسه ، وأنت والله الغاش لنفسه ، المبطل فيم انتصح غيره ، أما ذكرك عثمان فإن كان الإيجاز يكفيك فخذه ، قتل عثمان من لست خيراً منه ، وخذله من هو خير منك، وأما أصحاب الجمل فقاتلناهم على النـكث ، وأما معاوية فلو اجتمعت العرب على بيعته لقاتلتهم الأنصار ، وأما قولك : إنا لسنا كالناس ، فنحن فى هذه الحرب كما كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نتقي السيوف بوجوهنا ، والرماح بنحورنا ، حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون. ولـكن انظر يا نعمان: هل ترى مع معاوية إلا طليقاً أعرابياً ، أو يمانياً مستدرجاً ؟ وانظر أين المهاجرون والأنصار ، والتابعون بإحسان ، الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ؟ ثم انظر هل ترى مع معاوية غيرك وغير صويحبك، ولستما والله بدريين ، ولا عقبيين[1] ، ولا لـكما سابقة فى الإسلام ، ولا آية فى القرآن .

كتاب عمرو إلى ابن عباس

قال : وذكروا أن معاوية قال لعمرو بن العاص : إن رأس أهل العراق مع على عبد الله ابن عباس ، فلو ألقيت إليه كتاباً ترفق فيه ، فإن قال شيئاً لم يخرج منه على ، وقد أكلتنا هذه الحرب ، ولا أرانا نطيق العراق إلا بهلاك الشام . فقال له عمرو : إن ابن عباس لا يخدع ، ولو طمعت فيه طمعت فى على . قال معاوية : على ذلك . فـكتب عمرو إلى ابن عباس : أما بعد ،

(١) أى لم تبايعا بيعة العقبة .

فإن الذى نحن وأنت فيه ليس أول أمر قاده البلاء ، وساقته العافية ، وإنك رأس هذا الجمع بعد علىّ؛ فانظر فيما بقى بغير ما مضى ، فوالله ما أبقت هذه الحرب لنا ولا لكم حياة ولا صبرا. واعلم أن الشام لا تهلك إلا بهلاك العراق ، وأن العراق لا تهلك إلا بهلاك الشام ، فما خيرنا بعد أعدادنا منكم؟ وما خيركم بعد أعدادكم منا ؟ ولسنا نقول : ليت الحرب عادت ، ولكنا نقول : ليتها لم تكن. وإن فينا لمن يكره البقاء كما فيكم ، وإنما هما ثلاثة : أمير مطاع ، أو مأمور مطيع ، أو مشاور مأمون . فأما العاصى السفيه فليس بأهل أن يدعى فى ثقات أهل الشورى ، ولا خواص أهل النجوى .

جواب عبد الله بن عباس إلى عمرو بن العاص

قال : وذكروا أنه لما انتهى كتاب عمرو إلى ابن عباس ، أتى به إلى على ، فأقرأه إياه ، فقال على : قاتل الله ابن العاص ، أجبه . فكتب إليه : أما بعد ، فإنى لا أعلم رجلاً أقل حياء منك فى العرب ، إنك مال بك الهوى إلى معاوية ، وبعته دينك بالثمن الأوكس ، ثم خبطتَ الناس فى عشواء ، طمعاً فى هذا الملك ، فلما تراءينا ، أعظمت الحرب والرماء إعظام أهل الدين، وأظهرت فيها كراهية أهل الورع ، لا تريد بذلك إلا تمهيد الحرب ، وكسر أهل الدين ، فإن كنت تريد الله فدع مصر ، وارجع إلى بيتك ، فإن هذه حرب ليس فيها معاوية كعلىّ ، بدأها على بالحق،وانتهى فيها إلى العذر ، وبدأها معاوية بالبغى ، وانتهى فيها إلى السرَف،وليس أهل الشام فيها كأهل العراق ، بايع أهل العراق علياً وهو خير منهم ، وبايع أهل الشام معاوية وهم خير منه ، ولست أنا وأنت فيها سواء ، أردتُ الله ، وأنت أردتَ مصر ، وقد عرفت الشىء الذى باعدك منى ، ولا أعرف الشىء الذى قربك من معاوية ، فإن ترد شراً لا تفتنا به ، وإن ترد خيراً لا تسبقنا إليه.

أمر معاوية مروان بحرب الأشتر

قال: وذكروا أن معاوية دعا مروان بن الحكم،فقال:يامروان ، إن الأشتر قد غمّنى،فاخرج بهذه الخيل،فقاتله بها غداً . فقال مروان : ادع لها عمراً ، فإنه شعارك دون دثارك. قال معاوية : وأنت نفسى دون وزيرى . قال مروان ، لو كنت كذلك ألحقتنى به فى العطاء ، وألحقته بى فى الحرمان ، ولكنك أعطيته ما فى يدك ، ومنيتنى ما فى يدىْ غيرك ، فإن غلبت طاب المقام، وإن غلبت خف عليك الهرب . قال معاوية : يغنى الله عنك ، قال : أما اليوم فلا . فدعا معاوية عمراً ، فأمره بأمره ، فقال : أما والله لئن فعلت لقد قدمتنى كافياً ، وأدخلتنى ناصحاً ، وقد غمك القوم فى مصر ، فإن كان لا يرضيهم إلا أخذها فخذها ، عليها لعنة الله ، أما والله يا أمير

المؤمنين إن مروان يباعدك منا ويباعدنا منك ، ويأبى الله إلا أن يقربنا إليك .

كتاب معاوية إلى ابن عباس

قال : وذكروا أن معاوية كتب إلى عبدالله بن عباس رضى الله عنهما : أما بعد ، فإنكم معشر بنى هاشم لستم إلى أحد أسرع منكم بالمساءة إلى أنصار عثمان ، فإن يك ذلك لسلطان بنى أمية ، فقد ورثها عدى وتيم ، وقد وقع من الأمر ما قد ترى ، وأدالت هذه الحرب بعضنا من بعض ، حتى استوينا فيها ، فما أطمعكم فينا ، وما أيأسكم منا أيأسنا منكم ، وقد رجونا غير الذى كان ، وخشينا دون ما وقع ، ولستم ملاقينا اليوم بأحد من حدكم أمس ، وقد منعنا بما كان منا الشام ؛ وقد منعتم بما كان منكم العراق ، فاتقوا الله فى قريش ، فما بقى من رجالها إلا ستة : رجلان بالشام ، ورجلان بالعراق ، ورجلان بالحجاز ، فأما اللذان بالحجاز : فسعد ، وعبد الله بن عمر ، وأما اللذان بالشام : فأنا ، وعمرو ، وأما اللذان بالعراق : فعلى وأنت. ومن الستة رجلان ناصبان لك ، وآخران واقفان عليك ، وأنت رأس هذا الجمع اليوم وغدا ، ولو بايع الناس لك بعد عثمان كنا أسرع إليك منا إلى علىّ.

جوابه

قال : وذكروا أنه لما أتى كتاب معاوية إلى ابن عباس ضحك ، ثم قال : حتى متى يخطب إلىّ معاوية عقلى ؟ وحتى متى أجمجم له عما فى نفسى؟ فكتب إليه: أما بعد ، فقد جاءنى كتابك فأما ما ذكرت من سرعتنا بالمساءة إلى أنصار عثمان لسلطان بنى أمية ، فلعمرى لقد أدركت فى عثمان حاجتك ، لقد استنصرك فلم تنصره ، حتى صرت إلى ما صرت إليه ، وبينى وبينك فى ذلك ابن عمك ، وأخو عثمان الوليد بن عقبة[1] ، وأما قولك : إنه لم يبق من رجال قريش غير ستة ، فما أكثر رجالها ، وأحسن بقيتها ، وقد قاتلك من خيارها من قاتلك ، ولم يخذلنا إلا من خذلك ، وأما إغراؤك إيانا بعدى وتيم ، فأبو بكر وعمر كانا خيرا منك ومن عثمان ، كما أن عليا خير منك ، وأما قولك : إنا لن نلقاك إلا بما لقيناك به ، فقد بقى لك منا يوم ينسيك ما قبله ، وتخاف له ما بعده ، وأما قولك : إنه لو بايعنى الناس استقمت فقد بايعوا عليا وهو خير منى ، فلم تستقم له ، وإن الخلافة لاتصلح إلا لمن كان فى الشورى ، فما أنت والخلافة ؟ وأنت طليق الإسلام ، وابن رأس الأحزاب ، وابن آكلة الأكباد من قتلى بدر[2]

---

(١) الوليد بن عقبة أخو عثمان من الرضاع .

(٢) أكلت أمه كبد حمزة عم النبى ﷺ بعد أن قتله وحشىّ .

خطبة على كرم الله وجهه

قال : وذكروا أن عليا قام خطيبا فقال : أيها الناس ، ألا إن هذا القدر ينزل من السماء كقطر المطر ، على كل نفس بما كسبت من زيادة أو نقصان ، فى أهل أو مال ، فمن أصابه نقصان فى أهل أو مال فلا يغشّ نفسه ، ألا وإنما المال حرث الدنيا ، والعمل الصالح حرث الآخرة ، وقد يجمعهما الله لأقوام ، وقد دخل فى هذا العسكر طمع من معاوية ، فضعوا عنكم هم الدنيا بفراقها ، وشدّة ما اشتدّ منها ، برجاء ما بعدها ، فإن نازعتكم أنفسكم إلى غير ذلك فردوها إلى الصبر ، ووطنوها على العزاء ، فوالله إن أرجى ما أرجوه الرزق من الله ، حيث لا نحتسب ، وقد فارقكم مصقلة بن هبيرة ، فآثر الدنيا على الآخرة ، وفارقكم بشر بن أرطاة فأصبح ثقيل الظهر من الدماء ، مفتضح البطن من المال ، وفارقكم زيد بن عدى بن حاتم ، فأصبح يسأل الرجعة . وايم الله لودّت رجال مع معاوية أنهم معى ، فباعوا الدنيا بالآخرة ، ولودّت رجال معى أنهم مع معاوية ، فباعوا الآخرة بالدنيا .

قدوم ابن أبى محجن على معاوية

قال : وذكروا أن عبد الله بن أبى محجن الثقفى قدم على معاوية . فقال : يا أمير المؤمنين ، إنى أتيتك من عند الغبى الجبان البخيل ابن أبى طالب. فقال معاوية : لله أنت ! أتدرى ما قلت؟ أما قولك الغبى، فوالله لو أن ألسُن الناس جمعت فجعلت لسانا واحداً لكفاها لسان علىّ، وأما قولك إنه جبان ، فثكلتك أمك ،هل رأيت أحداً قط بارزه إلا قتله ؟ وأما قولك إنه بخيل ، فوالله لو كان له بيتان أحدهما من تبر والآخر من تبن ، لأنفد تبره قبل تبنه . فقال الثقفى : فعلام تقاتله إذاً ؟ قال : على دم عثمان ، وعلى هذا الخاتم ، الذى من جعله فى يده جادت طينته ، وأطعم عياله ، وادخر لأهله . فضحك الثقفى ثم لحق بعلى، فقال : ياأمير المؤمنين، هب لى يدىّ بجرمى ، لا دنيا أصبت ولا آخرة . فضحك على ، ثم قال : أنت منها على رأس أمرك ، وإنما يأخذ الله العباد بأحد الأمرين .

رفع أهل الشام المصاحف

قال : وذكروا أن أهل العسكرين باتوا بشدة من الألم ، ونادى علىّ أصحابه ، فأصبحوا على راياتهم ومصافّهم ، فلما رآهم معاوية وقد برزوا للقتال، قال لعمرو بن العاص : ياعمرو ، ألم تزعم أنك ما وقعت فى أمر قط إلا خرجت منه ؟ قال : بلى ، قال : أفلا تخرج مما ترى ؟ قال : والله لأدعونّهم إن شئت إلى أمر أفرق به جمعهم، ويزداد جمعك إليك اجتماعاً، إن أعطوكه اختلفوا ، وإن منعوكه اختلفوا . قال معاوية : وما ذلك ؟ قال عمرو : تأمر بالمصاحف فترفع ثم تدعوهم إلى ما فيها ، فوالله لئن قبله لتفترقن عنه جماعته، ولئن ردّه ليكفرنه أصحابه. فدعا معاوية

بالمصحف ، ثم دعا رجلا من أصحابه يقال له ابن هند ، فنشره بين الصفين ، ثم نادى : الله الله فى دمائنا ودمائكم الباقية ، بيننا وبينكم كتاب الله . فلما سمع الناس ذلك ثاروا إلى علىّ ، فقالوا : قد أعطاك معاوية الحق ، ودعاك إلى كتاب الله ، فاقبل منه . ورفع صاحب معاوية المصحف وهو يقول : بيننا وبينكم هذا المصحف ، ثم تلا : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ، ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون » ، ثم نادى من لفارس من الروم ؟ فقال الأشعث : والله لا نأتى هذه أبدا ، ونرضى معك ، أو نقاتل معك وتابعه أشراف أهل اليمن ، وركنوا إلى الصلح ، وكرهوا القتال .

ماتكلم به عبد الله بن عمرو وأهل العراق

قال : وذكروا أن معاوية دعا عبد الله بن عمرو بن العاص ، فأمره أن يكلم أهل العراق ، فأقبل عبد الله بن عمرو ، حتى إذا كان بين الصفين نادى : يا أهل العراق ، أنا عبد الله ابن عمرو بن العاص ، إنه قد كانت بيننا وبينكم أمور للدين والدنيا ، فإن تك للدين ، فقد والله أسرفنا وأسرفتم ، وإن تك للدنيا فقد والله أعذرنا وأعذرتم ، وقد دعوناكم لأمر لو دعوتمونا إليه أجبناكم ، فإن يجمعنا وإياكم الرضا ، فذلك من الله ، وإلا فاغتنموا هذه الفرجة ، لعلّ الله أن ينعش بها الحىّ ، وينسى بها القتيل ، فإن بقاء المقلد بعد الهالك قليل . فقال علىّ لسعد بن قيس : أجب الرجل ، وقد كان عبد الله بن عمرو قاتل يوم صفين بسيفين ، وكان من حجته أن قال : أمرنى رسول الله أن أطيع أبى . فتقدّم سعد بن قيس ، حتى إذا كان بين الصفين نادى : يا أهل الشام إنه كانت بيننا وبينكم أمور حامينا فيها على الدين والدنيا ، وقد دعوتمونا إلى ما قاتلناكم عليه أمس ، ولم يكن ليرجع أهل العراق إلى عراقهم ، ولا أهل الشام إلى شامهم بأمر أجمل منه ، فإن يحكم فيه بما أنزل الله فالأمر فى أيدينا ، وإلا فنحن نحن ، وأنتم أنتم ، وإن الناس ثاروا إلى علىّ عند كلام عبد الله بن عمرو ، فقالوا : أجب القوم إلى ما دعوك إليه ، فإنا دعونا عثمان إلى ما دعاك القوم إليه ، فأبى فقاتلناه . فبعث علىّ الأشعث إلى أهل الرايات ، يأمرهم أن ينقضوها ويرجعوا إلى رحالهم ، حتى يبرموا رأيهم .

ما خاطب به عتبة بن أبى سفيان الأشعث بن قيس

قال : وذكروا أن معاوية دعا عتبة ، فقال له : ألِنْ إلى الأشعث كلاما ، فإنه إن رضى بالصلح رضيت به العامة ، فخرج عتبة حتى إذا وقف بين الصفين نادى الأشعث ، فأتاه . فقال عتبة : أيها الرجل ، إن معاوية لو كان لاقيا أحداً غيرك وغير علىّ لقيك ، إنك رأس أهل

العراق ، وسيد أهل اليمن ، ومن قد سلف إليه من عثمان ما قد سلف من الصهر والعمل ، ولست كأصحابك . أما الأشتر فقتل عثمان ، وأما عدىّ فحضض ، وأما سعد بن قيس فقلد علياً دينه ، وأما شريح بن هانئ وزحر بن قيس فلا يعرفان غير الهوى ، وأما أنت فحاميت عن أهل العراق تكرّما ، وحاربت أهل الشام حميّة وقد والله بلغنا منك ما أردنا ، وبلغت منا ما أردت ، وإنا لا ندعوك إلى ما لا يكون منك من تركك علياً ، ولا نصرة معاوية ولكنا ندعوك إلى البقية ، التى فيها صلاحك وصلاحنا .

فتكلم الأشعث فقال : يا عتبة ، أما قولك إن معاوية لا يلقى إلا علياً ، فلو لقينى ما زاد ولا عظم فى عينى ، ولا صغرت عنه ، ولئن أحب أن أجمع بينه وبين علىّ لأفعلن ، وأما قولك : إنى رأس أهل العراق وسيد أهل اليمن ، فالرأس الأمير ، والسيد المطاع ، وهاتان لعلىّ ، وأما ما سلف إلىّ من عثمان فوالله ما زادنى صهره شرفاً ، ولا عمله غنى ، وأما عيبك أصحابى ، فإن هذا الأمر لا يقربك منى ، وأما محاماتى عن العراق ، فمن نزل بيننا حميناه ، وأما البقية فلسنا بأحوج منها إليكم .

كتاب معاوية إلى على رضى الله عنهما

قال : وذكروا أن علياً أظهر أنه مصبح معاوية للقتال ، فبلغ ذلك معاوية ففزع أهل الشام ، فانكسروا لذلك ، فقال معاوية لعمرو : إنى قد رأيت رأياً ، أن أعيد إلى على كتابا أسأله فيه الشام . فضحك عمرو ، ثم قال : أين أنت يا معاوية من خدعة على ؟ فقال معاوية : ألسنا بنى عبد مناف ؟ فقال : بلى ولكن لهم النبوة دونكم ، فإن شئت أن تكتب فاكتب . فكتب معاوية إلى على : أما بعد ، فإنى أظنك أن لو علمت أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنها بعضنا على بعض ، وإن كنا قد غلبنا على عقولنا ، فلنا منها ما نذم به ما مضى ، ونصلح ما بقى ، وقد كنت سألتك ألا يلزمنى لك طاعة ولا بيعة ، فأبيت ذلك على ، فأعطانى الله ما منعت ، وإنى أدعوك إلى ما دعوتك إليه أمس ، فإنك لا ترجو من البقاء إلا ما أرجو ، ولا تخاف من الفناء إلا ما أخاف . وقد والله رقت الأجناد ، وذهبت الرجال ، ونحن بنو عبد مناف ، ليس لبعضنا على بعض فضل ، إلا فضل لا يستذل به عزيز ، ولا يسترقّ به حر .

جوابه

فلما انتهى كتابه إلى على ، دعا كاتبه عبيد الله بن رافع ، فقال : اكتب أما بعد ، فقد جاءنى كتابك تذكر أنك لو علمت وعلمنا أن الحرب تبلغ ما بلغت لم يجنها بعضنا على بعض ،

وأنا وإياك فى غاية لم نبلغها بعد ، وأما طلبك إلىّ الشام ، فإنى لم أكن أعطيك اليوم ما منعتك أمس ، وأما استواؤنا فى الخوف والرجاء ، فإنك لست أمضى على الشك منى على اليقين ، وليس أهل الشام بأحرص من أهل العراق على الآخرة ، وأما قولك : إنا بنو عبد مناف فكذلك ، ولكن ليس أمية كهاشم ، ولا حرب كعبد المطلب ، ولا أبو سفيان كأبى طالب ولا المهاجر كالطليق ، ولا المحقّ كالمبطل ، وفى أيدينا فضل النبوة التى قتلنا بها العزيز ، وبعنا بها الحر ، والسلام . فلما أتى معاوية الكتاب أقرأه عمراً ، فشمت به عمرو ، ولم يكن أحد أشد تعظيما لعلى من عمرو بن العاص بعد يوم مبارزته ، فقال معاوية لعمرو : قد علمت أن إعظامك لعلىّ لما فضحك ، قال عمرو لم يفتضح امرؤ بارز علياً ، وإنما افتضح من دعاه إلى البراز فلم يجبه .

اختلاف أهل العراق فى الموادعة

قال : وذكروا أنه لما عظم الأمر ، واستحر القتال ، قال له رأس من أهل العراق : إن هذه الحرب قد أكلتنا ، وأذهبت الرجال ، والرأى الموادعة . وقال بعضهم : لا بل نقاتلهم اليوم على ما قاتلناهم عليه أمس ، وكانت الجماعة قد رضيت الموادعة ، وجنحت إلى الصلح والمسالمة . فقام على خطيباً فقال : أيها الناس ، إنى لم أزل من أمرى على ما أحب حتى قدحتكم الحرب ، وقد والله أخذتْ منكم وتركتْ ، وهى لعدوكم أنهك . وقد كنت بالأمس أميراً ، فأصبحت اليوم مأموراً ، وكنت ناهياً فأصبحت اليوم منهياً ، فليس لى أن أحملكم على ما تكرهون .

ما ردّ كردوس بن هانئ على علىّ

قال وذكروا أن كردوس بن هانئ قام فقال : أيها الناس ، إنه والله ما تولينا معاوية منذ تبرأنا منه ، ولا تبرأنا من على منذ توليناه ، وإن قتيلنا لشهيد ، وإن حيّنا لفائز ، وإن علياً على بينة من ربه ، وما أجاب القوم الا إنصافا ، وكل محقّ منصف ، فمن سلّم له نجا ، ومن خالفه هوى .

ما قال سفيان بن ثور

قال : وذكروا أن سفيان بن ثور قال : أيها الناس إنا دعونا أهل الشام إلى كتاب الله ، فردوه علينا ، فقاتلناهم ، وإنهم دعونا إلى كتاب الله ، فإن رددناه عليهم ، حل لهم منا ما حل لنا منهم ، ولسنا نخاف أن يحيف الله علينا ورسوله ، وإن علياً ليس بالراجع الناكص ، وهو اليوم على ما كان عليه أمس ، وقد أكلتنا هذه الحرب ، ولا نرى البقاء إلا فى الموادعة .

ما قال حريث بن جابر

ثم قام حريث بن جابر ، فقال : أيها الناس، إن علياً لو كان خلواً من هذا الأمر لكان المرجع إليه ، فكيف وهو قائده وسابقه ؟ وإنه والله ما قبل من القوم اليوم إلا الأمر الذى دعاهم إليه أمس ، ولو رده عليهم كنتم له أعيب ولا يلحد فى هذا الأمر إلا راجع على عقبيه ، أو مستدرَج مغرور ، وما بيننا وبين من طعن علينا إلا السيف .

ما قال خالد بن معمر

ثم قام خالد بن معمر ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنا والله ما أخرنا هذا المقام أن يكون أحد أولى به منا ، ولكن قلنا : أحب الأمور إلينا ما كفينا مئونته ، فأما إذا استغنينا فإنا لا نرى البقاء إلا فيما دعاك القوم إليه اليوم ، إن رأيت ذلك ، وإن لم تره فرأيك أفضل .

ما قال الحصين بن المنذر

ثم قام الحصين بن المنذر ، وكان أحدث القوم سناً ، فقال : أيها الناس ، إنما بنى هذا الدين على التسليم ، فلا تدفعوه بالقياس ، ولا تهدموه بالشبهة ، وإنا والله لو أنا لا نقبل من الأمور إلا ما نعرف ، لأصبح الحق فى الدنيا قليلا ، ولو تركنا وما نهوى لأصبح الباطل فى أيدينا كثيراً ، وإن لنا راعياً قد حمدنا ورده وصدَره[1]، وهو المأمون على ما قال وفعل ، فإن قال : لا ، قلنا : لا ، وإن قال : نعم ، قلنا : نعم .

ما قال عثمان بن حنيف

ثم قام عثمان بن حنيف ، وكان من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان عاملا لعلى على البصرة ، وكان له فضل ، فقال : أيها الناس ، اتهموا رأيكم ، فقد والله كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية يوم أبى جندل وإنا لنريد القتال ، إنكاراً للصلح ، حتى ردنا عنه رسول الله ، وإن أهل الشام دعوا إلى كتاب الله اضطراراً ، فأجبناهم إليه إعذارا ، فلسنا والقوم سواء إنا والله ما عدلنا الحى بالحى ، ولا القتيل بالقتيل ، ولا الشامىّ بالعراقىّ ، ولا معاوية بعلى ، وإنه لأمر منعه غير نافع ، وإعطاؤه غير ضائر ، وقد كلت البصائر التى كنا

---

(١) ما يأتى وما يدع .

تقاتل بها ، وقد حل الشك اليقين الذى كنا نئول إليه ، وذهب الحياء الذى كنا نمارى به ، فاستظلوا فى هذا الفىء ، واسكنوا فى هذه العافية ، فإن قلتم : نقاتل على ما كنا نقاتل عليه أمس ، هيهات هيهات ، ذهب والله قياس أمس ، وجاء غد . فأعجب علياً قوله ، وافتخرت به الأنصار ، ولم يقل أحد بأحسن من مقالته .

ما قال عدى بن حاتم

ثم قام عدى بن حاتم ، فقال : أيها الناس ، إنه والله لو غيرُ علىّ دعانا إلى قتال أهل الصلاة ما أجبناه ، ولا وقع بأمر قط إلا ومعه من الله برهان ، وفى يديه من الله سبب ، وإنه وقف عن عثمان بشبهة ، وقاتل أهل الجمل على النكث ، وأهل الشام على البغى ، فانظروا فى أموركم وأمره ، فإن كان له عليكم فضل ، فليس لكم مثله ، فسلموا له ، وإلا فنازعوا عليه ، والله لئن كان إلى العلم بالكتاب والسنة إنه لأعلم الناس بهما ، ولئن كان إلى الإسلام إنه لأخو نبى الله ، والرأس فى الإسلام ؛ ولئن كان إلى الزهد والعبادة ، إنه لأظهر الناس زهداً ، وأنهكهم [1] عبادة ؛ ولئن كان إلى العقول والنحائز [2] ، إنه لأشد الناس عقلاً ، وأكرمهم نحيزة ؛ ولئن كان إلى الشرف والنجدة إنه لأعظم الناس شرفاً ونجدة ؛ ولئن كان إلى الرضا ، لقد رضى به المهاجرون والأنصار فى شورى عمر رضى الله عنهم ، وبايعوه بعد عثمان ، ونصروه على أصحاب الجمل وأهل الشام ، فما الفضل الذى قربكم إلى الهدى ، وما النقص الذى قربه إلى الضلال ، والله لو اجتمعتم جميعاً على أمر واحد لأتاح الله له من يقاتل لأمر ماض ، وكتاب سابق .

فاعترف أهل صفين لعدى بن حاتم بعد هذا المقام ، ورجع كل من تشعّب على علىّ رضى الله .

ما قال عبد الله بن حجل

ثم قام عبد الله بن حجل فقال : يا أمير المؤمنين ، إنك أمرتنا يوم الجمل بأمور مختلفة ، كانت عندنا أمراً واحداً ، فقبلناها بالتسليم ، وهذه مثل تلك الأمور ، ونحن أولئك أصحابك ، وقد أكثر الناس فى هذه القضية ، وايم الله ما المكثر المنكر بأعلم بها من المقل المعترف ، وقد أخذت الحرب بأنفاسنا ، فلم يبق إلا رجاء ضعيف ، فإن تجب القوم إلى ما دعوك إليه ،

---

(١) أنهكهم عبادة : أكثرهم عبادة حتى إن عبادته لتشق فتنهك القوى .
(٢) النحائز : جمع نحيزة وهى الطبيعة .

فأنت أولنا إيماناً ، وآخرنا بنبي الله عهداً ، وهذه سيوفنا على أعناقنا ، وقلوبنا بين جوانحنا ، وقد أعطيناك بقيتنا ، وشرحت بالطاعة صدورنا ، ونفذت فى جهاد عدوك بصيرتنا ، فأنت الوالى المطاع ، ونحن الرعية الأتباع ، أنت أعلمنا بربنا وأقربنا بنبينا ، وخيرنا فى ديننا ، وأعظمنا حقاً فينا ، فسدد رأيك نتبعك ، واستخر الله تعالى فى أمرك ، وأعزم عليه برأيك ، فأنت الوالى المطاع ، قال : فسرّ على كرم الله وجهه بقوله ، وأثنى خيراً .

ثم قام صعصعة بن صوحان فقال : يا أمير المؤمنين ، إنا سبقنا الناس إليك يوم قدوم طلحة والزبير عليك ، فدعانا حكيم إلى نصرة عاملك عثمان بن حنيف فأجبناه ، فقاتل عدوّك ، حتى أصيب فى قوم من بنى عبد قيس ، عبدوا الله حتى كانت أكفهم مثل أكف الإبل[١] ، وجباههم مثل ركب المعز[٢] ، فأسر الحىّ وسلب القتيل ، فكنا أوّل قتيل وأسير ، ثم رأيت بلاءنا بصفين ، وقد كانت البصائر ، وذهب الصبر ، وبقى الحق موفوراً ، وأنت بالغ بهذا حاجتك ، والأمر إليك ، ما أراك الله فمرنا به .

ما قال المنذر بن الجارود

ثم قام المنذر بن الجارود ، فقال يا أمير المؤمنين ، إنى أرى أمراً لا يدين له الشام إلا بهلاك العراق ، ولا يدين له العراق إلا بهلاك الشام ، ولقد كنا نرى أن ما زادنا نقصهم ، وما نقصنا أضرّهم ، فإذا فى ذلك أمران ، فإن رأيت غيره ففينا والله ما يفل[٣] به الحدّ ، ويردّ به الكلب[٤] ، وليس لنا معك إيراد ولا صدر[٥] .

ما قال الأحنف بن قيس

ثم قام الأحنف بن قيس ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الناس بين ماض وواقف ، وقائل وساكت ، وكلّ فى موضعه حسن ، وإنه لو نكل الآخر عن الأول لم يقل شيئاً ، إلا أن يقول اليوم ما قد قيل أمس ، ولكنه حق يقضى ، ولم نقاتل القوم لنا ولا لك ، إنما قاتلناهم لله ، فإن

---

(١) خشنة مثل أخفاف الإبل من كثرة العمل .
(٢) المراد بمثل ركب المعز : أن بها أثراً ظاهراً من كثرة السجود .
(٣) يفل : يوقف ويصير غير قاطع .
(٤) الكلب يرده الزجر والضرب .
(٥) حل ولا عقد ، أى ليس لنا معك رأى بل الرأى هو رأيك .

حال أمر الله دوننا ودونك فاقبله ، فإنك أولى بالحق ، وأحقنا بالتوفيق ، ولا أرى إلا القتال .

ما قال عمير بن عطارد

ثم قام عمير بن عطارد فقال : يا أمير المؤمنين ، إن طلحة والزبير وعائشة كانوا أحب الناس إلى معاوية ، وكانت البصرة أقرب إلينا من الشام ، وكان القوم الذين وثبوا عليك من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خيراً من الذين وثبوا عليك من أصحاب معاوية اليوم ، فو الله ما منعنا ذلك من قتل المحارب ، وعيب الواقف ، فقاتل القوم إنا معك .

ما قال علىّ رضى الله عنه بعده

ثم قام على خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، إنه قد بلغ بكم وبعدوّكم ما قد رأيتم ، ولم يبق منهم إلا آخر نفس ، وإن الأمور إذا أقبلت اعتبر آخرها بأولها ، وقد صبر لكم القوم على غير دين ، حتى بلغوا منكم ما بلغوا ، وأنا غاد عليهم بنفسى بالغداة فأحاكمهم بسيفى هذا إلى الله .

نداء أهل الشام واستغاثتهم عليا رضى الله عنه

قال : فلما بلغ معاوية قول على دعا عمرو بن العاص ، فقال له : يا عمرو إنما هى الليلة ، حتى يغدوَ علينا علىّ بنفسه ، فما ترى ؟ قال عمرو : إن رجالك لا يقومون لرجاله ، ولست مثله ، أنت تقاتله على أمر ، ويقاتلك على غيره ، وأنت تريد البقاء ، وعلى يريد الفناء ، وليس يخاف أهل الشام من على ما يخاف منك أهل العراق وإن هلكوا ، ولكن ادعهم إلى كتاب الله . فإنك تقضى منه حاجتك ، قبل أن ينشب مخلبه فيك ، فأمر معاوية أهل الشام أن ينادوهم ، فنادوا فى سواد الليل نداء معه صراخ واستغاثة ، يقولون : يا أبا الحسن من لذرارينا من الروم إن قتلتنا ؟ الله الله ، البقيا ، كتاب الله بيننا وبينكم . فأصبحوا وقد رفعوا المصاحف على الرماح ، وقلدوها أعناق الخيل ، والناس على راياتهم قد أصبحوا للقتال .

ما أشار به عدى بن حاتم

فقام عدى بن حاتم ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن أهل الباطل لا تعوق أهل الحق ، وقد جزع القوم حين تأهبت للقتال بنفسك ، وليس بعد الجزع إلا ما تحب ، ناجز القوم .

ما قال الأشتر وأشار به

ثم قام الأشتر فقال : يا أمير المؤمنين ، ما أجبناك لدنيا . إن معاوية لا خلف له من رجاله ، ولكن بحمد الله الخلف لك ، ولو كان له مثل رجالك لم يكن له مثل صبرك ولا نصرتك ، فاقرع الحديد بالحديد ، واستعن بالله .

ما قال عمرو بن الحمق

ثم قام عمرو بن الحمق ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما أجبناك لدنيا ، ولا نصرناك على باطل ، ما أجبناك إلا لله تعالى ، ولا نصرناك إلا للحق ، ولو دعانا غيرك إلى ما دعوتنا لكثر فيه اللجاج ، وطالت له النجوى ، وقد بلغ الحق مقطعه ، وليس لنا معك رأى .

ما قال الأشعث بن قيس

ثم قام الأشعث بن قيس ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنا لك اليوم على ما كنا عليه أمس ، ولست أدرى كيف يكون غداً . وما القوم الذين كلوك بأحمد لأهل العراق منى ، ولا بأوتر لأهل الشام منى ، فأجب القوم إلى كتاب الله ، فإنك أحق به منهم ، وقد أحب الله البقيا .

ما قال عبد الرحمن بن الحارث

ثم قام عبد الرحمن بن الحارث ، فقال : يا أمير المؤمنين ، امض لأمر الله ، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون . أحكمٌ بعد حكم ؟ وأمر بعد أمرٌ ؟ مضت دماؤنا ودماؤهم ، ومضى حكم الله علينا وعليهم .

ما رآه على كرم الله وجهه

قال : فمال على إلى قول الأشعث بن قيس وأهل اليمن ، فأمر رجلا ينادى : إنا قد أجبنا معاوية إلى ما دعانا إليه ، فأرسل معاوية إلى على : إن كتاب الله لا ينطق ، ولكن نبعث رجلا منا ورجلا منكم ، فيحكمان بما فيه . فقال على : قد قبلت ذلك .

ما قال عمار بن ياسر

فلما أظهر على أنه قد قبل ذلك قام عمار بن ياسر فقال : يا أمير المؤمنين ، أما والله لقد أخرجها إليك معاوية بيضاء ، من أقر بها هلك ، ومن أنكرها ملك ، مالك يا أبا الحسن ؟

شككتنا فى ديننا ! ورددتنا على أعقابنا بعد مئة ألف قتلوا منا ومنهم ؟ أفلا كان هـذا قبل السيف ؟ وقبل طلحة والزبير وعائشة ، قد دعوك إلى ذلك فأبيت ، وزعمت أنك أولى بالحق وأن من خالفنا منهم ضالّ حلال الدم ، وقد حكم الله تعالى فى هذا الحال ما قد سمعت ، فإن كان القوم كفاراً مشركين ، فليس لنا أن نرفع السيف عنهم ، حتى يفيئوا إلى أمر الله ، وإن كانوا أهل فتنة فليس لنا أن نرفع السيف عنهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله ، والله ما أسلموا ، ولا أدوا الجزية ، ولا فاءوا إلى أمر الله ، ولا طفئت الفتنـة ، فقال على : والله إنى لهذا الأمر كاره .

قتل عمار بن ياسر

قال : فلما ردّ علىّ على عمـار أنه كاره للقضية ، وأنه ليس من رأيه ، نادى عمـار : أيها الناس هل من رائح إلى الجنة ، فخرج إليه خمس مئة رجل ، منهم أبو الهيثم وخزيمة بن ثابت ذو الشهادتين ، فاستسقى عمار الماء ، فأتاه غلام له بإداوة فيها لبن ، فلما رآه كبّر وقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « آخر زادك من الدنيا لبن » ، ثم قال عمـار : اليوم ألقى الأحبة : محمدا وحزبه . ثم حمل عمار وأصحابه ، فالتقى عليه رجلان فقتلاه ، وأقبلا برأسه إلى معاوية يتنازعان فيه ، كل يقول أنا قتلته ، فقال لهما عمرو بن العاص : والله إن تتنازعان إلا فى النار ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « تقتل عماراً الفئة الباغية » فقال معاوية : قبحك الله من شيخ ! فما تزال تتزلق فى قولك ، أو نحن قتلناه ؟ إنما قتله الذين جاءوا به ، ثم التفت إلى أهل الشام فقال : إنما نحن الفئة الباغية ؟ التى تبغى دم عثمان . فلما قتل عمار اختلط الناس ، حتى ترك أهل الرايات مراكزهم ، وأقحم أهل الشام ، وذلك من آخر النهار ، وتفرق الناس عن علىّ ، فقال عدى بن حاتم : والله يا أمير المؤمنين ما أبقت هذه الوقعة لنا ولا لهم عميدا ، فقاتل حتى يفتح الله تعالى لك ، فإن فينا بقية ، فقـال على : ياعدىّ ، قتل عمار بن ياسر ؟ قال : نعم ، فبكى على وقال : رحمك الله ياعمار ، استوجب الحياة والرزق الكريم ، كم تريدون أن يعيش عمار ، وقد نيّف على التسعين ؟

هزيمة أهل الشام

ثم أقبل الأشتر جريحا ، فقال : يا أمير المؤمنين ، خيل كخيل ، ورجـال كرجال ، ولنا الفضل إلى ساعتنا هذه ، فعد مكانك الذى كنت فيه ، فإن الناس إنما يطلبونك حيث تركوك . وإن عليا دعا بفرسه التى كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم دعا ببغلة رسول الله صلى الله

عليه وسلم الشهباء ، ثم تعصب بعمامة رسول الله صلى الله عليه وسلم السوداء ، ثم نادى: من يبع نفسه اليوم يربح غداً ، يوم له ما بعده ، وإن عدوكم قد قدح كما قدحتم . فانتدب له ما بين عشرة آ لاف إلى إثنى عشر ألفاً واضعى سيوفهم على عواتقهم وتقدموا ، فحمل علىّ والناس حملة واحدة، فلم يبق لأهل الشام صف إلا أهمد ، حتى أفضى الأمر إلى معـاوية ، وعلى يضرب بسـيفه ، ولا يستقبل أحداً إلى ولى عنه . فدعا معاوية بفرسه لينجو عليه ، فلما وضع رجله فى الركاب نظر الى عمرو بن العاص ، فقال له : يابن العاص ، اليوم صبر ، وغدا فخر ، قال : صدقت ، فترك الركوب ، وصبر وصبر القوم معه الى الليل ، فبات الناس يتحارسون ، وكرهوا القتال ، وهو اليوم الذى فيه البلاء الاعظم ، يوم قتل عمار ، وكل يظن أن الدائرة عليـه ، وأسرف الفريقان فى القتل ، ولم يكن فى الإسلام بلاء ولا قتل أعظم منه فى تلك الثلاثة الأيام ، وإن عليا نادى بالرحيل فى جوف الليل ، فلمـا سمع معاوية رضى الله عنه رغاء الإبل ، دعا عمرو بن العاص ، فقال : ما ترى هاهنا ؟ قال عمرو : أظن الرجل هارباً ، فلما أصبحوا إذا على وأصحابه الى جانبهم قد خالطوهم ، فقال معاوية : كلا ، زعمت ياعمرو أنه هارب ، فضحك وقال : من فعلاته والله ، فعندها أيقن معاوية بالهلكة ، ونادي أهلُ الشام : كتاب الله بيننا وبينكم ، ويومئذ استبان ذل أهل الشام ، ورفعوا المصاحف ، ثم ارتحلوا فاعتصموا بجبل منيف ، وصاحوا : لاتردّ كتاب الله يا أبا الحسن فإنك أولى به منا ، وأحق من أخذ به .

ما قال الأشعث بن قيس

قال : فأقبل الأشعث بن قيس فى أناس كثير من أهل اليمن ، فقالوا لعلىّ : لا تردّ مادعاك القوم إليه ، قد أنصفك القوم ، والله لئن لم تقبل هذا منهم لاوفاء معك ، ولا نرى معك بسهم ولا حجر ، ولا نقف معك موقفا .

ما قال القراء

قال : فلما سمع علىّ قول الأشعث ورأى حال الناس قبل القضية ، وأجاب إلى الصلح ، وقام إلى علىّ أناس ، وهم القراء منهم عبدالله بن وهب الراسبى فى أناس كثير قد اخترطوا سيوفهم ، ووضعوها على عواتقهم ، فقالوا لعلىّ : اتق الله ، فإنك قد أعطيت العهد وأخذته منا ، لنفنين أنفسنا أو لنفنين عدوّنا ، أو يفيء إلى أمر الله ، وإنا نراك قد ركبت إلى أمر فيه الفرقة والمعصية لله ، والذلّ فى الدنيا ، فانهض بنا إلى عدونا ، فلنحاكمه إلى الله بسيوفنا . حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، وهو خير الحاكمين ، لاحكومة الناس .

ما قال عثمان بن حنيف

ثم قام عثمان بن حنيف ، فقال : أيها الناس ، اتهموا رأيكم ، فانا والله قد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ولو رأينا قتالا قاتلنا وذلك في الصلح الذى كان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أهل مكة ، فامض على القضية ، واتهم هذا الصلح .

ما قال الأشتر وقيس بن سعد

قال : فأنكرها الأشتر وقيس بن سعد وكانا أشد الناس على علىّ فيها قولا ، فكان الذين عملوا في الصلح الأشعث بن قيس ، وعدى بن حاتم وشريح بن هانىء ، وعمرو بن الحمق وزحر بن قيس ، ومن أهل الشام زيد بن أسد ، ومخارق بن الحارث ، وحمزة بن مالك . فلما رأى ذلك أبو الأعور قام إلى معاوية ، فقال : يا أمير المؤمنين إن القوم لم يجيبوا إلى ما دعوناهم إليه حتى لم يجدوا من ذلك بدأ وإنهم إن ينصرفوا العام يعودوا فى قابل فى سنة يبرأ فيها الجريح ، وينسى القتيل ، وقد أخذت الحرب منا ومنهم ، غير أنهم اختلفوا على علىّ ، ولم يختلف عليك أحد والخلاف أشد من القتل ، ناجز القوم ، فقال بشر بن أرطاة . والله إن الشام خير من العراق لعلى ، وما فى يدك لك ، وما فى يد علي لأصحابه دونه ، فإن كنت إنما سألت المدة لإعداد العدة ، وانتظار المدد ، فنعم ؛ وإن كنت سألتها بغض الحرب ، وبقيا على أهل الشام ، فلا .

ذكر الاتفاق على الصلح وارسال الحكمين

قال : وذكروا أن معاوية قال لأصحابه حين استقامت المدة ، ولم يسم الحكمان : من ترون علياً يختار؟ فأما نحن فصاحبنا عمرو بن العاص . قال عتبة بن أبى سفيان : أنت أعلم بعلى منا . فقال معاوية : إن لعلى خمسة رجال من ثقاته ، منهم عدى بن حاتم ، وعبد الله بن عباس ، وقيس بن سعد ، وشريح بن هانىء ، والأحنف بن قيس ، وأنا أصفهم لك : أما ابن عباس فإنه لا يقوى عليه ، وأما عدى بن حاتم فيرد عمرا سائلا ، ويسأله مجيبا ، وأما شريح بن هانىء فلا يدع لعمرو حياضا ، وأما الأحنف بن قيس فبديهته كرويته ، وأما قيس بن سعد فلو كان من قريش بايعته العرب . ومع هذا إن الناس قد ملوا هذه الحرب ، ولم يرضوا إلا رجلا له تقيّة ، وكل هؤلاء لا تقيّة لهم ، ولكن انظروا أين أنتم من رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تأمنه أهل الشام ، وترضى به أهل العراق ، فقال عتبة : ذلك أبو موسى الأشعرى .

اختلاف أهل العراق فى الحكمين

قال : وذكروا أن عليا لما استقام رأيه على أن يرسل عبدالله بن عباس مع عمرو بن العاص، قام إليه الأشعث بن قيس ، وشريح بن هانئ ، وعدى ابن حاتم ، وقيس بن سعد ، ومعهم أبوموسى الأشعرى ، فقالوا : ياأمير المؤمنين هذا أبو موسى الأشعرى وافد أهل اليمن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصاحب مغانم أبى بكر ، وعامل عمر بن الخطاب ، وقد عرضنا على القوم ابن عباس فزعموا أنه قريب القرابة منك ، ضنين فى أمرك ، وايم الله لو لقيت به عمرا لأخذ بصره ، وغم صدره . ولكن الناس قد رضوا برجل يثق أهل العراق وأهل الشام بتقيته . فتكلم شبيب بن ربعى ، فقال إنا والله وإن خفنا على أبى موسى من عمرو مالا يخافه أهل الشام على عمرو من أبى موسى ، فلعل ماخفناه لا يضرنا ، ولعل ما رجوا لا ينفعهم ؟ فإن قلت فى أبى موسى ضعف فضعفه وتقاه خير من قوة عمرو وفجوره ، فأغلق به البلاء ، وافتح به العافية . ثم تكلم ابن الكواء فقال : يا أمير المؤمنين ، إنك أجبت الله وأجناك ، ولكنا نقول : الله بيننا وبينك ، إن كنت تخشى من أبى موسى عجزا فشر من أرسلت الخائن العاجز، ولست تحتاج من عقله إلا إلى حرف واحد ، أن لا يجعل حقك لغيرك،فيدرك حاجته منك . ثم قال لأبى موسى:اعلم أن معاوية طليق الإسلام ، وأن أباه رأس الأحزاب ، وأنه ادعى الخلافة من غير مشورة ، فإن صدقك فقد حل خلعه ، وإن كذبك فقد حرم عليك كلامه ، وإن ادعى أن عمر وعثمان استعملاه ، فلقد صدق ، استعمله عمر وهو الوالى عليه بمنزلة الطبيب من المريض ، يحميه ما يشتهى ، ويوجره[1] ما يكره ، ثم استعمله عثمان برأى عمر وما أكثر من استعملا ممن لم يدع الخلافة ، واعلم أن لعمرو مع كل شىء يسرك خبرا يسوؤك ، ومهما نسيت فلا تنس أن علياً بايعه الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ، وأنها بيعة هدى ، وأنه لم يقاتل إلا عاصياً أو ناكثاً . فقال أبو موسى : رحمك الله ، أما والله ما لى إمام غير على ، وإنى لواقف عندما رأى ، ولرضاء الله تعالى أحب إلى من رضاء الناس ، وما أنا وأنت إلا بالله تعالى .

ما قال أهل الشام لأهل العراق

قال : وذكروا أن أهل الشام قالوا لأهل العراق : أعطونا رجالا نسميهم لكم ، يكونوا شهوداً على ما يقوله صاحبنا وصاحبكم ، بيننا وبينكم صحيفة ، فقال على : سموا من أحببتم ،

---

(١) يوجره : يسقيه ، والمراد هنا يحمله على ما يكره .

فسمّوا ابن عباس ، والأشعث بن قيس ، وزياد بن كعب ، وشريح بن هانىء ؛ وعدىّ بن حاتم . وحجر بن عدى ، وعبد الله بن الطفيل . وسفيان بن ثور ، وعروة بن عامر ، وعبد الله بن حجر ، وخالد بن معمر ؛ وطلب أهل العراق من أهل الشام : عتبة بن أبى سفيان ، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، ويزيد بن أسيد ، وأبا الأعور ، والحصين بن نمير ، وحمزة بن مالك ، وبسر بن أرطاة ، والنعمان بن بشير ، ومخارق بن الحارث .

فلما سمى أهل العراق رجال أهل الشام ، وسمى أهل الشام رجال أهل العراق ، قال معاوية : أين يكون هذان الرجلان ؟ فرضى الناس أن يكونا بدُومة الجندل .

ما قال الأحنف بن قيس لعلى

قال : فلما لم يبق إلا الكتاب ، قال الأحنف بن قيس لعلى : يا أمير المؤمنين إن أبا موسى رجل يمانى ، وقومه مع معاوية ، فابعثنى معه ، فوالله لايحل لك عقدة إلاعقدت لك أشد منها ، فإن قلت : إنى لست من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فابعث ابن عباس وابعثنى معه .

ما قال على كرم الله وجهه

فقال على : إن الأنصار والقراء أتونى بأبى موسى ، فقالوا : ابعث هذا ، فقد رضيناه ، ولا نريد سواه ، والله بالغ أمره .

الاختلاف فى كتابة صحيفة الصلح

قال : فوضع الناس السلاح ، والتقوا بين العسكرين ، فلما جىء بالكتاب قال على : اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما تقاضى عليه علىّ بن أبى طالب أمير المؤمنين ، ومعاوية بن أبى سفيان ، فقال معاوية : علام قاتلناك إذا كنت أمير المؤمنين ؟ اكتب : على ابن أبى طالب . فقال الأشعث : اطرح هذا الاسم فإنه لا يضرك ، فضحك على ، ثم قال : دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ، حين صدّه المشركون عن مكة ، فقال : ياعلى اكتب : هذا ما تقاضى عليه محمد رسول الله ومشركو قريش ، فقال سهيل بن عمرو : لقد ظلمناك إذاً يا محمد إن قاتلناك وأنت رسول الله ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، فقال صلى الله عليه وسلم : اكتب محمد بن عبد الله ، وإنى رسول الله . وكنت إذا أمرنى بشىء رسول الله صلى الله عليه وسلم أسرعت ، وإذا قال مشركو قريش أبطأت به ، وإذا كتبت شيئاً قال

نبي الله ، امحها ، فتعاظمني ذلك . فدعا بقراض فقرضه ، وكتب : بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ماتقاضى عليه على بن أبى طالب ، ومعاوية بن أبى سفيان ، فقال أبو الأعور : أو معاوية وعلىّ ، فقال الأشعث : لا لعمر الله ، ولـكن نبدأ بأولهما إيماناً وهجرة ، وأدناهما من الغلبة . فقال معاوية : قدموا أو أخروا ، تقاضوا على أن علياً ومن معه من شيعته من أهل العراق ، ومعاوية ومن معه من أهل الشام ، أنا ننزل عند حكم الله وكتابه ، من فاتحته إلى خاتمته ، ما أحيا القرآن أحييناه ، وما أمات القرآن أمتناه ، وما لم يجد عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص فى القرآن حكما بما يجدان فى السنة العادلة ، غير المفرقة ، وعلى علىّ ومعاوية ، وتبيعتهما وضع السلاح إلى انقضاء هذه المدة ، وهى من رمضان إلى رمضان ، وعلى أن عبدالله بن قيس وعمرا آمنان على دمائهما وأموالهما وحريمهما والأمة على ذلك أنصار ، وعليهما مثل الذى أخذا أن يقضيا بما فى كتاب الله تعالى ، وما لم يجدا فى كتاب الله قضيا بما يجدان فى السنة ، وعليهما أن لا يؤخرا أمرهما عن هذه المدة ، فإن أحبا أن يقولا قبل انقضائها ، فلهما أن يقولا عن تراض منهما ، على أن يرجع أهل العراق إلى العراق ، وأهل الشام إلى الشام ، فيكون الاجتماع إلى دُومة الجندل ، فإن رضيا أن يجتمعا بغيرهما فلهما ذلك ، ولهما ألا يحضرهما إلا من أحبّا ، ولا يشهدا إلا من أرادا ، وهؤلاء النفر من أهل العراق وأهل الشام ضامنون بالوفاء إلى هذه المدة ، فكتب أهل العراق بهذا كتاباً لأهل الشام ، وكتب أهل الشام كتاباً بهذا لأهل العراق ، بخط عمرو بن عبادة كاتب معاوية ، وشهد شهود أهل الشام على أهل العراق ، وشهد شهود أهل العراق على أهل الشام . فلما كتب الكتابان أقبل رجل من بني يشكر ، على فرس له أبلق ، حتى وقف بين الصفين على علىّ ، فقال : ياعلىّ ، أكفر بعد إسلام ، ونقض بعد توكيد ، وردة بعد معرفة ؟ أنا من صحيفتيكما برىء ، وممن أقر بها برىء ، ثم حمل على أصحاب معاوية ، فطعن فيهم ، حتى إذا عطش أتى عسكر على ، فاستسقى فسقى ، ثم حمل على عسكر علىّ ، فطعن فيهم ، حتى إذا عطش أتى عسكر معاوية ، فاستسقى فسقى .

ما وصى به شريح بن هانئ أبا موسى

قال : وذكروا أن شريح بن هانئ أخذ بيد أبى موسى فقال : يا أبا موسى إنك قد نصبت لأمر عظيم لايُجبر صدعه ، ولا تستقال فلتته ، ومهما تقل من شيء لك أو عليك ، يثبت حقه ، ويزيل باطله ، إنه لابقاء لأهل العراق إن ملكها معاوية ، ولا بأس بأهل الشام إن ملكها علىّ ، فانظر فى ذلك نظر من يعرف هذا الأمر حقاً .

ما وصى به الأحنف بن قيس أبا موسى

قال : ثم جاء الأحنف بن قيس ، فأخذ بيده ، ثم قال : يا أبا موسى ، اعرف خطب هذا الأمر ، واعلم أن له ما بعده ، وإنك إن ضيعت العراق ، فلا عراق لك ، فاتق الله ، فإنك تجمع بذلك دنيا وأخرى ، وإذا لقيت عمرا غدا فلا تبادره بالسلام ، فليس من أهله ، ولا تعطه يدك ، فإنها أمانة ، وإياك أن يقعدك على صدر الفراش ، فإنها خدعة ، ولا تلقه إلا وحده ، وإياك أن يكلمك فى بيت فيه مخدع يخبأ لك فيه رجالا ، وإن لم يستتم لك عمرو على الرضا بعلى ، فخيره أن يختار أهل العراق من قريش أهل الشام من شاءوا ، فإنهم إن يولّوا الخيار يختاروا من يريدون ، فإن أبى فلتختر أهل الشام من قريش أهل العراق من شاءوا ، فإن فعلوا كان الأمر بيننا.

ما قال معاوية لعمرو

قال : وذكروا أن معاوية قال لعمرو : إن أهل العراق أكرهوا علياً على أبى موسى ، وأنا وأهل الشام راضون بك ، وأرجو فى دفع هذه الحرب خصالا : قوّة لأهل الشام ، وفرقة لأهل العراق ، وإمداداً لأهل اليمن ، وقد ضم إليك رجل طويل اللسان ، قصير الرأى ، وله على ذلك دين وفضل ، فدعه يقل ، فإذا هو قال فاصمت ، واعلم أن حسن الرأى زيادة فى العقل ، إن خوّفك العراق فخوّفه بالشام ، وإن خوفك مصر فخوفه باليمن ، وإن خوفك علياً فخوفه بمعاوية ، وإن أتاك بالجميل ، فأته بالجميل . قال عمرو : يا أمير المؤمنين ، أقلل الاهتمام بما قبلى ، وارج الله تعالى فيما وجهتنى له ، إنك من أمرك على مثل حد السيف ، لم تنل فى حربك ما رجوت ، ولم تأمن ما خفت ، ونحن نرجو أن يصنع الله تعالى لك خيراً ، وقد ذكرت لأبى موسى ديناً ، وإن الدين منصور ، أرأيت إن ذكر علياً وجاءنا بالإسلام والهجرة واجتماع الناس عليه ، ما أقول ؟ فقال معاوية : قل ما تريد وترى . قال : فانصرف عمرو إلى منزله ، فقال لأصحابه : هل ترون ما أراد معاوية من تصغير أبى موسى ؟ قالوا : لا ، قال : عرف أنى خادعه غداً .

ما قال شرحبيل لعمرو

قال : وأتى شرحبيل بن السمط إلى عمرو ، فقال : يا عمرو ، إنك رجل قريش ، وإن معاوية لم يبعثك إلا لثقته بك ، واعلم أنك لا تؤتى من عجز ، وقد علمت أن وطأة هذا الأمر لصاحبك ولك ، فكن عند ظننا بك .

اجتماع أبي موسى وعمرو

قال : وذكروا أن أبا موسى وعمرا لما اجتمعا بدومة الجندل ، وحضرهما من يليهما من العرب ، ليستمعوا قول الرجلين ، فلما التقيا استقبل عمرو أبا موسى ، فأعطاه يده وضم عمرو أبا موسى إلى صدره ، فقال : يا أخي قبح الله أمرا فرق بيننا ، ثم أقعد أبا موسى على صدر الفراش ، وأقبل عليه بوجهه ، والناس مجتمعون ، فلم يزالا حتى تفرقا ، ومكثا أياما يلتقيان في أمرهما سرا وجهرا ؛ وأقبل الأشعث بن قيس ، وكان من أحرص الناس على إتمام الصلح ، والرا[illegible]ة من الحرب ، فقال : يا هذان ، إنا قد كرهنا هذه الحرب ، فلا تردّاها إلينا ، فإنها مرّة الرضاع والفطام ، [illegible] .

ما قال سعيد بن قيس للحكمين

قال : فأقبل سعيد بن قيس ، وكان من النصحاء لعلي كرم الله وجهه ، فقال : أيها الرجلان ، إني أراكما قد أبطأتما بهذا الأمر حتى أيس القوم منكما ، فإن كنتما اجتمعتما على خير فأظهراه ، نسمعه ونشهد عليه ، وإن كنتما لم تجتمعا رجعنا إلى الحرب .

ما قال عديّ بن حاتم لعمرو

قال : وذكروا أن عدياً قال لعمرو : أما والله ياعمرو إنك لغير مأمون الغَناء ، وإنك يا أبا موسى لغير مأمون الضعف ، وما ننتظر بالقول منكما إلا أن تقولا : والله ما لكما مع كتاب الله إيراد ولا صدر . فقال أبو موسى : كفوا عنا فإنا إنما نقول فيما بقي ، ولسنا نقول فيما مضى .

ما قال عمرو لأبي موسى

قال : وذكروا أن عمرا غدا على أبي موسى ، فقال : يا أبا موسى ، قد عرفت حال معاوية في قريش ، وشرفه في بني عبد مناف ، وأنه ابن هند ، وابن أبي سفيان ، فما ترى ؟ فقال أبو موسى : أما معاوية فليس بأشرف في قريش من عليّ ، ولو كان هذا الأمر على شرف الجاهلية ، كان أخوال ذي أصبح ، ولكنني أرى وترى ، وباعده أبو موسى ، ثم غدا عليه

عمرو ، فقال : يا أبا موسى إن قال قائل : إن معاوية من الطلقاء ، وأبوه رأس الأحزاب ، لم يبايعه المهاجرون والأنصار فقد صدق ، وإذا قال إن علياً آوى قتلة عثمان ، وقتل أنصاره يوم الجمل ، وبرز على أهل الشام بصفين فقد صدق ، وفينا وفيكم بقية ، وإن عادت الحرب ذهب ما بقى ، فهل لك أن تخلعهما جميعاً ، وتجعل الأمر لعبد الله بن عمر ، فقد صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يبسط فى هذه الحرب يداً ولا لساناً ، وقد علمت من هو مع فضله وزهده وورعه وعلمه ؛ فقال أبو موسى : جزاك الله بنصيحتك خيراً ، وكان أبو موسى لا يعدل بعبد الله بن عمر أحدا ، لمكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومكانه من أبيه ، لفضل عبد الله فى نفسه ، وافترقا على هذا الأمر ، واجتمع رأيهما على ذلك . ثم إن عمرا غدا على أبى موسى بالغد ، وجماعة الشهود ، فقال . يا أبا موسى ، ناشدتك الله تعالى ، من أحق بهذا الأمر ؟ من أوفى ، أو من غدر ؟ قال أبو موسى : من أوفى . قال عمرو : يا أبا موسى : نشدتك الله تعالى : ما تقول فى عثمان ؟ قال أبو موسى : قتل مظلوماً . قال عمرو : فما الحكم فيمن قتل ؟ قال أبو موسى : يقتل بكتاب الله تعالى . قال : فمن يقتله ؟ قال : أولياء عثمان . قال : فإن الله يقول فى كتابه العزيز : « ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً » . قال : فهل تعلم أن معاوية من أولياء عثمان ؟ قال : نعم . قال عمرو للقوم : اشهدوا . قال أبو موسى للقوم : اشهدوا على ما يقول عمرو .

ثم قال أبو موسى لعمرو : قم يا عمرو ، فقل وصرح بما اجتمع عليه رأيى ورأيك ، وما اتفقنا عليه ، فقال عمرو : سبحان الله ! أقوم قبلك وقد قدمك الله قبلى فى الإيمان والهجرة ، وأنت وافد أهل اليمن إلى رسول الله ، ووافد رسول الله إليهم ؟ وبك هداهم الله ، وعرفهم شرائع دينه ، وسنة نبيه ، وصاحب مغانم أبى بكر وعمر ! ولكن قم أنت فقل ، ثم أقوم فأقول . فقام أبو موسى ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، إن خير الناس للناس خيرهم لنفسه ، وإنى لا أهلك دينى بصلاح غيرى ، إن هذه الفتنة قد أكلت العرب ، وإنى رأيت وعمرا أن نخلع عليا ومعاوية ، ونجعلها لعبد الله بن عمر ، فانه لم يبسط فى هذه الحرب يداً ولا لساناً ، ثم قام عمرو فقال : أيها الناس ، هذا أبو موسى شيخ المسلمين ، وحكم أهل العراق ومن لا يبيع الدين بالدنيا ، وقد خلع علياً وأنا أثبّت معاوية . فقال أبو موسى : مالك ؟ عليك لعنة الله ! ما أنت إلا كمثل الكلب تلهث ! فقال عمرو : لكنك مثل الحمار يحمل أسفاراً : واختلط الناس ، فقالوا : والله لو اجتمعنا على هذا ماحوّلتمانا عما نحن عليه ، وما صلحكما بلازمنا ، وإنا اليوم على ما كنا عليه أمس ، ولقد كنا ننظر إلى هذا قبل أن يقع ، وما أمات قولكما حقاً ، ولا أحيا باطلا . ثم تشاتم أبو موسى وعمرو ، ثم انصرف عمرو إلى معاوية ، ولحق

أبو موسى بمكة ، وانصرف القوم إلى على ، فقال عديّ : أما والله يا أمير المؤمنين ، لقد قدمت القرآن ، وأخرت الرجال ، وجعلت الحكم لله . فقال على : أما إنى قد أخبرتكم أن هذا يكون بالأمس ، وجهدت أن تبعثوا غير أبى موسى ، فأبيتم علىّ ، ولا سبيل إلى حرب القوم حتى تنقضى المدة ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : قم يا حسن فتكلم فى أمر هذين الرجلين : أبى موسى وعمرو . فقام الحسن ، فتكلم ، فقال : أيها الناس ، قد أكثرتم فى أمر أبى موسى وعمرو ، وإنما بعثا ليحكما بالقرآن دون الهوى ، فحكما بالهوى دون القرآن ، فمن كان هكذا لم يكن حكماً ، ولكنه محكوم عليه ، وقد كان من خطأ أبى موسى أن جعلها لعبد الله ابن عمر ، فأخطأ فى ثلاث خصال : خالف (يعنى أبا موسى) أباه عمر ، إذ لم يرضه لها[1] ، ولم يره أهلا لها ، وكان أبوه أعلم به من غيره ، ولا أدخله فى الشورى إلا على أنه لاشىء له فيها ، شرطاً مشروطاً من عمر على أهل الشورى ، فهذه واحدة ، وثانية : لم تجمع عليه المهاجرون والأنصار ، الذين يعقدون الإمامة ، ويحكمون على الناس ، وثالثة : لم يستأمر الرجلَ فى نفسه ، ولا علم ما عنده من رد أو قبول . ثم جلس . ثم قال على لعبد الله بن عباس : قم فتكلم . فقام عبد الله بن عباس ، وقال : أيها الناس ، إن للحق أناسا أصابوه بالتوفيق والرضا والناس بين راض به ، وراغب عنه ، وإنما سار أبو موسى بهدى إلى ضلال ، وسار عمرو بضلالة إلى هدى ، فلما التقيا رجع أبو موسى عن هداه ، ومضى عمرو على ضلاله ، فوالله لو كانا حكما عليه بالقرآن لقد حكما عليه ، ولئن كان حكما بهواهما على القرآن ، ولئن مسكا بما سارا به لقد سار أبو موسى وعلىٌّ إمامه ، وسار عمرو ومعاويةُ إمامه . ثم جلس فقال علىّ لعبد الله بن جعفر : قم فتكلم . فقام وقال : أيها الناس هذا أمر كان النظر فيه لعلى ، والرضا فيه إلى غيره ، جئتم بأبى موسى ، فقلتم قد رضينا هذا ، فارض به ، وايم الله ما أصلحا بما فعلا الشام ، ولا أفسدا العراق ولا أماتا حق على ، ولا أحييا باطل معاوية ، ولا يُذهب الحق قلةُ رأى ، ولا نفخة شيطان ، وإنا لعلىّ اليوم كما كنا أمس عليه . ثم جلس .

كتاب ابن عمر إلى أبى موسى

قال : وذكروا أن عبد الله بن عمر لما بلغه ما كان من رأى أبى موسى ، كتب إليه : أما بعد يا أبا موسى ، فإنك تقربت إلىّ بأمر لم تعلم هواى فيه ، أكنت تظن أنى أبسط يداً إلى أمر نهانى عنه عمر ؟ أو كنت ترانى أتقدم على علىّ وهو خير منى ؟ لقد خبتُ إذاً

---

(١) أى لم يرض عمر رضى الله عنه ابنه عبد الله للخلافة ولم يره أهلا لها .

وخسرت ، وما أنا من المهتدين ، فأغضبتَ بقولك وفعلك عليّ علياً ومعاوية ، ثم أعظم من ذلك خديعة عمرو إياك ، وأنت حامل القرآن ، ووافد أهل اليمن إلى نبي الله ، وصاحب مغانم أبي بكر وعمر ، فقدمك عمرو للقول مخادعاً ، حتى خلعت علياً قبل أن تخلع معاوية ، ولعمرى ما يجوز لك على عليّ ما جاز لعمرو على معاوية ، ولا ما جاز لنا عليه ، ولقد كرهنا ما رضيت وأردت ، إن الحاكم هو من يحكم بما حكم الله بين الناس ، ولم تبلغ من خطيئتك عنده ما غيّر أمرك فى خلاف هواه .

فلما أتى أبا موسى كتاب ابن عمر كتب إليه : أما بعد ، فإنى والله ما أردت بتوليتى إياك ويبق لك القربة إليك ، ما أردت بذلك إلا الله عز وجل ، وما تقلدى أمر هذه الأمة غير مستكره ، فإنهم كانوا على مثل حد السيف ، فقلت : إلى سنة محيا وممات ، إن يصطلحوا فهو الذى أردت ، وإلا لم يرجعوا إلى أعظم مما كانوا عليه ، وأما إغضابى عليك علياً ومعاوية ، فقد غضبا عليك قبل ذلك ؟ وأما خديعة عمرو إياى ، فوالله ما ضر بخديعته علياً ، ولا نفع معاوية ، وقد كان الشرط ما اجتمعنا عليه ، لا ما اختلفنا فيه ، وأما نعى أبيك ، فوالله لو تم الأمر لأكرهت عليه .

كتاب معاوية إلى أبى موسى

قال : وذكروا أن معاوية كتب إلى أبى موسى بعد الحكومة وهو بمكة : أما بعد ، فاكره من أهل العراق ما كرهوا منك ، وأقبل إلى الشام ، فإنى خير لك من على ، والسلام .

جوابه

فكتب إليه أبو موسى : أما بعد ، فإنه لم يكن منى فى على إلا ما كان من عمرو فيك ، غير أنى أردت بما صنعت وجه الله ، وأراد عمرو بما صنع ما عندك ، وقد كان بينى وبينه شروط عن تراض ، فلما رجع عمرو رجعت ، وأما قولك : إن الحكمين إذا حكما على أمر فليس للمحكوم عليه أن يكون بالخيار ، إنما ذاك فى الشاة والبعير ، وأما فى أمر هذه الأمة فليست تساق إلى ما تكره ، ولن تذهب بين عجز عاجز ، ولا كيد كائد ، ولا خديعة فاجر ؟ وأما دعاؤك إياى إلى الشام ، فليس لى بدل ولا إيثار عن قبر ابن ابراهيم أبى الأنبياء .

كتاب علي إلى أبي موسى

قال: وذكروا أنه لما بلغ علياً كتاب أبي موسى رق له ، وأحب أن يضمه إليه، فكتب إليه : أما بعد ، فإنك امرؤ ضلك الهوى ، واستدرجك الغرور ، فاستقل الله يقلك عثرتك ، فإنه من استقال الله أقاله ، إن الله يغفر ولا يغير ، وأحب عباده إليه المتقون ، والسلام .

فلما انتهى كتاب علي إلى أبي موسى هم أن يرجع ، ثم قال لأصحابه إني امرؤ غلب علي الحياء ، ولا يستطيع هذا الأمر رجل فيه حياء .

جوابه

فكتب أبو موسى إلى علي : أما بعد ، فلولا أني خشيت أن يئول منع الجواب إلى أعظم مما في نفسك لم أجبك ، لأنه ليس عذر ينفعني ، ولا عذر يمنعني منك ؟ وأما التزامي مكة ، فإني امتنعت إلى أهل الشام ، وانقطعت من أهل العراق، وأصبت أقواماً صغّروا من ذنبي ما عظمتم ، وعظموا من حقي ما صغرتم ، فأقمت بين أظهرهم ، إذ لم يكن لي منكم ولي ولا نصير .

ذكر الخوارج على علي بن أبي طالب كرم الله وجهه

قال : وذكروا أنه لما كان من الحكمين ما كان ، لقيت الخوارج بعضها بعضا ، فاجتمعوا في منزل عبد الله بن وهب الراسبي ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ، ما ينبغي لقوم يؤمنون بالرحمن ، وينسبون إلى حكم القرآن أن تكون هذه الدنيا آثر عندهم من الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والقول بالحق ، وإن ضر ومر[(١)] فإنه إن يضر ويمر في هذه الدنيا ، فإن ثوابه يوم القيامة رضوان الله ، وخلود الجنة ، فاخرجوا بنا من هذه القرية الظالم أهلها ، إلى بعض هذه المدائن ، منكرين لهذه البدعة المضلة ، والأحكام الجائرة .

فقال حرقوص بن زهير : إن المتاع بهذه الدنيا قليل ، وإن الفراق لها وشيك ، فلا تدعوكم زينتها وبهجتها إلى المقام بها ، ولا تلفتنكم عن طلب الحق ، وإنكار الظلم ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، يا قوم إن الرأي ما قد رأيتم ، والحق ما ذكرتم ، فولوا أمركم رجلا منكم ، فإنه لا بد لكم من عماد وسناد ، ومن راية تحفون حولها ، وترجعون إليها .

---

(١) مر : أي صار مراً .

ثم اجتمعوا فى منزل زفر بن حصين الطائى ، فقالوا : إن الله أخذ عهودنا ومواثيقنا على الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والقول بالحق ، والجهاد فى تقويم السبيل ، وقد قال عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام : « يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد » — . « وقال : ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » — فاشهدوا على أهل دعوتنا أن قد اتبعوا الهوى ، ونبذوا حكم القرآن ، وجاروا فى الحكم والعمل ، وأن جهادهم على المؤمنين فرض ، وأقسم بالذى تعنو له الوجوه ، وتخشع دونه الأبصار ، لو لم يكن أحد على تغيير المنكر ، وقتال القاسطين مساعداً ، لقاتلتهم وحدى فرداً ، حتى ألقى الله ربى ، فيرى أنى قد غيرت[1] إرادة رضوانه بلسانى ، يا إخواننا، اضربوا جباههم ووجوههم بالسيف ، حتى يطاع الرحمن عز وجل ، فإن يطع الله كما أردتم أثابكم ثواب المطيعين له ، الآمرين بأمره ، وإن قتلتم فأى شىء أعظم من المسير إلى رضوان الله وجنته . وأعلموا أن هؤلاء القوم خرجوا لإقصاء حكم الضلالة ، فاخرجوا بنا إلى بلد نتعد[2] فيه الاجتماع من مكاننا هذا ، فإنكم قد أصبحتم بنعمة ربكم ، وأنتم أهل الحق بين الخلق ، إذ قلتم بالحق ، وصمدتم لقول الصدق ، فاخرجوا بنا إلى المدائن نسكنها فتأخذ بأبوابها ، ونخرج منها سكانها ، ونبعث إلى احواننا من أهل البصرة ، فيقدمون علينا .

فقال زيد بن حصين الطائى : إن المدائن بها قوم يمنعونكم منها ، ويمنعونها منكم ، ولكن اكتبو إلى إخوانكم من أهل البصرة ، فأعلموهم بخروجكم ، وسيروا أنتم على المدائن ، فانزلوا بجسر النهروان[3] قالوا : هذا هو الرأى فاجتمعوا على ذلك ، وكتبوا إلى إخوانهم من أهل البصرة : أما بعد ، فإن أهل دعوتنا حكموا الرجال فى أمر الله ، ورضوا بحكم القاسطين على عباده ، فخالفناهم ونابذناهم ، نريد بذلك الوسيلة إلى الله ، وقد قعدنا بجسر النهروان واحببنا إعلامكم لتأخذوا بنصيبكم من الأجر ، والسلام .

الجواب

فكتبوا إليهم : أما بعد ، فقد بلغنا كتابكم ، وفهمنا ما ذكرتم . وقد وهبنا لكم الرأى الذى جمعكم الله عليه من الطاعة ، وإخلاص الحكم لله ، وأعمالكم أنفسكم فيما يجمع الله به كلمتكم ، وقد أجمعنا على المسير إليكم عاجلا .

---

(١) يريد قد غيرت المنكر رغبة فى رضوانه تعالى وهذا التغيير بلسانى لأنى لم أقدر على تغييره بيدى .

(٢) نتعد فيه الاجتماع : نتواعد على الاجتماع فيه .

(٣) النهروان ثلاث قرى بين واسط وبغداد .

وكان بدء خروجهم أنهم اجتمعوا فى منزل حرقوص بن زهير ليلة الخميس ، فقالوا : متى أنتم خارجون ؟ قالوا : الليلة القابلة من يوم الجمعة ، فقال لهم حرقوص : بل أقيموا ليلة الجمعة تتعبدوا لربكم ، وأوصوا فيها بوصاياكم ، ثم اخرجوا ليلة السبت منى ووحداناً لا يشعر بكم .

خطبة علىّ كرم الله وجهه

قالوا : فلما خرج جميع الخوارج ، وتوافروا إلى النهروان ، قام على بالكوفة على المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ، فإن معصية العالم الناصح تورث الحسرة ، وتعقب الندامة ، وقد كنت أمرتكم فى هذين الرجلين ، وفى هذه الحكومة بأمرى ، فأبيتم إلا ما أردتم ، فأحييا ما أمات القرآن ، وأماتا ما أحيا القرآن ، واتبع كل واحد منهما هواه ، يحكم بغير حجة ، ولا سنة ظاهرة ، واختلفا فى أمرهما وحكمهما ، فكلاهما لم يرشد الله ، فبرىء الله منهما ورسوله وصالحو المؤمنين ، فاستعدوا للجهاد ، وتأهبوا للسير ، ثم أصبحوا فى معسكركم يوم الاثنين بالنخيلة[1] ، وإنما حكمنا من حكمنا ، ليحكما بالكتاب ، فقد علمتم أنهما حكما بغير الكتاب ، وبغير السنة ، ووالله لأغزونهم ولو لم يبق أحد غيرى لجاهدتهم ، وأعطى الناس العطاء وهمّ بالجهاد .

كتاب علىّ كرم الله وجهه للخوارج

قالوا : فأجمع رأي على والناس على المسير إلى معاوية بصفين ، فتجهز معاوية وخرج حتى نزل بصفين ، وأصبح على قد تجهز وعسكر ، فقيل له : يا أمير المؤمنين إنه قد افترقت منا فرقة ، فذهبت ؟ قال : فكتب إليهم على : أما بعد ، فإن هذين الرجلين الخاطئين الحاكمين ، اللذين ارتضيتم حكمين ، قد خالفا كتاب الله ، واتبعا هواهما بغير هدى من الله ، فلم يعملا بالسنة ، ولم ينفذا للقرآن حكماً ، فبرىء الله منهما ورسوله وصالحو المؤمنين ، إذا بلغكم كتابنا هذا فأقبلوا إلينا ، فإنا سائرون إلى عدونا وعدوكم ، ونحن على الأمر الذى كنا عليه ، والسلام .
قال : فكتبوا إليه : أما بعد فإنك لم تغضب لله ، إنما غضبت لنفسك ، والله لا يهدى كيد الخائنين . قال : فلما رأي علىّ كتابهم أيس منهم ، ورأى أن يدعهم ، ويمضى بالناس إلى معاوية وأهل الشام فيناجزهم فقام على خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ، فإن

---

(١) النخيلة : موضع بالعراق قاتل فيه الإمام على الخوارج .

من ترك الجهاد وداهن فى أمر الله كان على شفا هلكة ، إلا أن يتداركه الله برحمته ، فاتقوا الله عباد الله ، قاتلوا من حادّ الله ، وحاول أن يطفئ نور الله ، قاتلوا الخاطئين ، القاتلين لأولياء الله ، المحرفين لدين الله ، الذين ليسوا بقراء الكتاب ولا فقهاء فى الدين ، ولا علماء بالتأويل ، ولا لهذا الأمر بأهل فى دين ، ولا سابقة فى الإسلام ، ووالله لو وُلوا عليكم لعملوا فيكم بعمل كسرى وقيصر . فسيروا وتأهبوا للقتال ، وقد بعثت إلى إخوانكم من أهل البصرة ، ليقدموا عليكم فإذا قدموا واجتمعتم شخصنا إن شاء الله .

كتاب على إلى ابن عباس

قالوا : وكان على قد كتب إلى ابن عباس وإلى أهل البصرة : أما بعد ، فإنا أجمعنا على المسير إلى عدونا من أهل الشام ، فأشخص إلىّ من قبلك من الناس ، وأقم حتى آتيك ، والسلام .

ما قال ابن عباس إلى أهل البصرة

فلما قدم كتاب علىّ على ابن عباس ، قرأه على الناس ، ثم أمرهم بالشخوص مع الأحنف ابن قيس ، فشخص معه منهم ألف وخمس مئة رجل ، فاستقلهم ابن عباس ، فقام خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا أهل البصرة ، قد جاءنى كتاب أمير المؤمنين يأمرنى بإشخاصكم ، فأمرتكم بالمسير إليه مع الأحنف بن قيس ، فلم يشخص إليه منكم إلا ألف وخمس مئة ، وأنتم فى الديوان ستون ألفا سوى أبنائكم وعبدانكم ومواليكم . ألا فانفروا ، ولا يجعل امرؤ على نفسه سبيلا ، فإنى موقع بكل من وجدته تخلف عن دعوته ، عاصياً لإمامه ، حزناً يعقب ندماً ، وقد أمرت أبا الأسود بحشدكم ، فلا يلم امرؤ جعل السبيل على نفسه إلا نفسه .

ما قال على كرم الله وجهه لأهل الكوفة

قال : فحشد أبو الأسود الناس بالبصرة ، فاجتمع عليه ألف وسبع مئة فأقبل هو والأحنف ابن قيس ، حتى وافيا علياً بالنخيلة ، فلما رأى علىّ أنه إنما قدم عليه من أهل البصرة ثلاثة آلاف ومئتا رجل ، جمع إليه رؤساء الناس وأمراء الأجناد ووجوه القبائل ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا أهل الكوفة أنتم إخوانى وأنصارى وأعوانى على الحق ، ومجيبىّ إلى جهاد المحلين ، بكم أضرب المدبر ، وأرجو إتمام طاعة المقبل ، وقد بعثت إلى أهل البصرة ، فاستنفرتهم ،

فلم يأتنى منهم غير ثلاثة آلاف ومئتين ، فأعينونى بمناصحة سمحة ، خليّة من الغش ، وإنى آمركم أن يكتب إلىّ رئيس كل قوم منسكم ما فى عشيرته من المقاتلة ، وأبنائهم الذين أدركوا القتال، والعبدان والموالى ، وارفعوا ذلك إلى تنظر فيه إن شاء الله . فقام سعد بن قيس الهمدانى ، فقال : يا أمير المؤمنين سمعاً وطاعة ، ووداً ونصيحة ، أنا أول الناس ، وأول من أجابك بما سألت وطلبت . ثم قام عدى بن حاتم وحجر بن عدى وأشراف القبائل ، فقالوا: نحن كذلك، ثم كتبوا ورفعوا إلى على ، فكان جميع ما رفعوا إليه أربعين ألف مقاتل ، وسبعة عشر ألفاً من الأبناء ، وثمانية آلاف من عبيدهم ومواليهم ، وكانت العرب يومئذ سبعة وخمسين ألفاً من أهل الكوفة ، ومن مماليكهم ومواليهم ثمانية آلاف ، ومن أهل البصرة ثلاثة آلاف ومئتا رجل . فقام على فيهم خطيباً ، فقال : أما بعد ، فقد بلغنى قولكم : لو أن أمير المؤمنين سار بنا إلى هذه الخارجة التى خرجت علينا ، فبدأنا بهم ، إلا أن غير هذه الخارجة أهم على أمير المؤمنين ، سيروا إلى قوم يقاتلونكم كيما يكونوا فى الأرض جبارين ملوكاً ، ويتخذهم المؤمنون أرباباً ، ويتخذون عباد الله خولا(١) ، ودعوا ذكر الخوارج . قال : فنادى الناس من كل جانب : سر بنا يا أمير المؤمنين حيث أحببت ، فنحن حزبك وأنصارك ، نعادى من عاداك ، ونشايع من أناب إليك وإلى طاعتك ، فسر بنا إلى عدوك ، كائناً من كان ، فإنك لن تؤتى من قلة ولا ضعف ، فإن قلوب شيعتك كقلب رجل واحد فى الاجتماع على نصرتك ، والجد فى جهاد عدوك ، فأبشر يا أمير المؤمنين بالنصر . واشخص إلى أى الفريقين أحببت ، فإنا شيعتك التى ترجو فى طاعتك وجهاد من خالفك صالح الثواب من الله، تخاف من الله فى خذلانك ، والتخلف عنك شديد الوبال .

ما قال على كرم الله وجهه فى الخثعمى

فبايعوه على التسليم والرضا ، وشرط عليهم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فجاءه رجل من خثعم ، فقال له الإمام على : بايع على كتاب الله وسنة نبيه ، قال : لا ، ولكن أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه وسنة أبى بكر وعمر . فقال على : وما يدخل سنة أبى بكر وعمر مع كتاب الله وسنة نبيه ؟ إنما كانا عاملين بالحق حيث عملا ، فأبى الخثعمى إلا سنة أبى بكر وعمر ، وأبى علىّ أن يبايعه إلا على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ،

---

(١) الخول : الخدم .

فقال له حيث ألح عليه : تبايع ؟ قال : لا ، إلا على ما ذكرت لك ، فقال له عليّ : أما والله لكأني بك قد نفرت في هذه الفتنة ، وكأني بحوافر خيلي قد شدخت وجهك ، فلحق بالخوارج ، فقتل يوم النهروان . قال قبيصة : فرأيته يوم النهروان قتيلاً ، قد وطأت الخيل وجهه ، وشدخت رأسه ، ومثلت به ، فذكرت قول علي : وقلت لله در أبي الحسن ! ما حرك شفتيه قط بشيء إلا كان كذلك .

إجماع على الذهاب إلى صفين

فأجمع علي والناس على المسير إلى صفين ، وتجهز معاوية حتى نزل صفين ، فلما خرج علي بالناس عبر الجسر ، ثم مضى حتى نزل دير أبي موسى ، على شاطىء الفرات ، ثم أخذ على الأنبار . وإن الخارجة التي خرجت على عليّ بينما هم يسيرون ، فإذا هم برجل يسوق امرأته على حمار له ، فعبروا إليه الفرات ، فقالوا له : من أنت ؟ قال : أنا رجل مؤمن ، قالوا : فما تقول في علي بن أبي طالب ؟ قال : أقول : إنه أمير المؤمنين ، وأول المسلمين إيماناً بالله ورسوله قالوا : فما اسمك ؟ قال : أنا عبد الله بن خبّاب بن الأرتّ ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا له : أفزعناك ؟ قال : نعم ، قالوا : لا رَوع عليك ، حدثنا عن أبيك بحديث سمعه من رسول الله ، لعل الله أن ينفعنا به ، قال : نعم ، حدثني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ستكون فتنة بعدى ، يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه ، يمسى مؤمناً ، ويصبح كافراً : فقالوا : لهذا الحديث سألناك ، والله لنقتلنك قتلة ما قتلناها أحداً . فأخذوه وكتفوه ، ثم أقبلوا به وبامرأته وهي حبلى متمّ[1] ، حتى نزلوا تحت نخل ، فسقطت رطبة منها ، فأخذها بعضهم فقذفها في فيه ، فقال له أحدهم بغير حل ، أو بغير ثمن أكلتها ، فألقاها من فيه ، ثم اخترط بعضهم سيفه فضرب به خنزيراً لأهل الذمة ، فقتله ، قال له بعض أصحابه : إن هذا من الفساد في الأرض ، فلقي الرجل صاحب الخنزير فأرضاه من خنزيره ، فلما رأى منهم عبد الله بن خباب ذلك ، قال : لئن كنتم صادقين فيما أرى ، ما على منكم بأس ، ووالله ما أحدثت حدثاً في الإسلام ، وإني لمؤمن ، وقد أمّنتموني ، وقلتم لا روع عليك فجاءوا به وبامرأته ، فأضجعوه على شفير النهر ، على ذلك الخنزير ، فذبحوه فسال دمه في الماء ، ثم أقبلوا إلى امرأته ، فقالت : إنما أنا امرأة ، أما تتقون الله ؟ قال :

---

(١) متم : أى أتمت أشهرها وقاربت الولادة .

فبقروا بطنها ، وقتلوا ثلاثة نسوة ، فيهم أم سنان قد صحبت النبي عليه الصلاة والسلام . فبلغ علياً خبرهم ، فبعث إليهم الحارث بن مرة ؛ لينظر فيما بلغه من قتل عبد الله بن خباب والنسوة ، ويكتب إليه بالأمر ، فلما انتهى إليهم ليسائلهم ، خرجوا إليه فقتلوه ، فقال الناس : يا أمير المؤمنين ، تدع هؤلاء القوم وراءنا يخلفونا في عيالنا وأموالنا ، سر بنا إليهم ، فإذا فرغنا منهم نهضنا إلى عدونا من أهل الشام .

مسير علي إلى الخوارج وما قال لهم

قال : فسار علي ومن معه حتى نزلوا المدائن ، ثم خرج حتى أتى النهروان فبعث إليهم: أن ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم نقتلهم بهم ، ثم أنا أفارقكم ، وأكف عنكم ، حتى ألقى أهل الشام ، فبعثوا إليه : إنا كلنا قتلناهم ، وكلنا مستحل لدمائكم ودمائهم . ثم أتاهم علي ، فوقف عليهم ، فقال : أيتها العصابة ، إني نذير لكم أن تصبحوا تلعنكم الأمة غداً ، وأنتم صرعى بإزاء هـذا النهر ، بغير برهان ، ولا سنة ؛ ألم تعلموا أني نهيتكم عن الحكومة ، وأخبرتكم أن طلب القوم لها مكيدة ، وأنبأتكم أن القوم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، وإني أعرف بهم منكم ، قد عرفتهم أطفالاً ، وعرفتهم رجالاً ، فهم شر رجال ، وشر أطفال ، وهم أهل المكر والغدر ، وإنكم إن فارقتموني ورأيي ، جانبتم الخير والحزم ، فعصيتموني وأكرهتموني ، حتى حكمت ، فلما أن فعلت شرطتُ واستوثقت ، وأخذت على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن ، وأن يميتا ما أمات القرآن ، فاختلفا ، وخالفا حكم الكتاب والسنة ، وعملا بالهوى ، فنبذنا أمرهم ، ونحن على أمرنا الأول ، فما نبؤكم ومن أين أتيتم ؟ قالوا له : إنا حيث حكمنا الرجلين أخطأنا بذلك ، وكنا كافرين ، وقد تبنا من ذلك ، فإن شهدت على نفسك بالكفر ، وتبت كما تبنا وأشهدنا ، فنحن معك ومنك ، وإلا فاعتزلنا ، وإن أبيت فنحن منابذوك على سواء . فقال علي : أبعد إيماني بالله ، وهجرتي وجهادي مع رسول الله ، أبوء[1] وأشهد على نفسي بالكفر ؟ لقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين . ويحكم ! بم استحللتم قتالنا ، والخروج من جماعتنا ؟ ألأن اختار الناس رجلين ، فقالوا لهما : انظرا بالحق فيما يصلح العامة ليعزل رجل ، ويوضع آخر مكانه . أحل لكم أن تضعوا سيوفكم على عواتقكم ، تضربون بها هامات الناس ، وتسفكون دماءهم ؟! إن هذا لهو الخسران المبين . قال : فتنادوا لا تخاطبوهم ولا تكلموهم ، تهيئوا للقاء الحرب ، الرواح الرواح إلى الجنة .

---

(١) أبوء : أعود وأرجع .

قتـل الخوارج

قال : فرجع علىّ ، فعبأ أصحابه فجعل على الميمنة حجر بن عدىّ ، وعلى الميسرة شبث بن ربعى ، وعلى الخيل أبا أيوب الأنصارى ، وعلى الرجّالة أبا قتادة ، وعلى أهل المدينة وهم ثمان مئة رجـــل من الصحابة قيس بن سعد بن عبادة ، ووقف على فى القلب فى مضر . قال : ثم رفع لهم راية أمان مع أبى أيوب الأنصارى ، فناداهم أبو أيوب : من جاء منكم إلى هذه الراية فهو آمن ، ومن دخل المصر فهو آمن ، ومن انصرف إلى العراق ، وخرج من هذه الجماعة فهو آمن ، فإنه لا حاجة لنا فى سفك دمائكم . قال : وقدم الخيل دون الرجالة ، وصف الناس صفين وراء الخيل ، وصف الرماة صفاً أمام صف ، وقال لأصحابه : كفوا عنهم حتى يبدءوكم . قال : وأقبلت الخوارج حتى إذا دنوا من الناس نادوا : لا حكم إلا لله ، ثم نادوا : الرواح الرواح إلى الجنة . قال : وشدوا على أصحاب علىّ شدة رجل واحد ، والخيل أمام الرجال ، فاستقبلت الرماة وجوههم بالنبل ، فخمدوا .

قال الثعلبى : لقد رأيت الخوارج حين استقبلتهم الرماح والنبل كأنهم معز اتقت المطر بقرونها ، ثم عطفت الخيل عليهم من الميمنة والميسرة ، ونهض علىّ فى القلب بالسيوف والرماح ، فلا والله ما لبثوا فواقا[1] حتى صرعهم الله ، كأنما قيل لهم موتوا فماتوا . قال : وأخذ على ما كان فى عسكرهم من كل شىء ؛ فأما السلاح والدواب فقسمه علىّ بيننا ؛ وأما المتاع والعبيد والإماء فإنه حين قدم الكوفة رده على أهلها

قال : ولما أراد على الانصراف من النهروان ، قام خطيباً ، فحمد الله ثم قال : أما بعد ، فإن الله قد أحسن بلاءكم ، وأعز نصركم ، فتوجهوا من فوركم هذا إلى معاوية وأشياعه القاسطين[2] ، الذين نبـــذوا كتاب الله وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً ، فبئس ما شروا[3] به أنفسهم لو كانوا يعلمون . فقالوا : يا أمير المؤمنين نفدت نبالنا ،

---

(١) الفواق : مقدار حلب الناقة ، أو البقرة ، أو نحوها .

(٢) القاسطون : الجائرون الخارجون على الحق .

(٣) شروا به أنفسهم: باعوا به أنفسهم، وشرى تأتى بمعنى باع وبمعنى اشترى ومن مجيئها بمعنى باع قوله تعالى «ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون» ومن مجيئها بمعنى اشترى قول عنترة العبسى:

حصانى كان دلال المنـــايا ... فخاض غمارها وشرى وباعا

فشرى فى البيت بمعنى اشترى

وكلت أذرعنا ، وتقطعت سيوفنا ، ونصلت[1] أسنة رماحنا ، فارجع بنا نحسن عدتنا ، ولعل أمير المؤمنين يزيد فى عدتنا عدة ، فإن ذلك أقوى لنا على عدونا . فأقبل على بالناس حتى نزل بالنخيلة ، فعسكر بها ، وأمر الناس أن يلزموا معه عسكرهم ، ويوطنوا أنفسهم على الجهاد ، وأن يقلوا من زيارة أبنائهم ونسائهم ، حتى يسيروا إلى عدوهم من أهل الشام ، فأقاموا معه أياماً ، ثم رجعوا يتسللون ويدخلون الكوفة ، ويتلذذون بنسائهم وأبنائهم ولذاتهم ، حتى تركوا علياً وما معه إلا نفر من وجوه الناس يسير ، وتُرك العسكر خالياً .

خطبة على كرم الله وجهه

قال : فقام علىّ على المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، استعدوا للسير إلى عدوّ فى جهاده القربة إلى الله ، ودَرْك الوسيلة عنده ، فأعدوا له ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ، وتوكلوا على الله ، وكفى به وكيلا ؛ ثم تركهم أياماً ، ودعا رؤساءهم ووجوههم ، فسألهم عن رأيهم ، وما الذى ثبطهم ؟ فمنهم المعتل ، ومنهم المتكرّه ، وأقلهم من نشط ، فقال لهم على : عباد الله ، ما لكم إذا أمرتكم أن تنفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحيـاة الدنيا من الآخرة بدلاً ، ورضيتم بالذل والهوان من العز خلفاً ، كلما ناديتكم إلى الجهاد دارت أعينكم ، كأنكم من الموت فى سكرة ، وكانت قلوبكم قاسية ، فأنتم لا تعقلون ، وكأن أبصاركم كُمْه[2] ، فأنتم لا تبصرون ، لله أنتم ، ما أنتم إلا أسود روّاغة[3] ، وثعالب روّاغة عند الناس ، تكادون ولا تكيدون ، وتُنتقص أطرافكم فلا تحاشون ، وأنتم فى غفلة ساهون : إن أخا الحرب اليقظان . أما بعد : فإن لى عليكم حقاً ، ولكم على حقّ ، أما حقكم على : فالنصيحة فى ذات الله ، وتوفير فيئكم عليكم ، وتعليمكم كيلا تجهلوا ، وتأديبكم كيما تعلموا ؛ وأما حقى عليكم : فالوفاء بالبيعة ، والنصح لى فى الإجابة حين أدعوكم ، والطاعة حين آمركم ، فإن يرد الله بكم خيراً تنزعوا عما أكره ، وترجعوا إلى ما أحب ، تنالوا بذلك ما تحبون ، وتدركوا ما تأملون .

---

(١) نصلت أسنة رماحنا . خرجت من الرماح فأصبحت رماحنا خشباً بلا أسلحة .

(٢) كُمْه : إجمع أكمه ، وهو الذى ولد بدون عينين ، ومن ذلك قوله تعالى (وتبرئ الأكمه والأبرص باذنى) .

(٣) رواغة : خوافة جمع رواع وهو شديد الروع وهو الخوف .

أيها الناس المجتمعة أبدانهم ، المختلفة أهواؤهم ، ما عزت دعوة من دعاكم ، ولا استراح قلب من قاساكم . كلامكم يوهى الصم [١] ، وفعلكم يطمع فيكم عدوكم ، إذا أمرتكم بالمسير قلتم كيت وكيت ، أعاليل [٢] بأضاليل ، هيهات ، لا يدرك الحق إلا بالجد والصبر ، أى دار بعد داركم تمنعون ؟ ومع أى إمام بعدى تقاتلون ؟ المغرور والله من غررتموه ، ومن فاز بكم فاز بالسهم الأخيب [٣] ، أصبحت لا أطمع فى نصرتكم ، ولا أصدق قولكم ، فرق الله بينى وبينكم ، وأعقبنى بكم من هو خير لى ، وأعقبكم بعدى من هو شر لكم منى ، أما إنكم ستلقون بعدى ذلاً شاملاً . وسيفاً قاتلاً . وأثرة يتخذها الظالمون بعدى عليكم سنة . تفرق جماعتكم . وتبكى عيونكم . وتدخل الفقر بيوتكم . تمنون والله عندها أن لو رأيتمونى ونصرتمونى . وستعرفون ما أقول لكم عما قليل . استنفرتكم فلم تنفروا . ونصحت لكم فلم تقبلوا ، وأسمعتكم فلم تعوا ، فأنتم شهود كأغياب ، وصم ذوو أسماع ، أتلو عليكم الحكمة ، وأعظكم بالموعظة النافعة ، وأحثكم على جهاد المحلين [٤] ، الظلمة الباغين ، فما آتى على آخر قولى حتى أراكم متفرقين ، إذا تركتكم عدتم إلى مجالسكم حلقاً عزين [٥] ، تضربون الأمثال ، وتتناشدون الأشعار ، تربت أيديكم ، وقد نسيتم الحرب واستعدادها ، وأصبحت قلوبكم فارغة عن ذكرها ، وشغلتموها بالأباطيل والأضاليل ، ويحكم ! اغزوا عدوكم قبل أن يغزوكم ، فوالله ما غزى قوم قط فى عقر دارهم إلا ذلوا ، وايم الله ما أظنكم تفعلون حتى يفعل بكم ! وايم الله لوددت أنى قد رأيتهم فلقيت الله على نيتى وبصيرتى ، فاسترحت من مقاساتكم ومداراتكم ، ويحكم ! ما أنتم إلا كإبل جامحة ضل عنها رعاؤها [٦] ، فكلما ضمت من جانب ، انتشرت من جانب ، والله لكأنى أنظر إليكم وقد حمى الوطيس ، لقد انفرجتم عن علىّ انفراج الرأس ، وانفراج المرأة عن قبلها .

فقام إليه الأشعث بن قيس الكندى ، فقال : يا أمير المؤمنين فهلا فعلت كما فعل عثمان ؟

---

(١) الصم : جمع أصم : والمراد الجبال الصم وهى الشديدة الصلابة ، ويوهى يضعف .
(٢) أعاليل : تعللات ، بأضاليل ، بأسباب زائفة ضالة .
(٣) السهم الأخيب . أى السهم الذى لا يصيب مرماه .
(٤) المحلين : الذين أحلوا أنفسهم من بيعة الإمام علىّ بعد أن وجبت عليهم ولزمتهم .
(٥) عزين : جمع عزة وهى الجماعة والفرقة ، والحلق جمع حلقة وهى الجماعة المستديرة كالحلقة .
(٦) رعاؤها : جمع راع : أى رعاتها .

قال له علىّ : ويلك وما فعل عثمان ، رأيتنى عائذاً بالله من شر ما تقول ، والله إن الذى فعل عثمان لخزاة على من لا دين له ، ولا حجة معه ، فكيف وأنا على بينة من ربى ، والحق معى ، والله إن امرأ أمكن عدوه من نفسه ، فنهش عظمه ، وسفك دمه ، لعظيم عجزه ، ضعيف قلبه . أنت يابن قيس فكن ذلك ، فأما أنا فوالله دون أن أعطى ذلك ضربٌ بالمشرفى(١) ، يطير له فراش(٢) الرأس ، وتطيح منه الأكف والمعاصم ، وتجد به الغلاصم(٣) ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء . والله يا أهل العراق ، ما أظن هؤلاء القوم من أهل الشام إلا ظاهرين عليكم ؛ فقالوا : أبعلم تقول ذلك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : نعم ، والذى فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، إنى أرى أمورهم قد علت ، وأرى أموركم قد خبت(٤) ، وأراهم جادين فى باطلهم ، وأراكم وانين فى حقكم ، وأراهم مجتمعين ، وأراكم متفرقين ، وأراهم لصاحبهم معاوية مطيعين ، وأراكم لى عاصين . أما والله لئن ظهروا عليكم بعدى لتجدنّهم أرباب سوء ، كأنهم والله عن قريب قد شاركوكم فى بلادكم ، وحملوا إلى بلادهم منكم ، وكأنى أنظر إليكم تكشون كشيش(٥) الضباب ، لا تأخذون لله حقاً ، ولا تمنعون له حرمة ، وكأنى أنظر إليهم يقتلون صلحاءكم ، ويخيفون علماءكم ، وكأنى أنظر إليكم يحرمونكم ويحجبونكم ، ويدينون الناس دونكم ، فلو قد رأيتم الحرمان ، ولقيتم الذل والهوان ، ووقع السيف ونزل الخوف ، لندمتم وتحسرتم على تفريطكم فى جهاد عدوكم ، وتذكرتم ما أنتم فيه من الخفض والعافية ، حين لا ينفعكم التذكار .

فقال الناس : قد علمنا يا أمير المؤمنين أن قولك كله وجميع لفظك يكون حقاً ، أترى معاوية يكون علينا أميراً ؟ فقال : لا تكرهون إمرة معاوية ، فإن إمرته سلم وعافية ، فلو قد مات رأيتم الرءوس تندر عن كهولها كأنها الحنظل(٦) ، وعداً كان مفعولاً ، فأما إمرة معاوية فلست أخاف عليكم شرّها ، ما بعدها أدهى وأمر .

كلام أبى أيوب الأنصارى

ثم قام أبو أيوب الأنصارى ، فقال : إن أمير المؤمنين أكرمه الله قد أسمع من كانت له أذن واعية ، وقلب حفيظ ، إن الله قد أكرمكم به كرامة ما قبلتموها حق قبولها ، حيث نزل

---

(١) المشرفى : السيف المنسوب إلى مشارف الشام وهى بلد جيدة السيوف .

(٢) فراش الرأس أعلى الرأس .

(٣) الغلاصم : جمع غلصمة وهى عقدة الزور، أى تقطع منه الرقاب ، وتجد أى تقطع.

(٤) خبت : خفتت ونامت .

(٥) تكشون كشيش الضباب : تتفرقون وتتزاحون عن أماكنكم كما يتقشع الضباب عن مكانه فى السماء .

(٦) أى لرأيتم الرءوس تطير عن أجسامها فتصير كالحنظل وهو نبات مرّ يشبه الرمان فى شكله المستدير .

بين أظهركم ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخير المسلمين وأفضلهم وسيدهم بعده ، يفقهكم فى الدين ، ويدعوكم إلى جهاد المحلين ، فوالله لكأنكم صم لا تسمعون ، وقلوبكم غلف مطبوع عليها فلا تستجيبون . عباد الله ، أليس إنما عهدكم بالجور والعدوان أمس ، وقد شمل العباد ، وشاع فى الإسلام ، فذو حق محروم ، ومشتوم عرضه ، ومضروب ظهره ، وملطوم وجهه ، وموطوء بطنه ، وملق بالعراء ؛ فلما جاءكم أمير المؤمنين صدع بالحق ، ونشر بالعدل ، وعمل بالكتاب ، فاشكروا نعمة الله عليكم ، ولا تتولوا مجرمين ، ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون . اشحذوا السيوف ، وجددوا آلة الحرب ، واستعدوا للجهاد ، فإذا دعيتم فأجيبوا ، وإذا أمرتم فأطيعوا تكونوا بذلك من الصادقين .

قال : ثم قام رجال من أصحاب على فقالوا : يا أمير المؤمنين ، اعط هؤلاء هذه الأموال ، وفضل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالى ، ممن يتخوف خلافه على الناس وفراقه . وإنما قالوا له : هذا الذى كان معاوية يصنعه بمن أتاه ، وإنما عامة الناس همهم الدنيا ، ولها يسعون ، وفيها يكدحون . فأعط هؤلاء الأشراف ، فإذا استقام لك ما تريد عدت إلى أحسن ما كنت عليه من القسم ، فقال على : أتأمرونى أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه من الإسلام ؟ فوالله لا أفعل ذلك ما لاح فى السماء نجم ، والله لو كان لهم مال لسويت بينهم ، فكيف وإنما هى أموالكم . فقال رجل : يا أمير المؤمنين إن الموت نازل لا بد منه ، فإن حل فمن صاحبنا ؟ فقال على : أحدثك عن خاصة نفسى ؟ أما الحسن فصاحب خوان[1] ، وفتى من الفتيان، ولو قد التقت حلقتا البطان[2] لم يغن عنكم فى الحرب حثالة عصفور[3] . وأما ابن أخى عبد الله بن جعفر فصاحب لهو . وأما الحسين ومحمد ابناى فأنا منهما وهما منى ؛ والله لقد أحببت أن يدال هؤلاء القوم عليكم ، بإصلاحهم فى أرضهم ، وفسادكم فى أرضكم ، وأدائهم الأمانة لمعاوية ، وخيانتكم ، وبطاعتهم له ، ومعصيتكم لى ، واجتماعهم على باطلهم ، وتفرقكم عن حقكم ، وايم الله لا يدعون بعدى محرماً إلا استحلوه ، ولا يبقى بيت وبر[4] ولا مدر[5] إلا أدخلوه ظلمهم ، حتى يقوم الباكيان منكم ، باك لدينه ، وباك لدنياه ، وحتى

---

(١) صاحب خوان : رجل كرم وإطعام .
(٢) حلقتا البطان : سبق بيانها .
(٣) حثالة عصفور : الحثالة القشر وما يكون فى القمح ونحوه من الحب غير مكتمل النضج.
(٤) بيت الوبر : بيت الشعر والجلد .
(٥) بيوت المدر : البيوت المبنية من الحجر .

تكون نصرة أحدكم كنصرة العبد لسيده : إذا شهد أطاعه ، وإذا غاب سبّه . فقال رجل : يا أمير المؤمنين ، أتظن ذلك كائناً ؟ قال : ما هو بالظن ولكنه اليقين .

ما كتب على لأهل العراق

قال : فقام حجر بن عدى ، وعمرو بن الحمق ، وعبد الله بن وهب الراسبى ، فدخلوا على علىّ ، فسألوه عن أبى بكر وعمر : ما تقول فيهما ؟ وقالوا : بين لنا قولك فيهما وفى عثمان . قال على كرم الله وجهه : وقد تفرغتم لهذا ؟ وهذه مصر قد افتتحت ، وشيعتى فيها قد قتلت ؟ إنى مخرج إليكم كتاباً أنبئكم فيه ما سألتمونى عنه ، فاقرءوه على شيعتى ، فأخرج إليهم كتاباً فيه : أما بعد ، فإن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم نذيراً للعالمين ، وأميناً على التنزيل ، وشهيداً على هذه الأمة ، وأنتم يا معشر العرب على غير دين ، وفى شر دار ، تسفكون دماءكم ، وتقتلون أولادكم ، وتقطعون أرحامكم ، وتأكلون أموالكم بينكم بالباطل ، فمن الله عليكم ، فبعث محمداً إليكم بلسانكم ، فكنتم أنتم المؤمنين ، وكان الرسول فيكم ومنكم ، تعرفون وجهه ونسبه ، فعلمكم الكتاب والحكمة والسنة والفرائض ، وأمركم بصلة الأرحام ، وحقن الدماء ، وإصلاح ذات بينكم ، وأن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وأن توفوا بالعقود ، وأن تعاطفوا وتباروا وتراحموا ، ونهاكم عن التظالم والتحاسد والتقاذف والتباغى ، وعن شرب الحرام ، وعن بخس المكيال والميزان ، وتقدم إليكم فيما أنزل عليكم أن لا تزنوا ولا تأكلوا أموال اليتامى ظلماً ، فكل خير يبعدكم عن النار قد حضكم عليه ، وكل شر يبعدكم عن الجنة قد نهاكم عنه ، فلما استكمل رسول الله صلى الله عليه وسلم مدته من الدنيا توفاه الله وهو مشكور سعيه مرضى عمله ، مغفور له ذنبه ، شريف عند الله نُزُله ، فيالموته مصيبة خصت الأقربين ، وعمت المؤمنين ؛ فلما مضى تنازع المسلمون الأمر بعده ، فوالله ما كان يلقى فى روعى[1] ، ولا يخطر على بالى أن العرب تعدل هذا الأمر عنى ، فما راعنى إلا إقبال الناس على أبى بكر ، وإجفالهم[2] عليه ، فأمسكت يدى ، ورأيت أنى أحق بمقام محمد فى الناس ممن تولى الأمور علىّ ، فلبثت بذلك ما شاء الله ، حتى رأيت راجعة من الناس رجعت عن الإسلام ، يدعون إلى محو دين محمد . وملة إبراهيم عليهما السلام . فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله . أن أرى فى الإسلام ثلماً وهدماً . تكون المصيبة به علىّ أعظم من فوت ولاية أمركم . التى إنما هى متاع أيام قلائل .

---

(١) الروع : القلب

(٢) إجفالهم : إسراعهم .

ثم يزول ما كان منها ، كما يزول السراب ، فمشيت عند ذلك إلى أبى بكر فبايعته ، ونهضت معه فى تلك الأحداث ، حتى زهق الباطل ، وكانت كلمة الله هى العليا ، وأن يرغم الكافرون ، فتولى أبو بكر رضى الله عنه تلك الأمور فيسّر،وسدد ، وقارب ، واقتصد ، فصحبته مناصحاً ، وأطعته فيما أطاع الله فيه جاهداً ؛ فلما احتضر بعث إلى عمر ، فولاه ، فسمعنا وأطعنا ، وبايعنا وناصحنا، فتولى تلك الأمور ، فكان مرضىّ السيرة ، ميمون النقيبة[١] أيام حياته ، فلما احتضر قلت فى نفسى : ليس يصرف هذا الأمر عنى . فجعلها عمر شورى وجعلنى سادس ستة ، فما كانوا لولاية أحد منهم بأكره منهم لولايتى ، لأنهم كانوا يسمعوننى وأنا أحاج أبا بكر فأقول : يا معشر قريش ، أنا أحق بهذا الأمر منكم ما كان منا من يقرأ القرآن ، ويعرف السنة ، فخشوا إن وليت عليهم أن لا يكون لهم فى هذا الأمر نصيب ، فبايعوا إجماع رجل واحد ، حتى صرفوا الأمر عنى لعثمان ، فأخرجونى منها ، رجاء أن يتداولوها . حين يئسوا أن ينالوها ، ثم قالوا لى : هلم فبايع عثمان . وإلا جاهدناك . فبايعت مستكرهاً . وصبرت محتسباً ؛ وقال قائلهم : إنك يا ابن أبى طالب على الأمر لحريص ، قلت لهم : أنتم أحرص . أما أنا إذ طلبت ميراث ابن أبى وحقه ، وأنتم إذ دخلتم بينى وبينه ، وتضربون وجهى دونه ، اللهم إنى أستعين بك على قريش ، فإنهم قطعوا رحمى ، وصغروا عظيم منزلتى وفضلى ، واجتمعوا على منازعتى حقاً كنت أولى به منهم فسلبونيه ؛ ثم قالوا : اصبر كمداً ، وعش متأسفاً ، فنظرت فإذا ليس معى رفاق ولا مساعد إلا أهل بيتى ، فضننت بهم على الهلاك ، فأغضيت عينى على القذى ، وتجرعت رفيق على الشجا[٢] . وصبرت من كظم الغيظ على أمرّ من العلقم طعماً ، وآلم للقلب من حز الحديد ، حتى إذا نقمتم على عثمان أتيتموه فقتلتموه ، ثم جئتمونى تبايعوننى ، فأبيت عليكم ، وأبيتم علىّ ، فنازعتمونى ودافعتمونى ، ولم أمد يدي ، تمنعاً عنكم ، ثم ازدحمتم علىّ ، حتى ظننت أن بعضكم قاتل بعض ، وأنكم قاتلىّ ، وقلتم : لا نجد غيرك ، ولا نرضى إلا بك ، فبايعنا لا نفترق ولا نختلف ، فبايعتكم ودعوتم الناس إلى بيعتى ، فمن بايع طائعاً قبلت منه ، ومن أبى تركته ، فأول من بايعنى طلحة والزبير ، ولو أبيا ما أكرهتهما ، كما لم أكره غيرهما ، فما لبثا إلا يسيراً حتى قيل لى : قد خرجا متوجهين إلى البصرة فى جيش ، ما منهم رجل إلا وقد أعطانى الطاعة ، وسمح لى بالبيعة ، فقاموا على عمالى بالبصرة وخزائن بيوت أموالى ، وعلى أهل مصرى ، وكلهم فى طاعتى ، وعلى شيعتى ، فشتتوا كلمتهم ، وأفسدوا على جماعتهم ، ثم وثبوا

---

(١) النقيبة : العقل والمشورة ونفاذ الرأى .

(٢) الشجا : العظمة أو الشوكة فى الحلق .

على شيعتى ، فقتلوا طائفة منهم غدراً ، وطائفة صبراً ، وطائفة عصراً بأسيافهم ، فضاربوهم حتى لقوا الله صابرين محتسبين ، فوالله لولم يصيبوا منهم إلا رجلاً واحداً متعمدين لقتله ، لحل لى بذلك قتل الجيش كله ، مع أنهم قد قتلوا من المسلمين أكثر من العدة التى دخلوا عليهم بها ، فقد أدال الله منهم ، فبعداً للقوم الظالمين . ثم إنى نظرت بعد ذلك فى أهل الشام ، فإذا هم أعراب وأحزاب وأهل طمع ، جفاة طغام[1] ، تجمعوا من كل أوب ، ممن ينبغى أن يؤدب ، ويولىّ عليه ، ويؤخذ على يديه ، ليسوا من المهاجرين والأنصار ، ولا من التابعين بإحسان ، فسرت إليهم ، ودعوتهم إلى الجماعة والطاعة ، فأبوا إلا شقاقاً ونفاقاً ، ونهضوا فى وجوه المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، ينضحونهم بالنبل ، ويشجونهم بالرماح ، فهنالك نهضت إليهم فقاتلتهم ؛ فلما عضهم السلاح ، ووجدوا ألم الجراح ، رفعوا المصاحف يدعونكم إلى مافيها ، فنبأتكم أنهم ليسوا بأصحاب دين ولاقرآن ، وإنما رفعوها إليكم خديعة ومكيدة ، فامضوا على قتالهم ، فاتهمتونى ، وقلتم : اقبل منهم ، فإنهم إن أجابوا إلى ما فى الكتاب والسنة جامعونا على ما نحن عليه من الحق ، وإن أبوا كان أعظم لحجتنا عليهم ، فقبلت منهم ، وخففت عنهم ، وكان صلحاً بينكم وبينهم على رجلين حكمين ، يحييان ما أحيا القرآن ، ويميتان ما أمات القرآن ، فاختلف رأيهما ، وتفرق حكمهما ، ونبذا حكم القرآن ، وخالفا ما فى الكتاب ، واتبعا هواهما بغير هدى من الله ، فجنبهما الله السداد وأهوى بهما فى غمرة الضلال ، وكانا أهل ذلك ، فانخذلت عنا فرقة منهم ، فتركناهم ما تركونا ، حتى إذا عاثوا فى الأرض مفسدين ، وقتلوا المؤمنين، أتيناهم فقلنا لهم : ادفعوا إلينا قتلة إخواننا ، فقالوا : كلنا قتلهم ، وكلنا استحللنا دماءهم ودماءكم ، وشدت علينا خيلهم ورجالهم ، فصرعهم الله مصارع القوم الظالمين . ثم أمرتكم أن تمضوا من فوركم ذلك إلى عدوكم ، فإنه أفزع لقلوبهم ، وأنهك لمكرهم ، وأهتك لكيدهم ، فقلتم : كلت أذرعنا وسيوفنا ، ونفدت نبالنا ، ونصلت أسنة[2] رماحنا ، فأذن لنا ، فلنرجع حتى نستعد بأحسن عدتنا ، وإذا رجعت زدت فى مقاتلتنا عدة من هلك منا ، ومن قد فارقنا، فإن ذلك قوة منا على عدونا ، فأقبلتم حتى إذا أطللتم على الكوفة ، أمرتكم أن تلزموا معسكركم وتضموا قواصيكم[3] ، وتتوطنوا على الجهاد ، ولا تكثروا زيارة أولادكم ونسائكم فإن ذلك يُرقّ قلوبكم ويلويكم ، وإن أصحاب الحرب لا يتوجّدون[4] ، ولا يتوجعون ،

---

(١) الطغام : سفلة الناس .
(٢) نصلت أسنة رماحنا : خرجت من الرماح وأصبحت رماحنا بلا أسنة .
(٣) قواصيكم جمع قاصية وهى البعيدة أى تضموا ما بعد منكم .
(٤) يتوجدون : يشكون الوجد وهو الحب أى لا يشكون وجدهم وحبهم لأبنائهم وأهلهم.

ولايسأمون من سهر ليلهم،ولا من ظمأ نهارهم، ولا من خمص بطونهم ، حتى يدركوا بثأرهم، وينالوا بغيتهم ومطلبهم، فنزلت طائفة منكم معي مُعذرة(١) ، ودخلت طائفةمنكمالمصر عاصية (٢) فلامن نزل معي صبر فثبت ، ولا من دخلالمصر عاد إليّ ، ولقد نظرت إلى عسكري وما فيه معي منكم إلا خمسون رجلا ، فلما رأيت ما أتيتم دخلت إليكم ، فما قدرتم أن تخرجوا معي إلى يومكم هذا ، لله آباؤكم ! فما تنتظرون ؟ أما ترون إلىأطرافكم قد انتقصت ، وإلى مصركم قد افتتح ؟ فما بالكم تؤفكون ! ألا إن القوم قد اجتمعوا وجـدوا وتناصحوا ، وإنكم تفرقتم واختلفتم وتغاششتم (٣) ،فأنتم إن اجتمعتم تسعدوا ، فأيقظوا رحمكم الله نائمكم ، وتحرزوا لحرب عدوكم ، إنما تقاتلون الطلقاء وأبناء الطلقاء ، ممن أسلم كرهاً ، وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم حرباً ، أعداء السنة والقرآن ، وأهل الأحزابوالبدع والأحداث ، ومن كانت بوائقة (٤) تتقى ، وكان عن الدين منحرفاً ، وأكلة الرشا (٥) ، وعبيد الدنيا ، لقد نمي إلى أن ابن الباغية (٦) لم يبايع معاوية حتى شرط عليه أن يؤتيه أتاوة هي أعظم ما في يديه من سلطانه(٧) ، فصفرت يد هذا البائع دينه بالدنيا ! وتربت يد هذا المشترى نصرة غادر فاسق بأموال الناس ! وإن منهم لمن شرب فيكم الحرام ، وجلد حدا في الإسلام ، فهؤلاء قادة القوم ، ومن تركت ذكر مساويه منهم شر وأضر ، وهؤلاء الذين لو ولوا عليكم لأظهروا فيكم الغضب والفخر ، والتسلط بالجبروت ، والتطاول بالغضب ، والفساد في الأرض ، ولا تبعوا الهوى ، وحكموا بالرشا ، وأنتم على ما فيكم من تخاذل وتواكل خيرمنهموأهدىسبيلا ، فيكم الحكماء ، والعلماء والفقهاء ، وحملة القرآن ، والمتهجدونبالأسحار ، والعبّاد،والزهاد في الدنيا ، وعُمّار المساجد ، وأهل تلاوة القرآن ، أفلا تسخطون وتنقمون أنينازعكم الولاية عليكم سفهاؤكم ، والأراذل والأشرار منكم ! اسمعوا قولي إذا قلت ، وأطيعوا أمري إذا أمرت ، واعرفوا نصيحتي إذا نصحت ، واعتقدوا جزمي إذا جزمت ، والزموا عزمي إذا عزمت ، وانهضوا لنهوضي ، وقارعوا من قارعت ، ولئن عصيتموني لا ترشدوا ولا تجتمعوا ،

---

(١) معذرة : بضم الميم وكسر الذال : أي قاطعة عذري في لومها وذمها.
(٢) المصر : المراد به هنا الكوفة .
(٣) غش بعضكم بعضاً ولم يبذل له النصيحة .
(٤) بوائقه : مصائبه ونوائبه
(٥) الرشا : جمع رشوة.
(٦) يريد بابن الباغية : عمرو بن العاص .
(٧) هي مصر : التي طلبها عمرو بن العاص من معاوية ثمناً لمعاونته ومساعدته .

خذوا للحرب أهبتها ، وأعدوا لها التهيؤ ، فإنها قد وقدت نارها ، وعلا سناها [١] ، وتجرد لكم فيها الظالمون ، كيما يطفئوا نور الله ويقهروكم ، عباد الله ، ألا إنه ليس أولياء الشيطان من أهل الطمع والجفاء ، بأولى فى الجد فى غيهم وضلالهم وباطلهم ، من أهل النزاهه والحق والإخبات بالجد فى حقهم ، وطاعة ربهم ، ومناصحة إمامهم ، إنى والله لو لقيتهم وحيداً منفرداً ، وهم فى أهل الأرض إن [٢] باليت بهم أو استوحشت منهم ، إنى فى ضلالهم الذى هم فيه ، والهدى الذى أنا عليه ، لعلى بصيرة ويقين وبينة من ربى ، وإنى للقاء ربى لمشتاق ولحسن ثوابه لمنتظر راج ، ولكن أسفاً يعترينى ، وجزعاً يريبنى من أن يلى هذه الأمة سفهاؤها وفجارها ، فيتخذون مال الله دولا ، وعباد الله خولا ، والصالحين حرباً ، والقاسطين حزباً [٣] ، وايم الله لولا ذلك ما أكثرت تأليبكم وجمعكم ، وتحريضكم ، ولتركتكم ، فوالله إنى لعلى الحق ، وإنى للشهادة لمحب ، أنا نافر بكم إن شاء الله ، فانفروا خفافاً وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ، إن الله مع الصابرين .

مقتل على عليه السلام

قال المدائنى : حج ناس من الخوارج سنة تسع وثلاثين ، وقد اختلف عامل علىّ وعامل معاوية ، فاصطلح الناس على شيبة بن عثمان ، فلما انقضى الموسم أقام النفر من الخوارج مجاورين بمكة ، فقالوا : كان هذا البيت معظماً فى الجاهلية ، جليل الشأن فى الإسلام ، وقد انتهك هؤلاء حرمته ، فلو أن قوما شروا [٤] أنفسهم فقتلوا هذين الرجلين اللذين قد أفسدا فى الأرض ، واستحلا حرمة هذا البيت ، استراحت الأمة ، واختار الناس لهم إماما . فقال عبد الرحمن بن ملجم المرادى لعنه الله : أنا أكفيكم أمر علىّ . وقال الحجاج بن عبد الله الصريمى ، وهو البَرْك : أنا أقتل معاوية . فقال : أذويه مولى بنى العنبر ، واسمه عمرو بن بكر والله ما عمرو بن العاص بدونهما . فأنا به : فتعاقدوا على ذلك ثم اعتمروا عمرة رجب . واتفقوا على يوم واحد يكون فيه وقوع القتل منهم فى علىّ ومعاوية وعمرو ، ثم سار كل منهم فى طريقه فقدم ابن ملجم الكوفة وكتم أمره ، وتزوج أمرأة يقال لها : قطام بنت علقمة ، وكانت خارجية ، وكان علىّ قد قتل أخاها فى حرب الخوارج . وتزوجها على أن يقتل علياً . فأقام

---

(١) سناها : ضوؤها .
(٢) إن هنا بمعنى ما النافية أى ماباليت بهم .
(٣) سبق بيان معنى الخول والقاسطين قريبا .
(٤) باعوا أنفسهم .

عندها مدة ، فقالت له فى بعض الأيام وهو مختف : لطالما أحببت المكث عند أهلك ، وأضربت عن الأمر الذى جئت بسببه ، فقال : إن لى وقتا واعدت فيه أصحابى ،ولن أجاوزه فلما كان اليوم الذى تواعدوا فيه ، خرج عدو الله ، فقعد لعلىّ حين خرج علىّ لصلاة الصبح ، صبيحة نهار الجمعة ، ليلة عشر بقيت من رمضان سنة أربعين ، فلما خرج للصلاة وثب عليه ، وقال : الحكم لله لا لك يا على ، وضربه على قرنه (١) بالسيف ، فقال على : فزت ورب الكعبة ، ثم قال : لا يفوتنكم الرجل ، فشدّ الناس عليه ، فأخذوه .

وكان علىّ رضى الله عنه شديد الأدمة (٢) ثقيل العينين ، ضخم البطن ، أصلع، ذا عضلات ، فى أذنيه شعر يخرج منهما ، وكان إلى القصر أقرب . وكان ابن ملجم يعرض سيفه ، فإذا أخبر أن فيه عيباً أصلحه ، فلما قتل علياً قال : لقد أحددت سيفى بكذا وكذا ، وسممته بكذا وضربت به علياً ضربة لو كانت بأهل المصر لأتت عليهم .

وروى عن الحسن أنه قال : أتيت أبى فقال لى : أرقت الليلة ، ثم ملكتنى عينى (٣) . فسنح لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت له : يا رسول الله ، ماذا لقيت من أمتك من من الأود (٤) واللدد ؟ فقال : ادع عليهم ، فقلت : اللهم أبدلنى بهم خيراً لى منهم ، وأبدلهم بى شراً لهم منى ،وخرج إلى الصلاة فاعترضه ابن ملجم، وأدخل ابن ملجم على علىّ بعد ضربه إياه ، فقال : أطيبوا طعامه ، وألينوا فراشه ، فإن أعش فأنا ولىّ دمى ، إما عفوت، وإما اقتصصت، وإن أمت فالحقوه بى ،ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين .

قالوا وبكت أم كلثوم ، وقالت لابن ملجم : يا عدو الله ، قتلت أمير المؤمنين ، قال : ما قتلت أمير المؤمنين ، ولكنى قتلت أباك . قالت : والله إنى لأرجو ألا يكون عليه بأس ، قال: ولم تبكين إذا؟ والله لقد أرهفت السيف ، ونفيت الخوف ، وجبت الأجل ، وقطعت الأمل وضربت ضربة لو كانت بأهل المشرق لأتت عليهم .

ومكث على يوم الجمعة ويوم السبت ، وتوفى ليلة الأحد ، وغسله الحسن والحسين ومحمد

---

(١) أى على رأسه .
(٢) الأدمة :السمرة .
(٣) أى نمت
(٤) الأود : العوج،اى بعد عدم استقامتهم واعوجاجهم على، واللدد : شدة الخصومة وعدم الرجوع إلى الحق .

ابن الحنفية وعبد الله بن جعفر ، وكفن فى ثلاثة أثواب ، ليس فيها قميص ، وصلى عليه الحسن ابنه ، ودفن فى قصر الإمارة بالكوفة ، وعمى قبره مخافة أن ينبشه الخوارج، وقيل إنه نقل بعد صلح معاوية والحسن إلى المدينة ، وأخذ ابن ملجم ، فقطعت يداه ورجلاه وأذناه وأنفه ، وأتوا يقطعون لسانه ، فصرخ ، فقيل له : قد قطعت منك أعضاء ولم تنطق ، فلما أتوا يقطعون لسانك صرخت ؟ قال : إنى أذكر الله به ، فلم يسهل علىّ قطعه ، ثم قتلوه بعد هذه المثلة .

كانت خلافة علىّ أربع سنين وتسعة أشهر ، وكان عمره ثلاثا وستين سنة .

وأما البَرك : فإنه انطلق ليلة ميعادهم ، فقعد لمعاوية ، فلما خرج لصلاة الصبح شد عليه سيفه ، فأدبر معاوية ، فضرب رانفة[1] إليته ففلقها ، ووقع السيف فى لحم كثير ، وأخذ ؛ فقال لمعاوية : إن لك عندى لخبراً ساراً ، قد قتل الليلة علىّ ، وحدثه الحديث ، وعولج معاوية فبرىء ، وأمر بقتل البرك ، وقيل : ضرب البرك معاوية وهو ساجد ، فمذ ذاك جعل الحرس على رءوس الخلفاء ، واتخذ معاوية المقصورة .

وأما الثالث : فقصد عمرو بن العاص ليلة الميعاد ، فلم يخرج تلك الليلة ، لعلة وجدها فى بطنه ، وصلى بالناس خارجة بن حذافة العدوى ، فشد عليه الخارجى ، وهو يظن أنه ابن العاص ، فقتله ، وأخذ ، فأتى به عمرو بن العاص ، فلما رآه قال : ومن المقتول ؟ قالوا : خارجة . فقال : أردت عمراً وأراد الله خارجة ؛ ثم قال لعمرو بن العاص الحديث ، وما كان من اتفاقه مع صاحبيه ، فأمر بقتله . فلما قتل علىّ تداعى أهل الشام إلى بيعة معاوية ، وقال له عبد الرحمن بن خالد بن الوليد : نحن المؤمنون ، وأنت أميرنا ، فبايعوه وهو بإيلياء لخمس ليال خلون من شوال سنة أربعين .

فصل

روى عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال : « يا على ، أتدرى من أشقى الأولين والآخرين ؟ قال : الله ورسوله أعلم . قال : أشقى الأولين : عاقر الناقة[2] ، وأشقى الآخرين : الذى يطعنك . وأشار إلى حيث طعن » . قال : وخرج علىّ فى ليلة قتله وهو يقول :

---

(١) رانفة الألية : أسفلها .

(٢) عاقر الناقة : الذى عقر ناقة صالح عليه السلام التى أخرجها الله لثمود من الحجر معجزة لصالح عليه السلام .

اشدد حيازيمك للموت فإن الموت لاقيكا
ولا تجزع من الموت إذا حل بواديكا

وقال الشاعر فى قتل ابن ملجم علياً :

تضمن للآثام لا در دره ولاقى عقاباً غير ما متصرم[1]
فلا مهر أغلى من علىّ وإن غلا ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم
ثلاثة آلاف وعبد وقينة وضرب على بالحسام المسمم

قال هبيرة بن شريم : سمعت الحسن رضى الله عنه يخطب ، فذكر أباه وفضله وسابقته ، ثم قال : والله ما ترك صفراء ولا بيضاء إلا سبع مئة درهم فضلت من عطائه ، أراد أن يشترى بها خادماً . وجاء رجل من مراد إلى على ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، احترس ، فإن هنا قوماً يريدون قتلك : فقال : إن لكل إنسان ملكين يحفظانه ، فإذا جاء القدر خلياه .

قيل : ولما ضرب علىّ دعا أولاده ، وقال لهم : عليكم بتقوى الله وطاعته وألا تأسوا على ما صرف عنكم منها ، وانهضوا إلى عبادة ربكم ، وشمروا عن ساق الجد ، ولا تثاقلوا إلى الأرض ، وتقروا بالخسف ، وتبوءوا بالذل ، اللهم اجمعنا وإياهم على الهدى ، وزهدنا وإياهم فى الدنيا ، واجعل الآخرة خيراً لنا ولهم من الأولى ، والسلام .

بيعة الحسن بن على رضى الله عنه لمعاوية

قال : وذكروا أنه لما قتل على بن أبى طالب ، ثار الناس إلى الحسن بن على بالبيعة ، فلما بايعوه قال لهم : تبايعون لى على السمع والطاعة ، وتحاربون من حاربت ، وتسالمون من سالمت ، فلما سمعوا ذلك ارتابوا وأمسكوا أيديهم وقبض هو يده ، فأتوا الحسين ، فقالوا له : ابسط يدك نبايعك على ما بايعنا عليه أباك ، وعلى حرب المحلين الضالين أهل الشام ، فقال الحسين : معاذ الله أن أبايعكم ما كان الحسن حياً . قال : فانصرفوا إلى الحسن ، فلم يجدوا بداً من بيعته ، على ما شرط عليهم ، فلما تمت البيعة له ، وأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك ، كاتب معاوية ، فأتاه فخلا به ، فاصطلح معه على أن لمعاوية الإمامة ما كان حياً ، فإذا مات فالأمر للحسن ، فلما تم صلحهما صعد الحسن إلى المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ،

---

(١) أى دائم لا يتصرم ولا ينقطع .

إن الله هدى أولكم بأولنا ، وحقن دماءكم بآخرنا ، وكانت لى فى رقابكم بيعة ، تحاربون من حاربت ، وتسالمون من سالمت ، وقد سالمت معاوية ، وبايعته فبايعوه وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين ، وأشار إلى معاوية .

إنكار سليمان بن صرد

قال : وذكروا أنه لما تمت البيعة لمعاوية بالعراق ،وانصرف راجعا إلى الشام ، أتاه سليمان بن صرد ، وكان غائبا عن الكوفة ، وكان سيد أهل العراق ورأسهم . فدخل على الحسن ، فقال : السلام عليك يامذل المؤمنين ، فقال الحسن : وعليك السلام ،اجلس . لله أبوك ، قال : فجلس سليمان ، فقال : أما بعد ، فإن تعجبنا لاينقضى من بيعتك معاوية ومعك مئة ألف مقاتل من أهل العراق ، وكلهم يأخذ العطاء مع مثلهم من أبنائهم ومواليهم ، سوى شيعتك من أهل البصرة وأهل الحجاز ، ثم لم تأخذ لنفسك ثقة فى العهد ، ولا حظا من القضية ، فلو كنت إذ فعلت ما فعلت ، وأعطاك ما أعطاك بينك وبينه من العهد والميثاق ، كنت كتبت عليك بذلك كتابا ، وأشهدت عليه شهودا من أهل المشرق والمغرب إن هذا الأمر لك من بعده ، كان الأمر علينا أيسر ، ولكنه أعطاك هذا فرضيت به من قوله ، ثم قال:وزعم على رءوس الناس ما قد سمعت ، إنى كنت شرطت لقوم شروطاً ، ووعدتهم عدات ، ومنيتهم أمانى ، إرادةإطفاء نار الحرب ، ومداراة لهذه الفتنة ، إذ جمع الله لنا كلتنا وألفتنا ، فإن كل ما هنالك تحت قدمى هاتين ، ووالله ما عنى بذلك إلا نقض ما بينك وبينه ، فأعد للحرب خدعة ، وائذن لى أشخص إلى الكوفة ، فأخرج عامله منها ، وأظهر فيها خلعه ، وانبذ اليه على سواء،إن الله لايهدى كيد الخائنين . ثم سكت . فتكلم كل من حضر مجلسه بمثل مقالته ، وكلهم يقول : ابعث سليمان بن صرد ، وابعثنا معه ، ثم الحقنا إذا علمت أنا قد أشخصنا عامله ، وأظهرنا خلعه . فتكلم الحسن، فحمد الله ، ثم قال : أما بعد ، فإنكم شيعتنا وأهل مودتنا ، ومن نعرفه بالنصيحة والصحبة والاستقامة لنا ، وقد فهمت ما ذكرتم ولو كنت بالحزم فى أمر الدنيا وللدنيا أعمل وأنصب ، ماكان معاوية بأبأس منى بأساً ، وأشد شكيمة ، ولكان رأيى غير ما رأيتم، ولكنى أشهد الله وإياكم أني لم أرد بما رأيتم الا حقن دمائكم ، واصلاح ذات بينكم ، فاتقوا الله وارضوا بقضاء الله ، وسلموا لأمر الله ، والزموا بيوتكم ، وكفوا أيديكم ، حتى يستريح برّ ، أو يستراح من فاجر ، مع أن أبى كان يحدثنى أن معاوية سيلى الأمر ، فوالله لوسرنا إليه بالجبال والشجر ، ما شككت أنه سيظهر ، إن الله لامعقب لحكمه ، ولا راد لقضائه ، وأما قولك : يا مذلّ

المؤمنين ، فوالله لأن تذلوا وتعافوا أحب إلى من أن تعزوا وتقتلوا ، فإن رد الله علينا حقنا فى عافية قبلنا ، وسألنا الله العون على أمره ، وإن صرفه عنا رضينا ، وسألنا الله أن يبارك فى صرفه عنا ، فليكن كل رجل منكم حلساً من(١) أحلاس بيته ، ما دام معاوية حياً ، فإن يهلك ونحن وأنتم أحياء ، سألنا الله العزيمة على رشدنا ، والمعونة على أمرنا ، وأن لايكلنا إلى أنفسنا ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

كراهية الحسين رضى الله عنه للبيعة

قال : ثم خرج سليمان بن صرد من عنده ، فدخل على الحسين ، فعرض عليه ما عرض على الحسن ، وأخبره بما رد عليه الحسن ، فقال الحسين : ليكن كل رجل منكم حلساً من أحلاس بيته ، ما دام معاوية حياً ؛ فإنها بيعة كنت والله لها كارهاً ، فإن هلك معاوية نظرنا ونظرتم ، ورأينا ورأيتم .

ما أشار به المغيرة بن شعبة على معاوية من البيعة ليزيد

قال : وذكروا أنه لما استقامت الأمور لمعاوية ، استعمل على الكوفة المغيرة بن شعبة ، ثم هم أن يعزله ويولى سعيد بن العاص ، فلما بلغ ذلك المغيرة قدم الشام على معاوية ، فقال : يا أمير المؤمنين ، قد علمت ما لقيت هذه الأمة من الفتنة والاختلاف ، وفى عنقك الموت ، وأنا أخاف إن حدث بك حدث أن يقع الناس فى مثل ما وقعوا فيه بعد قتل عثمان ، فاجعل للناس بعدك علماً يفزعون إليه ، واجعل ذلك يزيد إبنك . قال : فدخل معاوية على امرأته فاختة بنت قرظة بن حبيب بن عبد شمس وكان ابنها منه عبد الله بن معاوية ، وقد كان بلغها ما قال المغيرة ، وما أشار به عليه من البيعة ليزيد وكان يزيد بن الكلبية ميسون إبنة عبدالرحمن بن بحدل الكلبى . فقالت فاختة ، وكانت معادية الكلبية ، ما أشار به عليك المغيرة ؟ اراد أن يجعل لك عدواً من نفسك ، يتمنى هلاكك كل يوم ، فشق ذلك على معاوية ، ثم بدا له أن يأخذ بما أشار عليه المغيرة بن شعبة .

---

(١) الحلس : هو ما يلى ظهر الدابة تحت البرذعة ، والمعنى الزموا بيوتكم ولا تبرحوها .

ما حاول معاوية فى بيعة يزيد

قال : فلما اجتمعت عند معاوية وفود الأمصار بدمشق ، وفيهم الأحنف بن قيس ، دعا معاوية الضحاك بن قيس الفهرى ، فقال له إذا جلستُ على المنبر ، وفرغتُ من بعض موعظتى وكلامى ، فاستأذنى للقيام ، فإذا أذنت لك ، فاحمد الله تعالى ، واذكر يزيد ، وقل فيه الذى يحق له عليك ، من حسن الثناء عليه ، ثم ادعنى إلى توليته من بعدى فإنى قد رأيت وأجمعت على توليته ، فأسأل الله فى ذلك ، وفى غـــيره الخيرة وحسن القضاء . ثم دعا عبد الرحمن بن عثمان الثقفى وعبد الله بن مسعدة الفزارى ، وثور بن معن السلمى ، وعبد الله بن عصام الأشعرى ، فأمرهم أن يقوموا إذا فرغ الضحاك وأن يصدقوا قوله ، ويدعوه إلى بيعة يزيد .

ما تكلم به الضحاك بن قيس

قال : فلما جلس معاوية على المنبر ، وفرغ من بعض موعظته ، وهؤلاء النفر فى المجلس قد قعدوا للكلام ، قام الضحاك بن قيس ، فاستأذن فى الكلام ، فأذن له ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أصلح الله أمير المؤمنين ، وأمتع به ، إنا قد بلونا الجماعة والألفة ، والاختلاف والفرقة فوجدناها ألم لشعثنا ، وأمنة لسبلنا ، وحاقنة لدمائنا ، وعائدة علينا فى عاجل ما نرجو وآجل ما نؤمل . مع ما ترجو به الجماعة من الألفة ، ولا خير لنا أن نترك سدى ، والأيام عُوج رواجع ، والله يقول : (كل يوم هو فى شأن) ، ولسنا ندرى ما يختلف به العصران ، وأنت يا أمير المؤمنين ميت كما مات من كان قبلك من أنبياء الله وخلفائه ، نسأل الله تعالى بك المتاع ، وقد رأينا من دعة يزيد بن أمير المؤمنين ، وحسن مذهبه ، وقصد سيرته ، ويمن نقيبته[1] ، مع ما قسم الله له من المحبة فى المسلمين ، والشبه بأمير المؤمنين ، فى عقله وسياسته وشيمته المرضية ، ما دعانا إلى الرضا به فى أمورنا ، والقنوع به فى الولاية علينا ، فليوله أمير المؤمنين — أكرمه الله — عهده ، وليجعله لنا ملجأ ومفزعاً بعده ، نأوى إليه إن كان كون فإنه ليس أحد أحق بها منه ، فاعزم على ذلك ، عزم الله لك فى رشدك ، ووفقك فى أمورنا .

ما قال عبد الرحمن بن عثمان

قال : ثم قام عبد الرحمن بن عثمان الثقفى ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أصلح الله

---

(١) النقيبة : العقل والمشورة ونفاذ الرأى .

أمير المؤمنين ، إنا قد أصبحنا في زمان مختلفة أهواؤه ، قد احدودبت علينا سيساؤه [١] ، واقطوطبت [٢] علينا أدواؤه ، وأناخت علينا أبناؤه [٣] ، ونحن نشير عليك بالرشاد ، وندعوك إلى السداد ، وأنت — يا أمير المؤمنين — أحسننا نظراً وأثبتنا بصراً ، ويزيد بن أمير المؤمنين قد عرفنا سيرته ، وبلونا علانيته ، ورضينا ولايته ، وزادنا بذلك انبساطا ، وبه اغتباطا ، مامنحه الله من الشبه بأمير المؤمنين والمحبة في المسلمين ، فاعزم على ذلك ، ولا تضق به ذرعا ، فالله تعالى يقيم به الأود [٤] ، ويردع به الألد [٥] ، وتأمن به السبل ، ويجمع به الشمل ، ويعظم به الأجر ، ويحسن به الذخر . ثم جلس .

ما قال ثور بن معن

قال : ثم قام ثور بن معن السلمى ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أصلح الله أمير المؤمنين ، إنا قد أصبحنا في زمان صاحبه شاغب ، وظله ذاهب مكتوب علينا فيه الشقاء والسعادة ، وأنت يا أمير المؤمنين ميت نسأل الله بك المتاع ويزيد ابن أمير المؤمنين أقدمنا شرفاً ، وأبذلنا عرفاً [٦] وقد دعانا إلى الرضا به ، والقنوع بولايته ، والحرص عليه ، والاختيار له ، ما قد عرفنا من صدق لسانه ووفائه ، وحسن بلائه ، فاجعله لنا بعدك خلفاً ، فإنه أوسعنا كنفاً ، وأقدمنا سلفاً ، وهو رتق لما فتق ، وزمام لما شعب [٧] ، ونكال لمن فارق ونافق ، وسلم لمن واظب ، وحافظ الحق ، أسأل الله لأمير المؤمنين أفضل البقاء والسعادة ، والخيرة فيما أراد ، والتوطن في البلاد ، وصلاح أمر جميع العباد . ثم جلس .

ما تكلم به عبد الله بن عصام

قال : ثم قام عبد الله بن عصام ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أصلح الله أمير المؤمنين ،

---

(١) السيساء : الظهر ، والمراد أن الزمان غير مستقيم كما يحدودب ظهر الدابة فلا يمكن ركوبها .
(٢) اقطوطبت : اجتمعت ، والأدواء جمع داء ، أى اجتمعت علينا علله
(٣) أناخت علينا : غلبت علينا ورمت بثقلها .
(٤) الأود : العوج .
(٥) الألد : شديد الخصومة .
(٦) العرف : العطاء .
(٧) شعب : كسر وتفرق .

وأمتع به ، إنا قد أصبحنا فى دنيا منقضية ، وأهواء منجذمة[1] نخاف هدّها ، وننتظر جدّها ، شديد منحدرها ، كثير وعرها ، شامخة مراقيها ، ثابتة مراتبها ، صعبة مراكبها ، فالموت يا أمير المؤمنين وراءك ووراء العباد ، لا يخلد فى الدنيا أحد ، ولا يبقى لنا أمد ، وأنت يا أمير المؤمنين مسئول عن رعيتك ، ومأخوذ بولايتك ، وأنت أنظر[2] للجماعة وأعلى عيناً بحسن الرأى لأهل الطاعة ، وقد هديت ليزيد فى أكمل الأمور وأفضلها رأياً ، وأجمعها رضاً ، فاقطع بيزيد قالة الكلام ، ونخوة المبطل ، وشغب المنافق ، واكبت به الباذخ[3] المعادى ، فإن ذلك ألم للشمل وأسهل للوعث[4] ، فاعزم على ذلك ، ولا تترامى بك الظنون .

ما تكلم به عبد الله بن مسعدة

ثم قام عبد الله بن مسعدة الفزارى ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أصلح الله أمير المؤمنين ، وأمتع به . إن الله قد آثرك بخلافته ، واختصك بكرامته ، وجعلك عصمة لأوليائه ، وذا نكاية لأعدائه ، فأصبحت بأنعمه جذلا ، ولما حملك محتملا ، يكشف الله تعالى بك العمى ، ويهدى بك العدى ، ويزيد ابن أمير المؤمنين أحسن الناس برعيتك رأفة ، وأحقهم بالخلافة بعدك ، قد ساس الأمور ، وأحكمته الدهور ، ليس بالصغير الفهيه[5] ، ولا بالكبير السفيه ، قد احتجن[6] المكارم ، وارتجى لحمل العظائم ، وأشد الناس فى العدوّ نكاية ، وأحسنهم صنعاً فى الولاية ، وأنت أغنى بأمرك ، وأحفظ لوصيتك ، وأحرز لنفسك . أسأل الله لأمير المؤمنين العافية فى غير جهد ، والنعمة فى غير تغيير .

ما قال الأحنف بن قيس

قال : فقال معاوية : أوَكلكم قد أجمع رأيه على ما ذكرنا ؟ فقالوا : كلنا قد أجمع رأيه على ما ذكرنا . قال : فأين الأحنف ؟ فأجابه ، قال : ألا تتكلم ؟ فقام الأحنف فحمد الله وأثنى عليه ،

---

(١) منجذمة : أى منقطعة ، كل هوى له وجهة غير وجهة الآخر فلا تجتمع الأهواء على رأى واحد .

(٢) أنظر : أحسن نظراً فى أمر الجماعة واختيار من يتولى أمرها من بعدك .

(٣) الباذخ : المستعلى المتكبر .

(٤) الوعث : الطريق العسر ، والمراد أسهل للسير فى الطريق الصعب .

(٥) الفهية : العيى الذى لا يحسن الكلام .

(٦) احتجن المكارم : جمعها وحواها .

ثم قال : أصلح الله أمير المؤمنين ، إن الناس قد أمسكوا فى منكر زمان قد سلف ، ومعروف زمان مؤتنَف[١] ، ويزيد بن أمير المؤمنين نعم الخلف ، وقد حلبت الدهر أشطره[٢] يا أمير المؤمنين ، فاعرف من تسند إليه الأمر من بعدك ، ثم اعص أمر من يأمرك ، لا يغررك من يشير عليك ، ولا ينظر لك ، وأنت أنظر للجماعة ، واعلم باستقامة الطاعة ، مع أن أهل الحجاز وأهل العراق لا يرضون بهذا ، ولا يبايعون ليزيد ما كان الحسن حياً .

ما ردّ الضحاك بن قيس عليه

قال : فغضب الضحاك بن قيس ، فقام الثانية ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أصلح الله أمير المؤمنين . إن أهل النفاق من أهل العراق ، مروءتهم فى أنفسهم الشقاق ، وألفتهم فى دينهم الفراق ، يرون الحق على أهوائهم ، كأنما ينظرون بأقفائهم ، اختالوا جهلاً وبطراً ، لا يرقبون من الله راقبة ، ولا يخافون وبال عاقبة ، اتخذوا إبليس لهم رباً ، واتخذهم إبليس حزباً ، فمن يقاربوه لا يسرّوه ، ومن يفارقوه لا يضروه ، فادفع رأيهم يا أمير المؤمنين فى نحورهم ، وكلامهم فى صدورهم ، ما للحسن وذوى الحسن فى سلطان الله الذى استخلف به معاوية فى أرضه؟ هيهات لا تورث الخلافة عن كلالة[٣] ، ويحجب غير الذكر العصبة[٤] ، فوطنوا أنفسكم يا أهل العراق على المناصحة لإمامكم ، وكاتب نبيكم وصهره ، يسلم لكم العاجل ، وتربحوا من الآجل .

ما أجاب به الأحنف بن قيس

قال : ثم قام الأحنف بن قيس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ، إنا قد فرّنا عنك قريشاً[٥] ، فوجدناك أكرمها زنداً ، وأشدها عقداً ، وأوفاها عهداً ، وقد علمت

---

(١) مستقبل .

(٢) هذا مثل يضرب للمجرب للأمور المحنّك ، يقال حلب الدهر أشطره .

(٣) الكلالة : الذى لا ولد له ولا والد .

(٤) العصبة هم الذكور من الورثة الذين يأخذون كل التركة إذا انفردوا ، أو معظم التركة بعد أن يأخذ أصحاب الفروض أنصبتهم ، والمراد استبعاد أن يأخذ الحسن رضى الله عنه الخلافة من يزيد ، فجعل الضحاك : الحسن مثل غير الذكر وجعل يزيد هو الذكر على التشبيه ، وهذا باطل من القول لأن الخلافة لا تورث وفيه من سوء الأدب على الحسن رضى الله عنه ما كان يجب معه قطع لسان الضحاك .

(٥) فررنا عنك قريشا : أى بحثنا فى قريش وفتشنا فيها .

أنك لم تفتح العراق عنوة ، ولم تظهر عليها قعصاً(١) ، ولكنك أعطيت الحسن بن على من عهود الله ما قد علمت ، ليكون له الأمر من بعدك ، فإن تف فأنت أهل الوفاء ، وإن تغدر تعلم والله إن وراء الحسن خيولاً جياداً ، وأذرعاً شداداً ، وسيوفاً حداداً ، إن تدن له شبراً من غدر ، تجد وراءه باعاً من نصر ، وإنك تعلم أن أهل العراق ما أحبوك منذ أبغضوك ، ولا أبغضوا علياً وحسناً منذ أحبوهما ، وما نزل عليهم فى ذلك غير من السماء ، وإن السيوف التى شهروها عليك مع على يوم صفين لعلى عواتقهم ، والقلوب التى أبغضوك بها لبين جوانحهم ، وايم الله إن الحسن لأحب إلى أهل العراق من علىّ .

ما قال عبد الرحمن بن عثمان

قال : ثم قام عبد الرحمن بن عثمان الثقفى ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أصلح الله أمير المؤمنين ، إن رأى الناس مختلف ، وكثير منهم منحرف ، لايدعون أحداً إلى رشاد ، ولا يجيبون داعياً إلى سداد ، مجانبون لرأى الخلفاء ، مخالفون لهم فى السنة والقضاء ، وقد وقفت ليزيد فى أحسن القضية ، وأرضاها لحمل الرعية ، فإذا خار(٢) الله لك ، فاعزم ، ثم اقطع قالة الكلام ، فإن يزيد أعظمنا حلماً وعلماً ، وأوسعنا كنفاً ، وخيرنا سلفاً ، قد أحكمته التجارب ، وقصدت به سبل المذاهب ، فلا يصرفنك عن بيعته صارف ، ولايقفن بك دونها واقف ، ممن هو شاسع عاص ، ينوص(٣) للفتنة كل مناص ، لسانه ملتو ، وفى صدره داء دوىّ(٤) ، إن قال فشر قائل ، وإن سكت فذود غائل(٥) ، قد عرفت من هم أولئك وما هم عليه لك ، من المجانبة للتوفيق ، والكلف(٦) للتفريق ، فأجل ببيعته عنا الغمة ، واجمع به شمل الأمة ، فلا تحد عنه إذ هديت له ، ولا تنشّ(٧) عنه إذ وقفت له ، فإن ذلك الرأى لنا ولك ، والحق علينا وعليك ، أسأل الله العون وحسن العاقبة لنا ولك بمنّه .

ما قال معاوية بن أبى سفيان

قال : فقام معاوية فقال : أيها الناس ، إن لإبليس من الناس إخواناً وخلاناً بهم يستعد ،

---

(١) القعص : القتل ، والمراد أنه لم يأخذ العراق بالحرب وإنما بايعته طائعة بعد صلح الحسن .
(٢) خار لك : اختار لك .
(٣) ينوص للفتنة : يتحرك لها وينهض لها كل منهض .
(٤) دوى : بليغ فى دائيته شـــديد .
(٥) ذود غائل : دفع بلاء عنه .
(٦) الكلف : الحب .
(٧) لاتنش عنه : لاتبعد عنه ولاتتحرك من ناحيته .

وإياهم يستمين ، وعلى ألسنتهم ينطق ، إن رجوا طمعاً أوجفوا[١] ، وإن استغنى عنهم أرجفوا[٢] ثم يلحقون الفتن بالفجور ، ويشققون لها حطب النفاق ، عيابون مرتابون ، إن ولوا عروة أمر حنقوا ، وإن دعوا إلى غى أسرفوا ، وليسوا أولئك بمنتهين ولا بمقلعين ولا متعظين ، حتى تصيبهم صواعق خزى وبيل ، وتحل بهم قوارع أمر جليل ، تجتث أصولهم كاجتثات أصول الفقع[٣] ، فأولى لأولئك ثم أولى ، فإنا قد قدمنا وأنذرنا إن أغنى التقديم شيئاً أو نفع النذير .

قال : فدعا معاوية الضحاك فولاه الكوفة ، ودعا عبد الرحمن فولاه الجزيرة ، ثم قام أبو خنيف فقال : يا أمير المؤمنين ، إنا لا نطيق ألسنة مضر وخطبها ، أنت يا أمير المؤمنين ، فإن هلكت فيزيد بعدك ، فمن أبى فهذا ، وسل سيفه ، فقال معاوية : أنت أخطب القوم وأكرمهم .

ثم قام الأحنف بن قيس ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أنت أعلمنا بليله ونهاره ، وبسره وعلانيته فإن كنت تعلم أنه خير لك فوله واستخلفه ، وإن كنت تعلم أنه شر لك ، فلا تزوده الدنيا وأنت صائر إلى الآخره ، فإنه ليس لك من الآخرة إلا ما طاب ؛ واعلم أنه لا حجة لك عند الله إن قدمت يزيد على الحسن والحسين ، وأنت تعلم من هما ، وإلى ما هما ، وإنما علينا أن نقول : (سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) .

قدوم معاية المدينة وما خاوض فيه العبادلة

قال : قالوا : فاستخار الله معاوية ، وأعرض عن ذكر البيعة ، حتى قدم المدينة سنة خمسين ، فتلقاه الناس ، فلما استقر فى منزله أرسل إلى عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن جعفر بن أبى طالب وإلى عبد الله بن عمر ، وإلى عبد الله بن الزبير ، وأمر حاجبه أن لا يأذن لأحد من الناس حتى يخرج هؤلاء النفر ، فلما جلسوا تكلم معاوية ، فقال : الحمد لله الذى أمرنا بحمده ، ووعدنا عليه ثوابه ، نحمده كثيراً ، كما أنعم علينا كثيراً ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله . أما بعد ، فإنى قد كبر سنى ، ووهن عظمى ، وقرب أجلى ، وأوشكت أن أدعى فأجيب ، وقد رأيت أن أستخلف عليكم بعدى يزيد ، ورأيته لكم رضا ، وأنتم عبادلة قريش وخيارها ، وأبناء خيارها ، ولم يمنعنى أن أحضر حسناً وحسيناً إلا أنهما أولاد أبيهما على على حسن رأيى فيهما ، وشديد محبتى لهما ، فردوا على أمير المؤمنين خيراً رحمكم الله .

---

(١) أوجفوا : أسرعوا .

(٢) أرجفوا : أثاروا الشائعات .

(٣) أصول الفقع : أصول الكمأة الرخوة واستئصالها سهل ، يريد أن الذى يصيبهم يجتث أصولهم بسهولة كما تجتث أصول الكمأة الرخوة .

ما تكلم به عبد الله بن عباس

قال : فتكلم عبد الله بن عباس ، فقال : الحمد لله الذى ألهمنا أن نحمده ، واستوجب علينا الشكر على آلائه ، وحسن بلائه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله، وصلى الله على محمد وآل محمد . أما بعد ، فإنك قد تكلمت فأنصتنا،وقلت فسمعنا، وإن الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه ، اختار محمداً صلى الله عليه وسلم لرسالته ، واختاره لوحيه ، وشرفه على خلقه ، فأشرف الناس من تشرف به ، وأولاهم بالأمر أخصهم به ، وإنما على الأمة التسليم لنبيها ، إذ اختاره الله لها ، فإنه إنما اختار محمداً بعلمه ، وهو العليم الخبير،وأستغفر الله لى ولكم .

ما تكلم به، عبد الله بن جعفر

قال : فقام عبد الله بن جعفر ،فقال : الحمد لله أهل الحمد ومنتهاه ، نحمده على إلهامنا حمده، ونرغب إليه فى تأدية حقه ، وأشهد أن لا إله إلا الله واحداً صمدا ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأن محمدا عبده ورسوله ، صلى الله عليه وسلم : أما بعد ، فإن هذه الخلافة إن أخذ فيها بالقرآن، فأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ، وإن أخذ فيها بسنة رسول الله ، فأولوا رسول الله،وإن أخذ فيها بسنة الشيخين أبى بكر وعمر فأى الناس أفضل وأكمل وأحق بهذا الأمر من آل الرسول؟ وايم الله لوولوه بعد نبيهم لوضعوا الأمر موضعه ، لحقه وصدقه ، ولأطيع الرحمن، وعصى الشيطان ، وما اختلف فى الأمة سيفان ، فاتق الله يا معاوية ، فإنك قد صرت راعياً ، ونحن رعية ، فانظر لرعيتك فإنك مسئول عنها غدا ، وأما ما ذكرت من ابنىْ عمى ، وتركك أن تحضرهما ، فوالله ما أصبت الحق ، ولا يجوز لك ذلك إلا بهما ، وإنك لتعلم أنهما معدن العلم والكرم ، فقل أو دع . وأستغفر لى الله ولكم.

ما تكلم به عبد الله بن الزبير

قال :فتكلم عبد الله بن الزبير ، فقال : الحمد لله الذى عرفنا دينه ، وأكرمنا برسوله ، أحمده على ما أبلى وأولى ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله . أما بعد : فإن هذه الخلافة لقريش خاصة ، تتناولها بمآثرها السنية، وأفعالها المرضية ، مع شرف الآباء، وكرم الأبناء ، فاتق الله يا معاوية وأنصف من نفسك ، فإن هذا عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله، وهذا عبد الله بن جعفر ذو الجناحين ابن عم رسول الله ، وأنا عبد الله بن الزبير ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلىّ خلف حسناً وحسيناً ،

وأنت تعلم من هما ، وما هما ، فاتق الله يا معاوية ، وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك ، ثم سكت .

ما تكلم به عبد الله بن عمر

فتكلم عبدالله بن عمر ، فقال : الحمد لله الذى أكرمنا بدينه ، وشرفنا بنبيه صلى الله عليه وسلم أما بعد : فإن هذه الخلافة ليست[1] بهرقلية ، ولاقيصرية ولا كسروية[2] يتوارثها الأبناء عن الآباء ولو كان كذلك كنت القائم بها بعد أبى ، فوالله ما أدخلنى مع الستة من أصحاب الشورى إلا على أن الخلافة ليست شرطاً مشروطاً ، وإنما هى فى قريش خاصة ، لمن كان لها أهلا ممن ارتضاه المسلمون لأنفسهم ، من كان أتقى وأرضى ، فإن كنت تريد الفتيان من قريش ، فلعمرى إن يزيد من فتيانها ، واعلم أنه لا يغنى عنك من الله شيئاً .

ما تكلم به معاوية

فتكلم معاوية فقال : قد قلت وقلتم ، وإنه ذهبت الآباء ، وبقيت الأبناء ، فابنى أحب إلى من أبنائهم ، مع أن ابنى إن قاولتموه وجد مقالا ، وإنما كان هذا الأمر لبنى عبد مناف ، لأنهم أهل رسول الله ، فلما مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولى الناس أبا بكر وعمر من غير معدن الملك ولا الخلافة ، غير أنهما سارا بسيرة جميلة ، ثم رجع الملك إلى بنى عبد مناف ، فلا يزال فيهم إلى يوم القيامة ، وقد أخرجك الله يابن الزبير ، وأنت يابن عمر منها ، فأما ابنا عمى هذان فليسا بخارجين من الرأى إن شاء الله . ثم أمر بالرحلة ، وأعرض عن ذكر البيعة ليزيد ، ولم يقطع عنهم شيئاً من صلاتهم وأعطياتهم : ثم انصرف راجعاً إلى الشام ، وسكت عن البيعة ، فلم يعرض لها إلى سنة إحدى وخمسين .

موت الحسن بن على رضى الله عنهما

قال : فلما كانت سنة إحدى وخمسين ، مرض الحسن بن على مرضه الذى مات فيه ، فكتب عامل المدينة إلى معاوية يخبره بشكاية الحسن ، فكتب إليه معاوية : إن استطعت ألا يمضى يوم يمر بى إلا يأتينى فيه خبره فافعل ، فلم يزل يكتب إليه بحاله حتى توفى . فكتب إليه بذلك ، فلما أتاه الخبر أظهر فرحاً وسروراً ، حتى سجد وسجد من كان معه ، فبلغ ذلك عبدالله بن عباس ،

---

(١) ليست بهرقلية : أى ليست ملكية تورث كما يورث الملوك أبناءهم ملكهم ، وهرقل كان ملك مصر من قبل الروم .

(٢) قيصرية نسبة إلى قيصر ملك الروم ، وكسروية نسبة إلى كسرى ملك الفرس .

وكان بالشام يومئذ ، فدخل على معاوية،فلما جلس قال معاوية : يابن عباس هلك الحسن بن على، فقال ابن عباس : نعم هلك (إنا لله وإنا إليه راجعون) ترجيعاً مكرراً، وقد بلغنى الذى أظهرت من الفرح والسرور لوفاته . أما والله ما سد جسده حفرتك ، ولازاد نقصان أجله فى عمرك، ولقد مات وهو خير منك ، ولئن أصبنا به لقد أصبنا بمن كان خيراً منه ، جده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجبر الله مصيبته ، وخلف علينا من بعده أحسن الخلافة . ثم شهق ابن عباس وبكى ، وبكى من حضر فى المجلس ، وبكى معاوية ، فما رأيت يوما أكثر باكياً من ذلك اليوم، فقال معاوية: بلغنى أنه ترك بنين صغاراً .فقال ابن عباس : كلنا كان صغيراً فكبر. قال معاوية: كم أتى له من العمر ؟ فقال ابن عباس : أمر الحسن أعظم من أن يجهل أحد مولده . قال : فسكت معاوية يسيراً ، ثم قال: يابن العباس : أصبحت سيد قومك من بعده ؛ فقال ابن عباس: أما ما أبقى الله أبا عبد الله الحسين فلا . قال معاوية : لله أبوك يابن عباس ، ما استنبأتك إلا وجدتك معدّاً .

بيعة معاوية ليزيد بالشام وأخذه أهل المدينة

قالوا : ثم لم يلبث معاوية بعد وفاة الحسن رحمه الله إلا يسيراً حتى بايع ليزيد بالشام ، وكتب بيعته إلى الآفاق ،وكان عامله على المدينة مروان بن الحكم ، فكتب إليه يذكر الذى قضى الله به على لسانه من بيعة يزيد ، ويأمره أن يجمع من قبله من قريش وغيرهم من أهل المدينة ، ثم يبايعوا ليزيد .

عزل مروان عن المدينة

قال : فلما قرأ مروان كتاب معاوية أبى من ذلك . وأبته قريش.فكتب لمعاوية: إن قومك قد أبوا إجابتك إلى بيعتك ابنك ، فارأ رأيك . فلما بلغ معاوية كتاب مروان عرف أن ذلك من قبله . فكتب إليه يأمره أن يعتزل عمله ، ويخبره أنه قد ولى المدينة سعيد بن العاص ، فلما بلغ مروان كتاب معاوية ، أقبل مغاضباً فى أهل بيتـــه ، وناس كثير من قومه ، حتى نزل بأخواله بنى كنانة ، فشكا إليهم ، وأخــبرهم بالذى كان من رأيه فى أمر معاوية ، وفى عزله واستخلافه يزيد ابنه عن غير مشورة مبادرة له ، فقالوا نحن نبلك فى يدك ، وسيفك فى قرابك فمن رميته بنا أصبناه ، ومن ضربته بنا قطعناه ، الرأى رأيك ، ونحن طوع يمينك . ثم أقبل مروان فى وفد منهم كثير ، ممن كان معه من قومه وأهل بيته حتى نزل دمشق ، فخرج فيهم حتى أتى سدة معاوية ، وقد أذن للناس . فلما نظر الحاجب إلى كثرة من معه من قومه وأهل بيته ، منعه من الدخول ، فوثبوا إليه ، فضربوا وجهه ، حتى خلى عن الباب ، ثم دخل مروان، ودخلوا معه ، حتى إذا كان من معاوية بحيث تناله يده .

خطبة مروان بن الحكم بين يدى معاوية

قال بعد التسليم عليه بالخلافة : إن الله عظيم خطره ، لا يقدر قادر قدره، خلق من خلقه عباداً ، جعلهم لدعائم دينه أوتاداً ، هم رقباؤه على البلاد ، وخلفاؤه على العباد ، أسفر بهم الظلم ،وألف بهم الدين، وشدد بهم اليقين ومنح بهم الظفر ، ووضع بهم من استكبر ، فكان من قبلك من خلفائنا يعرفون ذلك فى سالف زماننا ، وكنا نكون لهم على الطاعة إخواناً، وعلى من خالف عنها أعواناً ، يشد بنا العضد ، ويُقام بنا الأوَد ، ونستشار فى القضية ، ونستأمر فى أمر الرعية ، وقد أصبحنا اليوم فى أمور مستحيرة ذات وجوه مستديرة ، تفتح بأزمة الضلال ، وتجلس بأهواء الرجال ، يؤكل جزورها [١] ، وتمق أحلابها [٢] فما لنا لا نستأمر فى رضاعها [٣] ونحن فطامها وأولات فطامها ؟ وايم الله لولا عهود مؤكدة ، ومواثيق معقدة، لأقمت أود وليها ، فأقم الأمر يا بن أبى سفيان واهدِئ [٤] من تأميرك الصبيان، واعلم أن لك فى قومك نظراً ، وأن لهم على مناوأتك وزَراً [٥] .

فغضب معاوية من كلامه غضباً شديداً ، ثم كظم غيظة بحلمه ، وأخذ بيد مروان، ثم قال : إن الله قد جعل لكل شىء أصلا ، وجعل لكل خير أهلا ثم جعلك فى الكرم منى محتداً ، والعزيز منى والداً ، اخترت من قروم [٦] قادة ، ثم استلت سيدسادة ، فأنت ابن ينابيع الكرم، فرحباً بك وأهلا من ابن عم ذكرت خلفاً مفقودين ، شهداء صديقين ، كانوا كما نعتّ ، وكنت لهم كما ذكرت ، وقد أصبحنا فى أمور مستحيرة ، ذات وجوه مستديرة ، وبك والله يا ابن العم نرجو استقامة أودها ، وذلولة صعوبتها ، وسفور ظلمتها ، حتى يتطأطأ جسيمها [٧] ، ويركب بك عظيمها ، فأنت نظير أمير المؤمنين بعده ، وفى كلّ شدّة عضده ، وإليك عهد عهده ، فقد وليتك قومك ، وأعظمنا فى الخراج سهمك ، وأنا مجيز [٨] وفدك ، ومحسن رفدك [٩] ، وعلى أمير المؤمنين غناك ، والنزول عند رضاك .

---

(١) يؤكل جزورها : يؤكل لحمها .

(٢) وتُمقّ أحلابها : يشرب لبنها جميعه فلا يترك منه شىء والمراد بالجملتين أن معاوية يستأثر بكل شىء فى الخلافة ولا يترك لمروان منها شيئاً .

(٣) يريد مالك لا تأخذ رأينا فى الخلافة ونحن قادرون على منع درّها عنك .

(٤) أهدئ : أبطئ وتروّ ولا تتسرع .

(٥) الوزر الملجأ والمستعان .

(٦) القروم جمع قرم وهو الشجاع .

(٧) يتطأطأ جسيمها : حتى يذلل صعبها .

(٨) مجيز وفدك : معطيهم جوائز .

(٩) الرفد : العطاء .

فكان أوّل ما رزق ألف دينار فى كلّ هلال ، وفرض له فى أهل بيته مئة مئة .

كراهية أهل المدينة البيعة وردهم لها

قال وذكروا أن معاوية كتب إلى سعيد بن العاص وهو على المدينة ، يأمره أن يدعو أهل المدينة إلى البيعة ، ويكتب إليه بمن سارع ممن لم يسارع . فلما أتى سعيد بن العاص الكتاب ، دعا الناس إلى البيعة ليزيد ، وأظهر الغلظة وأخذهم بالعزم والشدة ، وسطا[1] بكل من أبطأ عن ذلك ، فأبطأ الناس عنها ، إلا اليسير ، لا سيما بنى هاشم ، فإنه لم يجبه منهم أحد ، وكان ابن الزبير من أشد الناس إنكاراً لذلك ، وردّاً له .

فكتب سعيد بن العاص إلى معاوية : أما بعد ، فإنك أمرتنى أن أدعو الناس لبيعة يزيد ابن أمير المؤمنين ، وأن أكتب إليك بمن سارع ممن أبطأ ، وإنى أخبرك أن الناس عن ذلك بطاء[2] ، لا سيما أهل البيت من بنى هاشم ، فإنه لم يجبنى منهم أحد ، وبلغنى عنهم ما أكره وأما الذى جاهر بعداوته ، وإبائه لهذا الأمر ، فعبد الله بن الزبير ، ولست أقوى عليهم إلا بالخيل والرجال أو تقدم بنفسك ، فترى رأيك فى ذلك ، والسلام .

فكتب معاوية إلى عبد الله بن عباس ، وإلى عبد الله بن الزبير ، وإلى عبد الله بن جعفر ، وإلى الحسين بن على ، رضى الله عنهم كتباً ، وأمر سعيد بن العاص أن يوصلها إليهم ، ويبعث بجواباتها .

كتاب معاوية إلى سعيد بن العاص

كتب إلى سعيد بن العاص ، أما بعد ، فقد أتانى كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه من إبطاء الناس عن البيعة . ولا سيما بنى هاشم ، وما ذكر ابن الزبير وقد كتبت إلى رؤسائهم كتباً ، فسلمها إليهم ، وتنجز جواباتها ، وابعث بها إلى ، حتى أرى فى ذلك رأيى ، ولتشتد عزيمتك ، ولتصلب شكيمتك ، وتحسن نيتك . وعليك بالرفق ، وإياك والخرق[3] ، فإن الرفق رشد ، والخرق نكد ، وانظر حسيناً خاصة ، فلا يناله منك مكروه ، فإن له قرابة وحقاً عظيما لا ينكره مسلم ولا مسلمة ، وهو ليث عرين ، ولست آمنك إن شاورته أن لا تقوى عليه ، فأما من

---

(١) سطا بهم : نكل بهم وعاقبهم .
(٢) بطاء بكسر الباء : جمع بطىء .
(٣) الخرق : الحمق وعدم الرويّة .

يرد مع السباع إذا وردت ، ويكلس إذا كنست[1] ، فذلك عبد الله بن الزبير ، فاحذره أشد الحذر ، ولا قوة إلا بالله ، وأنا قادم عليك إن شاء الله ، والسلام .

ما كتب به إلى ابن عباس

وكتب إلى ابن عباس : أما بعد ، فقد بلغني إبطاؤك عن البيعة ليزيد بن أمير المؤمنين ، وإني لو قتلتك بعثمان لكان ذلك إليّ ، لأنك ممن ألب عليه وأجلب ، وما معك من أمان فتطمئن به ، ولا عهد فتسكن إليه ، فإذا أتاك كتابي هذا ، فاخرج إلى المسجد ، والعن قتلة عثمان ، وبايع عاملي ، فقد أعذر من أنذر ، وأنت بنفسك أبصر ، والسلام .

ما كتب به إلى عبد الله بن جعفر

وكتب إلى عبد الله بن جعفر : أما بعد ، فقد عرفت أثرتي إياك على من سواك ، وحسن رأيي فيك وفي أهل بيتك ، وقد أتاني عنك ما أكره ، فإن بايعت تشكر وإن تأب تجبر ، والسلام .

ما كتب به إلى الحسين

وكتب إلى الحسين : أما بعد ، فقد انتهت إليّ منك أمور ، لم أكن أظنك بها رغبة عنها ، وإن أحقّ الناس بالوفاء لمن أعطى بيعة من كان مثلك ، في خطرك وشرفك ومنزلتك التي أنزلك الله بها ، فلا تنازع إلى قطيعتك ، واتق الله ، ولا تردنّ هذه الأمة في فتنة ، وانظر لنفسك ودينك وأمة محمد ، ولا يستخفنّك الذين لا يوقنون .

ما كتبه إلى ابن الزبير

وكتب إلى عبد الله بن الزبير :

رأيت كرام الناس إن كف عنهم ... بحلم رأوا فضلا لمن قد تحلما
ولا سيما إن كان عفواً بقـــدرة ... فذلك أحرى أن يجل ويعظما
ولست بذي لوم فتعـــذر بالذي ... أتاه من الأخلاق من كان ألوما
ولكن غشاً لست تعرف غـــيره ... وقد غش قبـل اليوم إبليس آدما

---

(١) يكلس : يأوي إلى كناسه وهو مأواه ومبيته .

فما غش إلا نفسه فى فعـــاله ۞ فأصبح ملعوناً وقد كان مكرما
وإنى لأخشى أن أنالك بالذى ۞ أردت فيجزى الله من كان أظلما

ما أجابه القوم به رضى الله عنهم

فـكان أول ما أجابه عبد الله بن عباس ، فـكتب إليه : أما بعد ، فقد جاءنى كتابك ، وفهمت ما ذكرت ، وأن ليس معى منك أمان ، وإنه والله ما منك يطلب الأمان يا معاوية ، وإنما يطلب الأمان من الله رب العـالمين . وأما قولك فى قتلى ، فوالله لو فعلت للقيت الله ، ومحمد صلى الله عليه وسلم خصمك ، فما إخاله أفلح ولا أنجح من كان رسول الله خصمه . وأما ما ذكرت من أنى ممن ألب فى عثمان وأجلب ، فذلك أمر غبت عنه ، ولو حضرته ما نسبت إلىّ شيئاً من التأليب عليه ، وايم الله ما أرأي أحداً غضب لعثمان غضبى ، ولا أعظم أحد قتله إعظامى، ولو شهدته لنصرته، أو أموت دونه ، ولقد قلت وتمنيت يوم قتل عثمان : «ليت الذى قتل عثمان لقينى فقتلنى معه ، ولا أبقى بعده» وأما قولك لى : العن قتلة عثمان ، فلعثمان ولد وخاصة وقرابه ، هم أحق بلعنهم منى ، فإن شاءوا أن يلعنوا فليلعنوا ، وإن شاءوا أن يمسكوا فليمسكوا ، والسلام .

وكتب إليه عبد الله بن جعفر : أما بعد ، فقد جاءنى كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه من أثرتك إياى على من سواى ، فإن تفعل فبحظك أصبت ، وإن تأب فبنفسك قصرت . وأما ما ذكرت من جبرك إياى على البيعة ليزيد ، فلعمرى لئن أجبرتنى عليها لقد أجبرناك وأباك على الإسلام ، حتى أدخلناكما كارهين غير طائعين ، والسلام.

وكتب إليه عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما :

ألا سمع الله الذى أنا عبده ۞ فأخزى إله الناس من كان أظلما
وأجرا على الله العظيم بحلمه ۞ وأسرعهم فى الموبقات تقحما
أغرك أن قالوا حـليم بغرة ۞ وليس بذى حـلم ولـكن تحلما
ولو رمت ما إن قد زعمت وجدتنى ۞ هزبر عرين يترك القرن أكتما
وأقسم لولا بيعة لك لم أكن ۞ لأنقضها لم تنـج منى مسلما

وكتب إليه الحسين رضى الله عنه : أما بعد ، فقد جاءنى كتابك تذكر فيه أنه انتهت إليك عنى أمور ؛ لم تـكن تظننى بها ، رغبة بى عنها ، وإن الحسنات لا يهدى لها ، ولا يسدد

إليها إلا الله تعالى ، وأما ماذكرت أنه رقى إليك عنى ،فإنما رقّاه الملاقون ، المشاءون بالنّميمة ، المفرقون بين الجمع ، وكذب الغاوون المارقون ، ما أردت حرباً ولا خلافاً ، وإنى لأخشى الله فى ترك ذلك . منك ومن حزبك ، القاسطين المحلّين ، حزب الظالم ، وأعوان الشيطان الرجيم . ألست قاتل حجر ، وأصحابه العابدين المخبتين ، الذين كانوا يستفظعون البدع ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، فقتلتهم ظلماً وعدواناً ، من بعد ما أعطيتهم المواثيق الغليظة ، والعهود المؤكدة ، جراءة على الله واستخفافا بعهده ، أو لست بقاتل عمرو بن الحمق ، الذي أخلقت وأبلت وجهه العبادة ، فقتلته من بعد ما أعطيته من العهود ما لو فهمته العصم[١] نزلت من شعف[٢] الجبال ، أو لست المدعى زياداً فى الإسلام[٣] ، فزعمت أنه ابن أبى سفيان ، وقد قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الولد للفراش[٤] وللعاهر الحجر[٥] ، ثم سلطته على أهل الإسلام ، يقتلهم ويقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، ويصلبهم على جذوع النخل ، سبحان الله يا معاوية ! لكأنك لست من هذه الأمة ، وليسوا منك . أو لست قاتل الحضرمى الذى كتب إليك فيه زيادة أنه على دين على كرم الله وجهه ، ودين على هو دين ابن عمه صلى الله عليه وسلم ، الذى أجلسك مجلسك الذى أنت فيه ، ولولا ذلك كان أفضل شرفك وشرف آبائك تجشم الرحلتين : رحلة الشتاء والصيف[٦] ، فوضعها الله عنكم بنا ، منّة عليكم ، وقلت فيما قلت : لا ترد هذه الأمة فى فتنة ، وإنى لا أعلم لها فتنة أعظم من إمارتك عليها ، وقلت فيما قلت : انظر لنفسك ولدينك ولأمة محمد ، وإنى والله ما أعرف أفضل من جهادك ، فإن أفعل فإنه قربة إلى ربي ، وإن لم أفعله فأستغفر الله لدينى ، وأسأله التوفيق لما يحب ويرضى ،

---

(١) العصم جمع أعصم وهى الوعول التى تعتصم بأعلى الجبال .

(٢) شعف الجبال . قننها وأعاليها .

(٣) زياد . هو زياد بن أبيه ، كان أبو سفيان والد معاوية قد أنكر أنه ابنه وادعى أن زوجته أتت به من سفاح وكان ذلك فى الجاهلية فسمى زياد بن أبيه لأنه لايعلم له أب فألحقه معاوية بأبيه وجعله أخاه وسماه زياد بن أبى سفيان واستعان به على المسلمين كما ذكر الحسين رضى الله عنه .

(٤) أى ينسب لأمه لأنها هى الفراش .

(٥) العاهر : الزانى والزانية لهما الرجم بالحجارة ، أو المعنى العاهر الزانى له الرجم ولا ينسب له الولد .

(٦) يريد كان أكبر شرفك أن تتاجر كما كان يتاجر أبوك فتذهب فى الشتاء والصيف إلى الشام وإلى اليمن للتجارة .

وقلت فيا قلت : متى تكدنى أكدك ، فكدنى يا معاوية فيا بدا لك ، فلعمرى لقديماً يكاد الصالحون ، وإنى لأرجو أن لا تضر إلا نفسك ، ولا تمحق إلا عملك ، فكدنى ما بدا لك ، واتق الله يا معاوية ، واعلم أن لله كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . واعلم أن الله ليس بناس لك قتلك بالظنة ، وأخذك بالتهمة ، وإمارتك صبياً يشرب الشراب[1] ، ويلعب بالكلاب ، ما أراك إلا وقد أوبقت نفسك ، وأهلكت دينك ، وأضعت الرعية والسلام .

قدوم معاوية المدينة على هؤلاء القوم
وما كان بينهم من المنازعة

قال وذكروا أنه لما وجاوب القوم معاوية بما جاوبوه ، من الخلاف لأمره ، والكراهية لبيعته ليزيد ، كتب إلى سعيد بن العاص ، يأمره أن يأخذ أهل المدينة بالبيعة ليزيد ، أخذاً بغلظة وشدة ، ولا يدع أحداً من المهاجرين والأنصار وأبنائهم حتى يبايعوا ، وأمره أن لا يحرك هؤلاء النفر ، ولا يهيجهم . فلما قدم عليه كتاب معاوية أخذهم بالبيعة أعنف ما يكون من الأخذ وأغلظه ، فلم يبايعه أحد منهم . فكتب إلى معـــاوية : إنه لم يبايعنى احد ، وإنما الناس تبع لهؤلاء النفر ، فلو بايعوك بايعك الناس جميعاً ، ولم يتخلف عنك احد . فكتب إليه معاوية يأمره أن لا يحركهم إلى أن يقدم،فقدم معاوية المدينة حاجاً ، فلما أن دنا من المدينة خرج إليه الناس يتلقونه، ما بين راكب وماش ، وخرج النساء والصبيان،فلقيه الناس على حال طاقتهم وما تسارعوا به فى الفوت والقرب ، فلان لمن كافحه ، وفاوض العامة بمحادثته وتألفهم جهده ، مقاربة ومصانعة ، ليستميلهم إلى ما دخل فيه الناس ، حتى قال فى بعض ما يجتلبهم به : يا أهل المدينة ما زلت أطوى الحزن من وعثاء السفر بالحب لمطالعتكم ، حتى انطوى البعيد ، ولان الخشن ، وحق لجار رسول الله أن يتاق إليه .

فرد عليه القوم : بنفسك ودارك ومهاجرك ، أما إن لك منهم كإشفاق الحميم البر[2] ، والحفى المتعاهد .

---

(١) يريد بالصبى إبنه يزيد ومعنى يشرب الشراب أنه يعاقر الخمر وكان يعلن بها ، ويلعب بالكلاب أى يصطاد بها ويسلط بعضها على بعض فتتهارش . فكان همه الشراب والقنص .

(٢) الحميم : الصديق ، والبر المخلص فى صداقته ، والحفى : القريب الذى يحترم صاحبه ويحتفل به والمتعاهد : الذى يداوم الحفاوة .

قال : حتى إذا كان بالجرف لقيه الحسين بن على ، وعبد الله بن عباس ، فقال معاوية : مرحباً بابن بنت رسول الله وابن صنو أبيه ، ثم انحرف إلى الناس ، فقال : هذان شيخا بنى عبد مناف ، وأقبل عليهما بوجهه وحديثه ، فرحب وقرب ، وجعل يواجه هذا مرة ، ويضاحك هذا أخرى ، حتى ورد المدينة ، فلما خالطها لقيته الشاة والنساء والصبيان ، يسلمون عليه ويسايرونه إلى أن نزل ، فانصرفا عنه فمال الحسين إلى منزله ، ومضى عبد الله بن عباس إلى المسجد فدخله .

وأقبل معاوية ومعه خلق كثير من أهل الشام ، حتى أتى عائشة أم المؤمنين فاستأذن عليها فأذنت له وحده ، ولم يدخل عليها معه أحد ، وعندها مولاها ذكوان . فقالت عائشة : يا معاوية ، أكنت تأمن أن أقعد لك رجلاً فأقتلك كما قتلت أخى محمد بن أبى بكر ؟ فقال معاوية : ما كنت لتفعلى ذلك ، قالت : لم ؟ قال : لأنى فى بيت آمن ، بيت رسول الله . ثم إن عائشة حمدت الله وأثنت عليه ، وذكرت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكرت أبا بكر وعمر ، وحضته على الاقتداء بهما ، والاتباع لأثرهما ، ثم صمتت . قال : فلم يخطب معاوية ، وخاف أن لا يبلغ ما بلغت ، فارتجل الحديث ارتجالا ، ثم قال : أنت — والله يا أم المؤمنين — العالمة بالله وبرسوله ، دللتنا على الحق ، وحضضتنا على حظ أنفسنا ، وأنت أهل لأن يطاع أمرك ، ويسمع قولك ، وإن أمر يزيد قضاء من القضاء ، وليس للعباد الخيرة من أمرهم ، وقد أكد الناس بيعتهم فى أعناقهم ، وأعطوا عهودهم على ذلك ومواثيقهم ، أفترين أن ينقضوا عهودهم ومواثيقهم ؟ فلما سمعت ذلك عائشة علمت أنه سيمضى على أمره ، فقالت : أما ما ذكرت من عهود ومواثيق ، فاتق الله فى هؤلاء الرهط ، ولا تعجل فيهم ، فلعلّهم لا يصنعون إلا ما أحببت ، ثم قام معاوية ، فلما قام قالت عائشة : يا معاوية ، قتلت حجراً وأصحابه العابدين المجتهدين . فقال معاوية . دعى هذا ، كيف أنا فى الذى بينى وبينك فى حوائجك ؟ قالت : صالح ، قال : فدعينا وإياهم حتى نلقى ربنا ، ثم خرج ومعه ذكوان ، فاتكأ على يد ذكوان ، وهو يمشى ويقول : تالله إن رأيت كاليوم قط خطيباً أبلغ من عائشة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم مضى حتى أتى منزله . فأرسل إلى الحسين بن على ، فخلا به ، فقال له : يابن أخى ، قد استوثق الناس لهذا الأمر ، غير خمسة نفر من قريش ، أنت تقودهم يابن أخى ، فما أربك إلى الخلاف ؟ قال الحسين : أرسل إليهم ، فإن بايعوك كنت رجلاً منهم ، وإلا لم تكن عجلت على بأمر . قال : وتفعل ؟ قال : نعم ، قال : فأخذ عليه أن لا يخبر بحديثهما أحداً ، فخرج ، وقد

أقعد له ابن الزبير رجلاً بالطريق ، فقال : يقول لك أخوك ابن الزبير : ما كان ؟ فلم يزل به حتى استخرج منه شيئاً . قال : ثم أرسل معاوية بعده إلى ابن الزبير ، فخلا به . فقال له : قد استوثق الناس لهذا الأمر ، غير خمسة نفر من قريش أنت تقودهم ، يا بن أخى ، فما أربك إلى الخلاف ؟ قال : فأرسل إليهم ، فإن بايعوك كنت رجلاً منهم ، وإلا لم تكن عجلت على بأمر . قال : وتفعل ؟ قال : نعم . فأخذ عليه أن لا يخبر بحديثهما أحداً . قال : فأرسل بعده إلى ابن عمر ، فأتاه وخلا به ، فكلمه بكلام هو ألين من صاحبيه وقال : إني كرهت أن أدع أمة محمد بعدى كالضأن لا راعى لها ، وقد استوثق الناس لهذا الأمر غير خمسة نفر أنت تقودهم ، لما أربك إلى الخلاف ؟ قال ابن عمر : هل لك فى أمر تحقن به الدماء وتدرك به حاجتك ؟ فقال معاوية : وددت ذلك ، فقال ابن عمر : تبرز سريرك ، ثم أجىء فأبايعك ، على أنى بعدك أدخل فيما اجتمعت عليه الأمة ، فوالله لو أن الأمة اجتمعت بعدك على عبد حبشى لدخلت فيما تدخل فيه الأمة . قال : وتفعل ؟ قال : نعم . ثم خرج وأرسل إلى عبد الرحمن ابن أبى بكر ، فخلا به . قال : بأى يد أو رجل تقدم على معصيتى ؟ فقال عبد الرحمن : أرجو أن يكون ذلك خيراً لى ، فقال معاوية : والله لقد هممت أن أقتلك ، فقال : لو فعلت لأتبعك الله فى الدنيا ، ولأدخلك به فى الآخرة النار ، قال: ثم خرج عبد الرحمن بن أبى بكر ، وبقى معاوية يومه ذلك يعطى الخواص ، ويعصى مذمة الناس .

فلما كان صبيحة اليوم الثانى ، أمر بفراش فوضع له ، وسويت مقاعد الخاصة حوله وتلقاءه من أهله ، ثم خرج وعليه حلة يمانية ، وعمامة دكناء ، وقد أسبل طرفها بين كتفيه ، وقد تغلى(١) وتعطر ، فقعد على سريره ، وأجلس كتابه منه بحيث يسمعون ما يأمر به ، وأمر حاجبه أن لا يأذن لأحد من الناس وإن قرب ، ثم أرسل إلى الحسين بن على ، وعبدالله بن عباس ، فسبق ابن عباس ، فلما دخل وسلم أقعده فى الفراش عن يساره ، فحادثه ملياً ، ثم قال يا بن عباس ؛ لقد وفر الله حظكم من مجاورة هذا القبر الشريف ، ودار الرسول عليه الصلاة والسلام . فقال ابن عباس : نعم أصلح الله أمير المؤمنين ، وحظنا من القناعة بالبعض ، والتجافى عن الكل أوفر ، فجعل معاوية يحدثه ويحيد به عن طريق المجاوبة ، ويعدل إلى ذكر الأعمار على اختلاف الغرائز والطبائع ، حتى أقبل الحسين بن على ؛ فلما رآه معاوية جمع له وسادة كانت على يمينه ، فدخل الحسين وسلم ، فأشار إليه ، فأجلسه عن يمينه مكان الوسادة فسأله معاوية عن حال بنى أخيه الحسن وأسنانهم ، فأخبره ، ثم سكت . قال : ثم ابتدأ معاوية

(١) تغلّى : تضمخ بالغالية وهى من أعظم أنواع المسك .

فقال : أما بعد ، فالحمد لله ولى النعم ، ومنزل النقم ، وأشهد أن لا إله إلا الله المتعالى عما يقول الملحدون علواً كبيراً ، وأن محمداً عبده المختص المبعوث إلى الجن والإنس كافة ، لينذرهم بقرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد . فأدى عن الله ، وصدع بأمره ، وصبر على الأذى فى جنبه ، حتى وضح دين الله ، وعز أولياؤه ، وقمع المشركون ، وظهر أمر الله وهم كارهون ؛ فمضى صلوات الله عليه ، وقد ترك من الدنيا ما بذل له ، واختار منها الترك لما سخر له ، زهادة واختياراً لله ، وأنفة واقتداراً على الصبر ، بغياً لما يدوم ويبقى ؛ فهذه صفة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم خلفه رجلان محفوظان ، وثالث مشكور ، وبين ذلك خوض طال ما عالجناه مشاهدة ومكافحة ومعاينة وسماعاً ، وما أعلم منه فوق ما تعلمان ؛ وقد كان من أمر يزيد ما سبقتم إليه وإلى تجويزه ، وقد علم الله ما أحاول به فى أمر الرعية ، من سد الخلل ، ولمّ الصدع بولاية يزيد بما أيقظ العين ، وأحمد الفعل ، هذا معناى فى يزيد ، وفيكما فضل القرابة ، وحظوة العلم ، وكمال المروءة ، وقد أصبت من ذلك عند يزيد على المناظرة والمقابلة ، ما أعيانى مثله عندكما ، وعند غيركما ، مع علمه بالسنة ، وقراءة القرآن ، والحلم الذى يرجح بالصم الصلاب ، وقد علمتما أن الرسول المحفوظ بعصمة الرسالة ، قدم على الصديق والفاروق ، ومن دونهما من أكابر الصحابة ، وأوائل المهاجرين يوم غزوة السلاسل ، من لم يقارب القوم ولم يعاندهم برتبة فى قرابة موصولة . ولا سنة مذكورة ، فقادهم الرجل بأمره ، وجمع بهم صلاتهم ، وحفظ عليهم فيئهم ، وقال فلم يقل معه ، وفى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة ، فمهلاً بنى عبد المطلب ، فأنا وأنتم شعبا نفع وجد ، وما زلت أرجو الإنصاف فى اجتماعكما ، فما يقول القائل إلا بفضل قولكما ، فردا على ذى رحم مستعتب ما يحمد به البصيرة فى عتابكما ، وأستغفر الله لى ولكما .

قال : فتيسر ابن عباس للكلام ، ونصب يده للمخاطبة ، فأشار إليه الحسين وقال : على رسلك ، فأنا المراد ، ونصيبى فى التهمة أوفر ، فأمسك ابن عباس ، فقام الحسين ، فحمد الله ، وصلى على الرسول ثم قال : أما بعد يا معاوية، فلن يؤدى القائل ، وإن أطنب فى صفة الرسول صلى الله عليه وسلم من جميع جزءا ، وقد فهمت ما لبست به الخلف بعد رسول الله من إيجاز الصفة والتنكب عن استبلاغ النعت ، وهيهات هيهات يامعـــاوية : فضح الصبح فحمة الدجى ، وبهرت الشمس أنوار السرج ، ولقد فضلت حتى أفرطت ، واستأثرت حتى أجحفت ، ومنعت حتى محلت ، وجزت حتى جاوزت ما بذلت لذي حقّ من اسم حقه بنصيب ، حتى أخذ الشيطان حظه الأوفر ، ونصيبه الأكمل ، وفهمت ما ذكرته عن يزيد من اكتماله ، وسياسته لأمة محمد ، تريد أن توهم الناس فى يزيد ، كأنك تصف محجوباً ، أو تنعت

غائباً ، أو تخبر عما كان مما احتويته بعلم خاص ، وقد دل يزيد من نفسه على موقع رأيه فخذ ليزيد فيما أخذ فيه،من استقرائه الـكلاب المهارشة عند التهارش،والحمام السّبق لأترابهن،والقيان ذوات المعازف وضرب الملاهى تجده باصرا ، ودع عنك ما تحاول ، فما أغناك أن تلقى الله من وزر هذا الخلق بأكثر مما أنت لاقيه ، فوالله مابرحت تقدح باطلا فى جوْر ، وحنقا فى ظلم حتى ملأت الأسقية(١) وما بينك وبين الموت إلا غمضة ، فتقدم على عمل محفوظ ، فى يوم مشهود ، ولات حين مناص ، ورأيناك عرضت بنا بعد هذا الأمر ، ومنعتنا عن آبائنا تراثا ، ولقد ـ لعمر الله ـ أورثنا الرسول عليه الصلاة والسلام ولادة وجئت لنا بها ، أما حججتم به القائم عند موت الرسول ، فأذعن للحجة بذلك ، ورده الإيمان إلى النصف ، فركبتم الأعاليل ، وفعلتم الأفاعيل ، وقلتم كان ويكون ، حتى أتاك الأمر يامعاوية من طريق كان قصدها لغيرك ، فهناك فاعتبروا يا أولى الأبصار،وذكرت قيادة الرجل القوم بعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأميره له ، وقد كان ذلك ، ولعمرو بن العاص يومئذ فضيلة بصحبة الرسول ، وبيعته له ، وما صار ـــ لعمر الله ـــ يومئذ مبعثُهم حتى أنف القوم إمرته ، وكرهوا تقديمه، وعدوا عليه أفعاله ، فقال صلى الله عليه وسلم : لاجرم معشر المهاجرين ، لايعمل عليـكم بعد اليوم غيرى . فكيف تحتج بالمنسوخ من فعل الرسول ، فى أوكد الأحكام ، وأولاها بالمجمع عليه من الصواب ؟ أم كيف صاحبت بصاحب تابعا ، وحولك من لايؤمَن فى صحبته ، ولا يعتمد فى دينه وقرابته ، وتتخطاهم إلى مسرف مفتون ، تريد أن تلبس الناس شبهة يسعد بها الباقى فى دنياه ، وتشقى بها فى آخرتك . إن هذا لهو الخسران المبين . وأستغفر الله لى ولـكم .

قال ؟ فنظر معاوية إلى ابن عباس فقال : ما هذا يا بن عباس ؟ ولما عندك أدهى وأمرّ . فقال ابن عباس: لعمر الله إنها لذرّية الرسول ، وأحد أصحاب الـكساء ، وفى البيت المطهر ، فالهُ عما تريد ، فإن لك فى الناس مقنعا ، حتى يحـكم الله بأمره وهو خير الحاكمين . فقال معاوية : أعوَد الحلم التحلم ، قال : وخيره التحلم عن الأهل . انصرفا فى حفظ الله ، ثم أرسل معاوية إلى عبد الرحمن ابن أبى بكر ، وإلى عبد الله بن عمر ، وإلى عبد الله بن الزبير ، فجلسوا ، فحمد الله وأثنى عليه معاوية ثم قال : ياعبد الله بن عمر قد كنت تحدثنا أنك لاتحب أن تبيت ليلة وليس فى عنقك بيعة جماعة وأن لك الدنيا وما فيها ، وإنى أحذرك أن تشق عصا المسلمين ، وتسعى فى تفريق ملئهم ، وأن تسفك دماءهم ، وإن أمر يزيد قد كان قضاءً من

---

(١) الأسقية جمع سقاء وهو القربة ، والمراد أنك تكلمت كثيراً حتى ملأت الأوعية من كثرة كلامك .

القضاء ، وليس للعباد خيرة من أمرهم ، وقد وكد الناس بيعتهم فى أعناقهم ، وأعطوا على ذلك عهودهم ومواثيقهم ، ثم سكت .

فتكلم عبدالله بن عمر ، فحمد الله وأثنى عليه . ثم قال : أما بعد يامعاوية ، لقد كانت قبلك خلفاء ، وكان لهم بنون ، ليس ابنك بخير من أبنائهم ، فلم يروا فى أبنائهم ما رأيت فى ابنك . فلم يحابوا فى هذا الأمر أحدا ، ولكن اختاروا لهذه الأمة حيث علموهم ، وإنك تحذرنى أن أشق عصا المسلمين ، وأفرّق ملأهم . وأسفك دماءهم ، ولم أكن لأفعل ذلك إن شاء الله، ولكن إن استقام الناس فسأدخل فى صالح ما تدخل فيه أمة محمد . فقال معاوية : يرحمك الله ليس عندك خلاف . ثم قال معاوية لعبد الرحمن بن أبى بكر نحو ما قاله لعبد الله بن عمر . فقال له عبد الرحمن : إنك والله لوددت أنا نكلك إلى الله فيما جسرت عليه من أمر يزيد ، والذى نفسى بيده لنجعلنها شورى ، أو لأعيدنها جذعة ، ثم قام ليخرج ، فتعلق معاوية بطرف ردائه . ثم قال : على رسلك ، اللهم اكفنيه بما شئت ، ثم قال له : لا تظهرن لأهل الشام ، فإنى أخشى عليك منهم . ثم قال لابن الزبير ، نحو ما قاله لابن عمر . ثم قال له : أنت ثعلب روّاغ ، كلما خرجت من جحر انجحرت فى آخر ، أنت ألّبت هذين الرجلين ، وأخرجتهما إلى ما خرجا إليه . فقال ابن الزبير . أتريد أن تبايع ليزيد ؟ أرأيت إن بايعناه أيكما نطيع ، أنطيعك أم نطيعه ؟ إن كنت مللت الخلافة فاخرج منها وبايع ليزيد ، فنحن نبايعه ، فكثر كلامه وكلام ابن الزبير ، حتى قال له معاوية فى بعض كلامه : والله ما أراك إلا قاتلا نفسك ، ولكأنى بك قد تخبطت فى الحبالة . ثم أمرهم بالانصراف ، واحتجب عن الناس ثلاثة أيام لا يخرج .

ثم خرج ، فأمر المنادى أن ينادى فى الناس ، أن يجتمعوا لأمر جامع فاجتمع الناس فى المسجد ، وقعد هؤلاء حول المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه . ثم ذكر يزيد وفضله ، وقراءته القرآن ، ثم قال : يا أهل المدينة ، لقد هممت ببيعة يزيد ، وما تركت قرية ولا مدرة إلا بعثت إليها فى بيعته ، فبايع الناس جميعاً ، وسلّموا ، وأخرت المدينة بيعته ، وقلت بيضته وأصله ، ومن لا أخافهم عليه ، وكان الذين أبوا البيعة منهم من كانوا أجدر أن يصله ، ووالله لو علمت مكان أحد هو خير للمسلمين من يزيد لبايعت له ، فقام الحسين فقال : والله لقد تركت من هو خير منه أبا وأما ونفسا ، فقال معاوية : كأنك تريد نفسك ؟ فقال الحسين : نعم ، أصلحك الله . قال معاوية : إذاً أخبرك ، أما قولك : خير منه أما ، فلعمرى : أمك خير من أمه ، ولو لم تكن إلا أنها امرأة من قريش لكان لنساء قريش فضلهن ، فكيف وهى ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ثم فاطمة فى دينها وسابقتها ، فأمك لعمر الله خير من أمه ، وأما أبوك فقد حاكم أباه

إلى الله ، فقضى لأبيه على أبيك . فقال الحسين : حسبك جهلك ، آثرت العاجل على الآجل . فقال معاوية : وأما ما ذكرت من أنك خير من يزيد نفسا ، فيزيد والله خير لأمة محمد منك . فقال الحسين : هذا هو الإفك والزور ، يزيد شارب الخمر ، ومشترى اللهو خير منى ؟ فقال معاوية : مهلا عن شتم ابن عمك ، فإنك لو ذكرت عنده بسوء لم يشتمك . ثم التفت معاوية إلى الناس وقال : أيها الناس ، قد علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض ، ولم يستخلف أحداً، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر ، وكانت بيعته بيعة هدى ، فعمل بكتاب الله وسنة نبيه ، فلما حضرته الوفاة ، رأى أن يستخلف عمر ، فعمل عمر بكتاب الله ، وسنة نبيه ، فلما حضرته الوفاة رأى أن يجعلها شورى بين ستة نفر ، اختارهم من المسلمين ، فصنع أبو بكر ما لم يصنعه رسول الله ، وصنع عمر ما لم يصنعه أبو بكر ، كل ذلك يصنعونه نظراً للمسلمين ، فلذلك رأيت أن أبايع ليزيد لما وقع الناس فيه من الاختلاف ، ونظراً لهم بعين الإنصاف .

ما قال عبد الله بن الزبير لمعاوية

قال : وذكروا أن عبد الله بن الزبير قام إلى معاوية فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض،فترك الناس إلى كتاب الله ، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر ، ثم رأى أبو بكر أن يستخلف عمر ، وهو أقصى قريش منه نسبا ، ورأى عمر أن يجعلها شورى بين ستة نفر اختارهم من المسلمين ، وفى المسلمين ابنه عبد الله ، وهو خير من ابنك ، فإن شئت أن تدع الناس على ما تركهم رسول الله ، فيختارون لأنفسهم ، وإن شئت أن تستخلف من قريش كما استخلف أبو بكر خير من يعلم ، وإن شئت أن تصنع مثل ما صنع عمر ، تختار رهطا من المسلمين ، وتزويها عن ابنك ، فافعل .

فنزل معاوية عن المنبر،وانصرف ذاهبا إلى منزله،وأمر من حرسه وشرطته قوما أن يحضروا هؤلاء النفر الذين أبوا البيعة،وهم الحسين بن علىّ،وعبدالله بن عمر،وعبد الله بن الزبير،وعبد الله بن عباس،عبدالرحمن بن أبى بكر،وأوصاهم معاوية فقال : إنى خارج العشية إلى أهل الشام ، فأخبرهم أن هؤلاء النفر قد بايعوا وسلموا ، فإن تكلم أحد منهم بكلام يصدقنى أو يكذّبنى فيه ، فلا ينقضى كلامه حتى يطير رأسه ، فحذر القوم ذلك ، فلما كان العشىّ، خرج معاوية ، وخرج معه هؤلاء النفر ، وهو يضاحكهم ، ويحدثهم ، وقد ألبسهم الحلل ، فألبس ابن عمر حلة حمراء، وألبس الحسين حلة صفراء ، وألبس عبد الله بن عباس حلة خضراء ، وألبس ابن الزبير حلة يمانية . ثم خرج بينهم ، وأظهر لأهل الشام الرضا عنهم : أى القوم ، وأنهم بايعوا ، فقال :

يأهل الشام إن هؤلاء النفر دعاهم أمير المؤمنين ، فوجدهم واصلين مطيعين ، وقد بايعوا وسلموا ! قال ذلك : والقوم سكوت ولم يتكلموا شيئا حذر القتل ، فوثب أناس من أهل الشام فقالوا : يا أمير المؤمنين إن كان رابك منهم ريب ، فخل بيننا وبينهم ، حتى نضرب أعناقهم . فقال معاوية : سبحان الله ! ما أحل دماء قريش عندكم يا أهل الشام . لا أسمع لهم ذا كرا بسوء ، فإنهم قد بايعوا وسلموا ، وارتضونى فرضيت عنهم ، رضى الله عنهم .

ثم ارتحل معاوية راجعا إلى مكة ، وقد أعطى الناس أعطياتهم ، وأجزل العطاء ، وأخرج إلى كل قبيلة جوائزها وأعطياتها ، ولم يخرج لبنى هاشم جائزة ولا عطاء . فخرج عبد الله ابن عباس فى أثره حتى لحقه بالروحاء ، فجلس ببابه ، فجعل معاوية يقول : من بالباب ؟ فيقال : عبد الله بن عباس ؟ فلم يأذن لأحد . فلما استيقظ قال : من بالباب ؟ فقيل : عبدالله بن عباس ، فدعا بدابته، فأدخلت إليه ، ثم خرج راكبا، فوثب إليه عبدالله بن عباس ، فأخذ بلجام البغلة ، ثم قال : أين تذهب ؟ قال : إلى مكة ، قال : فأين جوائزنا كما أجزت غيرنا ، فأومأ إليه معاوية ، فقال : والله مالكم عندى جائزة ولا عطاء حتى يبايع صاحبكم . قال ابن عباس : فقد أبى ابن الزبير فأخرجت جائزة بنى أسد ، وأبى عبد الله بن عمر ، فأخرجت جائزة بنى عدى ، فمالنا إن أبى صاحبنا ، وقد أبى صاحب غيرنا ؟ فقال معاوية : لستم كغيركم ، لا والله لا أعطيكم درهما حتى يبايع صاحبكم. فقال ابن عباس : أما والله لئن لم تفعل لألحقن بساحل من سواحل الشام ، ثم لأقولن ما تعلم ، والله لأتركنهم عليك خوارج. فقال معاوية . لا ، بل أعطيكم جوائزكم ، فبعث بها من الروحاء ومضى راجعا إلى الشام ، فلم يلبث إلا قليلا ، حتى توفى عبد الرحمن بن أبى بكر فى نومة نامها رحمه الله .

ما قال سعيد بن عثمان بن عفان لمعاوية

قال : فلما قدم معاوية الشام ، أتاه سعيد بن عثمان بن عفان ، وكان شيطان قريش ولسانها . قال : يا أمير المؤمنين علام تبايع ليزيد وتتركنى ؟ فوالله لتعلم أن أبى خير من أبيه ، وأمى خير من أمه ، وأنا خير منه ، وأنك إنما نلت ما أنت فيه بأبى ، فضحك معاوية وقال : يا بن أخى أما قولك :إن أباك خير من أبيه ، فيوم من عثمان خير من معاوية ، وأما قولك : إن أمك خيرمن أمه ، ففضل قرشية على كلبية فضل بيّن ، وأما أن أكون نلت ما أنا فيه بأبيك ، فإنما هو الملك يؤتيه الله من يشاء ، قتل أبوك رحمه الله ، فتواكلته بنو العاصى[1]،وقامت فيه بنو حرب ، فنحن أعظم بذلك منة عليك ، وأما أن تكون خيرا من يزيد ، فوالله ما أحب أن دارى مملوءة رجالا مثلك بيزيد ، ولكن دعنى من هذا القول ، وسلنى أعطك . فقال

(١) تواكلته بنو العاص : تركت القصاص من قتلته .

سعيد بن عثمان : يا أمير المؤمنين ، لايعدم يزيد مركبا ما دمت له ، وما كنت لأرضى ببعض حق دون بعض ، فإذا أبيت فأعطنى مما أعطاك الله . فقال معاوية : لك خراسان . قال سعيد : وما خراسان ؟ قال : إنها لك طعمة وصـلة رحم ، فخرج راضيا ، وهو يقـول :

ذكرت أمـير المؤمنين وفضله فقلت جزاه الله خيرا بما وصل
وقد سبقت منى إليـه بوادر من القول فيه آفـة العقل والزلل
فعاد أمـير المؤمنين بفضله وقد كان فيه قبل عودته مَيل
وقال خراسان لك اليوم طعمة فجوزى أمير المؤمنين بما فعل
فلو كان عثمان الغـداة مكانه لما نالنى من ملـكه فوق ما بذل

فلما انتهى قوله إلى معاوية ، أمر يزيد أن يزوّده ، وأمر إليه بخلعـة ، وشيعه فرسخا .

قدوم أبى الطفيل على معاوية

قال : وذكروا أنه لم يكن أحد أحب إلى معاوية أن يلقاه من أبى الطفيل الـكنانى ، وهو عامر بن واثلة،وكان فارس أهل صفين ، وشاعرهم ، وكان من أخص الناس بعلي كرم الله وجهه ، فقدم أبو الطفيل الشام يزور ابن أخ له من رجال معاوية ، فأخبر معاوية بقدومه ، فأرسل إليه ، فأتاه وهو شيخ كبير ، فلما دخل عليه ، قال له معاوية : أنت أبو الطفيل عامر ابن واثلة ؟ قال : نعم . قال معاوية : أكنت ممن قتل عثمان أمير المؤمنين ، قال : لا ، ولـكن ممن شهده فلم ينصره ، قال : ولم ؟ قال : لم ينصره المهاجرون والأنصار ، فقال معاوية : أما والله إن نصرته كانت عليهم وعليك حقا واجبا ، وفرضا لازما ، فإذ ضيعتموه فقد فعل الله بكم ما أنتم أهله ، وأصاركم إلى ما رأيتم ، فقال أبو الطفيل : فما منعك يا أمير المؤمنين ، إذ تربصت به ريب المنون أن تنصره ومعك أهل الشـام ؟ قال معاوية : أو ما ترى طلبى لدمه ، فضحك أبو الطفيل وقال : بلى ، ولـكنى وإياك كما قال عبيد بن الأبرص :

لا أعرفنّك بعد الموت تندبنى وفى حياتى ما زوّدتنى زادى

فدخل مروان بن الحـكم ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحـكم ، فلما جلسوا نظر إليهم معاوية ، ثم قال : أتعرفون هذا الشيخ ؟ قالوا : لا ، فقال معاوية : هذا خليل على بن أبى طالب وفارس صفّين ، وشاعر أهل العراق ، هذا أبو الطفيل . قال سعيد بن العاص : قد

(١) الميل : بفتح الميم والياء : الاعوجاج وعدم الاستقامة .

عرفناه يا أمير المؤمنين ، فما يمنعك منه ؟ وشتمه القوم ، فزجرهم معاوية وقال: مهلا ، فرب يوم ارتفع عن الأسباب قد ضقتم به ذرعا، ثم قال : أتعرف هؤلاء يا أبا الطفيل ؟ قال : ما أنكرهم من سوء ، ولا أعرفهم بخير ، وأنشد :

فإن تكن العداوة قد أُكِنّت فشر عداوة المرء السِّباب

فقال معاوية : يا أبا الطفيل ، ما أبقى لك الدهر من حب علي ؟ قال : حب أم موسى ، وأشكو إلى الله التقصير ، فضحك معاوية ، قال : ولكن والله هؤلاء الذين حولك لو سئلوا عني ما قالوا هذا . فقال مروان : أجل ، والله لا نقول الباطل . قال : ثم جهزه معاوية ، وألحقه بالكوفة .

ما حاول معاوية من تزويج يزيد

قال : وذكروا أن يزيد بن معاوية سهر ليلة من الليالي ، وعنده وصيف لمعاوية يقال له رفيق ، فقال يزيد : أستديم الله بقاء أمير المؤمنين ، وعافيته إياه ، وأرغب إليه في تولية أمره وكفاية همه ، فقد كنت أعرف من جميل رأى أمير المؤمنين فيّ ، وحسن نظره في جميع الأشياء ما يؤكد الثقة في ذلك والتوكل عليه ؟ منعني من البوح بما جمجمت فيّ صدري له، وتطلابه إليه ، فأضاع من أمري وترك من النظر في شأني، وقد كان في حلمه ، وعلمه ، ورضائه ، ومعرفته ، بما يحق لمثله النظر فيه ، غير غافل عنه ، ولا تارك له ، مع ما يعلم من هيبتي له وخشيتي منه ، فالله يجزيه عني بإحسانه ، ويغفر له ما اجترح من عهده ونسيانه ، فقال الوصيف : وما ذلك جعلت فداك ؟ لاتلم على تضييعه إياك ، فإنك تعرف تفضيله لك ، وحرصه عليك ، وما يخامره من حبك ، وأن ليس شيء أحب إليه ، ولا آثر عنده منك لديه ، فاذكر بلاءه ، واشكر حباءه فإنك لاتبلغ من شكره إلا بعون من الله .

قال : فأطرق يزيد إطراقا عرف الوصيف منه ندامته على ما بدا منه ، وباح به ، فلما آب من عنده توجه نحو سدة معاوية ليلا وكان غير محجوب عنه ، ولا محبوس دونه ، فعلم معاوية أنه ما جاء به إلا خبر أراد إعلامه به . فقال له معاوية : ماوراءك ؟ وما جاء بك ؟ فقال : أصلح الله أمير المؤمنين ، كنت عند يزيد ابنك : فقال فيما استجرّ من الكلام كذا وكذا ، فوثب معاوية وقال : ويحك ما أضعنا منه؟ رحمة له ، وكراهية لما شجاه وخالف هواه ؟ وكان معاوية لايعدل بما يرضيه شيئا . فقال عليّ به ، وكان معاوية إذا أتت الأمور المشكلة المعضلة ، بعث إلى يزيد يستعين به على استيضاح شبهاتها واستسهال معضلاتها ،

فلما جاءه الرسول قال : أجب أمير المؤمنين ، فحسب يزيد أنما دعاه إلى تلك الأمور التي يفزع إليه منها ، ويستعين برأيه عليها ، فأقبل حتى دخل عليه ، فسلم ثم جلس . فقال معاوية : يا يزيد ما الذى أضعنا من أمرك، وتركنا من الحيطة عليك ، وحسن النظر لك، حيث قلت ماقلت ؟ ؟ وقد تعرف رحمتى بك ، ونظرى فى الأشياء التى تصلحك ، قبل أن تخطر على وهمك ، فكنت أظنك على تلك النعماء شاكرا ، فأصبحت بها كافرا ، إذ فرط من قولك ما ألزمتنى فيه إضاعتى إياك ، وأوجبت علىّ منه التقصير ، لم يزجرك عن ذلك تخوف سخطى ، ولم يحجزك دون ذكر سالف نعمتى ، ولم يردعك عنه حق أبوتى ، فأى ولد أعق منك وآكد ، وقد علمت أنى تخطأت الناس كلهم فى تقديمك ، ونزلتهم لتوليتى إياك ، ونصبتك إماما على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيهم من عرفت ، وحاولت منهم ما علمت ؟ قال : فتكلم يزيد ، وقد خنقه من شدة الحياء الشرق ، وأخضله[1] من ألم الوجد العرق . قال: لاتلزمنى كفر نعمتك ، ولاتنزل بى عقابك ، وقد عرفت نعمة مواصلتك بيرك ، وخطوى إلى كل ما يسرك ، فى سرى وجهرى فليسكن سخطك ، فإن الذى أرثى له من أعباء حمله وثقله ، أكثر مما أرثى لنفسى ، من ألم ما بها وشدته ، وسوف أنبئك وأعلمك أمرى . كنت قد عرفت من أمير المؤمنين استكمل الله بقاءه ، نظرا فى خيار الأمور لى ، وحرصا على سياقها إلى ، وأفضل ما عسيت أستعدله بعد إسلامى المرأة الصالحة، وقدكان ماتحدث به من فضل جمال أريلب بنت إسحاق وكمال أدبها ما قد سطع وشاع فى الناس ، فوقع منى بموقع الهوى فيها ، والرغبة فى نكاحها ، فرجوت ألا تدع حسن النظر لى فى أمرها ، فتركت ذلك حتى استنكحها بعلها ، فلم يزل ماوقع فى خلدى ينمو ويعظم فى صدرى ، حتى عيل صبرى ، فبحت بسرى ، فكان مما ذكرت تقصيرك فى أمرى ، فالله يجزيك أفضل من سؤالى وذكرى . فقال له معاوية : مهلا يايزيد ، فقال : علام تأ. نى بالمهل وقد انقطع منها الأمل ؟ فقال له معاوية : فأين حجاك ومروءتك وتقاك ؟ فقال يزيد : قد يغلب الهوى على الصبر والحجا ، ولوكان أحد ينتفع فيما يبتلى به من الهوى يتقاه ، أو يدفع ما أقصده[2] بحجاه ، لكان أولى الناس بالصبر داود عليه السلام ، وقد خبرك القرآن بأمره . فقال معاوية : فما منعك قبل الفوت من ذكره ؟ قال ما كنت أعرفه، وأثق به من جميل نظرك، قال : صدقت ، ولكن اكتم يابنى أمرك بجلك . واستعن بالله على غلبة هواك بصبرك ، فإن البوح به غير نافعك ، والله بالغ أمره ، ولا بد مما هو كائن .

---

(١) أخضله : بلله.
(٢) أقصده : ضرّه .

وكانت أرينب بنت إسحاق مثلا فى أهل زمانها فى جمالها ، وتمام كمالها وشرفها ، وكثرة مالها ، فتزوجها رجل من بنى عمها يقال له عبد الله بن سلام من قريش ، وكان من معاوية بالمنزلة الرفيعة فى الفضل . ووقع أمر يزيد من معاوية موقعاً ملأه همًّا ، وأوسعه غماً ، فأخذ فى الحيلة والنظر أن يصل إليها ، وكيف يجمع بينه وبينها حتى يبلغ رضا يزيد فيها . فكتب معاوية إلى عبد الله بن سلام : وكان قد استعمله على العراق ، أن أقبل حين تنظر فى كتابى هذا لأمر حظك فيه كامل ، ولا تتأخر عنه ، فأعد للصير والإقبال . وكان عند معاويه بالشام أبو هريرة وأبو الدرداء ، صاحبا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فلما قدم عبد الله بن سلام الشام ، أمر معاوية أن ينزل منزلا قد هيىء له ، وأعد له فيه نزله ، ثم قال لأبى هريرة وصاحبه : إن الله قسم بين عباده قسما ، ووهبهم نعماً أوجب عليهم شكرها ، وحتم عليهم حفظها ، وأمرهم برعايه حقها ، وسلطان طريقها ، بجميل النظر ، وحسن التفقد لمن طوقهم الله أمره ، كما فوضه إليهم ، حتى يؤدوا إلى الله الحق فيهم كما أوجبه عليهم ، فحبانى منها عز وجل بأعز الشرف ، وسمو السلف ، وأفضل الذكر ، وأغدق اليسر ، وأوسع على فى رزقه ، وجعلنى راعى خلقه ، وأمينه فى بلاده ، والحاكم فى أمر عباده ، ليبلونى أأشكر آلاءه أم أكفرها ، فإياه أسأله أداء شكره ، وبلوغ ما أرجو بلوغه ، من عظيم أجره ، وأول ما ينبغى للمرء أن يتفقده وينظر فيه ، فيمن استرعاه الله أمره من أهله ومن لا غنى به عنه . وقد بلغت لى ابنة أردت إنكاحها ، والنظر فيمن يريد أن يباعلها[1] . لعل من يكون بعدى يهتدى منه بهدى ، ويتبع فيه أثرى ، فإنى قد تخوفت أن يدعو من يلى هذا الأمر من بعدى زهوة السلطان وسرفه إلى عضل نسائهم ، ولا يرون لهن فيمن ملكوا أمره كفؤا ولا نظيرا ، وقد رضيت لها عبد الله ابن سلام لدينه وفضله ومروءته وأدبه. فقال أبو هريرة وأبو الدرداء : إن أولى الناس برعاية أنعم الله وشكرها ، وطلب مرضاته فيما خصه به منها ، أنت صاحب رسول الله وكاتبه . فقال معاوية : اذكروا له ذلك عنى ، وقد كنت جعلت لها فى نفسها شورى ، غير أنى أرجو أنها لا تخرج من رأيى إن شاء الله ؛ فلما خرجا من عنده متوجهين إلى منزل عبد الله ابن سلام بالذى قال لهما ، قال : ودخل معاوية إلى ابنته ، فقال لها : إذا دخل عليك أبو هريرة وأبو الدرداء ، فعرضا عليك أمر عبد الله بن سلام ، وإنكاحى إياك منه ، ودعواك إلى مباعلته ، وحضاك على ملاءمة رأيى ، والمسارعة إلى هواى . فقولى لهما : عبد الله بن سلام كفؤ كريم ، وقريب حميم ، غير أنه تحته أرينب بنت إسحاق ، وأنا خائفة أن يعرض لى من الغيرة ما يعرض للنساء ،

---

(١) يباعلها : يصير بعلالها أى زوجاً .

فأتولى منه ما أسخط الله فيه ، فيعذّبني عليه ، فأفارق الرجاء، وأستشعر الأذى ، ولست بفاعلة حتى يفارقها ، فذكر ذلك أبو هريرة وأبو الدرداء لعبد الله بن سلام ، وأعلماه بالذى أمرهما معاوية ، فلما أخبراه سرّ به وفرح ، وحمد الله عليه ، ثم قال : نستمتع الله بأمير المؤمنين ، لقد والى علىّ من نعمه ، وأسدى إلى من منه ، فأطول ما أقوله فيه قصير ، وأعظم الوصف لها يسير . ثم أراد إخلاطى بنفسه ، وإلحاقى بأهله ، إتماماً لنعمته ، وإكمالا لإحسانه ، فالله أستعين على شكره ، وبه أعوذ من كيده ومكره . ثم بعثهما إليه خاطبين عليه ، فلما قدما ، قال لهما معاوية : قد تعلمان رضائى به وتنخلى[1] إياه ، وحرصى عليه ، وقد كنت أعلمتكما بالذى جعلتُ لها فى نفسها من الشورى ، فادخلا إليها ، واعرضا عليها الذى رأيت لها ، فدخلا عليها وأعلماها بالذى لرتضاه لها أبوها ، لما رجا من ثواب الله عليه . فقالت لهما كالذى قال لها أبوها ، فأعلماه بذلك ، فلما ظن أنه لا يمنعها منه إلا أمرها ، فارق زوجته ، وأشهدهما على طلاقها ، وبعثهما خاطبين إليه أيضاً ، فخطبا ، وأعلما معاوية بالذى كان من فراق عبد الله بن سلام امرأته ، طلاباً لما يرضيها ، وخروجاً عما يشجيها ، فأظهر معاوية كراهية لفعله ، وقال : ما أستحسن له طلاق امرأته ، ولا أحببته ، ولو صبر ولم يعجل لكان أمره إلى مصيره ، فإن كون ما هو كائن لا بدّ منه ، ولا محيص عنه ، ولا خيرة فيه للعباد ، والأقدار غالبة ، وما سبق فى علم الله لا بدّ جار فيه ، فانصرفا فى عافية ، ثم تعودان إلينا فيه ، وتأخذان إن شاء الله رضانا . ثم كتب إلى يزيد ابنه يعلمه بما كان من طلاق أرينب بنت إسحاق عبدُالله بن سلام ، فلما عاد أبو هريرة وأبو الدرداء إلى معاوية أمرهما بالدخول عليها ، وسؤاها عن رضاها تبرياً من الأمر ، ونظرا فى القول والعذر ، فيقول : لم يكن لى أن أكرهها ، وقد جعلت لها الشورى فى نفسها ، فدخلا عليها ، وأعلماها بالذى رضيه إن رضيت هى ، وبطلاق عبد الله بن سلام امرأته أرينب ، طلابا لمسرّتها ، وذكرا من فضله ، وكمال مروءته ، وكريم محتده ، ما القول يقصر عن ذكره . فقالت لهما : جفّ القلم بما هو كائن ، وإنه فى قريش لرفيع ، غير أن الله عزّ وجلّ يتولى تدبير الأمور فى خلقه ، وتقسيمها بين عباده،حتى ينزلها منازلها فيهم ، ويضعها على ما سبق فى أقدارها.وليست تجرى لأحد على ما يهوى،ولو كان لبلغ منها غاية ما شاء . وقد تعرفان أن التزويج هزله جدّ ، وجدّه ندم ، الندم عليه يدوم ، والمشور فيه لايكاد يقوم ،

---

[1] تنخلى إياه : اصطفائى له من بين الناس ، وأصل اللفظ معناه أن ينخل الشخص الدقيق حتى يستخرج صافيه ويجتنب رديئه .

والأناة فى الأمور أوفق لما يُخاف فيها من المحذور ، فإن الأمور إذا جاءت خلاف الهوى بعد التأنى فيها ، كان المرء بحسن العزاء خليقا ، وبالصبر عليها حقيقاً ، وعلمت أن الله ولى التدابير . فلم تلم النفس على التقصير ، وإنى بالله أستعين ، سائلة عنه، حتى أعرف دخيلة خبره ، ويصحّ لى الذى أريد علمه من أمره ومستخيرة ، وإن كنت أعلم أنه لاخيرة لأحد فيما هو كائن ، ومملتكا بالذى يرينيه الله فى أمره ، ولا قوّة إلا بالله .

فقالا : وفقك الله وخار لك . ثم انصرفا عنها ، فلما أعلماه بقولها تمثل وقال :

فإن يك صدر هذا اليوم ولّى ... فإن غــــدا لناظره قريب

وتحدث الناس بالذى كان من طلاق عبد الله امرأته قبل أن يفرغ من طلبته ، وقبل أن يوجب له الذى كان من بغيته ، ولم يشكوا فى غدر معاوية إياه . فاستحث عبد الله بن سلام أبا هريرة وأبا الدرداء ، وسألهما الفراغ من أمره ، فأتياها . فقالا لها : قد أتيناك لما أنت صانعه فى أمرك ، وإن تستخيرى الله يخر لك فيا تختارين ، فإنه يهدي من استهداه ، ويعطى من اجتداه ، وهو أقدر القادرين . قالت : الحمد لله أرجو أن يكون الله قد خار لى ، فإنه لا يكل إلى غيره من توكل عليه ، وقد استبرأت أمره ، وسألت عنه فوجدته غير ملائم ولا موافق لما أريد لنفسى ، مع اختلاف من استشرته فيه ، فمنهم الناهى عنه ، ومنهم الآمر به ، واختلافهم أول ما كرهت من الله . فعلم عبد الله أنه خُدع ، فهلع ساعة واشتد عليه الهم . ثم انتبه فحمد الله تعالى وأثنى عليه ، وقال متعزيا : ليس لأمر الله راد ، ولا لما لا بد أن يكون منه صاد ، أمور فى علم الله سبقت ، فجرت بها أسبابها ، حتى امتلأت منها أقرابها ، وإن امرؤ انثال له حلمه واجتمع له عقله ، واستد له رأيه ، ليس بدافع عن نفسه قدرا ولا كيدا ، ولا انحرافا عنه ولا حيدا ، ولآل ما سروا به واستجذلوا له لا يدوم لهم سروره ، ولا يصرف عنهم محذوره . قال : وذاع أمره فى الناس وشاع ، وتقاوه إلى الأمصار ، وتحدثوا به فى الأسمار ، وفى الليل والنهار ، وشاع فى ذلك قولهم ، وعظم لمعاوية عليه لومهم ، وقالوا : خدعه معاوية حتى طلق امرأته ، وإنما أرادها لابنه ، فبئس من استرعاه الله أمر عباده ، ومكنه فى بلاده ، وأشركه فى سلطانه ، يطلب أمرا بخدعة من جعل الله إليه أمره ، ويحيره ويصرعه جرأة على الله . فلما بلغ معاوية ذلك من قول الناس . قال : لعمرى ما خدعته . قال : فلما انقضت أقراؤها ، وجه معاوية أبا الدرداء إلى العراق خاطبا لها على ابنه يزيد ، فخرج حتى قدمها ، وبها يومئذ الحسين بن على وهو سيد أهل العراق فقهاومالا وجودا وبذلا . فقال أبو الدرداء إذ قدم العراق : مما ينبغى لذى الحجا والمعرفة والتقى أن يبدأ به ويؤثره على مهمّ أمره ، لما

يلزمه حقه، ويجب عليه حفظه، وهذا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيد شباب أهل الجنة يوم القيامة ، فلست بناظر فى شىء قبل الإلمام به والدخول عليه ، والنظر إلى وجهه الكريم وأداء حقه ، والتسليم عليه ، ثم أستقبل بعد إن شاء الله ما جئت له ، وبعثت إليه ، فقصد حتى أتى الحسين ، فلما رآه الحسين قام إليه فصافحه إجلالا له ، ومعرفته لمكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وموضعه من الإسلام . ثم قال الحسين : مرحبا بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجليسه ، ياأبا الدرداء ، أحدثت لى رؤيتك شوقا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأوقدت مطلقات أحزانى عليه ، فإنى لم أر منذ فارقته أحداً كان له جليساً ، وإليه حبيباً ، إلا هملت عيناى ، وأحرقت كبدى أسى عليه ، وصبابة إليه . ففاضت عينا أبى الدرداء لذكر رسول الله ، وقال : جزى الله لبانة[1] أقدمتنا عليك ، وجمعتنا بك خيراً . فقال الحسين : والله إنى لذو حرص عليك ، ولقد كنت بالاشتياق إليك . فقال أبو الدرداء : وجهنى معاوية خاطباً على ابنه يزيد أرينب بنت إسحاق ، فرأيت أن لا أبدأ بشىء قبل إحداث العهد بك ، والتسليم عليك . فشكر له الحسين ذلك ، وأثنى عليه وقال : لقد كنت ذكرت نكاحها ، وأردت الإرسال إليها بعد انقضاء أقرائها ، فلم يمنعنى من ذلك إلا تخير مثلك ، فقد أتى الله بك ، فاخطب رحمك الله علىّ وعليه ، فلتختر من اختاره الله لها وإنها أمانة فى عنقك حتى تؤديها إليها ، وأعطها من المهر مثل ما بذل لها معاوية عن ابنه . فقال أبو الدرداء : أفعل إن شاء الله ، فلما دخل عليها قال لها : أيتها المرأة إن الله خلق الأمور بقدرته ، وكونها بعزته ، فجعل لكل أمر قدراً ، ولكل قدر سبباً ، فليس لأحد عن قدر الله مستحاص ، ولا عن الخروج عن علمه مستناص ، فكان مما سبق لك وقدر عليك ، الذى كان من فراق عبد الله بن سلام إياك ، ولعل ذلك لا يضرك ، وأن يجعل الله لك فيه خيرا كثيرا . وقد خطبك أمير هذه الأمة ، وابن الملك ، وولىّ عهده ، والخليفة من بعده ، يزيد بن معاوية . وابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن أول من آمن به من أمته ، وسيد شباب أهل الجنة يوم القيامة ، وقد بلغك سناهما وفضلهما ، وجئتك خاطبا عليهما ، فاختارى أيهما شئت ؟ فسكتت طويلا . ثم قالت : يا أبا الدرداء لو أن هذا الأمر جاءنى وأنت غائب عنى أشخصت فيه الرسل إليك ، واتبعت فيه رأيك ، ولم أقطعه دونك على بعد مكانك ، ونأى دارك ، فأما إذ كنت الرسل فيه فقد فوّضت أمرى بعد الله إليك ، وبرئت منه إليك ، وجعلته فى يديك ، فاختر لى أرضاهما لديك ، والله شهيد عليك ، واقض فيه قضاء ذى التحرّى المتقى ، ولا يصدنك عن

---

(١) اللُّبانة : الحاجة والغرض .

ذلك اتباع هوى ، فليس أمرها عليك خفياً وما أنت عما طوّقتك عميّا . فقال أبو الدرداء أيتها المرأة إنما علىّ إعلامك وعليك الاختيار لنفسك . قالت عفا الله عنك ، إنما أنا بنت أخيك ، ومن لا غنى بها عنك فلا يمنعك رهبة أحد من قول الحق فيما طوّقتك ، فقد وجب عليك أداء الأمانة فيما حملتك ، والله خير من روعى وخيف ، إنه بنا خبير لطيف . فلما لم يجد بدّا من القول والإشارة عليها . قال: بُنيّة،ابن بنت رسول الله أحبّ إلىّ وأرضاهما عندى ، والله أعلم بخيرهما،، وقد كنت رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم واضعا شفتيه على شفتى الحسين فضعى شفتيك حيث وضعهما رسول الله ، قالت : قد اخترته ورضيته ، فاستنكحها الحسين بن علىّ ، وساق إليها مهرا عظيما ، وقال الناس وبلغ معاوية الذى كان من فعل أبى الدرداء فى ذكره حاجة أحد مع حاجته ، وما بعثه هو له ، ونكاح الحسين إياها ، فتعاظمه ذلك جدا ، ولامه لوما شديدا ، وقال : من يرسل ذا بلاهة وعمى ، يركب فى أمره خلاف ما يهوى ، ورأيى كان من رأيه أسوأ ، ولقد كنا بالملامة منه أولى حين بعثناه ، ولحاجتنا انتخلناه ، وكان عبد الله بن سلام قد استودعها قبل فراقه إياها بدرات[1] مملوءة درّا ، كان ذلك الدرّ أعظم ماله وأحبه إليه،وكان معاوية قد أطرحه،وقطع جميع روافده عنه،لسوء قوله فيه،وتهمته إياه على الخديعة ، فلم يزل يجفوه ويغضبه ، ويكدى[2] عنه ، ما كان يجديه ، حتى عيل صبره وطال أمره ، وقلّ ما فى يديه ، ولام نفسه على المقام لديه ، فخرج من عنده راجعا إلى العراق ، وهو يذكر ماله الذى كان استودعها ، ولا يدرى كيف يصنع فيه ، وأنى يصل إليه ، ويتوقع جحودها عليه ، لسوء فعله بها ، وطلاقه إياها على غير شىء أنكره منها ، ولا نقمة عليها . فلما قدم العراق لقى الحسين ، فسلم عليه . ثم قال : قد علمت جعلت فداك الذى كان من قضاء الله فى طلاق أرينب بنت إسحاق ، وكنت قبل فراقى إياها قد استودعتها مالا عظيما درّا وكان الذى كان ولم أقبضه ، ووالله ما أنكرت منها فى طول ما صحبتها فتيلا ، ولا أظنّ بها إلا جميلا، فذكّرها أمرى،واحضضها على الردعلى،فإن الله يحسن عليك ذكرك ، ويجزل به أجرك.فسكت عنه . فلما انصرف الحسين إلى أهله ، قال لها : قدم عبد الله بن سلام وهو يحسن الثناء عليك ، ويحمل النشر عنك ، فى حسن صحبتك ، وما أنسه قديما من أمانتك فسرّنى ذلك وأعجبنى ، وذكر أنه كان استودعك مالا قبل فراقه إياك ، فأدّى إليه أمانته ، وردى عليه ماله ، فإنه لم يقل إلا صدقا ، ولم يطلب إلا حقا.قالت : صدق،قد والله استودعنى مالا

---

(١) بدرات : جمع بدرة وهى الصرة المملوءة نقوداً أو جواهر .
(٢) يكدى عنه ما كان يجديه : يمنع عنه ما كان يعطيه .

لا أدرى ما هو ، وإنه لمطبوع عليه بطابعه ما أخذ منه شيء إلى يومه هذا ، فأثنى عليها الحسين خيرا ، وقال : بل أدخله عليك حتى تبرئى إليه منه كما دفعه إليك . ثم لقى عبد الله بن سلام ، فقال له : ما أنكرت مالك ، وزعمت أنه لكما دفعته إليها بطابعك ، فادخل يا هذا عليها ، وتوف مالك منها . فقال عبد الله بن سلام : أو تأمر بدفعه إلىّ جعلت فداك . قال : لا ، حتى تقبضه منها كما دفعته إليها ، وتبرئها منه إذا أدّته . فلما دخلا عليها قال لها الحسين : هذا عبد الله بن سلام ، قد جاء يطلب وديعته ، فأدّيها إليه كما قبضتها منه ، فأخرجت البدرات فوضعتها بين يديه ، وقالت له : هذا مالك ، فشكر لها ، وأثنى عليها ، وخرج الحسين ، ففض عبد الله خاتم بدره ، فحثا لها من ذلك الدرّ حثوات ، وقال : خذى ، فهذا قليل منى لك ، واستعبرا جميعا ، حتى تعالت أصواتهما بالبكاء ، أسفا على ما ابتليا به ، فدخل الحسين عليهما وقد رقّ لهما ، للذى سمع منهما . فقال : أشهد الله أنها طالق ثلاثا ، اللهمّ إنك تعلم أنى لم أستنكحها(١) رغبة فى مالها ولا جمالها ، ولكنى أردت إحلالها لبعلها ، وثوابك على ما عالجته فى أمرها ، فأوجب لى بذلك الأجر ، وأجزل لى عليه الذخر إنك على كل شيء قدير ، ولم يأخذ مما ساق إليها فى مهرها قليلا ولا كثيرا . وقد كان عبد الله ابن سلام سأل ذلك أريلب ، أى التعويض على الحسين ، فأجابته إلى ردّ ماله عليه شكرا لما صنعه بهما ، فلم يقبله ، وقال : الذى أرجو عليه من الثواب خير لى منه فتزوّجها عبد الله بن سلام ، وعاشا متحابين متصافيين حتى قبضهما الله ، وحرّمها الله على يزيد . والحمد لله ربّ العالمين .

وفاة معاوية رحمه الله

قال : وذكروا أن عتبة بن مسعود قال : مرّ بنا نعى معاوية بن أبى سفيان ونحن بالمسجد الحرام . قال : فقمنا فأتينا ابن عباس ، فوجدناه جالساً قد وضع له الخوان ، وعنده نفر . فقلنا : أما علمت بهذا الخبر يابن عباس ؟ قال : وما هو ؟ قلنا : هلك معاوية . فقال : ارفع الخوان يا غلام ، وسكت ساعة ، ثم قال : جبل تزعزع ثم مال بكلكلة(٢) ، أما والله ما كان كمن كان قبله ، ولما يكن بعده مثله . اللهمّ أنت أوسع لمعاوية فينا وفى بنى عمنا هؤلاء لذى لبّ معتبر ، اشتجرنا بيننا ، فقتل صاحبهم غيرنا ، وقتل صاحبنا غيرهم ، وما أغراهم بنا إلا أنهم

---

(١) أستنكحها : أطلب نكاحها أي زواجها .
(٢) الكلكل : الصدر .

لا يجدون مثلنا ، وما أغرانا بهم إلا أنا لا نجد مثلهم ، كما قال القائل : مالك تظلمنى ؟ قال : لا أجد من أظلم غيرك . ووالله إن ابنه لخير أهله ، أعد طعامك يا غلام . قال : فما رفع الخوان حتى جاء رسول خالد بن الحكم إلى ابن عباس ، أن انطلق فبايع . فقال للرسول : أقرئ الأمير السلام ، وقل له : والله ما بقى فىّ ما تخافون ، فاقض من أمرك ما أنت قاض ، فإذا سهل المشى وذهبت حطمة الناس ، جئتك ففعلت ما أحببت . قال : ثم أقبل علينا فقال : مهلا معشر قريش ، أن تقولوا عند موت معاوية : ذهب جدّ بنى معاوية ، وانقطع ملكهم ، ذهب لعمر الله جدّهم ، وبقى ملكهم وشرّها بقيــة هى أطول مما مضى ، إلزموا مجالسكم وأعطوا بيعتكم . قال : فما برحنا حتى جاء رسول خالد فقال : يقول لك الأمير : لا بدّ لك أن تأتينا . قال : فإن كان لا بدّ ، فلا بدّ مما لا بدّ منه ، يا نوار هلمى ثيــابى ، ثم قال : وما ينفعكم إتيان رجل إن جلس لم يضرّكم ؟ قال : فقلت له : أتبايع ليزيد، وهو يشرب الخمر، ويلهو بالقيان ، ويستهتر بالفواحش ؟ قال : مــه ، فأين ما قلت لكم ؟ وكم بعده من آت ممن يشرب الخمر ، أو هو شرّ من شاربها ، أنتم إلى بيعته سراع ؟ أما والله إنى لأنهاكم ، وأنا أعلم أنكم فاعلون ما أنتم فاعلون ، حتى يصلب مصلوب قريش بمكة ، يعنى عبد الله بن الزبير .

كتاب يزيد بالبيعة إلى أهل المدينة

قال : وذكروا أن نافع بن جبير قال : إنى بالشام يوم موت معاوية ، وكان يزيد غائباً ، واستخلف معاوية الضحاك بن قيس بعده ، حتى يقدم يزيد ، فلما مات معاوية خرج الضحاك على الناس ، فقال : لا يحملنّ اليوم نعش أمير المؤمنين إلا قرشى : قال : فحملته قريش ساعة . ثم قال أهل الشام : أصلح الله الأمير. اجعل لنا من أمير المؤمنين نصيباً فى موته ، كما كان لنا فى حياته . قال: فاحملوه ، فحملوه، وازدحموا عليه ، حتى شقوا البرد الذى كان عليه صدعين[1].
قال : فلما قدم يزيد دمشق بعد موت أبيه إلى عشرة أيام ، كتب إلى خالد بن الحكم ، وهو عامل المدينة : أما بعد ، فإن معاوية بن أبى سفيان ، كان عبداً استخلفه الله على العباد ، ومكن له فى البلاد وكان من حادث قضاء الله جلّ ثناؤه ، وتقدست أسماؤه فيه ، ما سبق فى الأوّلين والآخرين لم يدفع عنه ملك مقرّب ، ولا نبىّ مرسل ، فعاش حميداً ، ومات سعيداً ، وقد قلدنا الله عزّ وجلّ ما كان إليه ، فيا لها مصيبة ما أجلّها،ونعمة ما أعظمها ، نقل الخلافة ، وفقد الخليفة ، فنستوزعه[2] الشكر ، ونستلهمه الحمــد ، ونسأله الخيرة فى الدارين معاً ،

---

(١) صدعين : نصفين .

(٢) نستوزعه : نطلب منه إلهام الشكر ، ومن ذلك قوله تعالى (رب أوزعنى أن أشكر نعمتك) .

ومحمود العقبى فى الآخرة والأولى ، إنه ولىّ ذلك ، وكلّ شئ بيده لا شريك له . وإن أهل المدينة قومنا ورجالنا ، ومن لم نزل على حسن الرأى فيهم ، والاستعداد بهم ، واتباع أثر الخليفة فيهم ، والاحتذاء على مثاله لديهم ، من الإقبال عليهم ، والتقبل من محسنهم ، والتجاوز عن مسيئهم ، فبايع لنا قومنا ، ومن قبلك من رجالنا ، بيعة منشرحة بها صدوركم ، طيبة عليها أنفسكم ، وليكن أوّل من يبايعك من قومنا وأهلنا : الحسين ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن جعفر ، ويحلفون على ذلك بجميع الأيمان اللازمة ، ويحلفون بصدقة أموالهم غير عشرها ، وجزية رقيقهم ، وطلاق نسائهم ، بالثبات على الوفاء بما يعطون من بيعتهم ، ولا قوة إلا بالله ، والسلام .

إباية القوم الممتنعين عن البيعة

قال : وذكروا أن خالد بن الحكم ، لما أتاه الكتاب من يزيد فظع به ، فدعا مروان ابن الحكم ، وكان على المدينة قبله ، فلما دخل عليه مروان ، وذلك فى أوّل الليل . قال له خالد : احتسب صاحبك يا مروان ، فقال له مروان : اكتم ما بلغك ، إنا لله وإنا إليه راجعون . ثم اقرأه الكتاب ، وقال له : ما الرأى ؟ فقال : أرسل الساعة إلى هؤلاء النفر ، فخذ بيعتهم ، فإنهم إن بايعوا لم يختلف على يزيد أحد من أهل الإسلام ، فعجل عليهم قبل أن يفشى الخبر فيمتنعوا ، فأرسل إلى الحسين بن علىّ ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله ابن عمر ، فلما أتاهم الرسول قال عبد الله بن الزبير للحسين : ظنّ يا أبا عبدالله فيما أرسل إلينا ؟ فقال الحسين : لم يرسل إلينا إلا للبيعة ، فما ترى ؟ قال : آتيه ، فإن أراد تلك امتنعت عليه ، فدعا الحسين مواليه وأهل بيته ، وأقعدهم على الباب ، وقال لهم : إن ارتفع صوتى فاقتحموا الدار علىّ ، وإلا فمكانكم حتى أخرج إليكم . ثم دخل على خالد ، فأقرأه الكتاب ، فقال الحسين : رحم الله معاوية . فقالا له : بايع ، فقال الحسين : لا خير فى بيعة سرّ ، والظاهرة خير ، فإذا حضر الناس كان أمراً واحداً ، ثم وثب أهله ، فقال مروان لخالد : أشدد يدك بالرجل ، فلا يخرج حتى يبايعك ، فإن أبى فاضرب عنقه : فقال له ابن الزبير : قد علمت أنا كنا أبينا البيعة إذ دعانا إليها معاوية ، وفى نفسه علينا من ذلك ما لا تجهله ، ومتى ما نبايعك ليلا على هذه الحال ، ترانك أغضبتنا على أنفسنا ، دعنا حتى نصبح ، وتدعو الناس إلى البيعة ، فنأتيك فنبايعك بيعة سليمة صحيحة ، فلم يزالا به حتى خلى عنهما وخرجا . فقال مروان لخالد : تركتهما ، والله لاتظفر بمثلها منهما أبدا ، فقال خالد : ويحك أتشير علىّ أن أقتل

الحسين ، فوالله ما يسرّنى أن لى الدنيا وما فيها ، وما أحسب أن قاتله يلقى الله بدمه إلا خفيف الميزان يوم القيامة . فقال له مروان مستهزئا : إن كنت إنما تركت ذلك لذلك فقد أصبت .

خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية

قال : وذكروا أن يزيد بن معاوية عزل خالد بن الحكم عن المدينة ، وولاها عثمان ابن محمد بن أبى سفيان الثقفى ، وخرج الحسين بن على ، وعبد الله بن الزبير إلى مكة وأقبل عثمان بن محمد من الشام والياً على المدينة ومكة وعلى الموسم فى رمضان ، فلما استوى على المنبر بمكة رعف ، فقال رجل مستقبله : جئت والله بالدم ، فتلقاه رجل آخر بعمامته . فقال : مه ، والله عم الناس . ثم قام يخطب ، فتناول عصا لها شعبتان ، فقال : مه : شعب والله أمر الناس ، ثم نزل . فقال الناس للحسين : ياأبا عبد الله ، لو تقدمت فصليت بالناس ؟ فإنه ليهمّ بذلك إذ جاء المؤذّن ، فأقام الصلاة ، فتقدّم عثمان فكبر ، فقال للحسين : يا أبا عبد الله ، إذا أبيت أن تتقدّم فاخرج . فقال : الصلاة فى الجماعة أفضل . قال : فصلى ، ثم خرج ، فلما انصرف عثمان ابن محمد من الصلاة ، بلغه أن الحسين خرج . قال : اركبوا كل بعير بين السماء والأرض فاطلبوه ، فطلب ، فلم يدرك . قال: ثم قدم المدينة ، فأقبل ابن ميثاء بسراح[1] له من الحرّة[2] ، يريد الأموال التى كانت لمعاوية ، فمنع منها ، وأزاحه أهل المدينة عنها ، وكانت أموالا اكتسبها معاوية ، ونخيلا يجد[3] منها مئة ألف وسق[4] وستين ألفا ، ودخل نفر من قريش والأنصار على عثمان ، فكلموه فيها فقالوا : قد علمت أن هذه الأموال كلها لنا ، وأن معاوية آثر علينا فى عطائنا ، ولم يعطنا قط درهما فما فوقه ، حتى مضّنا الزمان ، ونالتنا المجاعة ، فاشتراها منا بجزء من مئة من ثمنها ، فأغلظ لهم عثمان فى القول ، واغلظوا له . فقال لهم : لأكتبنّ إلى أمير المؤمنين بسوء رأيكم ، وما أنتم عليه من كمون[5] الأضغان القديمة ، والأحقاد التى لم تزل فى صدوركم ، فافترقوا على موجدة ، ثم اجتمع رأيهم على منع ابن ميثاء القيّم عليها ، فكفّ عثمان بن محمد عنهم ، وكتب بأمرهم إلى يزيد بن معاوية .

---

(١) سراح : جمع سرح وهي جماعة الإبل التى تسرح للرعى .
(٢) الحـرة : الأرض المرتفعة.
(٣) يجد : يقطع .
(٤) الوسق : مائة وعشرون قدحا مصريا .
(٥) كمون الأضغان : استتارها واختفاؤها .

قال عبد الله بن جعفر : جاء كتاب عثمان بن محمد بعد هدأة من الليل ، وقد كنت انصرفت من عند يزيد ، فلم ألبث أن جاءنى رسوله ، فدخلت عليه ، والشمعة بين يديه ، وهو منضب قد حسر عن ذراعيه ، والكتاب بين يديه ، فقال : دونك يا أبا جعفر هذا الكتاب ، فاقرأه ، فرأيت كتابا قبيحا ، فيه تعريض بأهل المدينة وتحريش . ثم قال : والله لأطأنّهم وطأة آتى منها على أنفسهم . قال ابن جعفر : فقلت له إن الله لم يزل يعرف أباك فى الرفق خيراً ، فإن رأيت أن ترفق بهم وتتجاوز عنهم فعلت ، فإنما هم أهلك وعشيرتك ، وإنما تقتل بهم نفسك إذا قتلتهم . قال : أقتل وأشفى نفسى ، فلم أزل ألحّ عليه فيهم ، وأرفقه عليهم ، وكان لى سامعا ومطيعا ، فقال لى : إنّ ابن الزبير حيث علمت من مكة ، وهو زعم أنه قد نصب الحرب ، فأنا أبعث إليه الجيوش ، وآمر صاحب أوّل جيش أبعثه أن يتخذ المدينة طريقا ، وأن لا يقاتل ، فإن أقروا بالطاعة ، ونزعوا عن غيهم وضلالهم ، فلهم علىّ عهد الله وميثاقه ، أن لهم عطاءين فى كل عام ، ما لا أفعله بأحد من الناس طول حياتى ، عطاء فى الشتاء ، وعطاء فى الصيف ، ولهم علىّ عهد أن أجعل الحنطة عندهم كسعر الحنطة عندنا ، والحنطة عندهم سبعة آصع[1] بدرهم ، والعطاء الذى يذكرون أنه احتبس عنهم فى زمان معاوية فهو علىّ أن أخرجه لهم وافرا كاملا ، فإن أنابوا وقبلوا ذلك ، جاوز إلى ابن الزّبير ، وإن أبوا قاتلهم ، ثم إن ظفر بها أنهبها ثلاثا ، هذا عهدى إلى صاحب جيشى لمكانك ولطلبتك فيهم ، ولما زعمت أنهم قومى وعشيرتى . قال عبد الله بن جعفر . فرأيت هذا لهم فرجا ، فرجعت إلى منزلى فكتبت إليهم من ليلتى كتابا إلى أهل المدينة ، أعلمهم فيه قول يزيد ، وأحضهم على الطاعة والتسليم ، والرضا والقبول لما بذل لهم ، وأنهاهم أن يتعرّضوا لجيوشه ، وقلت لرسولى : اجهد السير ، فدخلها فى عشر ، فوالله ما أرادوا ذلك ولا قبلوه ، وقالوا : والله لا يدخلها عنوة أبدا .

كتاب يزيد إلى أهل المدينة

قال : وكتب يزيد إلى أهل المدينة كتابا ، وأمر عثمان بن محمد يقرؤه عليهم ، فقدم الكتاب المدينة ، وعثمان خائف ، فقرأه عليهم ، فإذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد ، فإنى قد لبستكم حتى أخلقتكم ، ورفعتكم حتى أخرقتكم[2] ، ورفعتكم على رأسى ثم وضعتكم ، وايم الله لئن آثرت أن أضعكم تحت قدمى لأطأنكم وطأة أقل منها عددكم وأتركم أحاديث تتناسخ[3] كأحاديث عاد وثمود ، وايم الله لا يأتيكم منى أولى من عقوبتى ، فلا أفلح من ندم .

(١) سبعة آصع : ١٤ قدحا مصريا ، الآصع جمع صاع وهو قدحان مصريان .
(٢) أخرقتكم : وجدتكم خرقى أى حمقى .
(٣) تتناسخ : أى تكتب وتنسخ فى الكتب .

ما أجمع عليه أهل المدينة ورأوه من إخراج بنى أمية

قال : وذكروا أنه لما قرئ الكتاب ، تكلم عبد الله بن مطيع ورجال معه كلاما قبيحا ، فلما استبان لهم أن يزيد باعث الجيوش إليهم ، أجمعوا على خلافهم ، واختلفوا فى الرياسة أيهم يقوم بهذا الأمر . فقال قائل : ابن مطيع ، وقال قائل : إبراهيم بن نعيم ، ثم اجتمع رأيهم أن يقوم بأمرهم ابن حنظلة ، وهرب عثمان بن محمد منهم ليلا فلحق بالشام ، ثم أخذوا مروان ابن الحكم وكبراء بنى أمية ، فأخرجوهم عن المدينة ، فقالوا : الشقة بعيدة ، ولا بدّ لنا مما يصلحنا ، ولنا عيال وصبية ، ونحن نريد الشام . قال : فاستنظروا عشرة أيام ، فأنظروا . ثم اجتمع رأى أهل المدينة أن يحلّفوا كبراء بنى أمية عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لئن لقوا جيش يزيد ليردّونهم عنهم إن استطاعوا ، فإن لم يستطيعوا مضوا إلى الشام ولم يرجعوا معهم ، فحلفوا لهم على ذلك ، وشرطوا عليهم أن يقيموا بذى خُشُب[1] عشرة أيام ، فخرجوا من المدينة ، وتبعهم الصبيان ، وسفهاء الناس يرمونهم بالحجارة ، حتى انتهوا إلى ذى خشب ، ولم يتحرك أحد من آل عثمان بن محمد ، ولم يخرج من المدينة ، فلما رأت بنو أمية ماصنع بهم أهل المدينـــة من إخراجهم منها ، اجتمعوا إلى مروان ، فقالوا : يا أبا عبد الملك ما الرأى ؟ قال : من قدر منكم أن يغيّب حرمه فليفعل ، فإنما الخوف عـلى الحرمة ، فغيّبوا حرمهم ، فأتى مروان عبد الله بن عمر ، فقال : يا أبا عبد الرحمن ، بلغنى أنك تريد الخروج إلى مكة ، وتنبب عن هذا الأمر ، فأحب أن أوجه عيالى معك . فقال ابن عمر : إنى لاأقدر على مصاحبة النساء . قال : فتجعلهم فى منزلك مع حرمك قال لا آمن أن يُدخل على حرمى من أجل مكانكم . فكلم مروان علىّ بن الحسين ، فقال : نعم ، فضمهم علىّ إليه ، وبعث بهم مع عياله . قال : ثم ارتحل القوم من ذى خشب على أقبح إخراج يكون ، وإسراع خوفا منهم أن يبدو للقوم فى حبسهم ، وجعل مروان يقول لابنه عبد الملك : يابنىّ إن هـؤلاء القـوم لم يدروا ولم يستشيروا ، فقال ابنه : وكيف ذلك ؟ قال : إذ لم يقتلونا أو يحبســونا ، فإن بعثوا إلينا بعثا كنا فى أيديهم:وما أخوفنى أن يفطنوا لهذا الأمر فيبعثوا فى طلبنا فالوحَى الوحَى[2] والنجاء النجاء .

---

(١) ذو خشب بضم الخاء والشين : واد بالمدينة .
(٢) الوحَى الوحَى : الإسراع والعجلة .

إرسال يزيد الجيوش إليهم

قال : فلما أجمع رأى يزيد على إرسال الجيوش ، صعد المنبر ، فحمدالله وأثنى عليه ، ثم قال: أما بعد يا أهل الشام ، فإن أهل المدينة أخرجوا قومنا منها ، والله لأن تقع الخضراء على الغبراء[١] أحب إلى من ذلك . وكان معاوية قد أوصى يزيد فقال له : إن رابك منهم ريب ، أو انتقض عليك منهم أحد ، فعليك بأعور بنى مرّة مسلم بن عقبة ، فدعا به فقال : سر إلى هذه المدينة بهذه الجيوش ، وإن شئت أعفيتك ، فإنى أراك مدنفاً منهوكاً . فقال : نشدتك الله ، أن لا تحرمنى أجراً ساقه الله إلىّ ، أو تبعث غيرى ، فإنى رأيت فى النوم شجرة غرقد[٢] تصيح أغصانها : يا ثارات عثمان ، فأقبلت إليها ، وجعلت الشجرة تقول : إلىّ يا مسلم بن عقبة ، فأتيت فأخذتها ، فعبّرت ذلك أن أكون أنا القائم بأمر عثمان ، ووالله ما صنعوا الذى صنعوا إلا أن الله أراد بهم الهلاك . فقال يزيد : فسر على بركة الله ، فأنت صاحبهم ، فخرج مسلم فعسكر وعرض الأجناد ، فلم يخرج معه أصغر من ابن عشرين ، ولا أكبر من ابن خمسين على خيل عراب ، وسلاح شاك ، وأداة كاملة ، ووجّه معه عشرة آلاف بعير تحمل الزّاد حتى خرج ، فخرج معه يزيد فودّعه . قال له : إن حدث بك حدث فامر الجيوش إلى حصين بن نمير ، فانهض بسم الله إلى ابن الزبير ، واتخذ المدينة طريقاً إليه ، فإن صدّوك أو قاتلوك فاقتل من ظفرت به منهم ، وأنهبها[٣] ثلاثاً ، فقال مسلم بن عقبة : أصلح الله الأمير ، لست بآخذ من كل ماعهدت به إلا بحرفين . قال يزيد: وماهما ؟ ويحك . قال : أقبل من المقبل الطائع ، وأقتل المدبر العاصى . فقال يزيد : حسبك ، ولكن البيان لا يضرّك ، والتأكيد ينفعك ، فإذا قدمت المدينة فمن عاقك عن دخولها ، أو نصب لك الحرب ، فالسيف السيف ، أجهز على جريحهم ، وأقبل على مدبرهم ، وإياك أن تبقى عليهم ، وإن لم يتعرضوا لك ، فامض إلى ابن الزبير .

فمضت الجيوش ، فلما نزلوا بوادى القرى ، لقيتهم بنو أمية خارجين من المدينة ، فرجعوا معهم ، واستخبرهم مسلم بن عقبة عما خلفهم ، وعما لقوا ، وعن عددهم . فقال مروان : عددهم كثير ، أكثر مما جئت به من الجيوش ، ولكن عامتهم ليس لهم نيات ولا بصائر ، وفيهم قوم قليل لهم نية وبصيرة ، ولكن لابقاء لهم مع السيف ، وليس لهم كراع ولا سلاح ، وقد خندقوا عليهم وحصّنوا . قال مسلم : هذه أشدها علينا ، ولكنا نقطع عنهم مشربهم ، ونردم عليهم

---

(١) الخضراء : السماء ، والغبراء : الأرض .

(٢) الغرقد : شجر عظيم كبير الحجم ، وسميت مقبرة المدينة بقيع الغرقد لأن هذا الشجر ينبت فيها .

(٣) أنهبها : اجعلها نهبا أى مباحة ثلاثة أيام لعسكرك يفعلون فيها ما يشاءون .

خندقهم . فقال مروان : عليه رجال لا يسلمونه ، ولكن عندى فيه وجه سأخبرك به . قال : هاته . فقال : اطوه ودعه حتى يحضر ذلك . قال : فدعه إذاً . ثم قال لهم مسلم : تريدون أن تسيروا إلى أمير المؤمنين ، أو تقيموا موضعكم هذا ، أو تسيروا معنا ؟ فقال بعضهم : نسير إلى أمير المؤمنين ، ونحدث به عهداً ، فقال مروان : أما أنا فراجع . فقال بعضهم لبعض : قد حلفنا لهم عند المنبر لئن استطعنا أن نردّ الجيش عنهم لنردّنه فكيف بالرجوع إليهم . فقال مروان : أما أنا فراجع إليهم . فقال له قوم : ما نرى أن تفعل ، فإنما تقتلون بهؤلاء أنفسكم ، والله لا أكثرنا عليهم لمسلم جمعاً أبداً . فقال مروان : أنا والله ماض مع مسلم إلى المدينة ، فمدرك ثأرى من عدوى ، وممن أخرجنى من بيتى ، وفرق بينى وبين أهلى ، وإن قتلت بهم نفسى ، فلم يرجع مع مسلم من بنى أمية غير مروان وابنه عبد الملك ، وكان مجدوراً فجعله بذى خشب .

فلما أيقن أهل المدينة بقدوم الجيوش إليهم تشاوروا فى الخندق وقالوا قد خندق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخندقوا المدينة من كلّ نواحيها . ثم جمع عبد الله بن حنظلة أهل المدينة عند المنبر ، فقال : تبايعونى على الموت وإلا فلا حاجة فى بيعتكم . فبايعوه على الموت ، ثم صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، إنما خرجتم غضباً لدينكم ، فأبلوا إلى الله بلاء حسناً ليوجب لكم به الجنة ومغفرته ، ويحل بكم رضوانه ، واستعدّوا بأحسن عدتكم ، وتأهبوا بأكمل أهبتكم ، فقد أخبرت أن القوم قد نزلوا بذى خشب ، ومعهم مروان بن الحكم ، والله إن شاء مهلكه بنقضه العهد والميثاق عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتصايح الناس ، وجعلوا ينالون منه ويسبونه . فقال لهم : إن الشتم ليس بشىء ، ولكن نصدقهم اللقاء ، والله ما صدق قوم قطّ إلا نصروا ، ثم رفع يديه إلى السماء وقال : اللهمّ إنا بك واثقون ، وعليك متوكلون ، وإليك ألجأنا ظهورنا ثم نزل . وكان عبد الله بن حنظلة لا يبيت إلا فى المسجد الشريف ، وكان لا يزيد على شربة من سويق يفطر عليها إلى مثلها من الغد .

قدوم الجيوش إلى المدينة

قال : وذكروا أن أهل الشام لما انتهوا إلى المدينة عسكروا بالجُرُف[1] ، ومشوا رجالا من رجالهم ، فأحدقوا بالمدينة من كلّ ناحية لا يجدون مدخلا ، لأنهم قد خندقوها عليهم ، والناس متلبسون السلاح ، قد قاموا على أفواه الخنادق ، وقد حرصوا أن لا يتكلم منهم متكلم ، وجعل

---

(١) الجرف : مواضع : أحدها قرب مكة والآخر قرب المدينة والثالث باليمن ، والرابع باليمامة ، والمراد هنا الذى بقرب المدينة .

أهل الشام يطوفون بها والناس يرمونهم بالحجارة والنبل من فوق الآكام والبيوت، حتى خرجوا فيهم وفى خيلهم ، فقال مسلم لمروان : أين ما قلت لى بوادى القرى ؟ فخرج مروان حتى جاء بنى حارثه ، فـكلم رجلا منهم، ورغّبه فى الضيعة ، وقال : افتح لنا طريقا ، فأنا أكتب بذلك إلى أمير المؤمنين ، ومتضمن لك عنه شطر ما كان بذل لأهل المدينة من العطاء وتضعيفه ، ففتح له طريقا ، ورغب فيما بذل له ، وتقبل ما تضمن له عن يزيد ، فاقتحمت الخيل ، فجاء الخبر إلى عبد الله بن حنظلة، فأقبل ، وكان من ناحية الطورين ، وأقبل عبد الله بن مقطع،وكان من ناحية ذناب ، وأقبل ابن أبى ربيعة،فاجتمعوا جميعا بمن معهم ، بحيث اقتحم عليهم أهل الشام ، فاقتتلوا حتى عاينوا الموت ، ثم تفرّقوا .

غلبة أهل الشام على أهل المدينة

قال : وذكروا أن عبد الله بن أبى سفيان قال : وقعت مع قوم عند مسجد بنى عبد الأشهل ، منهم عبد الله بن زيد صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقاتل مسيلمة الـكذّاب ، ومعه عبد الله بن حنظلة ، ومحمد بن سعد بن أبى وقاص ، وإبراهيم بن فارط ، وإبراهيم بن نعيم ابن النجار ، فهم يقاتلون ويقولون للناس : أين الفرار ؟ والله لأن يقتل الرجل مقبلا خير له من أن يقتل مدبرا . قال : فاقتتلوا ساعة ، والنساء والصبيان يصيحون ويبكون على قتلاهم ، حتى جاءهم ما لا طاقة لهم به ، وجعل مسلم يقول . من جاء برأس رجل فله كذا وكذا ، وجعل يغرى قوما لا دين لهم ، فقتلوا وظهروا على أكثر المدينة . قال : وكان على بشر ابن حنظلة يومئذ درعان ، فلما هزم القوم طرحهما . ثم جعل يقاتلهم وهو حاسر حتى قتلوه ، ضربه رجل من أهل الشام ضربة بالسيف قطع منـكبه ، فوقع ميتا . فلما مات ابن حنظلة صار أهل المدينة كالنعم بلا راع، شرود يقتلهم أهل الشام من كل وجه ، فأقبل محمد بن عمرو بن حزم الأنصارى ، وإن جراحه لتنفث دما ، وهو يقاتل ويحمل على الـكردوس منهم فيفضّ جماعتهم ، وكان فارسا ، فحمل عليه أهل الشام حملة واحدة حتى نظموه بالرماح ، فمال ميتا . فلما قتل انهزم من بقى من الناس فى كل وجه ، ودخل القوم المدينة ، فجالت خيولهم فيها يقتلون وينهبون .

قال : وخرج يومئذ عبد الله بن زيد بن عاصم صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والخيل تسرع فى كلّ وجه قتلا ونهبا : فقيل له : لو علم القوم باسمك وصحبتك لم يهيجوك ،

فلو أعلمتهم بمكانك ؟ فقال : والله لا أقبل لهم أمانا ، ولا أبرح حتى أقتل ، لا أفلح من ندم ، وكان رجلا أبيض طويلا أصلع ، فأقبل عليه رجل من أهل الشام وهو يقول : والله لا أبرح حتى أضرب صلعته وهو حاسر . فقال عبد الله : شرّ لك خير لى ، فضربه بفأس فى يده ، فرأيت نورا ساطعاً فى السماء ، فسقط ميتا . وكان يومه ذلك صائما ، رحمه الله .

قال : فجعل مسلم يطوف على فرس له ومعه مروان بن الحكم على القتلى . فمرّ على عبد الله ابن حنظلة ، وهو مادّ أصبعه السبابة . فقال مروان : أما والله لئن نصبتها ميتاً فطالما نصبتها حيا ، داعيا إلى الله . ومرّ على إبراهيم بن نعيم ، ويده على فرجه ، فقال: أما والله لئن حفظته فى الممات لقد حفظته فى الحياة . ومر علىّ محمد بن عمرو بن حزم وهو على وجهه واضعا جبهته بالأرض،فقال :أما والله لئن كنت على وجهك فى الممات لطالما افترشته حيا ساجدا لله. فقال مسلم: والله ما أرى هؤلاء إلا من أهل الجنة . ومرّ على عبد الله بن زيد وبين عينيه أثر السجود ، فلما نظر إليه مروان عرفه ، وكره أن يعرفه لمسلم فيحزّ رأسه . فقال له مسلم: من هذا؟ فقال بعض هذه الموالى وجاوزه ، فقال له مسلم : كلا ، وبيت الله لقد نكبت عنه لشيء. فقال له مروان هذا صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن زيد . فقال : ذاك أخزى ناكث بيمته حزّوا رأسه .

وكان قصر بنى حارثة أماناً لمن أراد أهل الشام أن يؤمّنوه ، وكان بنو حارثة آمنين ما قتل منهم أحد،وكان كلّ من نادى باسم الأمان إلى أحد من قبيلة بنى حارثة أمنوه رجلا كان أو امرأة ثم ذهبوا عنه حتى يبلغوه قصر بنى حارثة ، فأجير يومئذ رجال كثير ونساء كثيرة ، فلم يزالوا فى قصر بنى حارثة حتى انقضت الثلاث .

قال : وأوّل دور انتهبت والحرب قائمة دور بنى عبد الأشهل ، فما تركوا فى المنازل من أثاث ولا حلىّ ولا فراش إلا نقض صوفه ، حتى الحمام والدجاج كانوا يذبحونهما ، فدخلوا دار محمد بن مسلمة ، فصاح النساء ، فأقبل زيد بن محمد بن مسلمة إلى الصوت ، فوجد عشرة ينهبون ، فقاتلهم ومعه رجلان من أهله حتى قتل الشاميون جميعاً ،وخلّصوا منهم ما أخذوه ، فألقوا متاعهم فى بئر لا ماء فيها ، وأبقي عليها التراب ، ثم أقبل نفر من أهل الشام ، فقاتلوهم أيضا ، حتى قتل زيد بن محمد أربعة عشر رجلا ، فضربه بالسيف منهم أربعة فى وجهه . ولزم أبو سعيد الخدرىّ بيته ، فدخل عليه نفر من أهل الشام ، فقالوا : أيها الشيخ ، من أنت ؟ فقال : أنا أبو سعيد الخدرى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : ما زلنا

نسمع عنك ، فبحظك أخذت فى تركك قتالنا ، وكفك عنا ، ولزوم بيتك ، ولكن أخرج إلينا ما عندك . قال : والله ما عندى مال ، فنتفوا لحيته ، وضربوه ضربات ، ثم أخذوا كلّ ما وجدوه فى بيته حتى الصواع (١) ، وحتى زوج حمام كان له .

وكان جابر بن عبد الله يومئذ قد ذهب بصره ، فجعل يمشى فى بعض أزقة المدينة ، وهو يقول : تعس من أخاف الله ورسوله . فقال له رجل : ومن أخاف الله ورسوله ؟ فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من أخاف المدينة فقد أخاف ما بين جنبىّ ، فحمل عليه رجل بالسيف ليقتله ، فترامى عليه مروان فأجاره ، وأمر أن يدخله منزله ، ويغلق عليه بابه ، وكان سعيد بن المسيب رحمه الله لم يبرح من المسجد ، ولم يكن يخرج إلا من الليل إلى الليل ، وكان يسمع إذا جاء وقت الأذان أذانا يخرج من قبل القبر الشريف ، حتى آمن الناس ، فكان سعيد يقول : ما رأيت خيراً من الجماعة ، ثم أمر مسلم بالأسارى ، فغلوا بالحديد ، ثم دعا إلى بيعة يزيد ، فكان أوّل من بايع مروان بن الحكم ، ثم أكابر بنى أمية ، حتى أتى على آخرهم . ثم دعا بنى أسد ، وكان عليهم حنقا ، فقال : أتبايعون لعبد الله يزيد بن أمير المؤمنين ولمن استخلف عليكم بعده ، على أن أموالكم ودماءكم وأنفسكم خول له ، يقضى فيها ما شاء ؟ قال يزيد بن عبد الله بن زمعة : إنما نحن نفر من المسلمين لنا ما لهم وعلينا ما عليهم . فقال مسلم : والله لا أقيلك ، ولا تشرب البارد بعدها أبداً ، فأمر به ، فضربت عنقه . ثم أتى بمعقل بن سنان ، وكان معقل حاملا لواء قومه يوم الفتح مع رسول الله، فلما دخل عليه قال له :أعطشت يا معقل ؟ قال : نعم أصلح الله الأمير ، قال : حيسوا له شربة من سويق اللوز الذى زوّدنا به أمير المؤمنين ، فلما شربها قال له : رويت ؟ قال : نعم . فقال مسلم : أما والله لا تبولها من مثانتك أبدا ، فقدم ، فضربت عنقه ، ثم قال : ما كنت لأدعك بعد كلام سمعته منك تطعن به على إمامك ، وكان معقل قد طعن بعض الطعن على يزيد قبل ذلك ، فيما بينه وبين مسلم ، على الاستراحة بذلك ، ثم أمر بمحمد بن أبى الجهم وجماعة من وجوه قريش والأنصار ، وخيار الناس والصحابة والتابعين ، ثم أتى بعبيد الله بن الحارث مغلولا . فقال مسلم : أنت القائل : اقتلوا سبعة عشر رجلا من بنى أمية ، لا تروا شراً أبداً ؟ قال : قد قلتها ، ولكن لا يسمع من أسير أمر ، أرسل يدىّ ، وقد برئت منى الذمة ، إنما نزلت بعهد الله وميثاقه ، وايم الله لو أطاعونى وقبلوا منى ما أشرت به عليهم ما تحكمت فيهم أنت أبداً . فقال له مسلم : والله لأقدمنك إلى نار تلظى ، ثم أمر به فضربت عنقه . فقال

---

(١) الصواع : الكوز الذى يشرب به .

مروان : قد والله سقيتنى من دماء هؤلاء القوم ، إلا ما كان من قريش ، فإنك أثخنتها وأفنيتها . فقال مسلم : والله لا أعلم عند أحد غشا لأمير المؤمنين إلا سألت الله أن يسقينى دمه . فقال : إن عند أمير المؤمنين عفواً لهم ، وحلماً عنهم ليس عندك . وجعل مروان يعتذر إلى قريش ، ويقول : والله لقد ساءنى قتل من قتل منكم . فقالت له قريش : أنت والله الذى قتلتنا ، ما عذرك الله ولا الناس ، لقد خرجت من عندنا ، وحلفت لنا عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لتردّنهم عنا ، فإن لم تستطع لتمضينّ ولا ترجع معهم ، فرجعت ، ودللت على العورة ، وأعنت على الملكة ، فالله لك بالجزاء . قال : فبلغ عدّة قتلى الحرّة يومئذ من قريش والأنصار والمهاجرين ووجوه الناس ، ألفا وسبع مئة ، وسائرهم من الناس عشرة آلاف ، سوى النساء والصبيان .

قال أبو معشر : دخل رجل من أهل الشام على امرأة نفساء من نساء الأنصار ومعها صبىّ لها ، فقال لها . هل من مال ؟ قالت : لا والله ما تركوا لى شيئاً . فقال : والله لتخرجِنّ إلىّ شيئاً أو لأقتلنك وصبيك هذا . فقالت له : ويحك إنه ولد ابن أبى كبشة الأنصارى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقد بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم معه يوم بيعة الشجرة، على أن لا أزنى ، ولا أسرق ، ولا أقتل ولدى ، ولا آتى ببهتان أفتريه ، فما أتيت شيئاً ، فاتق الله . ثم قالت لابنها : يا بنى ، والله لو كان عندى شىء لافتديتك به . قال : فأخذ برجل الصبى ، والثدى فى فمه ، فجذبه من حجرها ، فضرب به الحائط فانتثر دماغه فى الأرض ، قال : فلم يخرج من البيت حتى اسوّد نصف وجهه ، وصار مثلا .

قال أبو معشر : قال لى رجل : بينا أنا فى بعض أسواق الشام ، إذا برجل ضخم ، فقال لى : ممن أنت ؟ قلت : رجل من أهل المدينة ، قال : من أهل الخبيثة ؟ قال : فقلت له سبحان الله ، رسول الله صلى الله عليه وسلم سماها طيبة وسميتها خبيثة ! قال : فبكى ، فقلت له : ما يبكيك ، قال : العجب والله ، كنت أغزو الصائفة كل عام زمن معاوية ، فأتيت فى المنام فقيل لى : إنك تغزو المدينة ، وتقتل فيها رجلا يقال له : محمد بن عمرو بن حزم ، وتكون بقتله من أهل النار . قال : فقلت : ما هذا من شأن المدينة ، ولا يقع فى نفس مدينة الرسول . قال : فقلت : لعلها بعض مدائن الروم ، فكنت أغزو ولا أسلّ فيها سيفاً ، حتى مات معاوية ، وولى يزيد ، فضرب قرعة بعث المدينة ، فأصابتنى القرعة . قال : فقلت : هى هذه والله ، فأردت أن يأخذوا منى بديلا ، فأبوا ، فقلت فى نفسى : أما إذا أبوا ، فإنى لا أسلّ فيها سيفاً . قال : فحضرت الحرّة ، فخرج أصحابى يقاتلون ، وجلست فى فسطاطى ، فلما فرغوا من القتال ، جاءنا أصحابنا ،

فقالوا : دخلنا وفرغنا من الناس ، فقال بعض أصحابى لبعض : تعالوا حتى ننظر إلى القتلى ، فتقلدت سيفى وخرجت ، فجعلنا ننظر إلى القتلى ونقول : هذا فلان ، وهذا فلان ، فإذا رجل فى بعض تلك الدارات فى يده سيف ، وقد أزبد شدقاه ، وحوله صرعى من أهل الشام ، فلما أبصرنى قال: يا كلب احقن عنى دمك. قال فنسيت والله كل شىء، فحملت عليه، فقاتلته فقتلته، فسطع نور بين عينيه وسقط فى يدى ، قلت : من هذا ؟ فقيل لى : هذا محمد بن عمرو بن حزم ، فجعلت أدور مع أصحابى ، فيقولون : هذا فلان ، وهذا فلان . فمرّ إنسان لا يعرف ، فقال : من قتل هذا ، ويحكم، يريد محمد بن عمرو بن حزم ! قتله الله ، والله لا يرى الجنة بعينه أبداً .

عدة من قتل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وغيرهم

قال : وذكروا أنه قتل يوم الحرّة من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم ثمانون رجلا ، ولم يبق بدرىّ بعد ذلك ، ومن قريش والأنصار سبع مئة ، ومن سائر الناس من الموالى والعرب والتابعين عشرة آلاف ، وكانت الوقعة فى ذى الحجة لثلاث بقين منها سنة ثلاث وستين . قالوا : وكان الناس يعجبون من ذلك أن ابن الزبير لم يصلوا إليه إلا بعد ستة أشهر ، ولم يكن مع ابن الزبير إلا نفر قليل ، وكان بالمدينة أكثر من عشرة آلاف رجل ، والله ما استطاعوا أن يناهضوهم يوما إلى الليل .

كتاب مسلم بن عقبة إلى يزيد

قال : وذكروا أن مسلما لما فرغ من قتال أهل المدينة ونهبها، كتب إلى يزيد بن معاوية بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله يزيد بن معاوية أمير المؤمنين من مسلم بن عقبة ، سلام عليك ياأمير المؤمنين ورحمة الله ، فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو، أما بعد : تولى الله حفظ أمير المؤمنين والكفاية له ، فإنى أخبر أمير المؤمنين أبقاه الله ، أنى خرجت من دمشق ونحن على التعبئة التى رأى أمير المؤمنين يوم فارقنا بالعافية ، فلقينا أهل بيت أمير المؤمنين بوادى القرى ، فرجع معنا مروان بن الحكم ، وكان لنا عونا على عدوّنا ، وإنا انتهينا إلى المدينة فإذا أهلها قد خندقوا عليها الخنادق ، وأقاموا على أنقابها الرجال بالسلاح وأدخلوا ما شيتهم ، وما يحتاجون لحصارهم سنة فيما كانوا يقولون ، وإنا أعذرنا إليهم ، وأخبرناهم بعهد أمير المؤمنين ، وما بذل لهم ، فأبوا ، ففرقت أصحابى على أفواه الخنادق ، فوليت الحصين بن نمير ، ناحية ذناب وما والاها ، وعلى الموالى وجهت حبيش بن دجلة إلى ناحية بنى سلمة ،

ووجهت عبد الله بن مسعدة إلى ناحية بقيع الغرقد[1] ،وكنت ومن معى من قواد أمير المؤمنين ورجاله فى وجوه بنى حارثة ، فأدخلنا الخيل عليهم حين ارتفع النهار ، من ناحية عبد الأشهل بطريق فتحه لنا رجل منهم بما دعاه إليه مروان بن الحكم إلىصنيع أمير المؤمنين ، وما تضمن له عنه من قرب المكان ، وجزيل العطاء ، وإيجاب الحق ، وقضاء الذمام ، وقد بعثت به إلى أمير المؤمنين ، وأرجو من الله عز وجل ، أن يلهم خليفته وعبده عرفان ما أولى من الصنع وأسدى من الفضل ، وكان أكرم الله أمير المؤمنين من محمود مقام مروان بن الحكم ، وجميل مشهده ، وسديد بأسه ، وعظيم نكايته لعدو أمير المؤمنين ، مالا إخال ذلك ضائعا عند إمام المسلمين وخليفة رب العالمين إن شاء الله ، وسلم الله رجال أمير المؤمنين ، فلم يصب منهم أحد بمكروه ، ولم يقم لهم عدوهم من ساعات نهارهم أربع ساعات ، فما صليت الظهر أصلح الله أمير المؤمنين إلا فى مسجدهم ؛ بعد القتل الذريع ، والانتهاب العظيم ، وأوقعنا بهم السيوف وقتلنا من أشرف لنا منهم ، وأتبعنا مدبرهم وأجهزنا على جريحهم ، وانتهبناهم ثلاثا كما قال أمير المؤمنين ، أعز الله نصره ، وجعلت دور بنى الشهيد المظلوم عثمان بن عفان ، فى حرز وأمان ، فالحمد لله الذى شفى صدرى من قتل أهل الخلاف القديم ، والنفاق العظيم ، فطالما عتوا ، وقديما ما طغوا .

وكتبت إلى أمير المؤمنين ، وأنا فى منزل سعيد بن العاص مدنفا مريضا ، ما أرانى إلا لما بى ، فما كنت أبالى ، متى مت بعد يومى هذا ، وكتب لهلال المحرم سنة ثلاثوستين . فلما جاءه الكتاب ، أرسل إلى عبد الله بن جعفر وإلى ابنه معاوية بن يزيد، فأقرأهما الكتاب ،فاسترجع عبد الله بن جعفر وأكثر ، وبكى معاوية بن يزيد ، حتى كادت نفسه تخرج ،وطال بكاؤه ، فقال يزيد لعبد الله بن جعفر : ألم أجبك إلى ما طلبت، وأسعفتك فيما سألت، فبذلت لهم العطاء وأجزلت لهم الإحسان ، وأعطيت العهود والمواثيق على ذلك ؟ فقال عبد الله بن جعفر : فمن هنالك استرجعت ، وتأسفت عليهم، إذ اختاروا البلاء على العافية ، والفاقة علىالنعمة ، ورضوا بالحرمان دون العطاء ، ثم قال يزيد لابنه معاوية : فما بكاؤك أنت يابنىّ ؟ قال : أبكى على قتل من قتل من قريش ، وإنما قتلنا بهم أنفسنا . فقال يزيد: هو ذاك، قتلت بهم نفسى وشفيتها قال : وسأل مسلم بن عقبة قبل أن يرتحل عن المدينة عن علىّ بن الحسين ، أحاضر هو ؟ فقيل له : نعم . فأتاه علىّ بن الحسين ، ومعه ابناه ، فرحب بهما ، وسهل وقربهم ، وقال :

---

(١) بقيع الغرقد : مقبرة المدينة .

إن أمير المؤمنين أوصانى بك . فقال علىّ بن الحسين : وصل الله أمير المؤمنين وأحسن جزاءه ثم انصرف عنه . ولم يكن أحد نصب للحرب من بنى هاشم ، ولزموا بيوتهم ، فسلموا ، إلا ثلاثة منهم تعرّضوا للقتال ، فأصيبوا .

موت مسلم بن عقبة ونبشه

قال : وذكروا أن مسلم بن عقبة ارتحل عن المدينة ، وهو يجود بنفسه ، يريد ابن الزبير بمكة ، فنزل فى بعض الطريق ، فدعا الحصين بن نمير .فقال له : يابرذعة الحمار ، إنه كان من عهد أمير المؤمنين إن حدث بى حدث الموت أن أعهد إليك ، فاسمع ، فإنى بك عالم ، لاتمكن قريشا من أذنك إذا قدمت مكة فتبول (أى قريش فيها) ، فإنما هو الوفاق ، ثم النفاق ثم الانصراف ثم مات فدفن فى ثنية المشلل [1] ،فلما تفرق القوم عنه ، أتته أم ولد ليزيد بن عبد الله بن زمعة ، وكانت من وراء العسكر تترقب موته ، فنبشت عنه ، فلما انتهت إلى لحده ، وجدت أسود من الأساود منطويا فى رقبته ، فاتحاً فاه ، فتهيبته . ثم لم تزل به حتى تنحى لها عنه فصلبته على المشلل . قال الضحاك : فحدثنى من رآه مصلوبا يرمى كما يرمي قبر أبى رغال . [2]

فضائل قتلى أهل الحرة رحمهم الله تعالى

قال : وذكروا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج فى سفر من أسفاره فلما مرّ بحرّة بنى زهرة ، وقف فاسترجع . . فقالوا : ما هو يارسول الله ؟ قال : يقتل فى هذه الحرّة خيار أمتى بعد أصحابى . قال : وذكروا أن عبد الله بن سلام وقف بالحرّة زمان معاوية بن أبى سفيان . فقال : أجد فى كتاب يهود الذى لم يبدّل ولم يغير، أنه يكون هاهنا مقتلة قوم يحشرون يوم القيامة واضعى سيوفهم على رقابهم ، حتى يأتوا الرحمن تبارك وتعالى ، فيقفون بين يديه ، فيقولون : قتلنا فيك . قال : وذكروا عن داود بن الحصين قال : عندنا قبور قوم من قتلى الحرّة ، فقلّ ما حرّكت إلا فاح منها ريح المسك . وقال بعضهم : عن عبد الله بن أبى سفيان

---

(١) ثنية المشلل : الثنية العقبة أى الأرض المرتفعة. والمشلل: بضم الميم وفتح اللام المشددة جبل بالمدينة .

(٢) أبو رغال : بكسر الراء قيل هو رجل من ثمود كان يقيم بالحرم يدافع عنه فلما خرج منه أصابته النقمة ، وقيل كان دليلا للحبشة حين توجهوا إلى مكة ، وقيل كان عشاراً جائراً ، ورجم قبره لكراهة الناس له .

عن أبيه قال : رأيت عبد الله بن حنظلة فى منامى بأحسن صورة ، معه لؤلؤه ، فقلت : يا أباعبد الرحمن ، أقتلت ؟ قال : بلى ، فلقيت ربى ، فأدخلنى الجنة ، فأنا أسرح فى ثمارها حيث شئت ، قلت : فأصحابك ما صنع بهم؟ قال : هم معى ، وحول لوائى هذا الذى ترى لم تحل عقدته بعد. وقال ابن سيرين رحمه الله تعالى: رأيت كثير بن أفلح رضى الله عنه فى النوم ، فقلت له : ألست قد استشهدت ؟ قال : ليس فى الإسلام شهادة ، ولكنها الندباء . وقال الأعرج :كان الناس لايلبسون المصبوغ(٢)من الثياب قبل الحرة،فلما قتل الناس بالحرة استحبوا أن يلبسوها وقالوا : لقد مكث النوح فى الدور على أهل الحرة سنة لايهدءون . وقال عبد الله بن أبى بكر كان أهل المدينة أعز الناس وأهيبهم ، حتى كانت الحرة ، فأجترأ الناس عليهم فهانوا . قال الزهرى : بلغ القتلى يوم الحرة من قريش والأنصار ، ومهاجرة العرب ووجوه الناس سبع مئة ، وسائر الناس عشرة آلاف . من أخلاط الناس والموالى والعبيد ، قال وأصيب نساء وصبيان وكان قدوم أهل الشام المدينة لثلاث بقين من ذى الحجة ، سنة ثلاث وستين، فانتهبوها ثلاثا حتى رأوا هلال المحرم ، ثم أمسكوا بعد أن لم يبقوا أحدا به رمق، وقتل بها من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ثمانون رجلا ، ولم يبق بعد ذلك بدرى .

وقالوا : قال عيسى بن طلحة : قلت لعبد الله بن مطيع : كيف نجوت يوم الحرة ؟ قال : رأيت ما رأيت من غلبة أهل الشام ، وصنع بنى حارثة الذى صنعوا من إدخالهم علينا وولى الناس ، فذكرت قول الحارث بن هشام يوم بدر ، وعلمت أنه لايضر عدوى مشهدى ، ولاينفع وليى،فتواريت ، ثم لحقت با بن الزبير،وكنت أعجب كل العجب أن ابن الزبير لم يصلوا إليه ستة أشهر ، ولم يكن معه إلا نفر يسير ، قوم من قريش من الخوارج ، وكان معنا يوم الحرة ألفا رجل ، كلهم ذوو حفاظ ، فما استطعنا أن نحبسهم يوماً إلى آخر الليل .

تم الجزء الأول من كتاب الإمامة والسياسة

ويليه الجزء الثانى

---

(١) المراد بالمصبوغ هنا : المصبوغ بالسواد .

فهرس

الجـــزء الأول

من الامامة والسياسة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة



تأليف

الإمام الفقيه أبي محمد عبد الله بن مسلم

ابن قتيبة الدينوري

المولود سنة ٢١٣ والمتوفى سنة ٢٧٦ هـ رحمه الله

وهو المعروف بتاريخ الخلفاء

تحقيق الدكتور

طه محمد الزيني

الأستاذ بالأزهر

الجزء الثاني

الناشر

دار المعرفة

للطباعة والنشر

بيروت - لبنان



بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر اختلاف الرواة فى وقعة الحرة وخبر يزيد

قال : وذكروا أنه لما بويع يزيد بن معاوية خرج الحسين حتى قدم مكة ، فأقام هو وابن الزبير . قال : وقدم عمرو بن سعيد بن العاص فى رمضان أميرا على المدينة وعلى الموسم ، وعزل الوليد بن عقبة ، فلما استوى على المنبر رعف فقال أعرابىّ مستقبله : مه مه ! جاءنا والله بالدم فتلقاه رجل بعمامته ، فقال مه ! عمّ والله الناس ، ثم قام يخطب ، فناوله آخر عصا لها شعبتان . فقال : مه ! شعب والله الناس . ثم خرج إلى مكة ، فقدمها يوم التروية ، فصلى الحسين ثم خرج .

فلما انصرف عمرو بلغه أن الحسين خرج ، فقال : اركبوا كلّ بعير بين السماء والأرض فاطلبوه . قال : فكان الناس يعجبون من قوله هذا . قال : فطلبوه فلم يدركوه ، فأرسل عبد الله بن جعفر ابنيه عونا ومحمدا ليردا الحسين . فأبى أن يرجع ، وخرج الحسين بابنى عبد الله ابن جعفر معه ، ورجع عمرو بن سعيد بن العاص إلى المدينة ، فأرسل إلى ابن الزبير ، فأبى أن يأتيه ، وامتنع برجال معه من قريش وغيرهم . قال : فبعث عمرو بن سعيد جيشا من المدينة يقاتلون ابن الزبير . قال : فضرب على أهل الديوان البعث إلى مكة ، وهم كارهون للخروج . فقال لهم : إما أن تأتوا ببدل ، وإما أن تخرجوا . قال : فجاء الحارث بن مالك بن البرصاء برجل استأجره بخمس مئة درهم إلى عمرو بن سعيد . فقال : قد جئت برجل بدلى . فقال الحارث للرجل الذى استأجره هل لك أن أزيدك خمس مئة أخرى ، وتنكح أمك ؟ فقال له : أما تستحى ؟ فقال : إنما حرمت عليك أمك فى مكان واحد ، وحرّمت عليك الكعبة فى كذا وكذا مكان من القرآن . قال فجاء به إلى عمرو بن سعيد، قال : قد جئتك برجل لو أمرته أن ينكح أمه لنكحها . فقال له عمرو : لعنك الله من شيخ . قال : فبعثهم إلى مكة يقاتلون ابن الزبير ، فهزم عمرو ابن الزبير ، وبعث يزيد بن معاوية عبد الله بن مسعدة الفزارى ، يخطب الناس بالمدينة . فقال فى خطبته : أهل الشام جند الله الأعظم ، وأهل الشام خير الخلق . فقال الحارث بن مالك : ائذن لى أن أتكلم . فقال : اجلس لا أجلسك الله من شيخ . قال : فتشهد الحارث وقال : لعمر الله لنحن خير من أهل الشام، ما نقمت من أهل المدينة إلا أنهم قتلوا

أباك وهو يسرق لقاح النبيّ صلى الله عليه وسلم ، أنسيت طعنة أبي قتادة است أبيك بالرمح ، فخرج منه جموص مثل هذا ، وأشار إلى ساعده ، ثم جلس .

ولاية الوليد المدينة وخروج الحسين بن عليّ

قال : وذكروا أن يزيد بن معاوية ، عزل عمرو بن سعيد، وأمّر الوليد ابن عقبة ،وخرج الحسين بن عليّ إلى مكة ، فمال الناس إليه ، وكثروا عنده واختلفوا إليه ، وكان عبد الله بن الزبير فيمن يأتيه.قال: فأتاه كتاب أهل الكوفة فيه : بسم الله الرحمن الرحيم،للحسين بن عليّ ، من سليمان بن صرد ، والمسيب ، ورفاعة بن شدّاد ، وشيعته من المؤمنين والمسلمين من أهل الكوفة . أما بعد ، فالحمد لله الذى قصم عدوّك الجبار العنيد ، الذى اعتدى على هذه الأمة ، فانتزعها حقوقها ، واغتصبها أمورها ، وغلبها على فيئها ، وتأمّر عليها على غير رضاً منها ، ثم قتل خيارها ، واستبقى شرارها ؛ فبعداً له كما بعدت ثمود ، إنه ليس علينا إمام ، فاقدم علينا ، لعلّ الله أن يجمعنا بك على الهدى ، فإن النعمان بن بشير فى قصر الإمارة،ولسنا نجتمع معه فى جمعة ، ولا نخرج معه إلى عيد ، ولو قد بلغنا مخرجك أخرجناه من الكوفة ، وألحقناه بالشام والسلام . قال : فبعث الحسين بن على مسلم بن عقيل إلى الكوفة يبايعهم له، وكان على الكوفة النعمان بن بشير . فقال النعمان :لابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبّ إلينا من ابن بحدل. قال : فبلغ ذلك يزيد ، فأراد أن يعزله . فقال لأهل الشام:أشيروا علىّ ، من أستعمل على الكوفة ؟ فقالوا : أترضى برأى معاوية ؟ قال : نعم ، قالوا : فإن الصكّ بإمرة عبيدالله بن زياد على العراقين قد كتبه فى الديوان . قال : فاستعمله على الكوفة ، فقدم الكوفة قبل أن يقدم الحسين ، وبايع له مسلم بن عقيل وأكثر من ثلاثين ألفاً من أهل الكوفة ، فنهضوا معه يريدون عبيد الله بن زياد ؛ فجعلوا كلما أشرفوا على زقاق، انسلّ عنه منهم ناس ، حتى بقى مسلم فى شرذمة قليلة . قال : فجعل أناس يرمونه بالآجرّ من فوق البيوت ؛ فلما رأى ذلك دخل دار هانىء بن عروة المرادى ، وكان له فيهم رأى. فقال له هانىء بن عروة : إن لى من ابن زياد مكاناً ، وسوف أتمارض له ، فإذا جاء يعودنى ، فاضرب عنقه ، قال : فقيل لابن زياد :إن هانىء بن عروة شاك يقىء الدم . قال : وشرب المغرة ، فجعل يقيئها . قال : فجاء ابن زياد يعوده ، وقال لهم هانىء : إذا قلت لكم اسقونى ، فاخرج إليه فاضرب عنقه ، فقال اسقونى ، فأبطئوا عليه ، فقال : ويحكم اسقونى ولو كان فيه ذهاب نفسى قال : فخرج عبيد الله بن زياد ولم يصنع الآخر شيئاً ، وكان من أشجع الناس ، ولكنه أخذته كبوة ، فقيل لابن زياد : والله إن فى البيت رجلا متسلحا . قال : فأرسل ابن زياد إلى هانىء فدعاه . فقال : إنى شاك لا أستطيع النهوض . فقال : ائتونى به وإن كان شاكيا ، قال : فأخرج له دابة ، فركب ومعه عصاه وكان

أعرج ، فجعل يسير قليلا ويقف ، ويقول : مالى أذهب إلى ابن زياد ؟ فما زال ذلك دأبه حتى دخل عليه . فقال له عبيد الله بن زياد : ياهانىء ، أما كانت يد زيادعندك بيضاء ؟ قال : بلى ، قال : ويدى ؟ قال : بلى ، فقال يا هانىء : قد كانت لكم عندى يد بيضاء ، وقد أمنتك على نفسك ومالك ، فتناول العصا التى كانت بيد هانىء ، فضرب بها وجهه حتى كسرها ، ثم قدمه فضرب عنقه . قال : وأرسل جماعة إلى مسلم بن عقيل ، فخرج عليهم بسيفه ، فما زال يقاتلهم حتى أخرج وأسر ، فلما أسر بعث الرجال ، فقال : اسقونى ماء . قال : ومعه رجل من بنى أبى معيط ، ورجل من بنى سليم يقال له : شهر بن حوشب . فقال له شهر بن حوشب : لا أسقيك إلا من البئر . فقال المعيطى : والله لا نسقيه إلا من الفرات ، قال : فأمر غلاماً له ، فأتاه بإبريق من ماء ، وقدح قوارير ومنديل . قال : فسقاه فتمضمض مسلم ، فخرج الدم ، فما زال يمسح الدم ، ولا يسيغ شيئاً منه حتى قال : أخّروه عنى . قال : فلما أصبح دعا به عبيد الله بن زياد وهو قصير ، فقدمه لتضرب عنقه ، فقال : دعنى حتى أوصى ، فقال : أوص . فنظر مسلم فى وجوه الناس فقال لعمرو بن سعيد : ما أرى هاهنا من قريش غيرك ، فادن منى حتى أكلمك ، فدنا منه ، فقال له : هل لك أن تكون سيد قريش ما كانت قريش ؟ إن الحسين ومن معه وهم تسعون بين رجل وامرأة فى الطريق فارددهم ، واكتب إليهم بما أصابنى . قال : فضرب عنقه وألقاه عمرو لعبيد الله وقال : أتدرى ما قال ؟ فقال عبيد الله اكتم على ابن عمك . فقال عمرو : هو أعظم من ذلك ، فقال ابن زياد : فأىّ شىء هو ؟ قال : أخبرنى أن الحسين ومن معه قد أقبل . وهم تسعون إنساناً بين رجل وامرأة . فقال : أما والله إذ دللت عليه لا يقاتلهم أحد غيرك .

قتال عمرو بن سعيد الحسين وقتله

قال : وذكروا أن عبيد الله بن زياد ، بعث جيشا أمّر عليهم عمرو بن سعيد ، وقد جاء الحسين الخبر ، فهم أن يرجع ومعه خمسة من بنى عقيل فقالوا له : أترجع وقد قتل أخونا ، وقد جاءك من الكتب ما تثق به ؟ فقال لبعض أصحابه : والله مالى عن هؤلاء من صبر ، يعنى بنى عقيل . قال : فلقيه الجيش على خيولهم بوادى السباع ، فلقوهم وليس معهم ماء . فقالوا : يا بن بنت رسول الله اسقنا . قال : فأخرج لكل فارس صحفة من ماء ، فسقاهم بقدر ما يمسك برمقهم . ثم قالوا: سر يا بن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما زالوا يرجونه، وأخذوا به على الجرف حتى نزلوا بكربلاء ، فقال الحسين : أى أرض هذه ؟ قالوا : كربلاء ، قال : هذا كرب وبلاء . قال : فنزلوا وبينهم وبين الماء ربوة ، فأراد الحسين وأصحابه الماء فحالوا بينهم

وبينه . فقال له شهر بن حوشب لا تشربوا منه حتى تشربوا من الحميم ، فقال عباس بن عليّ : يا أبا عبد الله ، نحن على الحقّ فنقاتل ؟ قال نعم . فركب فرسه ، وحمل بعض أصحابه على الخيول ، ثم حمل عليهم فكشفهم عن الماء حتى شربوا وسقوا . ثم بعث عبيد الله بن زياد عمرو بن سعيد يقاتلهم . قال الحسين : يا عمرو ، اختر منى ثلاث خصال : إما أن تتركنى أرجع كما جئت ، فإن أبيت هذه فأخرى ، سيّرنى إلى الترك أقاتلهم حتى أموت ، أو تسيّرنى إلى يزيد فأضع يدى فى يده ؛ فيحكم فىّ بما يريد . فأرسل عمرو إلى ابن زياد بذلك فهمّ أن يسيره إلى يزيد . فقال له شهر بن حوشب : قد أمكنك الله من عدوك وتسيره إلى يزيد ، والله لئن سار إلى يزيد لا رأى مكروها ، وليكوننّ من يزيد بالمكان الذى لا تناله أنت منه ، ولا غيرك من أهل الأرض ، لا تسيره ولا تبلعه ريقه حتى ينزل على حكمك . قال : فأرسل إليه يقول : لا ، إلا أن تنزل على حكمى . فقال الحسين : أنزل على حكم ابن زانية ؟ لا والله لا أفعل ، الموت دون ذلك وأحلى . قال : وأبطأ عمرو بن سعيد عن قتاله . فأرسل عبيد الله بن زياد إلى شهر ابن حوشب إن تقدم عمرو يقاتل ، وإلا فأقتله ، وكن أنت مكانه . قال : وكان مع عمرو ابن سعيد من قريش ثلاثون رجلا من أهل الكوفة ، فقالوا : يعرض عليكم ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث خصال لا تقبلون واحدة منها ؟ فتحولوا مع الحسين ، فقاتلوا . قال. فرأى رجل من أهل الكوفة عبد الله بن الحسين بن عليّ على فرس ، وكان من أجمل الناس. قال: لأقتلنّ هذا الفتى ، فقيل له ويحك، ما تصنع بقتله ، دعه ، قال: فحمل عليه فضربه ، فقطع يده ، ثم ضربه ضربة أخرى فقتله ، ثم قتلوا جميعاً . فقتل يومئذ الحسين بن عليّ ، وعباس بن عليّ ، وعثمان بن عليّ ، وأبو بكر بن عليّ ، وجعفر بن عليّ ، وأمهم أمّ البنين بنت حرام الكلابية ؛ وإبراهيم بن عليّ ، وأمه أم ولد ، وعبد الله بن عليّ ، وخمسة من بنى عقيل ، وابنان لعبد الله بن جعفر : عون ، ومحمد ، وثلاثة من بنى هاشم ، ونساء من نسائهم ، وفيهم فاطمة بنت الحسين بن عليّ ، وفيهم محمد بن عليّ ، وابنا جعفر ، ومحمد بن الحسين بن عليّ .

قدوم من أسر من آل عليّ على يزيد

قال : وذكروا أن أبا معشر قال : حدثنى محمد بن الحسين بن عليّ ، قال : دخلنا على يزيد ، ونحن اثنا عشر غلاماً مغللّين فى الحديد وعلينا قمص . فقال يزيد : أخلصتم أنفسكم بعبيد أهل العراق ؟ وما علمت بخروج أبى عبد الله حين خرج ، ولا بقتله حين قتل . قال : فقال عليّ بن الحسين : (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها ، إن ذلك على الله يسير . لكيلا تأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم ، والله

لا يحبّ كل مختال فخور) . قال : فغضب يزيد ، وجعل يعبث بلحيته ، وقال : (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ، ويعفو عن كثير) ياأهل الشام ما ترون فى هؤلاء ؟ فقال رجل من أهل الشام لا تتخذن من كلب سوء جروا . فقال النعمان بن بشير : يا أمير المؤمنين ! اصنع بهم ما كان يصنع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لو رآهم بهذه الحال . فقالت فاطمة بنت الحسين : يا يزيد بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فبكى يزيد حتى كادت نفسه تفيض ، وبكى أهل الشام حتى علت أصواتهم . ثم قال : خلّوا عنهم ، واذهبوا بهم إلى الحمام ، واغسلوهم ، واضربوا عليهم القباب ، ففعلوا ، وأمال عليهم المطبخ وكساهم ، وأخرج لهم الجوائز الكثيرة من الأموال والكسوة ثم قال : لو كان بينهم وبين عاضّ بظر أمه[1] نسب ما قتلهم ، ارجعوا بهم إلى المدينة . قال : فبعث بهم من صار بهم إلى المدينة .

إخراج بنى أمية عن المدينة ، وذكر قتال أهل الحرّة

قال : وذكروا فى قصة إخراج بنى أمية عن المدينة ، قالوا : بعث عثمان بن محمد أمير المدينة إلى يزيد بقميصه مشقوقاً ، وكتب إليه : واغوثاه ! إن أهل المدينة أخرجوا قومنا من المدينة .

قال أبو معشر : فخرج يزيد بعد العتمة ، ومعه شمعتان شمعة عن يمينه ، وشمعة عن يساره ، وعليه معصفرتان ، وقد نقش جبهته كأنها ترس ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال: أما بعد ، يا أهل الشام ، فإنه كتب إلىّ عثمان بن محمد أن أهل المدينة أخرجوا قومنا من المدينة، ووالله لأن تقع الخضراء على الغبراء أحبّ إلىّ من هذا الخبر . قال : وكان معاوية أوصى يزيد فقال له : إن رابك من قومك ريب ، أو تنقص عليك منهم أحد ، فعليك بأعور بنى مرّة ، فاستشره ، يعنى مسلم بن عقبة ، فلما كانت تلك الليلة قال يزيد : أين مسلم بن عقبة ؟ فقام فقال : ها أنا ذا . قال عبّ ثلاثين ألفاً من الخيل . قال وكان معقل بن سنان الأشجعىّ نازلاً على مسلم بن عقبة . فقال له مسلم بن عقبة : إن أمير المؤمنين أمرنى أن أتوجه إلى المدينة فى ثلاثين ألفاً . فقال له : استعفه . قال : لا . قال : فاركب فيلاً أو فيلة ، وتكون أبايكسوم[2] ، فمرض مسلم قبل خروجه من الشام ، فأدنف فدخل عليه يزيد ابن معاوية يعوده ؟ قال له : قد كنت وجهتك لهذا البعث ، وكان أمير المؤمنين معاوية

---

(١) عاضّ بظر أمه : كناية عن أحط الناس ، لأن البظر هو ما بين اسكتى الفرج (الزنبور) والذى يعض بظر أمه يكون أحقر الناس .

(٢) أبو يكسوم : كنية أبرهة الحبشى صاحب الفيل الذى أتى به ليهدم الكعبة .

قد أوصانى بك ، وأراك مدنفاً ليس فيك سفر . فقال : يا أمير المؤمنين أنشدك الله ، أن لا تحرمنى أجراً ساقه الله إلىّ ، إنما أنا امرؤ وليس بى بأس . قال . فلم يطق من الوجع أن يركب بعيراً ولا دابة ، فوضع على سرير ، وحمله الرجال على أعناقهم ، حتى جاءوا مكاناً يقال له البتراء ، فأرادوا النزول به . فقال لهم : ما اسم هذا المكان ؟ فقيل له البتراء . فقال : لا تنزلوا به ، ثم سار حتى حاجزة ، فنزل به ، فأرسل إلى أهل المدينة : إن أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام ، ويقول لكم : أنتم الأصل والعشيرة والأهل ، فاتقوا الله واسمعوا وأطيعوا ، فإن لكم عندى فى عهد الله وميثاقه عطاءين فى كل سنة ، عطاء فى الصيف ، وعطاء فى الشتاء ، ولكم عندى عهد الله وميثاقه ، أن أجعل سعر الحنطة عندكم كسعر الحنطة عندنا ، والحنطة يومئذ سبعة آصع بدرهم ، وأما العطاء الذى ذهب به عنكم عمرو بن سعيد ، فعلىّ أن أخرجه لكم ، وكان عمرو بن سعيد قد أخذ أعطياتهم ، فاشترى بها عبيداً لنفسه : فقالوا لمسلم : نخلعه كما نخلع عمائمنا ، يعنون يزيد ، وكما نخلع نعالنا . قال : فقاتلهم ، فهزم الناس أهل المدينة (١) .

قال أبو معشر: حدثنا محمد بن عمرو بن حزم ، قال: قتل بضعة وسبعون رجلاً من قريش، وبضعة وسبعون رجلاً من الأنصار ، وقتل من الناس نحو من أربعة آلاف ، وقتل اثنان لعبد الله بن جعفر ، وقتل أربعة أو خمسة من ولد زيد بن ثابت لصلبه . فقال مسلم بن عقبة لأهل الشام : كفوا أيديكم ، فخرج محمد بن سعد بن أبى وقاص ، يريد القتال ، فقاتلهم بعد الكف . فقال مسلم بن عقبة : أنهبها ثلاثاً . قال : فقتل الناس ، وفضحت النساء ، ونهبت الأموال . فلما فرغ مسلم بن عقبة من القتال ، انتقل من منزله ذلك إلى قصر بنى عامر بدومة ، فدعا أهل المدينة من بقى منهم للبيعة . قال : فجاء عمرو بن عثمان بن عفان بيزيد بن عبد الله ابن زمعة ، وجدته أمّ سلمة زوج النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وكان عمرو قال لأمّ سلمة : أرسلى معى ابن بنتك ، فجاء به إلى مسلم، فلما تقدم يزيد قال له مسلم : تبايع لعبد الله يزيد أمير المؤمنين على أنكم خول له ، مما أفاء الله عليه بأسياف المسلمين ، إن شاء وهب ، وإن شاء أعتق ، وإن شاء استرقّ . فقال يزيد : لأنا أقرب إلى أمير المؤمنين منك . قال : والله لا تستقبلها أبداً . فقال عمرو بن عثمان : أنشدك الله ، فإنى أخذته من أمّ سلمة ، بعهده وميثاقه ، أن أردّه إليها . قال : فركضه برجله ، فرماه من فوق السرير ، فقتل يزيد بن عبد الله ، ثم أتى محمد بن أبى جهم مغلولاً . فقال له مسلم : أنت القائل ، اقتلوا سبعة عشر رجلاً من بنى أمية لا تروا شراً أبداً . قال : قد قلتها ولكن لا يسمع لقصير أمر ، فأرسل

---

(١) هذه إعادة لما ذكر فى الجزء الأول ، أعادها ابن قتيبة ليبنى عليها مابعدها .

يدى ، وقد برئت منى الذمة ، إنما نزلت بعد الله وميثاقه . قال : لا ، والله حتى أقدمك إلى النار . قال : فضرب عنقه . ثم جاء معقل بن سنان الأشجعى ، وكان جالساً فى بيته ، فأتاه مئة رجل من قومه،فقالوا له اذهب بنا إلى الأمير حتى نبايعه . فقال لهم : إني قد قلت له قولاً ، وأنا أتخوّف ، فقالوا : لا ، والله لا يصـــل إليك أبداً ؛ فلما بلغوا الباب أدخلوا معقلا ، وحبسوا الآخرين ، وأغلقوا البـاب ؛ فلما نظر إليه مسلم بن عقبة قال : إنى أرى شيخاً قد تعب وعطش ، أسقوه من البلح الذى زوّدنى به أمير المؤمنين ، قال : فخاضوا له بلحاً بعسل فشربه . قال له : أشربت ؟ قال : نعم ، قال : والله لا تبولها من مثانتك أبداً ، أنت القائل : اركب فيلاً أو فيلة وتـكون أبايكسوم . فقال معقل : أما والله لقد تخوّفت ذلك منك ، وإنما غلبتنى عشيرتى . قال : فجعل يفرى جبة كانت عليه ، وقال : أكره أن يلبسوها ، فضرب عنقه ، ثم سار إلى مكة ، حتى إذا بلغ قفا المشلل أدنف ، فدعا الحصـــين بن نمير . فقال له : يابن بردعة الحمار ، والله ما خلق الله أحداً أبغض إلىّ منك ، ولولا أن أمير المؤمنين أمرني أن أستخلفك ما استخلفتك ، أتسمع ؟ قال : نعم ؛ قال : لا تـكوننّ إلا على الوقاف ، ثم الثقاف[1] ، ثم الإنصراف ، ولا تمـكن قريشاً من أذنك . ثم مات مسلم بن عقبة ، فدفن بقفا المشلل ، وكانت أم ولد ليزيد بن عبد الله بن زمعة بأستار ، فخرجت إليه فنبشته من قبره ، ثم أحرقت عليه بالنـار ، وأخذت أكفانه فشققتها ، وعلقتها بالشجرة ، فـكل من مرّ عليه يرميه بالحجارة ، وسار الحصين حتى جاء مكة ، فدعاهم إلى الطاعة ، وعبد الله بن الزبير يؤمئذ بمـكة ، فلم يجبه ، فقاتله ، فقتل يومئذ المنذر بن الزبير ، ورجلان من إخوته ، ومصعب بن عبد الرحمن ، والمسور بن مخرمة .

حرب ابن الزبير رضى الله عنهما

قال : وذكروا أن مسلم بن عقبة لما فرغ من قتال أهل المدينة يوم الحرّة ، مضى إلى مكة المشرفة ، يريد ابن الزبير ، حتى إذا كان بقديد ، حضرته الوفاة ، فدعا الحصين بن نمير. فقال له : إن أمير المؤمنين عصانى فيك ، فأبى إلا استخلافك بعدى ، فلا ترسلنّ بينك وبين قريش رسولاً تمكنه من أذنيك ، إنما هو الوقاف ، ثم الثقاف ، ثم الانصراف . وهلك مسلم بن عقبة ، فدفن بالثنية . قال : وسمع بهم عبد الله بن الزبير ، فأحكم مراصد مكة ، فجعل عليها

---

(١) الوقاف : بكسر الواو : الوقوف للحرب ، والثقاف : الخصام والمجالدة ، يريد لا تـكن إلا على الحرب ولا تـكن على المهادنة أو تنصرف .

المقاتلة ، وجاءه جند أهل المدينة ، وأقبل ابن نمير حتى نزل على مكة ، وأرسل خيلاً فأخذت أسفلها ، ونصب عليها العرادات والمجانيق ، وفرض على أصحابه عشرة آلاف صخرة ، فى كل يوم يرمونها بها . فقال الناس : انظروه لئلا يصيبه ما أصاب أصحاب الفيل . قال عبد الله ابن عمرو بن العاص ، وكان بمكة معتمراً ، قدم من الطائف : لا تظنّه ذلك ، لو كان كافراً بها لعـــوقب دونها ، فأما إذا كان مؤمناً بها فسيبتلى فيها ، فكان كما قال ، وحاصروهم لعشر ليال بقين من المحرّم ، سنة أربع وستين ، فحاصروهم بقية المحرّم ، وصفر ، وشهرى ربيع ، يغدون على القتال ويروحون ، حتى جاءهم موت يزيد بن معاوية ، فأرسل الحصين بن نمير إلى ابن الزبير ، أن ائذن لنا نطوف بالبيت ، وننصرف عنكم ، فقد مات صاحبنا . فقال ابن الزبير : وهل تركتم من البيت إلا مدرة ؟ وكانت المجانيق قد أصابت ناحية من البيت الشريف فهدمته ، مع الحريق الذى أصابه ، قال : فمنعهم أن يطوفوا بالبيت . فارتحل الحصين ، حتى إذا كان بعسفان تفرّقوا ، وتبعهم الناس يأخذونهم ، حتى إن كانت الراعية فى غنمها لتأتى بالرجل منهم مربوطاً ، فيبعث بهم إلى المدينة ، وأصاب منهم أهل المدينة حين مرّوا بهم ناساً كثيراً ، فحبسوا بالمدينة ، حتى قدم مصعب بن الزبير عليهم من عند عبد الله بن الزبير ، فأخرجهم إلى الحرّة ، فضرب أعناقهم ، وكانوا أربع مئة وأكثر ، قال : وانصرف ذلك الجيش إلى الشام مفلولاً ، وبايع أهل المدينة لابن الزبير بالخلافة ، وكان ابن عباس بمكة يومئذ ، فخرج إلى الطائف ، فهلك بها سنة سبعين ، وهو يومئذ ابن أربعة وسبعين سنة رضى الله عنه .

خلافة معاوية بن يزيد

قال : فلما مات يزيد بن معاوية ، استخلف ابنه معاوية بن يزيد ، وهو يومئذ ابن ثمانى عشرة سنة ، فلبث والياً شهرين وليالى محجوباً لا يرى ، ثم خرج بعد ذلك ، قال : فجمع الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، إنى نظرت بعدكم فيما صار إلىّ من أمركم ، وقلدته من ولايتكم ، فوجدت ذلك لا يسعنى فيما بينى وبين ربى ، أن أتقدم على قوم فيهم من هو خير منى ، وأحقهم بذلك ، وأقوى على ما قلدته ، فاختاروا منى إحدى خصلتين : إما أن أخرج منها ، وأستخلف عليكم من أراه لكم رضاً ومقنعاً ، ولكم الله علىّ ألا آلوكم نصحاً فى الدين والدنيا ، وإما أن تختاروا لأنفسكم وتخرجونى منها . قال : فأنف الناس من قوله ، وأبوا من ذلك ، وخافت بنو أمية أن تزول الخلافة منهم ، فقالوا : ننظر فى ذلك يا أمير المؤمنين ونستخير الله فأمهلنا. قال لكم ذلك ، وعجّلوا علىّ . قال فلم يلبثوا بعدها إلا أياماً حتى

طعن ، فدخلوا عليه ، فقالوا له : استخلف على الناس من تراه لهم رضا . فقال لهم : عند الموت تريدون ذلك ؟ لا والله لا أتزوّدها ، ما سعدت بحلاوتها ، فكيف أشقى بمرارتها ، ثم هلك رحمه الله ولم يستخلف أحداً . فقالوا لعثمان بنى عنبسة : تقدّم فصلّ بالناس ، فأبى . وقال : لا . أما أنا فلاحق بخالى عبد الله بن الزبير ، فقال له ابن زياد : إن هذا ليس بزمان خالك ولا عمك . فلما دفن معاوية بن يزيد ، وسوى عليه التراب ، وبنو أمية حول قبره ، قال مروان : أما والله يا بنى أمية إنه لأبو ليلى ، ثم قال :

الملك بعد أبى ليلى لمن غلبا .·.

وماج أمر بنى أمية واختلفوا .

غلبة ابن الزبير رضى الله عنهما وظهوره

قال : وذكروا أن أبا معشر قال : حدثنا بعض المشيخة الذين حضروا قتال ابن الزبير ، قال : لما نزل الحصين بمكة ، وغلب عليها كلها إلا المسجد الحرام ، قال : فإنى لجالس مع ابن الزبير ، ومعه من القرشيين عبد الله بن مطيع ، والمختار بن أبى عبيد ، والمسور بن مخرمة ، والمنذر بن الزبير ، ومصعب بن عبد الرحمن بن عوف فى نفر من قريش . قال : فقال المختار بن عبيد : وهبّت رويحة : والله إنى لأجد النصر فى هذه الرّويحة ، فاحملوا عليهم ، قال : فحملوا عليهم حتى أخرجوهم من مكة ، وقتل المختار رجلا ، وقتل ابن مطيع رجلا . قال : فجاءه رجل من أهل الشام ، فى طرف سنان رمحه نار . قال : وكان بين موت يزيد بن معاوية وبين حريق الكعبة إحدى عشرة ليلة ثم التحمت الحرب عند باب بنى شيبة ، فقتل يومئذ المنذر بن الزبير ، ورجلان من إخوته ، ومصعب بن عبد الرحمن بن عوف والمسور بن مخرمة ، وكان الحصين قد نصب المجانيق[1] على جبل أبى قبيس ، وعلى قعيقعان ، فلم يكن أحد يقدر أن يطوف بالبيت ، وأسند ابن الزبير ألواحاً من الساج إلى البيت ، وألقى عليها القطائف والفرش ، فكان إذا وقع عليها الحجر ، نبا عن البيت ، فكانوا يطوفون تحت تلك الألواح ، فإذا سمعوا صوت الحجر حين يقع على الفرش والقطائف كبروا ، وكان طول الكعبة فى السماء ثمانية عشر ذراعاً ، وكان ابن الزبير قد ضرب فسطاطاً فى ناحية من المسجد ، فكلما جرح أحد من أصحابه أدخله ذلك الفسطاط .

---

(١) المجانيق : جمع منجنيق ، وهو مثل المدفع الآن .

حريق الكعبة

قال : فجاء رجل فى طرف سنان رمحه نار ، فأشعلها فى الفسطاط ، فوقعت النار على الكعبة ، فاحترق الخشب ، وانصدع الركن ، واحترقت الأستار ، وتساقطت إلى الأرض . قال : ثم قاتل أهل الشام أياماً بعد حريق الكعبة ، واحترقت فى ربيع الأول سنة أربع وستين . قال : فلما احترقت جلس أهل مكة فى ناحية الحجر ، ومعهم ابن الزبير ، وأهل الشام يرمونهم بالنبل . قال : فوقعت بين يديه نبلة . قال : فى هـذه خبر ، فأخذوها فوجدوا بها مكتوباً : مات يزيد ابن معاوية يوم الخميس لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول . فلما قرأ ذلك ابن الزبير قال : يا أهل الشام ، يا محرقى بيت الله ، يا مستحلى حرم الله ، علام تقاتلون ؟ وقد مات طاغيتكم يزيد ابن معاوية ، فأتاه الحصين بن نمير فقال له : موعدك البطحاء الليلة يا أبا بكر . فلما كان الليل خرج ابن الزبير بأصحابه ، وخرج الحصين بأصحابه إلى البطحاء ، فتنحى كل واحد منهما من أصحابه وانفردا ، فقال الحصين : يا أبا بكر ، قد علمت أنى سيد أهل الشام ، لا أدافع عن ذلك ، وأن أعنّة خيلهم بيدى ، وأرى أهل الحجاز قد رضوا بك ، فأبايعك الساعة ، على أن تهدر كلّ شىء أصبناه يوم الحرّة ، وتخرج معى إلى الشام ، فإنى لا أحب أن يكون الملك فى الحجاز . قال : لا والله لا أفعل لا أؤمّنّ من أخاف الناس ، وأحرق بيت الله ، وانتهك حرمته . فقال الحصين : بلى ، فافعل ، فعلىّ ألا يختلف عليك اثنان . فأبى ابن الزبير . فقال له الحصين لعنك الله ، ولعن من زعم أنك سيد ، والله لا تفلح أبداً ، اركبوا يا أهل الشام . فركبوا وانصرفوا قال : فحدثنى من شهد انصرافهم ، قال : والله إن كانت الوليدة لتخرج فتأخذ الفارس ما يمتنع . قال أبو معشر : وذلك أن المنهزم لا فؤاد له . قال : فبايع أهل الشام كلهم ابن الزبير ، إلا أهل الأردن ، وبايع أهل مصر ابن الزبير ، وغلب على أهـــل العراق والحجاز واليمن ، وغلظ أمره ، وعظم شأنه ، واستخلف ابن الزبير الضحاك بن قيس على أهل الشام .

اختلاف أهل الشام على ابن الزبير

قال : وذكروا أن ابن الزبير لما استخلف الضحاك على أهل الشام ، قام أناس من أهل الشام من رءوس قريش بنى أمية وأشرافهم وفيهم روح بن زنباع الجذامى ، فقال بعضهم : إن الملك كان فينا أهل الشام ، أفينتقل ذلك إلى أهل الحجاز ؟ لا نرضى بذلك ، هل لكم أن تأخذوا رجلا منا فينظر فى هذا الأمر ؟ قالوا : نعم . فجاءوا إلى خالد بن يزيد بن معاوية ، وهو غلام

حدث السن ، فقيل له : ارفع رأسك لهذا الأمر ، فقال : أستخير الله وأنظر ، فرأى القوم أنه ذو ورع عن القيام فى ذلك ، فخرجوا فأتوا عمرو بن سعيد ، فقالوا له : يا أبا أمية ، ارفع رأسك لهذا الأمر ، فجعل يشير ويقول : والله لأفعلن لأفعلن ؛ فلما خرجوا من عنده قالوا : هذا حديث علج . فأتوا مروان بن الحكم ، فإذا عنده مصباح ، وإذا هم يسمعون صوته بالقرآن ، فاستأذنوا ودخلوا عليه ، فقالوا له : يا أبا عبد الملك ، ارفع رأسك لهذا الأمر ؛ فقال : استخيروا الله واسألوه أن يختار لأمة محمد خيرها وأعدلها ما شاء الله .

بيعة أهل الشام مروان بن الحكم

قال : وذكروا أن روح بن زنباع قال لمروان بن الحكم : إن معى أربع مائة رجل من جذام ، وسآمرهم أن يبتدروا فى المسجد غداً ، فمر ابنك عبد العزيز أن يخطب ، ويدعوهم إليك ، وأنا آمرهم أن يقولوا صدقت ، فيظن الناس أن أمرهم واحد ، قال : فلما أصبح عبد العزيز خرج على الناس وهم مجتمعون ، فقام: فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : ماأحد أولى بهذا الأمر من مروان بن الحكم ، إنه لكبير قريش وشيخها ، وأفرطها عقلاً وكمالاً ، وديناً وفضلاً ، والذى نفسى بيده ، لقد شاب شعر ذراعيه من الكبر . فقال الجذاميون : صدقت . فقال خالد بن يزيد : أمر قضى بليل . فبايعوا مروان بن الحكم . فقال عمرو بن سعيد للضحاك بن قيس : أرضيت أن تكون بريداً لابن الزبير ، وأنت أكبر قريش وسيدها ، تعال نبايعك ، فخرج به إلى مرج راهط ، فلما دعاه إلى البيعة اقتتلوا ، فقتل الضحاك بن قيس ، فقال عمرو بن سعيد لأهل الشام ، ماصارت أيديكم إلا مناديل ، من جاءكم مسح يده بها ، إن مروان سيد قريش ، وأكبرهم سناً ، فبايعوا مروان بن الحكم ، وقتل الضحاك بن قيس ، وهزم أصحابه ، وكانت قيس مع الضحاك ، وكان اليمن مع عمرو بن سعيد ، فمكث مروان ماشاء الله أن يمكث ، ثم قال له أصحابه : والله ما نتخوف إلا خالد بن يزيد بن معاوية ، وإنك إن تزوجت أمه كسرته ، وأمه ابنة هاشم بن عتبة بن ربيعة ، فخطبها مروان بن الحكم ، فتزوجها ، وأقام بالشام ، ثم أراد أن يخرج إلى مصر . فقال لخالد : أعرنى سلاحا إن كان عندك . قال : فأعاره سلاحاً ، وخرج إلى مصر ، فقاتل أهل مصر ، وسبى ناساً كثيراً ، فافتدوا منه ، ثم قدم الشام .

موت مروان بن الحكم

قال : وذكروا أن مروان بن الحكم لما قدم الشام من مصر ، قال له خالد بن يزيد

ابن معاوية : اردد إلى سلاحى ، فأبى عليه مروان ، فألح عليه ، وكان مروان فاحشاً سباباً ، وقال له ياابن الرّبوخ(١) ، ياأهل الشام ، إن أم هذا ربوخ ، يا ابن الرطبة ، قال : فجاء ابنها إليها قال: هذا ماصنعت بى،سبنى مروان على رءوس أهل الشام وقال. هذا ابن الرّبوخ.قال: وكان مروان استخلف حين خرج إلى مصر ابنه عبد الملك وعبدالعزيز أنهما يكونان بعده ، وبايع لهما أهل الشام ، فلبث مروان بعد ذلك ليالى ، بعد ما قال لخالد بن يزيد ما قال ، ثم جاء إلى أمّ خالد فرقد عندها ، فأمرت جواريها فطوين عليه الشوادك(٢) ، ثم غطته حتى قتلته ، ثم خرجن يصحن ويشققن جيوبهنّ ، يا أمير المؤمنين . قال : فقام عبدالملك ، فبايع لنفسه ، ووعد عمرو بن سعيد أن يستخلفه ، فبايعه وأقاموا بالشام .

بيعة عبد الملك بن مروان وولايته

قال : وذكروا أن عبد الملك بن مروان بايع لنفسه بالشام ، ووعد الناس خيراً ، ودعاهم إلى إحياء الكتاب والسنة ، وإقامة العـــدل والحقّ ، وكان معروفاً بالصدق ، مشهوراً بالفضل والعلم ، لا يُختلف فى دينه ، ولا يُنازع فى ورعه ، فقبلوا ذلك منه ، ولم يختلف عليه من قريش أحد ، ولا من أهل الشام . فلما تمت بيعته خالفه عمرو بن سعيد الأشدق ، فوعده عبد الملك أن يستخلفه بعده ، فبايعه على ذلك ، وشرط عليه أن لا يقطع شيئاً دونه ، ولا ينفذ أمراً إلا بمحضره ، فأعطاه ذلك . ثم إن عبد الملك بعث حبيش بن دلجة القيسى إلى المدينة ، فى سبعة آلاف رجل ، فدخل المدينة ، وجلس على المنبر الشريف ، فدعا بخبز ولحم ، فأكل على المنبر ، ثم أتى بماء فتوضأ على المنبر .

قال أبو معشر : فحدثنى رجل من أهل المدينـــة يقال له أبو سلمة ، قال : شهدت حبيش ابن دلجة يومئذ ، وقد أرسل إلى جابر بن عبد الله الأنصارىّ ، فدعاه فقال : تبايع لعبد الملك أمير المؤمنين بالخلافة ، عليك بذلك عهد الله وميثاقه وأعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه بالوفاء ، فإن خالفت فأهرق الله دمك على الضلالة . فقال له جابر بن عبد الله : إنك أطوق لذلك منى ، ولكنى أبايعه على ما بايعت عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ، على السمع والطاعة . قال : ثم أرسل إلى عبد الله بن عمر ، فقال له : تبايع لعبد الله عبد الملك

---

(١) الربوخ : المرأة يغشى عليها عند الجماع .
(٢) الشوادك : جمع شودكان ، وهو الشبكة وأداة السلاح .

أمير المؤمنين على السمع والطاعة ؟ فقال ابن عمر : لهذا اجتمع الناس عليه بايعت له إن شاء الله.
ثم خرج ابن دلجة من يومه ذلك نحو الرَّبذة[١] ، وقام في أثره رجلان: أحدهما على أثر الآخر،
مع كل واحد منهما جيش ، وكل واحد منهما يصعد المنبر ويخطب ، ثم خرجوا جميعاً إلى الربذة ،
وذلك في رمضان ، سنة خمس وستين ، فاجتمعوا بها ، وأميرهم ابن دلجة .

وكتب ابن الزبير إلى عباس بن سهل الساعدى بالمدينة : أن سر إلى حبيش ابن دلجة
وأصحابه في ناس ، فسار حتى لقيهم بالربذة في شهر رمضان ، وبعث الحارث بن عبد الله
ابن أبى ربيعة من البصرة ،مدداً إلى عباس بن سهل بن حنيف بن السجف في تسع مئة رجل ،
فساروا حتى انتهوا إلى الربذة ، فبات أهل البصرة وأهل المدينة يقرءون القرآن ، ويصلون
ليلتهم حتى أصبحوا ، وبات الآخرون في المعازف والخمور ، فلما أصبحوا قال لهم حبيش بن دلجة :
أهريقوا ماءكم ، حتى تشربوا من سويقكم المتد فأهرقوا الماء ، وغدوا إلى القتال ، فقتل
حبيش ، ومن معه من أهل الشام ، وتحصن من أهل الشام خمس مئة رجل على عمود الربذة ،
وهو الجبل الذى عليها . قال : وكان يوسف أبو الحجاج مع ابن دلجة ، قال : وأحاط بهم
عباس بن سهل ، فقال : انزلوا على حكمى ، فنزلوا على حكمه ، فضرب أعناقهم أجمعين .

غلبة ابن الزبير على العراقيين وبيعتهم

قال : وذكروا أن عباس بن سهل ، لما فرغ من قتال أهل الشام ، رجع المدينة فجدّد
البيعة لابن الزبير ، فسارعوا إليها ، ولم يتثبطوا ، وقدم أهل البصرة على ابن الزبير بمكة
فكانوا معه ، وكان عبد الله بن الزبير استعمل الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة على البصرة؛
فلما قدمها قيل له : إن الناس يقطعون الدراهم يجعلونها حتى كأنها أصفار . فقال لهم : هلمّ
بسبعة مثاقيل ، فأتوه بسبعة مثاقيل . فقال : هذه بعشرة ، فزنوا كيف شئتم . قال : وأتوا
بالمكيال الذى يكيلون به ، فقال : هذا قريب صالح . ثم قيل له : إن أهل البصرة لا يصلحهم
إلا القتل . فقال : لأن تفسد البصرة أحبّ إلىّ من أن يفسد الحرث والنسل . قال :
فبعث ابن الزبير حمزة بن عبد الله بن الزبير إلى البصرة عاملاً ، فاستحقره أهل البصرة ،
فبعث مصعب بن الزبير ، فقدم عليهم ، فقال أهل البصرة : لا يقدم عليكم أحد إلا لقبتموه ،
وأنا ألقب لكم نفسى ، أنا القصّاب . ثم سار إلى المختار فقتله .

---

(١) الربذة: بفتح الراء والباء والذال : موضع قرب المدينة به قبر أبى ذر الغفارى رحمه الله.

بيعة أهل الكوفة لابن الزبير وخروج ابن زياد عنها

قال : وذكروا عن بعض المشيخة من أهل العلم بذلك ، قالوا : كان ابن زياد أول من ضمّ إليه الكوفة والبصرة ، وكان أبوه زياد كذلك قبله ، فلم يزل عبيد الله يتبع الخوارج ويقتلهم ، ويأخذ على ذلك الناس بالظنّ ، ويقتلهم بالشبهة ، واستعمد إلى عامتهم ، وكان بعضهم له على ما يحبّ . قال : فلما اختلف أمر الناس ، ومات يزيد ، وامتدّ سلطان ابن الزبير ، وغلظ شأنه وعظم أمره ، وخلع أهل البصره طاعة بنى أمية ، وبايعوا ابن الزبير ، خرج عبيد الله بن زياد إلى المسجد ، فقام خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : أيها الناس ، إن الذى كنا نقاتل على طاعته قد مات ، واختلف أمر الناس، وتشتت كلمتهم ، وانشقت عصاهم ، فإن أمّرتمونى عليكم جبّبت فيكم ، وقاتلت بكم عدوكم ، وحكمت بينكم، وأنصفت مظلومكم ، وأخذت على يد ظالمكم حتى يجتمع الناس على خليفة . فقام يزيد بن الحارث بن رويم اليشكرى وقال : الحمد الله الذى أراحنا من بنى أمية وأخزى ابن سُمَيَّة ، لا والله ولا كرامة ، فأمر به عبيدالله فلبّب ، ثم انطلق به إلى السجن ، فقامت بكر بن وائل ، فحالت بينه وبين ذلك . ثم خرج الثانية عبيد الله بن زياد إلى المنبر ، فخطب الناس ، فحصبه الناس ورموه بالحجارة وسبوه ، وقام قوم فدنوا منه ، فنزل فاجتمع الناس فى المسجد . فقالوا : نؤمّر رجلا حتى تجتمع الناس على خليفة ، فاجتمع رأيهم على أن يؤمروا عمرو بن سعد بن أبى وقاص وكان الذين قاموا بأمره هذا الحىّ الذى من كندة، فبينما هم على ذلك إذ أقبل النساء يبكين وينعين الحسين ، وأقبلت همدان حتى ملأوا المسجد ، فأطافوا بالمنبر متقلدين السيوف ، وأجمع رأى أهل البصرة والكوفة على عامر بن مسعود ابن أمية بن خلف ، فأمّروه عليهم حتى يجتمع الناس ، وكتبوا إلى عبد الله بن الزبير يبايعونه بالخلافة ، فأقره عبد الله بن الزبير عاملا عليهم نحوا من سنة ، واستعمل العمال فى الأمصار ، فبلغ أهل البصرة ماصنع أهل الكوفة ، فاجتمعوا وأخرجوا الرايات ، فلم يبق أحد إلا خرج ، وذلك لسوء آثار عبيد الله بن زياد فيهم ، يطلبون قتله . ثم قام ابن أبى ذؤيب فقال : يا هؤلاء من ينصر الله ينصر الكعبة ، من يغار على ابن سمية ، سارعوا أيها الناس إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض ، واجتلبوا هذه الدعوة ، وأقيموا أود هذه البيعة ، فإنها بيعة هدى ، فإنه من قد علمتم عبد الله بن الزبير حوارىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته وابن أسماء بنت أبى بكر الصدّيق ، أما والله لو أن أبا بكر علم أنه بقى على الأرض من هو خير منه وأولى بهذه البيعة ، ما مدّ يده ، ولا نازعته إليها نفسه ، أما والله لقد علمتم ما أحد على وجه الأرض خير ولا أحق بها إلا هذا الشيخ عبد الله بن عمر ، المتبرئ من الدنيا ، المعتزل عن الناس الكاره لهذا الأمر ، ثم خرجت الخوارج من سجون عبيد الله ابن زياد ، واجتمعوا على حدة ،

والقبائل كل قبيلة فى المسجد معتزلة على حدة ، وعبيد الله بن زياد فى القصر ، وقد أخذ بأبوابه وقد تمنع أن يدخل القصر أحد ، وقد أخذت العرب بأفواه السكك والدروب ، وكان عبيد الله أول من جفا العرب ، وأخذ منهم المحاربة اثنى عشر ألفا ليعتزّ بهم ، فوالله ما زادوه إلا ذلا ، فلما رأى ذلك عبيد الله بن زياد لم يدر كيف يصنع ، وخاف تميا وبكر بن وائل أن يستجير بهم ولم يأمن غدرهم ، فأرسل إلى الحارث بن قيس الجهمى من الأزد ، فدخل عليه الحارث . فقال : ياحارث ، قد أكرمتم زيادا ، وحفظتم منه ما كنتم أهله ، وقد استجرت بكم ، فأنشدكم الله فىّ . قال الحارث : أخاف أن لا تقدر على الخروج إلينا ، لما أرى من سوء رأى العامة فيك مع سوء آثارك فى الأزد . قال : فهيأ عبيد الله ، فلبس لبس امرأة فى خمرتها وعقيصتها ، فأردفه الحارث خلفه ، فخرج به على الناس فقالوا : ياحارث ماهذه ؟ قال : تنحوا رحمكم الله ، هذه امرأة من أهلى ، كانت زائرة لأهل ابن زياد ، أتيت أذهب بها . فقال عبيد الله للحارث : أين نحن ؟ قال : فى بنى سليم ، فقال : سلمنا الله . قال : ثم سار قليلا ، ثم قال : أين نحن ؟ قال : فى بنى ناجية من الأزد ، قال : نجونا إن شاء الله . قال : فأتى به مسعود بن عمرو وهو يومئذ سيد الأزد ، فقال : يا أبا قيس ؟ قد جئتك بعبيد الله مستجيرا . قال : ولم جئتنى بالعبد ؟ قال : نشدتك الله ، فقد اختارك على غيرك ، فلما رآهم عبيد الله يتراضون ويتناشدون ، قال : قد بلغنى الجهد والجوع ، فقال مسعود : ياغلام : ائت البقال ، فأتنا من خبزه وتمره . قال : فجاء به الغلام فوضع . قال : فأكل ، وإنما أراد ابن زياد أن يتحرّم بطعامه . ثم قال : أدخل فدخل ، ومنارات الناس يومئذ من القصب ، وكان منزل مسعود يومئذ قاصياً . قال : فكأن عبيد الله خاف . فقال : ياغلام ، اصعد إلى السطح بحزمة من قصب ، فأشعل أعلاه ناراً ، ففعل ذلك فى جوف الليل ، فأقبلت الأزد على الخيل وعلى أرجلها حتى شحنوا السكك وملئوها . فقالوا : مالسيدنا ؟ قال : شىء حدث فى الدار . قال : فعرف عبيد الله عزّته ورفعته ، وما هو عليه . قال : هذا والله العز والشرف ، فأقام عنده أياما ، وعنده امرأتان امرأة من الأزد ، وامرأة من عبد قيس ، فكانت العبدية تقول : أخرجوا العبد وكانت الأزدية تقول : استجار بك على بغضه إياك ، وجفوته لك ، وتحدث الناس أنه لجأ إلى مسعود بن عمرو ، فاجتمعت القبائل فى المسجد والخوارج ، وهم فى أربعة آلاف ، فقال مسعود : ما أظننى إلا خارجا إلى البصرة معتذراً إليهم من أمر عبيد الله . ثم قال : وكيف آمن عليه وهو فى منزلى ، ولكنى أبلغه مأمنه ، ثم أعتذر إليهم . قال : وكان مسعود قد أجار عنده ابن زياد أربعين ليلة . قال : فأقبل مسعود يوما على برذون له ، وحوله عدة من الأزد عليهم السيوف ، وقد عصب رأسه بسير أحمر ، قال الهيثم : فقلت لابن عباس : لم عصب رأسه بسير أحمر ؟ قال : قد سألت عن

ذلك قبلك . فقال شيخ من الأزد ، كان ضخم الهامة ، وكانت له ضفيرتان ، فعصب لذلك بالسير قال ابن عباس : فذكرت ذلك لعمرو بن هرم ، وكان معنا بواسط . فقال : حدثك من لا يعرف هذا شيء كانت العرب تصنعه إذا أراد الرجل الاعتذار من الذنب ، عصب السير ليعلموا أنه معتذر . قال : فأقبل مسعود حتى انتهى إلى باب المسجد ، ومعه أصحابه رجالة ، بين يديه وحلفه وكان كبيرا فلم يستطع النزول والقبائل فى المسجد بأجمعها ، فدخل المسجد بدابته ، فبصرت به الخوارج ، فظنوا أنه عبيد الله ، فأقبلوا نحوه متقلدين السيوف ، وجال الناس جولة ، فضربوه بأسيافهم حتى مات . قتله نفر من بنى حنيفة من الخوارج ، وجال الناس ونهضوا من مجالسهم، وبلغ ذلك الأزد ، فأقبلوا على كل صعب وذلول ، وأقبل عباد بن الحصين لينظر إلى عبيد الله فإذا هو بمسعود . فقال : مسعود ورب الكعبة ، إنا لله وإنا إليه راجعون، أبا قيس قد وفيت ، ما كان أغنى أهل مصرك بما صنعت من ذلك ، جئتهم بنفسك . ثم ألقى عليه كساءه ، ثم أقبلت الأزد ، فكان بينهما وبين مضر ما وقع ذكره فى غير هذا الكتاب حتى اصطلحوا ، وتراضوا على بيعة ابن الزبير . قال الهيثم : قال ابن عباس : حدثنى عوكل اليشكرى قال : إنا مع عبيد الله بن زياد فى ليلة مظلمة ، فإذا نحن بنار من بعد . فقال عبيد الله : ياعوكل كيف الطريق ؟ قال: اجعل النار على حاجبك ، فقال : بل على حاجبك . قال عوكل : فوالله إنا لنسير بالسمارة ، إذ قال عبيد الله: قد كرهت البعير ، فابغوا لى ذا حافر . قال : فإذا نحن بأعرابى من كاب معه حمار أقمر ضخم . فقلت : تبيعه بكم ؟ فقال : بأربع مئة درهم ، لا أنقصكم درهما ، فأشار إلينا عبيد الله أن خذوه . قال : فجعلنا نقده الدراهم . قال : لست أدرى ما هذه ؟ ولكن بينى وبينكم هذا المولى ، يعنى عبيد الله بن زياد ، وكان عبيد الله أحمر أقمر ، شبيها بالموالى . قال : فأخذناه منه فقال عبد الله : إرحلوا لى عليه ، فرحلنا له عليه ، فلما قدم ليركب ، قال الأعرابى : أنا أقسم بالله إن لكم لشأنا ، وما أظن صاحبكم إلا والى العراق ، فاستقفاه عبيد الله بالعصا ، فضربه بها ، فوقع ، ثم شدوه وثاقا . قال : وجعلوا يتجنبون المياه . قال عوكل : ثم إن عبيد الله بينا هو على راحلته ، إذ هجمت عينه . فقلت له : أراك نائماً. فقال : ما كنت بنائم . فقلت له : ما أعلمنى بما كنت تحدث به نفسك قال : وبأى شيء كنت أحدث نفسى ؟ قال : قلت : ليتنى لم أبن البيضاء[1] ، ولم أستعمل الدهاقين[2] ، وليتنى لم أتخذ المحاربة ، قال : ماخطر لى هذا على بال، أما قولك : ليتنى لم أبن البيضاء ، فما كان على منها إثم ، بناها اليزيد من ماله ، وأما استعمال

---

(١) البيضاء : البيضاء دار بالبصرة لعبيد الله بن زياد .

(٢) الدهاقين جمع دهقان وهو رئيس التجار .

الدهاقين ، فقد استعملهم أبي ومن كان قبله ، وأما المحاربة : فوالله ما اتخذتهم إلا وقاية ، لأني كنت أقتل بهم أهل المعصية ، فلو أمرت عشائرهم بهم لم يقتلوهم ولشق ذلك عليهم ، فجعلت ذلك بيني وبينهم ، من لا آل بينه وبينهم ، ولكني كنت أحدث نفسي أني ندمت على تركي أربعة آلاف في السجن من الخوارج ، فوددت أني كنت أضرمت البيضاء عليهم ، حتى آتي على آخرهم ووددت أني جمعت آل بيتي وموالي ، ونابذت أهل المصر على سواء ، حتى يموت الأعجل ، ووددت أني قدمت الشام ولم يبايع أهلها بعد .

قتل المختار عمرو بن سعد

قال : وذكروا أن المختار بن أبي عبيد كتب إلى عبد الله بن الزبير من الكوفة ، وقال لرسوله : إذا جئت مكة فدفعت كتابي إلى عبد الله بن الزبير ، فأت المهدى محمد بن عليّ ، وهو ابن الحنفية ، فاقرأ عليه منى السلام ، وقل له : يقول لك أخوك أبو إسحاق : إني أحبك ، وأحبّ أهل بيتك ، قال : فأتاه الرسول فقال له ذلك . قال : كذبت ، وكذب أبو إسحاق معك ، كيف يحبني ويحبّ أهل بيتي ، وهو يجلس عمرو بن سعد بن أبي وقاص على وسائده ، وقد قتل الحسين بن عليّ أخي . قال : فلما قدم عليه رسوله أخبره بما قال محمد بن عليّ . فقال المختار لأبي عمرو صاحب حرسه : استأجر لي نوائح يبكين الحسين على باب عمرو بن سعد بن أبي وقاص . قال : ففعل ، فلما جئن يبكين الحسين ، قال عمرو لابنه حفص : يا بنيّ ائت الأمير ، فقل له : ما شأن النوائح يبكين الحسين على بابي ؟ قال : فأتاه فقال له ذلك ، فقال له : إنه أهل أن يبكى عليه ، فقال : أصلحك الله ، انههن عن ذلك . قال : نعم . ثم دعا أبا عمرو ، فقال : اذهب إلى عمرو بن سعد فأتني برأسه ، قال : فأتاه ، فقال : قم إليّ أبا حفص ، فقام إليه وهو ملتحف ، فجلله بالسيف ، ثم جاء برأسه إلى المختار ، وحفص جالس عنده على الكرسي ، فقال : هل تعرف هذا الرأس ؟ قال : نعم ، رحمة الله عليه ، قال : أتحبّ أن ألحقك به ؟ قال : وما خير الحياة بعده . قال : فضرب رأسه فقتله . قال : ثم أرسل عبد الله بن الزبير يزيد بن زياد على العراق ، فكان بالكوفة حتى مات يزيد ، وأحرقت الكعبة ، ورجع الحسين هاربا إلى الشام . قال : ثم أرسل عبد الله بن مطيع إلى الكوفة ، ثم بعث المختار بن أبي عبيد على الكوفة ، وعزل عبد الله بن مطيع ، وسيره إلى المدينة ، وسار عبيد الله بن زياد بعد ذلك إلى المختار ، وجهه عبد الملك بن مروان أميراً على العراق ، وندب معه جيشا عظيما من أهل الشام ، فأقبل إلى الكوفة يريد المختار ، فالتقوا بجازر ، فاقتتلوا ، فقتل المختار عبيد الله بن زياد ومن معه ، وكان معه الحصين بن نمير ، وذو الكلاع ، وغلبة من كان معه ممن شهد وقعة الحرّة من رءوسهم .

قتل مصعب بن الزبير المختار بن أبي عبيد الله

قال : وذكروا أن أبا معشر ، قال : لما قتل عبيد الله بن زياد ومن معه ، ارتضى أهل البصرة عبد الله بن الحارث بن نوفل ، فأمّروه على أنفسهم ، ثم أتى عبد الله بن الزبير ، وأمّ عبدالله بن الحارث هندبنت أبي سفيان ، وكانت أمه تنزه وهو صغير ببه ، فلقب ببه، ثم بعث عبدالله ابن الزبير الحارث بن عبيد الله بن أبي ربيعة عاملا على البصرة ، ثم بعث حمزة بن الزبير بعده ، ثم بعث مصعب بن الزبير أخاه ، وضمّ إليه العراقين جميعا الكوفة والبصرة ، فلما ضمّ إليه الكوفة ، وعزل المختار عنها خلع المختار عبد الله بن الزبير بالكوفة ، ودعا إلى آل الرسول ، وأراد أن يعقد البيعة لمحمد بن الحنفية ، ويخلع عبد الله بن الزبير . فكتب عبد الله إلى أخيه مصعب ، أن سر إلى المختار بمن معك ، ثم لا تبلعه ريقه ، ولا تمهله حتى يموت الأعجل منكما ، فأتاه مصعب بمن معه فقاتله ثلاثة أيام حتى هزمه وقتله ، وبعث مصعب برأس المختار إلى أخيه . وقتل مصعب أصحاب المختار ، قتل منهم ثمانية آلاف صبرا ، ثم قدم حاجا في سنة إحدى وسبعين، فقدم على أخيه عبد الله بن الزبير ، ومعه رؤساء أهل العراق ووجوههم وأشرافهم . فقال : يا أمير المؤمنين : قد جئتك برؤساء أهل العراق وأشرافهم ، كلّ مطاع في قومه ، وهم الذين سارعوا إلى بيعتك ، وقاموا بإحياء دعوتك ، ونابذوا أهل معصيتك ، وسعوا في قطع عدوّك ، فأعطهم من هذا المال ، فقال له عبد الله بن الزبير جئتني بعبيد أهل العراق وتأمرني أن أعطيهم مال الله ! لا أفعل ، وايم الله لوددت أني أصرفهم كما تصرف الدنانير بالدراهم : عشرة من هؤلاء برجل من أهل الشام . قال : فقال رجل منهم : علقناك[1] وعلقت أهل الشام ، ثم انصرفوا عنه وقد يئسوا مما عنده ، لا يرجون رفده ، ولا يطمعون فيما عنده ، فاجتمعوا وأجمعوا رأيهم على خلعه ، فكتبوا إلى عبد الملك بن مروان أن أقبل إلينا .

خلع ابن الزبير

قال: وذكروا أن أبا معشر قال : لما أجمع القوم على خلع ابن الزبير ، وكتبوا إلى عبد الملك بن مروان ، أن سر إلينا ، فلما أراد عبد الملك أن يسير إليهم ، وخرج من دمشق ، فأغلق عمرو بن سعيد باب دمشق ، فقيل لعبد الملك ما تصنع ؟ أتذهب إلى أهل العراق ، وتدع دمشق ؟ أهل الشام أشدّ عليك من أهل العراق . فأقام مكانه ، فحاصر أهل دمشق أشهرا ،

---

(١) علقناك : أحببناك وبايعناك ، وعلقت أهل الشام أحببتهم وفضلتهم علينا .

حتى صالح عمرو بن سعيد ، على أنه الخليفة بعده ، ففتح دمشق ، ثم أرسل عبد الملك إلى عمرو ، وكان بيت المال في يد عمرو ، أن أخرج للحرس أرزاقهم . فقال عمرو : إن كان لك حرس فإن لنا حرسا ، فقال عبد الملك : أخرج لحرسك أرزاقهم أيضاً .

قتل عبد الملك عمرو بن سعيد

قال : وذكروا أن أبا معشر قال : لما اصطلح عبد الملك وعمرو بن سعيد على أنه الخليفة بعده أرسل عبد الملك إلى عمرو بن سعيد نصف النهار أن ائتني أبا أمية . قال فخرج ليأتيه ، فقالت له امرأته لا تذهب إليه فإني أتخوفه عليك، وإني لأجد ريح دم مسفوح. قال : فما زالت به حتى ضربها بقائم سيفه ، فشجها ، فتركته ، فأخرج معه أربعة آلاف رجل من أهل دولته ، لا يقدر على مثلهم ، متسلحين ، فأحدقوا بخضراء دمشق ، وفيها عبد الملك بن مروان . فقالوا لعمرو : إذا دخلت على عبد الملك يا أبا أمية ورابك منه شيء فأسمعنا صوتك ، فقال لهم : إن خفي عليكم صوتي ولم تسمعوه ، فالزوال بيني وبينكم ميعاد ، إن زالت الشمس ولم أخرج إليكم ، فاعلموا أني مقتول أو مغلوب ، فضعوا أسيافكم ورماحكم حيث شئتم ، ولا تغمدوا سيفا حتى تأخذوا بثأري من عدوّي . قال : فدخل ، وجعلوا يصيحون : يا أبا أمية ، أسمعنا صوتك . وكان معه غلام أسحم شجاع . فقال له : اذهب إلى الناس فقل لهم : ليس عليه بأس ، ليسمع عبد الملك أن وراءه ناسا ، فقال له عبد الملك : أتمكر يا أبا أمية عند الموت ! خذوه ، فأخذوه ، فقال له : إن أمير المؤمنين قد أقسم ليجعلنّ في عنقك جامعة منه ، ثم نتر إلى الأرض نترة ، فكسرت ثنيته . قال : فجعل عبد الملك ينظر إليه . فقال عمرو : لا عليك يا أمير المؤمنين ، عظم انكسر . فقال عبد الملك لأخيه عبد العزيز : اقتله حتى أرجع إليك . قال : فلما أراد عبد العزيز أن يضرب عنقه ، قال له عمرو : تمسك بالرحم يا عبد العزيز أنت تقتلني من بينهم فتركه ، فجاء عبد الملك فرآه جالسا ، فقال له : لم لا تقتله ؟ لعنه الله ولعن أما ولدته ! قال : فإنه قال : تمسك بالرحم فتركته . قال : فأمر رجلا عنده يقال له ابن الزويرع ، فضرب عنقه ، ثم أدرجه في بساط ، ثم أدخله تحت السرير . قال : فدخل عليه قبيصة بن ذؤيب الخزاعي ، وكان أحد الفقهاء ، وكان رضيع عبد الملك بن مروان ، وصاحب خاتمه ومشورته ، فقال له عبد الملك : كيف رأيك في عمرو بن سعيد ؟ فأبصر قبيصة رجل عمرو تحت السرير ، فقال : اضرب عنقه يا أمير المؤمنين . فقال له عبد الملك : جزاك الله خيراً ، فما علمتك إلا ناصحا أمينا موافقا ، قال له : فما ترى في هؤلاء الذين أحدقوا بنا ، وأحاطوا بقصرنا ؟ قال قبيصة : اطرح رأسه إليهم يا أمير المؤمنين ، ثم اطرح عليهم الدنانير والدراهم يتشاغلون بها . قال : فأمر عبد الملك

برأس عمرو أن يطرح إليهم من أعلى القصر ، فطرح إليهم ، وطرحت الدنانير ، ونثرت الدراهم ، ثم هتف عليهم الهاتف ينادى : إن أمير المؤمنين قد قتل صاحبكم ، بما كان من القضاء السابق ، والأمر النافذ ، ولكم على أمير المؤمنين عهد الله وميثاقه ، أن يحمل راجلكم ، ويكسو عاريكم ، ويغنى فقيركم ، ويبلغكم إلى أكمل ما يكون من العطاء والرزق ، ويبلغكم إلى المئتين فى الديوان ، فاعترضوا على ديوانكم ، واقبلوا أمره ، واسكنوا إلى عهده ، يسلم لكم دينكم ودنياكم. قال. فصاحوا نعم نعم نعم ، سمعا وطاعة لأمير المؤمنين . قال : فلما تمت البيعة لعبد الملك بن مروان بالشام ، أراد أن يخرج إلى مصعب ، فجعل يستفزّ أهل الشام ، فيبطئون عليه . فقال له الحجاج بن يوسف ، وكان يومئذ فى حرس أبان بن مروان : يا أمير المؤمنين ، سلطنى عليهم ، فأعطاه ذلك فقال له عبد الملك : اذهب قد سلطتك عليهم . قال : فكان لا يمرّ على بيت رجل من أهل الشام تخلف إلا أحرق عليه بيته ، فلما رأى ذلك أهل الشام خرجوا ، قال : فأصابهم من ذلك غلاء فى الأسعار ، وشدة من الحال ، وصعوبة من الزمان ، قال : وكانوا يصنعون لعبد الملك بن مروان الأرز . فسار بأهل الشام إلى العراق ومعه الحجاج بن يوسف .

مسير عبد الملك إلى العراق

قال : وذكروا أن عبد الملك لما سار بأهل الشام ومعه الحجاج بن يوسف إلى العراق ، خرج مصعب بن الزبير بأهل البصرة والكوفة ، فالتقيا بين الشام والعراق ، وكان عبد الملك ومصعب قبل ذلك متصافيين ، وصديقين متحابين ، لا يعلم بين اثنين من الناس ما بينهما من الإخاء والصداقة ، فبعث إليه عبد الملك أن ادن منى أكلمك . قال : فدنا كل واحد من صاحبه ، وتنحى الناس عنهما ، فسلم عبد الملك عليه ، وقال له : يا مصعب ، قد علمت ما أجرى الله بينى وبينك منذ ثلاثين سنة ، وما اعتقدته من إخائى وصحبتى ، والله أنا خير لك من عبد الله ، وأنفع منه لدينك ودنياك ، فثق بذلك منى ، وانصرف إلى وجوه هؤلاء القوم ، وخذ لى بيعة هذين المصرين ، والأمر أمرك ، لا تعصى ولا تخالف ، وإن شئت اتخذتك صاحبا لا تخفى ، ووزيراً لا تعصى . فقال له مصعب : أما ما ذكرت فى من ثقتى بك ، ومودتى وإخائى ، فذلك كما ذكرته ولكنه بعد قتلك عمرو بن سعيد لا يطمأنّ إليك ، وهو أقرب رحما منى إليك ، وأولى بما عندك ، فقتلته غدرا ، ووالله لو قتلته فى ضرب ومحاربة لمسّك عاره ، ولما سلمت من إثمه . وأما ما ذكرت من أنك خير لى من أخى ، فدع عنك أبا بكر ، وإياك وإياه ، لاتتعرّض له واتركه ما تركك ، واربح عاجل عافيته وارج الله فى السلامة من عاقبته فقال له عبد الملك :

لا تخوّفنى به ، فوالله إنى لأعلم منه مثل ما تعلم ، إن فيه لثلاث خصال لا يسود بها أبدا : عجب قد ملأه ، واستغناء برأيه : وبخل التزمه ، فلا يسود بها أبدا .

قتل مصعب بن الزبير

قال : وذكروا أن عبد الملك لما أيس من مصعب ، كتب إلى أناس من رؤساء أهل العراق يدعوهم إلى نفسه ، ويجعل لهم أموالا عامة ، وشروطا وعهودا ، ومواثيق وعقودا ، وكتب إلى ابراهيم بن الأشتر يجعل له وحده مثل جميع ما جعل لأصحابه ، على أن يخلعوا عبد الله بن الزبير إذا التقوا . فقال إبراهيم بن الأشتر لمصعب : إن عبد الملك قد كتب إلىّ هذا الكتاب ، وكتب لأصحابى كلهم فلان وفلان بذلك ، فادع بهم فى هذه الساعة ، فاضرب أعناقهم واضرب عنقى معهم . فقال مصعب ما كنت لأفعل ذلك حتى يستبين لى ذلك من أمرهم . قال إبراهيم: فأخرى ، قال : وما هى ؟ قال : احبسهم فى السجن حتى يتبين ذلك ، فأبى ، فقال له ابراهيم ابن الأشتر : عليك السلام ورحمة الله وبركاته ، ولا ترانى والله بعد فى مجلسك هذا أبدا . وقد كان قال له قبل ذلك : دعنى أدعو أهل الكوفة بدعوة لايخلعونها أبدا ، وهى ماشرطه الله . فقال له مصعب : لا والله لا أفعل ، لا أكون قتلتهم بالأمس ، وأستنصر بهم اليوم ، قال : فما هو إلا أن التقوا حوّلوا رءوسهم ومالوا إلى عبد الملك بن مروان. قال فبقى مصعب فى شرذمة قليلة . قال فجاءه عبيد الله بن ظبيان ، فقال : أين الناس أيها الأمير ؟ فقال : غدرتم يا أهل العراق . قال : فرفع عبيد الله سيفه ليضربه ، فبدره مصعب بالسيف على البيضة ، فنشب فيها ، فجعل يقلب السيف ولا ينتزع من البيضة . قال : فجاء غلام لعبيد الله بن ظبيان، فضرب مصعبا بالسيف فقتله ، ثم جاء عبيد الله برأسه إلى عبد الملك ، يدّعى أنه قتله ، فطرح رأسه وقال :

نطيع ملوك الأرض ما أقسطوا لنا   وليس علينا قتلهم بمحرّم

قال : فوقع عبد الملك ساجداً ، فتحامل عبيد الله على ركابه ليضرب عبد الملك بالسيف . فرفع عبد الملك رأسه وقال : والله يا عبيد الله لولا مقتك لألحقتك سريعاً به . قال : فبايعه الناس ، ودخل الكوفة فبايعه أهلها .

ذكر حرب ابن الزبير وقتله

قال : وذكروا أنه لما تمت البيعة لعبد الملك بن مروان من أهل العراق ، وأتاه الحجاج ابن يوسف فقال : يا أمير المؤمنين ، إنى رأيت فى المنام كأنى أسلخ عبد الله بن الزبير ، فقال

له عبد الملك:أنت له فاخرج إليه ، فخرج إليه الحجاج فى ألف وخمس مئة رجل من رجال أهل الشام حتى نزل الطائف ، وجعل عبد الملك يرسل إليه الجيوش رسلا ، حتى توافى الناس عنده قدر ما يظنّ أنه يقدر على قتال عبد الله بن الزبير ، وكان ذلك فى ذى القعدة سنة اثنتين وسبعين فسار الحجاج من الطائف ، حتى نزل منى ، فحجّ بالناس وعبد الله بن الزبير محصور بمكة ، ثم نصب الحجاج المنجنيق على أبى قبيس ، ونواحى مكة كلها ، فرمى أهل مكة بالحجارة ، فلما كانت الليلة التى قتل فى صبيحتها ، جمع عبد الله بن الزبير القرشيين، فقال لهم : ما ترون ؟ فقال رجل منهم من بنى مخزوم : والله لقد قاتلنا معك حتى ما نجد مقاتلا ، لئن صبرنا معك ما نزيد على أن نموت معك ، وإنما هى إحدى خصلتين ، إما أن تأذن لنا فنأخذ الأمان لأنفسنا ولك ، وإما أن تأذن لنا فنخرج . فقال عبد الله قد كنت عاهدت الله أن لا يبايعنى أحد ، فأقيله بيعته إلا ابن صفوان . قال ابن صفوان : والله إنا لنقاتل معك ، وما وفيت لنا بما قلت ، ولكن خذنى الحفيظة أن لا أدعك عند مثل هذه حتى أموت معك . فقال رجل آخر : اكتب إلى عبدالملك . فقال له عبد الله : وكيف ؟ أأكتب إليه : من عبد الله أبى بكر أمير المؤمنين ،فوالله لايقبل هذا منى أبداً ، أم أكتب إليه : لعبد الملك أمير المؤمنين من عبد الله بن الزبير ،فوالله لأن تقع الخضراء على الغبراء أحبّ إلىّ من ذلك.قال عروة أخوه وهو جالس معه على السرير: يا أمير المؤمنين ، قد جعل الله لك أسوة . فقال عبد الله : من هو أسوتى ؟ قال : الحسن بن علىّ ابن أبى طالب ، خلع نفسه وبايع معاوية . فرفع عبد الله رجله وضرب عروة حتى ألقاه ثم قال : ياعروة ، قلبى إذن مثلُ قلبك ، والله لو قبلت ما تقولون ما عشت إلا قليلا ، وقد أخذت الدنية ، وما ضربة بسيف إلا مثل ضربة بسوط ، لا أقبل شيئاً مما تقولون . قال : فلما أصبح دخل على بعض نسائه فقال : اصنعى لى طعاما ، فصنعت له كبداً وسناما . قال : فأخذ منها لقمة فلاكها ساعة ، فلم يسغها فرماها ، وقال : اسقونى لبنا ، فأُتى بلبن فشرب ، ثم قال هيئوا لى غسلا ، قال : فاغتسل ، ثم تحنط وتطيب ، ثم تقلد سيفه وخرج وهو يقول :

ولا ألين لغـــير الحقّ أسأله حتى يلـين لضرس الماضغ الحجر

ثم دخل على أمه أسماء بنت أبى بكر الصدّيق ، وهى عمياء من الكبر ، قد بلغت من السنّ مئة سنة . فقال لها : يا أماه ، ماترين ؟ قد خذلنى الناس وخذلنى أهل بيتى . فقالت : يا بنىّ لايلعبنّ بك صبيان بنى أمية ، عش كريما ، ومت كريما . فخرج وأسند ظهره إلى الكعبة ، ومعه نفر يسير فجعل يقاتل بهم أهل الشام ، فيهزمهم ، وهو يقول : ويل امه فتحا لو كان له رجال ! قال : فجعل الحجاج يناديه : قد كان لك رجال ، ولكنك ضيعتهم . قال : فجاءه حجر

من حجارة المنجنيق وهو يمشى ، فأصاب قفاه ، فسقط ، فما درى أهل الشام أنه هو حتى سمعوا جارية تبكى وتقول : وا أمير المؤمنين ، فاحتزّوا رأسه ، فجاءوا به إلى الحجاج ، وقتل معه عبد الله بن صفوان بن أمية ، وعمارة بن عمرو بن حزم ، ثم بعث برءوسهم إلى عبد الملك ، وقتل لسبع عشرة ليلة مضين من جمادى الأولى ، سنة ثلاث وسبعين .

قال أبو معشر : ثم أقام الحجاج بالمدينة عاملا عليها وعلى مكة والطائف ثلاث سنين ، يسير بسيرته فيما يقولون ، قال : فلما مات بشر بن مروان ، وكان على الكوفة والبصرة ، كتب إليه عبد الملك : أن سر إلى العراقيين ، واحتل لقتلهم ، فإنه قد بلغنى عنهم ما أكره . واستعمل عبد الملك على المدينة يحيى بن حكيم بن أبى العاص .

ولاية الحجاج على العراقيين

قال : وذكروا أن عبد الملك لما كتب إلى الحجاج يأمره بالمسير إلى العراقيين ويحتال لقتلهم ، توجه ومعه ألفا رجل من مقاتلة أهل الشام وحماتهم ، وأربعة آلاف من أخلاط الناس وتقدّم بألفى رجل ، وتحرّى دخول البصرة يوم الجمعة فى حين أوان الصلاة ، فلما دنا من البصرة ، أمرهم أن يتفرّقوا على أبواب المسجد ، على كل باب مئة رجل بأسيافهم تحت أرديتهم وعهد إليهم أن إذا سمعتم الجلبة فى داخل المسجد ، والواقعة فيهم ، فلا يخرجن خارج من باب المسجد حتى يسبقه رأسه إلى الأرض وكان المسجد له ثمانية عشر باباً ، يدخل منها إليه . فافترق القوم عن الحجاج فبدروا إلى الأبواب ، فجلسوا عندها مرتدين ينتظرون الصلاة : ودخل الحجاج وبين يديه مئة رجل ، وخلفه مئة كل رجل منهم مرتد بردائه ، وسيفه قد أفضى به إلى داخل إزاره . فقال لهم : إنى إذا دخلت فسأكلم القوم فى خطبتى ، وسيحصبوننى ، فإذا رأيتمونى قد وضعت عمامتى على ركبتى ، فضعوا أسيافكم ، واستعينوا بالله ، واصبروا إن الله مع الصابرين ؛ فلما دخل المسجد ، وقد حانت الصلاة ، صعد المنبر فحمد الله ثم قال : أيها الناس إن أمير المؤمنين عبد الملك أمير استخلفه الله عزّ وجلّ فى بلاده ، وارتضاه إماماً على عباده ، وقد ولانى مصركم ، وقسمة فيئكم ، وأمرنى بإنصاف مظلومكم ، وإمضاء الحكم على ظالمكم ، وصرف الثواب إلى المحسن البرئ ، والعقاب إلى العاصى المسئ ، وأنا متبع فيكم أمره ، ومنفذ عليكم عهده ، وأرجو بذلك من الله عزّ وجلّ المجازاة ، ومن خليفته المكافأة وأخبركم أنه قلدنى بسيفين حين توليته إياى عليكم : سيف رحمة ، وسيف عذاب ونقمة ؛ فأما سيف الرحمة فسقط منى فى الطريق ، وأما سيف

النقمة فهو هذا . فحصبه الناس . فلما أكثروا عليه خلع عمامته ، فوضعها على ركبته ، فجعلت السيوف تبرى الرقاب ؛ فلما سمع الخارجون الكائنون على الأبواب وقيعة الداخلين ، ورأوا تسارع الناس إلى الخروج ، تلقوهم بالسيوف ، فردعوا الناس إلى جوف المسجد ، ولم يتركوا خارجاً يخرج ، فقتل منهم بضعة وسبعين ألفاً ، حتى سالت الدماء إلى باب المسجد ، وإلى السكك .

قال أبو معشر : لما قدم الحجاج البصرة ، صعد المنبر ، وهو معتجر بعمامته متقلد سيفه وقوسه . قال : فنعس على المنبر ، وكان قد أحيا الليل ، ثم تكلم بكلام فحصبوه ، فرفع رأسه ثم قال : إنى أرى رءوساً قد أينعت وحان قطافها . فهابوه وكفوا ، ثم كلمهم فحصبوه وأكثروا ، فأمر بهم جنداً من أهل الشام ، وكانوا قد أحاطوا به من حوله ومن حول أبواب المسجد . قال : فلما فرغ منهم وأحكم شأنه فيهم ، بعث عبد الرحمن بن محمد ابن الأشعث إلى سجستان ، عاملاً ومعه جيش . فكتب إليه الحجاج أن يقاتل حصن كذا وكذا ، فكتب إلى الحجاج : إنى لا أرى ذلك صواباً ، إن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب . فكتب إليه الحجاج : أنا الشاهد ، وأنت الغائب ، فانظر ما كتبت به إليك ، فامض له ، والسلام .

خروج ابن الاشعث على الحجاج

قال : وذكروا أن عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث لما خرج على الحجاج جمع أصحابه ، وفيهم عبد الرحمن بن ربيعة بن الحارث بن نوفل ، وبنو عون بن عبد الله ، وعمر بن موسى ابن معمر بن عثمان بن عمرة ، وفيهم محمد بن سعد بن أبى وقاص . فقال لهم : ما ترون ؟ فقالوا : نحن معك ، فاخلع عدوّ الله وعدوّ رسوله ، فإن خلعه من أفضل أعمال البرّ ، فخلعه وأظهر خلعه . فلما أظهر ذلك قدم عليهم سعيد بن جبير ، فقالوا له : إنا قد حبسنا أنفسنا عليك ، فما الرأى ؟ قال : الرأى أن تكفوا عما تريدون ، فإن الخلع فيه الفتنة ، والفتنة فيها سفك الدماء ، واستباحة الحرم ، وذهاب الدين والدنيا . فقالوا . إنه الحجاج وقد فعل ما فعل ، فذكروا أشياء ، ولم يزالوا به حتى سار معهم وهو كاره . قال : وانتهى الخبر إلى الحجاج ، فقيل له : إن عبد الرحمن قد خلعك ومن معه فقال : إن معه سعيد بن جبير ، وأنا أعلم أن سعيداً لا يخرج ، وإن أرادوا ذلك فسيكفهم عنه . فقيل له : إنه رام ذلك ، ثم لم يزالوا به حتى فتنوه ، وسار معهم . فبعث الحجاج الغضبان الشيبانى ليأتيه بخبر عبد الرحمن بن الأشعث من كرمان ، وتقدّم إليه أن لا يكتمه من أمره شيئاً ،

فتوجه الغضبان إلى عبد الرحمن . فقال له عبد الرحمن : ما وراءك يا غضبان ؟ قال : شرّ طويل ، تغدّ بالحجاج قبل أن يتعشى بك . ثم انصرف من عنده ، فنزل رملة كرمان ، وهى أرض شديدة الحرّ ، فضرب بها قبة وجلس فيها ، فبينا هو كذلك إذ ورد أعرابىّ من بكر بن وائل على قعود ، فوقف عليه وقال : السـلام عليك . فقال له الغضبان : السلام كثير ، وهى كلمة مقولة . قال الأعرابىّ : من أين أقبلت ؟ قال : من الأرض الذلول . قال : وأين تريد ؟ قال : أمشى فى مناكبها ، وآكل من رزق الله الذى أخرج لعباده منها . قال الأعرابىّ : فمن غلب اليوم ؟ قال الغضبان . المتقون . قال : فمن سبق ؟ قال : حزب الله الفائزون . قال الأعرابىّ : ومن حزب الله ؟ قال : هم الغالبون . فعجب الأعرابىّ من منطقه ، وحضور جوابه . ثم قال : أتقرض[1] ؟ قال الغضبان : إنما تقرض الفأرة . قال : أفتنشد[2] ؟ قال : إنما تنشد الضالة . قال : أفتسجع[3] ؟ قال : إنما تسجع الحمامة . قال : أفتنطق[4] ؟ قال : إنما ينطق كتاب الله . قال : أفتقول[5] ؟ قال : إنما يقول الأمير . قال الأعرابىّ : تالله ما رأيت مثلك قط . قال الغضبان : بل رأيت ولكنك نسيت ، قال الأعرابىّ : فكيف أقول ؟ قال : أخذتك الغول ، فى العاقول[6] ، وأنت قائم تبول . قال الأعرابىّ : أتأذن لى أن أدخل عليك ؟ قال الغضبان : وراؤك أوسع لك ، قال الأعرابىّ : قد أحرقتنى الشمس : قال الغضبان : الآن يفىء عليك الفىء[7] إذا غربت . قال الأعرابىّ : إن الرمضاء قد أحرقت قدمىّ . قال الغضبان : بل عليها تبرد . قال الأعرابىّ : إن الوهج شديد . قال الغضبان : مالى عليه سلطان . قال الأعرابىّ : إنى والله ما أريد طعامك ولا شرابك . قال الغضبان : لا تعرّض بهما ، فوالله لا تذوقهما . قال الأعرابىّ : وما عليك لو ذقتهما ؟ قال الغضبان : نأكل ونشبع . فإن فضل شىء من الأكرياء[8] والغلمان ، فالكلب أحقّ به منك . قال الأعرابىّ : سبحان الله ! قال الغضبان : نعم ، من قبل أن

---

(١) تقرض : تقول الشعر .
(٢) تنشد : تروى شعر غيرك .
(٣) تسجع : تقول نثراً مسجوعا .
(٤) تنطق : تتكلم بأى كلام .
(٥) تقول : تتكلم بأى كلام عن غيرك .
(٦) العاقول : نبات تأكله الإبل .
(٧) الفىء : الظل .
(٨) الأكرياء : جمع كرىّ وهو من يعمل بالأجر .

يطلع رأسك وأضراسك إلى الدنيا ، قال الأعرابى : ما عندك إلا ما أرى ؟ قال الغضبان : بل عندى هراوتان أضرب بهما رأسك حتى ينتثر دماغك . قال الأعرابى : إنا لله وإنا إليه راجعون . قال الغضبان : أظلك أحد ؟ قال الأعرابى : ما أرى . ثم قال الأعرابى : يا آل حارث بن كعب ، فقال الغضبان : بئس الشيخ ذكرت . قال الأعرابى : ولم ذلك ؟ قال الغضبان : لأن إبليس يسمى حارثاً . قال الأعرابى : إنى لأحسبك مجنوناً . قال الغضبان : اللهمّ اجعلنى من خيـــار الجنّ . قال الأعرابى : إنى لأظنك حرورياً(١) . قال الغضبان : اللهمّ اجعلنى ممن يتحرّى الخير . قال الأعرابى : إنى لأراك منكراً . قال الغضبان . إنى لمعروف فيما أوتى . فولّى عنه وهو يقول : إنك لبذخ أحمق . وما أنطق الله لسانك إلا بما أنت لاق وعما قليل تلتفّ ساقك بالساق . فلما قدم الغضبان على الحجاج قال له : أنت شاعر؟ قال : لست بشاعر ، ولكنى خابر . قال : أفعرّاف أنت ؟ قال : بل وصّاف . قال : كيف وجدت أرض كرمان ؟ قال الغضبان : أرض ماؤها وشل(٢) ، وسهلها جبل ، وتمرها دقل(٣) ، ولصها بطل ، إن كثر الجيش بها جاعوا ، وإن قلّ بها ضاعوا . قال : صدقت ، أعلمت من كان الأعرابى ؟ قال : لا ، قال : كان ملكاً خاصمك ، فلم تفقه عنه لبذخك ، اذهبوا به إلى السجن فإنه صاحب المقالة : تغدّ بالحجاج قبل أن يتعشى بك . وأنت يا غضبان قد أنذرك خصمك على نطق لسانك ، فما الذى به دهاك ؟ قال الغضبان : جعلنى الله فداك أيها الأمير ، أما إنها لا تنفع من قيلت له ، ولا تضرّ من قيلت فيه . فقال الحجاج : أجل ولكن أتراك تنجو منى بهذا ؟ والله لأقطعنّ يديك ورجليك ، ولأضربنّ بلسانك عينيك . قال الغضبان : أصلح الله الأمير ، قد آذانى الحـــديد وأهون ساقىّ القيود ، فما يخاف من عدلك البرىء ، ولا يقطع من رجائك المسىء . قال الحجاج : إنك لسمين . قال الغضبان : القيد والرتعة(٤) ، ومن يك ضيف الأمير يسمن . قال : إنا حاملوك على الأدهم(٥) قال الغضبان : مثل

---

(١) حرورى : نسبة إلى حروراء قرية قرب الكوفة ظهر بها الخوارج ، يريد إنى لأظنك من الخوارج .

(٢) وشل : قليل .

(٣) الدقل : أردأ التمر .

(٤) الرتعة : عدم المسئولية :

(٥) الأدهم : أصله فى اللغة الأسود ولكنه يطلق على قيد الحديد لأن الحديد أسود وصار علما عليه .

الأمير أصلحه الله يحمل على الأدهم [1] والأشقر . قال الحجاج : إنه لحديد . قال الغضبان : لأن يكون حديداً [2] خير من أن يكون بليداً . قال الحجاج : اذهبوا به إلى السجن ، قال الغضبان : (فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون) . فاستمر في السجن إلى أن بنى الحجاج خضراء واسط ، فقال لجلسائه : كيف ترون هذه القبة ؟ قالوا : ما رأينا مثلها قط . قال الحجاج : أما إن لها عيباً فما هو ؟ قالوا : ما نرى بها عيباً . قال : سأبعث إلى من يخبرني به ، فبعث ، فأقبل بالغضبان وهو يرسف في قيوده ؛ فلما مثل بين يديه . قال له ياغضبان : كيف تبقى هذه ؟ قال : أصلح الله الأمير نعمت القبة ! حسنة مستوية ! قال : أخبرني بعيبها ؟ قال : بليتها في غير بلدك ، لا يسكنها ولدك ، ومع ذلك فإنه لا يبقى بناؤها ، ولا يدوم عمرانها ، وما لا يبقى ولا يدوم ، فكأنه لم يكن . قال الحجاج : صدق ، ردوه إلى السجن . فقال الغضبان : أصلح الله الأمير ، قد أكلني الحديد ، وأوهن ساقي القيود ، وما أطيق المشي . قال: احملوه . فلما حمل على الأيدي قال : (سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين) قال : أنزلوه ، فلما أنزلوه . قال: (رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين) . قال الحجاج : جروه . قال الغضبان وهو يجر : (بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم) . قال الحجاج : اضربوا به الأرض ، فقال : (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) فضحك الحجاج حتى استلقى على قفاه ثم قال : ويحكم ، قد غلبني والله هذا الخبيث ، أطلقوه إلى صفحي عنه . قال الغضبان : (فاصفح عنهم وقل سلام) . فنجا من شره بإذن الله ، وكانت براءته فيما انطلق على لسانه .

حرب الحجاج مع ابن الأشعث وقتله

قال : وذكروا أن الحجاج لما قدم العراق أميراً ، زوج ابنه محمداً ميمونة بنت محمد بن الأشعث ابن قيس الكندي ، رغبة في شرفها ، مع ما كانت عليه من جمالها ، وفضلها في جميع حالاتها ، وأراد من ذلك ، استمالة جميع أهلها وقومها إلى مصافاته ، ليكونوا له يداً على من ناوأه ، وكان لها أخ يقال له عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي ، له أبهة في نفسه . وكان جميلاً بهياً منطقياً ، مع ما كان له من التقدم والشرف ، فازدهاه ذلك وملأه كبراً وفخراً وتطاولاً ، فألزمه بنفسه ، وألحقه بأفاضل أصحابه وخاصته وأهل سره ، وأجرى عليه العطايا الواسعة ،

---

(١) يريد الفرس الأدهم وهو الأسود والفرس الأشقر وهو الأبيض .
(٢) أراد الغضبان بالفرس الحديد : السريع .

صلة لصهره ، وحبا لإتمام الصنيعة إليه ، وإلى جميع أهله . فأقام عبد الرحمن كذلك حينا مع الحجاج ، لا يزيده الحجاج إلا إكراماً ، ولا يظهر له إلا قبولا ، وفى نفس الحجاج من عجبه ما فيها ، لتشمخه زاهياً بأنفه حتى إنه كان ليقول إذا رآه مقبلا : أما والله يا عبد الرحمن ، إنك لتقبل علىّ بوجه فاجر ، وتدبر عنى بقفاء غادر ، وايم الله لتبتلين حقيقة أمرك على ذلك .
فمكث بهذا القول منه دهراً ، حتى إذا عيل صبر الحجاج على ما يتطلع من عبد الرحمن ، أراد أن يبتلى حقيقة ما يتفرّس فيه من الغدر والفجور ، وأن يبدى منه ما يكتم من غائلته ، فكتب إليه عهده على سجستان . فلما بلغ ذلك أهل بيت عبد الرحمن، فزعوا من ذلك فزعاً شديداً ، فأتوا الحجاج ، فقالوا له : أصلح الله الأمير ، إنا أعلم به منك ، فإنك به غير عالم ، ولقد أدّبته بكل أدب ، فأبى أن ينتهى عن عجبه بنفسه ، ونحن نتخوّف أن يفتق فتقا ، أو يحدث حدثاً ، يصيبنا فيه منك ما يسوؤنا . فقال الحجاج : القول كما قلتم ، والرأى كالذى رأيتم ، ولقد استعملته على بصيرة ، فإن يستقم فلنفسه نظر ، وإن يفترج سبيله عن بصائر الحقّ يهد إليها إن شاء الله .
فلما توجه عبد الرحمن إلى عمله ، توجه وهو مصرّ لخلعان طاعة الحجاج ، وسار بذلك مسيره أجمع حتى نزل مدينة سجستان ، ثم مرّ على خلعانه عام كامل ، فلما أجمع عبد الرحمن على إظهار خلعان الحجاج ، كتب إلى أيوب بن القرية التيمى ، وهو مع الحجاج فى عسكره ، خاصّ المنزلة منه ، وكان مفوّهاً كاما يسأله أن يصدر إليه رسالة الحجاج ، يخلع فيها طاعة الحجاج ، فكتب له ابن القرية رسالة فيها : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، إلى الحجاج ابن يوسف : سلام على أهل طاعة الله ، أوليائه الذين يحكمون بعدله ، ويوفون بعهده ، ويجاهدون فى سبيله ، ويتورّعون لذكره ، ولا يسفكون دما حراما ، ولا يعطلون للربّ أحكاما ، ولا يدرسون له أعلاما ، ولا يتنكبون النهج ، ولا يرمون السىّ ، ولا يسارعون فى الغىّ ، ولا يدللون الفجرة ، ولا يترضون الجوَرة ، بل يتمكنون عند الاشتباه ، ويتراجعون عند الإساءة . أما بعد : فإنى أحمد إليك الله حمداً بالغاً فى رضاه ، منتهياً إلى الحق فى الأمور الحقيقية لله علينا . وبعد : فإن الله أنهضنى لمصاولتك ، وبعثنى لمناضلتك ، حين تحيرت أمورك ، وتهتكت ستورك ، فأصبحت عريان حيران، مبهّتاً[1] لا توافق وفقاً ، ولا ترافق رفقاً . ولا تلازم صدقاً ، أؤمل من الله الذى ألهمنى ذلك ، أن يصيرك فى حبالك ، أو أن يجيء بك فى القرن[2] ، ويسحبك للذقن[3] وينصف منك من لم تنصفه من نفسك ،

---

(١) مبهتا : منسوباً إلى البهتان والزيغ .
(٢) القرن : بفتح القاف والراء الحبل : يريد أن يأتى أسيراً .
(٣) أى تجر على وجهك .

ويكون هلاكك بيدىْ من انهمته وعاديته . فلعمرى لقد طال ماتطاولت، وتمكنت وأخطيت، وخلت أن لن تبور ، وأنت فى فلك الملك تدور ، وأظنّ مصداق ما أقول ستخبرَه عن قريب فسر لأمرك ، ولاق عصابة خلعتك من حبالها خلعها نعالها . وتدرّعت جلالها[1] ، تجرّعها مطالها ، لا يحذرون منك جهداً ، ولا يرهبون منك وعيدا ، يتأملون خزايتك ، ويتجرّعون إمارتك ، عطاشا إلى دمك ، يستطعمون الله لحمك ، وايم الله لينافقنك منهم الأبطال ، الذين بيتهم فيما يحاولونك به على طاعة الله ، شروا[2] أنفسهم تقرّبا إلى الله ، فأغض عن ذلك يابن أمّ الحجاج . فسنحمل عليك إن شاء الله ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله ، والسلام على أهل طاعة الله .

فلما قدم الكتاب على الحجاج ، خرج موائلا قد أخذ بطرف ردائه ، وألقى الطرف الآخر يجرّه من خلفه حتى صعد المنبر ونودى : الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس ثم قال :

تقاتلهم ولم نشتم عــدوّا وشرّ عداوة المرء السبـاب

امرؤ وعظ نفسه بنفسه، امرؤ تعاهد غفلة نفسه وتفقدها جهده ، امرؤ وعظ بغيره فاتعظ، قد تبين لكم ما تأتون وما تبغون ، العجب العجب ، وما هو أعجب من العير[3] الأبتر، إنى وجهته ومن معه من المنافقين لسبع مئة وزن سبعة سواء ، فانطلقوا فى نحور العدوّ ، ثم أقبلوا على راياتهم لقتال أهل الإسلام ، من أجل عير أبتر ، ومن كيده ما هو أعجب العجب ، على حين أننا قد أمّنا الخوارج ،وأطفأنا الفتن، فكان من شكركم يا أهل العراق ليد الله فيكم ، ونعمته عليكم ، وإحسانه إليكم ، جرأتكم على الله ، وانتهاككم حرمته ، واغتراركم بنعمة الله ، ألم يأتكم شبيب مهزوماً ذليلا ، فهلا توجهت إليه منكم خمسة وعشرون أمير جيش ، ليس منهم من أمير جيش إلا وهو فى جنده بمنزلة العروس التى يزفّ بها إلى خدرها ، فيقتل أميرهم وهم وقوف ينظرون إليه ، لا يرون له حرمة فى صحبة ، ولا ذماما فى طاعة ، فقبحت تلك الوجوه ! فما هذا الذى يتخوّف منكم يا أهل العراق ، أما هذا الذى نتق ؟ والله لقد أكرمنا الله بهوانكم وأهانكم بكرامتنا ، فى مواطن شتى تعرفونها ، وتعرفون أشياء حرّمكم الله اتخاذها ، وما الله

---

(١) الجلال : الأمور العظيمة .
(٢) شروا أنفسهم : باعوها .
(٣) العير : بفتح العين وسكون الياء الحمار ، الأبتر المقطوع الذنب

بظلام للعبيد . ثم خذلانكم لهذه العلوجاء[1] القصصة انحرافا ، أولى لهذه[2] العلوجاء وأخلاطها من أهل العراق ! لقد هممت أن أترك بكل سكك منها جيفا منتفخين ، شائلة[3] أرجلهم ، تنهشهم الطير من كل جانب . يا أهل الشام : أحدّوا قلوبكم ، وأحدوا سيوفكم ، ثم قال :

قـد جـد أشياعكم فجـدّوا والقوس فيها وتـرٌ عـردٌ[4]

مثل ذراع البكر[5] أو أشدّ

هيهات: ترك الخداع من أجزى من الثة ، ومن لم يذد عن حوضه يهدم، وأرى الحزام قد بلغ الطبيين ، والتقت حلقتا البطان[6] ، ليس سلامان كمهدين ، أنا ابن العرقية[7] . وابن الشيخ الأعزّ ، كذبتم ورب الكعبة ، ما الرأى كما رأيتم ، ولا الحديث كما حدثتم ، فافطنوا لعيوبكم، وإياكم أن أكون أنا وأنتم كما قال القائل :

إنك إن كلفتنى مالم أطق ساءك ماسرّك منى من خلق

والمخبر بالعلم ليس كالراجم بالظنون ، فالتقدّم قبل التندّم ، وأخو المرء نصيحته ثم قال .

لذى الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا وما علّم الإنسان إلا ليعلما

ثم قال . احمدوا ربكم ، وصلوا على نبيكم صلى الله عليه وسلم ، ثم نزل وقال :

اكتب يانافع وكان نافع مولاه وكاتبا يكتب بين يديه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من الحجاج بن يوسف إلى عبد الرحمن بن الأشعث ، سلام على أهل النزوغ من التزيغ وأسباب

---

(١) العلوجاء : جمع علج وهو الرجل الأعجمى الذى ليس بعربى ، والقصصة : التى تركت حتى كادت تموت .

(٢) أولى لهذه العلوجاء : كلمة تهديد : أى قاربهم ما يهلكهم .

(٣) شائلة : مرتفعة .

(٤) العرد : المشدود مستعد لإطلاق السهم .

(٥) البكر : بفتح الباء وضمها : الفتى من الإبل القوى .

(٦) سبق بيان معنى هذه الجملة والتى قبلها فى الجزء الأول فى خطاب عثمان رضى الله عنه إلى الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه وفى غيره من الخطب والرسائل .

(٧) كناية عن الشدة .

الرداء ،لا إلى معادن السيّ ، والتقحم فى الغيّ ، فإنى أحمد الله الذى خلاك فى حيرتك ، إذ بهتك فى السيرة ، ووهلك الضرورة حتى أقحمك أمورا أخرجت بها عن طاعته ، وجانبت ولايته ، وعسكرت بها فى الكفر ، وذهلت بها عن الشكر ، فلا تشكر فى السراء ، ولا تصبر فى الضرّاء أقبلت مسكنا بحريم الحرّة ، وتستوقد الفتنة لتصلى بحرّها ، وجلبت لغيرك ضرّها ، وقلت وثاق الاحتجاج ، ومبارزة الحجاج ، ألا بل لأمك الهبل ، وعزّة ربك لتكبنّ لنحرك[1]. ولتقلبنّ لظهرك ، ولتتخبطنّ فريصتك[2]، ولتدحضنّ حجتك ولتندمنّ مقامك ، ولتشتغلنّ سهامك ، كأنى بك تصير إلى غير مقبول منك . إلا السيف هوجا هوجا ، عند كشوف الحرب عن ساقها ، ومبارزة أبطالها ، والسلام على من أناب إلى الله وسمع وأجاب . ثم قال : من ها هنا من فتية بنى الأشعث بن قيس ؟ قيل سعيد بن جبير . قال : فأتى به . قال له : انطلق بهذا الكتاب إلى هذا الطاغية ، الذى قد فُتن وَفتن ، فاردعه عن قبيح مادخل فيه ، وعظم ما أصرّ عليه من حقّ الله ، وحرمة ما انتهك عدوّ الله ، إلى مافى ذلك من سفك الدماء ، وإباحة الحريم ، وإنفاق الأموال ، فانى لولا معرفتى بأنك قد حويت علماً ، وأصبت فقها ، أخاف أن يكون عليك لالك ، لعهدت لك به عهدا تقفل به ، ولكن انطلق مرّتك هذه قبل الكتاب إليه ، واحمله على البريد . فخرج سعيد به متوجها ، حتى انتهى إليه .

فلما قرأ عبد الرحمن الكتاب ، تبينت رعشته جزعاً منه ، وهيبة له ، وسمع بذلك من كان يتابعه ، وهوى كل ذى هوى ، وضمّ سعيد بن جبير فلم يظهره للناس ، وَكتم الكتاب وجعل يستخلى بابن جبير فى الليل فيسمر معه ، ويسأله عبد الرحمن الدخول معه فيما رأى هو من خلع الحجاج ، فأبى سعيد ذلك عليه ، فمكث بذلك شهرا كريتا[3]. فأسعفه سعيد بن جبير بطلبته ، وسارع معه فى رغبته ، وخلعان طاعة الحجاج ، ثم إن عبد الرحمن ، تجهز من سجستان مقبلاً ، يقود من يقوده من أهل هواه وأهل رأيه ، وخرج الحجاج إليه بمن معه من أجناده من أهل الشام ، وبمن معه يومئذ من أهل الطاعة من أهل العراق ، حتى لقيه

---

(١) تكبن لنحرك : الكب : الإلقاء ، والنحر موضع الذبح من الحيوان ، أى لتلقين على وجهك .

(٢) الفريصة : داخل الفخذ أى الجزء غير الظاهر من الفخذ ، ومعنى تخبط الفريصة اضطرابها ، وهذا يحدث عند الخوف ، يقال ارتعدت فرائصه أى خاف

(٣) كريتا : كاملا .

بدير من أديار الأهواز ، يسمى بنيسابور ، فناصبه للقتال ستة أشهر كريتة[1]، لاله ولا عليه ، حتى إذا كان فى جوف ليلة من الليالى ، خلا الحجاج بعنبسة بن سعيد بن العاص ، ويزيد بن أبى مسلم ، وعلىّ بن منقذ مولاه ، وبعبد الرحمن بن زياد مولاه ، وكان يزيد بن أبى مسلم حاجبه على ما وراء بابه وأما يحيى فوكله بالقيام خلف ظهره ، إذا هو نسى أو غفل نخسه بمنخسه ، ثم قال : اذكر الله ياحجاج ، فيذكر مابدا له أن يذكر . وأما عبد الرحمن ابن زياد : فكان ذا رأى ومشورة وأدب وفقه ونصيحة . أما عنبسة : فكان بعيد الهمة ، طويل اللسان ، بديه الجواب ، فاصل الخطاب ، موفق الرأى ، فاستشارهم لما طال به وبعبد الرحمن القتال ، لايظفر واحد منهما بصاحبه — ومع عبد الرحمن سعيد بن جبير والشعبى ، فكان هذا فقيه أهل الكوفة ، وهذا فقيه أهل البصرة — فى أن يبيته ، فكره ذلك مواليه ، وأشار عنبسة أن يبيته ، فقال الحجاج . أصبت ، أصاب الله بك الخير ، وما الأمر إلا النصيحة ، والرأى شعوب ، فمخطىء منها أو مصيب ، غدا الاثنان ، فصوموا ونصوم ، واستعينوا الله بالخيرة ، ونبيتهم الليلة المقبلة ، ليلة الثلاثاء ، فسوف أترجل ، ويترجل أهل مودتى ونصيحتى ، من ولدى وغيرهم . ففعل : وأصبح صائماً ، وبيتهم ليلة الثلاثاء وهو يقول : اللهمّ إن كان الحقّ لهم فلا تمتنا على الضلالة ، وإن كان الحقّ لنا فانصرنا عليهم ، فحمل عليهم والنيران توقد ، فأصاب منهم ، وأصيب منه ، وانهزم ابن الأشعث فى سواد الليل ، وأصاب الحجاج عسكره ، وأسر سعيد بن جبير ، وأفلت عامر بن سعيد الشعبى مع ابن الأشعث ، فلما أتى الحجاج بسعيد بن جبير ، قال له : ويحك ياسعيد ! أما تستحى منى ؟ ومدّك الشيطان فى طغيانك ، ألا استحيت من المراقب لى ولك ، والحافظ علىّ وعليك ؟ فقال : أصلح الله الأمير ، وأمتع به ! هى بلية وقعت ، وعذاب نزل ، والقول كما قال الأمير ، وكما نسبه به وأضافه إليه ، إلا أنى أتيت رجلا قد أزهى وطغى ، ولبسته الفتنة ، وركب الشيطان كتفيه ، ونفث فى صدره ، وأملى على لسانه فخفته واتقيته بالذى فعلت ؟ فإن تعاقب فبذنب ، وإن تعف فسجية منك . فقال له الحجاج : فإنا قد عفونا عنك ، وسنردّك إليه تارة أخرى . ثم كتب كتابا ، ووجهه مع سعيد بن جبير إلى عبد الرحمن ، فلما كان سعيد ببعض الطريق ، خرق الكتاب . وقدم عبد الرحمن فأخبره ، فنفر عبد الرحمن ، وخرج موائلا إلى أهل البصرة ، وقد قدمت عليه كتبهم ، يستبطئونه ويستعجلونه حتى قدم عليهم ، وبلغ ذلك الحجاج فسبقه إلى البصرة فدخل الحجاج المسجد متنكبا قوساً ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وحرّض الناس على قتال ابن

---

(١) كريتة : كاملة .

الأشعث ،وحضّهم على طاعة عبد الملك ، وتكلم رجل من أهل البصرة ، يقال له سلمة النقرى، من بنى تميم ، وكان رجلاً منطيقاً ، وله هوى فى الخوارج ، وكان الحجاج به خابراً . فلما رآه عرف أنه يريد الكلام . فقال له : ادن ياسلمة ، فدنا . فقال له : قل : رضينا بالله رباً ، وبمحمد نبياً ، وبالإسلام ديناً ، وبالقرآن إماماً ، وبأمير المؤمنين خليفة ، وبالحجاج بن يوسف والياً . قال : والله لو كنا زمعاً وبنى زمع مارضينا أن نكون تبعاً لهذا الحائك ، أمير المؤمنين أعزّه الله ، وأعزّ أمره ، أقرب قرابة وأوجب حقا ، ونحن ألزم لطاعة الأمير أكرمه الله ، من أن نسارع له فى معصية أو نبطئ عنه فى طاعة ، فأجابه الحجاج فقال : ياسلمة ، هذا قول حسن ، لا أدخله صدرى ، ولأردّنه فى نحرك ، حتى نبتلى حقيقته إن شاء الله ؛ وكان قوله هذا على المنبر ، وقد عسكر بأجناده بالزاوية ، والزاوية فى طرف من ناحية البصرة فى طرف بنى تميم . ثم إنه خرج من المسجد ، وحشد الناس من كان فى الطاعة يومئذ من أهل العراق ، وقد كان انهزم لابن الأشعث غير مامرّة ، وقتل له ابن الأشعث خلقاً لا تحصى كثرة ، قبل هذه المرّة ، حتى يئس من نفسه وقال : أترون العجوز ، ابنة الرجل الصالح كذّبتنى ؟ يعنى أسماء بنت أبى بكر الصدّيق ، لئن صدقت أسماء لا أقتل اليوم . وكان الحجاج لما فرغ من قتال عبد الله بن الزبير ، بعث إلى أمه أسماء بنت أبى بكر الصديق أن تأتيه ، فأبت أن تأتيه . فقال : والله لئن لم تأتنى لأبعثنّ إليها من يجرّ بقرون رأسها ، ويسحبها حتى تصل إلىّ ، فقيل ذلك لها . فقالت : والله لا أسير إليه حتى يبعث إلىّ من يجرّ بقرون رأسى . فأقبل الحجاج حتى وقف عليها ، فقال لها : كيف رأيت ما فعل الله تعالى بابنك ، عدوّ الله ؟ الشاقّ لعصا المسلمين ، المفنى لعباده والمشتت لكلمة أمة نبيه ؟ فقالت : رأيته اختار قتالك ، فاختار الله له ما عنده ، إذ كان إكرامه خيراً من إكرامك . ولكن يا حجاج بلغنى أنك تنتقصنى بنطاقىّ هذين ، أو تدرى ما نطاقاى ؟ أما النطاق هذا فشددت به سفرة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم غزوة بدر ، وأما النطاق الآخر ، فأوثقت به خطام بعيره . فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما إن لك به نطاقين فى الجنة ، فانتقص علىّ بعد هذا أو دع ، ولكن لا إخالك يا حجاج ، أبشر فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : منافق ثقيف علأ الله به زاوية من زوايا جهنم ، يبيد الخلق ، ويقذف الكعبة بأحجارها ، ألا لعنة الله عليه ! فأفحم الحجاج ولم يحر جوابا . قال : وسار ابن الأشعث بعد ماهزم الحجاج مرارا إلى الكوفة حتى نزل دير الجماجم ، فقتل للحجاج فيه خلق كثير ، وكتب إلى عبد الملك بن مروان أن أمدنى بالرجال ، قال : فأمدّه بمحمد بن مروان فى أناس من بنى أمية كثير ، وجعل الحجاج أميرا عليهم ، فسار الحجاج إلى ابن الأشعث ، فاقتتلوا أياما بدير الجماجم ، حتى كثر القتل فى

(١) الزمع بفتح الزاى والميم : أراذل الناس .

الفريقين جميعاً ، ثم إن ابن الأشعث لما حشد العسكر والحجاج بالبصرة . عسكر على مسير ثلاثة أميال من البصرة على نهر يقال له نهر ابن عمر ، فكتب ابن الأشعث يسأله أن ينحى عنهم لما كرهوا ولايته ، حتى يستعمل عليهم أمير المؤمنين غيره ، من هو أحبّ إليهم منه . فلما انتهى إليه رسوله قال الحجاج : أدخلوه ، فلما دخل سلم عليه بالإمارة ، قال : من أنت ؟ قال : رجل من خزاعة . قال : من أهل البصرة أنت ، أم من أهل الكوفة ؟ قال : لا ، بل من أهل سجستان . قال : هل تأخذ لأمير المؤمنين ديوانا ؟ قال : لا ، قال : أفمن وزراء ابن الأشعث أنت علينا فى هذه الفتنة يا أخا خزاعة ؟ قال : والله ما هويتها ، ولقد جلبنى إليك مكرها ، قال : فكيف تسليمك على صاحبك إذا انصرفت أليه ؟ قال : بالإمرة ، قال : فهل ترى فى ذلك أنك صادق ؟ قال : الله أعلم بأىّ الأمرين هو فى نفسك أعلى الصواب أم على الخطأ ؟ قال : الله أعلم أىّ الأمرين فى نفسى . قال : أما إنك يا أخا خزاعة قد رددت الأمر إليه وهو تعالى أعلم ، انطلق إلى صاحبك بكتابك كما جئت به ، وأعلمه بالذى كان من ردّنا عليك ، فإنه جوابه عندنا ، ونحن مناجزوه القتال ، ومحاكموه إلى الله من يوم الأربعاء إن شاء الله ، فليعد وليستعدّ لذلك ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، وذلك يوم الأحد . قال : فلما انصرف رسوله إليه ناوله الكتاب ، فلما رآه بخاتمه ، أى مثل ما بعثه كفّ ، فلم يسأله أمام من حضر ، حتى ارتفع الناس ، ثم دعاه فأخبره الخبر . قال : وما وراء ظهرك إلا هذا ؟ قال له : فى دون ماجئتك به ما يكفيك ، فقد رأيت أمراً صعباً ليس وراء إلا المناجزة . ثم إن الحجاج هتف هتفة أن اجتمعوا للعطية ، ففرق العطية فى ثلاثة مواضع ، وكان قوّاده يومئذ ثلاثة : سفيان بن الأبرد الكلبى على ميمنته ، وسعيد بن عمرو الجرشى على القلب ، وعبد الرحمن بن عبد الله العكى على ميسرته ، فأعطى الناس على هذا وأقام فى معسكره متربصا ومنتظراً ليوم الأربعاء . فلما رأى ابن الأشعث أنه لا يتقدم لقتاله ، وأنه متربص ليوم الأربعاء ، بث رجلا من معسكره ، حتى دنا من معسكر الحجاج ، فنزل قريباً منه ، على مقدار حُضر[(١)] الفرس ، رجاء أن يتحرّش له أحد من معسكر الحجاج ، فينشب القتال قبل يوم الأربعاء ، فرارا منه ، وتطيرا به . فلما رأى الحجاج ذلك علم ما أراده والذى توقع ، فتقدّم إلى أمراء أجناده وقوّاده ، وإلى أهل عسكره عامة ، ألا يكلم أحد منهم أحدا من عسكر ابن الأشعث ، ولا يعرضه على نفسه ، وإن أمكنته الفرصة منه إلا يوم الأربعاء ، فلما كانت صبيحة يوم الأربعاء ، وهو يوم يتطير به أهل العراق ، فلا يتنا كحون ، ولا يسافرون فيه ، ولا يدخلون من سفر ، ولا

---

(١) حضر الفرس : جريه السريع ، أى على مسافة يقطعها الفرس سريعا بحيث يراه من خلفه .

يبايعون فيه بشيء ، ولا بالبغل الأغرّ الأشقر . قال : فدعا الحجاج ببغلة شقراء محجّلة ، فركبها خلافاً لرأيهم ، واستشعاراً بطيرتهم ، وتوكلاً على الله ، ونادى مناديه فى عسكره : أن انهضوا. إلى قتال ابن الأشعث ، وأمر خاصته فركبوا معه ، وقدم رجّالته ، وأخر خلفه مقاتلته ، حتى إذا كانوا من عسكر ابن الأشعث على مثال الأسهم وقف فصفّ أصحابه وعبأهم للقتال ، وفعل مثل ذلك ابن الأشعث ، وترجل الحجاج وخاصته ، ووضع له منبراً من حديد ، فجلس عليه وترامى الناس، حتى إذا كاد القتال ينشب ، خرج رجل من أصحاب ابن الأشعث وهو ينادى : ألا هل من مبارز؟ فقام إليه عنبسة بن سعيد القرشىّ وهو يمشى مشية قد لامه الحجاج عليها ، وكرهها له . فلما رآه الحجاج وهو يمشى تلك المشية ، قال الحجاج : ظلمتك ياعنبسة ، لو كنت تاركها يوماً من دهرك لتركتها يومك هذا . فلما دنا من الرجل، قال له عنبسة: فمن أنت يامنتخى؟ فقال: رجل من بنى تميم، ثم من بنى دارم ، فحمل عليه عنبسة، فبدره بالضربة فقتله، ثم انصرف إلى مجلسه فجلس، وقد تبين للناس حسن صنعه، ثم زحف الفريقان بعضهم إلى بعض ، واشتدّ قتالهم، وانتحى سفيان على مركزه لم يرم ، والجرشىّ على مركزه لم يرم، وكانت ميلتهم على الميسرة، فنحوا عبد الرحمن العكى. فلما رآه الحجاج قد انكسرت ناحيته ، وزال عنها ، بعث إليه ابن عمه الحكم بن أيوب فى خيل. فقال : انطلق إلى عدوّ الله فاضرب وجهه بالسيف حتى تردّه إلى مقامه ، ففعل ، وبعث إلى سفيان بن الأبرد يأمره بقتال القوم ومحاربتهم ، فحمل عليهم سفيان وهم مشغولون بالميسرة قد طمعوا فيها ، وكان بإذن الله الفتح والغلبة من ناحية سفيان ، وقد بعث إليه الجرشىّ يستأذنه للقتال ، فمنعه الحجاج وقال له : لا ، إلا أن ترى أمراً مقبلاً ، وتمكنا من فرصة ، فاجتمع الأمر ، وثاب العكى ، وانهزم ابن الأشعث ، واستحقت هزيمته ، فدعا الحجاج بدابته فركبها ، وركب من كان مترجلاً معه ، بعد سجود ودعاء ، وشكر كان منه ، على ما صنع الله به ومن كان معه ، وحمدوا الله تعالى كثيراً ، وكبروا تكبيراً عالياً ، ثم انتهى إلى ربوة فأومأ إليها ، ثم استقبل ناحيتهم والسيوف تأخذهم ، وحسر بيضته [1] عن رأسه ، فجعل يقرع رأسه بخيزران فى يده ، وهو يتمثل بهذه الأبيات ، وهى من قول عبيد بن الأبرص ، أو من قول اليشكرى :

كيف يرجون سقاطى بعد ما ... جلل الرأسَ بياض وصلع
ساء ما ظنوا وقد أوريتهم ... عند غايات الوغى كيف أقع

---

(١) البيضه : الخوذة من الحديد يغطى الفارس بها رأسه .

وربّ من أنضجت غيظاً قلبه	قد تمنى لى موتاً لم يطع
ويرانى كالشجى فى حلقه	عسراً مخرجه ما ينتزع
مزبد يهدر ما لم يرنى	فإذا أسمعته صوتى انقمع
ويحيينى إذا لاقيته	وإذا يخلو له لحمى رتع
ورث البغضاء عن والده	حافظاً منه الذى كان استمع
ولسانى صيرفىّ صارم	كذباب السيف مامسّ قطع

قال : فلما فرغ الحجاج من هذه الأبيات كبر ، ثم حمد الله بما هو أهله ، للذى كان من صنعه به وبجماعته ، فبينا هو كذلك ، إذ أتاه من يخبره أن ابن الأشعث قد انخزل من أصحابه فى نفر يسير ، متوجهاً إلى ناحية خراسان ، فدعا الحجاج ابن عم له ، كان يعرفه بالنصيحة والهوى ، فقطع معه ليلاً ، وأرسله فى طلب ابن الأشعث إلى مواضع شق ، وعهد إليهم أن لا يدركوا أحداً إلا أتوا به أو برأسه أو يموت ؛ فوقف الحجاج طويلاً فى مكانه ذلك المرتفع ينظر إلى معسكر ابن الأشعث ، وأصحابه ينتهبونه ، ثم رجع إلى معسكره فنزل ، ودخل فسطاطه فجلس ، وأذن لأصحابه فدخلوا عليه ، فقام كل واحد منهم يهنئه بالفتح ، وجعل ابن جبلة يأتيه بالأسرى ، فكلما أتى بأسير أمر به فضربت عنقه ، فكان ذلك فعله يومه ذلك إلى الليل ؛ فلما أصبح وتراجع إليه أكثر خيله ، أمر مناديه ينادى بالقفل[1] ، فقفل وقفلت معه أجناده ، وجميع أصحابه إلى مدينة واسط ، فكان فيهاوهو الذى كان بناها ، قال : وضرب ابن الأشعث ظهراً لبطن ، ليلاً ونهاراً حتى لحق بخراسان ، ورجا فى لحوقه بها النجاة من الحجاج ، والحذر لنفسه ، ولم يشعر بالخيل التى بعثت فى طلبه حتى غشيته ، فلم تزل تطلبه من موضع إلى موضع ، حتى استغاث بقصر منيف ، فحصره ابن عمّ الحجاج فيه ، وأحاطت به الخيل من كل جانب ، حتى ضيق عليه ، ودعا بالنار ليحرقه فى القصر ؛ فلما رأى ابن الأشعث أنه لامحيص له ولاملجأ ، وخاف النار ، رمى بنفسه من بعض علالى القصر ، وطمع أن يسلم ولايشعر به فيدخل فى غمار الناس ، فيخفى أمره ، ويكتم خبره ، فسقط فانكسرت ساقه ، وانخذل ظهره ووقع مغشياً عليه ، قال : فشعر به أصحاب الحجاج فأخذوه ، وقد أفاق بعض الإفاقة ، ولا يقدر على النهوض فأتوا به إلى ابن عم الحجاج ، فلما رآه بتلك الحال أيقن أنه لا يقدر على أن يبلغ الحجاج حتى يموت ، فأمر به فضربت رقبته ، وانطلق برأسه إلى الحجاج ، فلما قدم عليه أحدث لله شكراً وحمداً

(١) القفل : الرجوع.

فيما كان من تمام الصنع ، وما هيأ له من التأييد والظفر ، وأقام كذلك لا يمرّ عليه يوم إلا وهو يؤتى فيه بأسرى ، فلما رأى كثرتهم ازداد حنقاً وغيظاً لمسارعتهم فى اتباع ابن الأشعث ، ومخالفتهم عن الحجاج ، فيأمر بقتلهم حرداً على الخوارج ، ورجا أن يستأصلهم ، فلا يخرج عليه خارجىّ بعدها ، فلما رأى كثرة من يؤتى به من الأسرى تحرّى ، فجعل إذا أتى بأسير يقول له : أمؤمن أنت أم كافر ؟ ليعرف بذلك الخوارج من غيرهم ، فمن بدأ على نفسه بالكفر والنفاق عفا عنه ، ومن قال أنا مؤمن ضرب عنقه .

وأسر عامر بن سعيد الشعبىّ فيمن أسر ، وكان مع ابن الأشعث فى جميع حروبه ، وكان خاص المنزلة منه ، ليس لأحد منه مثلها الذى كان عليه من حاله ، إلا سعيد بن جبير ، وأفلت سعيد بن جبير فلحق بمكة ، وأتى الشعبىّ إلى الحجاج فى سورة غضبه[1] ، وهو يقتل الأسرى الأوّل فالأوّل ، إلا من باء على نفسه بالكفر والنفاق ؛ فلما سار عامر بن سعيد الشعبى إلى الدخول عليه لقيه رجل من صحابة الحجاج يقال له يزيد بن أبى مسلم وكان مولاه وحاجبه ، فقال : يا شعبى ، لهفى بالعلم الذى بين دفتيك ، وليس هذا بيوم شفاعة إذا دخلت على الأمير ، فبؤ له بالكفر والنفاق عسى أن تنجو ؛ فلما دخل الشعبى على الحجاج صادفه واضعاً رأسه لم يشعر ، فلما رفع رأسه رآه قال له : وأنت أيضاً يا شعبى فيمن أعان علينا وألب ! قال أصلح الله الأمير إنى أمرت بأشياء أقولها لك ، أرضيك بها وأسخط الربّ ، ولست أفعل ، ولكنى أقول : أصلح الله الأمير وأصدقك القول ، فإن كان شىء ينفع لديك فهو فى الصدق إن شاء الله أحزن بنا المنزل ، وأجدب الجناب ، واكتحلنا السهر ، واستحلسنا[2] الخوف ، وضاق بنا البلد العريض ، فوقعنا فى خزية لم نكن فيها بررة أتقياء ، ولا فجرة أقوياء ، فقال له الحجاج : كذلك . قال : نعم ، أصلح الله الأمير ، وأمتع به ، قال : فنظر الحجاج إلى أهل الشام فقال : صدق والله يا أهل الشام ما كانوا بررة أتقياء فيتورعوا عن قتالنا ؛ ولا فجرة أقوياء فيقووا علينا ، ثم قال : انطلق يا شعبىّ فقد عفونا عنك ، فأنت أحقّ بالعفو ممن يأتينا وقد تلطخ بالدماء ثم يقول : كان وكان ، قال : وكان قد أحضر بالباب رجلان ، وأحدهما من بكر بن وائل ، والآخر من تميم ، وكانا قد سمعا ما قيل للشعبى بالباب أن يقوله ، فلما أدخلا . قال الحجاج للبكرى : أمنافق أنت ؟ قال : نعم ، أصلح الله الأمير ، لكن أخو بنى تميم لا يبوء على نفسه بالنفاق . قال التميمى : أنا على دمى أخدع ؟ ، بل أنا — أصلح الله الأمير — منافق مشرك

---

(١) فى شدة غضبه

(٢) استحلسنا الخوف : أى صار الخوف حلسا لنا أى ملاصقا لأجسادنا

فتبسم الحجاج وأمر بتخلية سبيلهما . قال الشعبيّ : فوالله ما أتى لذلك الأمر إلا نحو من شهرين ، حتى رفعت إليه فريضة أشكلت عليه ، وهى أم ، وجد ، وأخت . فقال : من هاهنا نسأله عنها ؟ قال : فدلّ عليّ ، فأرسل إليّ ، وقال يا شعبي ما عندك فى هذه الفريضة ؟ أم ، وأخت وجد ؟ فقلت : أصلح الله الأمير . قال فيها خمسة من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . قال . من قال فيها ؟ قلت : قال فيها علىّ بن أبي طالب ، وأمير المؤمنين عثمان بن عفان ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن مسعود ، وزيد بن ثابت . قال . هات ما قال فيها علىّ . فأخبرته . قال : فما قال فيها ابن مسعود ؟ فأخبرته ، قال : فما قال فيها ابن عباس ؟ فوالله لقد كان متفقها فأخبرته . قال : فما قال فيها أمير المؤمنين عثمان ؟ فأخبرته . قال : فما قال زيد بن ثابت ؟ قلت : أخذها من تسعة أسهم ، فأعطى الأم ثلاثة أسهم ، وأعطى الجدّ أربعة أسهم ، وأعطى الأخت سهمين . فلما سمع ما كان من قول كلّ واحد منهم ، وعرف رأيهم فيها . قال يا غلام : قل للقاضى يمضيها على ما قال أمير المؤمنين عثمان . قال الشعبيّ : ودخلت عليه الترك ، قد شدّوا أوساطهم بعمائمهم ، وانتزعت السيوف من أعناقهم وأخذوا الطوامير[1] بأيمانهم ، فدخل عليه رجل من قبل أمير المؤمنين عبد الملك . فقال له الحجاج : كيف تركت أمير المؤمنين وأهله وولده وحشمه ؟ فأنباه عنه وعنهم بصلاح . فقال : ما كان وراءك من غيث ؟ قال : نعم ، أصلح الله الأمير ، أصابتنى سحابة فى موضع كذا ، فواد سائل ، وواد نازع ، فأرض مدبرة ، وأرض مقبلة ، حتى صدعت عن الكمأة أماكنها ، فما أتيتك إلا فى مثل مجرى الضبّ . فقال للحاجب : ائذن للناس فدخل عليه رجل أتاه من قبل نجد . فقال له : ما كان وراءك من غيث ؟ فقال : كثر الإعصار ، واغبرّ البلاد ، وأكل ما أشرف من الحشيشة ، فاستيقنّا أنه عام سنة . فقال : بئس المخبر أنت . قال : أخبرتك بالذى كان . فقال للحاجب : ائذن للناس ، فدخل عليه رجل أتاه من قبل اليمامة . فقال : هل كان وراءك من غيث ؟ قال : نعم . وسمعت الرّوّاد يدعون إلى ريادها ، وسمعت رائدا يقول : هلموا أطعمكم محلة تطفو فيها النيران ، وتشتكى فيها النساء ، وتنافس فيها المعز . فقال له : ويحك ، إنما تحدّث أهل الشام فأفهمهم . فقال : أصلح الله الأمير ، أما تطفوا النيران ، فيستكثر فيها الزبد واللبن والتمر ، فلا توقد نار ، وأما أن يشتكى النساء : فإنه من جذبها على إبريق لبنها فتظلّ تمخض لبنها فتبيت ولها أنين من عضديها ، وأما تنافس المعز : فإنها ترأم من نوار النبات وألوان الثمر ما يشبع بطونها ، ولا يشبع عيونها ، فتبيت ، وقد امتلأت أكراشها ، لها من الكظة شرّة تنزل به

---

(١) الطوامير : جمع طومار وطامور وهو الصحيفة .

المرة . ثم قال للحاجب : ائذن للناس ، فدخل عليه رجل من الموالى ، كان أشجع الناس فى زمانه ، يقال له عمرو بن الصلت . فقال له الحجاج : هل كان وراءك من غيث ؟ قال : نعم . أصلح الله الأمير ، أصابتنى سحابة بموضع كذا وكذا ، فلم أزل أطأ فى أثرها ، حتى دخلت على الأمير . فقال له الحجاج : أما والله لئن كنت فى المطر أقصرهم خطبة ، إنك بالسيف لأطولهم باعا وخطوة .

ولما انهزم ابن الأشعث ، قام بعده عبد الرحمن بن عياش بن ربيعة ، فقاتل الحجاج ثلاثة أيام ، ثم انهزم ، فوقع بأرض فارس ، ثم صار إلى السند ، فمات هناك . وتحصن ناس من أصحاب ابن الأشعث فى قلعة بأرض فارس ، منهم عبد الرحمن بن الحارث بن نوفل ، والفضل ابن عياش ، وعمرو بن موسى التيمى ، ومحمد بن سعد بن أبى وقاص ، وعبيد الله ، ومحمد ، وإسحاق ، وعون ، بنو عبد الله بن الحارث فى ناس من قريش ، ولحق سعيد بن جبير بمكة ، فأشعر به الحجاج ، فغفل عنه ولم يهيجه ، فبعث الحجاج يزيد بن المهلب ، فحاصرهم بفارس .

قال أبو معشر : حدثنى عون قال : كتب إلينا يزيد بن المهلب ، أن أخبرونى بآية بينى[1] وبينكم حتى أخرجكم . قال : فكتب إليه عبد الله بن الحارث : كنت يوم كذا وكذا فى دارنا . قال : فأخرجه وبنيه ، فسكنا عمان . وأسر من بقى ، وأسروا اثنى عشر رجلا من وجوه الناس عامتهم من قريش ، منهم عمرو ابن موسى التيمى ومحمد بن سعد بن أبى وقاص ، فبعث بهم إلى الحجاج فحبسهم عنده ، وكتب إلى عبد الملك يخبره بأمرهم ، وجعل يذكر فى كتابه أن سعيدا قد أنكر الخروج مع هؤلاء القوم ، فكتب إليه عبد الملك يأمره بضرب أعناقهم ويقول فى كتابه : لم أبعثك مُشفّعا وإنما بعثتك منفذا مناجزا لأهل الخلاف والمعصية . فأبرزهم الحجاج ، فقال لعمرو بن موسى : يا عاتق قريش وكان شابا جميلا ، مالك أنت وللخروج ، إنما أنت عاتق[2] صاحب ثياب ولعب ؟ فقال له عمرو : أيها الرجل، امض لما تريد، فإنما نزلت بعهد الله وميثاقه ، فإن شئت فأرسل يدى ، وبرئت منى الذمة . فقال له الحجاج : كلا ، حتى أقدّمك إلى النار ، فضربت رقبته ، ثم جىء بمحمد بن سعد ، فقال له : يا ظلّ الشيطان ، وكان رجلا طويلا ، ألست بصاحب كل موطن ؟ أنت صاحب الحرة ، وصاحب يوم الزاوية ، وصاحب الجماجم . فقال له : إنما نزلت بعهد الله وميثاقه ، أرسل يدى وبرئت منى الذمة ، قال : لا ، حتى

---

(١) الآية : المراد بها هنا العلامة .
(٢) العاتق : الجميل والشريف والكريم والنجيب والحر والمراد به هنا الجميل .

أقدمك إلى النار ، ثم قال لرجل من أهل الشام : اضرب لى مفرق رأسه ، فضرب ، فمال نصفه هاهنا ، ونصفه هاهنا ، ثم قتل الباقين .

ذكر قتل سعيد بن جبير

قال ، وذكروا أن مسلمة بن عبد الملك ، كان واليا على أهل مكة ، فبينما هو يخطب على المنبر ، إذ أقبل خالد بن عبد الله القسرى من الشام واليا عليها ، فدخل المسجد ؛ فلما قضى مسلمه خطبته ، صعد خالد المنبر ، فلما ارتقى فى الدرجة الثالثة ، تحت مسلمة ، أخرج طومارا مختوما ، ففضه ، ثم قرأه على الناس ، فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبدالملك بن مروان أمير المؤمنين إلى أهل مكة ، أما بعد : فإنى وليت عليكم خالد بن عبد الله القسرى ، فاسمعوا له وأطيعوا ، ولا يجعلن امرؤ على نفسه سبيلا ، فإنما هو القتل لا غير ، وقد برئت الذمة من رجل أوى سعيد بن جبير ، والسلام . ثم التفت إليهم خالد وقال : والذى نحلف به ، ونحج إليه ، لا أجده فى دار أحد إلا قتلته ، وهدمت داره ، ودار كل من جاوره ، واستبحت حرمته . وقد أجلت لكم فيه ثلاثة أيام ، ثم نزل ، ودعا مسلمة برواحله ولحق بالشام ، فأتى رجل إلى خالد فقال له : إن سعيد بن جبير بواد من أودية مكة ، مختفيا بمكان كذا ، فأرسل خالد فى طلبه ، فأتاه الرسول ، فلما نظر إليه الرسول قال إنما أمرت بأخذك ، وأتيت لأذهب بك إليه ، وأعوذ بالله من ذلك ، فالحق بأى بلد شئت ، وأنا معك . قال له سعيد بن جبير : ألك هاهنا أهل وولد قال : نعم . قال : إنهم يؤخذون وينالهم من المكروه مثل الذى كان ينالنى . قال الرسول : فإنى أكلهم إلى الله . فقال سعيد : لا يكون هذا . فأتى به إلى خالد فشده وثاقا ، وبعث به إلى الحجاج . فقال له رجل من أهل الشام : إن الحجاج قد أنذر بك وأشعر قبلك ، فما عرض له ، فلو جعلته فيما بينك وبين الله لكان أزكى من كل عمل يتقرب به إلى الله . فقال خالد ، وقد كان ظهره إلى الكعبة قد استند إليها : والله لو علمت أن عبد الملك لا يرضى عنى إلا بنقض هذا البيت حجراً حجرا لنقضته فى مرضاته . فلما قدم سعيد على الحجاج ، قال له ما اسمك ؟ قال : سعيد . قال : ابن من ؟ قال : ابن جبير . قال : بل أنت شقى بن كسير ؟ قال سعيد : أمى أعلم باسمى واسم أبى . قال الحجاج : شقيت وشقيت أمك . قال سعيد : الغيب يعلمه غيرك . قال الحجاج : لأوردنك حياض الموت ، قال سعيد : أصابت إذاً أمى اسمى . فقال الحجاج : لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظى . قال سعيد : لو أنى أعلم أن ذلك بيدك لاتخذتك إلها . قال الحجاج : فما قولك فى محمد ؟ قال سعيد: نبى الرحمة ، ورسول رب العالمين إلى الناس كافة بالموعظة الحسنة . فقال الحجاج : فما قولك فى الخلفاء ؟ قال سعيد :

لست عليهم بوكيل ، كلّ امرىء بما كسب رهين . قال الحجاج : اشتمهم أم أمدحهم ؟ قال سعيد : لا أقول ما لا أعلم ، إنما استحفظت أمر نفسى . وقال الحجاج : أيهم أعجب إليك ؟ قال : حالاتهم يفضل بعضهم على بعض . قال الحجاج : صف لى قولك فى علىّ . أفى الجنة هو ، أم فى النار ؟ قال سعيد : لو دخلت الجنة فرأيت أهلها علمت ، ولو رأيت من فى النار علمت ، فما سؤالك عن غيب قد حفظ بالحجاب ؟ قال الحجاج : فأىّ رجل أنا يوم القيامة ؟ فقال سعيد: أنا أهون على الله من أن يطلعنى على الغيب . قال الحجاج : أبيت أن تصدقنى ؟ قال سعيد : بل لم أرد أن أكذبك . فقال الحجاج فدع عنك هذا كله ، أخبرنى مالك لم تضحك قط ؟ قال : لم أر شيئاً يضحكنى ، وكيف يضحك مخلوق من طين ، والطين تأكله النار ، ومنقلبه إلى الجزاء ، واليوم يصبح ويمسى فى الابتلاء . قال الحجاج : فأنا أضحك . فقال سعيد : كذلك خلقنا الله أطواراً . قال الحجاج هل رأيت شيئاً من اللهو ؟ قال : لا أعلمه . فدعا الحجاج بالعود والناى . قال : فلما ضرب بالعود ، ونفخ فى الناى بكى سعيد . قال الحجاج : ما يبكيك؟ قال : يا حجاج ذكرتنى أمراً عظيما ، والله لاشبعت ولا رويت ولا اكتسيت ، ولا زلت حزينا لما رأيت . قال الحجاج : وما كنت رأيت هذا اللهو ؟ فقال سعيد : بل هذا والله الحزن يا حجاج ، أما هذه النفخة ، فذكرتنى يوم النفخ فى الصور ، وأما هذا المصران[1] فمن نفس ستحشر معك إلى الحساب ، وأما هذا العود فنبت بحقّ ، وقطع لغير حقّ . فقال الحجاج : أنا قاتلك . قال سعيد : قد فرغ من تسبب فى موتى . قال الحجاج : أنا أحبّ إلى الله منك ؟ قال سعيد : لا يقدم أحد على ربه حتى يعرف منزلته منه ، والله بالغيب أعلم . قال الحجاج : كيف لا أقدم على ربى فى مقامى هذا ، وأنا مع إمام الجماعة ، وأنت مع إمام الفرقة والفتنة ؟ قال سعيد : ما أنا بخارج عن الجماعة ، ولا أنا براض عن الفتنة ، ولكن قضاء الربّ نافذ لا مردّ له . قال الحجاج : كيف ترى ما نجمع لأمير المؤمنين ؟ قال سعيد : لم أر ، فدعا الحجاج بالذهب والفضة ، والكسوة والجوهر ، فوضع بين يديه . قال سعيد : هذا حسن إن قمت بشرطه . قال الحجاج : وما شرطه ؟ قال : أن تشترى له بما تجمع الأمن من الفزع الأكبر يوم القيامة ، وإلا فإن كل مرضعة تذهل عما أرضعت ، ويضع كل ذى حمل حمله ، ولا ينفعه إلا ما طاب منه . قال الحجاج : فترى طيبا ؟ قال : برأيك جمعته ، وأنت أعلم بطيبه . قال الحجاج : أتحبّ أن لك شيئاً منه ؟ قال : لا أحبّ ما لا يحبّ الله . قال الحجاج : ويلك . قال سعيد : الويل لمن زحزح عن الجنة فأدخل النار . قال الحجاج : اذهبوا به فاقتلوه . قال :

---

(١) المراد بالمصران : الأوتار التى يضرب عليها لأنها مأخوذة من مصارين الحيوانات.

إنى أشهدك يا حجاج أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، أستحفظكهن ياحجاج حتى ألقاك . فلما أدبر ضحك . قال الحجاج : ما يضحكك ياسعيد؟ قال: عجبت من جرأتك على الله ، وحلم الله عليك ! قال الحجاج : إنما أقتل من شقّ عصا الجماعة ومال إلى الفرقة التى نهى الله عنها ، اضربوا عنقه . قال سعيد : حتى أصلى ركعتين : فاستقبل القبلة وهو يقول : وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً مسلما وما أنا من المشركين . قال الحجاج : اصرفوه عن القبلة إلى قبلة النصارى ، الذين تفرّقوا واختلفوا بغيا بينهم ، فإنه من حزبهم ، فصرف عن القبلة . فقال سعيد : فأينما تولوا فثم وجه الله الكافى بالسرائر . . قال الحجاج : لم نوكل بالسرائر ، وإنما وكلنا بالظواهر . قال سعيد: اللهمّ لاتترك له ظلمى ، واطلبه بدمى ، واجعلنى آخر قتيل يقتل من أمة محمد . فضربت عنقه ثم قال الحجاج هاتوا من بقى من الخوارج ، فقرّب إليه جماعة فأمر بضرب أعناقهم ، وقال : ما أخاف إلا دعاء من هو فى ذمة الجماعة من المظلومين ، فأما أمثال هؤلاء فإنهم ظالمون حين خرجوا عن جمهور المسلمين ، وفارقوا سبيل المؤمنين .

وقال قائل : إن الحجاج لم يفرغ من قتله حتى خولط فى عقله ، وجعل يصيح قيودنا ، يعنى القيود التى كانت فى رجل سعيد بن جبير ، ويقول : متى كان الحجاج يسأل عن القيود أو يعبأ بها ؟ وهذا يمكن القول فيه لأهل الأهواء فى الفتح والإغلاق .

ذكر بيعة الوليد وسليمان ابنى عبد الملك

قال : وذكروا أنه لما فرغ الحجاج من قتل الخوارج ، وتمّ له أمر العراق ، فاستقرّ ملك عبد الملك ، كتب إليه الحجاج أن يبايع للوليد ابنه ، ويكتب له عهده للناس ؟ فأبى ذلك عبد الملك ، لأن أخاه عبد العزيز كان حيا ، وكان قد استعمله عبد الملك على مصر ، وكتب إلى الحجاج يوبخه ، ويقول له مالك أنت والتكلم بهذه ؟ وكانت البيعة بالشام لهما جميعا ، إذ مات مروان ، وكان عبد العزيز نظير عبد الملك فى الحزم والرأى والعقل والذكاء ، وكان عبد الملك لا يفضل عبد العزيز فى شىء إلا باسم الخلافة : حتى لربما كان عبد الملك يأمر بالشىء ، فيريد عبد العزيز غيره ، ويرى خلافه ، فيردّه إلى رأيه ولا يمضيه ، وكان لا ينكر ذلك عبد الملك ، فلما كانت سنة إحدى وثمانين عقد عبد الملك لموسى بن نصير على إفريقية وما حولها ، ووجهه إلى من بها من البربر يقاتلهم ، وضمّ إليه برقة ، فلما قدم موسى بن نصير متوجها ، انتهى ذلك إلى عبد العزيز ، فردّه من مصر إلى الشام ، وبعث قرة بن حسان التميمى : فانصرف موسى بن نصير إلى الشام لعبد الملك ، وذكر امتهانا ناله من عبد العزيز وما استقبله به إلى كلام

كثير ، فقال له عبد الملك : إن عبد العزيز صنو أمير المؤمنين، وقد أمضينا فعله ، فتوجه قرة ابن حسان إلى أفريقية ، فهزم بها ، وقتل غالب أصحابه . فلما كانت سنة أربع وثمانين ، توفى عبد العزيز بن مروان بمصر ، ثم ولى محمد بن مروان إلى سنة ستّ وثمانين ، فلما توفى عبد العزيز ، أجمع عبد الملك على بيعة الوليد ، ثم من بعد الوليد سليمان ، فكتب إلى الحجاج ببيعة الوليد وسليمان ، فبايع الحجاج لهما بالعراق ، فلم يختلف عليه أحد ، وبويع لهما بالشام ومصر واليمن ، وكتب عبد الملك إلى هشام بن إسماعيل ؛ وهو عامله على المدينة ، أن يأخذ بيعة أهل المدينة ، فلما أتت البيعة لهما ، كره ذلك سعيد ابن المسيب ، وقال : لم أكن لأبايع بيعتين فى الإسلام بعد حديث سمعته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا كانت بيعتان فى الإسلام فاقتلوا الأحدث منهما » فأتاه عبد الرحمن بن عبد القارى . فقال : إنى مشير عليك بثلاث خصال ، اختر أيها شئت . قال : وما هى ؟ قال له : إنك تقوم حيث يراك هشام ابن إسماعيل ، فلو غيرت مقامك ؟ قال : ما كنت لأغير مقاما قمته منذ أربعين سنة لهشام بن إسماعيل : قال : فثانية : قال : وما هى ؟ قال : اخرج معتمرا ، قال سعيد : ما كنت لأجهد نفسى ، وأنفق مالى فى شىء ليس لى فيه نية . قال له : فثالثة ، قال : وما هى ؟ قال : تبايع للوليد ، ثم لسليمان، قال سعيد : أرأيت إن كان الله قد أعمى قلبك كما أعمى بصرك فما علىّ ؟ قال : وكان عبد الرحمن هذا أعمى . قال : فدعاه هشام بن اسماعيل إلى البيعة ، وكان ابن عمّ سعيد بن المسيب ، فلما علم بذلك القرشيون ، أتوا هشاما فقالوا له : لا تعجل على ابن عمك حتى نكلمه ونخوّفه القتل ، فعسى به أن يبايع ويجيب . قال : فاجتمع القرشيون ، فأرسلوا إلى سعيد مولى له كان فى الحرس . فقالوا له : اذهب إليه ، فخوّفه القتل ، وأخبره أنه مقتول ، فلعله يدخل فيما دخل فيه الناس . فجاءه مولاه ، فوجده قائماً يصلى فى مسجده ، فبكى مولاه بكاء شديداً ، قال له سعيد : ما يبكيك ويحك ! قال : أبكى مما يراد بك . قال له سعيد : وما يراد بى ، ويحك . قال: جاء كتاب من عبد الملك بن مروان ، إلى هشام بن إسماعيل ، إن لم تبايع وإلا قتلت ، فجئتك لتطهر وتلبس ثياباً طاهرة وتفرغ من عهدك إن كنت لا تريد أن تبايع . فقال له سعيد : لا أم لك قد وجدتنى أصلى فى مسجدى ، أفترانى كنت أصلى ولست بطاهر، وثيابى غير طاهرة ! وأما ما ذكرت من أن أفرغ من عهدى ، فما كنت لأوخر عهدى بعد ما حدثنى به عبد الله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما حقّ امرىء مسلم يبيت ليلتين له شىء يوصى به إلا ووصيته مكتوبة » ، فإذا شاءوا فليفعلوا ، فإنى لم أكن لأبايع بيعتين فى الإسلام . قال : فرجع إليهم المولى فأخبرهم بما ذكر ، فكتب صاحب المدينة هشام بن اسماعيل إلى عبد الملك يخبره أن سعيد بن المسيب كره أن يبايع لهما (للوليد وسليمان) فكتب

عبد الملك إليه . مالك ولسعيد،وما كان علينا منه أمر نكرهه ، وما كان حاجتك أن تكشف عن سعيد ، أو تأخذه ببيعة ؟،ما كنا نخاف من سعيد ؟ فأما إذ قد ظهر ذلك وانتشر أمره فى الناس ، فادعه إلى البيعة ، فإن أبى فاجلده مئة سوط : أو احلق رأسه ولحيته وألبسه ثياباً من شعر وأوقفه فى السوق فى الناس لكيلا يجترىء علينا أحد غيره . قال : فلما وصل الكتاب أرسل إليه هشام ، فانطلق سعيد إليه ، فلما أتاه دعاه إلى البيعة ، فأبى أن يجيبه ، فألبسه ثيابا من شعر ، وجرّده وجلده مئة سوط ، وحلق رأسه ولحيته ، وأوقفه فى السوق ، وقال لو أعلم أنه ليس إلا هذا ما نزعت ثيابى طائعا ولا أجبت إلى ذلك قال بعض الأيليين[1] الذين كانوا فى الشرطة بالمدينة : لما علمنا أنه لا يلبس الثياب طائعا قلنا له : يا أبا محمد إنه القتل فاستر بها عورتك قال فلبس فلما تبين له أنا خدعناه قال : يا معلجة[2] أهل أيلة ، لولا أنى ظننت أنه القتل ما لبسته . قال : فكان هشام بن إسماعيل بعد ذلك إذا خطب الناس يوم الجمعة تحوّل إليه سعيد بن المسيب،أى يقبل عليه بوجهه مادام يذكر الله، حتى إذا وقع فى مدح عبد الملك وغيره أعرض سعيد عنه بوجهه فلما فطن هشام لذلك،أمر حرسيا يحصب وجه سعيد إذا تحوّل عنه ففعل ذلك به،فقال سعيد: إنما هى ثلاث،وأشار بيده.قال :فما مرّ به إلا ثلاثة أشهر حتى عزل هشام.

موت عبد الملك وبيعة الوليد

قال : وذكروا أن عبد الملك بن مروان لما حضرته الوفاة ، جمع بنيه وقال لهم : اتقوا الله ربكم ، وأصلحوا ذات بينكم ، وليجلّ صغيركم كبيركم ، وكبيركم صغيركم ، انظروا أخاكم مسلمة، فاستوصوا به خيرا ، فإنه شيخكم ومجنكم الذى به تستجنون ، وسيفكم الذى به تضربون ، أوصيكم به خيرا ، وانظروا ابن عمكم عمر بن عبد العزيز ، فاصدروا عن رأيه ، ولا تتخلّوا عن مشورته اتخذوه صاحباً لا تجفوه ، ووزيرا لا تعصوه ، فإنه من علمتم فضله ودينه ، وذكاء عقله ، فاستعينوا به على كلّ مهمّ ، وشاوروه فى كل حادث . قال : ثم دخل عليه خالد وعبد الرحمن ابنا يزيد بن معاوية بن أبى سفيان . فقال لهما : أتحبان أن أسألكما بيعة الوليد وسليمان ؟ فقالا : يا أمير المؤمنين ، معاذ الله من ذلك . قال : فأومأ بيده إلى مصلى كان مضطجعاً عليه ، فأخرج من تحته سيفاً مصلتا . فقال لهما : والله لو قلتما غير ذلك لضربت أعناقكما بهذا السيف ، ثم خرجا من عنده ، ودخل عليه عمر بن عبد العزيز . فقال عبد الملك : يا أبا حفص استوص خيرا بأخويك

---

(١) الإيليون : نسبة إلى أيلة وهى بلد بين ينبع ومصر

(٢) المعلجة : الأعاجم الذين ليسوا عرباً

الوليد وسليمان ، إن زلا فشلهما[1] وإن مالا فأقيما ، وإن غفلا فذكّرهما ، وإن ناما فأيقظهما، وقد أوصيتهما بك ، وعهدت إليهما أن لايقطعا شيئاً دونك . فقال عمر بن عبد العزيز يا أمير المؤمنين أوصيتهما بكتاب الله فليقيماه فى عباده وبلاده ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فليحيياها ، ويحملا الناس عليها ؟ فقال عبد الملك : قد فعلت وولى فيكم الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين . ثم قال : وقد علمت ياعمر مكان فاطمة منى ، ومحلها من قلبى ، وإنى آثرتك بها على جميع آل مروان ، لفضلك وورعك ، فكن عند ظنى بك ، ورجائى فيك ، وقد علمت أنك غير مقصّر، ولامضيّع حقها ، ولكن الله قد قضى أن الذكرى تنفع المؤمنين ، قوموا عصمكم الله وكفاكم . ثم خرجوا من عنده . قال : ثم دعا عبد الملك بالوليد وسليمان ، فدخلا عليه . فقال الوليد : اسمع ياوليد ، قد حضر الوداع ، وذهب الخداع ، وحلّ القضاء . قال : فبكى الوليد . فقال له عبد الملك : لاتعصر عينيك علىّ كما تعصر الأمة الوكساء[2] ، إذا أنا متّ فاغسلنى، وكفنى ، وصلّ علىّ وأسلمنى إلى عمر بن عبد العزيز يدلينى فى حفرتى ، واخرج أنت إلى الناس ، والبس لهم جلد نمر ، واقعد على المنبر ، وادع الناس إلى بيعتك ، فمن مال بوجهه عنك كذا ، فقل له بالسيف كذا ، وتنكر للصديق والقريب ، واسمع للبعيد ، وأوصيك بالحجّاج خيرا ، فإنه هو الذى وطأ لكم المنابر ، وكفاكم تقحم تلك الجرائم .

قال : فلما توفى عبد الملك ، ومات من يومه ذلك ، خرج الوليد إلى الناس ، وقعد على المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : نعمة ماأجلها ، ومصيبة ماأعظمها ، وإنا لله وإنا إليه راجعون . نقل الخلافة ، وفقد الخليفة ، ثم دعا الناس إلى البيعة ، فلم يختلف عليه أحد ، ثم كان أوّل ماظهر من أمره ، وتبين من حكمه ، أن أمر بهدم كلّ دار ومنزل ، من دار عبد الملك إلى قبره ، فهدمت من ساعتها ، وسوّيت بالأرض ، لئلا يُعرج بسرير عبد الملك يمينا وشمالا ، وليكون النهوض به إلى حفرته تلقاء منزله ، ثم كتب ببيعته إلى الآفاق والأمصار ، وإلى الحجاج بالعراق فبايع له الناس ولم يختلف عليه أحد . فدخل عليه سليمان بن عبد الملك . فقال له : ياأمير المؤمنين ، اعزل الحجاج بن يوسف عن العراقين فإن الذى أفسد الله به أكثر مما أصلح . فقال له الوليد : إن عبد الملك قد أوصانى به خيرا . فقال سليمان : عزل الحجاج والانتقام منه من طاعة الله ، وتركه من معصية الله .

---

(١) شلهما : ارفعهما وأنهضهما ، لأن الزلل العثور والسقوط .
(٢) الوكساء : الخسيسة .

فقال الوليد : سنرى فى هذا الأمر ، وترون إن شاء الله : ثم كتب الحجاج إلى الوليد : أما بعد ، فإن الله تعالى استقبلك يا أمير المؤمنين فى حداثة سنك بما لاأعلمه استقبل به خليفة قبلك من التمكين فى البلاد ، والملك للعباد ، والنصر على الأعداء ، فعليك بالإسلام ، فقوّم أوده ، وشرائعه وحدوده ، ودع عنك محبة الناس وبغضهم وسخطهم ، فإنه قلّ ما يؤتى الناس من خير أو شرّ ، إلا أفشوه فى ثلاثة أيام ، والسلام .

تولية موسى بن نصير البصرة

قال : وحدثنا يزيد بن سعيد مولى مسلم ، أن عبد الملك بن مروان لما أراد أن يولّىَ أخاه بشر بن مروان على العراق ، كتب إلى أخيه عبد العزيز بن مروان وهو بمصر ، وبشر معه يقود الجنود ، وكان يومئذ حديث السنّ : إنى قد وليت أخاك بشرا البصرة ، فأشخص معه موسى بن نصير ، وزيرا ومشيرا ، وقد بعثت إليك بديوان العراق ، فادفعه إلى موسى ، وأعلمه أنه المأخوذ بكل خلل وتقصير ، فشخص بشر من مصر إلى العراق ، ومعه موسى بن نصير ، حتى نزل البصرة ؛ فلما نزلها دفع إلى موسى بن نصير خاتمه ، وتخلى عن جميع العمل ، فلبث موسى مع بشر ما لبث ، ثم إن رجلا من أهل العراق دخل على بشر بن مروان فقال له : هل لك أن أسقيك شرابا لاتشيب معه أبدا، بعد أن أشترط عليك شروطاً ؟ قال بشر : وماهى ؟ قال : لاتغضب ولا تركب ، ولا تجامع امرأة فى أربعين ليلة ، ولا تدخل حماما ، فقبل ذلك بشر وأجابه ، وشرب ما أسقاه ، واحتجب عن قريب الناس وبعيدهم ، وخلا مع جواريه وخدّامه ، فكان كذلك حتى أتته ولاية الكوفة وقد ضمت إليه مع البصرة ، فأتاه من ذلك مالم يحمل فرحه ، ولا السرور به ، فدعا بركاب ليركبها ، فأتاه الرجل ، فناشده لايخرج ولايركب ، وأن لايتحرّك بحركة من مكانه ، فلم يلتفت بشر إلى كلامه ، ولم يقبل ما أمره به ، فلما رأى الرجل عزمه قال له : فأشهد لى على نفسك بأنك قد عصيتنى ففعل بشر ذلك ، وأشهد أنه قد أبرأه ، فركب وهو يريد الكوفة ، فلم يسر إلا أميالا ، حتى وضع يده على لحيته ، فإذا هى فى كفه قد سقطت من وجهه ، فلما رأى ذلك انصرف إلى البصرة ، فلم يلبث إلا قليلا حتى هلك ؛ فلما بلغ عبد الملك موته ، وجه الحجاج بن يوسف واليا عليها . فقال موسى بن نصير : مافاتك فلايفوتك ، وكان عبد الملك قد أراده لأمر عتب عليه منه . فكتب خالد بن أبان ، من الشام إلى موسى ابن نصير : إنك معزول ، وقد وجه

إليك الحجاج بن يوسف ، وقد أمر فيك بأغلظ أمر ، فالنجاة ، والوحى الوحى[1] ، فإما أن تلحق بالفرس فتأمن وإما أن تلحق بعبد العزيز بن مروان مستجيرا به ، ولا تمكن ملعون ثقيف من نفسك فيحكم فيك . فلما أتاه الكتاب : ركب النجائب ولحق بالشام ، وبها يومئذ عبد العزيز بن مروان قد وفد بأموال مصر . فكتب الحجاج من العراق : يا أمير المؤمنين ، إنه لاقدر لما اقتطعه موسى بن نصير من أموال العراق ، وليس بالعراق ، فابعث به إلىّ .

دخول موسى بن نصير على عبد الملك بن مروان

قا : وذكروا أن عبد الرحمن بن سالم حدثهم عن أبيه ، أنه حضر يومئذ شأن موسى ، ودخوله على عبد الملك . قال : وكانت لموسى يد عظيمة عند عبد العزيز بن مروان يطول ذكرها قال سالم : قال لى موسى : لما قدمت الشام لقيت بها عبد العزيز ، وكان ذلك من صنع الله ، فأدخلنى على عبد الملك ، فلما رآنى عبد الملك قلت : موسى . قال : مانزال تعرض لحيتك علينا؟ قال : قلت لم يا أمير المؤمنين ؟ قال : لجرأتك علىّ واقتطاعك الفئ . قال : فقلت مافعلت يا أمير المؤمنين ، وما ألوتك نصحا واجتهادا وإصلاحا ، قال : أقسم لتؤدّينّ دينك خمسين مرّة . قال : قلت لم يا أمير المؤمنين ؟ قال : فما تركنى أتمها حتى قال : ثم لتؤدينّها مئة مرّة ، فذهبت لأتكلم ، فأشار علىّ عبد العزيز أن قل نعم . فقلت : نعم يا أمير المؤمنين ، ثم خرجت فأعانى عبد العزيز بخمسين ألفا ، وأدّيت خمسين ألفا فى ثلاثة أشهر نجمها علىّ .

تولية موسى بن نصير على إفريقية

قال : وذكروا أن عبد العزيز لمارجع إلى مصر ، سار موسى معه . فكان من أشرف الناس عنده ، فأقام بها ما أقام حتى قدم حسان بن النعمان من إفريقية يريد الشام إلى عبد الملك وقد فتح له بها فتحا ، وقتل الكاهنة ، فأجازه عبد الملك وزاده برقة ، وردّه إليها ، أى إلى إفريقية واليا ، فأقبل حتى نزل مصر ، وبعث معه بعثا من هنالك ، فأخذوا أعطياتهم منه ، ثم ساروا حتى نزلوا ذات الجاجم . قال : فبلغ ذلك عبد العزيز وأن حسان بن النعمان يطلب برقة من عند عبد الملك ، وأنه قد ولاه إياها ، فبعث إليه فقال له : أولاك أمير المؤمنين برقة ؟ قال : نعم . فقال له عبد العزيز . لاتعرض ، وكان عليها مولى لعبد العزيز . فقال حسان : ما أنا فاعل .

---

(١) الوحى الوحى : النجاة النجاة : وقد قالها مروان بن الحكم لأهله وعشيرته حين خلع أهل المدينة معاوية بن أبى سفيان وأخرجوا الأمويين منها .

فغضب عبد العزيز وقال له : ائت بعهدك عليها إن كنت صادقا . قال : فأتى به حسان ، فلما أقرأه عبدالعزيز وجدها فيه ، فالتفت إلى حسان فقال : ماأنت بتاركها ؟ قال : واللهلاأنعزل عما ولانيه أمير المؤمنين . قال : فاقعد فى بيتك ، فسيولّى هذا الأمر من هو خير منك وأولى به منك ، فى تجربته وسياسته ، ويغنى الله أمير المؤمنين عنك . ثم أخذ عبد العزيز عهده ومزّقه ، ودعا بموسى بن نصير فعقد له على أفريقية يوم الخميس فى صفر سنة تسع وسبعين ، فتجهز موسى ابن نصير ، وحمل الأموال إلى ذات[1] الجاجم ، وبها الجيوش ينتظرون واليهم نقدم عليهم موسى بن نصير ، فلما صار على الجيش الأوّل أتى عصفور حتى وقع على صدره ، فأخذه موسى ، فدعا بسكين ، فذبحه موسى ، ولطخ بدمه صدره من فوق الثياب ، ونتف ريشه وطرحه على صدره وعلى نفسه ، ثم قال : الفتح ورب الكعبة ، والظفر إن شاء الله.

خطبة موسى بن نصير رحمه الله

قال : وذكروا أن موسى لما قدم ذات الجاجم ، وقد توافت الجيوش بها ، جمع الناس فقام خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، إن أمير المؤمنين أصلحه الله رأى رأيا فى حسّان بن النعمان ، فولاه ثغركم ، ووجهه أميرا عليكم ، وإنما الرجل فى الناس بما أظهر ، والرأى فيما أقبل ، وليس فيما أدبر ، فلما قدم حسان بن النعمان على عبد العزيز أكرمه الله كفر النعمة ، وضيع الشكر ، ونازع الأمر أهله ، فغير الله ما به ، وإنما الأمير أصلحه الله صنو أمير المؤمنين وشريكه ، ومن لايتهم فى عزمه ورأيه ، وقد عزل حسان عنكم ، وولانى مكانه عليكم ، ولم يأل أن أجهد نفسه فى الاختبار لكم ، وإنما أنا رجل كأحدكم ، فمن رأى منى حسنة ، فليحمد الله ، وليحض على مثلها ، ومن رأى منى سيئة فلينكرها ، فإنى أخطىء كما تخطئون ، وأصيب كما تصيبون ، وقد أمر الأمير أكرمه الله لكم بعطاياكم وتضعيفها أثلاثا ، فخذوها هنيئا مريئا ، ومن كانت له حاجة فليرفعها إلينا ، وله عندنا قضاؤها على ماعزّ وهان ، مع المواساة إن شاء الله ، ولا حول ولاقوة إلا بالله .

دخول موسى بن نصير أفريقية

قال : وذكروا أن موسى لما سار متوجها إلى المغرب ، بقية صفر ، ثم ربيع وربيع ، ودخل فى جمادى الأولى ، يوم الاثنين ، لخمس خلون منه ، سنة تسع وسبعين ، فأخذ

---

(١) ذات الجاجم ويقال لها دير الجاجم موضع قرب الكوفة .

سفيان بن مالك الفهرىّ وأبا صالح الفهرىّ ، فغرّم كل واحد منهما عشرة آلاف دينار ، ووجههما إلى عبد الملك فى الحديد . قال : وكان قدوم موسى أفريقية وما حولها خوفا ، بحيث لايقدر المسلمون أن يبرزوا فى العيدين ، لقرب العدوّ منهم ، وإن عامة بيوتها الخصوص[1] وأفضلها القباب ، وبناء المسجد يومئذ شبيه بالحظير ، غير أنه قد سقف ببعض الخشب ، وقد كان ابن النعمان بنى القبلة وما يليها بالمدر ، بنيانا ضعيفا ، وكانت جبالها كلها محاربة لاترام ، وعامّةُ السهل .

خطبة موسى بأفريقية

قال : وذكروا أن موسى لما قدم أفريقية ، ونظر إلى جبالها ، وإلى ماحولها ، جمع الناس ثم صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، إنما كان قبلى على أفريقية أحد رجلين : مسالم يحبّ العافية ، ويرضى بالدون من العطية ، ويكره أن يُكلم[2] ، ويحب أن يسلم ، أو رجل ضعيف العقيدة ، قليل المعرفة ، راض بالهوينى ؛ وليس أخو الحرب إلا من اكتحل السهر ، وأحسن النظر ، وخاض الغمر ، وسمت به همته ، ولم يرض بالدون من الغنم لينجو ، ويسلم دون أن يَكلم أو يُكلم ، ويُبلغ النفس عذرها فى غير خرق يريده ، ولا عنف يقاسيه ، متوكلا فى حزمه ، جازما فى عزمه ، مسترشدا فى علمه ، مستشيرا لأهل الرأى فى إحكام رأيه ، متحنكا بتجاربه ، ليس بالمتجابن إقحاما ، ولا بالمتخاذل إحجاما ، إن ظفر لم يزده الظفر إلا حذراً ، وإن نكب أظهر جلادة وصبرا ، راجيا من الله حسن العاقبة ، فذكر بها المؤمنين ، ورجاهم إياها لقول الله تعالى (إن العاقبة للمتقين) أى الحذرين . وبعد : فإن كل من كان قبلى كان يعمد إلى العدوّ الأقصى ، ويترك عدوا منه أدنى ، ينتهز منه الفرصة ، ويدلّ منه على العورة ، ويكون عونا عليه عند النكبة ، وايم الله لاأريم[3] هذه القلاع والجبال الممتنعة حتى[4] يضع الله أرفعها ، ويذل أمنعها ، ويفتحها على المسلمين بعضها أو جميعها ، أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين .

---

(١) الخصوص جمع خص : وهو البيت من البوص ونحوه .
(٢) يكلم : يجرح .
(٣) أريم القلاع : أتركها وأغادرها .
(٤) يضع الله أرفعها : أى يسقطه وينزله إلىّ .

فتح زعوان

قال : وذكروا أنه كان بزعوان قوم من البربر ، يقال لهم عبدوه ، عليهم عظيم من عظمائهم يقال له : ورقطان ، فكانوا يغيرون على سرح المسلمين ، ويرصدون غرّتهم ، والذى بين زعوان وبين القيروان يوم إلى الليل ، فوجه إليهم موسى خمس مئة فارس ، عليهم رجل من خشين يقال له : عبد الملك فقاتلهم فهزمهم الله ، وقتل صاحبهم ورقطان ، وفتحها الله على يد موسى ، فبلغ سبيهم يومئذ عشرة آلاف رأس ، وأنه كان أوّل سبى دخل القيروان فى ولاية موسى ، ثم وجه ابنا له يقال له عبدالرحمن بن موسى ، إلى بعض نواحيها ، فأتاه بمئة ألف رأس ثم وجه ابنا له يقال له مروان ، فأتاه بمثلها فكان الخمس يومئذ ستين ألف رأس .

قدوم كتاب الفتح على عبد العزيز بن مروان

قال : وذكروا أن موسى بن نصير كتب إلى عبدالعزيز بن مروان بمصر يخبره بالذى فتح الله عليه ، وأمكن له ، ويعلمه أن الخمس بلغ ثلاثين ألفا ، وكان ذلك وهما من الكاتب . فلما قرأ عبدالعزيز الكتاب ، دعا الكاتب وقال له : ويحك ! اقرأ هذا الكتاب . فلما قرأه قال هذا وهم من الكاتب فراجعه . فكتب إليه عبد العزيز : إنه بلغنى كتابك ، وتذكر فيه أنه قد بلغ خمس ما أفاء الله عليك ثلاثين ألف رأس ، فاستكثرت ذلك ، وظننت أن ذلك وهم من الكاتب ، فاكتب إلىّ بعد ذلك على حقيقة ، واحذر الوهم . فلما قدم الكتاب على موسى كتب إليه : بلغنى أن الأمير أبقاه الله ، يذكر أنه استكثر ما جاءه من العدّة ، التى أفاء الله علىّ ، وأنه ظنّ أن ذلك وهم من الكاتب ، فقد كان ذلك وهما على ما ظنه الأمير ، والخمس أيها الأمير ستون ألفا حقاً ثابتاً بلا وهم . قال : فلما أتى الكتاب إلى عبد العزيز وقرأه ملأه سرورا .

إنكار عبد الملك تولية موسى بن نصير

قال : وذكروا أن عبد العزيز لما ولّى موسى وعزل حسان كما تقدم ، وفتح الله لموسى بلغ ذلك عبد الملك بن مروان ، فكره ذلك وأنكره ، ثم كره ردّ رأى عبد العزيز ، ثم همّ بعزل موسى لسوء رأيه فيه ، ثم رأى أن لا يردّ ما صنع عبدالعزيز . فكتب عبدالملك إلى عبدالعزيز : أما بعد ، فقد بلغ أمير المؤمنين ما كان من رأيك فى عزل حسان ، وتوليتك موسى مكانه ، وعلم الأمر الذى له عزلته ، وقد كنت أنتظر منك مثلها فى موسى ، وقد

أمضى لك أمير المؤمنين من رأيك ماأمضيت ، وولايتك من ولّيت ، فاستوص بحسان خيرا فإنه ميمون الطائر ، والسلام .

جوابه

فلما قدم الكتاب على عبد العزيز كتب إلى أخيه عبد الملك : أما بعد ، فقد بلغنى كتاب أمير المؤمنين فى عزل حسان ، وتوليق موسى بن نصير ، وقد كان لمثلها منى منتظرا فى موسى ، ويعلمنى أنه قد أمضى لى من رأيى فيا أمضيت ، وولايتى من وليت ، وقد علمت أن أمير المؤمنين يتفاءل بحسان للذى فتح الله على يديه، ولم أعدُ مع نظرى لأمير المؤمنين ، بأن عزلت حسان ، ووليت موسى فى يمن طائره ، وحسن أثره : فأما قول أمير المؤمنين : قد كنت أنتظرها منك فى موسى ، فلعمرى لقد كنت لها فيه مرصدا ، ولأمير المؤمنين أن يسبق بها إليه منتظراً ، حتى حضر أمر جهدت فيه نفسى لأمير المؤمنين . ولنفسى الرأى والنصيحة ، والسلام .

كتاب عبد العزيز بالفتح إلى عبد الملك

قال : وذكروا أن عبد العزيز كتب إلى عبد الملك ، أما بعد : فإنى كنت وأنت يا أمير المؤمنين فى موسى وحسان كالمتراهنين ، أرسلا فرسيهما إلى غايتهما فأتيا معا ، وقد مدّت الغاية لأحدهما[١] ، ولك عنده مزيد إن شاء الله[٢] ، وقد جاءنى يا أمير المؤمنين كتاب من موسى ، وقد وجهته إليك لتقرأه ، وتحمد الله عليه ، والسلام .

جوابه

فكتب إليه عبد الملك : أما بعد ، فقد بلغ أمير المؤمنين كتابُك ، وفهم المثل الذى مثلته فى حسان وموسى ، ويقول لك عند أحدهما مزيد ، وكلّ قد عرف الله على يده خيرا ونصرا ، وقد أجريت وحدك[٣] ، وكل مجرٍ بالخلاء مسرور[٤]، والسلام .

---

(١) الغاية : هى النهاية أى المكان الذى ينتهى عنده السباق .

(٢) أى أنه سيمد غايته ثانية ومعنى ذلك أنه يتصل نصره وكلما وصل إلى غاية مدها إلى غيرها .

(٣) أجريت وحدك : أى أرسلت موسى فوصل إلى غايته ولم أرسل أنا حسان حتى يظهر إن كان يسبق موسى أو لا يسبقه .

(٤) كل مجرى بالخلاء مسرور ؟ أى كل شخص يجرى فرسه وحده بدون فرس آخر معه يسر من جريه لأنه لامفاضلة بينه وبين غيره ، يريد عبد الملك أنه لايظهر فضل موسى إلا إذا ظهر عجز حسان عن إدراك ما أدركه موسى .

ثم وجه عبد الملك رجلا إلى موسى ليقبض ذلك منه على ما ذكر موسى ، وعلى ما كتب به . فلما قدم الرسول على موسى : دفع إليه ما ذكر ، وزاده ألفا للوفاء .

فتح هوارة ، وزناتة ، وكتامة

قال : وذكروا أن موسى أرسل عياش بن أخيل إلى هوّارة وزناتة فى ألف فارس ، فأغار عليهم وقتلهم وسباهم ، فبلغ سبيهم خمسة آلاف رأس ، وكان عليهم رجل منهم يقال له كامون ، فبعث به موسى إلى عبد العزيز فى وجوه الأسرى ، فقتله عند البركة التى عند قرية عقبة ، فسميت بركة كامون . فلما أوجع عياش فيهم دعوا إلى الصلح ، فقدم على موسى بوجوههم ، فصالحوهم وأخرجوهم ، وكانت كتامة قد قدمت على موسى فصالحته ، وولى عليهم رجلا منهم ، وأخذ منهم رهونهم ، وكتب أحدهم إلى موسى ، إنما نحن عبدانك ، قتل أحدنا صاحبه ، وأنا خير لك منه ، فلم يشكّ موسى أن ذلك إنما كان عن ممالأة من كتامة،وقد كانت رهون كتامة استأذنوا موسى قبل ذلك بيوم ليتصيدوا ، فأذن لهم . فلما أتاه ما أتاه تحقق ظنه فيهم ، وأنهم إنما هربوا ، فوجه الخيول فى طلبهم ، فأتى بهم ، فأراد صلبهم . فقالوا : لا تعجل أيها الأمير بقتلنا حتى يتبين أمرنا ، فإن آباءنا وقومنا لم يكونوا ليدخلوا فى خلاف أبداً ، ونحن فى يدك،وأنت على البيان أقدر منك على استحيائنا بعد القتل،فأوقرهم حديدا،وأخرجهم معه إلى كتامة،وخرج هو بنفسه . فلما بلغهم خروج موسى ، تلقاه وجوه كتامة معتذرين ، فقبل منهم ، وتبينت له براءتهم،واستحيا رهونهم.

فتح صنهاجة

قال : وذكروا أن الجواسيس أتوا موسى ، فقالوا له : إن صنهاجة بغِرّة منهم وغفلة ، وإن إبلهم تلتج ، ولا يستطيعون بَراحا ، فأغار عليهم موسى بأربعة آلاف من أهل الديوان ، وألفين من المتطوّعة ، ومن قبائل البربر ، وخلف عياشا على أثقال المسلمين وعيالهم بطبنة فى ألفى فارس ، وعلى مقدمة موسى عياش بن عقبة ، وعلى ميمنته المغيرة بن أبى بردة،وعلى ميسرته زُرعة بن أبى مدرك ، فسار موسى حتى غشى صنهاجة ، ومن كان معها من قبائل البربر ، وهم لا يشعرون ، فقتلهم قتل الفناء ، فبلغ سبيهم يومئذ مئة ألف رأس ، ومن الإبل والبقر والغنم والخيل والحرث والثياب ما لا يحصى ، ثم انصرف قافلا إلى القيروان ، وهذا كله فى سنة ثمانين فلما سمعت الأجناد بما فتح الله على موسى وما أصاب معه المسلمون من الغنائم رغبوا فى الخروج إلى الغرب ، نخرج نحو مما كان معه ، فالتقى المغيرة وصنهاجة ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، ثم إن الله منحه أكتافهم وهزمهم ، فبلغ سبيهم ستين ألف رأس ثم انصرف قافلا .

فتح سجوما

قال : وذكروا أنه لما كان سنة ثلاث وثمانين ، قدم على موسى نجدة عبد الله بن موسى فى طالعة أهل مصر . فلما قدم عليه ، أمر الناس بالجهاد والتأهب ، ثم غزا يريد سجوما وما حولها ، واستخلف عبد الله بن موسى على القيروان ، ثم خرج وهو فى عشرة آلاف من المسلمين ، وعلى مقدمته عياض بن عقبة ، وعلى ميمنته زرعة بن أبى مدرك ، وعلى ميسرته المغيرة بن أبى بردة القرشىّ ، وعلى ساقته نجدة بن مقسم ، فأعطى اللواء ابنه مروان ، فسار حتى إذا كان بمكان يقال له سجن الملوك ، خلّف به الأثقال ، وتجرّد فى الخيول ، وخلف على الأثقال عمرو بن أوس فى ألف،وسار بمن معه حتى انتهى إلى نهر يقال له ملوية ، فوجده خاملا ، فكره طول المقام عليه ، خوفا من نفاد الزاد ، وأن يبلغ العدوّ مخرجه ومكانه ، فأحدث مخاضة غير مخاضة عقبة بن نافع ، وكره أن يجوز عليها . فلما أجاز وانتهى إليهم : وجدهم قد أنذروا به وتأهبوا ، وأعدّوا للحرب ، فاقتتلوا قتالا شديدا فى جبل منيع ، لا يوصل إليهم إلا من أبواب معلومة ، فاقتتلوا يوم الخميس ويوم الجمعة ويوم السبت إلى العصر، فخرج إليهم رجل من ملوكهم ، فوقف والناس مصطفّون ، فنادى بالمبارزة، فلم يجبه أحد ، فالتفت موسى إلى مروان ابنه ، فقال له : اخرج إليه أى بنى ، فخرج إليه مروان ، ودفع اللواء إلى أخيه عبد العزيز بن موسى . فلما رآه البربرى ضحك ، ثم قال له : ارجع ، فإنى أكره أن أعدم منك أباك . وكان حديث السنّ . قال : فحمل عليه مروان فردّه، حتى ألجأه إلى جبله ، ثم إنه زرق مروان بالمزراق ،فتلقاه مروان بيده وأخذه ، ثم حمل مروان عليه وزرقه به زرقة وقعت فى جنبه ، ثم لحقت حتى وصلت إلى جوف برذونه ، فمال فوقع به البرذون ثم التقى الناس عليه فاقتتلوا قتالا شديدا أنساهم ما كان قبله ، ثم إن الله هزمهم ، وفتح للمسلمين عليهم ، وقتل ملكهم كسيلة بن لزم وبلغ سبيهم مئتى ألف رأس ، فيهم بنات كسيلة ، وبنات ملوكهم ، وما لا يحصى من النساء السلسات ، اللاتى ليس لهنّ ثمن ولا قيمة . قال فلما وقفت بنات الملوك بين يدى موسى ، قال : علىّ بمروان ابنى . قال : فأتى به قال له : أى بنى اختر . قال : فاختار ابنة كسيلة فاستسرّها [1] ، فهى أم عبدالملك بن مروان هذا. قال: قاتل يومئذ زرعة بن أبى مدرك قتالا شديدا أبلى فيه حتى اندقت ساقه قال : فآلى موسى أن لا يحمل إلا على رقاب الرجال ، حتى يدخل القيروان ، وأن يحمله خمسون رجلا ، كل يوم يتعاقبون بينهم ، ثم انصرف موسى وقد دانت له البلاد كلها ، وجعل

---

(١) استسرها : اتخذها سريّة أى مملوكة تزوج بها فولدت له .

يكتب إلى عبد العزيز بفتح بعد فتح ، وملأت سباياه الأجناد ، وتمايل الناس إليه ، ورغبوا فيما هنالك لديه ، فكان عبد الملك بن مروان كثيرا ما يقول : إذا جاءه فتوح موسى : لتهنئك الغلبة أبا الأصبغ . ثم يقول : عسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا . قال : وبعث موسى إلى عياض وعثمان وإلى عبيدة بنى عقبة ، فقال : اشتفوا ، وضعوا أسيافكم فى قتلة أبيكم عقبة . قال : فقتل منهم عياض ستّ مئة رجل صبرا من خيارهم وكبارهم ، فأرسل إليه موسى أن أمسك . فقال : أما والله لو تركنى ما أمسكت عنهم ، ومنهم عين تطرف .

قدوم الفتح على عبد الملك بن مروان

قال : وذكروا أن موسى لما قدم ، وجه بذلك الفتح إلى عبد العزيز بن مروان ، مع على ابن رباح ، فسار حتى قدم على عبد العزيز بمصر ، فأجازه ووصله ، ووجهه إلى عبد الملك بن مروان أخيه ، فلما قدم عليه أجازه أيضاً ، وزاد فى عطائه عشرين[1]. فلما انصرف ، قال له عبد العزيز : كم زادك أمير المؤمنين ؟ قال : عشرين . قال : لولا كره أن أفعل مثل مافعل لزدتك مثلها ، ولكن تعد لها زيادة عشرة[2] . وكتب عبد الملك إلى موسى يعلمه أنه قد فرض لجميع ولده فى، مئة[3] . وبلغ به هو إلى المئتين ، وفرض فى مواليه ، وأهل الجزاء والبلاء ممن معه خمس مئة رجل ثلاثين ثلاثين ، وكتب إليه إن أمير المؤمنين قد أمر لك بمئة ألف التى أغرمها لك ، فخذها من قبلك من الأخماس . قال : فلما قدم على موسى كتاب عبد الملك بن مروان ، يأمره بأخذ المئة الألف مما قبله . قال : فإنى أشهدكم أنه ردٌّ على المسلمين ، ومعونة لهم ، وفى الرقاب[4] وكان موسى إذا أفاء الله عليه شيئاً، اشترى من ظن منهم أنه يقبل الإسلام وينجُب[5] فيعرض عليه الإسلام ، فإن رضي قبله من بعد أن يمحص عقله ، ويجرب فطنة فهمه ، فإن وجده ماهراً أمضى عتقه وتولاه ، وإن لم يجد فيه مهارة رده فى الخمس والسهام . قال : وكتب موسى

(١) أى عشرين ديناراً .
(٢) أى أن عبد العزيز زاده عشرة فقط فأصبحت زيادته ثلاثين درهما .
(٣) أى أعطى لكل ولد من أولاده مئة دينار من الفىء وهو المال الذى آفاءه الله عليهم من أموال الكفار المحاربين.
(٤) أى فى عتق الرقاب ، وهم العبيد المملوكون يأخذون من هذه الآلاف العشرة ليعطوا سادتهم حتى يعتقوهم ، أو يشترون بها .
(٥) أى يصير نجيبا نافعاً للمسلمين .

إلى عبد العزيز بيلاء زرعة بن أبي مدرك وما أوصله ، وأنه لولا ذلك أوفده إلى أمير المؤمنين ، ففرض له عبد العزيز فى مئة ، وفرض لثلاثين رجلا من قومه ، وانصرف موسى قافلا ، وذلك فى سنة أربع وثمانين .

غزوة موسى فى البحر

قال : وذكروا أن موسى أقام بالقيروان بعد قفله شهر رمضان وشوال ، فأمر بدار صناعة بتونس[1] وجر البحر إليها[2] ، فعظم عليه الناس ذلك ، وقالوا له : هذا أمر لا نطيقه ، فقام إلى موسى رجل من مسالمة البربر ، ممن حسن إسلامه ، فقال له : أيها الأمير ، قد مر على مئة وعشرون سنة ، وإن أبى حدثنى أن صاحب قرطاجنة لما أراد بناء قناتها ،أتاه الناس يعظمون عليه ذلك فقام إليه رجل فقال له: أيها الملك: إنك إن وضعت يدك بلغت منها حاجتك، فإن الملوك لا يعجزها شىء بقوتها وقدرتها ، فضع يدك أيها الأمير ، فإن الله تعالى سيعينك على ما نويت ، ويأجرك فيما توليت . فسر بذلك موسى ، وأعجبه قول هذا الشيخ ، فوضع يده ، فبنى دار صناعة بتونس ، وجر البحر إليها مسيرة اثنى عشر ميلا ، حتى أقحمه دار الصناعة ، فصارت مشتى للمراكب إذا هبت الأنواء والأرياح . ثم أمر بصناعة مئة مركب ، فأقام بذلك بقية سنة أربع وثمانين ، وقدم عطاء بن أبي نافع الهذلى فى مراكب أهل مصر ، وكان قد بعثه عبد العزيز يريد سردانية ، فأرسى بسوسة ، فأخرج إليه موسى الأسواق ، وكتب إليه أن ركوب البحر قد فات فى هذا الوقت وفى هذا العام . فأقم لا تغرر بنفسك. فإنك فى تشرين الآخر ، فأقم بمكانك حتى يطيب ركوب البحر قال : فلم يرفع عطاء لكتاب موسى رأساً[3] ، وشحن مراكبه ، ثم رفع فسار حتى أتي جزيرة يقال لها سلسلة ، وافتتحها ، وأصاب فيها مغانم كثيرة ، وأشياء عظيمة من الذهب والفضة والجواهر ، ثم انصرف قافلا ، فأصابته ريح عاصف ، فغرق عطاء وأصحابه ، وأصيب الناس ، ووقعوا بسواحل أفريقية. فلما بلغ ذلك موسى ، وجه يزيد بن مسروق فى خيل إلى سواحل البحر ، يفتش على ما يلقى البحر من سفن عطاء وأصحابه فأصاب تابوتاً منحوتاً قال: فمنه كان أصل غناء يزيد بن مسروق . قال : ولقد لقيت شيخاً متوكئاً على قصبة ، فذهبت

---

(١) هى ترسانة بناء السفن وميناء تاوى إليه .

(٢) جر إليها البحر : حفر قناة واسعة توصل مياه البحر إليها وذلك تأمينا للسفن وحرصا على عدم تأثرها بعواصف البحر وأمواجه المتلاطمة .

(٣) أى لم يهتم به ولم يعمل بمضمونه ، ونفذ ما يريد .

لأفلشه فنازعنى ، فأخذت القصبة من يده فضربت بها عنقه فانكسرت ، فتناثر منها اللؤلؤ والجوهر والدنانير،ثم إن موسى أمر بتلك المراكب ومن نجا من النواتية ، فأدخلهم دار الصناعة بتونس، ثم لما كانت سنة خمس وثمانين أمر الناس بالتأهب لركوب البحر ، وأعلمهم أنه راكب فيه بنفسه ، فرغب الناس وتسارعوا ، ثم شحن فلم يبق شريف ممن كان معه إلا وقد ركب حتى إذا ركبوا فى الفلك ، ولم يبق إلا أن يرفع هو ، دعا برمح فعقده لعبد الله بن موسى بن نصير ، وولاه عليهم وأمّره ، ثم أمره أن يرفع من ساعته ، وإنما أراد موسى بما أشار من مسيره،أن يركب أهل الجلد والنكاية والشرف ، فسميت غزوة الأشراف ، ثم سار عبد الله بن موسى فى مراكبه ، وكانت تلك أول غزوة غزيت فى بحر أفريقية . قال: فأصاب فى غزوته تلك صقلية، فافتتح مدينة فيها ، فأصاب ما لا يدرى ، فبلغ سهم الرجل مئة دينار ذهباً ، وكان المسلمون ما بين الألف إلى التسع مئة،ثم انصرف قافلا سالما . فأتت موسى وفاة عبدالعزيز بن مروان،واستخلاف الوليد بن عبد الملك سنة ست وثمانين ، فبعث إليه بالبيعة ، وبفتح عبد الله بن موسى ، وما أفاء الله على يده ، ثم إن موسى بعث زرعة بن أبى مدرك إلى قبائل من البربر ، فلم يلق حربا منهم ورغبوا فى الصلح ، فوجه رءوسهم إلى موسى ، فأعطاهم الأمان ، وقبض رهونهم، وعقد لعياش ابن أخيل على مراكب أهل أفريقية ، فشتا فى البحر ، وأصاب مدينة يقال لها سرقوسة، ثم قفل فى سنة ست وثمانين، ثم إن عبدالله بن مرة قام بطالعة أهل مصر على موسى فى سنة تسع وثمانين فعقد له موسى على بحر أفريقية ، فأصاب سردانية ، وافتتح مدائنها ، فبلغ سبيها ثلاثة آلاف رأس ، سوى الذهب والفضة والحرث وغيره .

غزوة السوس الأقصى

قال : وذكروا أن موسى وجه مروان ابنه إلى السوس الأقصى ، وملك السوس يومئذ مزدانة الأسوارى ، فسار فى خمسة آلاف من أهل الديوان [1] فلما اجتمعوا ، ورأى مروان أن الناس قد تعجلوا إلى قتال العدو ، وأن فى يده اليمنى القناة [2] ، وفى يده اليسرى الترس ، وإنه ليشير بيده إلى الناس أن كما أنتم . فلما التقى مروان ومزدانة ، اقتتل الناس إذ ذاك قتالا شديداً ، ثم انهزم مزدانة ومنح الله مروان أكتافهم ، فقتلوا قتلة الفناء ، فكانت تلك الغزوة

---

(١) المراد بأهل الديوان:الجنود المقيدون فى ديوان الدولة أنهم جنود وهذا عدا المتطوعين من المسلمين .

(٢) القناة : الرمح .

استئصال أهل السوس[1] على أيدى مروان ، فبلغ السبي أربعين ألفاً ، وعقد موسى على بحر أفريقية حتى نزل بميورقة فافتتحها .

قدوم الفتوحات على الوليد بن عبد الملك

قال : وذكروا أن خادماً للوليد بن عبد الملك بن مروان أخبرهم قال : إنى لقريب من الوليد بن عبد الملك ، وبين يديه طشت من ذهب ، وهو يتوضأ منه ، إذ أتى رسول من قبل قتيبة بن مسلم من خراسان بفتح من فتوحاتها ، فأعلمته قال : خذ الكتاب منه، فأخذه فقرأه، فما أتي على آخره ، حتى أتى رسول آخر من قبل موسى بن نصير، بفتح السوس من قبل مروان ابن موسى ، فأعلمته . قال : هاته ، فقرأه ، فحمد الله، وخر ساجداً لله حامداً، ثم التفت إلىّ قال : أمسك الباب لا يدخل أحد . قال : وكان عنده ابن له يحبو بين يديه . فلما خرّ الوليد ساجداً لله شاكرا ، جاء الصبي إلى الطشت فاضطرب فيه وصاح ، فما التفت إليه . قال : وصرت لا أستطيع أن أغيثه لما أمرنى به من إمساك الباب ، وأطال السجود حتى خفي صوت الصبي ، ثم رفع رأسه فصاح بى ، فدخلت وأخذت الصبي ، وإنه لما به روح .

فتح قلعة أرساف

قال : ثم إن صاحب قلعة أرساف ، أغار على بعض سواحل أفريقية ، فنال منهم ، وبلغ موسى خبره ، فخرج إليه بنفسه فلم يدركه ، فاشتد ذلك على موسى . قال : قتلنى الله إن لم أقتله وأنا مقيم هنا . قال : فأقام موسى ما أقام، ثم إنه دعا رجلا من أصحابه،فقال له : إنى موجهك فى أمر وليس عليك فيه بأس ولك عندى فيه حسن الثواب ، خذ هذين الأذنين فسر فيهما بمن معك ، حتى تأتى موضع كذا وكذا ، فى مكان كذا ، فإنك تجد كنيسة ، وتجد الروم قد جعلوها لعيدهم ، فإذا كان الليل فادن من ساحلها ، ودع إحدى هذين الأذنين[2] بما فيها ثم انصرف إلى بالأذن الأخرى ، وبعث معه موسى قبة من الخز والوشى ، ومن طرائف أرض

---

(١) المراد بالسوس هذه بلد بالمغرب تسمى السوس الأقصى ، وهى غير سوسة التى هى بلد بالمغرب أيضا وتقع بين الجزيرة والقيروان .

(٢) تثنية أذن ، العروة التى يمسك منها الخرج ونحوه والمراد أنه بعث معه خرجين أو نحوهما لكل منهما أذن وفيهما الهدايا والكتب .

العرب شيئاً مليحاً ، وكتب كتابا بالرومية جوابا لكتاب ، كأنه كان كتب به إلى موسى يسأله الأمان ، على أن يدلّه على عورة الروم، وكتاب فيه أمان من موسى مطبوع ، فسار حتى انتهى إلى الموضع الذى وصف له موسى ، فترك الأذن بما فيها ، وانصرف راجعا فى الأذن الأخرى حتى قدم على موسى ، وأن الروم لما عثروا على أذن موسى استنكروها ، فارتفع أمرها إلى بطريق تلك الناحية ، وأخذ ما فيها . فلما رأى ما فيها من الكتب والهدية هاب ذلك ، فبعث بها كما هى إلى الملك الأعظم . فلما أفضت إليه ، وقرأ الكتب تحقق ذلك عنده ، فبعث إلى أرساف رجلا وملّكه عليها ، وأمر أن يضرب عنق صاحبها الذى أغار على سواحل أفريقية ، ففعل ، فقتله الله بحيلة موسى .

فتح الأندلس

قال : وذكروا أن موسى وجه طارقا مولاه إلى طنجة وما هنالك ، فافتتح مدائن البربر وقلاعها ، ثم كتب إلى موسى : إنى قد أصبت ستّ سفن ، فكتب إليه موسى . أتممها سبعا ، ثم سر بها إلى شاطىء البحر ، واستعد لشحنها ، واطلب قبلك رجلا يعرف شهور السريانيين ، فإذا كان يوم أحد وعشرين من شهر أذار بالسريانى ، فاشحن على بركة الله ونصره فى ذلك اليوم ، فإن لم يكن عندك من يعرف شهور السريان ، فشهور العجم ، فإنها موافقة لشهور السريان ، وهو شهر يقال له بالأعجمية مارس ، فإذا كان يوم أحد وعشرين منه ، فاشحن على بركة الله كما أمرتك إن شاء الله ، فإذا أجريت فسر حتى يلقاك جبل أحمر ، وتخرج منه عين شرقية ، إلى جانبها صنم فيه تمثال ثور ، فاكسر ذلك التمثال ، وانظر فيمن معك إلى رجل طويل أشقر ، بعينيه قَبَل[1] ، وبيده شلل ، فاعقد له على مقدمتك ، ثم أقم مكانك حتى يغشاك إن شاء الله . فلما انتهى الكتاب إلى طارق كتب إلى موسى : إنى منته إلى ما أمر الأمير ووصف ، غير أنى لم أجد صفة الرجل الذى أمرتنى به إلا فى نفسى ، فسار طارق فى ألف رجل وسبع مئة ، وذلك فى شهر رجب سنة ثلاث وتسعين ، وقد كان لذريق ملك الأندلس،قد غزا عدّوا يقال له البشكنس ، واستخلف ملكا من ملوكهم يقال له تدمير . فلما بلغ تدمير مكان طارق ، ومن معه من المسلمين . كتب إلى لذريق : إنه قد وقع بأرضنا قوم لا ندرى أمن السماء نزلوا أم من الأرض نبعوا . فلما بلغ لذريق ذلك أقبل راجعا إلى طارق فى سبعين ألف عنان ، ومعه العجل تحمل

---

(١) القبل : له معان كثيرة وهو على العموم يدور على قرب سواد العين من بياضها فهو شبه الحول فى العين .

الأموال والزخرف ، وهو على سرير بين دابتين ، وعليه قبة مكللة باللؤلؤ والياقوت والزبرجد ، ومعه الحبال ، ولا يشك في أسرهم . فلما بلغ طارقا دنوه منهم . قام في أصحابه ، فحمد الله ، ثم حض الناس على الجهاد ، ورغبهم في الشهادة ، وبسط لهم في آمالهم . ثم قال : أيها الناس ، أين المفر ، البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، فليس ثم والله إلا الصدق والصبر ، فإنهما لا يغلبان ، وهما جندان منصوران ، ولا تضر معهما قلة ، ولا تنفع مع الخور والكسل والفشل والاختلاف والعجب كثرة . أيها الناس ، ما فعلت من شيء فافعلوا مثله ، إن حملت فاحملوا ، وإن وقفت فقفوا ، ثم كونوا كهيئة رجل واحد في القتال ، ألا وإني عامد إلى طاغيتهم ، بحيث لا أنهيه حتى أخالطه أو أقتل دونه ، فإن قتلت فلا تهنوا ولا تحزنوا ، ولا تنازعوا فتفشلوا ، وتذهب ريحكم ، وتولوا الدبر لعدوكم ، فتبددوا بين قتيل وأسير . وإياكم إياكم أن ترضوا بالدنية ، ولا تعطوا بأيديكم ، وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة ، والراحة من المهانة والذلة ، وما قد أجل لكم من ثواب الشهادة ، فإنكم إن تفعلوا ، والله معكم ومعيذكم ، تبوءوا بالخسران المبين ، وسوء الحديث غدا بين من عرفكم من المسلمين . وها أنا ذا حامل حتى أغشاه ، فاحملوا بحملتي ، فحمل وحملوا . فلما غشيهم اقتتلوا قتالا شديدا ، ثم إن الطاغية قتل ، وانهزم جميع العدو ، فاحتز طارق رأس لذريق ، وبعث به إلى موسى بن نصير ، وبعث به موسى مع ابنه ، وجهز معه رجالا من أهل أفريقية ، فقدم به على الوليد بن عبد الملك ، ففرض له في الشرف ، وأجاز كل من كان معه ، ورده إلى أبيه موسى ، وأن المسلمين قد أصابوا مما كان مع لذريق ما لا يدرى ما هو ولا ماقيمته . قال : وكتب طارق إلى مولاه موسى : إن الأمم قد تداعت علينا من كل ناحية ، فالغوث الغوث ؛ فلما أتاه الكتاب نادى في الناس وعسكر ، وذلك في صفر سنة ثلاث وتسعين ، وكان أحب الخروج إليه يوم الخميس أول النهار ، فاستخلف عبد الله بن موسى على أفريقية وطنجة والسوس ، وكتب ساعة قدم عليه كتاب طارق إلى مروان ، يأمره بالمسير ، فسار مروان بمن معه ، حتى أجاز إلى طارق ، قبل دخول أبيه موسى ، وخرج موسى بن نصير والناس معه حتى أتى المجاز ، فأجاز بمن زحف معه في جموعه ، وعلى مقدمته طارق مولاه ، فوجد الجموع قد شردت إليه من كل مكان ، فسار حتى افتتح قرطبة وما يليها ، من حصونها وقلاعها ومدائنها ، فغل الناس يومئذ غلولا لم يسمع بمثله[1] ، ولم يسلم من الغلول يومئذ إلا أبو عبد الرحمن الحبلى . ثم إن موسى سار لا يرفع له شيء إلا هده ، يفتتح له المدائن يمينا وشمالا ، حتى انتهى إلى مدينة

---

(١) الغلول : هو أن يحتجز المحارب شيئا من الغنيمة لنفسه ولا يضعه مع باقي الغنائم ليقسم بين المحاربين .

الملوك ، وهى طليطلة ، فوجد فيها بيتا يقال له بيت الملوك ، وجد فيه أربعة وعشرين تاجا ، تاج كل ملك ولى الأندلس ، كان كلما هلك ملك جعل تاجه فى ذلك البيت ، وكتب على التاج اسم صاحبه ، وابن كم هو ، ويوم مات ، ويوم ولى ، ووجد فى ذلك البيت أيضاً مائدة عليها اسم سليمان بن داود عليه السلام ، ومائدة من جزع ، فعمد موسى إلى التيجان والآنية والموائد ، فقطع عليها الأغشية ، وجعل عليها الأمناء ليس منها شىء يدرى ما قيمته . فأما الذهب والفضة والمتاع ، فلم يكن يحصيه أحد .

اتهام الوليد موسى بالخلع

قال : وذكروا أن الوليد بن عبد الملك بن مروان لما بلغه مسير موسى بن نصير إلى الأندلس ووصفت له ، ظنّ أنه يريد أن يخلع ، ويقيم فيها ، ويمتنع بها ، وقيل ذلك له ، وأبطأت كتب موسى عليه ، لاشتغاله بما هنالك من العدوّ ، وتوطيته لفتح البلاد . فأمر الوليد القاضى أن يدعو على موسى إذا قضى صلاته ، وأن موسى لما دخل طليطلة ، بعث علىّ بن رباح بفتحها ، وأوفد معه وفدا ، فسار حتى قدم دمشق صلاة العصر ، فدخل المسجد فألفى القاضى يدعو على موسى . فقال : أيها الناس ، الله الله فى موسى ، والدعاء عليه ، والله ما نزع يدا من طاعة ، ولا فارق جماعة ، وإنه لفى طاعة أمير المؤمنين ، والذبّ عن حرمات المسلمين ، والجهاد للمشركين ، وإنى لأحدثكم عهداً به ، وما قدمت الآن إلا من عنده ، وإن عندى خبره ، وما أفاء الله على يده لأمير المؤمنين ، وما أمدّ به المسلمين ، ما تقرّ به أعينكم ، ويسرّ به خليفتكم .

دخول وفد موسى على الوليد بن عبد الملك

قال : وذكروا أن الوليد لما بلغه خبر هذا المتكلم الوافد من عند موسى ، أرسل إليه ، فأدخل عليه ، ثم قال له : ما وراءك ؟ فقال : كلّ ما تحبّ يا أمير المؤمنين ، تركت موسى ابن نصير فى الأندلس ، وقد أظهره الله ونصره ، وفتح على يديه ما لم يفتح على يد أحد ، وقد أوفدنى إلى أمير المؤمنين فى نفر من وجوه من معه ، بفتح من فتوحه ، فدفع إليه الكتاب من عند موسى ، فقرأه الوليد . فلما أتى على آخره خرّ ساجدا ؛ فلما رفع رأسه أتاه فتح آخر ، فخر أيضاً ساجدا ، ثم رفع رأسه ، فأتاه آخر بفتح آخر ، وخرّ ساجدا ، حتى ظننت أنه لا يرفع رأسه .

ذكر ما وجد موسى فى البيت الذى وجد فيه المائدة
مع صور العرب

قال : وذكروا أن هرم بن عياض حدثهم عن رجل من أهل العلم ، أنه كان مع موسى بالأندلس حين فتح البيت الذى كانت فيه المائدة ، التى ذكروا أنها كانت لسليمان بن داود عليه السلام . فقال : كان بيتا عليه أربعة وعشرون قفلا ، كان كلما تولى ملك ، جعل عليه قفلا اقتداء منه بفعل من كان قبله ، حتى إذا كانت ولاية لذريق القرطبى ، الذى افتتحت الأندلس على يديه وفى ملكه قال : والله لا أموت بغمّ هذا البيت ، ولأفتحنّه حتى أعلم ما فيه ، فاجتمعت إليه النصرانية والأساقفة والشمامسة ، وكل منهم معظم له . فقالوا له : ما تريد بفتح هذا البيت ؟ فقال : والله لا أموت بغمه ، ولأعلمنّ ما فيه . فقالوا : أصلحك الله ، إنه لا خير فى مخالفة السلف الصالح ، وترك الاقتداء بالأولية ، فاقتد بمن كان قبلك ، وضع عليه قفلا كما صنع غيرك ، ولا يحملك الحرص على ما لم يحملهم عليه ، فإنهم أولى بالصواب منا ومنك ، فأبى إلا فتحه . فقالوا له : انظر ما ظننت أن فيه من المال والجواهر ، وما خطر على قلبك ، فإنا ندفعه إليك ، ولا تحدث علينا حدثا لم يحدثه فيه من كان قبلك من ملوكنا ، فإنهم كانوا أهل معرفة وعلم . فأبى إلا فتحه ، ففتحه ، فوجد فيه تصاوير العرب ، ووجد كتابا فيه : إذا فتح هذا البيت دخل هؤلاء الذين هيئاتهم هكذا ، هذه البلاد فملكوها . فكان دخول المسلمين من العرب إليه فى ذلك العام .

ذكر ما أفاء الله عليهم

قال : وذكروا عن الليث بن سعد أن موسى لما دخل الأندلس ، ضربوا الأوتاد لخيولهم فى جدار كنيسة من كنائسها ، فنلقت الأوتاد فلم تلج[1] فنظروا فإذا بصفائح الذهب والفضة خلف بلاط الرخام . قال : وذكروا أن رجلا كان مع موسى ببعض غزواته بالأندلس ، وأنه رأى رجلين يحملان طنفسة[2] منسوجة بالذهب والفضة والجوهر والياقوت ؛ فلما أثقلتهما أنزلاها ، ثم حملا عليها الفأس فقطعاها نصفين ، فأخذا نصفا وتركا الآخر . قال : فلقد رأيت الناس يمرّون يمينا وشمالا ، ما يلتفتون إليها استغناء عنها بما هو أنفس منها وأرفع . قال : وأقبل رجل

---

(١) لم تلج : لم تدخل فى الأرض .
(٢) الطنفسة : البساط العظيم أو السجادة القيمة .

إلى موسى فقال : ابعث معى أدلكم على كنز ، فبعث معه موسى رجالا. فقال الذى دلهم: انزعوا هاهنا ، فنزعوا ، فسال عليهم من الزبرجد والياقوت مالم يروا مثله قط ؛ فلما رأوه بهتوا وقالوا: لايصدقنا موسى، أرسلوا إليه. فأرسلوا حتى جاء ونظر. قال : وكانت الطنفسة قد نظمت بقضبان الذهب والفضة المسلسلة باللؤلؤ والياقوت والزبرجد. قال: وكان البربريان ربما وجداها فلا يستطيعان حملها حتى يأتيا بالفأس فيضربا وسطها، ويأخذا منها ما أمكنهما، اشتغالا بغير ذلك مما هو أنفس منه.

قال الليث : وبلغنى أن رجـــلا غلّ فى غزوة عطاء بن نافع فحمل ما غل حتى جعله فى مُـزفّت(١) بين كتفيه وصدره ، فحضره الموت ، فجعل يصيح : المزفت المزفت .

وحدثنا ابن أبى ليلى التُّجيبى ، عن حميد ، عن أبيه أنه قال : لقد كانت الدابة تطلع فى بعض غزوات موسى ، فينظر فى حافرها فيوجد فيه مسامير الذهب والفضة . قال : وكتب موسى حين افتتح الأندلس إلى أمير المؤمنين : إنها ليست كالفتُوح يا أمير المؤمنين ، ولكنه الحشر . وأخبرنى عن عبد الحميد ابن حميد ، عن أبيه أنه قال : قدمت الأندلس امرأة عطارة فخرجت بخمس مئة رأس ، فأما الذهب والفضة والآنية والجوهر فذلك لا يحاط بعلمه .

قال : وحدثنى ياسين بن رجاء ، أنه قدم عليهم رجل من أهل المدينة شيخ ، فجعل يحدثنا عن الأندلس ، وعن دخول موسى إياها ، فقلنا له : فكيف علمت هذا ؟ قال : إنى والله من سبيه ، ولأخبركم بعجيب ، والله ما اشترانى الذى اشترانى إلا بقبضة من فلفل لمطبخ موسى بن نصير . فقلنا له : ما أقدمك ؟ فقال : أبى كان من وجوه الأندلس . فلما سمع بموسى بن نصير عمد إلى عين ماله من الذهب والفضة والجوهر ، وغير ذلك ، فدفنه فى موضع قد عرفته ، فتقدمت أنا للخروج إلى ذلك الموضع لاستخراجه . قلنا له ، وكم لك منذ فارقته ؟ قال : سبعون سنة . قلنا له : أفنسيته ؟ قال : نعم ، فلم ندر بعد ما فعل .

عزوة موسى بن نصير البشـــكنس والأفرنج

قال : وذكروا أن موسى خرج من طليطلة بالجموع غازيا يفتح المدائن جميعا ، حتى دانت له الأندلس ، وجاءه وجوه جليقية ، فطلبوا الصلح فصالحهم ، وغزا البشكنس فدخل فى بلادهم حتى أتى قوما كالبهائم ، ثم مال إلى أفرنجة ، حتى انتهى إلى سرقسطة فافتتحها ، وافتتح ما دونها

---

(١) المزفت : حق أو نحوه مغلف بالزفت حتى لاينظر إليه أحد وحتى لايفتح إلا بصعوبة .

من البلاد إلى الأندلس . قال : فأصاب فيها ما لا يدرى ما هو ، ثم سار حتى جاوزها بعشرين ليلة ، وبين سرقسطة وقرطبة شهر أو أربعون يوما .

قال : وذكروا أن عبد الله بن المغيرة بن أبي بردة ، قال : كنت ممن غزا مع موسى الأندلس حتى بلغنا سرقسطة ، وكانت من أقصى ما بلغنا مع موسى إلا يسيراً من ورائها ، فأتينا مدينة على بحر ، ولها أربعة أبواب . قال : فبينما نحن محاصروها إذ أقبل عياش بن أخيل، صاحب شرطة موسى ، فقال أيها الأمير ، إنا قد فرّقنا الجيش أرباعاً على نواحي المدينة ، وقد بقي الباب الأقصى ، وعليه رتبة . قال له موسى بن نصير : دع ذلك الباب فإنا سننظر فيه . قال : ثم إن موسى التفت إليّ فقال لي : كم معك من الزاد ؟ قلت : ما بقي معي غير تليس (١) ، قال : فأنت لم يبق معك غير تليس ، وأنت من أمراء الجيش ، فكيف غيرك ! اللهمّ أخرجهم من ذلك الباب . قال المغيرة : فأصبحنا من تلك الليلة وقد خرجوا من ذلك الباب ، فدخلها موسى منه ، ووجه ابنه مروان في طلبهم فأدركهم ، فأسرع القتل فيهم ، وأصابوا مما كان معهم ، ومما في المدينة شيئاً عظيما . قال : وذكروا أن جعفر بن الأشتر ، قال : كنت فيمن غزا الأندلس مع موسى ، فحاصرنا حصناً من حصونها عظيما ، بضعا وعشرين ليلة ، ثم لم نقدر عليه . فلما طال ذلك عليه نادى فينا ، أن أصبحوا على تعبئة ، وظننا أنه قد بلغه مادة من العدوّ ، وقد دنت منا ، وأنه يريد التحوّل عنهم ، فأصبحنا على تعبئة ، فقام فحمد الله ، ثم قال : أيها الناس ، إني متقدم أمام الصفوف ، فإذا رأيتموني قد كبرت وحملت ، فكبروا واحملوا . فقال الناس : سبحان الله ، أترى فقد عقله أم عزب عنه رأيه ، يأمرنا نحمل على الحجارة وما لا سبيل إليه ! قال : فتقدم بين يدى الصفوف حيث يراه الناس ، ثم رفع يديه وأقبل على الدعاء والرغبة ، فأطال ونحن ركوب منتظرون تكبيره ، فاستعددنا ، ثم إن موسى كبّر ، وكبّر الناس ، وحمل وحمل الناس ، فانهدت ناحية الحصن التي تلينا ، فدخل الناس منها ، وما راعني إلا خيل المسلمين تمزع فيها ، وفتحها الله علينا ، فأصبنا من السبي والجواهر ما لا يحصى .

قال : وحدثتني مولاة لعبد الله بن موسى ، وكانت من أهل الصدق والصلاح ، أن موسى حاصر حصنها الذي كانت من أهله ، وكان تلقاءه حصن آخر . قالت : فأقام لنا محاصراً حيناً ، ومعه أهله وولده ، وكان لا يغزو إلا بهم لما يرجو في ذلك من الثواب . قالت : ثم إن أهل الحصن خرجوا إلى موسى فقاتلوه قتالا شديداً ، ففتح الله عليه . قالت : فلما رأى ذلك أهل

---

(١) التليس بتشديد اللام : الكيس الكبير او الشوال الكبير .

الحصن الآخر ، نزلوا على حكمه ، ففتحهما موسى فى يوم واحد . فلما كان فى اليوم الثانى ، أتى حصناً ثالثاً ، فالتقى الناس فاقتتلوا قتالا شديداً أيضاً ، حتى جال المسلمون جولة واحدة . قال : فأمر موسى بسرادقه فكشط[1] عن نسائه وبناته حتى برزْنَ. قال : فلقد كسرت بين يديه من أغماد السيوف ما لا يحصى ، وحمى المسلمون ، واحتدم القتال ، ثم إن الله فتح عليه ونصره ، وجعل العاقبة له .

وقال عبد الرحمن بن سلام : كنت فيمن غزا مع موسى فى غزواته كلها . فلم ترد له راية قط ، ولا هزم له جمع قط ، حتى مات .

وقال ابن صخر : لما قدم موسى الأندلس قال أسقف من أساقفتها . إنا لنجدك فى كتب الحدثان ، عن دانيال . بصفتك صياداً تصيد بشبكتين ، رجل لك فى البرّ ، ورجل فى البحر ، تضرب بهما ها هنا وها هنا فتصيد . قال : فسرّ بذلك موسى وأعجبه .

وقال عبد الحميد بن حميد ، عن أبيه : إن موسى لما وغل وجاوز سرقسطة ، اشتدّ ذلك على الناس وقالوا : أين تذهب بنا ؟ حسبنا ما فى أيدينا ، وكان موسى قال : حين دخل أفريقية ، وذكر عقبة بن نافع : لقد كان غرّر بنفسه حين وغل فى بلاد العدوّ ، والعدو عن يمينه وعن شماله وأمامه وخلفه ، أما كان معه رجل رشيد ؟ فسمعه حبيش الشيبانى قال : فلما بلغ موسى ذلك المبلغ ، قام حبيش فأخذ بعنانه . ثم قال أيها الأمير ! إنى سمعتك وأنت تذكر عقبة بن نافع تقول : لقد غرّر بنفسه وبمن معه ، أما كان معه رجل رشيد ؟ وأنا رشيدك اليوم ، أين تذهب ؟ تريد أن تخرج من الدنيا ، أو تلتمس أكثر وأعظم مما آتاك الله عزّ وجلّ ، وأعرض مما فتح الله عليك ، ودوّخلك ، إنى سمعت من الناس ما لم تسمع ، وقد ملأوا أيديهم ، وأحبّوا الدعة . قال : فضحك موسى ثم قال : أرشدك الله ، وكثر فى المسلمين مثلك . ثم انصرف قافلا إلى الأندلس فقال موسى يومئذ : أما والله لو انقادوا إلىّ لقدتهم إلى روميّة ، ثم يفتحها الله على يدىّ إن شاء الله .

خروج موسى بن نصير من الأندلس

قال : وذكروا أن عبد الرحمن بن سلام أخبرهم ، وكان مع موسى بن نصير بالأندلس .

---

(١) السرادق : القبة التى كانت مضروبة على نسائه وبناته وكشط أزيح وطوى ، وهذا تحميس للرجال ولنفسه لأن المحارب إذا رأى نســاءه وبناته امامه خاف عليهن فحارب أشجع ما يكون .

قال : أقام موسى بقية سنته تلك ، وأشهرا من سنة أربع وتسعين ، ثم خرج وافداً إلى الوليد بن عبد الملك ، وكان ما أقام بها موسى عشرين شهرا ، واستخلف عبد العزيز بن موسى ، فجاز موسى البحر على الأندلس ، فغزا بالناس حتى بلغوا أربونة ، ومعه أبناء الملوك من الإفرنج ، وبالتيجان والمائدة والآنية والذهب والفضة ، والوصفاء والوصائف ، وما لا يحصى من الجواهر والطرائف ، وخرج معه بوجوه الناس . قال : وذكروا عن صفة المائدة عن عبد الحميد أنه قال كانت مائدة خوان، ليست لها أرجل ، قاعدتها منها ، وكانت من ذهب وفضة خليطين ، فهى تلوّن صفرة وبياضاً ، مطوّقة بثلاثة أطواق ، طوق لؤلؤ ، وطوق ياقوت ، وطوق من زمُرّد قال قلت : فما عظمها ؟ قال : كنا بموضع والناس معسكرون ؛ إذ فلت بغل لرجل من موالى موسى يقال له صالح أبو ريشة ، على رَمَكَة[1] ، فكرَدَها فى العسكر ، فقام الناس إليه بأعمدة الأخبية ، وجال فى العسكر جولة ، فتطلع موسى قال : ماهذا ؟ وتطلع الجوارى فإذا هو بالبغل يكرد الرمكة ، وقد أدلى[2] ، فغار موسى وقال : احملوا عليه المائدة ، فلم يبلغ بها إلا منقلة[3] حتى تفتخت قوائمه لكثرة ثقلها على هذا البغل القوىّ .

قدوم موسى أفريقية

قال : وذكروا أن يزيد بن مسلم مولى موسى ، أخبرهم أنه لما جاز موسى الحصن أمرهم بصناعة العجل[4] ، فعملت له ثلاثون ومئة عجلة ، ثم حمل عليها الذهب والفضة والجواهر ، وأصناف الوشى الأندلسىّ ، حتى أتى أفريقية . فلما قدمها بقى بها سنة أربع وتسعين ، ثم قفل ، واستخلف ابنه عبد الله على أفريقية وطنجة والسوس ، وخرج معه ولده مروان بن موسى ، وعبد الأعلى بن موسى وعبد الملك بن موسى ، وخرج معه مئة رجل من أشراف الناس ، من قريش والأنصار وسائر العرب ومواليها ، منهم عياض بن عقبة ، وعبد الجبار بن أبى سلمة

---

(١) الرمكة : الفرس أو البغلة تتخذ للنسل ، وكردها طاردها وجرى وراءها يريد أن يقع عليها .

(٢) أدلى : انتصب ذكره متدليا .

(٣) المنقلة : هى انتقال الأقدام أى لم يبلغ بها إلا خطوة ، وتفتحت قوائمه استرخت أعصابها ولانت من ثقل المائدة .

(٤) العجل : أى العجلات وهى العربات .

ابن عبد الرحمن بن عوف ، والمغيرة بن أبي بردة ، وزرعة بن أبي مدرك ، وسليمان بن نجدة ووجوه من وجوه الناس وأخرج معه من وجوه البربر مئة رجل فيهم بنوكسيلة ، وبنو قصدر، وبنو ملوك البربر ، وملك السوس مزدانة ملك قلعة أرساف وملك ميورقه ، وخرج بعشرين ملكا من ملوك جزائر الروم ، وخرج معه مئة من ملوك الأندلس ، ومن الإفرنجيين ، ومن القرطبيين وغيرهم ، وخرج معه أيضاً بأصناف ما في كلّ بلد من بزّها[١] ودوابها ورقيقها وطرائفها ومالا يحصى ، فأقبل يجرّ الدنيا وراءه جرّا لم يسمع بمثله ، ولا بمثل ماقدم به .

قدوم موسى إلى مصر

قال : وذكروا أن يزيد بن سعيد بن مسلم أخبرهم قال : لما أتى موسى مصر ، وانتهى ذلك إلى الوليد بن عبد الملك ، كتب إلى قرة بن شريك ، أن ادفع إلى موسى من بيت مال مصر ما أراد ، فأقبل موسى حتى إذا كان في بعض الطريق ، لقيه خبر موت قرة بن شريك ، ثم قدم مصر سنة خمس وتسعين ، فدخل المسجد فصلى عند باب الصوال ، وكان قرة قد استخلف بن رفاعة على الجند حتى توفى ، فلما سمع بموسى خرج مبادرا حتى لحقه حين استوى على دابته فلقيه فسلم عليه ، فقال له موسى من أنت يا بن أخي ؟ فانتسب له . فقال : مرحباً وأهلا ، فسار معه حتى نزل منية عمرو بن مروان ، فعسكر بها موسى ، فكلمه حينئذ رفاعة في المال الذي كان استخرجه من سفيان بن مالك الفهري ، وذلك بعد مهلك سفيان . فقال : هو لك . قال : فأمر بدفع عشرة آلاف دينار إلى ولد سفيان بن مالك . قال : فأقام موسى ثلاثة أيام ، تأتيه أهل مصر في كل يوم ، فلم يبق شريف إلا وقد أوصل إليه موسى صلة ومعروفاً كثيرا ، وأهدى لولد عبد العزيز ابن مروان فأكثر لهم ، وجاءهم بنفسه فسلم عليهم ، ثم سار متوجها حتى أتى فلسطين ، فتلقاه آل روح ابن زنباع ، فنزل بهم ، فبلغني أنهم نحروا له خمسين جزورا ، وأقام عندهم يومين ، وخلف بعض أهله وصغار ولده عندهم ، وأجاز آل مروان وآل روح بن زنباع بجوائز من الوصائف ، وغير ذلك من الطرف .

قدوم موسى على الوليد رحمهما الله تعالى

قال : وذكروا أن محمد بن سليمان وغيره من مشايخ أهل مصر ، أخبروهم أن موسى لما قدم على الوليد ، وكان قدومه عليه وهو في آخر شكايته التي توفى فيها ، وقد كان سليمان

---

(١) البز : الثياب المنسوجة من القطن ونحوه .

ابن عبدالملك بعث إلى موسى من لقيه فى الطريق قبل قدومه على الوليد ، يأمره بالتبطء[1] فى مسيره ، وألا يعجل ، فإن الوليد بآخر رمقه . فلما أتى موسى بالكتاب من سليمان وقرأه ، قال : خنت والله وغدرت وما وفيت ، والله لاتربصت ولا تأخرت ولاتعجلت ولكنى أسير بمسيرى ، فإن وافيته حياً لم أتخلف عنه ، وإن عجلت منيته فأمره إلى الله . فرجع الرسول إلى سليمان فأعلمه فآلى سليمان لئن ظفر بموسى ليصلبنه ، أو ليأتين على نفسه[2] . قال : فلما قدم موسى على الوليد وكان الوليد لما بلغه قدوم موسى واقترابه منه ، وجه إليه كتاباً يأمره بالعجلة فى مسيره ، خوفاً أن تعجل به منيته قبل قدوم موسى عليه ، وأنه أراد أن يراه وأن يحرم سليمان ماجاء به من الجواهر والطرائف التى لاقيمة لها ، فلم يكن لموسى شىء يثبطه حين أتاه كتاب الوليد ، فأقبل حتى دخل عليه ، وقدم تلك الطرائف من الدّر والياقوت والزبرجد ، والوصفاء والوصائف والوشى ، ومائدة سليمان بن داود عليه السلام ، ومائدة ثانية من جزع ملوّن والتيجان . قال : فقبض الوليد الجميع وأمر بالمائدة فكسرت ، وعمد إلى أغلى مافيها ، والتيجان والجزع ، فجعله فى بيت الله الحرام ، وفرق غير ذلك ، ولم يلبث الوليد أن مات رحمه الله .

خلافة سليمان بن عبدالملك وماصنع بموسى بن نصير

قال : وذكروا أن عبد الرحمن بن سلام أخبرهم أن سليمان بن عبد الملك لما أفضت الخلافة إليه ، بعث إلى موسى ، فأتى به ، فعنفه بلسانه ، وكان فيما قال له يومئذ : أعلىّ اجترأت ، وأمرى خالفت ، والله لأقللنّ عددك ، ولأفرقنّ جمعك ، ولأبددنّ مالك ، ولأضعنّ منك ماكان يرفعه غيرى ممن كنت تمنيه أمانى الغرور ، وتخدعه من آل أبى سفيان ، وآل مروان ، فقال له موسى : والله ياأمير المؤمنين ماتستلّ علىّ بذنب ، سوى أنى وفيت للخلفاء قبلك ، وحافظت على من ولى النعمة عندى فيه ، فأما ماذكر أمير المؤمنين : من أنه يقلّ عددى ، ويفرّق جمعى ويبدّد مالى ، ويخفض حالى ، فذلك بيد الله ، وإلى الله ، وهو الذى يتولى النعمة على الإحسان إلىّ ، وبه أستعين ، وبعيذ الله عزّ وجلّ أمير المؤمنين ويعصمه أن يجرى على يديه شيئاً من المكروه لم أستحقه ، ولم يبلغه ذنب اجترمته . فأمر به سليمان أن يوقف فى يوم صائف شديد الحرّ على طريقه . قال : وكانت بموسى نسمة[3] ، فلما أصابه حرّ الشمس ، وأتعبه الوقوف ،

---

(١) التمهل وعدم الإسراع .
(٢) ليأتين على نفسه : يزهق نفسه أى يقتله .
(٣) النسمة : الربو وهو مرض معروف من أمراض الصدر .

هاجت عليه . قال: وجعلت قرب العرق تنصب منه ، فما زال كذلك حتى سقط ، وعمر بن عبد العزيز حاضر ، إلى أن نظر سليمان إلى موسى ، وقد وقع مغشياً عليه . قال عمر بن عبد العزيز مامر بى يوم كان أعظم عندى ، ولا كنت فيه أكرب من ذلك اليوم ، لما رأيت من الشيخ موسى ، وما كان عليه من بعد أثره فى سبيل الله ، وما فتح الله على يديه وهذا يُفعل به . قال : فالتفت إلىّ سليمان فقال يا أبا حفص ، ما أظنّ إلا أنّى قد خرجت من يمينى. قال عمر :فاغتنمت ذلك منه فقلت يا أمير المؤمنين شيخ كبير بادن(١) ، وبه نسمة قد أهلكته ، وقد أتت على مافيه من السلامة لك من يمينك ، وهو موسى البعيد الأثر فى سبيل الله ، العظيم الغناء عن المسلمين قال عمر : والذى منعنى من الكلام فيه ما كنت أعلم من يمينه وحقده عليه ، فخشيت إن ابتدأته أن يلج عليه ، وهو لحوح . قال . فلما قال لى ما قال آخراً ، حمدت الله على ذلك ، وعلمت أن الله قد أحسن إليه ، وأن سليمان قد ندم فيه . فقال سليمان : من يضمه ؟ فقال يزيد بن المهلب أنا أضمه يا أمير المؤمنين . قال : وكانت الحال بين يزيد وموسى لطيفة خاصة . قال سليمان : فضمه إليك يا يزيد ، ولا تضيّق عليه . قال: فانصرف به يزيد ، وقد قدم إليه دابة ابنه مخلد ، فركبها موسى ، فأقام أياماً . قال : ثم إنه تقارب مابين موسى وسليمان فى الصلح ، حتى افتدى منه موسى بثلاثة آلاف ألف دينار .

عدة موالى موسى بن نصير

قال : وذكروا عن بعض البصريين ، أن رجلا منهم أخبرهم أن يزيد قال لموسى ذات ليلة وقد سهر سهراً طويلا : يا أبا عبد الرحمن ، كم تعدّ مواليك وأهل بيتك ؟ فقال : كثير . قال يكونون ألفا؟ قال له موسى : نعم وألفاً وألفاً حتى ينقطع النفس ، لقد خلفت من الموالى ما أظن أن أحداً لا يخلف مثلهم . قال له يزيد : إنك لعلى مثل ما وصفت ، وتعطى بيدك ؟ ألا أقمت بدار عزك ، وموضع سلطانك ، وبعثت بما قدمت به ، فإن أعطيت الرضا أعطيت الطاعة ، وإلا كنت على التخيير من أمرك ؟ فقال موسى : والله لو أردت ذلك ما تناولوا طرفاً من أطرافى إلى أن تقوم الساعة ، ولكن آثرت حق الله ، ولم أر الخروج من الطاعة والجماعة . قال : ثم خرج يزيد من عنده ، فنظر إليه موسى ، قال لمن عنده : والله إن فى رأس أبى خالد لنعرة وليأتين عليها .

---

(١) البادن والبدين : ضخم الجسم (مختن).

ذكر مارآه موسى بالمغرب من العجائب

قال : وذكروا عن محمد بن سليمان ، عن مشايخ أهل مصر ، قال : لما بعث موسى رحمه الله بالخمس الذى أفاء الله عليه ، وكان مئة ألف رأس ، فنزلوا الإسكندرية ، ونزل بعضهم كنيسة فيها ، فسميت كنيسة الرقيق إلى اليوم ، ونزلوا موضعاً بالفسطاط فتسوّقوا فيه ، فسمى سوق البربر إلى اليوم ، قال محمد بن سليمان ، ومحمد بن عبد الملك : إن موسى اتخذ لنفسه داراً وسكناً حتى كان من أمر سليمان ما قد ذكر ، وهو الذى أخرجه وأهله من المغرب .

قال : وحدثنا بعض أهل أفريقية أن موسى ركب يوماً حتى خرج من القيروان ، فوقف قريباً من أفريقية على رأس أميال ، فأخذ بيده تراباً فشمه من ثم ، ثم أمر بحفر بئر وابتنى داراً ومنية(١) واتخذ فيها خيلا فسميت بئر منية الخيل ، فليس يعلم بالمغرب بئر أعذب منها .

وحدثنا السكرى أبو بكر عبد الوهاب بن عبد الغفار شيخ من مشايخ تونس قال : إن موسى انتهى إلى صنم يشير بأصبعه إلى خلفه ثم تقدّم إلى صنم أمام الصنم الأوّل ، فإذا هو يشير بأصبعه إلى السماء ، ثم تقدّم فإذا بصنم على نهر ماء جار ، يشير بأصبعه تحت قدميه ، فلما انتهى موسى إلى الصنم الثالث . قال موسى : احفروا ، فإذا بمحدث (٢) مختوم الرأس ، قد أخرج ، فأمر به موسى فكسر ، فخرجت ريح شديدة . فقال موسى للجيش: أتدرون ما هذا! قالوا : لا والله أيها الأمير ما ندرى . قال : ذلك شيطان من الشياطين التى سجنها نبى الله سليمان بن داود .

قال : وحدثنا بعض مشايخ أهل المغرب أن موسى أرسل ناساً فى مراكب فامرهم أن يسيروا حتى ينتهوا إلى صنم يشير بأصبعه أمامه فى جزيرة فى البحر ، ثم يسيروا حتى يأتوا صنما آخر فى جزيرة يشير بأصبعه أمامه ثم يسير الليالى والأيام ويجدّ فى السير حتى يأتوا صنما آخر فى جزيرة فى البحر ، فيها أناس لايعرف كلامهم . قال : فإذا بلغتم ذلك فارجعوا ،وذلك فى أقصى المغرب ليس وراءه أحد من الناس إلا البحر المحيط ، وهو أقصى المغرب فى البر والبحر .

قال : وحدثنا بعض المشايخ من أهل المغرب أن موسى بلغ نهراً من أقصى المغرب ، فإذا عليه فى الشق الأيمن أصنام ذكور ، وفى الأيسر أصنام إناث ، وأن موسى لما انتهى إلى ذلك

(١) المنية : الضاحية أو القرية الصغيرة .
(٢) المحدث : شىء كالإبريق قد أغلقت فوهته وختمت .

الموضع خاف الناس فيه ، فلما رأى ذلك منهم رجع بالناس ، ثم مضى في وجهه ذلك حتى انتهى إلى أرض تميد بأهلها ، ففزع الناس وخافوا فرجع بهم .

قالوا : وحدثنا عبد الله بن قيس ، قال : بلغني أن موسى لما جاوز الأندلس أتى موضعاً ، فإذا فيه قباب من نحاس ، فأمر بقبة منها فكسرت ، فخرج منها شيطان تفخ ومضى ، فعرف موسى أنه شيطان من الشياطين التي سجنها سليمان بن داود ، فأمر موسى بالقباب فتركت على حالها ، وسار بالناس قدماً .

قال : وحدثنا عمارة بن راشد ، قال : بلغنا أن موسى كان يسير في بعض غزواته وهو بأقصى المغرب ، إذ غشى الناس ظلمة شديدة ، فعجب الناس منها وخافوا ، وسار بهم موسى في ذلك ، إذ هجم على مدينة عليها حصن من نحاس ، فلما أتاها أقام عليها ، وطاف بها ، فلم يقدر على دخولها ، فأمر بنبل ورماح ، وندب الناس فجعل يقول : من يصعد هذه ، وله خمس مئة دينار ؟ فصعد رجل ، فلما استوى على سورها تردّى فيها ، ثم ندب الناس موسى ثانية ، وقال : من يصعد وله ألف دينار ؟ فصعد آخر ، ففعل به مثل ذلك ، ثم ندب الناس ثالثة : قال : من يصعد وله ألف وخمس مئة دينار ، فصعد رجل ثالث ، فأصابه ما أصاب صاحبيه ، فكلم الناس موسى فقالوا : هذا أمر عظيم أصيب إخواننا ، وغررت بهم حتى هلكوا . فقال لهم : على وسلكم يأتيكم الأمر على ما تحبون إن شاء الله ، ثم أمر موسى بالمنجنيق ، فوضعت على حصن المدينة ، ثم أمر أن يرمى الحصن ، فلما علم من في الحصن ما عمل موسى ، ضجوا وصاحوا . وقالوا : يا أيها الملك ، لسنا بغيتك ، ولا نحن ممن تريد ، نحن قوم من الجن ، فانصرف عنا ، فقال ، لهم موسى : أين أصحابي ، وما فعلوا ؟ قالوا : هم عندنا على حالهم . فقال : أخرجوهم إلينا . قالوا : نعم . فأخرج الثلاثة النفر ، فسألهم موسى عن أمرهم وما صنع بهم . فقالوا : ما درينا ما كنا فيه ، وما أصابتنا شوكة حتى أخرجنا إليك . فقال موسى : الحمد لله كثيراً ، ثم تقدم بالناس سائراً يفتح كلّ ما مرّ به .

ثم نرجع إلى حديث سليمان بن عبد الملك .

تولية سليمان بن عبد الملك أخاه مسلمة
وما أشار به موسى عليه

قال : وذكروا أن سعيد بن عبد الله أخبرهم ، قال : إن سليمان بن عبد الملك بعث أخاه

مسلمة إلى أرض الروم ، ووجه معه خمس مئة وثلاثين ألف رجل ، وخمس مئة رجل ممن قد ضمه الديوان واكتتب فى العطاء وتقلب فى الأرزاق ، ثم دعا سليمان بموسى ، بعد أن رضى عنه على يد عمر بن عبد العزيز فقال سليمان له : أشر علىّ ياموسى ، فلم تزل مبارك الغزوة فى سبيل الله ، بعيد الأثر ، طويل الجهاد . فقال له موسى : أرى يا أمير المؤمنين أن توجهه بمن معه ، فلا يمرّ بحصن إلا صير عليه عشرة آلاف رجل حتى يفرق نصف جيشه ، ثم يمضى بالباقى من جيشه ، حتى يأتى القسطنطينية ، فإنه يظفر بما يريد يا أمير المؤمنين . قال : فدعا سليمان مسلمة فأمره بذلك من مشورة موسى وأوعز إليه فلما علم مسلمة بالمشورة فكأنه كره ذلك ، وكان فى مسلمة بعض الإباية ، ثم رجع إلى قول موسى فيا صنع بأرض الروم ، حين ظفر ببطريق ليس فوقه إلا ملك الروم : فقال البطريق لمسلمة : آمنى على نفسى وأهلى ومالى وولدى ، وأنا آتيك بالملك ، فأمنه ، ومضى البطريق إلى الملك الأعظم ، فأعلمه بما فعل مسلمة ، وما ظفر به منه ، ومن حصون الروم ؛ فلما رأى ذلك ملك الروم ، أعظم ذلك وسقط فى يديه . فقال البطريق له عند ذلك : مالى عليك إن صرفت مسلمة عنك وجميع من معه ؟ فقال الملك :أجعل تاجى على رأسك ، وأقعدك مكانى . فقال البطريق : أنا أكفيك ذلك . فرجع البطريق إلى مسلمة ، فقال : أخرنى ثلاثا حتى آتيك بالملك ، فبعث البطريق إلى جميع الحصون ، فأمرهم بالتقلع إلى الجبال ، وحمل ما قدروا عليه من الطعام ، وأمر بإحراق الزرع ، وغير ذلك مما يؤكل وينتفع به ، مما كان خلفه مسلمة وجنده ، وما بين المسلمين وملك الروم ، فلما فعلوا ما أمروا به ، وعلم البطريق أنه أحكم أمره ، بعث إلى مسلمة فقال له لو كنت امرأة لفعلت بك كما يفعل الرجل بأمرأته . قال : فتغيظ مسلمة وآلى ألا يبرح حتى يظفر بملك الروم .

سؤال سليمان موسى عن المغرب

قال : وذكروا أن محمد بن سليمان ، أخبرهم أن سليمان بن عبد الملك قال لموسى :من خلفت على الأندلس ؟ قال له : عبد العزيز بن موسى . قال : ومن خلفت على أفريقية وطنجة والسوس ؟ قال : عبد الله ابنى . فقال له سليمان : لقد أنجبت يا موسى ،فقال موسى : ومن أنجبُ منى ياأمير المؤمنين ، إن ابنى مروان أتى بملك الأندلس،وابنى عبد الله أتى بملك ميورقة وصقلية وسردانية، وإن ابنى مروان أتى بملك السوس الأقصى فهم متفرّقون فى الأمصار ، وغيرهم يغيرون فيأتون من السبى بما لا يحصى ، فمن أنجبُ منى يا أمير المؤمنين ؟ قال : فغضب سليمان ، فقال ولا أمير

المؤمنين ليس بأعجب منك ؟ فقال موسى : شأن أمير المؤمنين شأن ليس فوقه شأن ، وكل شأن وإن عظم دونه ، لأنه به ومنه ، وعلى يديه وأمره .

قالوا : وحدثنا عبد الله بن شريح ، قال : بلغنى أن موسى لما نزل الحيرة عند قدومه من المغرب أتاه رجل من بنى أمية ، فقال له : يا موسى ، أنت ملك المغرب ، وأعلم الناس تخرج إلى الوليد ، وتعلم من سليمان ؟ فقال له موسى : يا بن أخى ، حسبك من قريش ، ثم من بنى أمية ما تعلم ، ألا ترى يا بن أخى أن الصبىّ يأخذ العظم فيعقفه[1] بحبل ، ثم ينصبه ويهيىء طريقاً ، ويضع فيه حبة برّ أو ذرة ، فينصب للهدهد العالم بما تحت الأرض ، فيستنفر[2] ، ثم تدفعه المقادير إلى الوقوع فيه ، فاحذر يا بن أخى أن تراك الشام أو تراها . فخرج موسى إلى الوليد بدمشق ، فمات الوليد ، واستخلف سليمان أخاه ، فلقى منه موسى ما ذكرنا ، وخرج القرشىّ إلى الشام ، فضربت عنقه .

ذكر قدوم موسى على الوليد

قال : وذكروا أن موسى لما قدم على الوليد ، وذلك يوم الجمعة ، فى حين جلوس الوليد ابن عبد الملك على المنبر ، وكان موسى قال لبعض من وفد معه ، بأن يلبس كل رجل من الأسرى تاجا ، وثياب ملك ذلك التاج ، ثم يدخلوا معه المسجد . قال : فألبس ثلاثين رجلا ثلاثين تاجا ، وهيأهم هيئة الملوك ، وأمر بأبناء ملوك البربر فهيئوا وأمر بأبناء ملوك الجزائر والروم فهيئوا كذلك ، ولبسوا التيجان ، وأمر بأبناء ملوك الأشبان[3] ، فهيئوا بمثل ذلك وأمر بالأموال والجوهر واللؤلؤ والياقوت والزبرجد والجزع والوطاء[4] والكساء المنسوج بالذهب والفضة ، المحرّش[5] باللؤلؤ والياقوت والزبرجد ، فوقف الجميع بباب الوليد ، وأبناء ملوك أفرنجة وأقبل موسى بالذين ألبسهم التيجان ، حتى دخل مسجد دمشق ، والوليد على المنبر ، يحمد الله وهو موهون[6] ، قد أثرت فيه العلة ، وأنهكه المرض وإنما كان متحملا

---

(١) يعقفه : يثنيه ويلويه .
(٢) يستنفر : يهرب .
(٣) الأشبان : الأسبان : وهم ملوك الأندلس .
(٤) الوطاء : الفرش اللين الثمين .
(٥) المحرش : الموضوع عليه اللؤلؤ وغيره بارزاً تلمس اليد خشونته .
(٦) موهون : ضعيف .

لأجل قدوم موسى ومن معه . فلما رآهم بهت إليهم ، وقال الناس : موسى ؟ موسى ، ثم أقبل حتى سلم على الوليد ، ووقف الثلاثون بالتيجان ، عن يمين المنبر وشماله ثم إن الوليد أخذ فى حمد الله تعالى والثناء عليه ، والشكر لما أيده الله ونصره ، فتكلم بكلام لم يسمع بمثله ، وأطال حتى فات وقت الجمعة ، ثم صلى بالناس فلما فرغ جلس ، ثم دعا بموسى ، فصبّ عليه الوليد الخلع ثلاث مرّات ، وأجازه بخمسين ألف دينار ، وفرض لولده جميعاً فى الشرف ، وفرض لخمس مئة من مواليه ، ثم أدخل عليه موسى ملوك البربر ، وملوك الروم ، وملوك الأشبان ، وملوك أفرنجة ، ثم أدخل عليه رءوس أهل البلاد ممن كان معه من قريش والعرب ، فأحسن جوائزهم ، وفرض لهم فى الشرف ، ثم أقام موسى عند الوليد أربعين يوما ، ثم إن الوليد هلك .

ذكر اختلاف الناقلين فى صنع سليمان بموسى

قالوا : لما استخلف سليمان بعد أخيه الوليد ، فكان أحنق الناس على الحجاج وموسى بن نصير ، وكان يحلف لئن ظفر بهما ليصلبنهما ، وكان حنقه عليهما لأمر يطول ذكره . قال : فأرسل سليمان إلى عمر بن عبد العزيز فأتاه ، فقال : إنى صالب غداً موسى بن نصير ، فبعث عمر إلى موسى فأتاه . فقال له يا بن نصير ، إني أحبك لأربع . الواحدة : بعد أثرك فى سبيل الله ، وجهادك لعدوّ الله . والثانية : حبك لآل محمد صلى الله عليه وسلم . والثالثة . حبك عياض بن عقبة لما تعلم من حسن رأيى فيه ، وكان عياض من عباد الله الصالحين ، والرابعة : أن لأبى عندك يداً وصنيعة ، وأنا أحبّ أن تتمّ يده وصنيعته حيث كانت ، وقد سمعت أمير المؤمنين يذكر أنه صالبك غدا ، فأحدث عهدك[1] ، وانظر فيما أنت فيه ناظر من أمرك . فقال له موسى : قد فعلت ، وأسندت ذلك إليك . فقال له عمر : لو قبلت ذلك من أحدقبلت منك ، ولكن أسند إلى من أحببت . فانصرف ، فلما أصبح اغتسل وتحنط وراح ، ولم يشكّ فى الصلب . فلما انتصف النهار ، واشتدّ الحرّ ، وذلك فى حمارّة الصيف : دعا سليمان موسى : فأدخل عليه متعباً ، وكان بادناً جسيما ، به نسمة لا تزال تعرض له[2] . فلما وقف بين يديه : شتمه وخوّفه وتوعده ، فقال له موسى : أما والله يأمير المؤمنين ما هذا بلائى ، ولاقدر

---

(١) أحدث عهدك : أكتب وصيتك حتى إذا مت كنت قد رتبت أمورك على ما تحب .
(٢) البادن : السمين كبير الجسم. والنسمة: الربو وقد مر ذكرها .

جزائى ، إنى لبعيد الأثر فى سبيل الله المظيم الغَناء عن المسلمين ، مع قُدْمة[١] آبائى مع آبائك ، ونصيحتى لهم . قال : فيقول له سليمان : كذبت ، قتلنى الله إن لم أقتلك . فلما أكثر على موسى قال له : أما والله لمن فى بطن الأرض أحبّ إلىّ ممن على ظهرها . فقال سليمان : ومن أولئك واستطير[٢] . فقال له موسى : مروان ، وعبد الملك والوليد أخوك ، وعبد العزيز عمك . قال : فكاد سليمان ينكسر . ثم يقول : قتلنى الله إن لم أقتلك . فيقول له موسى : ما أنت بفاعل يا أمير المؤمنين ؟ فيقول : ولم ؟ لا أمّ لك . فيقول له موسى : إنى لأرجو ألا يكرم موسى بهوان أمير المؤمنين وموسى حينئذ قائم فى الشمس ، فدارتفع نَفسه ، وعظم بُهْره[٣] ، ثم التفت سليمان إلى عمر بن عبد العزيز ، فقال : ما أرى يمينى إلا قد بَررت يا عمر[٤] . قال عمر : فاغتنمتها منه ، ولم أبال أن يحنث بإحياء رجل من المسلمين . فقلت : أجل يا أمير المؤمنين ، امرؤ كبرت سنه ، وكثر لحمه ، وبه نسمة وبهر وسقم . فما أراه إلا ميتا . قال : ثم التفت سليمان إلى جلسائه فقال : من يأخذ هذا الشيخ ، فيستخرج منه هذه الأموال ؟ فقال يزيد بن المهلب : أنا يا أمير المؤمنين قال : فخذه ولا تمسه ، وضع العذاب على ابنيه مروان ، وعبد الأعلى ، فخرج به يزيد فحمله على دابة ابنه ، ثم انصرف به إلى منزله ، فأكرمه وبرّه . وقال له : أطع أمرى ، وأجب أمير المؤمنين إلى مقاضاته عن نفسك وعن ابنيك ، وحملنى كل ما قاضيته عليه . فقال له موسى : أما إذا كنت أنت صاحب هذا الشأن ، فأنا غير مخبرك فيما ضمنت لأمير المؤمنين ، وايم الله لو أمر سواك بى ، وأمره بالبسط علىّ ، لكان أحبّ إلىّ أن ألقى الله عزّ وجلّ ، وأقرب إلىّ من أن يأخذوا منى دينارا واحدا ، ولكن أدّيا يا ابنىّ عن أنفسكما وعن أبيكما ، فقالا : نعم ، فغدا يزيد بن المهلب إلى سليمان ، فأعلمه بذلك ، وبرضا موسى بمقاضاته ، فأدخله سليمان عليه . فقال موسى : أرأيت لو لم أقاضك ما كنت فاعلا فقال سليمان : أضع العذاب عليك وعلى ابنيك حتى أبلغ ما أريد ، أو آتى على أنفسكم . فقال موسى : الآن طابت نفسك يا أمير المؤمنين فأعطنى أربع خصال ، وذلك ما دعوتنى إليه من هذا المال . فقال : وما هنّ ؟ قال : لا تعزل عبد الله بن موسى عن أفريقية وجميع عمله سنتين ، وأن كلّ ما جباه عبد الله بأفريقية ، وعبد العزيز بالأندلس ،

---

(١) القدمة : السابقة أى مع سابقة آبائى مع آبائك من حيث قيام آبائى بأعمال جليلة لآبائك .

(٢) استطير : ذعروخاف .

(٣) بهره : انقطاع نفسه من الإعياء والتعب .

(٤) برئت : أى نفذت يمينى وكان قد حلف ليصلبنه .

فهو لى فيما قاضيت عليه أمير المؤمنين ، وأن تدفع إلىّ طارقاً مولاى ، وأكون أملأ به عيناً وعياله . فقال له سليمان : أما ما سألت من إقرار عبد العزيز وعبدالله على مكانهما فذلك لك. وأما ما سألت من دفع طارق إليك فتكون أملأ عيناً به وعياله ، فليس هذا جزاء أهل النصيحة لأمير المؤمنين ، فلست بفاعل ، ولا مخلّ بينك وبين عقوبته ، ولا اخذ ماله ، فقاضاه موسى على مال ، فأجله فى ذلك ، وخلى سبيله .

نسخة القضية

هذا ما قاضى عليه عبد الله سليمان أمير المؤمنين موسى بن نصير، قاضاه على أربعة آلاف ألف دينار ، وثلاثين ألف دينار ، وخمسين ديناراً ذهباً طيبة وازنة يؤديها إلى أمير المؤمنين ، وقد قبض منها أمير المؤمنين مئة ألف ، وبقى على موسى سائر ذلك ، أجله أمير المؤمنين إلى سير رسول أمير المؤمنين إلى ابنى موسى الذى بالأندلس ، والذى بإفريقيـة ، يمكث شهراً بالأندلس ، وليس له أن يمكث وراء ذلك يوماً واحـداً ، حتى يقفل راجعاً بالمـال ، إلى ما كان من أفريقية وما دونها ، وليس لموسى أن يتكثر بشىء مما كان عليه من العمـل ، منذ استخلف الله أمير المؤمنين من ذمة أو فىء أو أمانة ، فهو لأمير المؤمنين يأخذه ويقتضيه، ولا يحسبه موسى من غرامته ، فإن أدّى موسى الذى سمى أمير المؤمنين فى كتابه هذا من المال،إلى ما قد سمى أمير المؤمنين من الأجل ، فقد برىء موسى وبنـوه وأهله ومواليه ، وليست عليهم تبعة ولا طلبة فى المال ولا فى العمل،يُنَفّرون حيث شاءوا ، وما كان قبض موسى أو بنوه من عمال موسى إلى قدوم رسـول أمير المؤمنين أفريقية ، فهو من الذى على موسى من المال ، يحسب له من الذى عليه ، ما لم يقبض قبل وصول رسول أمير المؤمنين ، فليس منه فى شىء ، وقد خلى أمير المؤمنين بين موسى وبين أهله ومواليه ، ليس له ظلم أحد منهم ، غير أن أمير المؤمنين لا يدفع إليه طارقاً مولاه ، ولا شـيئاً من الذى قد أباه عليه أوّل يوم .

شهد أيوب ابن أمير المؤمنين ، وداود بن أمير المؤمنين ، وعمر بن عبـد العزيز ، وعبد العزيز بن الوليد ، وسعيد بن خالد ، ويعيش بن سلامة ، وخالد بن الريان ، وعمر ابن عبد الله ، ويحيى بن سعيد ، وعبد الله بن سعيد . وكتبه جعفر بن عثمان فى جمادى سنة تسع وتسعين .

فلما تقاضيا أمر سليمان يزيد بن مهلب بتخلية موسى وابنيه ، والـكفّ عنه ، فأعانه

يزيد بن المهلب بمئة ألف دينار ، فأهدى إليه موسى حقاً فيه ثلاث خرزات ، فبعث بهنّ إلى ابن المهلب فقوّمهن ، فقوبلن بثلاث مئة ألف دينار . فقال ابن المهلب لموسى : أتدرى لم قلت لأمير المؤمنين أنا أضمه ؟ قال : لا ، قال : خفت أن يجيبه قبلى من لا يرى فيك ما أنا عليه لك ، وكانت لك يد عند المهلب رحمه الله . فأحببت أن أجزيك بها عنه ، وبالله لو لم تفعل وأبيت عن المقاضاة ما شاكتك عندى شوكة حتى لا يبقى لآل المهلب مال ولا ثوب . قال : فجزاه موسى خيراً .

ذكر يد موسى إلى المهلب

قال : وذكروا أن مخبراً أخبرهم من شيوخ الشام ممن أدرك القوم وصحبتهم قال : كانت اليد التى أسداها موسى إلى المهلب ، أن عبد الملك بن مروان لما ولّى العراق بشراً أخاه ، جعل منه موسى بن نصير وزيراً ومديراً لأمره ، وقد كانت الأزارقة أفسدت ما هنالك ، فأمر عبد الملك بشر بن مروان أن يولى المهلب قتالهم ، وكان بشر للمهلب مسيئاً ؛ فلما قدم بشر العراق ، وعلم المهلب برأيه ، اعتزل بشرا . فلم يأته ، فولى بشر بن مروان قتال الأزارقة ، الوليد بن خالد ، فانهزم وافتضح ، ثم ولى بشر رجلاً آخر ، فلم يصنع شيئاً ، فكتب عبد الملك إلى بشر أخيه ، يفند رأيه فيما صنع ، ويوبخه لما خالف أمره ، فصمم بشر على رأيه ؛ فلما استغلظ أمر الأزارقة ، استشار بشر بن مروان أسماء بن خارجة ، وعكرمة بن ربعى ، وموسى بن نصير فى أمر المهلب . فأما عكرمة وأسماء فوافقا هواه فيه ، وأما موسى فقال له : إن أمير المؤمنين لا يحتملك على المعصية ، وليس مثل المهلب فى فضله وشرفه ، وقدره فى قومه ومعرفته ، أقصيت أو جفوت ، فإن كان بلغك أمر يقال إنه أتاه ، فاكشفه عنه ، حتى تعلم عذره فيه أو ذنبه ، فلم يزل موسى يردّد أمر المهلب على بشر ، ويعطفه عليه ، بعد أن كان همّ بقتله إن ظفر به ، حتى أرسل إليه بشر فجاءه المهلب فتنصل إليه المهلب ، فقبل منه بشر ، وولاه ما كان يلى ، فبعث إليه موسى بخمسين فرساً وبمئة بعير . وقال له : استعن بها على حربك ، ثم لم يزل موسى قائماً بأمره عند بشر ، حتى هلك بشر .

قالوا : وأخبرنا محمد بن عبد الملك أن المهلب فى الأيام التى كان يخاف فيها بشر بن مروان على نفسه ، خرج إلى مال له ، فكان فيه وحده ، فأتى رجل إلى بشر وعنده موسى ، فقال له : إن كان لك أيها الأمير بالمهلب حاجة فابعث خيلاً إلى موضع كذا وكذا ، فإنه فيه فى غار وحده ، وليس معه فيه رجل من قومه . فبعث بشر خيلاً ، قال : فنهض من مجلسه موسى ، فوجه إليه غلاماً له ، ثم قال له : أنت حرّ لوجه الله ، إن أنت سبقت هذه الخيل حتى تنتهى

إلى موضع كذا وكذا ، فتأتى المهلب فتقول له : إن موسى يقول لك : النجاة بنفسك ، فخرج غلام موسى حتى انتهى إلى المهلب فأعلمه ، فاستوى على فرسه فذهب ، وأتت الخيل فلم تجد أحداً هناك ، فانصرفوا راجعين إلى بشر فأعلموه بذلك .

ذكر قتل عبد العزيز بن موسى بالأندلس

قال : وذكروا أن محمد بن عبد الملك أخبرهم قال : أقام موسى بن نصير مع سليمان ابن عبد الملك يطلب رضاه ، حتى رضى عنه ، وابنه عبد الله بن موسى على أفريقية وطنجة والسوس ، وابنه عبد العزيز على الأندلس كما هو ، فلما بلغ عبد العزيز الذى فعل سليمان بأبيه موسى تكلم بكلام خفيف حملته عليه حمية لما صنع بأبيه على حسن بلائه ، فنميت إلى سليمان ، فخاف سليمان أن يخلع ، فكتب إلى حبيب بن أبى عبيدة ، وابن وعلة التميمى ، وسعد بن عثمان ابن ياسر ، وعمرو بن زياد اليحصبى ، وعمر بن كثير ، وعمرو بن شرحبيل ، كتب إلى كل رجل منهم كتاباً يعلمه بالذى بلغه عن عبد العزيز بن موسى ، وما همّ به من الخلع ، وأنه قد كتب إلى عبد الله بن موسى يأمره بإشخاصهم إلى عبد العزيز ، وأعلمه إنما دعاه إلى ذلك الذى أحبّ من مكانفتكم ، لأنه بإزاء العدوّ ، وأعطاهم العهود ، أن من قتله منهم فهو أمير مكانه . وكتب إلى عبد الله بن موسى : إنى نظرت فإذا عبد العزيز بإزاء عدوّ يحتاج فيه إلى الغناء والبلاء . فسأل أمير المؤمنين فأخبر أن معك رجالا ، منهم فلان وفلان ، فأشخصهم إلى عبد العزيز بن موسى ، وكتب سليمان إلى عبد العزيز : أما بعد ، فإن أمير المؤمنين علم ما أنت بسبيله من العدوّ ، وحاجتك إلى الرجال أهل النكاية والغناء ، فذكر له أن بأفريقية رجالا منهم ، فكتب أمير المؤمنين إلى عبد الله بن موسى يأمره بإشخاصهم إليك ، فولهم أطرافك وثغورك ، واجعلهم أهل خاصتك . وكتب إليهم سليمان : إنى قد بعثت لكم بكتاب إلى أهل الأندلس بالسمع والطاعة لكم ، والعدر فى قتله ، فإذا ولاكم أطرافه فأقرّوا عهدى على من قبلكم من المسلمين ، ثم ارجعوا إليه حتى تقتلوه . فلما قدم الكتاب على عبد الله بن موسى بأفريقية ، أشخص القوم ، فخرجوا حتى قدموا على عبد العزيز بالأندلس بكتاب سليمان فى إلطافهم وأكرامهم ، فقرّبهم عبد العزيز وأكرمهم وحياهم ، وقال لهم . اختاروا أىّ نواحىّ وثغورى شئتم ، فضربوا الرأى فقالوا : إنكم إن فعلتم ما أنتم فاعلون ، ثم رجعتم إليه من أطرافه ، لم نأمن أن يحيل معه عظم الناس ، فإن فى يديه الأموال والقوّة ، من مواليه وغيرهم ولكن أعملوا رأيكم فى الفتك به . قالوا : فإن هاهنا رجلا إن دخل معنا استقام لنا الأمر ، ووصلنا إلى ما أردنا ، وهو أيوب بن حبيب بن أخت موسى . قال : فلقوه ودعوه إلى أنه

إن قتله فهو مكانه ، فقبل وبايعوه على ذلك ، ثم إنهم أتوا عبد الله بن عبد الرحمن الغافقي ، وكان سيد أهل الأندلس صلاحاً وفضلا فأعلموه ، ثم أقرءوه كتاب سليمان . فقال لهم : قد علمتم يد موسى عند جميعكم ، صغيركم وكبيركم ، وإنما بلغ أمير المؤمنين أمر كذب عليه فيه ، والرجل لم ينزع يداً من الطاعة ، ولم يخالف فيستوجب القتل وأنتم ترون وأمير المؤمنين لا يرى ، فأطيعوني ودعوا هذا الأمر ، فأبوا ، ومضوا على رأيهم ، فأجمعوا على قتله ، فوقفوا له . فلما خرج لصلاة الصبح ، ودخل القبلة وأحرم ، وقرأ بأم القرآن الكريم ، واستفتح (إذا وقعت الواقعة) ضربه حبيب بن أبي عبيدة ضربة ، فدهش ولم يصنع شيئاً ، فقطع عبد العزيز الصلاة وخرج ، وتبعوه فقتله ابن وعلة التميمي ، وأصبح الناس ، فأعظموا ذلك، فأخرجوا كتاب سليمان بذلك ، فلم يقبله أهل الأندلس ، وولوا عليهم عبد الله بن عبد الرحمن الغافقي ، ووفد حبيب بن أبي عبيدة برأس عبد العزيز ابن موسى رحمهما الله .

قدوم رأس عبد العزيز بن موسى على سليمان

قال : وذكروا أن سليمان لما ظن أن القوم قد دخلوا الأندلس ، وفعلوا ما كتب به إليهم ، عزل عبد الله بن موسى عن أفريقية وطنجة والسوس ، في آخر سنة ثمان وتسعين في ذي الحجة ، وأقبل هؤلاء حتى قدموا على سليمان ، وموسى بن نصير لا يشعر بقتل عبد العزيز ابنه . فلما دخلوا على سليمان ، ووضع الرأس بين يديه ، بعث إلى موسى ، فأتاه ، فلما جلس وراء القوم . قال له سليمان : أتعرف هذا الرأس يا موسى ؟ فقال : نعم هذا رأس عبد العزيز بن موسى ، فقام الوفد فتكلموا بما تكلموا به . ثم إن موسى قام فحمد الله ، ثم قال : وهذا رأس عبد العزيز بين يديك يا أمير المؤمنين ، فرحمة الله تعالى عليه ، فلعمر الله ما علمته نهاره إلا صواماً ، وليله إلا قواماً ، شديد الحب لله ولرسوله ، بعيد الأثر في سبيله ، حسن الطاعة لأمير المؤمنين ، شديد الرأفة بمن وليه من المسلمين ، فإن يك عبد العزيز قضى نحبه ، فغفر الله له ذنبه ، فوالله ما كان بالحياة شحيحاً ، ولا من الموت هائباً ، وليعز على عبد الملك وعبد العزيز والوليد أن يصرعوه هذا المصرع ، ويفعلوا به ما أراك تفعل ، ولهو كان أغظم رغبة فيه ، وأعلم بنصيحة أبيه ، أن يسمعوا فيه كاذبات الأقاويل ، ويفعلوا به هذه الأفاعيل . فرد سليمان عليه قال : بل ابنك المارق من الدين ، والشاق عصا المسلمين ، المنابذ لأمير المؤمنين ، فهلا أيها الشيخ الخرف . فقال موسى : والله مابي من خرف،

ولا أنا من الحقّ بذى جنف[1] ولن تردّ محاورة الـكلام مواضع الحِمام[2]،وأنا أقول كما قال العبد الصالح[3] . (فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون) قال : ثم قال موسى : أفتأذن فى رأسه يا أمير المؤمنين ؟ واغرورقت عيناه ، فقال له سليمان : نعم ، فخذه ، فقام موسى فأخذه ، وجعله فى طرف قميصه الذى كان عليه ، ثم أدير فى السماطين[4] ، فوقع الطرف الآخر عن منكبيه ، وهو يجره لا يحفل به ولا يرفعه . فقال له خالد بن الريان : ارفع ثوبك يابن نصير ، فالتفت موسى وقال : ما أنت وذاك يا خالد . قال سليمان : دعه ، حسبه ما فعلنا به : فلما توارى موسى قال سليمان : دعه إن فى الشيخ لبقية بعد . ثم إن موسى التفت إلى حبيب بن أبى عبيدة فـكلمه بكلام غليظ حتى ذكر أمراً خفياً من نسبه فأفحمه ثم إن سليمان كشف عن أمر عبد العزيز ، فألفى ذلك باطلا ، وأن عبد العزيز لم يزل صحيح الطاعة ، مستقيم الطريقة ، فلما تحقق عند سليمان باطل ما رفع إليه عن عبد العزيز ندم ، وأمر بالوفد فأخرجوا ، ولم ينظر فى شئ من حوائجهم ، وأهدر عن موسى بقية القضية ، التى كان سليمان قاضاه عليها ، وكان سليمان قد آلى قبل خلافته ، لئن ظفر بالحجاج بن يوسف وموسى بن نصير ليعزلنهما ، ثم لايليان معه من أمور الناس شيئاً. فلما رضى عن موسى جعل يقول : ما ندمت على شئ ندامتى ، أن لا كنت خلواً من اليمين على موسى فى أن لا أوليه شيئاً ، ما مثل موسى أستغنى عنه .

قال : وإن موسى دخل على سليمان فى آخر يوم من شعبان عنـــد المغرب ، وهو مستشرف على سطح وعنده الناس . فلما رآه سليمان قال : عندكم والله من إن سألتموه عن الهلال ليخبرنـكم أنه قد رآه وقد غمّ الهلال يومئذ على سليمان والناس . فلما دنا موسى وسلم قال له سليمان أرأيت الهلال بعد يا موسى ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ها هو ذاك ، وأشار بأصبعه إلى ناحية ، وهو مقبل على سليمان بوجهه ، فرمى الناس بأبصارهم حيث أشار موسى ، فأبصروا الهلال فلما جلس موسى قال إنى والله لست بأحدّكم بصراً ، ولـكنى أعلمـكم بمطالعه ومناسقه[5] . وقال : فخرج فلقيه يزيد بن المهلب ، فقال له : يا أبا عبد الرحمن ،

---

(١) الجنف : البعد
(٢) الحمام بكسر الحاء : الموت .
(٣) العبد الصالح: يعقوب أبو يوسف عليهما السلام قالها بعد أن أخبره إخوة يوسف بما حدث ليوسف
(٤) السماطان : الثوبان اللذين تحت القميص .
(٥) مناسقة : طرقة ومساراته .

بينا أنت أدهى الناس وأعلمهم ، أقبلت تسوق نفسك حتى تضعها فى يد سليمان : فقال له موسى : أما علمت يا أبا خالد ، أن الهدهد يهتدى إلى الماء ويعرفه من الأرض القضاء ومن الحزونة والسهل ، ويبصر القريب منه والبعيد ، ثم ينصب له الصبىّ الفخّ بالدودة وما أشبهها ، فلا يبصر ذلك حتى يقع فيه فيؤخذ ؟ وذلك أنه لا حذر ينجى من قدر ، ولا رأى ولا بصر ، وكذلك كنت وسليمان بن عبد الملك .

قال : وذكروا أن سليمان خرج يوماً إلى بعض أمواله متنزّها فخرج معه موسى بن نصير ، فعرضت عليهم غنم حلب ، نحو من ألف رأس ، فأعجب سليمان ما رأى منها، والتفت إلى موسى، فقال له : هل رأيت مثلها قط ؟ قال : نعم ، إن لأدنى موالىّ لأصنافاً كثيرة ، فالتفت إليه سليمان ، وقال له : أدنى مواليك ؟ قال : نعم فردّدها سليمان كالمغضب عليه . قال موسى : نعم يا أمير المؤمنين ، وما هذا فيما أفاء الله عزّ وجلّ على يدى ، لقد كانت الألف تباع بعشرة دراهم أو دونها ، ولقد كانت فى بعض المواطن وما لها قيمة ، ولا يلتفت إليها أحد يا أمير المؤمنين ، ولغير ذلك مما أفاء الله عليهم ، ولقد رأيت العلج العتل[1] ، والوصيف الفاره[2] ، والجارية الحسناء ، وإن أكثر ما تبلغ خمسين درهماً ، لكثرة ذلك من صنوفه كلها . ولقد رأيت الذود[3] من الإبل ، لا تبلغ قيمته عشرين درهماً ، أكثير يا أمير المؤمنين ما أعلمتك فيما تسمع ؟ قال سليمان : لا ، وحمَد الله .

قال : وذكروا أن موسى دخل على سليمان يوماً وعنده الناس ، فلما رآه سليمان قال : ذهب سلطان الشيخ ، وأبصره موسى حين تكلم ، فلم يفهم ما قال فلما سلم قال : يا أمير المؤمنين رأيتك لما نظرتنى داخلا تكلمت بكلام ظننتك عنيتنى به . قال : نعم . قلت : ذهب سلطان الشيخ . قال له موسى : أما والله لئن ذهب سلطان الشيخ لقد أثر الله به فى دينه أثراً حسنا ، ولقد كنت طويل الجهاد فى الله حريصاً على إظهار دين الله ، حتى أظهره الله ، وكنت ممن أتمّ الله به موعده لنبيه ، ولئن أدبر معك ، لقد كان مع آبائك ناضر الغصن ، ميمون الطائر ،

---

(١) العلج : الرجل الكافر من الأعاجم ، والعتل: الجافى الغليظ القوىّ : يريد من العبيد الذين أسرهم جيش موسى وكانو يباعون فى هذا الزمان .

(٢) الوصيف : الخادم ، والفاره : الحاذق الماهر القوىّ .

(٣) الذود : من الثلاثة إلى العشرة من الجمال وقيل إلى ثلاثين .

فقال سليمان : هو ذاك . فقال موسى : وهو ذاك ، فلم يزل يردّدها سليمان ، ويردّدها موسى حتى سكت سليمان .

سؤال سليمان بن عبد الملك موسى عن أخباره وأفعاله

قال : وذكروا أن سليمان قال لموسى : ما الذى كنت تفزع إليه فى مكان حربك من أمور عدوّك ؟ قال : التوكل ، والدعاء إلى الله يا أمير المؤمنين . قال له سليمان : هل كنت تمتنع فى الحصون والخنادق ، أو كنت تخندق حولك ؟ قال : كلّ هذا لم أفعله . قال : فما كنت تفعل ؟ قال : كنت أنزل السهل ، وأستشعر الخوف والصبر ، وأتحصن بالسيف والمغفر ، وأستعين بالله ، وأرغب إليه فى النصر . قال له سليمان : فمن كان من العرب فرسانك ؟ قال حمير . قال : فأىّ الخيل رأيت فى تلك البلاد أصبر ؟ قال شقرها . قال : فأىّ الأمم كانوا أشدّ قتالا ؟ قال : إنهم يا أمير المؤمنين أكثر مما أصفهم . قال له : أخبرنى عن الروم . قال : أسود فى حصونهم ، عقبان على[1] خيولهم ، نساء فى مواكبهم[2] إن رأوا فرصة افترصوها ، وإن خافوا غلبة فأوعال[3]، ترقل فى أجبال ، لا يرون عاراً فى هزيمة تكون لهم منجاة . قال : فأخبرنى عن البربر . قال : هم يا أمير المؤمنين أشبه العجم بالعرب : لقاء ونجدة ، وصبراً وفروسية ، وسماحة وبادية ، غير أنهم يا أمير المؤمنين غدُر . قال : فأخبرنى عن الأشبان، قال : ملوك مترفون ، وفرسان لا يجبنون . قال : فأخبرنى عن الإفرنج . قال : هناك يا أمير المؤمنين العدد والعدّة ، والجلد والشدّة وبين ذلك أمم كثيرة ، ومنهم العزيز ، ومنهم الذليل ، وكلا قد لقيت بشكله ، فمنهم المصالح ، ومنهم المحارب المقهور ، والعزيز البذوخ[4] . قال : فأخبرنى كيف كانت الحرب بينك وبينهم ، أكانت عقبا[5] ؟ قال : لا يا أمير المؤمنين ، ما هزمت لى راية قط ، ولا فضّ لى جمع ، ولا نكب المسلمون معى نكبة ، منذ اقتحمت

---

(١) العقبان : جمع عقاب وهو طائر سريع الطيران يريد أنهم سريعو الجرى على خيولهم كأنهم يطيرون كالعقبان .

(٢) يتجملون كالنساء .

(٣) الأوعال جمع وعل وهو تيس الجبل ، وترقل : تسرع ، والأجبال: الجبال، والمراد أنهم سريعو الهرب إذا خافوا فروا سراعا .

(٤) البذوخ : المتكبر .

(٥) أى كانت معاقبة تنتصر وتهزم .

الأربعين ، إلى أن شارفت الثمانين . قال : فضحك سليمان وقال : فأين الراية التى حملتها يوم مرج راهط[1] مع الضحاك ؟ قال : تلك يا أمير المؤمنين زبيرية ، وإنما عنيت المروانية . فقال: صدقت ، وأعجبه قوله .

وذكروا أن محمد بن عبد الملك حدثهم عن ريان بن عبد العزيز بن مروان قال : إنا لجلوس عند سليمان وهو على سطح فسيح ، والناس يدخلون حتى دخل موسى من الباب ، فتحرك بنا سقف السطح من شدة وطئه ، فسلم ثم جلس ، فذكر سليمان بيت الذهب الذى فتحه قتيبة بن مسلم ، فجعل يردد فيه . فقال له موسى : وما هذا يا أمير المؤمنين ؟ بيت لا يكون فيه عشرة آلاف دينار ، والله لقد بعثت إلى أخيك الوليد بتور من زمرد أخضر ، يصب فيه اللبن فيخضر وإنه لمن أدنى ما بعثت به إليه . ولقد أصبت كذا وكذا ، وأصاب المسلمون كذا وكذا ، وجعل يحدث سليمان بالعجائب . قال ريان : حتى والله أبهته . ولم يزل موسى بباب سليمان عظيم المنزلة عنده . فلما كانت سنة ثمان وتسعين تجهز سليمان للحج ، وأمر موسى بالشخوص والحج معه ، فذكر له أنه ضعيف ، فأمر له سليمان بثلاثين نجيبا موقوره[2] جهازا ، وبمحيرة من حبره وجائزة ، فحج سليمان ، وحج معه موسى ؛ فبينما هو يسير يوماً إذ دعا بموسى ، فناداه خالد بن الريان ، وكان موسى يساير رجلا ، فلم يلتفت موسى إلى ندائه ، ثم دعا به ، فناداه خالد أيضاً ، فلم يلتفت إليه . فقال له الرجل : غفر الله لك ، ألم تسمع دعاء أمير المؤمنين ؟ إنى أخافه وأخاف أن يغضب . فقال موسى : ذاك لو كان عبد الملك أو الوليد . فأما هذا فإنه يرضيه ما يرضى الصبى ، ويسخطه ما يسخطه ، وسترى ذلك . ثم تقدم موسى حتى لحق ولصق بسليمان . فقال له : أين كنت يابن نصير ؟ فقال له: يا أمير المؤمنين أين دوابنا من دوابك ؟ إنى لمنذ دعانى أمير المؤمنين لفى كد ، حتى لحقت أمير المؤمنين ، فضحك سليمان وأمر له بدواب من مراكبه ، فسايره وحادثه ، ثم انصرف عنه ، فلحق الرجل به . فقال له موسى : كيف رأيت ؟ قال : أنت كنت به أعلم ، فسار سليمان حتى نزل المدينة فى دار يزيد بن رومان .

---

(١) مرج راهط: موضع بالشام كانت فيه موقعة بين أتباع عبد الله بن الزبير وأتباع الأمويين هزم فيها الزبيريون ، وكان الضحاك بن قيس قائد الزبيريين فيها وكان موسى بن نصير تحت قيادة الضحاك : يقول سليمان لموسى كيف تقول لم تهزم لك راية وقد هزمت فى موقعة مرج راهط ؟ فقال له إنما كنت يومها مع الزبيريين لا مع الأمويين .

(٢) موقورة : محملة .

قال : فحدثني بعض أهل المدينة ، أن موسى قال يوماً لبعض من يثق به ليموتنّ إلى يومين رجل قد بلغ ذكره المشرق والمغرب ، فلم نظنّ إلا أنه يعني الخليفة ، فلما كان اليوم الثاني ، لم أشعر وأنا في مسجد الرسول ، حتى سمعت الناس يقولون: مات موسى بن نصير،فإذا هو[1]، وصلي سليمان عليه ، ودفن رحمه الله .

وذكروا أن عبد الله بن صخرأخبرهم قال : بينما موسى يسير يوماً على دابة له ، وكان طويلا جسيما ، فمرّ به رجلان من قريش : وقد تدلت رجلاه وأنحنتا ، وهما لا يعرفانه . فقالا أدبر والله الشيخ ، فسمعهما موسى ، فقال لهما : من أنتما ؟ فانتسبا له . فقال : أما والله إن أبيكما لما أفاء الله على يدى هذا الشيخ : فأهداها إلى أبويكما . ، فقالا له : ومن أنت يرحمك الله ؟ قال : موسى بن نصير ، فقالا ، فمرحباً وأهلا ، صدقت وبررت ، والله ما عرفناك : فقال : لا عليكما ، قد والله أدبر عني وبقي مني .

وذكروا أن إبراهيم بن سليمان أخبرهم عمن حدثه عن موسى ، أن الناس قحطوا بأفريقية عاما ، فخرج موسى بالناس فاستسقى ، فأمر رجلا فقص على الناس ورققهم ، فجعل يذكر ، ثم إنه انتحى فى الدعاء للوليد بن عبد الملك فأكثر . فأرسل إليه موسى : إنا لم نأت هاهنا للدعاء للوليد ، فأقبل على ماله جئنا فعدنا ، فلم يلتفت ، ورجا أن يبلغ الوليد ، فأمر به فسحب ، حتى خرج من الناس ، ثم قام موسى ودعا بالناس ، فما برحنا حتى انصبت السماء بمثل القرب ، فأتى موسى بدابة من دوابه . فقال : والله لاركبت ، ولكن أخوض الطين ، وانصرف ماشياً ، ، ومشى الناس ، فسمعته يومئذ يردّد فى دعائه : اللهم الشهادة فى سبيلك ، أو موتا فى مدينة رسولك .

قال فذكروا أن عرفة بن عكرمة حدثهم عن مشايخ من مراد عن رجل منهم كان مع موسى بالأندلس قال : كنت أبصر من مجارى الشمس والقمر شيئاً ، فوقع فيّ عند موسى ، وقيل له عنده علم ، فوالله ماشعرت حتى أتيت فأخذت ، فأدخلت عليه ، فإذا بين يديه عصفور مذبوح ، مشقوق البطن قال لى : أدخل يدك فانظر . قلت : أصلح الله الأمير : طلقت امرأته ألبتة إن كان يعلم قليلا أو كثيرا ، إلا ما يعلم الناس من مجارى الشمس والقمر . قال : فأمر بى فنحيت ، ثم دعا برجل من الأعاجم ، قال : أدخل يدك ، فانظرماذا ترى ، وكان من الأسارى ، فأدخل يده فى جوف العصفور ، فحرّكه طويلا ، ثم قلبه ، ثم قال للترجمان بلسانه : إنه ليس يموت ها هنا ، ولكنه يموت بالمشرق فى بلاد العرب ، فنظرإليه موسى ، ثم قال له : قاتلك الله ما أعلمك ، قال : ثم أمر به فقتل ، ثم دعانى ، فأخذ عليّ الأيمان أن لا أتكلم به ما بقى ،

(١) يعنى فإذا الذى عناه موسى بالرجل الذى بلغ ذكره المشرق والمغرب هو نفسه .

ففعلت . وكان دخول موسى المغرب سنة تسع وسبعين ، فى جمادى الأولى ، وكان يومئذ ابن ستين سنة ، فأقام بأفريقية ستّ عشرة سنة ، وقفل منها سنة خمس وتسعين ، ومات سنة ثمان وتسعين ، وولى عبد الله بن موسى بأفريقية وطنجة والسوس ، بعد موسى أبيه سنتين ، وكان عزله عنها فى ذى الحجة ، سنة سبع وتسعين ، وقيل سنة تسع وتسعين .

ذكر ولاة الأندلس بعد موسى بن نصير

قال : وذكروا أن عبد العزيز بن موسى ولى الأندلس بعد أبيه سنة ، ثم قتل ، وولى بعده أيوب بن حبيب ستة أشهر ، ثم الحارث بن عبد الرحمن ثلاث سنين ونصفا ، ثم عنبسة سنتين وتسعة أشهر، ثم يحيى بن سلمة سنة وثلاثة أشهر، ثم الهيثم بن عبيد سنة وشهرين ، ثم عبدالرحمن ابن عبد الله الغافقى أربع سنين ، ثم عبد الملك بن قطن الفهرى أيضاً سنة ، ثم بلج بن بشر القشيرى ستة أشهر ، ثم ثعلبة بن سلامة الجذامى خمسة أشهر، ثم أبو الخطار بن ضرار الكلبى ثلاث سنين ، ثم ثوابة بن مسلمة سنة وشهرا .

فلما وهن سلطان بنى أمية بالمشرق ، ولوا على أنفسهم يوسف بن عبد الرحمن القرشى الفهرى ، من غيرعهد من الخليفة ، فملك الأندلس عشرسنين ، إلى أن دخل عليه عبد الرحمن ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان .

ذكر حج سليمان مع عمر بن عبد العزيز

وذكروا أن عبيد الله بن عبد المؤمن أخبرهم عن رجاء بن حيوة : أنه لما حج سليمان بن عبد الملك ، ومعه عمر بن عبد العزيز ، وذلك فى سنة ثمان وتسعين فلما انتهى إلى عقبة عسفان ، نظر سليمان إلى السرادقات ، قد ضربت له ما بين أحمر وأخضر وأصفر ، وكان يوسف بن عمر قد عمل له باليمن ثلاثة سرادقات ، فكانت تضرب له ، وكان الذى منها للناس من خز أخضر ، والذى يليه من خز أصفر ، ثم الذى يكون هو فيه من وشى أحمر ، حبر من حبرات[1] اليمن ، مزرر بالذهب والفضة[2] ، وفى داخله فسطاط[3] ، فيه أربعة أفرشة من

---

(١) الحبرات : نوع من برود اليمن أى من ثياب اليمن جميل الشكل.
(٢) مزرّر بالذهب والفضة : أى جعلت العواميد التى نصب عليها من الذهب والفضه .
(٣) الفسطاط : الخيمة.

خز[1] أحمر ، مرافقها من وشي[2] أصفر ، وضربت حجب نسائه من وراء فسطاطه ، وحجر بليه وكتابه وحشمه قرب ذلك . فلما استوى سليمان فى قبة العقبة ، ونظر إلى ما نصب له . قال : يا عمر ، كيف ترى ها هنا ؟ قال : أرى دنيا عريضة ، يأكل بعضها بعضاً ، أنت المسئول عنها ، والمأخوذ بها ، فبينما هما كذلك ، إذ طار غراب من سرادق سليمان ، فى منقاره كسرة ، فصاح الغراب . فقال سليمان : ما يقول هذا الغراب يا عمر ؟ قال عمر : ما أدرى ، ولكن إن شئت أخبرتك بعلم . قال سليمان : أخبرنى . فقال عمر : هذا غراب طار من سرادقك بكسرة ، هو يأكلها ، وأنت المأخوذ بها ، والمسئول عنها من أين دخلت ، وأين خرجت ؟ قال سليمان : إنك لتجيء بالعجائب يا أبا حفص . فقال عمر : أفلا أخبرك بأعجب من هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : أخبرنى . قال من عرف الله تعالى كيف يعصاه ، ومن عرف الشيطان كيف يطيعه ، ومن أيقن بالموت كيف يهنيه العيش ويسوغ له الطعام ، ومن أيقن بالنار كيف يضحك ! فقال سليمان : نغصت علينا ما نحن فيه يا أبا حفص ، ومن يطيق ما تطيق أنت يا عمر ؟ أنت والله الموفق المطيع .

ما قال طاووس اليمانى لسليمان بمكة

قالوا : إن إبراهيم بن مسلم أخبرهم عن رجاء بن حيوة ، أنه نظر إلى طاووس اليمانى يصلى فى المسجد الحرام ، فانصرف رجاء إلى سليمان بن عبد الملك وهو يومئذ بمكة قد حجّ ذلك العام . فقال : إنى رأيت طاووس فى المسجد ، فهل لك أن ترسل إليه ؟ قال : فأرسل إليه سليمان . فلما أتاه قال رجاء لسليمان : يا أمير المؤمنين ، لا تسأله عن شيء حتى يكون هو الذى يتكلم . فلما قعد طاووس سكت طويلا . ثم قال : ما أول شيء خلق ؟ فقلنا : لا ندرى. فقال أوّل شيء خلق : القلم . ثم قال : أتدرون ما أوّل شيء كتب ؟ قلنا : لا ، قال: فإن أوّل ما كتب بسم الله الرحمن الرحيم ، ثم كتب القدر خيره وشرّه إلى يوم القيامة . ثم قال : أتعلمون من أبغض الخلق إلى الله ؟ قلنا : لا ، فقال : إن أبغض الخلق إلى الله تعالى عبد أشركه الله فى سلطانه ، فعمل فيه بمعاصيه ، ثم نهض . قال رجاء : فأظلم علىّ البيت ، فما زلت خائفاً عليه حتى توارى ، فرأيت سليمان يحكّ رأسه بيده ، حتى خشيت أن تجرح أظفاره لحم رأسه .

---

(١) الخز : الحرير.
(٢) الوشى : المنقوش من الثياب أو القماش المزركش.

ما قال أبو حازم لسليمان

قالوا : وإن يحيى بن المغيرة أخبرهم عن عبد الجبار بن عبد العزيز بن أبى حازم ، قال : لما حجّ سليمان ،ودخل المدينة زائراً لقبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعه ابن شهاب الزهرى ورجاء بن حيوة ، فأقام بها ثلاثة أيام ، فقال : أما هاهنا رجل ممن أدرك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقيل له : بلى هاهنا رجل يقال له أبو حازم ، فبعث إليه ، فجاءه ، وهو أقور[1] أعرج ، فدخل عليه ، فوقف منتظراً للإذن . فلما طال عليه الإذن : وضع عُصيّته ثم جلس . فلما نظر إليه سليمان : ازدرته عينه . فقال له يا أبا حازم . ما هذا الجفاء الذى ظهر منك ، وأنت توصف برؤية أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع فضل ودين تذكر به ؟ فقال أبو حازم : وأىّ جفاء رأيت منى يا أمير المؤمنين ؟ فقال سليمان : إنه أتانى وجوه أهل المدينة وعلماؤها وخيارها ، وأنت معدود فيهم ولم تأتنى . فقال أبو حازم : أعيذك بالله أن تقول ما لم يكن ، ماجرى بينى وبينك معرفة آتيك عليها . قال سليمان : صدق الشيخ ، فقال يا أبا حازم : مالنا نكره الموت ؟ فقال أبو حازم : لأنكم أخربتم آخرتكم ، وعمرتم دنياكم ، فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب . قال سليمان : صدقت يا أبا حازم . فكيف القدوم على الآخرة ؟ قال : نعم ، أما المحسن فإنه يقدم على الآخرة كالغائب يقدم على أهله من سفر بعيد . وأما قدوم المسىء فكالعبد الآبق ، يؤخذ فيشد كتافه ، فيؤتى به إلى سيد فظ غليظ ، فإن شاء عفا ، وإن شاء عذّب . فبكى سليمان بكاء شديدا ، وبكى من حوله . ثم قال : ليت شعرى مالنا عند الله يا أبا حازم ؟ فقال : اعرض نفسك على كتاب الله ، فإنك تعلم ما لك عند الله . قال سليمان : يا أبا حازم ، وأين أصيب تلك المعرفة فى كتاب الله ، قال عند قوله تعالى : (إن الأبرار لفى نعيم ،وإن الفجار لفى جحيم) . قال سليمان : يا أبا حازم، فأين رحمة الله ؟ قال : رحمة الله قريب من المحسنين، قال سليمان: يا أبا حازم من أعقل الناس ؟ قال أبو حازم:أعقل الناس من تعلم العلم والحكمة وعلمهما الناس .قال سليمان : فمن أحمق الناس ؟ فقال : من حطّ فى هوى رجل وهو ظالم ، فباع آخرته بدنيا غيره . قال سليمان : فما أسمع الدعاء ؟ قال أبو حازم : دعاء المخبتين[2] الخائفين . فقال سليمان : فما أزكى الصدقة عندالله ؟ قال:جُهد المقل[3] قال : فما تقول فيما ابتلينا به ؟ قال : أعفنا عن هذا وعن الكلام فيه أصلحك الله،

---

(١) أقور : أعور.
(٢) المخبتين : الخاضعين لله المتوكلين عليه.
(٣) أى صدقة الرجل الذى ليس بغنى ويتصدق بما يسمح به دخله.

قال سليمان : نصيحة تلقيها . فقال : ما أقول فى سلطان استولى عنوة بلا مشورة من المؤمنين ، ولا اجتماع من المسلمين ؟ فسفكت فيه الدماء الحرام ، وقطعت به الأرحام ، وعطلت به الحدود ، ونكثت به العهود ، وكل ذلك على تنفيذ الطينة (١) ، والجمع لمتاع الدنيا المشينة ، ثم لم يلبثوا أن ارتحلوا عنها ، فياليت شعرى ما تقولون ؟ وماذا يقال لكم ؟ فقال بعض جلسائه : بئس ما قلت يا أقور (٢) ، أمير المؤمنين يستقبل بهذا ؟ فقال أبو حازم : اسكت يا كاذب ، فإنما أهلك فرعون هامان ، وهامان فرعون ، إن الله قد أخذ على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه : أى لا ينبذونه وراء ظهورهم . قال سليمان : يا أبا حازم : كيف لنا أن نصلح ما فسد منا ؟ فقال : المأخذ فى ذلك قريب يسير يا أمير المؤمنين ، فاستوى سليمان جالساً من اتكائه . فقال : كيف ذلك ؟ فقال : تأخذ المال من حله ، وتضعه فى أهله ، وتكف الأكف عما نهيت ، وتمضيها فيما أمرت به. قال سليمان : ومن يطيق ذلك ؟ فقال أبو حازم : من هرب من النار إلى الجنة ، ونبذ سوء العادة إلى خير العبادة . فقال سليمان : اصحبنا يا أبا حازم ، وتوجه معنا تصب منا ونصب منك . قال أبو حازم : أعوذ بالله من ذلك ، قال سليمان : ولم يا أبا حازم ؟ قال : أخاف أن أركن إلى الذين ظلموا ، فيذيقنى الله ضعف الحياة ، وضعف الماة . فقال سليمان : فتزورنا . قال أبو حازم : إنا عهدنا الملوك يأتون العلماء ولم يكن العلماء يأتون الملوك، فصار فى ذلك صلاح الفريقين، ثم صرنا الآن فى زمان صار العلماء يأتون الملوك ، والملوك تقعد عن العلماء ، فصار فى ذلك فساد الفريقين جميعاً . قال سليمان : فأوصنا يا أبا حازم وأوجز . قال : اتق الله ألا يراك حيث نهاك ، ولا يفقدك من حيث أمرك . قال سليمان : ادع لنا بخير . فقال أبو حازم : اللهمّ إن كان سليمان وليك فبشره بخير الدنيا والآخرة ، وإن كان عدوك فخذ إلى الخير بناصيته . قال سليمان : زدنى . قال : قد أوجزت ، فإن كنت وليه فاغتبط ، وإن كنت عدوّه فاتعظ ، فإن رحمته فى الدنيا مباحة ، ولا يكتبها فى الآخرة إلا لمن اتقى فى الدنيا ، فلا تقع فى قوس ترمى بلا وتر : فقال سليمان : هات يا غلام ألف دينار ، فأتاه بها ، فقال خذها يا أبا حازم . فقال : لا حاجة لى بها ، لأنى وغيرى فى هذا المال سواء ، فإن سوّيت بيننا وعدلت أخذت ، وإلا فلا ، لأنى أخاف أن يكون ثمناً لما سمعت من كلامى . وإن موسى بن عمران عليه السلام لما هرب من فرعون ورد ماء مدين،

---

(١) الطينة : الطبيعة الإنسانية والخلقة البشرية التى تحب السلطان وتعشق السيطرة .
(٢) أى يا أعور كما سبق .

ووجد عليه الجاريتين تذودان(١) . فقال : مالكما تعين ؟ قالتا : لا ، فسقى لهما ، ثم تولى إلى الظل . فقال رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير، ولم يسأل الله أجرا . فلما أعجل الجاريتان الانصراف(٢) ، أنكر ذلك أبوهما . فقال لهما : ما أعجلكما اليوم ؟ فالتا: وجدنا رجلا صالحاً قوياً سقى لنا . قال : ماسمعتماه يقول ؟ قالتا : تولى إلى الظل وهو يقول رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير . فقال ينبغى لهذا أن يكون جائعاً . تنطلق إحداكما له ، فتقول له إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ، فأتته إحداهما تمشى على استحياء : أى على إجلال له : قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا . فجزع موسى من ذلك ، وكان طريداً فى الفيافى والصحارى . فقال لها : قولى لأبيك إن الذى سقى يقول : لا أقبل أجراً على معروف اصطنعته ، فانصرفت إلى أبيها فأخبرته . فقال : اذهبى فقولى له : أنت بالخيار بين قبول ما يعرض عليك أبى وبين تركه ، فأقبل ، فإنه يحب أن يراك ، ويسمع منك ، فأقبل والجارية بين يديه ، فهبت الريح فوصفتها له ، وكانت ذات خلق كامل . فقال لها : كونى ورائى ، وأرينى سمت الطريق . فلما بلغ الباب قال : استأذنى لنا ، فدخلت على أبيها ، فقالت : إنه مع قوته لأمين . فقال شعيب : وبم علمت ذلك ؟ فأخبرته ما كان من قوله عند هبوب الريح عليها . فقال : أدخليه فدخل ، فإذا شعيب قد وضع الطعام ؛ فلما سلم رحب به وقال أصب من طعامنا يا فتى . فقال موسى : أعوذ بالله . قال شعيب : لم ؟ قال : لأنى من بيت قوم لا نبيع ديننا بملء الأرض ذهباً . قال شعيب : لا والله ما طعامى لما تظن ، ولكنه عادتى وعادة آبائى : نقرى الضيف ، ونطعم الطعام ، فجلس موسى فأكل . وهذه الدنانير يا أمير المؤمنين إن كانت ثمناً لما سمعت من كلامى ، فإن أكل الميتة والدم فى حال الضرورة ، أحب إلى من أن آخذها . فأعجب سليمان بأمره إعجاباً شديداً. فقال بعض جلسائه : يا أمير المؤمنين ، إن الناس كلهم مثله . قال : لا . قال الزهرى : إنه لجارى منذ ثلاثين سنة ، ما كلمته قط . فقال أبو حازم : صدقت ، لأنك نسيت الله ونسيتنى ، ولو ذكرت الله لذكرتنى . قال الزهرى : أتشتمنى ؟ قال له سليمان : بل أنت شتمت نفسك ، أو ما علمت أن للجار على الجار حقاً . قال أبو حازم : إن بنى إسرائيل

---

(١) تذودان: تمنعان غنمهما من السقى حتى يسقى الناس وهذا إشارة إلى قوله تعالى فى سورة القصص عن موسى عليه السلام (ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان).

(٢) أى لما انصرفتا بسرعة عن عادتهما.

لما كانوا على الصواب كانت الأمراء تحتاج إلى العلماء ، وكانت العلماء تفرّ بدينها من الأمراء، فلما رئى قوم من أراذل الناس تعلموا العلم ، وأتوا به الأمراء ، استغنت الأمراء عن العلماء ؛ واجتمع القوم على المعصية ، فسقطوا وهلكوا ، ولو كان علماؤنا هؤلاء يصونون علمهم ، لكانت الأمراء تهابهم ، وتعظمهم . فقال الزهرى : كأنك إياى تريد ، وبى تعرّض ؟ قال : هو ما تسمع . قال سليمان : يا أبا حازم عظنى وأوجز . قال : حلال الدنيا حساب ، وحرامها عذاب ، وإلى الله المآب فاتق عذابك أودع . قال : لقد أوجزت ، فأخبرنى ما مالك ؟ قال : الثقة بعدله ، والتوكل على كرمه ، وحسن الظنّ به ، والصبر إلى أجله ، واليأس مما فى أيدى الناس . قال يا أبا حازم : ارفع إلينا حوائجك ؟ قال : رفعتها إلى من لا تختزل دونه ، فما أعطانى منها قبلت ، وما أمسك عنى رضيت ، مع أنى قد نظرت فوجدت أمر الدنيا يئول إلى شيئين : أحدهما لى ، والآخر لغيرى . فأما ما كان لى ، فلو احتلت عليه بكل حيلة ما وصلت إليه قبل أوانه وحينه الذى قد قدّر لى . وأما الذى لغيرى : فذلك لا أطمع فيه ، فكما منعنى رزق غيرى ، كذلك منع غيرى رزقى ، فعلام أقتل نفسى فى الإقبال والإدبار ؟ قال سليمان : لا بدّ أن ترفع إلينا حاجة نأمر بقضائها . قال : فتقضيها ؟ قال : نعم، قال : فلا تعطنى شيئاً حتى أسألكه ، ولا ترسل إلىّ حتى آتيك ، وإن مرضت فلا تعدنى ، وإن متّ فلا تشهدنى . قال سليمان : أبيت يا أبا حازم أبيت[1] ، قال : أتأذن لى أصلحك الله فى القيام ، فإنى شيخ قد زَمِنت[2] . قال سليمان : يا أبا حازم : مسألة ما تقول فيها ؟ قال : إن كان عندى علم أخبرتك به ، وإلا فهذا الذى عن يسارك ، يزعم أنه ليس شىء يسأل عنه إلا وعنده له علم ، يريد محمداً الزهرى ، فقال له الزهرى : عائذ بالله من شرّك أيها المرء . قال : أما من شرّى فستعفى ، وأما من لسانى فلا . قال سليمان : ما تقول فى سلام الأئمة من صلاتهم : أواحدة أم اثنتان ؟ فإن العلماء لدينا قد اختلفوا علينا فى ذلك أشدّ الاختلاف ؟ قال : على الخبير سقطت ، أرميك فى هذا بخبر شاف .

حدثنى عامر بن سعد بن أبى وقاص ، عن أبيه سعد ، أنه شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يسلم فى الصلاة عن يمينه ، حتى يُرى بياض خدّه الأيمن ، ثم يسلم عن يساره ، حتى يرى بياض خدّه الأيسر ، سلاماً يجهر به . قال عامر : وكان أبى يفعل ذلك .

---

(١) أبيت : يريد امتنعت عن طلب شىء منى أقضيه لك.
(٢) زمنت : شخت وعجزت .

وأخبرنى سهل بن سعد الساعدى : أنه رأى عمر بن الخطاب وابن عمر يسلمان من الصلاة كذلك . فقال الزهرى : اعلم ما تحدّث به أيها الرجل ، فإن الحديث عن رسول الله صعب شديد إلا بالتثبت واليقين . قال أبو حازم : قد علمته ورويته قبل أن تطلع أضراسك فى رأسك . فالتفت الزهرى إلى سليمان قال : أصلحك الله . إن هذا الحديث ما سمعت به من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قط ، فضحك أبو حازم . ثم قال : يا زهرى ، أحطت بحديث رسول الله كله؟ قال: لا. قال: فثلاثة أرباعه؟ قال: لا ، قال: فثلثه؟ فقال: أرانى ذلك قد رويت وبلغنى. فقال أبو حازم : فهذا من الثلث الذى لم يبلغك ، وبقى عليك سماعه . فقال سليمان : ما ظلمك من حاجك ، ثم قام مأذونا له . فأتبعه سليمان بصره ، ينظر إليه ، ويعجب به. ثم التفت إلى جلسائه فقال : ما كنت أظن بقى فى الدنيا مثل هذا . قال : ثم انصرف سليمان من الحجّ قافلا إلى الشام .

وذكروا أن غلماناً لسليمان نازعوا غلاماً لعمر بن عبد العزيز، فتعدّى غلمان عمر على غلمان سليمان، فرفع ذلك إلى سليمان ، وأغرى بعمر . فقال له سليمان : ألا تنصف غلمانى ، وهو كالمغضب مما فعل بهم ؟ فقال عمر : ما علمت هذا قبل هذا الوقت ، وما سمعت هذا إلا فى مقامى هذا . فقال سليمان : كذبت لقد علمته . فقال عمر : كذبت والله ما كذبت ولا تعمدت كذباً منذ شددت مئزرى على نفسى ، وإن فى الأرض عن مجلسك لسعة ثم خرج عمر ، فتجهز وهو يريد مصر ليسكنها ، فبلغ ذلك سليمان ، فندم على ما كان من قوله ، وأرسل إليه أن لا يبرح ، وأمر رجلا يقول له: لا تعاقب أمير المؤمنين على قوله ، ولا تذكر له هذا ، فترك عمر الخروج وجلس ، وأقلّ الاختلاف إلى سليمان .

ذكر وفاة سليمان واستخلافه عمر بن عبد العزيز

قال : وذكروا أن خالد بن أبى عمران أخبرهم ، وكان قد أدرك القوم . قال : مرض سليمان مرضه الذى مات فيه ، وذلك فى شهر صفر سنة تسع وتسعين ، فدخل عليه عمر بن عبد العزيز عائدا ، فدعا سليمان بنين له صغارا ، فقلدهم السيوف ، فوقعوا فى الأرض . فقال سليمان : قد أفلح من كان له بنون كبار . فقال عمر : ليس هكذا قال الله . فقال سليمان : وكيف قال الله ؟ فقال عمر : قال الله تعالى (قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى) ، فقال سليمان : إنى أريد أن أعهد إليك ، وأوليك أمور الناس بعدى . فقال عمر : لا حاجة لى بذلك . فقال سليمان : ولم ذلك ؟ فقال : لأنى لا أريد أخذ أموالهم ، فاذا لم أرد أخذ أموالهم ، فما الذى يدعونى إلى ضرب ظهورهم ؟ فقال سليمان : لابدّ من هذا . فقال عمر : ولم ذلك ؟ ولك فى ولد عبد الملك

سعة ، فأعفنى من هذا يعف الله عنك . فقال له سليمان : والله لا أوليها غيرك بعدى. فقال عمر : وما الذى يدعوك إلى هذا ؟ فقال سليمان : إنى رأيت فى منامى قائلا يقول لى : إن عمر بن عبد العزيز لك جنة ووقاية وجسر تتخطاه . فأوّلت ذلك — إن شاء الله — أن أوليك الأمر من بعدى، لتكون توليتى لك جنة من النار، وجسراً أركبه ، لأنجو عليه من عذاب يوم القيامة ثم ليزيد بعدك ، فإنه أرشد ولد عبد الملك . فقال عمر : إن هذا الأمر لايسعنى بينى وبين الله عزّ وجلّ ، أن أتقدم على أمة محمد ، وفيهم خير منى . فقال سليمان : أما فى آل أمية وعبدشمس فلا أعلم خيراً منك فقال عمر : ، إن لم يكن فى آل أمية وعبد شمس خير منى بقولك ، ففى آل عبد مناف وآل هاشم من هو خير منى . فقال سليمان : لا ، فقال عمر : ففى آل تيم وعدى خير منى ، وملء الأرض مثلى . فقال سليمان : إنما تريد القاسم وسالما ؟ قال : نعم ، إياهما أردت فقال سليمان : رجلان صالحان ذكرت ، ولكنهما ليسا للملك ، ولا الملك لهما ، ولا من معدن الملك هما ، مع أنه ليس بزمان خلافة ، ولا أيام يملك فيها مثل القاسم وسالم ، إنما هو زمان ملك وسيف وإنما هى ذئاب تعدو ليست على غنم تؤمن : فقال عمر : الله المعين ، المصلح لمن أراده . فسكت سليمان ، وظن أن عمر رضى بما قال له ، ثم دعا سليمان بصحيفة ثم كتب ويده ترتعش من شدة العلة ، لايعلم أحد بما يخط ، فكتب عهد عمر ، ثم من بعدعمر ليزيد، ثم ختم عليه بيده ، متحاملا لذلك ، وعمر لايشك أن الأمر فيه قد صار لغيره ، ثم دعا سليمان برجاء بن حيوة ، فقال له : خذ هذا الكتاب فإنه عهدى ، فاجمع إليك قريشاً ، وأمراء الأجناد ، وأعلمهم أنه عهدى ، وأن من كان اسمه فى كتابى هذا فهو الخليفة بعدى ، فمن نزع عن ذلك وأباه ، فالسيف السيف ، والقتل القتل ، ثم رفع سليمان يديه إلى السماء فقال : اللهمّ إن ذنوبى قد عظمت وجلت ، وهى صغيرة يسيرة فى جنب عفوك ، فاعف عنى يا من لا تضرّه الذنوب ، ولا تنقصه المغفرة ، اعف عنى ما بينى وبينك من الذنوب ، واحمل عنى ما بينى وبين خلقك ، وارضهم بما شئت ، يا أرحم الراحمين . اللهمّ إن كنت تعلم منى وتطلّع من ضميرى ، أنى إنما أردت بعهدى هذا وتوليتى من وليت فيه وجهك ورضاك فاغفر لى وارحمنى . ثم تخلخل لسانه، فلم يقو على الكلام من ثقل العلة ، ثم سكت وأغمى عليه . قال رجاء : فخرجت وعمر معى . فقلت له : ما أراك إلا صاحب الأمر ، فقال عمر : ما أحسب ذلك . فقلت : ومن عسى أن يكون فى آل مروان من يريد سليمان توليته غيرك؟ فقال عمر : ما أراه عهد إلا لأحد الرجلين : القاسم أو سالم . قال رجاء: فقلت له أسمعت ذلك منه ؟ فقال عمر ما سمعته ، ولكن دار بينى وبينه كلام آنفاً قبل دخلتك ، لا أشكّ أنه أراد أحدهما . قال رجاء : فقلت والله هذا الاختلاف فى أمة محمد ، والفتن الظاهرة القاصمة للظهور ، المفنية للأنفس . فقال عمر :

ولم ذلك ؟ فقال رجاء : لأن قريشاً ونحوها لا ترضى بهذا ، ولا تصير إليه ، ولا آل أمية وعبد شمس حيث كانت من الأرض . فقال عمر : إن الأمر لله من قبل ومن بعد ، يؤتى الملك من يشاء . فقال رجاء : فخرجت إلى الناس وأعلمتهم بعهد أمير المؤمنين . فقالوا سمعاً وطاعة ، ثم أعلمتهم بابتهاله ورغبته إلى الله ، وما قال ، فلم يشك الناس أن عمر بن عبد العزيز صاحبهم ، فأرادوا أن يسلموا عليه بالخلافة، وذلك لما أيقنوا بهلاك سليمان . فقلت لهم : لاتعجلوا فإن عمر قال لى أرى سليمان ما أراد إلا القاسم أو سالما ، وهذا أفطن منى بهذا الأمر لأنه كان حاضرا ، وسليمان يكتب العهد بيده ، فضجّ الناس من ذلك واختلفوا . فقالت فرقة : سمعنا وأطعنا ، لمن استخلف علينا ، كان من كان . وقالت فرقة : لا ، والله لا نقرّ بهذا ، ولا نطيعه، ولا يستخلف علينا إلا مروانى ، ولا تبقى منا عين تطرف فى الدنيا . فقال رجاء لعمر : كيف ترى قولى ، والله لئن كان هذا إنه لهو البلاء المبين ، وإنها الفتنة قد فتح بابها . فقال عمر : أرجو الله أن يغلقه إن شاء الله . قال رجاء : فقلت لعمر : ما نحن صانعون إن كان هذا ؟ فقال عمر : لا أدرى ما أقول فى موقفى هذا . قال رجاء : ولم ؟ فقال عمر : لأنى والله ما وقفت موقفاً قط ، لا رأى لى فيه ولا بصيرة ، إلا موقفى هذا ، فإنى قد أجدنى قد ذهب روعى[1] ، وفقدت رأيى ، ولا أدرى ما أستقبل من أمرى، ولا ما أستدبر ، ولو استطعت الفرار لفررت من موضعى هذا ، حيث لا أدرك ولا أرى : قال رجاء : فلما قاولنى بهذا علمت أنه الذى قال من فقده لرأيه وبصيرته . قال رجاء : فقلت له يا أبا حفص ، فأين نحن من المفزع إلى الله ، والرغبة فى الصلاح علينا وعلى المسلمين ، ويعزم لنا على ما فيه الخير والخيرة[2]؟ فقال عمر : بلى والله هذا الملجأ وهذا الحصن الحصين والمعقل الشديد . قال رجاء : فبتنا ليلتنا لا نألوا على أنفسنا فى الدعاء ، والاستخارة لله . فلما أصبحنا قلت لعمر : ما ترى يا أبا حفص ؟ فقال : أرى أن أسمع وأطيع لمن فى هذا الكتاب فإن كان أحد الرجلين قدم سمعت له وأطعت ، ورددت من أدبر عنه بمن أقبل عليه حتى أموت . قال فبينما هما كذلك إذ أقبل وصيف يسعى إليهما يقول : قد قضى أمير المؤمنين نحبه ، فخرجا ، فإذا بالعويل والنوح ، فرجعا إلى المسجد ترعد فرائصهما ، والناس يسلمون على عمر بالخلافة وهو يقول : لست به ، حتى دخل المسجد ، وقد اجتمع الناس ، وهم مستعدون للفتنة والقتال ، إن خالف العهد ما يريدون . فقام رجاء إلى جانب المنبر : فحمد الله ، وحض الناس على الطاعة ، ولزوم الجماعة ، وأعلمهم بما فى الفرقة

---

(١) الرُّوع : بضم الراء القلب أى ذهب عقلى وضاعت فطنتى .
(٢) الخيرة : الاختيار .

والاختلاف ، من ذهاب الدين والدنيا ، ثم أخرج العهد ، ففضه بمحضر منهم ، ثم قرأه عليهم . فإذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد به عبد الله سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين ، وخليفة المسلمين عهد أنه يشهد لله بالربوبية والوحدانية ، وأن محمداً عبده ورسوله ، بعثه إلى محسنى عباده بشيراً ، وإلى مذنبيهم نذيراً ، وأن الجنة حق ، وأن النار حق مخلوقتان ، خلق الجنة رحمة لمن أطاعه ، والنار عذاباً لمن عصاه ، وأوجب العفو لمن عفا عنه ، وأن إبليس فى النار ، وأن سليمان مقر على نفسه بما يعلم الله من ذنوبه ، موجب على نفسه استحقاق ما خلق من النقمة راج لما وعد من الرحمة والمغفرة ، وأن المقادير كلها خيرها وشرها من الله ، وأنه هو الهادى وهو الفاتن ، لم يستطع أحد لمن خلق الله لرحمته غواية ، ولا لمن خلق لعذابه هداية ، وأن الفتنة فى القبور بالسؤال عن دينه ونبيه الذى أرسل إلى أمته حق يقين ، لامنجى لمن خرج من الدنيا إلى الآخرة من هذه المسألة . وسليمان يسأل الله بواسع فضله وعظيم منه ، الثبات على الحق عند تلك المسألة ، والنجاة من أهوال تلك الفتنة ، وأن الميزان حق يقين ، يضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك هم الخاسرون ، وأن حوض محمد صلى الله عليه وسلم يوم الحشر والموقف حق ، عدد آنيته كنجوم السماء ، من شرب منه لم يظمأ أبداً . وسليمان يسأل الله برحمته أن لا يرده عنه عطشان . وأن أبا بكر وعمر خير هذه الأمة ، بعد نبينا صلى الله عليه وسلم ، والله يعلم بعدهما حيث الخير ، وفيمن الخير من هذه الأمة ، وأن هذه الشهادة المذكورة فى عهده هذا ، يعلمها من سره وإعلانه ، وعقد ضميره ، وأن بها عبد ربه فى سالف أيامه ، وماضى عمره ، وعليها أتاه يقين ربه ، وتوفاه أجله ، وعليها يبعث بعد الموت إن شاء الله وأن سليمان كانت له بين هذه الشهادة بلايا وسيئات ، لم يكن لمعنها محيص ، ولادونها مَقْصر[1] بالقدر السابق والعلم النافذ فى محكم الوحى ، فإن يعف ويصفح ، فذلك ماعرف منه قديماً ، ونسب إليه حديثاً ، وتلك الصفة التى وصف بها نفسه فى كتابه الصادق ، وكلامه الناطق ، وإن يعاقب وينتقم فبما قدمت يداه ، وما الله بظلام للعبيد ، وإنى أحرج على من قرأ عهدى ، وسمع مافيه من حكمه ، أن ينتهى إليه فى أمره ونهيه ، بالله العظيم وبمحمد صلى الله عليه وسلم ، وأن يدع الإحن[2] ، ويأخذ بالمكارم ، ويرفع يديه إلى السماء بالابتهال الصحيح ، والدعاء الصريح ، يسأله العفو عنى ، والمغفرة لى ، والنجاة من فزعى ، والمسألة فى قبرى ، لعل الودود أن يجعل منكم مجاب الدعوة بما علىّ من صفحه يعود

(١) مقصر : بفتح الميم وسكون القاف : ابتعاد وانتهاء
(١) الإحن : الضغائن والاحقاد

إن شاء الله . وإن وليّ عهدى فيكم ، وصاحب أمرى بعد موتى ، فى كل من استخلفنى الله عليه ، الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز ابن عمى لما بلوت من باطن أمره وظاهره ، ورجوت الله بذلك وأردت رضاه ورحمته إن شاء الله ، ثم ليزيد بن عبد الملك من بعده ، فإنى ما رأيت منه إلا خيراً ، ولا اطلعت له على مكروه ، وصغار ولدى وكبارهم إلى عمر ، إذ رجوت ألا يألوهم رشداً وصلاحاً ، والله خليفتى عليهم ، وهو أرحم الراحمين ، وأقرأ عليكم السلام ورحمة الله .

ومن أبى عهدى هذا وخالف أمرى فالسيف ، ورجوت أن لا يخالفه أحد ، ومن خالفه فهو ضال مضل يستعتب(١) فإن أعتب ، وإلا فالسيف ، والله المستعان ولا حول ولا قوّة إلا بالله القديم الإحسان .

أيام عمر بن عبد العزيز

قال : وذكروا عن خالد بن أبى عمران أنه قال : إنى لحاضر يوم قرئ عهد سليمان فى المسجد بدمشق على الناس ، فما رأيت يوماً أكثر باكياً ولا داعياً له بالرحمة من ذلك اليوم ، فلم يبق محب ولا مبغض ولا خارجى ولا حرورى(٢) إلا أخذ الله له بقلوبهم ، وابتهلوا بالدعاء وأخلصوا له بالسؤال بالعفو من الله ، ورضى الناس أجمعون فعله ، قال خالد : ثم بايع الناس لعمر فى المسجد بيعة تامة جامعة طيبة بها النفوس ، لا يشوبها غش ، ولا يخالطها دنس ، قال خالد : وسمعت رجاء (٣) يقول لما تمت البيعة : إنى مهما شككت فى شىء فإنى لم أشك يوم البيعة لعمر بالنجاة ، والرحمة لسليمان إن شاء الله ، واستفتح عمر ولايته ببيع أموال سليمان ، ورباعه وكسوته(٤)، وجميع ما كان يملكه ، فبلغ ذلك أربعة وعشرين ألف دينار ، فجمع ذلك كله ، وجعله فى بيت المال ، ثم دخل على زوجته فاطمة ابنة عبد الملك ، فقال لها : يافاطمة ، فقالت لبيك يا أمير المؤمنين ، فجعل يبكى ، وكان لها محباً ، وبها كلفاً (٥)، ثم استفاق من بكائه ، فقال

---

(١) يستعتب : يراجع ويعاتب حتى يرجع عما هو فيه

(٢) الحرورى : نسبة إلى حروراء بلدة ظهر بها الخوارج أول ما ظهروا كما سبق

(٣) هو رجاء بن حيوة الذى تسلم العهد من سليمان بن عبد الملك وحفظه لحين وفاته

(٤) الرباع : جمع ربع : بضم الراء وفتح الباء وهو الفصيل الذى ينتج فى الربيع، والكسوة الثياب

(٥) الكلف : شدة التعلق والحب.

لها : اختاريني ، أو اختاري الثوب الذي عمل لك أبوك ، وكان قد عمل لها أبوها عبد الملك ثوباً منسوجاً بالذهب ، منظوما بالدرّ والياقوت ، أنفق عليه مائة ألف دينار . فقال لها : إن اخترتني فإني آخذ الثوب فأجعله في بيت المال ، وإن اخترت الثوب ، فلست لك بصاحب . فقالت : أعوذ بالله يا أمير المؤمنين من فراقك ، لا حاجة لي بالثوب . فقال عمر : وأنا أفعل بك خصلة ، أجعل الثوب في آخر بيت المال ، وأنفق ما دونه ، فإن وصلت إليه أنفقته في مصالح المسلمين ، وإنما هو من أموال المسلمين أنفقت فيه ، وإن بقي الثوب ولم أحتج إليه ، فلعل أن يأتي بعدي من يرده إليك . قالت : افعل يا أمير المؤمنين ما بدا لك . ثم دخل عليه ابنه ، وعليه قميص تدعنع(١) . فقال له عمر : ارقع قميصك يابنيّ ، فوالله ما كنت قط بأحوج إليه منك اليوم .

ذكر قدوم جرير بن الخطفي على عمر بن عبد العزيز

قال : وذكروا عن عبد الأعلى بن أبي المشاور ، أنه أخبرهم قال : قدم جرير شاعر أهل العراق وأهل الحجاز على عمر ، أول ما استخلف ، فأطال المقام ببابه ، لا يصل إليه حتى قدم عليه عون بن عبد الله الهذلي ، وكان من عباد الناس وخيارهم ، وعليه جبة صوف وعمامة صوف قد أسد لها خلفه ، فجعل يتخطى رقاب الناس من قريش ، بني أمية وغيرهم ، لا يمنع ولا يحجب هو ومثله من أكابر الناس وخيارهم ، وفضلاء العباد ، وقريش لا يصلون ولا يدخلون فلما خرج عون بن عبد الله ، اتبعه جرير بن الخطفي وهو يقول

يا أيها الرجل المرخي عمامته ... هذا زمانك إني قد مضى زمني
أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيه ... أني لدى الباب كالمصفود(٢) في قرَن
فاحلل صفادي(٣) فقد طال المقام به ... وشطت(٤) الدار عن أهلي وعن وطني

قال فضمن له عون بن عبدالأعلى أن يدخله عليه . فلما دخل على عمر قال : يا أمير المؤمنين ، هذا جرير بن الخطفي بالباب ، يريد الإذن . فقال عمر : ما كنت أرى أحداً يحجب عني . قال : إنه يريد إذناً خاصاً قال له عمر : اللهُ عن ذكره ، ثم حدثه طويلا ، ثم قال ياأمير المؤمنين : إن جريراً بالباب : فقال : اللهُ عن ذكره . قال إذاً لا أسلم من لسانه . فقال عمر : أما إذ قد بلغ منك خوف لسانه ما أرى فأذن له . فدخل جرير . فلما كان قِيد رمح أو رمحين(٥) وعمر

(١) تدعنع : تمزق وتقطع
(٢) المصفود : المقيد، والقرن : الحبل
(٣) صفادي : تقييدي
(٤) شطت الدار : بعدت
(٥) قيد : مقدار ومسافة ، والرمح مقدار طوله متر ونصف ، أي فلما قرب جرير من الخليفة مقدار متر ونصف أو ثلاثة أمتار

منكس رأسه قال : السلام عليك ياأمير المؤمنين ورحمة الله ، ثم قال إن الخلفاء كانت تتعاهدنى فيما مضى بجوائز وصلات ، وقد أصبحت إلى ذلك منك محتاجاً . ثم أنشأ يقول :

قد طال قولى إذا ما قمت مبتهلا	يارب أصلح قوام الدين والبشر
إنا لنرجو إذ ما الغيث أخلفنا	من الخليفة ما نرجو من المطر
أأذكر الجهد والبلوى التى نزلت	أم قد كفانى ما بُلّغت من خبر
ما زلت بعدك فى هم يؤرقنى	قد طال فى الحى إصعادى ومنحدرى[١]
لا ينفع الحاضر المجهود بادية	ولا يعود لنا باد على حضر
كم باليمامة[٢] من شعثاء أرملة	ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر
يدعوك دعوة ملهوف كأن به	مسا من الجن أو مسا من البشر
فإن تدعهم فمن يرجون بعدكم	أو تنج منها فقد أنجيت من ضرر
هذى الأرامل قد قضيت حاجتها	فمن لحاجة هذا الأرمل الذكر
خليفة الله ما ذا تأمرون بنا	لسنا إليكم ولا فى دار منتظر
أنت المبارك والمهدىّ سيرته	تعصى الهوى وتقوم الليل بالسور

قال : فبكى عمر ، وهملت عيناه ، وقال : ارفع حاجتك إلينا ياجرير . قال جرير : ماعودتنى الخلفاء قبلك . قال : وماذلك ؟ قال : أربعة آلاف دينار ، وتوابعها من الحملان والكسوة . قال عمر : أمن أبناء المهاجرين أنت ؟ قال : لا . قال : أفمن أبناء الأنصار أنت ؟ قال : لا . قال : أفقير أنت من فقراء المسلمين ؟ قال: نعم . قال : فأكتب لك إلى عامل بلدك ، أن يجرى عليك ما يجرى على فقير من فقرائهم . قال جرير : أنا أرفع من هذه الطبقة يا أمير المؤمنين . قال : فانصرف جرير . فقال عمر : ردوه علىّ . فلما رجع قال له عمر : قد بقيت خصلة أخرى ، عندي نفقة وكسوة أعطيك بعضها ، ثم وصله بأربعة دنانير . فقال : وأين تقع منى هذه يا أمير المؤمنين ؟ فقال عمر : إنها والله لمن خالص مالى ، ولقد أجهدت لك نفسى . فقال جرير : والله ياأمير المؤمنين إنها لأحب مال كسبته . ثم خرج ، فلقيه الناس فقالوا له : ماوراءك ؟ قال : جئتكم من عند خليفة يعطى الفقراء ، ويمنع الشعراء وإنى عنه لراض :

(١) الإصعاد : الارتفاع ، والمنحدر : الهبوط ، والمراد قد طال ترددى على الناس من مختلف الطبقات

(٢) اليمامة : البلاد التى ادعى بها مسيلمة الكذاب النبوة ، بينها وبين مكة ست عشرة مرحلة من البصرة والكوفة ، والشعثاء ، المغبرّة الرأس من الفقر وشظف العيش

دخول الخوارج على عمر بن عبد العزيز

قال : وذكروا أن ابن حنظلة أخبرهم قال : بعثني وعَوْن بن عبد الله عمرُ ابن عبد العزيز إلى خوارج خرجت عليه بالحيرة ، ورأسهم رجل من بني شيبان يقال له شَوْذَب ، وكتب معنا كتاباً إليهم ، فقدمنا عليهم ، فبعثوا معنا إليه رجلين أحدهما من العرب ، فأتينا بهما عمر ، فدخلنا عليه وتركناهما بالباب . فقلنا له : إنا قد بلغنا عنك ، وقد بعثوا معنا رجلين هما بالباب . قال : فتشوهما لايكون معهما حديد أو شيء ، ففعلنا ، ثم إننا أدخلناهما عليه . فلما دخلا قالا : السلام عليكم . قال : وعليكم السلام ، اجلسا . فلما جلسا قال لهما عمر : ماالذي أخرجكم علينا ؟ فقال العربي : وكان أشدهما كلاما ، وأعمهما عقلا : أما إنا لم ننكر عليك عدلك ولا سيرتك ، ولكن بيننا وبينك أمر ، هو الذي يجمع ويفرق بيننا ، فإن أعطيتناه فنحن منك وأنت منا ، وإن لم تعطنا فلسنا منك ولست منا . فقال عمر : فما هو ؟ فقال : خالفت أهل بيتك ، وسميتهم الظلمة ، وسميت أعمالهم المظالم ، فإن زعمت أنك على الحق وأنهم على الباطل ، فالعنهم وتبرأ منهم . فقال عمر : إنكم لم تتركوا الأهل والعشائر وتعرضتم للقتال إلا وأنتم فى أنفسكم مصيبون ، ولكنكم أخطأتم وضللتم ، وتركتم الحق . أخبرانى عن الدين : أو احد أو اثنان . قالا : لا بل واحد . قال : أفيسعكم فى دينكم شيء يعجز عنى ؟ قالا : لا . قال : فأخبرانى عن أبى بكر وعمر ماحالهما عندكم ؟ قالا : أفضل الناس أبو بكر وعمر . قال : ألستما تعلمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما توفى ارتدت العرب ، فقاتلهم أبو بكر ، فقتل الرجال ، وسبى النساء والذرية ؟ قالا : بلى . قال عمر : فلما توفى أبوبكر وقام عمر ، ورد تلك النساء والذرارىّ إلى عشائرها ، فهل تبرأ عمر من أبى بكر ، ولعنه بخلافه إياه ؟ قالا : لا . قال فتتولونهما على خلاف سيرتهما . قالا : نعم . قال عمر : فما تقولان فى بلال بن مرداس ؟ قالا : من خير أسلافنا . قال : أفليس قد علمتم أنه لم يزل كافا عن الدماء والأموال وقد لطخ أصحابه أيديهم فيها ، فهل تبرأت إحدى الطائفتين من الأخرى ، أو لعنت إحداهما الأخرى ؟ قالا : لا . قال : فتتولونهما على خلاف سيرتهما . قالا : نعم . قال عمر : فأخبرانى عن عبدالله بن وهب حين خرج بأصحابه من البصرة يريدون أصحابهم ، فمرّوا بعبد الله بن خباب فقتلوه ، وبقروا بطن جاريته ، ثم عدوا على قوم من بنى قطيفة ، فقتلوا الرجال ، وأخذوا الأموال وغلوا الأطفال فى المراجل ، ثم قدموا على أصحابهم من الكوفة وهم كافون عن الدماء والفروج والأموال ، هل تبرأت إحدى الطائفتين من الأخرى ، أو لعنت إحداهما الأخرى ، قالا : لا . قال : فتتولونهما على خلاف سيرتهما . قالا : نعم . فقال عمر فهؤلاء الذين اختلفوا بينهم فى السيرة والأحكام لم يتبرأ بعضهم من بعض ، ولا لعن بعضهم بعضا ، وأنتم تتولونهم على خلاف سيرتهم فهل وسعكم فى

دينكم ذلك ، ولا يسعني حين خالفت أهل بيتى فى الأحكام والسيرة حتى ألعنهم وأتبرأ منهم ؟ أخبرانى عن اللعن : فرض على العباد ؟ قالا : نعم . فقال عمر : متى عهدك بلعن فرعون ؟ قال: مالى به من عهد منذ زمان . قال عمر : هـذا رأس من رءوس الكفار ليس لك عهد بلعنه منذ زمان، وأنا لا يسعنى أن ألعن من خالفتهم من أهل بيتى ، ألستم أنتم الذين تؤمّنون من كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخيفه ، وتخيفون من كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤمّنه ؟ فقالا : نبرأ إلى الله تعالى من هـذه الصفة . فقال : بلى فسأخبركما عن ذلك ، ألستما تعلمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج والناس أهل كفر ، فدعاهم أن يقروا بالله ورسوله ، فمن أبى قاتله وخوّفه ، ومن أقرّ بهما أمنه وكف عنه ، وأنتم اليوم من مرّ بكم يقرّ بهما قتلتموه ، ومن لم يقرّ بهما أمنتموه وخليتم سبيله ، فقال العربى: تالله ما رأيت حجيجا(١) أقرب مأخذا ، ولا أوضح منهاجا منك ، أشهد أنك على الحق ، وأنا على الباطل . وقال الآخر :لقد قلت قولا حسنا ، وما كنت لأفتات على أصحابى حتى ألقاهم فلحق بأصحابه ، وأقام الآخـر عند عمر ، فاجرى عليه العطاء والرزق حتى مات عنده .

وفاة عمر بن عبد العزيز

قال : وذكروا أن عبد الرحمن بن يزيد أخبرهم قال : كتب عمر بن عبد العزيز إلى ابن أبى زكريا : أما بعد : فإذا نظرت فى كتابى فأقدم : فقدم عليه فقال : مرحباً بابن أبى زكريا . قال . وبك يا أمير المؤمنين . قال : حاجـة لى قبلك . قال : بين الأنف والعين حاجتك يا أمير المؤمنين ، إن قدرت عليها . قال : لست أكلفك إلا ما تقدر عليه . قال : نعم ، قال : أحب أن تثنى على الله بمبلغ علمك ، حتى إذا فرغت سألت الله أن يقبض عمر . فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، بئس وافد أمة محمد أنا ، هذا لا يحل لى . قال : فإنى أعزم عليك بحق الله وبحق رسوله ، وبحقى إن كان لى عليك حق إلا ما فعلته ، فبكى ثم استرجع ، ثم أقبل يثنى على الله ، وإنه ليبكى حتى إذا فرغ قال : اللهم إن عمر سألنى بحقك وبحق رسولك وبحقه علىّ أن أدعو فى قبضه إليك ، فاقبض عمر إليك كما سأل ولا تبقنى بعده ، وجاء حينئذ بنىّ لعمر فسقط فى حجره ، فقال: وهذا أى ربى معنا فإنى أحبه. قال: فما كانوا إلا كخرزات فى خيط فانقطع الخيط ، فأتبع بعضها بالسقوط بعضا(٢) .

ذكر رؤيا عمر بن عبد العزيز

قال : وذكروا عن مُزاحم مولى عمر قال : أخبرتنى فاطمة بنة عبد الملك امرأة عمر

---

(١) الحجيج : صيغة مبالغة أى محاجّا قوى الحجة
(٢) أى ماتوا متتابعين بعضهم بعد بعض

قالت : كان لعمر بن عبدالعزيز مكان يخلو فيه ، فأبطأ عليّ ذات ليلة ، فقلت لآتينـه ، فوجدته نائماً ، فهبته أن أوقظه ، فما لبث إلا قليلا حتى رفع رأسه فقال : من هذا ؟ فقلت : أنا فاطمة فقال : يافاطمة لقد رأيت رؤيا مارأيت أحسن منها . فقلت : حدثنى بها يا أمير المؤمنين . قال رأيت كأنى فى أرض خضراء لم إر أحسن منها ، ورأيت فى تلك الأرض قصراً من زبرجد ، ورأيت جميع الخلائق حول ذلك القصر ، فما لبثت إلا قليلاً حتى خرج المنادى . فقال : أين محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب ؟ فقام النبى عليه الصلاة والسلام فدخل القصر ، فقلت سبحان الله ، أنا فى جمع فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم أسلم عليه ، فما لبثت إلاقليلا حتى خرج المنادى فنادى : أين أبو بكر بن أبى قحافة ؟ فقام أبو بكر فدخل ، فما لبثت إلاقليلاً حتى خرج المنادى فنادى : أين عمر بن الخطاب ، أين الفاروق ؟ فقام عمر فدخل ، فقلت سبحان الله ، أنا فى ملأ فيهم جدّى لم أسلم عليه ، فمالبثت إلا يسيراً حتى خرج المنادى فقال : أين عثمان بن عفان؟ فقام عثمان فدخل ، فما لبثت إلاقليلاً حتى خرج المنادى فنادى : أين عليّ بن أبى طالب ؟ فقام فدخل، فما لبثت إلا قليلا حتى خرج المنادى فنادى : أين عمر بن عبد العزيز . قال : فقمت فدخلت ، فلما صرت فى القصر رأيت النبى صلى الله عليه وسلم ، وأبا بكر عن يمينه ، وعمر عن شماله ، وعثمان وعلياً أمامه . فقلت : أين أقعد ؟ لا أقعد إلا إلى جنب عمر . قال : فرأيت فيما بين النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر شاباً حسن الوجه حسن الهيئة . فقلت لعمر : من هذا ؟ قال : هذا عيسى بن مريم عليه السلام، فما لبثت إلا قليلاً حتى خرج عثمان بن عفان وهو يقول : الحمد لله الذى نصرنى ربى ، ثم خرج عليّ وهو يقول : الحمد لله الذى غفر لى ربى ، ثم نودى لى : أين عمر بن العزيز، فقمت فصرت بين يدى ربى فحاسبنى ، فلقد سألنى عن النقير والفتيـــل والقطمير ، حتى خفت أن لاأنجو ، ثم قمت فخرجت فقيل لى : اثبت وتمسك على ما أنت عليه ، فبينما أنا سائر ، فإذا بجيفة قد علا نتنها الخلائق ، فضربتها برجلى ، وقلت لمن معى : لمن هذه الجيفة ؟ فقيل لى : هذ الحجاج بن يوسف ، فضربته برجلى ، فقلت له : مافعل الله بك ياحجاج: قال : يا أمير المؤمنين والله لقد قتلت بكل قتيل قتلته بسيف من نار ، ولقد قتلت بسعيد ابن جبير اثنين وسبعين قتلة . فقلت : فآخر أمرك ما هو ؟ قال : أنا ها هنا أنتظر ما ينتظر من وحّد الله ، وآمن برسوله . قالت فاطمة : فلم يبق عمر بعد هذه الرؤيا إلا يسيرا ، حتى مرض مرضه الذى مات فيه ، فدخـل عليه مسلمة بن عبد الملك ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، إنك لتترك ولدك عالة على النـاس ، فأوص بهم إليّ ، أكفك أمرهم ، فإنك لم تموّلهم شيئاً ، ولم تعطهم . فقال عمر : ياأبا سعيد ، إن ولدى لهم الله الذى نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين، ثم دعاهم عمر وهم أربعة عشر غلاماً ، فنظر إليهم عمر ، وقد لبسوا الخشن من قباطىّ مصر[1]،

---

(١) القباطى : جمع قبطية بضم القاف والقبطية ثياب مصرية منسوبة إلى القبط أهل مصر على غير قياس ، وهى ثياب فيها الخشن والناعم وقد لبس أولاد عمر بن عبد العزيز رحمه الله عنه خشنها

فاغرورقت عيناه بالدموع . قال لهم : أوصيكم بتقوى الله العظيم ، وليجل صغيركم كبيركم، وليرحم كبيركم صغيركم . ثم قال لمسلمة : يا أبا سعيد ، إنما ولدى على أحد أمرين : إما عامل بطاعة الله فلن يضيعه الله ، وإما عامل بمعصيته فلا أحبّ أن يعينه بالمال ، قوموا عصمكم الله ووفقكم . ثم دعا رجاء بن حيوة فخلا به . فقال : يارجاء ، إن الموت قد نزل ، وأنا أعهد إليك عهداً لا أعهده إلى غيرك : إذا أنا مت فكن ممن يقبرنى ، فإذا سوّيت علىّ اللبن[1] ، فارفع لبنة ، ثم اكشف عن وجهى وانظر إليه ، فإنى قبرت ثلاثة رجال بيدى ، وكشفت عن وجوههم ، فنظرت وجوههم قد اسودّت ، وعيونهم قد برزت من وجوههم ، فاكشف عن وجهى يارجاء وانظر إليه ، فإن رأيت شيئاً من هذا ، فاستر علىّ ، ولا تعلم به أحداً ؛ وإن رأيت غير ذلك ، فاحمد الله عليه . قال رجاء : ففعلت ذلك ، فلما سوّينا عليه اللبن ، رفعت لبنة وكشفت وجهه ، فإذا وجهه مثل القمر ليلة البـــدر ، وإذا على صدره صكّ فيه خط ليس من كتابة الآدميين : بسم الله الرحمن الرحيم ، كتاب بالقلم الجليل ، من الله العزيز العليم ، براءة لعمر بن عبد العزيز من العذاب الأليم .

ما علم به موت عمر رحمه الله فى الامصار

قال : وذكروا أن رجلاً من أهل المدينة قال : وفد قوم من أهل المدينة إلى الشام ، فنزلوا برجل فى أوائل الشام موسّع عليه، تروح عليه إبل كثيرة ، وأبقار وأغنام ، فنظروا إلى شىء لا يعلمونه ، غير مايعرفون من غضارة العيش ، إذ أقبل بعض رعاته فقال : إن السبع عدا اليوم على غنمى ، فذهب منها بشاة . فقال الرجل : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ثم جعل يأسف أسفاً شديداً فقلنا بعضنا لبعض : ما عند هذا خير ، يتأسف ويتوجع من شاة أكلها السبع ، فكلمه بعض القوم . قال له : إن الله تعالى قد وسع عليك ، فما هذا التوجع والتأسف ؟ قال : إنه ليس مما ترون ، ولكن أخشى أن يكون عمر بن عبد العزيز قد توفى الليلة ، والله ما تعدّى السبع على الشاة إلا لموته ، فأثبتوا ذلك اليوم ، فإذا عمر قد توفى فى ذلك اليوم .

وذكروا أنهم سمعوا رجلاً يحدث ويقول : بينا رجل باليمن نائم على سطح له ذات ليلة ، إذ تسوّر عليه كلب ، فسمعه وهو يقول لهرة له : أى جنة ، هل من شىء أصيبه ، فإنى والله أكال ؟ فقالت له الهرة : ما ثم شىء ، لقد غطوا الإناء ، وأكفئوا الصحفة . فقال لها : هل تدنيني من يد صبى ، أو قدر لم تغسل ، أشمها لترتد لى روحى ؟ قالت الهرة : ما كنت لأخونهم

---

(٢) اللبن : الطوب الأخضر غير المحروق

أمانق ، فمن أين أقبلت تشكو الكلل والجوع ؟ قال : من الشام ، شهدت وفاة عمر بن عبد العزيز ، وحضرت جنازته . قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون . نور كان فى الدنيا فطمس ، ثم زالت عنه ، وتنحت وفرت منه ، وهابته خوفاً من أن يعدو عليها ، ثم انسل الكلب ذاهباً ، فلما أصبح الرجل جعل يقول للهرة : أى جنة ، جزاك الله عنا خيراً . قال: فاستوبرت(١) الهرة ، وذهبت فلم ترد بعد ، فكتب ذلك اليوم فجاءهم موت عمر فى ذلك اليوم .

وذكروا أن زياد بن عبد الله أخبرهم قال : كان رجل فى بعض كور الشام يعالج أندرا(٢) له مع زوجته ، وكان قد استشهد ابن لهما منذ زمان طويل ، فنظر الرجل إلى فارس مقبل نحوهما . فقال الرجل لزوجته : يا فلانة ، هذا والله ابنى وابنك مقبلاً ، فنظرت المرأة فقالت : أخدعك الشيطان ؟ إنك مفتون بابنك ، وانك تشبه به الناس كلهم ، كيف يكون ابنك ، وابنك استشهد منذ حين ، فاستعاذ الرجل بالله من الشيطان الرجيم ، ثم أقبل على أندره يعالجه ، ودنا منهما الفارس ، ثم نظر ثانية ، قال : يافلانة ، ابنى والله وابنك ، فنظرت ودنا منهما الفارس ، فلما وقف عليهما فإذا هو ابنهما . قال : فسلم عليهما وسلما عليه . فقالا له : يا بنى أما كنت استشهدت منذ حين ؟ قال : نعم . إلا أن عمر بن عبد العزيز توفى الليلة ، فاستأذن الشهداء ربهم عز وجل فى شهود جنازته ، فأذن لهم ، وكنت فيهم ، فاستأذنت ربى فى زيارتكما والنظر ، فأذن لى ، ثم ودعاه ، وسلما عليه ، ودعا لهما ، ثم ذهب :

ولاية يزيد بن عبد الملك بن مروان

قال : وذكروا أن الأمر صار بعد عمر بن عبد العزيز ، إلى يزيد بن عبد الملك ، بعهد سليمان أخيه إليه بذلك ، وإلى عمر ، وكان يزيد قبل ولايته محبوباً فى قريش بجميل مأخذه فى نفسه ، وهديه وتواضعه وقصده ، وكان الناس لا يشكون إذا صار إليه الأمر ، أن يسير بسيرة عمر لما ظهر منه . فلما صارت إليه الخلافة حال عما كان يظن به ، وسار بسيرة الوليد أخيه ، واحتذى على مثاله ، وأخذ مأخذه ، حتى كأن الوليد لم يمت ، فعظم ذلك على الناس ، وصاروا من ذلك إلى أحوال يطول ذكرها ، حتى هموا بخلعه ، وجاءهم بذلك قوم من أشراف قريش ، وخيار بنى أمية ، وكانت قلوبهم قد سكنت إلى هدى عمر ، واطمأنت إلى عدله بعد النفار ، والإنكار لسيرته ، وعاد ذلك من قلوبهم إلى الرضا بأمره ، والقنوع بقصده عليهم ، وتقصيره فى إدراك المطامع ، والعطايا عليهم ، واتهم منهم نفر بالخلع والخروج ، فأخذهم عمه محمد بن

---

(١) استوبرت الهرة : أى توحشت وسارت فى أمكنة بعيدة

(٢) الأندر : البيدر : الجرن الذى يدرس فيه القمح ونحوه ، ويعالجانه يعملان شيئا فيه لإصلاحه أو نحوه

مروان بن الحكم ، فأسكنهم السجن عشرين شهراً ، ثم دس لهم السم ، فماتوا جميعاً ، وأقصى من سائر قريش ثلاثين رجلا ، بعد أن أغرمهم مئة ألف ألف وباع عقر(١) أموالهم ورباعهم ، وحمل العذاب عليهم والنكال ، حتى أصارهم عالة يتكففون الناس ، متفرقين فى كور الشام ، وآفاق البلاد ، وصلب من الناس جملة ممن ألف هؤلاء القوم ، واتهم بمصانعتهم ومصاحبتهم ، وكانت ولايته فى ربيع الأول سنة إحدى ومئة ، ومات سنة ست ومئة .

ولاية هشام بن عبد الملك

قال : وذكروا أن عبد الملك بن مروان ، بينما هو يوما فى بعض بوادى الشام يتطوف ، إذ نظر إلى ساع يسعى إليه ، فوقف منتظراً له ، فلما قاربه قال له : ما وراءك ؟ فقال : ولدت المخزومية غلاما ، قال : فما سمته ؟ قال : هشاما. قال : هشم الله رأسها . فقال له قبيصة بن ذؤيب : ولم يا أمير المؤمنين ؟ قال : أخبرنى أبي مروان ، أنه سمع بشرة بنت صفوان تقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : راحة أصحابى معاوية ، ولا راحة لهم بعد معاوية وراحة العرب هشام ، ولا راحة لهم بعد هشام :

وذكروا أن هشاما صارت إليه الخلافة فى سنة ست ومئة ، فكان محمود السيرة ، ميمون النقيبة ، وكان الناس معه فى دعة وسكون وراحة ، لم يخرج عليه خارج ، ولم يقم عليه قائم ، إلا ماكان من قيام زيد بن على بن الحسين ، فى بعض نواحى الكوفة ، فبعث إليه ابن هبيرة ، وكان عامل الكوفة ، فأخذ زيد ، فأتى به ابن هبيرة ، فأمر بقتله دون رأى هشام ، فلما بلغ ذلك هشاما ، عظم عليه قتله ، وأعظم فعل ابن هبيرة ، واجترائه على قتل قرشى دون مشورة حتى جعل يقول : مثل زيد بن على فى شرفه وفضله يقتله ابن هبيرة ، وماكان عليه من قيامه ، إن هذا لهو البلاء المبين، ومازال ابن هبيرة مبغضا لأهل هذا البيت من آل هاشم وآل عبد المطلب، ووالله لا زلت لهم محبا حتى أموت ، ثم عزل ابن هبيرة عن الكوفة ، وأغرمه ألف ألف ، ولم يل له شيئا حتى مات ، وكانت أيام هشام عشرين سنة ، ولى سنة ست ومئة ، وتوفى سنة ست وعشرين ومئة ، بعد أن حج إحدى عشرة حجة ، وهو خليفة .

---

(١) عقر الأموال : أصولها وعقر الرباع أصولها أيضا ، والرباع هى الفصلان التى تنتج فى الربيع ، والمعنى أنه استولى على كل أموالهم من صامت وناطق

قدوم خالد بن صفوان بن الأهتم على هشام

قال : وذكروا أن شبيب بن شبة ، أخبرهم عن خالد بن صفوان بن الأهتم، قال : أوفدنى يوسف بن عمر إلى هشام فى وفد العراق ، فقدمت عليه ، وقد خرج متنديا(١) فى قرابته وأهله وحشمه ، وحاشيته من أهله إلى بعض بوادى الرصافة(٢) ، فنزل فى قاع صحصح(٣) أفيح ، فى عام قد بكر وسميه(٤) وقد ألبست الأرض أنواع زهرتها ، وأخرجت ألوان زينتها، من نور ربيعها فهى فى أحسن منظر وأجمل مخبر ، بصعيد كأن ترابه قطع الكافور ، فلو أن قطعة دينار ألقيت فيه لم تترب(٥) ، وقد ضرب له سرادقات من حبرات اليمن(٦) مزرورة بالفضة والذهب ، وضرب له فسطاطه فى وسطه ، فيه أربعة أفرشة من خز أحمر ، مثلها مرافقها ، وعليه دراعة(٧) خز أحمر وعمامة مثلها، وضربت حجر نسائه من وراء سرادقه، وعنده أشراف قريش ، وقد ضربت حجر بنية وكتابه وحشمه بقرب فسطاطه ، ثم أمر الربيع حاجبه ، فأذن للناس إذنا عاما ، فدخلوا عليه ، وأخذ الناس مجالسهم ، قال خالد : فأدخلت رأسى من ناحية السماط فأطرق ، ثم رفع رأسه ونظر إلىّ شبه المستنكر ، وكنت قد حليت عنده ببلاغة ، وفهم وحكمة . فقلت : أتم الله نعمته عليك يا أمير المؤمنين وكرامته، وسوغك شكره يا أمير المؤمنين ومد لك فى المزيد فيها بفضله، ثم وصلها بعد بطول العمر ، وتابع الكرامة الباقية التى لا انقطاع لها ، ولا نفاد لشىء منها ، حتى يكون آجل ذلك خيراً من عاجله ، وآخره أفضل من أوله ، وعاقبته خيرا من ابتدائه ، وجعل ما قلدك من هذا الأمر رشدا ، وعاقبته تئول إلى أحمد ودرك الرضا ، وأخلص لك ذلك بالتقوى ، وكثره لك بالنماء ، ولا كدر عليك منك ماصفا، ولا خالط

---

(١) متنديا : أى مجيبا لمن ندبه وطلب منه الخروج لزيارة بعض بوادى الرصافة

(٢) الرصافة : بضم الراء بلد بالشام ومحلة ببغداد ، وبلد بالبصرة وبلد بالأندلس والمراد هنا البلد التى بالشام

(٣) الصحصح : المستوى من الأرض ، والأفيح : الواسع

(٤) الوسمى : مطر أول الربيع

(٥) لم يصبها التراب لأنه غير موجود بسبب وجود النبات وذهاب التراب بسبب المطر

(٦) سبق شرحها قريبا وكذلك ما بعدها عندحج الوليد بن عبد الملك وإقامة السرادقات له

(٧) الدراعة : الثوب

سروره أذى ، فقد أصبحت للمسلمين ثقة وستراً ، يفزعون إليك فى أمورهم ويقصدونك فى حوائجهم ، وما أجد يا أمير المؤمنين ، جعلنى الله فداك شيئا ، أبلغ فى حقك وتوقير مجلسك ، إذ من الله علىّ بمجالستك ، والنظر إلى وجهك منى، وما أجد فيما أظهر ذلك إلا فى مذاكرتك نعم الله التى أنعم بها عليك ، وأحسن فيها إليك ، وأنبهك إلى شكرها ، ثم إنى لا أجد شيئا هو أبلغ فى ذلك ، ولا أجمع من ذكر حديث لملك خلا من الملوك ، كان فى سالف الأمم ، فإن أذن أمير المؤمنين أكرمه الله حدثته . قال : وكان هشام متكئا ، فاستوى جالسا وقال : هات يا بن الأهتم ، قال : قلت يا أمير المؤمنين ، إن ملكا كان فيما خلا من الملوك، مجتمعا له فيها فتاء السن واعتدال الطبائع ، وتمام الجمال ، وكثرة المال ، وتمكين الملك ، وكان له ذلك إلى البطر والمرح داعيا ، وعلى الغفلة والذهول معينا ، فخرج متنزها إلى بعض منازله . فصعد جوسقا(١) له ، فأشرف على أرض ، قد أخضلها ربيع عامه(٢) ، كان شبيها بعامك هذا يا أمير المؤمنين، فى خصبه وعشبه ، وكثرة زهره ، وحسن منظره ، فنظر فرجع إليه بصره كليلا عن بلوغ أقصى أمواله من الضياع والإبل والخيل والنعم . فقال لنفر من ناديه . لمن هذا ؟ قيل له : لك ، فأعجبته نفسه ، وما بسط له من ذلك ، حتى أظهر فرحه وزهوه ، ثم قال لجلسائه : هل رأيتم مثل ما أنا فيه ، أم هل أوتى أحد مثل ما أوتيت ؟ وكان عنده رجل من بقايا حملة الحجة والعلم ، والمضى على أدب الحق ومنهاج الصدق فى الضمير والمقالة ، وقد قيل : إن الله الجليل ، لم يخل الأرض منذ هبط آدم، من قائم يقوم بحجة الله فيها ، وكان ذلك الرجل ممن يسامره . قال : أيها الملك ، قد سألت عن أمر أفتأذن لى بالجواب فيه ؟ قال : نعم . قال : أرأيتك هذا الذى أعجبك مما عليه اطلع نظرك ، واستطال ملكك وسلطانك ، أشىء لم يزل لك ولم يزل عنك ، أم شىء كان لغيرك ، فزال عنه إليك ، ثم هو صائر إلى غيرك كما صار إليك ؟ قال الملك : بل كما ظننت ومثلت . قال : فإنى أراك أعجبت بما يفنى ، وزهدت فيما يبقى ، وسررت بقليل ، وحسابه غداً طويل . قال : ويحك فكيف المطلب ، وأين المهرب ، وما الحيلة فى المخرج ؟ قال : إحدى خصلتين ، إما أن تقيم فى ملكك ، فتعمل فيه بطاعة ربك على ما سرّك وساءك وأمضك ، وإما أن تضع تاجك ونجادك(٣) ، وتذكر ذنوبك ، وتلحق فى الخلاء بمن يغفر لك ، فتعبد فيه ربك ، حتى يوافيك أجلك ، وتنقضى مدتك ، وأنت عامل لربك فيما يعطيك . قال : فإذا فعلت ذلك فمالى ؟ فقال : ملك خالد لا يفنى ، ونعيم لا ينقضى ، ومزيد وكرامة ، وصحة لا تستقيم أبداً ، وسرور لا ينصرم ،

---

(١) الجوسق : القصر

(٢) أخضلها : بللها بالمطر

(٣) النجاد جمع نجد وهو ما ينجد به البيت من فرش وبسط ونحوها

وشباب لا يشوبه هرم ، وقرار لا يخالطه همّ . قال الملك : سأنظر إلى نفسي في الاختيار لما مما ذكرت لي ، فإذا كان وقت السحر ، فاقرع عليّ بابي لتعرف رأيي ، فإني مختار إحدى المنزلتين ، فإن أقمت في ملكي ، واخترت ما أنا فيه ، كنت وزيراً لا تعصى ، وإن خلوت كنت رفيقاً لا تجفى . فلما كان السحر . قرع عليه بابه ، فإذا هو قد وضع تاجه ،ولبس أطماره(١)، فلحقا بالجبل ، فلم يزالا يعبدان الله فيه ، حتى بلغ أجلهما ، وانقضى عمرهما . فبكى هشام حتى بلّ لحيته ، ثم نكس رأسه طويلا ، ثم أمر بنزع أبنيته وانتقاله ، وأقبلت العامة من الموالي على ابن الأهتم . فقالوا له : ما أردت لأمير المؤمنين ، أفسدت عليه لذّته ، ونغصت عليه شهوته ، وقد حرمتنا ما أملنا فيه . قال : إليكم عني ، فإني عاهدت الله ربي ، أني لا أخلو بملك إلا ذكرته الله ، ونبهته ورشدته . ثم رجع خالد إلى فسطاطه ، كئيباً حزيناً، متخوّفاً يظنّ أنه قد هلك ، وكان للربيع صديقاً . فبينما هو كذلك ، إذ أتاه رسول الربيع . فقال : يا صفوان ، يقول لك أخوك الربيع : من كان في حاجة الله ، كان الله في حاجته . إنك لما وليت من عند أمير المؤمنين جعل يقول : لله درّ ابن الأهتم ، أيّ رجل دنيا وأخرى، مره يا ربيع ، فليرجع حوائجه ، وليغد إلينا بها نقضها له . فقال الربيع : فاغد علينا بحوائجك رحمك الله ، واحمده على ما صنع ، وأذهب من مخافتك . فغدا عليه بحوائجه فقضيت . وذكروا أنه لم يكن في بني أمية ملك أعظم من هشام ، ولا أعظم قدراً ، ولا أعلى صوتاً منه ، دانت له البلاد ، وملك جميع العباد ، وأدّيت له الجزية من جميع الجهات ، من الروم والفرس والترك والإفرنج والزنج والسند والهند ، وكان قريباً من الضعفاء ، مهتماً بإصلاح الأدواء ، لم يجترىء أحد معه على ظلامة ، ولم يسلك أحد معه إلا سبيل الاستقامة ، وكان له موضع بالرصافة أفيح من الأرض ، يبرز فيه ، فتضرب له به السرادقات ، فيكون فيه ستين ليلة ، بارزاً للناس ، مباحاً للخلق ، لا يغني أيامه تلك إلا بردّ المظالم ، والأخذ على يد الظالم من جميع الناس ، وأطراف البلاد ، ويصل إلى مخاطبته بذلك الموضع ، راعي السوام(٢) ، والأمة السوداء ، فمن دونهما ، قد وكل رجالا أدباء عقلاء ، بإدناء الضعفاء والنساء اليتامى منه ، وأمرهم بإقصاء أهل القوّة والكفاية عنه ، حتى يأتي على آخر ما يكون من أمره ، فما يرفع إليه ، لا ينضمّ إليه رجل يريد الوصول إليه ، فينظروا أوضع منه إلا أدنوا الأوضع وأبعدوا الأرفع ، حتى ينظر في شأنه ، ويعرف أمره ، وينفذ فيه ما أمر ، ولا يرفع إليه ضعيف ، ولا امرأة أمراً ، وظلامة على غطريف(٣)من الناس مرتفع القدر ، ولا مستخدم به إلا أمر باقتضاء يمينه ، وأغداه بمطلبه ، لا يقبل لهم حجة ، ولا يسمع لهم بينة ، حتى لربما تمرّ به المرأة والرجل

(١) الأطمار : الثياب البالية — (٢) السوام : الإبل الراعية

(٣) الغطريف : السيد الشريف

أو عابر سبيل ، لا حاجة له فيما مرّ به . فيقال له : ما حاجتك ، وما قصتك ، وما ظلامتك ؟ فيقول : إنما سلكت أريد موضع كذا ، أروم بلد كذا ، فيقول له : لعلك ظلمك أحد من آل الخليفة تهاب أمره ، وتتوقع سطوته ، فذلك الذى منعك عن رفع ظلامتك إلى أمير المؤمنين ، فيقول : لا ، والله لا أبغى إلا ما قلت . فيقال له : اذهب بسلام ، حتى لربما أتت عليه ثارات من الليل ، وساعات من النهار لا ينظر فى شئ ، ولا يأتيه أحد فى خصومة لاستغناء الناس عن المطالب ، وتعففا من المظالم ، ووقاية من سطواته ، وتخوفا من عقوبته ، وقد وسع العباد أمنه ، وأشعرهم عدله ، وصارت البلاد المتنائية الشاسعة ، كدار واحدة ، ترجع إلى حاكم قاض ، يرقبه الناس فى المواضع النائية عنه كما يرقبه من معه ، وقد وضع العيون والجواسيس من خيار الناس ، وفضلاء العباد ، فى سائر الأمصار والبلدان ، يحصون أقوال الولاة والعمال ، ويحفظون أعمال الأخيار والأشرار ، قد صار هؤلاء أعقابا يتعاقبون ، ينهض قوم بأخبار ما بلوا فى العصر الذى كانوا فيه ، ويقبل آخرون يدخلون مسترقين ، ويخرجون متفرقين ، لا يعلم منهم واحد ، ولا يرى لهم عابر ، فلا خبر يكون ، ولا قصة تحدث ، من مشرق الأرض ولا مغربها إلا وهو يتحدث به فى الشام ، وينظر فيه هشام ، وقد قصر نفسه على هذه الحال ، وحببت إليه هذه الأفعال ، فكانت أيامه عند الناس أحمد أيام مرّت بهم ، وأعفاها وأرجاها ، قد لبس جلباب الهيبة على اهل العنود والكيود ، وارتدى برداء التواضع إلى أهل الخشوع والسكون ، وكان قد حبب إليه التكاثر من الدنيا والاستمتاع بالكساء ، لم يلبس ثوباً قط يوما ، فعاد إليه ، حتى لقد كان كساء ظهره ، وثياب مهنته ، لا يستقل بها ، ولا يحملها إلا سبعة مئة بعير ، من أجلد ما يكون من الإبل ، وأعظم ما يحمل عليه من الجمال ، وكان مع ذلك يقللها ، وطالت أيامه ، واستبطأ صاحب العهد بموته ، فناوأه وعاداه ، وانتقل عن الموضع الذى كان به هو والوليد بن يزيد ابن عبد الملك ، فمات هشام والوليد غائب ، فأتاه موته ، فأمر بقفل الخزائن ، فلم يجدوا لهشام ما يكفنونه به ، واستؤذن الوليد فى إقباله ، فلم يدفن هشام حتى قدم الوليد ، وذلك فى ثلاثة أيام .

بدء الفتن والدولة العباسية

قال : وذكروا أن الهيثم بن عدىّ أخبرهم ، قال : اختلفت روايات القوم الذين عنهم حملنا ورويناه ذكر الدولة ، فحملنا عنهم ما اختلفوا فيه وألفناه ، فكان أوّل ما اختلفت فيه الرواية ، ولم تلائمه الحكاية ، أشياء سنذكرها فى موضعها من هذا الكتاب إن شاء الله ، واقتصرنا على معانيها ، وقيدنا بعض ألفاظها لطول أخبارها ، واجتنبنا الجزل السمين من اللفظ ، ورددنا هزيله لنزر فائدته ، وقلة عائدته ، وقد اختصرنا وأشبعنا إذ لم نترك من المعانى المتقدمة شيئاً ، والله الموفق للصواب .

فكان مما ألفنا بدءاً من ذكر الدولة ، وما أخبرنا عن الهيثم بن عدىّ ، عن الرجال الذين حدّثوه . قالوا : لما سلم الحسن بن علىّ الأمر إلى معاوية بن أبى سفيان ، قامت الشيعة من أهل المدينــة ، وأهل مكة ، وأهل الكوفة ، واليمن ، وأهل البصرة ، وأرض خراسان ، فى ستر وكتمان ؛ فاجتمعوا إلى محمـــد بن علىّ ، وهو محمد بن الحنفية ، فبايعوه على طلب الخلافة إن أمكنه ذلك ، وعرضوا عليه قبض زكاتهم ، لينفقوها يوم الوثوب على فرصته ، فيما يحتاج من النفقة على مجاهدته ، فقبلها ، وولى على شيعة كلّ بلد رجلاً منهم ، وأمره باستدعاء من قبله منهم ، فى سرّ وتوصية إليهم ، ألا يبوحوا بمكتومهم ، إلا لمن يوثق به ، حتى يرى للقيام موضعاً . فأقام محمد بن الحنفية : إمام الشــيعة قابضاً لزكاتهم ، حتى مات . فلما حضرته الوفاة ، ولى عبد الله ابنه من بعده ، وأمره بطلب الخلافة إن وجد إلى ذلك سبيلا ، وأعلم الشيعة بتوليته إياه ، فأقام عبد الله بن محمد بن علىّ ، وهو أمير الشيعة ، فبلغ ذلك سليمان بن عبدالملك ، فى أوّل خلافته ، أن الشيعة قد بايعت عبد الله بن محمد بن علىّ ، بعد أبيه ، فبعث إليه ، وقد أعدّ له فى أفواه الطرق رجالا ، معهم أشربة مسمومة ، وأمرهم إذا خرج من عنده أن يعرضوا عليه الشراب . فلما دخل على سليمان ، أجلسه إلى جانبه . ثم قال له : بلغنى أن الشيعة بايعتك على هذا الأمر ، فجحده عبدالله وقال : بلغك الباطل ، وما زال لنا أعداء يبلغون الأئمة قبلك عنا مثل ما بلغك ، ليُغْرُوهم بنا ، فيدفع الله عنا كيد من ناوأنا ، وأنا بما يلزمنى من مؤنتى أشغل منى بطلب هذا الأمر ، ثم خرج من عنده فى وقت شديد الحرّ ، فكان لا يمرّ بموضع إلا قام إليه الرجل بعد الرجل ، يقول له : هل لك فى شربة سويق اللوز ، وسويق كذا وكذا يا بن بنت رسول الله ، ونفسه موجسة منهم ، فيقول : بارك الله لكم ، حتى إذا خرج إلى آخر الطريق ، خرج إليه رجل من خبائه ، وبيده عسّ (١) ، فقال له : هل لك فى شربة من لبن يابن بنت رسول الله ؟ فوقع فى نفسه أن اللبن مما لا يسمّ ، فشرب منه ثم مضى ، فلم ينشب أن وجد للسمّ حساً (٢) ، فاستدلّ على الطريق إلى الحميمة (٣) ، وبها جماعة آل عباس ، وقال لمن معه : إن متّ ففى أهلى ، ثم توجه فنزل على محمد بن علىّ بن عبد الله بن عباس فأخبره الخبر ؛ وقال له : إليك الأمر ، والطلب للخلافة بعدى ، فولاه ، وأشهد له من الشيعة رجالاً ، ثم مات . فأقام محمد بن علىّ بن عبد الله بن عباس ، ودعوة الشيعة له حتى مات ، فلما حضرته الوفاة ، ولى محمد بن إبراهيم الأمر ، فأقام وهو أمير الشيعة ، وصاحب الدعوة بعد أبيه .

---

(١) العس بضم العين : القدح العظيم مثل الكوز الكبير عندنا
(٢) أى أحس بسريان السم فى جسمه
(٣) الحميمة : بضم الحاء وفتح الميم وسكون الياء بلدة صغيرة بالبلقاء بالشام

دخول محمد بن عليّ على هشام

قال : وذكروا أن محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس دخل ، وهو شيخ كبير قد غشى بصره على هشام بن عبدالملك ، متوكئاً على ولديه أبى العباس وأبى جعفر ، فسلم . ثم قال له هشام : ما حاجتك ؟ ولم يأذن له فى الجلوس ، فذكر قرابته وحاجة به ، ثم استجداه . فقال هشام : ما هذا الذى بلغنى عنكم يا بنى العباس ، ثم يأتي أحدكم وهو يرى أنه أحقّ بما فى أيدينا منا ، والله لا أعطيتك شيئاً . فخرج محمد بن عليّ ، فقال هشام كالمستهزىء : إن هذا الشيخ ليري أن الأمر سيكون لولديه هذين ، أو لأحدهما ، فرجع محمد نحوه فقال : أما والله إنى أرى ذلك على رغم من رَغِم . فضحك هشام وقال : أغضبنا الشيخ ، ثم مضى محمد بن عليّ .

ولاية الوليد بن يزيد وفتن الدولة

قال : وذكروا أن الوليد بن يزيد لما تولى الأمر بعد هشام ، أساء السيرة ، وانتحى على أهله وجماعة قريش ، وأحدث الأحداث العظيمة ، وسفك الدماء وأباح الحرم ، وكانت ولايته فى سنة ستّ وعشرين ومئة . فلما استولى على الأمر بعث إلى أشراف الأجناد ، فقدموا عليه وقدم خالد فيمن قدم ، فلم يأذن لواحد منهم ، وكان مشتغلا بلهوه ولعبه ، ومرض خالد ، فاستؤذن له فى الانصراف فأذن له ، فانصرف إلى دمشق ، فأقام بها شهراً . ثم كتب إليه الوليد : إن أمير المؤمنين قد علم الخمسين ألف ألف التى تعلم ، فأقدم بها على أمير المؤمنين مع رسوله ، فقد أمره أن لا يعجلك عن جهازك ، فبعث خالد إلى عدّة من ثقاته ، فيهم عمارة بن أبى كلثوم ، فأقرأهم كتاب الوليد وقال : أشيروا علىّ برأيكم . فقالوا : إن الوليد ليس بمأمون ، فالرأى أن تدخل مدينة دمشق ، فتأخذ بيوت الأموال ، وتدعو إلى من أحببت ، والناس قومك ، ولن يختلف منا عليك اثنان . فقال لهم : وماذا ؟ قالوا : تأخذ بيوت الأموال ، وتجمع إليك قومك حتى تتوثق لنفسك . قال : وماذا ؟ قالوا : تتوارى . فقال : أما قولكم أن أدعو إلىّ من أحببت ، فإنى أكره أن تكون الفرقة على يدى ، وأما قولكم أن آخذ بيوت الأموال حتى أتوثق لنفسى ، فأنتم لا تأمنونى عليها ولا ذنب لى ، فكيف لى ترجون وفاء بما يعطينى . وقد فعلت ما فعلت ، وأما قولكم فى التوارى ، فوالله ما قنّعت رأسى خوفاً من أحد قطّ ، فالآن وقد بلغت من السنّ ما بلغت ؟ ، ولكنى أمضى ، وأستعين بالله تعالى .

قتل خالد بن عبد الله القسرى

قال : وذكروا أن خالد بن عبد الله القسرى ، شخص إلى الوليد بن يزيد حتى قدم على معسكره ، فلم يدعُ به الوليد ولم يكلمه ، وهو يختلف إليه غدْوة وعشية ، حتى قدم برأس يحيى بن زيد بن علىّ بن الحسين من خراسان ، فجمع الناس الإذن ، فحضر الأشراف ، وجلس الوليد ، وجاء خالد إلى الحاجب فقال : إن حالى كما ترى ، لا أقدر على المشى ، وإنما أحمل فى الكرسى . قال الحاجب : ما يدخل أحد على أمير المؤمنين على هذه الحال ، ثم أذن له فحمله على كرسيه ، ثم دخل على الوليد وهو جالس فى سريره ، والمائدة موضوعة . فلما دخل عليه قال له الوليد : أين ولدك يزيد بن خالد . فقال : قد أصابه من هشام ظفرٌ ، فخلى سبيله ، ثم طلب فهرب ، فكنا نراه عند أمير المؤمنين حتى استخلفه الله . فقال له الوليد : لكنك خلفته طلبا للفتنة . فقال خالد : قد علم أمير المومنين أنا أهل بيت طاعة أنا وأبى وجدى . فقال له الوليد : لتأتينى بابنك أو لأزهقنّ نفسك ، فقال له خالد : هذا الذى تدور عليه ، وهو الذى تريد ؟ والله لو كان ابنى تحت قدمىّ ما رفعتهما لك ، فاصنع ما بدا لك . فأمر الوليد غَيْلان صاحب حرسه بالبَسط[1] عليه والأخذ له ، وقال له : أسمعنى صوته ؛ فذهب به غيلان إلى رحله ، فعذّبه بالسلاسل والحديد، فلم يتكلم بكلمة ، فرجع غيلان إلى الوليد فقال له : والله لا أعذّب إنساناً لا يتكلم . فقال له : كفّ عنه واحتبسه ، ففعل ، فقام يوسف بن عمر فقال : أنا أشتريه بخمسين ألف ألف ، فأرسل الوليد إلى خالد أن يوسف بن عمر قد سأل أن يشتريك بخمسين ألف ألف ، فإن ضمنتها لأمير المؤمنين ، وإلا دفعتك إليه . قال خالد : ماعهدنا العرب تباع ، فدفعه إلى يوسف بن عمر ، فنزع ثيابه ، وألبسه عباءة وألحفه[2] أخرى ، وحمله على محمل ليس تحته وطاء[3] ، فبسط[4] عليه وعذّبه ، وخالد لا يكلمه بكلمة ، ثم ارتحل ، حتى إذا كان ببعض الطريق عذّبه يوما ، ثم وضع المِضْرَسة[5] على صدره ، فقتله فى الليل ، فدفن فى الحيرة ، وذلك فى المحرّم سنة سبع وعشرين ومئة .

---

(١) البسط عليه : التسلط عليه وعمل بما يضره ويؤذيه

(٢) ألحفه أخرى : جعل العباءة الأخرى ملحفة له كالشال الذى يوضع على الرقبة

(٣) أركبه دابة بدون سرج ولا برذعة ولا شىء يفصل بين جسم الدابة وجسمه

(٤) بسط عليه : تسلط عليه وعمل به مايحلو له من الأذى

(٥) المضرسة : بكسر الميم وسكون الضاد: حجر ثقيل أو آلة ثقيلة تكسر بها الحجارة وتهرس

وثوب أهل دمشق على الوليد بن يزيد وقتله

قال : وذكروا أن يزيد بن خالد دبّ في أهله ، وتحمل في عشائره ، فاجتمع أمرهم على الوليد بن يزيد ، فبينما هم يديرون أمرهم ، إذ انطلق ساع إلى الوليد قال له : أدلك على يزيد بن خالد . قال : نعم . فبعث الوليد مولى له ، وأمره أن يكمن النهار ، ويسير الليل ، حتى أتى دمشق ليلا ، ويزيد مختف بدمشق ، في منزل رجل عند باب السوق ، فاقتحم عليه المنزل فأخذه ، وشخص به من ساعته حتى قدم على الوليد ، فأمر بالبعث به إلى يوسف بن عمر بالعراق ، قال له يزيد : ياأمير المؤمنين ، أنا أدفع لك الخمسين ألف ألف التي طلبت من خالد في ثلاث سنين ، على أن تكتب إلى الآفاق ، بأمان من كانت لي عنده وديعة ، وأمان فيه ذمتي وموالي ، فقبل منه الوليد ذلك ، فأمر بالكتب إلى العراق والحجاز وكور الشام في ذلك ، واحتبس يزيد عنده ، وجعل عليه القيود والحرس ، ثم ارتحل الوليد ومعه خدَمته وشرطته ، وتواعد أهل اليمن أن يثوروا إذا صلوا العتمة[1] في المسجد ، وكانت العلامة بينهم أن يلتمس أحدهم صاحبه . فلما تفرّق أهل المسجد ، خرجوا ، فاستخرجوا يزيد بن الوليد من منزله ، ثم أتوا به القصر ، وعلى دمشق يومئذ رجل من بني الحجاج ، وكان قد خرج من الطاعون ، واستخلف رجلا من قيس ، فدخلوا عليه ، فأوثقوه كتافا ، وأوثقوا كلّ من خافوا خلافه ، فتسلل رجل حتى أتى الوليد بن يزيد ، فأخبره الخبر ، فلما أصبحوا غدوا إلى الوليد ، فبعث الوليد في طلب يزيد بن خالد ، وهو عنده في الحديد . فقال له : إن قومك قد خرجوا بين يدي الوليد ، فارددهم عن أمير المؤمنين ، ولك الله أن أوليك العراق ، وأدفع إليك يوسف تقتله بأبيك ، فقال له يزيد ابن خالد : وتوثقني يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم ، فتوثق له وحلف ، قال : فأرسلني إليهم حتى أردّهم عنك . فقال له الوليد : بل اكتب إليهم . قال : إن كتابي لا يغني شيئاً ، وقد علموا أني في يديك ، وأني سأكتب بما تريد ، فأمر بإطلاقه من الحديد ، وردّه إلى حبسه ، وأمر الحرس يتحفظون به ، ثم ارتحل الوليد بيزيد بن خالد معه ، فلما كان الفجر : صبحته أوائل الخيل ، خيل أهل اليمن ، فأرسل الوليد إلى يزيد بن خالد . فقال له يزيد : خلّ عني حتى أردّهم عنك ، فبينما هم على ذلك ، إذ التقى القوم ، فشدّت الميمنة ، وقد طلعت الشمس ، واختلط الناس وكثر القتل ، وتخلص يزيد بن خالد من الحرس ، فأتوه ببرذون من براذين الوليد ، وأتى بسيف فتقلده ، ثم نادى مناديه : من جاء برأس الوليد ، فله مئة ألف دينار ، ونودي في العسكر : من دخل رحله فهو آمن . فنادى الوليد : ياأهل الشام ، ألم أحسن إليكم ،

---

(١) العتمة : بفتح العين والتاء : العشاء

ألم أفعل كذا ، فعدّد إحسانه . فقال عبد السلام : بلى قد فعلت ، ولكنك عمدت إلى شيخنا وسيدنا خالد بن عبد الله قد عزله الخليفة قبلك ، وأخذ أمواله ، ثم خلى عنه ، فدفعته إلى يوسف بن عمر بالبيع فأدْرعه(١) ، ثم حمله على محمل بلا وطاء ، ثم انطلق به فعذّبه ، حتى قتل شرّ قتل يكون . فقال لهم الوليد : فاخلعونى فى قميصى هذا ، وولوا من شئتم ، فانصرفوا إلى قومهم ، فأعلموهم بما رضى من الخلع . فقالوا : لا إلا رأسه ، فتدلى القوم إلى القصر ، وانتهى يزيد بن خالد إلى الباب ، وعليه سلسلة ، فأمر بها فكسرت ، وكسر الباب ، وخرج الوليد يسعى ، حتى دخل بيتا من بيوت القصر ، ودخل عليه نحو من ثلاثين رجلا ، وهو قائم بيده السيف ، منكسا رأسه لا ينظر إليهم ، وهو يذب(٢) عن نفسه ، فضربه رجل ، ضربة ، ثم صرعه(٣) ، ثم أكب(٤) عليه فاحتزّ رأسه ، فخرج به وانصرف الناس إلى دمشق فبايع الناس ليزيد بن الوليد بن عبد الملك . وذلك فى ذى الحجة من سبع وعشرين ومئة ، فكان خليفة ستة أشهر ، ثم مات فى جمادى الأولى . ثم ولى إبراهيم بن الوليد فبويع له فى جمادى الأولى ، فمكث ثلاثة أشهر ، ثم خلع وهرب .

ولاية مروان بن محمد بن مروان بن الحكم

قال : وذكروا أنه لما خلع إبراهيم بن الوليد ، خرج مروان بن محمد فى صفر ، سنة سبع وعشرين ومئة ، ومعه أهل الجزيرة ، وأهل حمص ، فدعا إلى نفسه بالبيعة ، ووعد الناس خيرا فرضى به أكثر الناس لشجاعة كانت فيه ، وسخاء يوصف به ، فملك الشام ، واستقلّ له الأمر ، وغلظ شأنه ، واستعلى سلطانه ، وبايع له أهل العراق والحجاز ، وهابه الناس وخافوه ، واستعمل العمال فى الآفاق والأمصار ، وكانت الشيعة تتكاتب على الكتمان لذلك ، وتتلاقى على السرّ . قال : فلما كانت سنة ثمان وعشرين ومائة اجتمعت الشيعة .

خروج أبى مسلم الخراسانى

قال : وذكروا أن الشيعة لما اجتمعت ، وغلظ أمرهم بخراسان ، قدم منهم سليمان ابن كثير ، وقحطبة بن شبيب ، فلقوا إبراهيم بمكة . فقالوا : قد قدمنا بمال . قال : وكم هو ؟ قالوا عشرين ألف دينار ومائتى ألف درهم ومسك ومتاع قال : ادفعوه إلى عروة

---

(١) أدرعه : ألبسه الدرع وهو القميص فقط

(٢) يذب : يدافع

(٣) صرعه : طرحه على الأرض

(٤) أكب عليه : انحنى عليه

مولى محمد بن علىّ ، ففعلوا ، فكان يحي بن محمد يتبعهم ويسألهم ، فيقول : ماقصتكم وفى أىّ شىء جئتم ؟ فلا يخبرونه ، فذكروا ذلك لإبراهيم . فقال احذروه ، فإنه قليل العقل ، ضعيف الرأى . فجاء إلى إبراهيم فقال له : إن على دينا ، والله لئن لم تعطنى قضاء دينى ، لأرفعنّ أمرك إلى عبد العزيز بن عمر ، وهم يومئذ على الموسم ، فأعطاه خمسة آلاف درهم ، وقدموا بأبى مسلم معهم ، وقد خرج أصحابه من السجن ، فأعلموا إبراهيم أنه مولاه . فقال لسليمان : قد ربَا(١) أمركم ، فأنت على الناس ، فاخرج إلى خراسان ، وقد كان أبو مسلم قدم على إبراهيم قبل أن ينصرف أصحابه ، فرأى عقله وظرفه . فكتب إلى أصحابه : إنى قد أمرّته على خراسان ، وما غلب عليها ، فأتاهم فلم يقبلوا قوله ، وخرجوا من قابل ، فالتقوا بمكة ، فأعلمهم أبو مسلم أنهم لم ينفذوا كتابه . قال إبراهيم : إنه قد أجمع رأيه على هذا ، فاسمعوا له وأطيعوا . ثم قال لأبى مسلم : يا أبا عبد الرحمن إنك رجل منا أهل البيت ، فاحفظ وصيتى ، انظر هذا الحىّ من اليمن فأكرمهم ، فإن الله لا يتمّ هذا الأمر إلا بهم ، وانظر هذا الحىّ من ربيعة ، فإنهم معهم ، وانظر هذا الحىّ من مضر ، فإنهم العدوّ القريب الدار ، فاقتل من شككت فى أمره ، ومن وقع فى نفسك منه تهمة . فقال : أيها الإمام ، فإن وقع فى أنفسنا من رجل هو على غير ذلك ، أحبسه حتى تستبينه ؟ قال : لا ، السيف السيف ، لا تتقى العدوّ بطرف(٢) . ثم قال للشيعة : من أطاعنى فليطع هذا ، يعنى أبا مسلم ، ومن عصاه فقد عصانى . ثم قال له : إن استطعت أن لا تدع بخراسان أرضا فيها عربىّ فافعل ، وأيما غلام بلغ خمسة أشبار ، فاتهمته فاقتله ، ولا تخالف هذا الشيخ ، يعنى سليمان بن كثير ، ولا تعصه ، فشخصوا إلى خراسان ، ووقعت العصبية بخراسان ، بين نصر بن سيّار ، وكان عامل مروان عليها ، وبين الكرمانى . فدخل على نصر بن سيار رجل فقال له : إن مروان ابن محمد قد خالف ما ظنّ به الناس : وقد كان رُجى وأملّ ، وما أرى أمره إلا وقد انتقض ، واجترأت عليه الخوارج ، وانتقضت عليه البلاد ، وخرج عليه ثابت بن نعيم ، ورأى الاشتغال بلذّاته أهمّ عليه ، فلو اجتمعت كلمتك مع الكرمانى فإنى خائف أن يوقعك هذا الخلاف فيما نكره وأنت شيخ العرب وسيدها ، وأرى والله فى هذه الكور شيئاً ، وأسمع أمورا أخاف أن تذهب ، أو تذهل منها العقول . فقال نصر بن سيار : والله ما أتهم عقلك ولا نصيحتك ، ولكن اكفف عن هذا القول ، فلا يسمعنّ منك ، فالتحم ما بين الرجلين ، وهاجت الحرب وتقاتلوا ، وجعلت رحال الشيعة تجتمع فى الكور الألف والألفان ، فيجتمعون

---

(١) ربا أمركم : زاد وارتفع شأنكم
(٢) الطرف = المنظر

فى المساجد ، ويتعلمون : أى يتعارفون بينهم ، فبلغ ذلك نصراً ، واغتمّ لذلك ، وخاف إن وجه إليهم من يقاتلهم أن يتجاوزوا إلى الكرمانى ، فلما استفحل أمر القوم ، وقام بأمرهم أبو مسلم الخراسانى ، ثم اجتمعوا وأظهروا أمرهم . كتب نصر بن سيار إلى مروان ابن محمد :

أرى خلل الرماد[1] وميض نار ... ويوشك أن يكون له ضرام[2]
فإنّ النار بالعودين تذكى ... وإنّ الحرب أوّلها الكلام
أقول من التعجب : ليت شعرى ... أأيقاظ أميّة أم نيـام
فان كانوا لحينهم نياما ... فقل قوموا فقد حان القيام
ففرّى عن رحالك ثم قولى ... على الإسلام والعرب السلام

فكتب إليه مروان : إن الشاهد يرى ما لايرى الغائب . فقال نصر لما قرأ الكتاب : أما صاحبكم فقد أعلمكم أن لانصر عنده ، وجعل أبو مسلم يكتب الكتب ، ثم يقول للرسل : مرّوا بها على اليمانية ، فإنهم يتعرضون لكم ، ويأخذون كتبكم ، فإذا رأوا فيها أنى رأيت المضرية لا وفاء لهم ، ولا خير فيهم ، فلا تثق بهم ، ولا تطمئنّ إليهم، فإنى أرجو أن يريك الله فى اليمانية ما تحبّ ، ويرسل رسولا آخر بمثل ذلك على اليمانية . فيقول : مرّ على المضرية ، فكان الفريقان جميعا معه ، وجعل يكتب إلى نصر بن سيار ، وإلى الكرمانى : أن الإمام قد أوصانى بكم ، ولست أعدو رأيه فيكم ، فجعل نصر يقول : ياعباد الله ، هذه والله الذلة ، رجل بين أظهرنا يكتب إلينا بمثل هذا ، لانقدر له على ضرّ ولا نفع ، فلما تبين القوم أن لانصير لهم كتب أبو مسلم إلى أصحابه فى الكور ، أن أظهروا أمركم ، فكان أوّل الناس من سوّد[3] أسيد بن عبد الله ، فنادى : يا محمد ، يامنصور ، فسود معه العكى ، ومقاتل بن حكم ، وعمر بن غزوان ، وأقبل أبو مسلم حتى نزل الخندقين فهابه الفريقان جميعا . فقال : لست أعرض لواحد منكم ، إنما ندعو إلى آل محمد ، فمن تبعنا فهومنا ، ومن عصانا فالله حسيبه . فلما جعل أصحابه يكثرون عنده . وهو يطمع الفريقين جميعا فى نفسه . كتب نصر بن سيار : إلى مروان بن محمد ، يذكر استعلاء أمر أبى مسلم ، ويعلمه بحاله وخروجه ، وكثرة شيعته ، وأنه قد خاف

---

(١) خلل الرماد : التراب وخلله بين جباته ، وتحته ، ووميض النار لمعانها
(٢) ضرام : اشتعال
(٣) بفتح السين وتشديد الواو اتخذ شعار السواد ، وهو لبس الأسود وكان شعار الدولة العباسية لبس الأسود

أن يستولى على خراسان ، وأنه يدعو إلى إبراهيم بن محمد ، فأتى مروان الكتاب ، وقد أتاه رسول أبى مسلم بجواب إبراهيم ، فأخذ جواب إبراهيم ، وفيه لعن إبراهيم لأبى مسلم ، حين ظفر بالرجلين ، ألا يدع بخراسان عربيا إلا قتله ، فانطلق الرسول بالكتاب إلى مروان ، فوضعه فى يده . فكتب مروان إلى الوليد بن معاوية ، وهو على دمشق : أن اكتب إلى عاملك بالبلقاء ، فليأخذ إبراهيم بن محمد فليشدّه وثاقا ، ثم يبعث به إليك ، ثم وجه به إلىّ ، فأتى إليه وهو جالس فى مسجد القرية ، فأخذ إلى دمشق ، ودخل على مروان ، فأنبه وشتمه ، فاشتدّ لسان إبراهيم عليه ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ، ما أظنّ ما يروى الناس عنك إلاحقا فى بعض بنى هاشم . فقال : أدركك الله بأعمالك ، اذهب به ، فإن الله لا يأخذ عبداً عند أوّل ذنب ، اذهب به إلى السجن . فقال أبو عبيدة : فكنت آتيه فى السجن ، ومعه عبد الله بن عبد العزيز ، فوالله إنى ذات ليلة فى سقيفة السجن ، بين النائم واليقظان ، إذ مولى لمروان قد استفتح ، ومعه عشرون رجلا من موالى مروان ، من الأعاجم ، ومعه صاحب السجن ، ففتح لهم فدخلوا ، وأصبحنا فإذا عبد الله بن عمر ، وإبراهيم بن محمد ميتان ، فانكسر لذلك أبو مسلم بخراسان ، إذا بلغه موت إبراهيم ، وانكسرت الشيعة ، واستعلى أمر الكرمانى ؛ فلما رأى أبو مسلم ذلك قال له : إنا معك ، ثم داوت الأحوال بين نصر والكرمانى ، حتى غدر نصر بالكرمانى فقتله وصلبه ، فخاف نصر على نفسه من أبى مسلم .

ذكر ما أمال أصحاب الكرمانى إلى أبى مسلم

قال : وذكروا أن أبا مسلم كتب إلى نصر : إنه قد جاءنا من الإمام كتاب فهلمّ نعرضه عليك ، فإن فيه بعض ما تحبّ ، فدخل عليه رجل فقال : إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك، فاخرج إنى لك من الناصحين . فقال نصر : ادخل فالبس ثيابى ، فدخل بستاناً له ، وقد تقدم إلى صاحب دوابه ، فأتاه بدوابّ ، فركب وهرب ، معه داود بن أبى داود ، وهرب معه بنوه، وتفرّق أصحابه ، وجاء القوم إلى أبى مسلم فأعلموه أنه قد خرج ، ولا يدرون أين توجه ، فاستولى أبو مسلم على خراسان ، فاستعمل عليها عماله ، ثم وجه أبا عون فى ثلاثين ألفا إلى مروان ؛ فلما بلغ مروان الخبر خرج حتى أتى حرّان ، فتحمل بعياله وبناته وأهله ، وقد كان يتعصب قبل ، لجفا أهل اليمن وأهل الشام وغيرهم ، وقتل ثابت بن نعيم ، والسمط بن ثابت ، وهدم مدائن الشام ، وتحول إلى الجزيرة . قال اسماعيل بن عبد الله القسرى : دعانى مروان فقال : ياأبا هاشم وما كان يكنينى قبلها ، قد ترى ما حل من الأمر وأنت الموثوق به ، ولا نخبأ بعد بؤس ، ما الرأى ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين على ما أجمعت ؟ قال : على أن أرتحل بموالى

وعيالى وأموالى ، ومن تبعنى من الناس حتى أقطع الدرب ، ثم أميل إلى مـــدينة من مدائن الروم ، فأنزلها ، وأ كاتب صاحب الروم ، وأستوثق منه ، فما يزال يأتينى الخائف والهارب حتى يلتف أمرى . قال إسماعيل : وذلك والله الرأى . فلما رأيت ما أجمع عليه ، ورأيت سوء آثاره فى قومى ، و بلائه القبيح عندهم ، قلت له : أعيذك بالله ياأمير المؤمنين من هـذا الرأى ، أن تحكم فيك أهل الشرك ، وفى بناتك وحرمك ، وهم الروم لا وفاء لهم ، ولا تدرى ماتأتى به الأيام ، فإن أنت حدث عليك حادث بالروم ، ولا يحدث إلا خير ، ضاع أهلك من بعدك ، ولـكن اقطع الفرات ، ثم استدع الشام جندا جندا ، فإنك فى كنف وجماعة وعزة ، ولك فى كل جند صارم يسيرون معك ، حتى تأتى مصر ، فإنها أ كثر أرض الله مالا ورجالا ، ثم الشام أمامك ، وأفريقيه خلفك ، فإن رأيت ما تحب انصرفت إلى الشام ، وإن كانت الأخرى مضيت إلى أفريقية . قال : صدقت ، ثم استخار الله وقطــع الفرات ، فمرّ بكور من كور الشام ، فوثبوا عليه ، فأخذوا مؤخر عسكره فانتهبوه ، ثم مرّ بحمص فصنعوا له مثل ذلك ، ثم مرّ بأهل دمشق فوثبوا عليه ، ووثب به الوليد بن معاوية ، وكان عامل مروان على دمشق ، ثم مضى إلى الأردن ، فوثب به هاشم بن عمر ، ثم مرّ بفلسطين فوثب به الحـكم ، ثم مضى إلى مصر فاتبعه الحجاج بن زمل السكسكى . فقيل له : أتتبعه وقـد عرفت بغضه لقومك ؟ فقال : ويحـكم إنه أ كرمنى لمثل هذا اليوم لآخذ له ، وتبعه أيضاً أبو سلمة الخـلال وثعلبة بن سلامة ، وكان عامله على الأردن ، وتبعه أيضاً الرّحِس فقال : إنى لأسير مع مروان حيث جزنا فلسطين . فقال : يارماحِس[1] انفرجت عنى قيس انفراج الرأس مايتبعنى منهم أحد ، وذلك أنا وضعنا الأمر فى غـــير موضعه ، وأخرجناه من قوم أيدنا بهم ، وخصصنا به قوما ، والله مارأينا لهم وفاء ولا شكراً .

تولية أبى مسلم قحطبة بن شبيب قتال مروان

قال : وذكروا أن الهيثم بن عـــدىّ أخبرهم عن رجال أدركوا الدولة وصحبوا أهلها . قالوا : لمـا استولى أبو مسلم على خراسان ، وولى قحطبة الطائى قتال مروان بن محمد ، وبعث معه ثلاثين ألفا من رجال اليمن وأهل الشيعة ، وفرسان خراسان ، وخرج مروان وهو يريد أبا مسلم بخراسان ، ومعه مئة ألف فارس سوى أصحاب الحَمُولة ، فهـــرب من بين يديه أبو العباس ، وأبو جعفر ، وعيسى بن علىّ بن عبد الله بن عباس ، فلحقوا بالـكوفة ، فبعث أبو العباس إلى أبى سلمة الخلال ، واسمه حفص بن سليمان ، وكان والياً لإبراهيم بن محمد على

---

(١) الرماحس بضم الراء وكسر الميم : الشجاع المجترىء .

الشيعة بالكوفة فأمره إن بلغه أمر فيه قوة لأبي مسلم بخراسان أن يظهر أمره بالكوفة ، ويدعو إليه ، ويناهض صاحب الكوفة ، ففعل ذلك أبوسلمة ، فلما غلظ أمر أبي مسلم بخراسان ، واستولى عليها ، وبعث الجيوش إلى مروان أظهر أمره بالكوفة ، وطرد عامل الكوفة ، فخرج هارباً .

ذكر البيعه لأبي العباس بالكوفه

قال : وذكروا أن أبا مسلم لما بلغه أن أباسلمة قد أظهر أمره بالكوفة ، ودعا إلى محمد، وجه رجلا من قوّاده إلى الكوفة في ألفي فارس ، وأمره أن يسرع السير حتى يأتيها ، فأقبل ذلك القائد حتى دخل الكوفة ، فلقي غلاما أسود لأبي العباس ، فقال له : أين مولاك ؟ قال : هو في دار هاهنا . قال : دلني عليه ، فدله على الدار ، فاستفتح الباب ، ثم دخل عليه ، فسلم عليه بالخلافة ، وكان أبو سلمة يريد صرف الخلافة إلى ولد عليّ بن أبي طالب ، وكان ينهى أبا العباس عن الخروج ، ويقول له : إن الأمر لم يتمّ ، وإن موالي بني أمية قائمون بالحرب ، والأمر أشدّ مما كان . فقال أبو العباس : إن أبا سلمة منعني عن الخروج حتى يولي العمّال ويعمل الخراج . فقال القائد : لعن الله أبا سلمة ، والله لاأجلس حتى تخرج إلى الناس ، فخرج له مع رجاله إلى المسجد ، ونودى الصلاة جامعة ؟ فصعد أبو العباس المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ، ثم ذكر بني أمية وسوء آثارهم ، وذكر العدل فحض عليه ، ووعدالناس خيراً ، ورجا لهم الإصلاح وقسمة الفيء على وجهه ، ثم دخل الإمارة ، وجلس الناس ؟ فلما بلغ أبا سلمة خروجه أتاه يعتذر إليه ، فقبل ذلك منه ، وأراه المكانة منه ، والخاصة به ، وقد كان علم أبو العباس الذي أراد أبو سلمة من صرف الخلافه إلى ولد عليّ بن أبي طالب .

حرب مروان بن محمد وقتله

قال : وذكروا أن قحطبة بن شبيب ، لما انتهى إلى بعض كور الشام ، التقى بمروان فقاتله ، فانهزم مروان ، فأقحم قحطبة في طلب مروان فرسه في الفرات ، فحمله الماء ، فمات فيه ، وقد أصاب أهل عسكر قحطبة من أموال مروان ، وأمتعة عسكره ما لا يحصى كثرة ، فتناول اللواء حميد بن قحطبة ، وعبر الفرات حتى أتى الشام ، فقيل له : إن مروان ترك الطريق إلى دمشق وذهب صالح بن عبد الله بن عباس ، وكان بناحية من الشام ، وقداجتمع إليه الناس لما علموا من قرابته لأمير المؤمنين ؟ فلما اجتمع مع حميد بن قحطبة سلم إليه الأمر ؟ وقال الناس : إنه خرج بإظهار الدعوة لأبي العباس من غير أمره ، فلما سلم الأمر إلى صالح بن عليّ ، أتاه

كتاب أبي مسلم ، أن يرجع ابن قحطبة ببعض عساكره إلى العراق ، فيكون فيها حتى يأتيه أمره ، فأتى صالح بن عليّ كتابه بأنه قد صير إليه الشام ، وما وراءها إلى المغرب ، ويأمره فيه ببعثه الجيوش فى طلب مروان ، فولى صالح بن عليّ رجلا من الأزد ، يقال له أبو عون على مصر ، وأمره بطلب مروان فى أرض المغرب ، وبعثه فى عشرين ألفاً ، وكان سليمان بن هشام بن عبد الملك قد نافر مروان بن محمد ، وقاتله مراراً قبل أن يشتدّ أمر أبي مسلم ، فسار إليه فى أربعة آلاف ، وذلك بعد خروج قحطبة من عند أبي مسلم ، فنزل به سليمان ، وكانت بينه وبين أبي العباس مودّة قديمة ، فبايع أبا مسلم على طاعة أبي العباس ، فسر به أبو مسلم وشيعته ، ثم سيره فى طلب قحطبة مدّاً له ، وقد قاتل مروان قحطبة قبل قدوم سليمان بيومين ، فلما نظر مروان إلى دخول سليمان ابن هشام فى عسكر قحطبة ، وكثرة من جاء معه انهزم ، فمضى سليمان مع حميد بن قحطبة فى طلبه ، ولم يكن مروان انهزم عنه غلبة ، ولكنه كان نظر فى كتب الحدثان ، فوجد فيها أن طاعة المسوّدة[1] لا تجاوز الزاب[2] ، فقال ذلك لوزرائه . فقيل له : إن بمصر زاباً آخر . قال : فإليها نذهب إذاً ، والزاب الذى أراد علمه هو بأرض المغرب ، فأقبل مروان وهو يريد مصر : فالتقت الخيل ، فانهزمت خيل أبي عون ، وأسر جماعتهم وصاحب أمرهم ، فأتى مروان بالأسارى ، فقال مروان لجماعته : شدوا أيديكم بالأسرى ، فقد أجننا الليل ، وبات مسروراً . فلما أصبح جعل يهيئ أصحابه للقاء القوم ، فأقبل سليمان بن هشام ، وأبو عون وكان مروان قد أرخى حبال الجسر ، وتوسط أصحابه فيما هنالك وهم آمنون . فقال أبو عون للقبط[3] : هل لهذا النهر من مخاضة ، فقالوا له : ما علمنا ذلك ، ولا بلغنا أن أحداً خاضه قط ، فقطع عما قصد وأراد . فكتب إلى صالح بن عليّ بذلك ، ويسأله أن يبعث إليه بمراكب ساحل البحر عاجلاً ، فبينما هو فى ذلك ، إذ أتاه رجل من القبط فقال له : إن أبي كان يقرأ الكتاب ، وكان يحدثنا بأمور تكون بعده ، ويصف لنا موضعاً يجعله الله لكم تخوض فيه الخيل عند تلك الأمور ، وقد اختبرت ذلك الليلة ، فسرّ بذلك أبو عون ، ثم بعث معه الخيل إلى ذلك الموضع ، بعد أن وصله ووعده خيراً وكان مروان نظر إلى الرايات السود بناحية مصر ، ونظر إلى الخيل تعدو النهر ، ولا يشك أنهم لا يجدون سبيلاً إلى عبوره ، فلم ينشب أهل عسكر مروان أن نظروا إلى خيل أبي عون قد جاوزت النيل ، فعبأ مروان أصحابه وأهل بيته ، ثم خطبهم وحضهم على الصبر .

---

(١) المسوّدة : العباسيون لأن شعارهم كان لبس الأسود

(٢) الزاب : نهر بالموصل ونهر بإربل ونهر بين سوراء وواسط ، ولكنهم يطلقون الزاب هنا على مطلق النهر ، بدليل قولهم إن بمصر زابا آخر وليس بمصر غير النيل

(٣) القبط : أهل مصر الأصليون .

وقال لهم : إن الجزع لا يزيد فى الأجل ، وإن الصبر لا ينقص الأجل وأقبل القوم فاقتتلوا من وقت صلاة الصبح إلى أن مالت الشمس ، فأصيب عبد الله ومحمد ابنا مروان وبنو أبيه أكثرهم، وولد عبد العزيز ، وصابر القوم ، فلما لم يبق حوله إلا قدر الثلاثين ، حمل على القوم فأكردهم(١) ورجع ، فجعل أصحابه يفترقون عنه . فلما رأى ذلك نزل عن فرسه وأنشأ يقول متمثلا :

ذلّ الحياة وهول الممات ... وكلاًّ أراه وخيا ويبلا
فإن كان لابدّ من ميتة ... فسيرى إلى الموت سيراً جميلا

فوثب رجل إلى فرسه فأخذه . فقال له مروان : أكرمه فإنه أشقر مروان . ثم كسر غمد سيفه ، وقاتل قتالاً شديداً ، ثم أصيب ، فنزل أبو عون ، فأمر بضرب قبابه ، وأمر سليمان ابن هشام بطلب المنهزمين ، حتى أصيب عامتهم واستأسر منهم من استأسر ، وكان فيمن أسر منهم عبد الحميد كاتبه ، وحكم المكىّ مؤذنه ، فاستبقاهما أبوعون ، وبعث بهما إلى صالح بن علىّ، ثم أمر أبوعون بطلب جثة مروان على شاطىء النيل . فلما كان من الغد : ركب أبوعون وسليمان ابن هشام لينظرا مروان ، فنظرا إليه ، ثم تحوّل أبو عون إلى سليمان . فقال : الحمد لله الذى شفى صدرك قبل الموت من مروان ، فهل لك يا أبا أيوب أن تذهب إلى أمير المؤمنين بكتابى وبما هيأ الله على يديك وشفا به صدرك ، فيفعل بك خيراً ، ويعرف من قرابتك ونصحك ما أنت أهله ؟ فرضى بذلك سليمان ، فكتب وسار . فلما قدم سليمان بن هشام على أبى العباس أمير المؤمنين ، رحب به وقرّبه واستلطفه ، وأنزله بعض دور الكوفة ، وفعل به ما لم يفعل بأحد سواه ، من البرّ والإكرام ، وكان سليمان يختلف إلى مائدة أبى العباس فى كلّ يوم ، فيتغدّى معه ، ويتعشى ، وكان كأحد وزرائه وفوقهم ، وكان يجلس أبا جعفر عن يمينه ، وسليمان عن يساره .

قتل أبى سلمة الخلال

قال : وذكروا أن أبا العباس لما تمت له الأمور واستوثقت ، استشار وزراءه فى قتل أبى سلمة ، فأدار القوم الرأى فيه ، وكان أبو سلمة يظهر الإدلال والقدرة على أمير المؤمنين ، وكان يقيم عنده فى كل ليلة إلى حين من الليل ، فإذا أراد الخروج والرجوع إلى منزله ، قربت إليه دابته إلى المجلس ، فيركب منه دون غيره ، ثم يخرج إلى داره . فقالوا له : إنك إن قتلته ارتاب أبو مسلم ، ولم تأمن أن يحدث لذلك حدثاً ، ولكن الرأى أن تكتب إليه بالذى رابك

---

(١) أكردهم : طردهم وجعلهم يجرون أمامه

منه ، والذى يريده من فسخ ما أنت فيـه ، فـكتب إلى أبى مسلم بذلك ، وكان أبو العباس وأبو جعفر لا يسميان عبد الرحمن (يعنى أبا مسلم إلا عماً) . فلما قدم الـكتاب إلى أبى مسلم ، كتب إلى أبى العباس : إن كان رابك منه ريب فاضرب عنقه. فلما أتاه الـكتاب قال له وزراؤه: إنك لا تأمن من أن يكون ذلك غدراً من أبى مسلم ، وأن يكون إنما يريد أن يجد السبيل إلى ما تخوّف منه ، ولـكن اكتب إليه أن يبعث إليك برجل من قواده يضرب عنقه . فـكتب إليه بذلك ، وذكر فى كتابه : إنى لا أقدّم ولا أؤخر إلا برأيك . فبعث إليه برجل يقال له مرار الضبى . فلما قدم على أبى العباس أمر ذلك الضبى أن يقعد له فى الظلمة ، فى داخل الإمارة بالـكوفة ، فإذا خرج ضربه بالسيف برأسه ، فقتله ، ثم أمر بصلبه . فلما أصبح الناس إذا هم بأبى سلمة مصلوباً على دار الإمارة .

قتل رجال بنى أمية بالشام

قال : وذكروا أن أبا العباس ولى عمه عبد الله بن علىّ ، الذى يقال له السفاح : الشام ، وأمره أن يسكن فلسطين ، وأن يجدّ السير نحوها ، وهنأه بما أصاب من أموال بنى أمية ، وكتب إلى صالح بن علىّ أن يلحق بمصر واليا عليها . فقدم السفاح فلسطين ، وتقدم صالح إلى مصر ، فأتاها بعد قتل مروان بيومين ، وأن السفاح بعث إلى بنى أمية ، وأظهر للناس أن أمير المؤمنين وصاه بهم ، وأمره بصلتهم ، وإلحاقهم فى ديوانه ، وردّ أموالهم عليهم ، فقدم عليه من أكابر بنى أمية وخيارهم ، ثلاثة وثمانون رجلا ، وكان فيهم عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك ، وأبان بن معاوية بن هشام ، وعبد الرحمن بن معاوية ، وغيرهم من صناديد بنى أمية . فأما عبد الرحمن بن معاوية ، فلقيه رجل كان صنع به برّا ، وأسداه خيرا ، وأولاه جميلا . فقال له : أطعنى اليوم فى كلمة ، ثم اعصنى إلى يوم القيامة . فقال له عبد الرحمن : وما أطيعك فيه اليوم ؟ فقال له الرجل : أدرك موضع سلطانك ، وقاعدتك المغرب ، النجاء النجاء ، فإن هذا غدر من السفاح ، ويريد قتل من بقى من بنى أمية . فقال له عبد الرحمن : ويحك إنه كتاب أبى العباس ، قدم عليه ، يأمره فيه بصلتنا ، وردّ أموالنا إلينا ، وإلحاقنا بالعطاء الـكامل ، والرزق الوافر . فقال له الرجل : ويحك أتغفل ؟ والله لا يستقرّ ملك بنى العباس ، ولا يستولون على سلطان ، ومنكم عين تطرف . فقال له عبد الرحمن: ما أنا بالذى يطيعك فى هذا . فقال الرجل: أفتأذن لى أن أنظر إلى ما تحت ظهرك مكشوفا ؟ فقال له : وما تريد بهذا ؟ فقال له : أنت والله صاحب الأمر بالأندلس ، فاكشف لى ، فـكشف عبد الرحمن عن ظهره ، فنظر الرجل فإذا العلامة

التى كانت فى ظهره قد وجدت فى كتب الحدثان(١) ، وكانت العلامة خالا أسود عظيما مرتفعا على الظهر هابطا ، فلما نظر إليه الرجل قال له : النجاء النجاء ، والهرب الهرب ، فإنك والله صاحب الأمر ، فاخرج فإنا معك ، ومالى لك ، ولى عشرون ألف دينار معرورة ، كنت أعددتها لهذا الوقت . فقال له عبد الرحمن : وعمن أخذت هذا العلم ؟ فقال الرجل : من عمك مسلمة بن عبدالملك. فقال له عبد الرحمن : ذكرت والله عالما بهذا الأمر ، أما لئن قلت ذلك لقد وقفت بين يديه وأنا غلام ، يوم توفى أبى معاوية ، وهشام يومئذ خليفة ، فكشفت عن ظهرى ، فنظر إلى ما نظرت إليه . فقال لهشام جدى وهو يبكى : هذا اليتيم يا أمير المؤمنين صاحب ملك المغرب . فقال له هشام : وما الذى أبكاك يا أبا سعيد ؟ ألهذا تبكى ؟ فقال : أبكى والله على نساء بنى أمية وصبيانهم ، كأنى بهم والله قد أبدلوا بعد أساورة الذهب والفضة الأغلال والحديد ، وبعد الطيب والدهن البقل والمقار ، وبعد العزّ الذلّ والصغار . فقال هشام : أحان زوال ملك بنى أمية يا أبا سعيد ؟ فقال مسلمة : إى والله حان ، وإن هذا الغلام يعمر منهم ، ثم يصير إلى المغرب فيملكها : فقال له الرجل : فاقبض منى هذا المال ، واخرج بمن تثق به من علمائك . فقال عبد الرحمن : والله إن هذا الوقت ما يوثق فيه بأحد ، فولى ذاهبا ، وخرج لا يدرى مق خرج ، فلحق بالمغرب ، وأقبل القوم من بنى أمية ، وقد أعدّ لهم السفاح مجلسا فيه أضعافهم من الرجال ، ومعهم السيوف والأجرزة(٢) ، فأخرجهم عليهم ، فقتلهم وأخذ أموالهم ، واستعفى(٣) عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك ، وكان عبد الواحد قد بذّ العابدين فى زمانه ، وسبق المجتهدين فى عصره ، فركب السفاح إلى أموال عبد الواحد ، وكان عبد الواحد قد اتخذ أموالا معجبة ، تطرّد فيها المياه والعيون ، فأمره السفاح أن يصيرها إليه ، فأبى عليه ، واختفى منه ، فأخذ رجالا من أهله ، فتواعدهم السفاح ، وأمر بحبسهم حتى دلوه عليه . فلما قبضه أمر بقتله ، ثم استقصى ماله ، فبلغ ذلك أبا العباس أمير المؤمنين ، وكان أبو العباس يعرفه قبل ذلك ، وكان عبد الواحد أفضل قرشىّ كان فى زمانه عبادة وفضلا . فقال أبو العباس : رحم الله عبد الواحد ، ما كان والله ممن يقتل لغائلة(٤) ، ولا ممن يشار إليه بفاحشه ، وما قتله إلا أمواله ، ولولا أن السفاح عمى ، وذمامه ورعاية حقه علىّ واجب ، لأقدت منه(٤) ، ولكن

---

(١) كتب الحدثان : كتب التنجيم والإخبار بالمستقبل .
(٢) الأجرزه : جمع جرز : بضم الجيم وسكون الراء وهو عمود الحديد .
(٣) استعفى عبد الواحد : تركه فلم يقتله .
(٤) الغائلة : الداهية ، والقتل غدرا وهو المراد هنا.
(٥) لأقدت منه : لأخذت منه القود وهو القصاص أى لقتلته قصاصا بقتله عبد الواحد .

الله طالبُـه ، وقد كنت أعرف عبد الواحد برًّا تقيا ، صوّاما قوّاما . ثم كتب إلى عمه السفاح ألا يقتل أحداً من بنى أمية ، حتى يعلم به أمير المؤمنين ، فكان هذا أوّل ما نقمَ أبو العباس على عمه السفاح .

ذكر قتل سليمان بن هشام

قال : وذكروا أن عيسى بن عبد البرّ أخبرهم قال : كان سليمان بن هشـام أكرم الناس على أبى العباس أمير المؤمنين ، لحسن بلائه مع قحطبة، وقيامه معه على مروان ابن عمه ، وكان هو الذى تولى كِبْره[1] ، وقتل على يديه ، فكان لذلك أخصّ الناس بأبى العباس ، فبينما هما يوماً وقد تضاحكا وتداعبا ، إذ أتى رجل من موالى أبى العباس يقال له سـديف ، فناول أبا العباس كتاباً فيه :

أصبح الملك ثابت الآساس	بالبهاليـل[2] من بنى العباس
طلبوا وِتْر[3] هاشم فشفَوْها	بعد ميل من الزمان ويأس[4]
لا تقيلنّ عبد شمس[5] عثارا	واقطعنْ كلّ نخلة وغراس
ذُلّها أظهر التـودّد منها	وبها منكمُ كحزّ المواسى[6]
ولقـد غاظنى وغاظ سِوائى	قربهم من منـابر وكراسى
واذكرنْ مقتلَ الحسين وزيدا	وقتيـلا بجانب المِهْراس[7]

فقرأها أبو العباس ، ثم قال له : نعم ، ونعمّا عين وكـرامة ، سننظر فى حاجتك ، ثم ناول الكتاب أبا جعفر ، ثم سلم سليمان بن هشام ، ثم قام وخرج ، فتطلع رجل من موالى بنى أمية ، كانت له خاصة وخدمة فى بنى العباس ، فعرف بعض ما فى الكتاب ؛ فلما خرج من عند أمير المؤمنين مرّ بسليمان بن هشام فى غرفة له بالكوفة فسلم ، ثم قال لسليمان : من عندك

---

(١) تولى كبره : تحمل إثمة الكبير .
(٢) البهاليل : جمع بهلول وهو السيد الشريف .
(٣) الوتر : الثأر وشفوها : أرضوا نفوسها .
(٤) يأس : هو اليأس وعدم الأمل أى بعد أن كانوا يائسين من الأخذ بثأرهم .
(٥) عبد شمس : هى قبيلة بنى أمية .
(٦) المواسى : جمع موسى وهى الشفرة التى يحلق بها الشعر .
(٧) المهراس موضع باليمامة .

يا أبا أيوب ، فقال له : ما عندى غير ولدى . فقال له : إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ، فاخرج إنى لك من الناصحين . فخرج سليمان من ليلته هارباً ، فلحق ببعض نواحى الجزيرة وكتب إلى مواليه وصنائعه ، فاجتمع إليه منهم خلق كثير ، فبعث إليه أبو العباس بعثاً يقاتله ، فانهزم ذلك البعث ، ثم بعث إليه بعثاً آخر ، فهزمه أيضاً . قال : فتنقل سليمان عن ذلك الموضع إلى غيره ، ثم بعث إليه بعثاً آخر ، فأسر سليمان وولده ، فأتى بهما أسيرين إلى أبى العباس ، فأمر ، فقطعت لهما خشبتان ، رفعتا إليهما ، فأمر بضرب رقابهما ، وصلبهما . فقال سليمان لولده : تقدّم يا بنىّ على مصيبتى بك ، فتقهقر الغلام ، ثم تقدم فقتل ، ثم قتل سليمان ، وصلبا على باب دار الإمارة بالكوفة .

خروج السفاح على أبى العباس وخلعه

قال : وذكروا أن الهيثم بن عدّى أخبرهم قال : لما ولىّ السفاح الشام ، واستصفى أموال بنى أمية لنفسه ، أعجبته نفسه ، وحسد ابن أخيه على الخلافة فأظهر الطعن على أبى العباس ، والتنقص له . فلما بلغ ذلك أبا العباس ، كتب إليه يعاتبه على ما كان منه ، فزاده ذلك عُجْباً وحسداً بما فيه ، فحبس الخراج ، ودعا إلى نفسه ، وخلع طاعته ، ثم قرّب موالى بنى أمية وأطمعهم ، وسدّ ثغورهم[1] ، وأبدى العزم ، وأظهره على محاربة أبى العباس ، فلما انتهت أخباره إلى أبى العباس ، كتب إلى أبى مسلم يستغيثه ، ويذكر عظيم يده عنده ، ويسأله القدوم عليه لأمر السفاح ؛ فقدم أبو مسلم ، فأقام عنده أياماً ، ثم خرج إلى السفاح ومعه أجناده وقوّاده ، فلقى السفاح على الفرات فهزمه ، واستباح عسكره ، وأخذ أسيراً ، فقدم به على أبى العباس . فلما قدم إليه ، وأدخل عليه قال : يا عمى أحسناً وواسينا فحسدت وبغيت ، وقد رأيت تعطفاً عليك ، وصلة لرحمك ، أن أحبسك حبساً رفيقاً ، حتى تؤدّب نفسك ، ويبدو ندمك ، ثم أمر فبنى له بيت . جعل أساسه قطع الملح ، فحبسه فيه . فلما كان بعد أيام أرسل الماء حول البيت ، فذاب الملح ، وسقط البيت عليه ، فمات فيه ، وردّ أبا مسلم إلى عمله بخراسان ، فأقام فيها بقية عامه ، ثم أخرج أبو العباس أبا جعفر والياً على الموسم ، وخرج أبو مسلم أيضاً حاجاً من خراسان .

اختلاف أبى مسلم على أبى العباس

قال : وذكروا أن أبا العباس وجه أبا جعفر فى ثلاثين رجلاً إلى أبى مسلم ، وكان فيهم الحجاج بن أرطاة الفقيه ، والحسن بن الفضل الهاشمى ، وعبد الله بن الحسين ، فلما توجه

---

(١) سد ثغورهم ، دافع عنهم ولم يترك أبوابا مفتوحة لإحراجهم.

أبو جعفر إلى أبى مسلم بخراسان ، وقدم عليه ، استخف به بعض الاستخفاف ، ولم يزد الإجلال له ، وجعل يعظم فى كلامه وفعله الخليفة ، ولم يزل أبو مسلم يتخوف أن يصنع به مثل ما صنع بأبى سلمة الخلال ، وكان لا يظهر ذلك لأحد . فلما قدم أبو جعفر عليه ، ومعه الثلاثون رجلاً ، وفيهم عبد الله بن الحسين ، قام إليه سليمان بن كثير . فقال : يا هذا إنا كنا نرجو أن يتم أمركم ، فإذا شئتم فادعوا إلى ما تريدون . فظن أنه دسيس من أبى مسلم ، فخاف ذلك ، فبلغ أبا مسلم أن سليمان بن كثير سامر عبد الله بن الحسين بن على . فقال لسليمان : بلغنى أنك سامرت هـذا الفتى . قال : أجل ، له قرابة وحق علينا وحرمة ، فسكت . فأتى عبد الله ابن الحسين أبا مسلم فذكر له ذلك ، وظن أنه إن لم يفعل اغتاله أبو مسلم . فبعث أبو مسلم إلى سليمان بن كثير ، فقال له : أتحفظ قول الإمام : من اتهمته فاقتله . قال نعم . قال : الإمام . قد اتهمتك فقـال : ناشدتك الله ، قال : لا تناشدنى وأنت منطو على غش فأمر فضربت عنقه ، وكتب أبو مسـلم إلى محمد بن الأشعث ، أن يأخذ عمال أبى سلمة ، فيضرب أعناقهم ، واستعمل أبو العباس عيسى بن على على فارس ، فأخذه محمد فهم بقتله. فقيل لمحمد : إن هذا لا يسوغ لك . قال : أمرنى أبو مسلم أن لا يقدم على أحد إلا ضربت عنقه . فقال : ما كان أبو مسلم ليفعل شيئاً إلا بأمر الإمام . فلما قدم أبو جعفر من عند أبى مسلم قال لأبى العباس : لست بخليفة ، ولا أمرك بشىء ، إن لم تقتل أبا مسلم . فقال أبو العباس : وكيف ذلك ؟ قال : لا والله ما يعبأ بنا ، ولا يصنع إلا ما يريد . فقال له أبو العباس : اسكت واكتمها .

قتال بن هبيرة وأخذه

قال : وذكروا أن أبا العباس وجه أبا جعفر إلى مدينـــة واسط ، فقدم على الحسين ابن قحطبة وهو على الناس ؛ وكتب أبو العباس إلى الحسين بن قحطبة : إن العسكر عسكرك ، والقواد قوادك ، فإن أحببت أن يكون أخى حاضراً ، فأحسن موازرته[1] ومكانفته . وكتب إلى أبى نصر مالك بن الهيثم بمثل ذلك ، وذكروا أن ابن هبيرة كان قد نصب الجسور بين الدجلتين ، فقالت اليمانية الذين مع ابن هبيرة : لا والله لا نقاتل على دعوة بنى أميـة أبداً ، لسوء رأيهم فينا ، وبغضهم لنا ؛ وقالت القيسية : لا والله لا نقاتل حتى يقاتل اليمانية ، فلم يكن يقاتل مع ابن هبيرة إلا صعاليك الناس ، وأهل العطاء . وكان كثيراً ما يتمثل ويقول :

---

(١) موازرته : مؤازرته ومعاونته من الوزارة وهى المعاونة .

الثوب إن أنهج فيــه البلى أعيا على ذى الحيـلة الصانع
كنـا نرقّعها إذا مـزّقت فانسع الخَرْق على الراقعِ

وكان من رأى ابن هبيرة أن لا يعطى طاعة لبنى العباس ، وكان رأيه أن يدعو إلى محمد ابن عبد الله بن الحسين ، فاطلع على ذلك أبو العباس ، وخاف أن يثور اليمانية مع ابن هبيرة فى ذلك . فكاتبهم أبو جعفر ، وقال فى كتابه لهم : السلطان سلطانكم ، والدولة دولتكم ، وكتب إلى زياد بن صالح الحارثى بذلك وكان عامل ابن هبيرة فى المدينة ، مكان عامله قبل ذلك على الكوفة ، فأجاب زياد بن صالح ، وذلك لما خاف أن يدخل المدينة فيقتل بها . فلما كان مغيب الشمس قاموا إليه . فلما صلى المغرب ، ركب فطاف فى مسالحه(١) وأبوابه ، فرجع عتمة ، فتعشى ، ثم صلى . فأقبل على بن الهيثم فقال : والله ما أخلف غصة أعظم ولا أهمّ إلىّ منك ، لأنك مع هؤلاء ، ولست أدرى ما يكون بعد اليوم ، وأرى الأمر قد استتبّ لهؤلاء القوم فى المشرق والمغرب ، ولكن إن لقيت أبا العباس أعلمته من أمرك مثل الذى أعلمته من أمرى . قال : ما أخاف تقصيرك ، ثم قال : لست أثق بولده ولا بغيره ، ثقتى بك فيما أريد أن أوطّده ، تأخذ مفاتيح هذه المدينة ، حتى تصبح فتأتى بها ابن هبيرة . فقلت : انظر ما تصنع فى خروجك ، أتثق بالقوم ؟ قال : نعم ، قد جرى بينى وبينهم ما أثق به ، وأتانى كتاب أبى العباس بكل ما أحبّ ، وكتاب أبى جعفر . فقلت : يا أبا الربيع ، أخاف أن لا يوفى لك . فلما أدهم(٢) الليل وانتصف قام فصلى ركعات ، ثم أمر غلمانه فحملوا متاعه على أربعة بغال ، ثم أخرج أربعة غلمان له ، وابنه ثابت على برذون له ، ثم خرج وأغلق الباب . فلما انتهى الخبر إلى ابن هبيرة بكى وقال : ما يوثق بأحد بعد زياد بن صالح ، بعد إيثارى إياه ، وإكرامى وتفضيلى له ، وما صنعت به . قلت : هو هنالك ، والله خير لك منه ها هنا . قال : وترى ذلك ؟ قلت : نعم . قال : ثم مشت الكتب والرسل بينهم أى بين أبى جعفر وابن هبيرة حتى صار أمرهم إلى أن يلقاه ، ونهض ابن هبيرة إليهم ، وتخلى مما بيده لهم .

كتاب الأمان

قال : وذكروا أن رجلا من قيس يقال له أبو بكر بن مصعب العقيلى ، سعى فى كتاب الصلح والأمان عند أبى جعفر ، حتى تمّ له ، فأتى ابن هبيرة ، وفيه : بسم الله الرحمن الرحيم ،

---

(١) المسالح : جمع مسلحة بفتح الميم واللام وسكون السين : الثغر وهو المكان الذى يكون عليه الحراس خوف دخول الأعداء .

(٢) أدهم الليل : اشتد سواده وإظلامه

هذا كتاب من عبد الله بن محمد بن علىّ أبى جعفر ، ولىّ أمر المسلمين ، ليزيد بن هبيرة ومن معه من أهل الشام والعراق ، وغيرهم فى مدينة واسط[١] وأرضها ، من المسلمين والمعاهدين ، ومن معهم من وزرائهم : إنى أمنتكم بأمان الله الذى لا إله إلا هو ، الذى يعلم سرائر العباد وضمائر قلوبهم ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وإليه الأمر كله ، أمانا صادقا لا يشوبه غشّ ، ولا يخالطه باطل ، على أنفسكم وذراريكم وأموالكم ، وأعطيت يزيد بن عمر بن هبيرة ، ومن أمنته فى أعلى كتابى هذا بالوفاء ، بما جعلت لهم من عهد الله وميثاقه ، الذى واثق به الأمم الماضية من خلقه ، وأخذ عليهم به أمره عهداً خالصاً مؤكداً ، وذمة الله ، وذمة محمد ومن مضى من خلفائه الصالحين ، وأسلافه الطيبين التى لا يسع العباد نقضها ، ولا تعطيل شىء منها ، ولا الاحتقار بها ، وبها قامت السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها ، تعظيماً لها ، وبها حقنت الدماء ، وذمة روح الله وكلمته عيسى بن مريم ، وذمة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وذمة جبريل وميكائيل وإسرافيل ، وأعطيتك ما جعلت له من هذه العهود والمواثيق ، ولمن معك من المسلمين ، وأهل الذمة بعد استثمارى فيما جعلت لك منه عبد الله بن محمد أمير المؤمنين أعزّ الله نصره ، وأمر بإنفاذه لكم ، ورضى به ، وجعله لكم وعلى نفسه ، وتسليم ذلك من قبله من وزرائه وقوّاده ، وأنصار الحقّ من شيعته ، من أهل خراسان ، فأنت وهم آمنون بأمان الله ، ليس عليك حدّ ، ولا تؤاخذ بذنب أتيته ، وكنت عليه فى خلاف أو مناوأة ، أو قتل أو زلّة ، أو جرم أو جناية ، أو سفك دماء خطأ أو عمداً ، أو أمر سلف منك أو منهم ، صغيراً أو كبيراً فى سرّ أو علانية ، ولا ناقض عليك ما جعلت لك من أمانى هذا ، ولم أختلك فيه ، ولا ناكث عنه ، وأذنت لك فى المقام فى المدينة الشرقيـة إلى الأجل الذى سألت ، ثم اسلك حيث بدا لك من الأرض آمناً مطمئناً ، مكاوءاً[٢] أنت ومن سألته أن يؤذن له فى المسير معك . ومن تبعك ، وأهل بيتك . والخمس مئة رجل على ما سألت من دوابهم وسلاحهم ، ولباس البياض لا يخافون غدراً ، ولا إخفاراً[٣] بك حيث أحببت ، من برّ أو بحر ، وانزل حيث شئت من الأرض إلى أن تنتهى إلى منزلك من أرض الشام ، فأنت آمن بأمان الله ، ممن مررت بهم من عمالنا

---

(١) واسط : بلد بالعراق .

(٢) مكاوءاً : مرعيا ملحوظا برعاية الله ورعايتنا .

(٣) الإخفار : نقض العهد وعدم الوفاء به .

ومسالحنا(١) ومراصدنا ، ليس عليك شيء تكرهه فى سرّ ولا علانية ، ولك الله الذى لا إله إلا هو ، لا ينالك من أمر تكرهه فى ساعة من ساعات الليل والنهار ، ولا أدخل لك فى أمانى الذى ذكرت لك غشاً ولا خديعة ولا مكراً . ولا يكون منى فى ذلك دسيس بشىء مما تخافه على نفسك ؛ ولا خديعة فى مشرب ، ولا مطعم ولا لباس ، ولا أضمر لك عليه نفسى إلى ارتحالك من مدينة واسط إلى دخولك على عسكرى ، والغدو والرواح إذا بدا لك ، والدخول أىّ ساعات من ساعات الليل والنهار أحببت ، فاطمئن إلى ما جعلت لك من الأمان ، والعهود والمواثيق ، وثق بالله وبأمير المؤمنين فيما سلم منه ، ورضى به ، وجعلته لك ولمن معك على نفسى ، ولك علىّ الوفاء بهذه العهود والمواثيق والذمم ، أشدّ ما أخذه الله وحرّمه . وما أنزل الله تبارك وتعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه جعله كتاباً مبيناً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ونوراً وحجة على العباد ، حتى ألقى الله وأنا عليه ، وأنا أشهد الله وملائكته ورسله ، ومن قرىء عليه كتابى هذا من المسلمين والمعاهدين بقبول هذه العهود والمواثيق ، وإقرارى بها على نفسى وتوكيدى فيها ، وعلى تسلبمى لك ما سألت ولا يغادر (٢) منها شىء ، ولا ينكث عليك فيها ، وأدخلت فى أمانك هذا جميع من قبلى من شيعة أمير المؤمنين من أهل خراسان ، ومن لأمير المؤمنين عليه طاعة من أهل الشام والحرب وأهل الذمة ، وجعلت لك أن لا ترى منى انقباضاً ولا مجانبة ولا ازورار(٣) ، ولا شيئاً تكرهه فى دخولك علىّ إلى مفارقتك إياى ، ولا ينال أحداً معك أمرٌ يكرهه ، وأذنت لك ولهم فى السير والمقام ، وجعلت لهم أماناً صحيحاً ، وعهداً وثيقاً ، وإن عبد الله بن محمد إن نقض ما جعل لكم فى أمانكم هذا ، فنكث أو غدر بكم أو خالف إلى أمر تكرهه ، أو تابع على خلافه أحدا من المخلوقين فى سرّ أو علانية ، أو أضمر لك فى نفسه غير ما أظهر لك ، أو أدخل عليك شيئاً فى أمانه ، وما ذكر لك من تسليم أمير المؤمنين أو التماس الخديعة والمكر بك ، وإدخال المكروه عليك ، أو نوى غير ما جعل لك من الوفاء لك به ، فلا قبل الله منه صرفاً ولا عدلاً(٤) ، وهو برىء من محمد بن علىّ وهو يخلع أمير المؤمنين ، ويتبرأ من طاعته ، وعليه ثلاثون حجّة يمشيها من موضعه الذى هو به من مدينة واسط إلى بيت الله

---

(١) المسالح : الثغور كما سبق
(٢) لايغادر منها شىء : لايترك منها شىء وإنما تسلم إليك كاملة
(٣) الأزورار : البعد والجفاء
(٤) صرفا ولاعدلا : أى لايقبل الله منه شيئا مطلقا من عمله

الحرام الذى بمكة حافياً راجلاً وكلّ مملوك يملكه من اليوم إلى ثلاثين حجة بشراء أو هبة أحرار لوجه الله ، وكل امرأة له طالق ثلاثاً ، وكل ما يملكه من ذهب أو فضة أو متاع أو دابة أو غير ذلك ، فهو صدقة على المساكين ، وهو يكفر بالله وبكتابه المنزل على نبيه ، والله عليه بما وكّد(١) ، وجعل على نفسه فى هذه الأيمان راعٍ وكفيل ، وكفى بالله شهيدا .

قالوا : وكان من رأى أبى جعفر الوفاء لابن هبيرة وأصحابه .

قدوم ابن هبيرة على أبى العباس

قال : وذكروا أن ابن هبيرة وأصحابه لما جاءهم الكتاب بالأمان ، تردّدوا فيه أربعين يوما يتدبرونه ، ويستخيرون الله فى الخروج إليهم ، ثم عزم الله له فى القدوم على أبى العباس وأبى جعفر ، وكان أبو مسلم كثيراً ما كتب لأبى العباس إنه قل طريق سهل يُلقى فيه حجارة إلا أضرّ ذلك بأهله ، ولا والله يصلح طريق فيه ابن هبيرة وأصحابه ، وكان أبو الجهم بن عطية عينَ أبى مسلم على أبى العباس فكان يكتب إليه بالأخبار ، وكان أبو العباس لا يقطع أمراً دون رأى أبى مسلم ، وقد كان ابن هبيرة فى تلك الأربعين ليلة يجمع لذلك الكتاب ممن يعبر الكلام والفقه طرفى النهار ، فيتردّدون فيه ، حتى بلغوا فيه الغاية التى يريدون ، ثم خرج ابن هبيرة إلى أبى جعفر فى ألف وثلاث مئة . فلما قدم أراد أن يدخل دار الإمارة على دابته . فقام الآذن فقال : مرحبا بك أبا خالد ، انزل راشدا ، وقد طاف بالدار يومئذ نحو من عشرة آلاف رجل من أهل خراسان ، متلثمين فى السلاح ، أعينهم تزهو من تحت المغافر(٢) ، على عواتقهم السيوف مشهورة ، وعمد الحديد بأيديهم . فأتى ابن هبيرة بوسادة ، فطرحت له ، فجلس عليها ، ثم دعا الحاجب بالقوّاد ، فدخلوا على أبى جعفر ، ثم خرج سلام بن سلام فقال : ادخل يا أبا خالد . قال : ومن معى ؟ قال : إنما استأذنت لك ، فدخل ، فوضعت له وسادة فجلس ، فحدثه أبو جعفر طويلا ثم نهض فركب ، وأتبعه أبو جعفر بصره حتى انصرف .

قتل ابن هبيرة

قال : وذكروا أن أبا العباس كتب إلى أبى جعفر : أن اقتل ابن هبيرة ، فرادّه أبو جعفر بالكتاب . فكتب إليه أبو العباس : والله لتقتلنه أو لأبعثن إليك من يخرجه من عندك ، ويتولى

---

(١) وكد : أكد وثبّت .

(٢) المغافر : جمع مغفر بكسر الميم وسكون الغين ، وهو زرد من الحديدمنسوج على هيئة حلقات يلبسه المحارب تحت القلنسوة على رأسه ووجهه.

ذلك عليك . وكان ابن هبيرة إذا ركب إلى أبي جعفر ، ركب فى ثلاث مئة فارس ، وخمس مئة راجل ، فقدم يزيد بن حاتم على أبي جعفر ، فقال : أصلح الله الأمير،ما ذهب من سلطان ابن هبيرة شىء،يأتينا فيتضعضع(١) به العسكر . فقال أبو جعفر : ياسلام قل لابن هبيرة لايركب فى مثل تلك الجماعة ، وليأتينا فى حاشيته . قال عدىّ : فأصبحنا ، فخرج ابن هبيرة أيضا فى مثل تلك الجماعة الذين كانوا يركبون معه ، فخرج إليه سلام فقال : يقول لك الأمير ما هذه الجماعة؟ لاتسيرنّ إلا فى حاشيتك،فتغير وجه ابن هبيرة. فلما أصبح أتى فى نحو من ثلاثين رجلا قال له سلام : كأنك إنما تأتينا مباهيا . فقال ابن هبيرة : إن أحببتم أن نمشى إليكم فعلنا . فقال سلام : مانريد بذلك استخفافاً بك ، ولكن أهل العسكر إذا رأوا جماعة من معك غمهم ذلك ، فكان هذا من الأمير نظراً لك ، فمكث طويلا جالسا فى الرواق . فقيل له : إن الأمير محتجم ، فانصرف راشدا، فلم يزل يركب يوما ويقيم آخر ، لايجىء إلا فى رجلين أو غلامه ، وقد ختموا على الخزائن وبيوت الأموال ، وجعل القوّاد يدخلون على أبي جعفر فيقولون : ما تنتظر به ؟ فيقول : ما أريد إلا الوفاء له حتى إذا اجتمع أمرهم على قتله ، بعث إلى الحسين بن قحطبة فأتاه . فقال : لو سرت إلى هذا الرجل فأرحتنا منه . فقال: لانريد ذلك ، ولكن ابعث إليه رجلا من قومه من مضر حتى يقتله ، فتتفرّق كلمتهم عند ذلك ، فدعا حازم بن خزيمة ، والهيثم بن شعبة . قال لهم أبو جعفر : ائتوا إلى ابن هبيرة جدّدوا على بيوت المال الختم ، وعلى الخزائن ، وبعث معهما من المضرية والقيسية أن يحضروا الإذن ، وأريحونا من الرجل ، ففعلوا ، ثم دخلوا رحبة القصر فى مئة رجل ، فأرسلوا إلى ابن هبيرة : إنا نريد حمل ما بقى فى الخزائن . فقال : ادخلوا ، فدخلوا الخزائن فطافوا بها ساعة ، وجعلوا يخلفون عند كل باب عدّة حتى دخلوا عليه . فقالوا : أرسل معنا من يدلنا على المواضع وبيوت الأموال . فقال : يا عثمان أرسل معهم من يريدون ، فطاف حازم وأصحابه فى القصر ساعة ، وابن هبيرة عليه قميص له مصرى ، وملاءة مورّدة ، وهو مسند ظهره إلى حائط المسجد فى رحبة القصر ، ومعه ابن داود ، وحاجبه ، وكاتبه عمر بن أيوب ، وعدّة من مواليه وبنيه ، وفى حجر ابن هبيرة ولد صغير . فلما توثقوا من كلّ شىء أقبلوا نحوه ، فلما رآهم قد أقبلوا إليه قال : والله إن فى وجوه القوم لشرّا . فلما دنوا منه قام أبو عثمان فقال : ما وراءكم ؟ فنضحه الهيثم بالسيف ، فأصاب حبل عاتقه ، فصرعه ، وقام ابنه داود فقاتل ، فتفرّقوا عليه فقتلوه ومواليه ، ثم مضوا نحو ابن هبيرة فخرّ ساجداً ، وقال :

---

(١) يتضعضع به العسكر : يضعف وينكسر قلبه .

ويحكم ! نحوا عن هذا الصبيّ لا يرى مصرعى . قال : فضرب حتى مات ساجداً ، ثم أخذوا رءوسهم فأتوا بها أبا جعفر ، ونادى المنادى بواسط : أمن الأمير خلق الله جميعاً إلا الحكم بن بشر ، وعمرو بن ذرّ . قال : فضاقت علىّ والله الأرض بما رحبت حتى خرجت، على دابتى مالى هِجّير[1] إلا آية الكرسى أتلوها ، والله ما عرض لى أحد حتى تواريت ، فلم أزل خائفاً حتى استأمن لى زياد بن عبد الله ابن العباس فأمّنه ، وهرب الحكم بن عبدالله بن بشر إلى عسكره ، وضاقت بخالد بن مسلمة الأرض حتى أتى أبا جعفر ، فاستأذن عليه فأمنّـه . وبلغ ذلك أبا العباس . فكتب إلى أبى جعفر : والله لو كانت له ألف نفس لأتيت عليها ، اضرب عنقه ، فهرب أبو عُلاقة الفزارىّ ، وهشام بن هبيرة ، وصفوان بن يزيد ، فلحقهم سعد بن شعيب فقتلهم ، وقبض على أصحاب ابن هبيرة ، فقتل من وجوههم نحواً من خمسين ، ثم أمّـن الناس جميعاً ، ونادى منادى أبى جعفر : من أراد أن يقيم فليقم بالجابية[2]، ومن أحبّ أن يشخص فليشخص ، وهرب القعقاع بن ضرار وحميد وعدة ، حتى أتوا زياد بن عبدالله ، فاستأمن لهم ، فأمّنوا جميعاً ، وقوى ملك بنى العباس ، واستقرت قواعده . فلما قتل ابن هبيرة ، ونودى فى أهل الشام : الحقوا شامكم ، فلاحاجة لنا بكم ، فسار أهل الشام حتى قدموا الكوفة ، منهم من قدم ، ومنهم من أخذ على عين التمر[3] ، ومنهم من أخذ على طريق المدائن[4] ، ثم لحقوا بالشام على طريق الفرات . واستعمل أبو جعفر على واسط ومن فيها الهيثم بن زياد ، وخلف معه خيلا ، ثم انصرف أبو جعفر إلى أبى العباس ، وهو يومئذ بالحيرة[5] ، ثم وجه داود بن علىّ إلى الحجاز ، فقتل من ظفر به من بنى أمية وغيرهم ، فتوجه إلى المثنى بن زياد بن عمر بن هبيرة باليمامة ، فقتله وأصحابه ، ثم تبعهم محمد بن عمارة ، وكان على الطائف فقتلهم ، وتحوّل أبو العباس من الحيرة إلى الأنبار[6] ، فأمر أبو العباس برأس ابن هبيرة فوضع بالحيرة على خشبة ، ومعه غيره من عمال مروان ، وبها رفع رأس مروان بن محمد ، وعن يمينه رأس ثعلبة بن سلامة ، ورأس عثمان بن أبى شعيب عن يساره ، وانقطعت شيعة بنى أمية ، وطُلبوا تحت كل حجَـر ومدَر .

---

(١) الهجير والهجيرى : بكسر الهاء وتشديد الجيم : العادة الدائمة والمعنى مالى عمل دائم إلا تلاوة آية الكرسى باستمرار .

(٢) الجابية : قرية بدمشق .

(٣) عين التمر : موضع قرب الكوفة .

(٤) المدائن : بلد صغيرة قرب بغداد .

(٥) الحيرة : بلد قرب الكوفة .

(٦) الأنبار : بلد بالعراق .

اختلاف أبى مسلم على أبى العباس

قال : وذكروا أن أبا مسلم كتب إلى أبى العباس يستأذنه فى القدوم عليه فقدم عليه : فتلقاه الناس جميعاً ، ومعه القوّاد والجماعة ، والخيل والنجائب، ثم استأذن أبا العباس فى الحجّ ، فقال : لولا أن أبا جعفر يحجّ لاستعملتك على الموسم . واستعمل أبا جعفر على الموسم ، فقال أبو جعفر لأبى العباس : أطعنى واقتل أبا مسلم ، فوالله إن فى رأسه لغدرة . فقال له : أى أخى، قد عرفت بلاءه . وما كان منه . فقال أبو جعفر : هو أخطأ بذلك ، والله لو بعثت سِنّورا مكانه لبلغ ما بلغ فى مَيْل الدولة . قال أبو العباس : كيف نقتله ؟ قال : إذا دخل عليك فحادثه ، فإذا أقبل عليك دخلت فأتيت من خلفه ، فضربته ضربة آتى منها على نفسه . فقال أبو العباس : أى أخى ، فكيف تصنع بأصحابه الذين يؤثرونه على أنفسهم ودينهم ؟ قال : يئول ذلك إلى خير ، وإلى ما تريد . قال : يا أخى ، إنى أريد أن تكفّ عن هذا . فقال أبو جعفر : أخاف إن لم تتغده[1] يتعشاك . فقال أبو العباس : فدونكه يا أخى . قال : وكان مع أبى مسلم من أهل خراسان عشرة آلاف ، قد قدم بهم ، يأخذون العطاء عند غرّة كل شهر ، أوفر ما يكون من الأرزاق سوى الأعاجم . فلما دخل أبو مسلم على أبى العباس ، دعا أبو العباس خَصيّا له . فقال : إذهب فاعرف ما يصنع أبو جعفر ، فأتاه فوجده محتفياً بسيفه . فقال أبو جعفر : أجالسٌ أميرُ المؤمنين ، فقال الوصيف : قد تهيأ للجلوس ، ثم رجع الوصيف فذكر ذلك لأبى العباس ؛ فردّه أيضاً إلى أبى جعفر ، وقال: قل له : عزمت عليك أن لا تنفذ الأمر الذى عزمت عليه ، فكفّ عن ذلك . فسار إلى مكة حاجاً وللموسم . وخرج أبو مسلم ، فكان إذا كتب إلى أبى جعفر يبدأ بنفسه ، ثم يكتب إليه : لا يهولنّك ما فى صدر الكتاب ، فإنى لك بحيث تحبّ ، ولكنى أحبّ أن يعلم أهل خراسان أن لى منزلة عند أمير المؤمنين .

كتاب أبى مسلم إلى أبى جعفر وقدهم أن يخلع ويخالف

قال : وذكروا أن أبا مسلم لما رجع من عند أبى العباس ، وقد قيل له بالعراق إن القوم أرادوك ، لولا توقعوا ممن معك من أهل خراسان ، فلما كان فى بعض الطريق كتب إلى أبى جعفر : أما بعد ، فإنى كنت اتخذت أخاك إماماً ودليلاً على ما افترض الله على خلقه ، وكان فى محله من العلم ، وقرابته من رسول الله ﷺ بحيث كان ، فقمعنى

---

(١) أى أخاف إن لم تسبق بقتله أن يقتلك هو ، أو أن يخلعك .

بالفتنة ، واستجهلني بالقرآن ، لحرفه عن مواضعه ، طمعاً في قليل قد نعاه الله إلى خلقه ، فمثل لي الضلالة في صورة الهدى ، فكان كالذي دليّ بغرور ، حتى وتَرْتُ[1] أهل الدين والدنيا في دينهم ، واستحللتُ بما كان من ذلك من الله النقمة ، وركبتُ المعصية في طاعتكم ، وتوطئة سلطانكم ، حتى عرفكم من كان يجهلكم ، وأوطأت غيركم العشواء[2] بالظلم والعدوان ، حتى بلغت في مشيئة الله ما أحبّ . ثم إن الله بمنّه وكرمه أتاح لي الحسنة ، وتداركني بالرحمة ، واستنقذني بالتوبة ، فإن يغفر فقديماً عرف بذلك ، وإن يعاقب فبما قدّمت يداى ، وما الله بظلام للعبيد .

فكتب إليه أبو جعفر : يا عمّ ، أروم ما رمت ، وأزول حيث زلت ، ليس لي دونك مرمى ، ولا عنك مَقْصَر[3] ، الرأى ما رأيت ، إن كنت أنكرت من سيرته شيئاً ، فأنت الموفق للصواب ، والعالم بالرشاد ، أنا من لا يعرف غير يدك ، ولم يتقلب إلا في فضلك ، فأنا غير كافر بنعمتك ، ولا منكر لإحسانك لا تحمل عليّ إصر غيرى ، ولا تُلحق ما جناه سواى بي ، إن أمرتني أشخص إليك ، وألحق بخراسان فعلت . الأمر أمرك . والسلطان سلطانك ، والسلام .

موت أبي العباس واستخلاف أبي جعفر

قال : وذكروا أن أبا جعفر لما انقضى الموسم ، وانصرف راجعا : جاءه موت أبي العباس وكان بينه وبين أبي مسلم مرحلة . فكتب إلى أبي مسلم : إنه قد حدث حدث ليس مثلك غائب عنه ، فالعجَل العجَل . قال إسحاق بن مسلم : فقلت لأبي جعفر وأنا أسايره ، ونحن مقبلون من مكة : أيها الرجل ، لاملك لك ، ولا سلطان مع هذا العبد . فقال أبو جعفر : ظهر غشك ، وبدا منك ما كنت تكتم ، بأبي مسلم يفعل هذا ؟ قلت : نعم ، فإني أخاف عليك منه يوم سوء فقال : كذبت . قال إسحاق : فسكت ثم لقيته بعد ذلك من الغد ، ولا والله ما عرفتها فيه ، وعاودني بمثل كلامه الأوّل ، فقلت له : أكثر أو أقلّ ، إن لم تقتله والله يقتلك . قال : فهل شاورت في هذا أحدا ؟ قلت : لا ، قال : اسكت ، فسكتّ . فقدم الكوفة ، فإذا عيسى بن موسى قد سبقه إلى الأنبار ، وغلب على المدينة والخزائن ، وبيوت الأموال والدواوين ، وخلع

---

(١) وترت أهل الدين والدنيا : أصبت منهم شيئاً يطلبوني بثأره .
(٢) أوطأت غيركم العشواء: الظلمة : أى جعلت غيركم في ظلام وهم لايدرى المخرج منه .
(٣) المقصر : القصور : أى لا أستطيع أن أبتعد عنك ولا أمتنع عليك .

عبد الله ، وتوثب على أبي جعفر ، ودعا أهل خراسان فألحقهم باليمن ، وجعل لهم الجمائل (١) الجليلة ، والعطايا الجزيلة ؛ فلما قدم أبو جعفر ، سلم الأمر لعيسى بن موسى ، وتوثب عبد الله ابن عليّ على أهل خراسان بالشام ، فقتلهم ودعا إلى نفسه ، وأتاه أبو غانم عبد الحميد بن ربعي . فقال : إن أردت أن يصفو لك الأمر فاقتل أهل خراسان ، وابدأ بي . فلما قدم أبو جعفر من مكة قال لأبي مسلم : إنما هو أنا وأنت ، والأمر أمرك ، فامض إلى عبد الله بن عليّ وأهل الشام . فلما سار إليه أبو مسلم ، سار معه القوّاد وغيرهم ، فلقى عبد الله بن عليّ وأهل الشام فهزمهم ، وأسر عبد الله بن عليّ ، وبعث به إلى أبي جعفر ، فاستنكر أبو جعفر قعود أبي مسلم عنه ، فبعث إليه يقطين بن موسى ورجلا معه على القبض(٢) . فقال أبو مسلم : لا يوثق بي بهـذا ونحوه فوثب وشتم ، وقال قولا قبيحا . فقـال له يقطين بن موسى : جعلت فداك ، لا تدخل النم على نفسك ، إن أحببت رجعت إلى أمير المؤمنين ؛ فإنه إن علم أن هذا يشق عليك لم يدخل عليك مكروها . ثم قدم أبو جعفر من الأنبار حتى قدم المدائن ، وخرج أبو مسلم فأخذ طريق خراسان مخالفاً لأبي جعفر . فكتب إليـه أبو جعفر : قد أردت مذاكرتك في أشياء لم تحملها الكتب ، فأقبل فإن مُقامك عندنا قليل . فلم يلتفت أبو مسلم إلى كتابه . فبعث إليه أبو جعفر : جرير ابن يزيد بن جرير بن عبد الله البجلي ، وكان أبو مسلم يعرفه . فقال له : أيها الأمير ، ضربت الناس عن عرض لأهل هذا البيت ، ثم تنصرف على مثل هذه الحال ، إن الأمر عند أمير المؤمنين لم يبلغ ما تكره ، ولا أرى أن تنصرف على هذه الحال ، فيقول أبو مسلم : ويحك إني دُلّيت بغُرور(٣) ، وأخاف عَدْوَه(٤) .

قتل أبي مسلم

قال : وذكروا أن جريراً لم يزل بأبي مسلم حتى أقبل به ، وكان أبو مسلم يقـول : والله لأقتلنّ في الروم ، فأقبل منصرفاً ؛ فلما قدم على أبي جعفر وهـو يومئذ بالروميه من المدائن ، أمر الناس يتلقونه ، وأذن له فدخل على دابته ، ورحب به وعانقه ، وأجلسه معه على السرير ،

---

(١) الجمائل : جمع جميله وهي ما يجعل من المال في نظير عمل يقوم به الإنسان .
(٢) أي قبض الغنائم .
(٣) دليت بغرور : خدعت في الأمر .
(٤) عدوه : بفتح العين وسكون الدال اعتداءه عليّ .

وقال له : كدت أن تخرج ولم أنفض إليك بما تريد . فقال : قد أتيت يا أمير المؤمنين ، فليأمرنى بأمره . قال : انصرف إلى منزلك ، وضع ثيابك وادخل الحمام ، ليذهب عنك كلال السفر ، وجعل أبو جعفر ينتظر به الفرصة ، فأقام أياماً يأتى أبا جعفر كل يوم ، فيريه من الإكرام مالم يره قبل ذلك ، حتى إذا مضت له أيام أقبل على التجنى . فأتى أبو مسلم إلى عيسى بن موسى ، فقال : اركب معى إلى أمير المؤمنين ، فإنى قد أردت عتابه بحضرك . فقال عيسى : أنت فى ذمتى ، فأقبل أبو مسلم ، فقيل له : ادخل . فلما صار إلى الرواق الداخلى ، قيل له إن أمير المؤمنين يتوضأ ، فلو جلست ؟ فجلس ، وأبطأ عيسى بن موسى عليه ، وقد هيأ له أبو جعفر عثمان بن نُهيك ، وهو على حرسه فى عدة ، فيهم شبيب بن رياح ، وأبو حنيفة حرب بن قيس ، فتقدم أبو جعفر إلى عثمان فقال له : إذا عاتبته فعلا صوتى فلا تخرجوا . وجعل عثمان وأصحابه فى ستر خلف أبى مسلم فى قطعة من الحجرة ، وقد قال أبو جعفر لعثمان بن نهيك : إذا صفقت بيدى فدونك يا عثمان . فقيل لأبى مسلم : أن قد جلس أمير المؤمنين ، فقام ليدخل ، فقيل له : انزع سيفك فقال : ما كان يصنع بى هذا . فقيل : وما عليك ؟ فنزع سيفه ، وعليه قَباء أسود ، وتحته جبة خز ، فدخل فسلم ، وجلس على وسادة ليس فى المجلس غيرها ، وخلف ظهره القوم خلف ستر . فقال أبو مسلم : صنع بى يا أمير المؤمنين ما لم يصنع بأحد ، نزع سيفى من عنق . قال : ومن فعل ذلك قبحه الله ؟ ثم أقبل يعاتبه ، فعلتَ وفعلتَ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لا يقال مثل هذا لى على حسن بلائى ، وما كان منى ؟ فقال له أبو جعفر : يا بن الخبيثة ، والله لو كانت أمة أو امرأة مكانك لبلغت ما بلغت فى دولتنا ، ولو كان ذلك إليك ما قطعت فتيلا . ألست الكاتب إلى تبدأ بنفسك ، والكاتب إلىّ تخطب آمنة ابنة علىّ ابن عمى ، وتزعم أنك أبو مسلم بن سليط بن عبد الله بن العباس ، لقد ارتقيت ، لا أم لك ، مرتقى صعبا . قال : وأبو جعفر ترعد يده ؛ فلما رأى أبو مسلم غضبه قال : يا أمير المؤمنين ، لا تدخل على نفسك هذا الغم من أجلى ، فإن قدرى أصغر مما بلغ منك هذا . فصفق أبو جعفر بيده ، فخرج عثمان بن نهيك ، فضربه ضربة خفيفة ، فأومأ أبو مسلم إلى رجل أبى جعفر يقبلها ويقول: أنشدك الله يا أمير المؤمنين ، استبقنى لأعدائك ، فدفعه برجله وضربه شبيب على حبل العاتق[1]، فأسرعت فيه ، فقال أبو مسلم : واتفساه : ألا قوة ؟ ألا مغيث ؟ وصاح أبو جعفر : اضرب لا أمّ لك ، فاعتوره القوم بأسيافهم فقتلوه ، فأمر به أبو جعفر ، فكفن بمسح[2] ،

---

(١) العاتق : الكتف ، وحبله عظمة الترقوة وهى الواصلة من رأس العضـــد إلى أعلى القصبة الهوائية

(٢) المسح : ثوب خشن .

ثم وضع فى ناحية ، ثم قيل : إن عيسى بن موسى بالباب ، فقال : أدخلوه . فلما دخل قال : يا أمير المؤمنين ، فأين أبو مسلم ؟ قال : كان ها هنا آنفا فخرج . فقال عيسى : يا أمير المؤمنين قد عرفت طاعته ومناصحته ، ورأى إبراهيم الإمام فيه . قال له أبو جعفر : يا أنوك[١] والله ما أعرف عدوّا أعدى لك منه: ها هو ذا فى البساط . فقال عيسى إنا لله وإنا إليه راجعون، فأقبل إسحاق صاحب شرطته قال: إنما كان أبو مسلم عبد أمير المؤمنين وأمير المؤمنين أعلم بما صنع . فأمر أبو جعفر برأسه ، فطرح إلى من بالباب من قوّاد أبى مسلم ، فجالوا جولة ، وهمّوا أن يبسطوا بسوفهم على الناس ، ثم ردّهم عن ذلك انقطاعهم من بلادهم وتغرّبهم وإحاطة العدوّ بهم ، فبعضهم اتكأ على سيفه فمات ، وبعضهم ناصب وأراد القتال . فلما نظر أبو جعفر إلى ذلك ، أمر بالعطاء لأصحاب أبى مسلم ، وأجزل الصّلات للقوّاد والرؤساء منهم ، ثم عهد إليهم أن من أحبّ منكم أن يكون معنا ها هنا ، نأمر بإلحاقه فى الديوان ، فى ألف من العطاء ، ومن أحبّ أن يلحق بخراسان كتبناه فى خمس مئة ترد عليه فى كل عام وهو قاعد فى بيته . قال : فكأنها نار طفئت . فقالوا : رضينا يا أمير المؤمنين كل ما فعلت ، فأنت الموفق . فمنهم من رضى بالمقام معه ، ومنهم من لحق بخراسان .

ثورة عيسى بن زيد بن على بن الحسين

قال : وذكروا أن أبا جعفر لما قتل أبا مسلم ، واستولى على ملك العراقين [٢] والشام ، والحجاز ، وخراسان ، ومصر ، واليمن ، ثار عليه عيسى بن زيد بن على بن الحسين بن علىّ ابن أبى طالب ، فقاتله فيما بين الكوفة وبغداد ، ولقيه فى جموع كثيرة ، نحواً من عشرين ومئة ألف ، فأقام أياماً يقاتله فى كل يوم ، حتى همّ أبو جعفر بالهزيمة ، وركب فرسه ليهرب ، ثم جعل يشجع أصحابه ، ويعدهم بالعطايا الواسعة ، والصلات الجزيلة ، فقاتلوا ؛ ثم إن أبا جعفر غلبته عيناه وهو على فرسه ، فرأى فى نومه أنه يمدّ يديه ورجليه على الأرض . فاستيقظ ودعا عباراً كان معه ، فأخبره بما رأى . فقال له : أبشر يا أمير المؤمنين فإن سلطانك ثابت ، وسيليه بعدك جماعة من ولدك ، وهذا الرجل منهزم ، فما كان بأسرع من أن نظر إلى عيسى ابن زيد منهزماً .

---

(١) الأنوك : الأحمق .

(٢) العراقين تثنية عراق : وهما عراقان أحدهما من عبّادان إلى الموصل ، والثانى من القادسية إلى حلوان ويطلق العراقان على البصرة والكوفة .

هروب مالك بن الهيثم

وذكروا أن مالك بن الهيثم خرج هارباً حتى أتى همدان ، وعليها يومئذ زهير بن التركى مولى خزاعة ، فكتب إليه أبو جعفر : إن الله مهرق دمك إن فاتك مالك ، فجاء زهير بن التركى إلى مالك بن الهيثم ، فقال له : جعلت فداك ، قد أعددت لك طعاماً ، فلو أكرمتنى بدخولك منزلى. فقال له: نعم ؛ وكان قد هيأ له زهير أربعين رجلاً ،فلما دخل مالك قال لزهير : عجل طعامك ، وقد توثق زهير من الباب ، وهيأ أصحابه ، فخرج عليه الأربعون ، فشدّوه وثاقاً ، ثم وضعوا القيود فى رجله ، ثم قال : أبا نصر ، جعلت فداك ، والله ماعرفت هذه الدعوة حتى أدخلتنى فيها ودعوتنى إليها ، فما الذى يخرجك منها ، والله ما أخليك حتى تزور أبا جعفر ، فبعث به إليه ، فعفا عنه أبو جعفر ، وولاه الموصل .

قال الهيثم : وكان يقال : إن عبد الملك بن مروان كان أحزم بنى أمية ، وإن أباجعفر كان أحزم بنى العباس ، وأشدّهم بأساً ، وأقواهم قلباً ، ألا ترى أن عبد الملك قتل عمرو بن سعيد فى داخل قصره ، وأبوابه مغلقة ، وأبو جعفر قتل أبا مسلم فى داخل سرادقه ، وليس بينه وبين أهل خراسان إلا خرقة ؟ وقال الهيثم : ذكر ابن عياش أن أبا جعفر قال لحاجبه عيسى بن روضة تقدّم إلى كل من دخل أن لايذكر أبا مسلم فى شىء من كلامه . قال ابن عياش فاغتممت لذلك ، فوقفت له خلف ستر ، ومرّ راكباً مع هشام بن عمرو وعبد الله ؛ فلما طلع عمر بن عبدالرحمن صاحب شرطته وبيده الحربة ركبت. قال أبوالجراح مالك؟ فقلت: أسلم على أمير المؤمنين. قال : دونك فدنوت والنهر بينى وبينه . فقلت : ياأمير المؤمنين هنيئاً لك وقفة أقعدت كل قائم. فقال بيده[1] على فيه ولم يلتفت كالكاره لما سمع ، وأقبل على صاحبيه . قال ابن عياش : وكان هذا فى سنة خمس وأربعين ومئة ، ثم انصرف أبو جعفر إلى الحيرة ، ومعه عمه عبد الله بن علىّ فى غير وثاق ، وعليه الأحراس ، وقد هيأ له أبو جعفر بيتاً ، فحبسه فيه ، فلما قدم به قيل : إنه سمه . قال الهيثم : بل كان أساس البيت الذى حبسه فيه من لبن ، والحيرة كثيرة السواقى ، ندّية الأرض . فيقال : إنه أمر من الليل بجدول ، فسرّح حول البيت فتهدّم عليه فمات . قال ابن عياش : أقبل رجل من همدان إلى أبى جعفر فى وفد من العرب فدخلوا عليه، فلما خرجوا وفاتوا بصره ، قال للآذن : علىّ بالهمدانى ، فلما مثل بين يديه قال له: يا أخا همدان ، أخبرنى عن خليفة اسمه على عين[2] قتل ثلاثة ، أسماؤهم على عين . فقال الهمدانى : نعم يا أمير المؤمنين

(١) قال بيده : أشار بيده على فمه ، أى وضع يده على فمه.
(٢) أى أول اسمه عين.

عبد الملك ابن مروان قتل عمرو بن سعيد الأشدق ، اسمه على عين ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن محمد الأشعث ، وأنت يا أمير المؤمنين اسمك على عين ، وقتلت عبد الرحمن بن مسلم أبا مسلم ، أوّل اسمه على عين ، وعبد الجبار الخولانى ، وسقط البيت على عمك عبد الله . فقال : وما يدخل سقوط البيت على عمى لا أمّ لك . ثم استعمل أبو جعفر على خراسان أسيد ابن عبد الله الخزاعى ، وأمره بتطلب عمال أبى مسلم ، ثم عفا عنهم ، ثم عزل الخزاعى وولى أبا عون عبد الملك بن يزيد ، ثم ولى بعد أبى عون حميد بن قحطبة ، ثم ولى المسير بن زهير حتى مات أبو جعفر المنصور .

قصة سابور ملك فارس

قال : وذكروا أن أبا جعفر دعا إسحاق بن مسلم العقيلى ، فقال له : حدثنى عن الملك الذى كنت حدثتنى عنه بحرّان . فقال : نعم أكرمك الله ، أخبرنى أبى عن حصين بن المنذر : أن ملكا من ملوك فارس يقال له سابور الأكبر ، كان له وزير ناصح ، قد أخذ أدباً من آداب الملوك ، وشاب ذلك بفهم فى الدين ، فانتصف من أهلها فعلا ولسَنًا[1] ، فوجهه سابور داعية إلى أهل خراسان ، وكانوا قوما يعظمون الدنيا جهالة بالدين ، واستكانة لحبّ الدنيا ، وذلا لجبابرتها ، فجمعهم على كلمة من الهدى يكيد بها مطالب الدنيا ، واعتزّ بقتل ملوكهم ، وتخوّله إياهم[2] ، وكان يقال : لكل ذليل دولة ، ولكل ضعيف صولة . فلما استوثقت له البلاد ، جعل إليه سابور أمرهم ، وأحال عليه طاعتهم ، فساس قوما لا يرامونه إلى ما سبق إليه قبلهم ، فلم ينتصف سابور من طاعتهم ، واستمالة أهوائهم ، مع مالا يأمن من زوال القلوب ، وغدرات الوزراء ، فاحتال على قطع رجائه عن قلوبهم ، فصمم على قتله عند وروده عليه برؤساء أهل خراسان وفرسانهم ، فقتله ، فلم يرعهم إلا ورأسه بين أيديهم ، فوقف بهم بين الفرقة وتخطف الأعداء ، ونأى[3] الرجعة واليأس من صاحبهم ، فرأوا أن يستتموا الدعوة بطاعة سابور ، ويتعوّضوه[4] من الفتنة ، فملكهم ثمانين عاما .

فأطرق أبو جعفر ملياً ، ثم قال متمثلا :

لذى الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا وما عُلّمَ الإنسان إلا ليعلما

---

(١) اللسن : بفتح السين : البلاغة وحسن المنطق.
(٢) تخوله إياهم : استخدامه لهم وجعلهم خولا خدما .
(٣) نأى الرجعة : بعد مسافة الرجوع إلى أوطانهم .
(٤) يتعوضوه : أى يجعلوه عوضاً وبدلا من الفتنة أى فتنهم بقتلهم واستذلالهم .

خروج شريك بن عون على أبي جعفر وخلعه

قال : وذكروا أن أبا جعفر لما استقامت له الأمور ، واستولى على الملك ، خرج عليه شريك بن عون الهمداني وقال : ما على هذا بايعتك ، ولا بايعنا آل محمد على أن تسفك الدماء وأن يعملوا بغير الحق ، فخالف أبا جعفر ، وتبعه أكثر من ثلاثين ألفا ، فوجه إليه أبو جعفر زياد بن صالح الخزاعي ، فقاتله شهورا ، ونهى أبو جعفر أن يسبي أحد منهم ، أو يقتل أحد من رجالهم ، لأنه كان فيهم قوم أخيار ورجال أشراف ، وكان خروجهم ديانة وإنكارا للدماء، والعمل بغير الحق ، فلذلك لم يقتلوا . وكتب إليهم : وإن عدتم عدنا ، وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا ، وقد عفونا عنكم مرتكم هذه ، فالله الله على دمائكم احقنوها .

اجتماع شبيب بن شيبة مع أبي جعفر قبل ولايته وبعدها

قال : وذكروا أن شبيب بن شيبة قال : حججت عام هلك هشام بن عبد الملك ، فبينا أنا مريح(١) ناحية المسجد ، إذ طلع عليّ من بعض أبوابه فتى أسمر ، رقيق السمرة ، موفر اللمة (٢) ، خفيف اللحية ، رحب الجبهة ، كأن عينيه لسانان ناطقان ، عليه أبهة الأملاك ، في زيّ النسّاك ، تقبله القلوب ، وتتبعه العيون ، يعرف الشرف في تواضعه ، والعفو في صورته ، واللبّ في مشيته فما ملكت نفسي أن نهضت في أثره سائلا عن خبره ، فتحرّم بالطواف . فلما قضى طوافه قصد المقام ليركع ، وأنا أرعاه ببصري ، ثم نهض منصرفاً ، فكأنّ عيناً أصابته ، فكبا كبوة دميت منها أصبعه ، فدنوت منه متوجعاً لما ناله ، متصلا به ، أمسح عن رجله عفر التراب ، فلا يمتنع عليّ ، ثم شققت حاشية ثوبي ، فعصبت على رجله ، فلم ينكر ذلك ، ثم نهض متوكئا عليّ ، وانقدت له حتى أتى بناء بأعلى مكة ، فابتدره غلامان ، تكاد صدورهما تنفرج من هيبته ، ففتحا له الباب ، فدخل واجتذبني ، فدخلت بدخوله ، فخلى يدي ، وأقبل على القبلة فصلى ركعتين ، ثم استوى في صدر مجلسه ، فحمد الله وصلى على نبيه ، ثم قال : لم يخف عليّ مكانك منذ اليوم ، فمن تكون ؟ فقلت : شبيب بن شيبة التميمي . فقال : الأهتمي ؟ فقلت : نعم . فرحب وقرّب ، ووصف قومي بأبين وصف ، وأفصح لسان. فقلت : أصلحك الله ، أحبّ المعرفة ، وأجِلّ عن المسألة . فتبسم وقال : بلطف أهل العراق : أنا عبد الله بن محمد بن عليّ بن عباس ، فقلت : بأبي أنت وأمي ، ما أشبهك بنسبك ، وأدلك على

---

(١) مريح : مستريح ، ومريح دابق .
(٢) اللمة : الشعر الذي على أعلى القفا ، وتوفير اللمة كثرة شعرها .

سلفك : وقد سبق إلى قلبي من محبتك ما لا أبلغه بوصفي لك . قال : فاحمد الله يا أخا تميم ، فإنا قوم يسعد بحبنا من يحبنا ، ويشقى ببغضنا من يبغضنا ، ولن يصل الإيمان إلى قلب أحدكم حتى يحب الله ورسوله ، ومهما ضعُفنا عن جزائه قوّى الله على أدائه . فقلت له : أنت توصف بالعلم ، وأنا من حملته ، وأيام الموسم ضيّقة ، وشغل أهله كثير ، وفى نفسى أشياء أحبّ أن أسأل عنها ، أفتأذن فيها جعلت فداك ؟ قال : نحن من أكثر الناس مستوحشون ، وأرجو أن تكون للسرّ موضعا ، وللأمانة واعيا ، فإن كنت على ما رجوت ، فهات على بركة الله . فقدّمت إليه من وثائق الأيمان ما سكن إليه ، فتلا قول الله ــ قل أىّ شىء أكبر شهادة ؟ قل الله شهيد بيني وبينكم ــ ثم قال : سل . فقلت : ما ترى فى من على الموسم ؟ وكان عليه يوسف ابن محمد الثقفى ، خال الوليد بن يزيد ، فتنفس الصعداء ، ثم قال : عن الصلاة خلفه تسأل ، أم استنكرت أن يتأمر على آل الرسول من ليس منهم ؟ قلت : عن كلا الأمرين أسأل . قال : إن هذا عند الله عظيم ، أما الصلاة ، ففرض الله على عباده ، فأدّ فرضه عليك فى كل وقت ، فإن الذى ندبك لحج بيته ومجاهدة عدوّه ، وحضور جماعته وأعياده ، لم يخبرك فى كتابه أنه لا يقبل منك نسكا إلا مع أكمل المؤمنين إيمانا رحمة لك ، ولو فعل ذلك بك ضاق الأمر عليك ، فأسمح يسمح لك . ثم كرّرت عليه السؤال ، فما احتجت إلى أن أسأل عن أمر دينى أحدا بعده . ثم قلت له : يزعم أهل العلم بالكتاب أنها ستكون لكم دولة لا شك فيها ، تطلع مطلع الشمس ، وتظهر بظهورها ، فأسأل الله خيرها ، ونعوذ به من شرّها . قال : خذ بحظ لسانك ويدك منها إن أدركتها . قلت : أو يتخلف عنها أحد من العرب وأنتم سادتها ؟ قال : نعم، قوم يأبون إلا الوفاء لمن اصطنعهم ونأبى إلا طلبا لحقنا ، فننصر ويخذلون ، كما نصر أوّلنا بأوّلهم ، وخذل لمخالفتنا من خذل منهم ، فاسترجعت . قال : هوّن عليك الأمر ، سنة الله التى قد خلت فى عباده ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، وليس ما يكون منهم بحاجز لنا عن صلة أرحامهم ، وحفظ أعقابهم فقلت : كيف تسلم لهم قلوبكم ، وقد قاتلوكم مع عدوكم ؟ فقال : نحن قوم حبب إلينا الوفاء وإن كان علينا ، وبغض إلينا الغدر وإن كان لنا ، وإنما يشذّ عنا منهم الأقلّ ، فأما أنصار دولتنا ، ونقباء شيعتنا ، وأمراء جيوشنا فهم ومواليهم معنا ، فإذا وضعت الحرب أوزارها صفحنا للمحسن عن المسىء ، ووهبنا للرجل قومه ومن اتصل بأسبابه ، فتذهب الثائرة ، وتخمد الفتنة ، وتطمئن القلوب . فقلت : ويقال : إنه يبتلى بكم من أخلص لكم المحبة . فقال : قد روى أن البلاء أسرع إلى محبينا من الماء إلى قراره .

---

(١) أسمح : تجاوز وكن سمحاً .

قلت : لم أرد هذا . قال : فما الذى تريد ؟ قلت توقعون بالولى وتحظون[١] العدو . فقال : من يسعد بنا من الأولياء أكثر ، ومن يسلم معنا من الأعداء أقل ، إنما نحن بشر ، ولا يعلم الغيب إلا الله ، وربما استترت عنا الأمور ، فنوقع بمن لا نريد ، وإن لنا لإحسانا يجازى الله به مداواة ماتكلم[٢] ورتق ماتثلم[٣] فنستغفر الله بما يعلم ، وما أنكر من ألا يكون الأمر على ما بلغك ، ومع الولىّ التعزّز والإدلال ، والثقة والاسترسال ، ومع العدوّ التحرّز والتذلل والاحتيال ، وإنك لمسئول يا أخا بنى تميم . قلت : إنى أخاف ألا أراك بعد اليوم . قال : لكن أرجو أن أراك وترانى قريباً إن شاء الله . قلت . عجل الله ذلك ، ووهب لى السلامة منكم ، فإنى محبكم . فتبسم وقال : لا بأس عليك ما أعاذك الله من ثلاثة . قلت : وما هى ؟ قال : قدح فى الدين ، وهتك للملوك ، وتهمة فى حرمة ، واحفظ عنى ما أقول لك : اصدق وإن ضرّك الصدق ، وانصح وإن باعدك النصح ، ولا تخالطنّ لنا عدوّا وإن أحظيناه فإنه مخذول ، ولا تخذلنّ ولياً وإن أقصيناه وأصبحْنا بترك المكافأة ، وتواضع إذا رفعوك ، وصِلْ إذا قطعوك ، ولاتستخف فيمقتوك ، ولا تنقبض فيحتشموك ، ولا تخطب الأعمال[٤] ، ولا تتعرّض للأموال ، وأنا رائح من عشيق هذه ، فهل من حاجة ؟ فنهضت لوداعه فودّعته ، ثم قلت : أوقتٌ لظهور الأمر ؟ ومتى ؟ قال الله الموقّت والمنذر ، فخرجت من عنده ، فإذا مولى له يتبعنى ، فأتانى بكسوة من كسوته . وقال لى : يأمرك أبو جعفر أن تصلى فى هذه ، ثم افترقنا ، فوالله ما رأيته إلا وحرَسيّان[٥] قابضان علىّ يدفعاننى إلى بيعتى فى جماعة من قومى لنبايعه . فلما نظر إلىّ : أثبتنى : وقال للحرسيين : خليا عمن صحّت مودته ، وتقدمت قبل اليوم حرمته ، وأخذت بيعته ، فأكبر الناس ذلك من قوله . ثم قال لى : أين كنت أيام أبى العباس أخى ؟ فذهبت اعتذر . فقال : أمسك ، فإن لكل شىء وقتاً لا يعدوه ، ولن يفوتك إن شاء الله حظ مودتك ، وحق مشايعتك ، واختر منى رزقاً يسعك ، أو خُطّة[٦] ترفعك ، أو عملا يُنهضك .

---

(١) تحظون العدو : تجعلونه ذا حظوة وجاه .
(٢) تكلم : تجرح لأن الكلم الجرح .
(٣) تثلم : تفتق وتخرق .
(٤) تخطب الأعمال : تطلب لوظائف لنفسك .
(٥) حرسيان : شرطيان .
(٦) الخطة : الطريقة .

فقلت : أنا لوصيتك حافظ . فقال : وأنا لها أحفظ ، إنى إنما نهيتك أن تخطب الأعمال ولم أنهك عن قبولها إن عرضت عليك . فقلت : الرزق مع قرب أمير المؤمنين أحبّ إلىّ . قال : وذلك أحبّ إلىّ لك ، وهو أجمّ لقلبك وأودع لك ، وأعفى إن شاء الله ، فهل زدت أحداً فى عيالك بعد . وقد كان سألنى عنهم فعجبت من حفظه . فقلت : زدت الفرس والخادم. قال : قد ألحقنا عيالك بعيالنا ، وخادمك بخادمنا : ولو لم يسعنى حملت لك على بيت المال ، فهل تحملك مئتا دينار لكل غرّة(١) أو نزيدك ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ، إن شطرها ليحملنى العامين . قال : فإنها لك فى كل غرّة فاقبضها من عاملى فى أىّ بلد أحببت ، وإن شئت فقد ضممتك إلى المهدى ، فإنه أفرغ لك منى ، وأرضاه لك إن شاء الله .

حج أبى جعفر ولقائه مالك بن أنس وما قال له

ذكروا أن أبا جعفر أمير المؤمنين لما استقامت له الأمور ، واستولى على السلطان خرج حاجاً إلى مكة ، وذلك فى سنة ثمان وأربعين ومئة . فلما كان بمنى ، أتاه الناس يسلمون عليه ، ويهنئونه بما أنعم الله عليه ، وجاءه رجال الحجاز من قريش وغيرهم ، وفقهاؤهم وعلماؤهم ، ممن صاحبه وجامعه على طلب العلم ومذاكرة الفقه ورواية الحديث . فكان فيمن دخل عليه منهم : مالك بن أنس . فقال له أبو جعفر : يا أبا عبد الله إنى رأيت رؤيا . فقال مالك : يوفق الله أمير المؤمنين إلى الصواب من الرأى ، ويلهمه الرشاد من القول ، ويعينه على خير الفعل ، فما رأى أمير المؤمنين ؟ فقال أبو جعفر : رأيت أنى أجلسك فى هذا البيت ، فتكون من عمّار بيت الله الحرام ، وأحمل الناس على علمك ، وأعهد إلى أهل الأمصار يوفدون إليك وفدهم ، ويرسلون إليك رسلهم فى أيام حجهم ، لتحملهم من أمر دينهم على الصواب والحقّ ، إن شاء الله ، وإنما العلم علم أهل المدينة ، وأنت أعلمهم . فقال مالك : أمير المؤمنين أعلى عيناً ، وأرشد رأيا ، وأعلم بما يأتى وما يذر ، وإن أذن لى أقول قلت ، فقال أبو جعفر : نعم ، فحقيق أنت أن يسمع منك ، ويصدر عن رأيك . فقال مالك : يا أمير المؤمنين إن أهل العراق قد قالوا قولا تعدّوا فيه طورهم ، ورأيت أنى خاطرت بقولى لأنهم أهل ناحية ، وأما أهل مكة فليس بها أحد ، وإنما العلم علم أهل المدينة ، كما قال الأمير ، وإن لكل قوم سلفاً وأئمة . فإن رأى أمير المؤمنين أعزّ الله نصره إقرارهم على حالهم فليفعل . فقال أبو جعفر : أما أهل العراق فلا يقبل أمير المؤمنين منهم صرفاً ولا عدلا ، وإنما العلم علم أهل المدينة ، وقد علمنا أنك إنما أردت خلاص نفسك ونجاتها . فقال مالك : أجل يا أمير المؤمنين ، فأعفنى يعف الله عنك . فقال أبو جعفر قد أعفاك أمير المؤمنين ، وايم الله ما أجد بعد أمير المؤمنين أعلم منك ولا أفقه .

دخول سفيان الثورى وسليمان الخواص على أبى جعفر وما قالا له

قال : وذكروا أنه لما كان أبو جعفر بمنى فى العام الذى حجّ فيه سفيان الثورى وسليمان الخوّاص ، قال أحدهما لصاحبه : ألا ندخل على هذا الطاغى الذى كان يزاحمنا بالأمس فى مجالس العلم عند منصور والزهرى ، فنكلمه ، ونأمره بحقّ ، وننهاه عن باطل ، فلعل أن يقع كلامنا منه موقعاً ينفع الله به المسلمين ، ويأجرنا عليه . فقال سليمان الخوّاص : إنى لأخشى أن يأتى علينا منه يوم سوء . فقال الثورى : ما أخاف ذلك ، فإن شئت فادخل ، وإن شئت دخلت . فدخل سليمان الخوّاص ، فأمره ونهاه ، ووعظه وذكّره الله ، وما هو صائر إليه ، ومسئول عنه . فقال له أبو جعفر : أنت مقتول ، ما تقول فى كذا وكذا ، لشىء سأله عنه من باب العلم ؟ فأجابه ، فلما خرج قال سفيان الثورى : ماذا صنعت ؟ قال : أمرت ونهيت ، ووعظت وذكرت فرضاً كان فى رقابنا أدّيناه مع أنه لا يقبل ، وسألنى عن مسألة فأجبته . قال سفيان : ما صنعت شيئاً ، فدخل سفيان الثورى فأمره ونهاه . فقال له : ها هنا أبا عبد الله إلىّ إلىّ ، ادن منى . فقال : إنى لا أطأ ما لا أملك ولا تملك . فقال أبو جعفر : يا غلام أدرج البساط ، وارفع الوطاء ، فتقدم سفيان فصار بين يديه وقعد ، ليس بينه وبين الأرض شىء ، وهو يقول : — منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى — ، فدمعت عينا أبى جعفر . ثم تكلم سفيان دون أن يستأذن ، فوعظ وأمر ونهى وذكّر ، وأغلظ فى قوله . فقال له الحاجب : أيها الرجل ، أنت مقتول : فقال سفيان : وإن كنت مقتولا فالساعة ، فسأله أبو جعفر عن مسألة فأجابه ، ثم قال سفيان : فما تقول أنت يا أمير المؤمنين فيما أنفقت من مال الله ، ومال أمة محمد بغير إذنهم ، وقد قال عمر فى حجة حجها ، وقد أنفق ستة عشر ديناراً هو ومن معه : ما أرانا إلا وقد أجحفنا ببيت المال . وقد علمت ما حدثنا به منصور بن عمار ، وأنت حاضر ذلك ، وأوّل كاتب كتبه فى المجلس عن إبراهيم ، عن الأسود ، عن علقمة ، عن ابن مسعود ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ربّ متخوّض فى مال الله ومال رسول الله فيما شاءت نفسه له النار غداً » فقال له أبو عبيدة الكاتب: أمير المؤمنين يُستقبل بمثل هذا ؟ فقال له سفيان: اسكت ، فإنما أهلك فرعون هامان ، وهامان فرعون . ثم خرج سفيان ، فقال أبو عبيدة الكاتب : ألا تأمر بقتل هذا الرجل ؟ فوالله

ما أعلم أحداً أحقّ بالقتل منه . فقال أبو جعفر : اسكت يا أنْوَك[١] ، فوالله ما بقى على الأرض أحد اليوم يُستحيَا منه غير هذا ، ومالك بن أنس .

دخول ابن أبي ذؤيب ومالك بن أنس وابن سمعان على أبي جعفر

قال : وذكروا عن مالك بن أنس قال : لما ولى أبو جعفر الخلافة ، وافى إليه الملاّقون[٢] المشاءون بالنميمة عنّى بكلام كان قد حُفظ علىّ ، فأتانى رسوله ليلاونحن بمنى ، قال : أجبأمير المؤمنين ، وذلك بعد مفارقتى له ، وخروجى عنه ، فلم أشك أنه للقتل ، ففرغت من عهدى[٣] ، واغتسلت وتوضأت ولبست ثياب كفني وتحنطت ، ثم نهضت فدخلت عليه في السرادق ، وهو قاعد على فراش قد نظم بالدرّ الأبيض ، والياقوت الأحمر ، والزمرّد الأخضر ، حكى له أنه كان من فرش هشام بن عبد الملك كان قد أهداه إليه صاحب القسطنطينية ، لا يعلم ثمنه ، ولا يدرى ما قيمته ، والشمع يحترق بين يديه ، وابن أبي ذؤيب وابن سمعان قاعدان بين يديه ، وهو ينظر فى صحيفة فى يده . فلما صرت بين يديه سلّمت ، فرفع رأسه ، فنظر إلى ، وتبسم تبسم المغضب ، ثم رمى بالصحيفة ، وأشار لى إلى موضع عن يمينه أقعد فيه . فلما قعدت وأخذت مقعدى ، وسكن رَوْعى ، رفعت رأسى أنظر تلقائى ، فإذا أنا بواقف عليه درع ، وبيده سيف قد شهره ، يلمع له ما حوله ، فالتفتّ عن يمينى ، فإذا أنا بواقف بيده جُرْز[٤] من حديد ، ثم التفت عن يسارى فإذا أنا بواقف عليه درع ، وبيده سيف قد شهره ، وهم أجمعون قد أصغوا إليه ، ورمقوه بأبصارهم خوفاً من أن يأمر فى أحد أمراً فيجده غافلا . ثم التفت إلينا وقال : أما بعد معشر الفقهاء ، فقد بلغ أمير المؤمنين عنكم ما أخشن صدره ، وضاق به ذرعه وكنتم أحقّ الناس بالكفّ من ألسنتكم ، والأخذ بما يشبهكم ، وأولى الناس بلزوم الطاعة ، والمناصحة فى السر والعلانية لمن استخلفه الله عليكم . قال مالك : فقلت يا أمير المؤمنين ، قال الله تعالى: — يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين فقال أبو جعفر : على ذلكم أىّ الرجال أنا عندكم ؟ أمن أئمة العدل ، أم من أئمة الجور ؟ فقال مالك: فقلت يا أمير المؤمنين، أنا متوسل إليك بالله تعالى،وأتشفع إليك بمحمد صلى الله عليه وسلم

---

(١) الأنوك: الأحمق كما سبق.
(٢) الملاقون : المتملقون المنافقون .
(٣) العهد : الوصية : أى أوصيت بما أريد وبينت ما علىّ ومالى.
(٤) الجرز من الحديد : العمود من الحديد .

وبقرابتك منه ، إلا ما أعفيتنى من الكلام فى هذا . قال : قد أعفاك أمير المؤمنين . ثم التفت إلى ابن سمعان فقال له : أيها القاضى ناشدتك الله تعالى ، أى الرجال أنا عندك ؟ فقال ابن سمعان : أنت والله خير الرجال يا أمير المؤمنين ، تحج بيت الله الحرام ، وتجاهد العدو ، وتؤمّن السبل ، ويأمن الضعيف بك أن يأكله القوىّ ، وبك قوام الدين ، فأنت خير الرجال ، وأعدل الأئمة . ثم التفت إلى ابن أبى ذؤيب فقال له : ناشدتك الله : أىّ الرجال أنا عندك ؟ قال : أنت والله عندى شرّ الرجال ، استأثرت بمال الله ورسوله ، وسهم ذوى القربى واليتامى والمساكين ، وأهلكت الضعيف ، وأتعبت القوىّ ، وأمسكت أموالهم ، فما حجتك غداً بين يدى الله ؟ فقال له أبو جعفر : ويحك : ما تقول ؟ أتعقل ؟ انظر ما أمامك . قال : نعم ، قد رأيت أسيافا ، وإنما هو الموت ، ولا بدّ منه ، عاجله خير من آجله . ثم خرجا وجلست . قال : إنى لأجد رائحة الحنوط عليك . قلت : أجل: لما نُمى إليك عنى ما نُمى ، وجاءنى رسولك فى الليل ، ظننته القتل ، فاغتسلت وتطيبت ، ولبست ثياب كفنى . فقال أبو جعفر: سبحان الله ما كنت لأثلم[1] الإسلام،وأسعى فى نقضه ، أو ماترانى أسعى فى أوَد[2] الإسلام ، وإعزاز الدين ، عائذا بالله مما قلت يا أبا عبد الله ، انصرف إلى مصرك راشداً مهدياً ، وإن أحببت ما عندنا ، فنحن ممن لا يؤثر عليك أحدا ، ولا يعدل بك مخلوقا . فقلت : إن يجبرنى أمير المؤمنين على ذلك فسمعا وطاعة : وإن يخيّرنى أمير المؤمنين اخترت العافية . فقال : ما كنت لأجبرك ، ولا أكرهك ، انقلب معافىً مكلوءا[3] . قال : فبتّ ليلتى ، فلما أصبحنا أمر أبو جعفر بصرر دنانير ، فى كل صرّة خمسة آلاف دينار ، ثم دعا برجل من شرطته . فقال له : تقبض هذا المال ، وتدفع لكل رجل منهم صرّة ، أما مالك بن أنس إن أخذها فبسبيله ، وإن ردّها لا جناح عليه فيما فعل ، وإن أخذها ابن أبى ذؤيب فأتنى برأسه ، وإن ردّها عليك فبسبيله ، لا جناح عليه،وإن يكن ابن سمعان ردّها فأتنى برأسه ، وإن أخذها فهى عافيته .

فنهض بها إلى القوم ، فأما ابن سمعان فأخذها فسلم ؛ وأما ابن أبى ذؤيب فردّها فسلم ، وأما أنا فكنت والله محتاجا إليها فأخذتها . ثم رحل أبو جعفر متوجها إلى العراق .

---

(١) أثلم الإسلام : أكسره وأجعل فيه ثلما أى كسرا أو شرخا .
(٢) الأود : العوج : أى أسعى فى تقويم أوده وإصلاح اعوجاجه .
(٣) مكلوءا : ملحوظا مراعى .

كتاب عبيد الله العمرى إلى أبى جعفر

قال : وذكروا أن أبا جعفر لما قفل من حجه سنة ثمان وأربعين ومئة ، سأل عن عبيد الله بن عمر بن حفص بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وهو الفقيه المعروف بالعمرى . فقيل له : إنه لم يحج العام يا أمير المؤمنين ، ولو حج لكان أول داخل عليك ، فلا تقبل عليه أحداً يا أمير المؤمنين ، ولا يقدح فيه عندك إلا باطلى أو كذاب ، فإنه من علمت . فقال أبو جعفر : والله ما تخلف عن الحج فى عامه هذا إلا علما منه بأنى حاج ، فلذلك تخلف ، ولا والله ما زاده ذلك عندى إلا شرفاً ورفعة ، وإنى من التوقير له والإجلال بحال لا إخال أحداً من الناس بذلك ، لشرفه فى قريش ، وعظيم منزلته من هذا الأمر ، والموضع الذى جعله الله فيه ، والمكان الذى أنزله به . فلما قدم أبو جعفر بغداد ، ورد عليه كتاب عبيد الله العمرى ، فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله أبى جعفر أمير المؤمنين ، من عبيد الله بن عمر . سلام الله عليك ، ورحمة الله التى اتسعت فوسعت من شاء . أما بعد : فإنى عهدتك ، وأمر نفسك لك مهم ، وقد أصبحت وقد وليت أمر هذه الأمة ، أحمرها(١) وأسودها وأبيضها ، وشريفها ، ووضيعها ، يجلس بين يديك العدو والصديق ، والشريف والوضيع ، ولكل حصته من العدل ، ونصيبه من الحق ، فانظر كيف أنت عند الله يا أبا جعفر ، وإنى أحذرك يوما تفنى فيه الوجوه والقلوب ، وتتقطع فيه الحجة ، لملك قدقهرهم بجبروته ، وأذلهم بسلطانه والخلق داخرون(٢) له ، يرجون رحمته ويخافون عذابه وعقابه . وإنا كنا نتحدث أن أمر هذه الأمة سيرجع فى آخر زمانها ، أن يكون إخوان العلانية أعداء السريرة ، وإنى أعوذ بالله أن تنزل كتابى سوء المنزل ، فإنى إنما كتبت به نصيحة ، والسلام .

فأجابه أبو جعفر المنصور

من عبد الله بن محمد أمير المؤمنين ، إلى عبيد الله بن عمر بن حفص :

سلام عليك ، أما بعد ، فإنك كتبت إلى تذكر أنك عهدتنى وأمر نفسى لى مهم ، فأصبحتُ وقد وليتُ أمر هذه الأمة بأسرها ، وكتبت تذكر أنه بلغك أن أمر هذه الأمة سيرجع فى

---

(١) الأحمر : الفرس، والأسود: العرب، والأبيض:الروم، يريد أنك توليت أمر الأمة بما فيها جميع الأجناس .

(٢) داخرون له : أذلاء له ،صغار أمام كبريائه.

آخر زمانها ، أن يكون إخوان العلانية ، أعداء السريرة ، ولست إن شاء الله من أولئك ، وليس هذا زمان ذلك ، إنما ذلك زمان تظهر فيه الرغبة ، والرغبة تكون رغبة بعض الناس إلى بعض ، صلاح دنياهم أحبّ إليهم من صلاح دينهم . وكتبت تحذّرني ما حذّرت به الأمم من قبلي ، وقِدْماً كان يقال : اختلاف الليل والنهار يقرّبان كل بعيد ، ويُبليان كل جديد ، ويأتيان بكل موعود حتى يصير الناس إلى منازلهم من الجنة والنار . وكتبت تعوذ بالله أن نزل كتابك سوء المنزل ، وأنك إنما كتبت به نصيحة فصدقت وبررت ، فلا تدع الكتب إليّ . فإنه لا غنى بي عن ذلك ، والسلام .

اجتماع أبي جعفر مع عبد الله بن مرزوق

قال : وذكروا أن أبا جعفر المنصور أمير المؤمنين لما حج ودخل في الطواف بالبيت الحرام ، أمر بالناس فنُحُّوا عن البيت ، ثم طاف أسبوعه ، فوثب إليه عبد الله بن مرزوق ؟ وقال : من جرّأك على هذا ؟ فلبّبه بردائه وهزّه . ثم قال له : من جعلك أحق بهذا البيت من الناس : تحول بينه وبينهم ، وتنحيّهم عنه ؟ فنظر أبو جعفر في وجهه ، فعرفه . فقال عبد الله بن مرزوق : قال : نعم . فقال : من جرأك على هذا ؟ ومن أقدمك عليه ؟ فقال عبد الله بن مرزوق : وما تصنع بي ؟ بيدك ضر أو نفع ؟ والله ما أخاف ضرك ، ولا أرجو نفعك حتى يكون الله عز وجل يأذن لك فيه ، ويلهمك إلى فعله . فقال له أبو جعفر : إنك أحللت بنفسك وأهلكتها . فقال عبد الله بن مرزوق : اللهمّ إن كان بيد أبي جعفر ضُرّي فلا تدع من الضر شيئاً إلا أنزلته عليّ ، وإن كان بيده منفعتي فاقطع عني كل منفعة منه ، أنت يارب بيدك كل شيء ، ومليك كل شيء ، فأمر به أبو جعفر فحمل إلى بغداد فسجنه بها . وكان يسجنه بالنهار ، ويبعث إليه بالليل يبيت عنده ويسامرُه ، يلبث نهاره أجمع بالسجن ، ثم يسامره بالليل ليظهر للناس أنه سجن أول من اعترض عليه ، لئلا يجترىء الجاهل فيقول : قد وسع عفو أمير المؤمنين فلاناً ، أفلا يسعني؟ فكان دأبه هذا معه زماناً طويلا حتى نُسِي أمره ، وانقطع خبره ، ثم خلّى سبيله ، فلحق بمكة ، فلم يزل بها حتى مات أبو جعفر ، ووليَ ابنه المهدي . فلما حج المهدي ، فعل مثل ذلك ، ففعل به عبد الله ابن مرزوق مثل ذلك أيضاً ، فأراد قتله . فقيل له : يا أمير المؤمنين إنه قد فعل هذا بأبيك ، فكان من صنيعه أن حمله إلى بغداد ، فسجنه بالنهار ، وسامره بالليل ، وأنت أحق من أخذ بهديه ، واحتذى على مثاله ، وورث أكروماته ، فحمله المهدي معه ، فمات ببغداد ، رحمه الله .

ذكر ما نال مالك بن أنس من جعفر بن سليمان

قال : وذكروا أنه هاج بالمدينة هيج فى ابتداء أيام أبى جعفر ، فبعث إليها أبو جعفر ابن عمه جعفر بن سليمان بن العباس ، ليسكّن هيجها وفتنها ، ويجدد بيعة أهلها فقدمها وهو يتوقد ناراً على أهل الخلاف لهم ، فأظهر الغلظة والشدّة ، وسطا [١] بكل من ألحد فى سلطانهم ، وأشار إلى المنازعة لهم ، وأخذ الناس بالبيعة ، وكان مالك بن أنس رحمه الله لم يزل صغيراً وكبيراً محسّداً(٢) ، وكذلك كل من عظمت نعمة الله عليه فى علمه أو عمله ، أو فهمه أو ورعه ، فكيف بمن جمع الله ذلك فيه . ولم يزل منذ نشأ كذلك قد منحه الله تعالى العلم والعمل، والفهم واللب والنبل ، ووصل له ذلك بالدين والفضل ، عرف منه ذلك صغيراً ، وظهر فيه كبيرا ، واستلب الرياسة ممن كان قد سبقه إليها ، بظهور نعمة الله عليه ، وسموّها به على كل سام، فاستدعى ذلك منهم الحسد له ، وألجأهم ذلك إلى البغى عليه ، فدسوا إلى جعفر بن سليمان من قال له : إن مالكا يفتى الناس بأن أيمان البيعة لا تحلّ ، ولا تلزمهم لمخالفتك ، واستكراهك إياهم عليها ، وزعموا أنه يفتى بذلك أهل المدينة أجمعين ، لحديث رواه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما أكرهوا عليه » فعظم ذلك على جعفر واشتد عليه وخاف أن ينحلّ عليه ما أبرم من بيعة أهل المدينة ، وهمّ أن يبدر [٣] فيه بما عافاه الله منه ، وأنعم على المسلمين ببقائه . فقيل له : لاتبدر فيه ببادرة ، فإنه من أكرم الناس على أمير المؤمنين ، وآثرهم عنده ، ولا بأس عليك منه ، فلا تحدث شيئاً إلا بأمر أمير المؤمنين ، أو يستحق ذلك عندنا بأمر لايخفى على أهل المدينة . فدس إليه جعفر بن سليمان بعض من لم يكن مالك يخشى أن يؤتى من قبله ، ومن مأمنه يؤتى الحذر (٤)، فسأله عن الأيمان فى البيعة فأفتاه مالك بذلك طمأنينة إليه ، وحسبة فيه . فلم يشعر مالك إلا ورسول جعفر بن سليمان يأتيه ، فأتوا به إليه منتهك الحرمة ، مزال الهيبة(٥) ، فأمر به فضرب سبعين سوطاً : فلما سكن الهيج بالمدينة وتمت له البيعة ، بلغ بمالك ألمُ الضرب حتى أضجعه .

---

(١) سطا بكل من ألحد : تسلط عليهم وعذبهم ، ومعنى ألحد فى سلطانهم ، لم يعترف به .
(٢) كثير الحساد .
(٣) يبدر فيه : يؤذيه .
(٤) هذا مثل عربى معناه أن الشخص كثير الحذر والاحتياط يؤتى من الجهة التى يأمن منها ولا يخافها .
(٥) مزال الهيبة : قد أزيلت هيبته ولم يعامل بمقتضى ماله من وقار واحترام .

إنكار أبي جعفر المنصور لضرب مالك

قال : وذكروا أنه لما بلغ أبا جعفر ضرب مالك بن أنس ، وما أنزل به جعفر بن سليمان أعظم ذلك إعظاماً شديداً ، وأنكره ولم يرضه ، وكتب بعزل جعفر بن سليمان عن المدينة ، وأمر أن يؤتى به إلى بغداد على قَتَب (١) . وولى على المدينة رجلا من قريش من بني مخزوم ، وكان يوصف بدين وعقل وحزم وذكاء ، وذلك في شهر رمضان ، من سنة إحدى وستين ومائة . وكتب أبو جعفر إلى مالك بن أنس ، ليستقدمه إلى نفسه ببغداد ، فأبى مالك ، وكتب إلى أبي جعفر يستعفيه من ذلك ، ويعتذر له ببعض العذر إليه . فكتب أبو جعفر إليه : أن وافني بالموسم العام القابل إن شاء الله ، فإني خارج إلى الموسم .

دخول مالك على أبي جعفر بمنى

قال وذكروا : أن مالكا حج سنة ثلاث وستين ومائة ، ثم وافى أبا جعفر بمنى أيام منى ، فذكروا أن مطرفا أخبرهم ، وكان من كبار أصحاب مالك . قال : قال لي مالك : لما صرت بمنى أتيت السرادقات ، فأذنت بنفسي ، فأذن لي ، ثم خرج إليّ الآذن من عنده فأدخلني . فقلت للآذن : إذا انتهيت بي إلى القبة التي يكون فيها أمير المؤمنين فأعلمني ، فمر بي من سرادق إلى سرادق ، ومن قبة إلى أخرى ، في كلها أصناف من الرجال بأيديهم السيوف المشهورة ، والأجزرة (٢) المرفوعة ، حتى قال لي الآذن : هو في تلك القبة ، ثم تركني الآذن وتأخر عني ، فمشيت حتى انتهيت إلى القبة التي هو فيها فإذا هو قد نزل عن مجلسه الذي يكون فيه إلى البساط الذي دونه ، وإذا هو قد لبس ثياباً قصدة (٣) ، لاتشبه ثياب مثله ، تواضعاً لدخولي عليه ، وليس معه في القبة إلا قائم على رأسه بسيف صَلِيت(٤) ؛ فلما دنوت منه ، رحّب بي وقرّب. ثم قال : هاهنا إليّ ، فأوميت للجلوس . فقال : هاهنا ؛ فلم يزل يدنيني حتى أجلسني إليه ، ولصقت ركبتي بركبتيه . ثم كان أول ما تكلم به أن قال : والله الذي لا إله إلا هو ياأبا عبد الله ما أمرت بالذي كان ، ولا علمته قبل أن يكون ، ولا رضيته إذ بلغني (يعني الضرب) . قال

---

(١) القتب : بفتح القاف والتاء : البرذعة الصغيرة على قدر سنام البعير وهي مهينه غير كريمة .

(٢) الأجرزة : جمع جرز بضم الجيم وهو عمود الحديد .

(٣) قصدة : غير فخمة ولا غالية الثمن

(٤) السيف الصليت : المعد للقطع أو القتل .

مالك : فحمدت الله تعالى على كل حال ، وصليت على الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم نزّهته عن الأمر بذلك ، والرضا به . ثم قال : ياأبا عبدالله ، لايزال أهل الحرمين بخير ما كنتَ بين أظهرهم ، وإنى إخالك أمانا لهم من عذاب الله وسطوته ، ولقد دفع الله بك عنهم وقعة عظيمة ، فإنهم ماعلمت أسرع الناس إلى الفتن ، وأضعفهم عنها ، قاتلهم الله أنى يؤفكون ، وقد أمرت أن يؤتى بعدو الله من المدينة على قَتَب ، وأمرت بضيق مجلسه ، والمبالغة فى امتهانه ، ولابد أن أنزل به من العقوبة أضعاف ما نالك منه . فقلت له : عافى الله أمير المؤمنين ، وأكرم مثواه ، قد عفوت عنه ، لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم منك . قال أبو جعفر : وأنت فعفى الله عنك ووصلك . قال مالك . ثم فاتحنى فيمن مضى من السلف والعلماء ، فوجدته أعلم الناس بالناس، ثم فاتحنى فى العلم والفقه ، فوجدته أعلم الناس بما اجتمعوا عليه، وأعرفهم بما اختلفوا فيه ، حافظاً لما رُوى ، واعياً لما سُمع ، ثم قال لى : ياأبا عبد الله ضع هـذا العلم ودوّنه ، ودون منه كتباً ، وتجنب شدائد عبدالله بن عمر ورُخص عبدالله بن عباس ، وشواذّ ابن مسعود ، واقصد إلى أواسط الأمور ، وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة رضى الله عنهم ، لنحمل الناس إن شاء الله على علمك وكتبك ، ونبثها فى الأمصار ، ونعهد إليهم أن لا يخالفوها، ولا يقضوا بسواها ، فقلت له: أصلح الله الأمير ، إن أهل العراق لايرضون علمنا ، ولا يرون فى عملهم رأينا . فقال أبو جعفر : يُحملون عليه ، ونضرب عليه هاماتهم بالسيف ، ونقطع طىّ ظهورهم بالسياط ، فتعجل بذلك وضعها ، فسيأتيك محمد المهدى ابنى العام القابل إن شاء الله إلى المدينة ، ليسمعها منك ، فيجدك وقد فرغت من ذلك إن شاء الله . قال مالك: فبينما نحن قعود إذ طلع بنى له صغير من قبة ، بظهر القبة التى كنا فيها . فلما نظر إلىّ الصبى فزع ، ثم تقهقر فلم يتقدم . فقال له أبو جعفر : تقدم ياحبيبى ، إنما هو أبو عبد الله فقيه أهل الحجاز ؛ ثم التفت إلىّ فقال : ياأبا عبد الله ، أتدرى لِمَ فزع الصبى ولم يتقدم ؟ فقلت : لا . فقال : والله استنكر قرب مجلسك منى إذ لم ير به أحداً غيرك قطّ ، فلذلك تهقر . قال مالك : ثم أمر لى بألف دينار عينا ذهبا ، وكسوة عظيمة ، وأمر لابنى بألف دينار ، ثم استأذنته فأذن لى ، فقمت فودعنى ودعا لى ، ثم مشيت منطلقاً ، فلحقنى الخصىّ بالكسوة فوضعها على منكبى ، وكذلك يفعلون بمن كسوه ، وإن عظم قـدره ، فيخرج بالكسوة على الناس فيحملها ، ثم يسلمها إلى غلامه ، فلما وضع الخصى الكسوة على منكبى انحنيت عنها بمنكبى ، كراهة احتمالها ، وتبرؤا من ذلك ، فناداه أبو جعفر : بلّغها رَحْل أبى عبد الله .

ما قال أبو جعفر لعبد العزيز بن أبي دُاود

قال : وذكروا أن أبا جعفر لما دخل في الطواف بالبيت لقي عبـد العزيز بن أبي دُواد في الطواف ، فقبض على يده ، ثم قال له : أتعرفني ؟ قال : لا . إلا أن قبضتك قبضة جبّار . فقال له : أنا أبو جعفر أمير المؤمنين ، فسلني من حوائجك ما شئت أقضها . قال : أسألك برب هذا البيت أن لا ترسل إليّ بشيء حتى آتيك طوعاً . فقال له أبو جعفر : ذلك لك ، فأقبل يمشي بمشيته في طوافه ، وكان شيخاً كبيراً ضعيفاً . فتأنف بقربه ، وثقل عليه كلامه . فقال : أسألك بحرمة هذا البيت إلا تنحيت عني ، فتنحى عنـه أبو جعفر وخلّى سبيله . وكان عبد العزيز بن أبي دُواد هذا لا يرفع رأسه إلى السماء ، تخشعاً لله ، فأقام كذلك أربعين سنة .

قدوم المهدي إلى المدينة

قال : وذكروا أن مالك بن أنس لما أخـذ في تدوين كتبه ، ووضع علمه قدم عليه المهدي بن أبي جعفر ، فسأله عما صنع فيما أمره به أبو جعفر ، فأتاه بالكتب وهي كتب الموطأ ، فأمر المهـدي بانتساخها ، وقرئت على مالك . فلما أتم قراءتها : أمر له بأربعة آلاف دينار ، ولابنه بألف دينار .

موت أبي جعفر المنصور واستخلاف المهدي

قال : وذكروا أنه لما كانت سـنة ست وستين ومائة قدم أبو جعفر مكة ، فلما قضى حجه احتُضِـر ثلاثة أيام ، ثم توفي في اليوم الرابع ، وولي ابنه محمد المهدي وكان معه يومئذ بمكة وأخوه جعفر ببغداد ، وكان قد عهد إليه أبو جعفر . فلما قفل المهدي إلى بغداد أتاه رجل فقال له : أدرك أخاك جعفراً ، فإنه قد همّ بمنازعتك ، وهو يريد خلعك ، فأخذ في السير ، ومعه الجنود والأموال ، وصناديد الرجال من العراق ، ورجال العرب ، ووجوه قريش . فلما قدم العراق اعتذر إليه جعفر مما رفع إليه عنـه ، وحلف له أنه ما نوى ولا أراد منازعته ، ولا أشار إلى خلافه ، ولا همّ به،فقبل منه المهدي ذلك ، وعفا عنه ، وكان كريماً سخياً حليماً ، فلما كان سنة سبع وستين ومائة قدم حاجا ، فدخل المدينة زائراً لقبر النبي ﷺ ، فدخل عليه مالك ، فحضه على الإحسان إلى أهل المدينة ، وحدثه بفضلها وفضل أهلها ، وبقول رسول الله ﷺ فيها : أمرت بقرية تأ كل القرى ، يقولون يثرب (وهي المدينة) تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد ، ثم قال يا أمير المؤمنين : أفليس هؤلاء أهلاً أن يعانوا على الصبر عليها

وعلى جوار رسول الله ﷺ ؟ فقال المهدى : بلى والله يا أبا عبد الله ، حتى لا أجد إلا مثل هذا ، ومد يده ليأخذ من الأرض شيئاً فلم يجده . ثم قال صدقت فيهم وبررت ، وحضضت على الرشد ، فأنت أهل أن يطاع أمرك ، ويسمع قولك ، فأمر له بخمسة أبيات مال ، والبيت عندهم خمسمائة ألف ، وأمر مالكاً أن يختار من تلامذته رجالاً يثق بهم ، ويعتمد عليهم ، يقسمونها على أهل المدينة ، ويؤثرون أهل بيت رسول الله ﷺ ، وأهل بيت أبى بكر وعمر وعثمان ، ثم أهل بيوت المهاجرين والأنصار ، ثم الذين اتبعوهم بإحسان ، ففعل فأغنى أهل المدينة عامهم ذلك .

ذكر استخلاف هارون الرشيد

قال : وذكروا أنه لما كانت سنة ثلاث وسبعين ومائة توفى المهدى ، وذلك أنه خرج يوماً إلى بعض المنازل ، ومعه أهله وبعض بنيه ، وكان قد ذكر أن يستخلف ابنه عبد الله بعده ، ثم غفل عن ذلك وتركه ، فحمل عبدَ الله الحرصُ والطيشُ إلى أن دسّ على أبيه بعض الجوارى المتمكنات منه بسمه ، وبذل لها على ذلك الأموال ، ومناها أمانى الغرور . فلما سمّته ، ووصل إليه السمّ ، عرف المهدى أنه قد قتل ، فدعا كاتبه فقال له : عجّلوا واكتب عهد هارون الرشيد ، وخذ بيعة الجند ، وأمراء الأجناد ، واكتب بذلك إلى ولاة الأمصار ، وكان الرشيد أصغر بنيه ، وكان ابن أمة ، لا يطمع فى خلافة ، ولا يظنّ بها ، فأدخله على نفسه وهو يجود بها ، والرشيد لا يعلم أنه مستخلف . فقال له المهدى : أى بنى ، والله ما أردت استخلافك ، ولا هممت به لحداثة سنك ، وقد كان قال لى جدك أبو جعفر ، وأنت يومئذ قد ترعرعت فى أول رؤية رآك : إن ابنى هذا الأعين[1] سيلى هذا الأمر ، ويسير فيه سيرة صالحة ، فقلت : يا أبت ، أتظن ذلك ؟ قال : ما هو بالظن ، ولكنه اليقين ، ويكون ملكاً بضعاً وعشرين سنة ، وتقتله الحمى الربع[2] ، فاندفع الرشيد باكياً فقال له : ما يبكيك يا فتى ؟ قال : يا أبت ، إنك والله نعيت لى نفسى ، وعرفتنى متى أموت ، ومم أموت ؟ قال : هو ذاك ، فشمّر ، واجتهد وجدّ ، وخذ بالحزم والكرم ، ودع الإحن ، وانظر أخاك عبد الله فلا يناله منك مكروه ، فقد عفوت عنه . فقال الرشيد : يا أبت ، وتعفو عنه ، وقد أتى ما ذكرت ،

---

(١) الأعين : شديد سواد العين واسعها

(٢) الحمّى الربع : بكسر الراء وسكون الباء هى التى تأتى المريض يوما وتسكت يومين ثم تأتى فى اليوم الرابع .

وصنع ما وصفت ؟ قال يا بنىّ : وما علىّ أن أعفو عمن أكرمنى الله على يديه ، وأرجو أن يغفر لى بصفيته بى إن شاء الله . عليك يا بنى بتقوى الله العظيم وطاعته، فاتخذها بضاعة يأتيك الربح من غير تجارة ، وأوصيك بإخوتك خيراً ، وأهل بيت رسول الله ﷺ ، اقبل حسناتهم ، وتجاوز عن سيآتهم ، واغفر زلاتهم ، وأوصيك بأهل الحرمين خيراً ، فقد علمت من هم ، وأبناء من هم ، أجزل لهم العطاء ، وأحسن لهم الجزاء ، يكافئك الله فى الآخرة والأولى .

ثم توفى المهدى من يومه ذاك ، واستخلف الرشيد ، وخرج إلى الناس يبايعهم بوجه طلق ولسان سلط(١) ، فبايعوه ببغداد ، وذلك يوم الخميس من المحرم سنة ثلاث وسبعين ومائة ، وتمت له البيعة يوم الجمعة فى المسجد الجامع ، فلم يختلف عليه أحد . ولا كره خلافته مخلوق ، فأحسن السيرة ، وأحكم أمر الرعيّة ، وكان أوحد أهل بيته ، ولم يشبهه أحد من الخلفاء من أهله ، رحمه الله .

قدوم هارون الرشيد المدينة

قال : وذكروا أنه لما كانت سنة أربع وسبعين ومائة ، خرج هارن حاجا إلى مكة ، فقدم المدينة زائرا قبر النبى عليه الصلاة والسلام ، فبعث إلى مالك بن أنس ، فأتاه ، فسمع منه كتابه الموطأ ، وحضر ذلك يومئذ فقهاء الحجاز والعراق والشام واليمن ، ولم يتخلف منهم أحد إلا حضر ذلك الموسم مع الرشيد وسمع وسمعوا من مالك موطأه الذى وضع ، وكان قارئه يومئذ حبيب كاتب الرشيد . فلما أتم قراءته قال هارون لفقهاء الحجاز والعراق : هل أنكرتم شيئا من هـذا العلم ؟ قالوا : ما أنكرنا شيئا إلا ما ذكر من أمر الدماء ، والتدمية فى القتل ، فإن هذا من أنكر ما يكون من العلم وأبطله ، يقول الرجل : قتلنى فلان فيقبل منه ، ويحلف أولياؤه على القاتل خمسين يمينا ، ثم يقتل ، ولعل أولياءه لم يحضروا ، ولم يكونوا بمصر ، فيعرض بهم الحنث فى الإيمان ، فيقبل قول رجل على غيره ، وهو لا يقبل فى ربع دانق(٢) يدعيه إلا ببينة تقوم ، إن هـذا لهو الضلال . وقد قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح الذى رواه ابن عباس حيث قال : « لو يعطى

---

(١) اللسان السلط : الطويل ، والمراد بذلك الفصاحة .
(٢) الدانق : بفتح النون : سدس الدرهم .

الناس بدعواهم، لادعى ناس دماء أقوام وأموالهم،ولكن البينة على من ادّعى واليمين على من أنكر». قال الرشيد: ويحكم،إن فى كتاب الله ما يصدّق ذلك،ولا إخال أبا عبد الله أخذه إلا من كتاب الله فاستثبتوه . فأرسل إليه فأقبـــل . فقال هارون : يا أبا عبد الله ، إن أصحابنا هؤلاء لم يختلف منهم اثنان فى الإنكار عليك فما وضعت فى مُوَطّئك من التدْمية(١) . وتصديق قول من ادعى ، وأنت وهم تزعمون بُطْل دعوى من ادعى على رجل دانقا إلا ببينة تقوم له ، فأخبر القوم ، وأوضح لهم حجتك فى ذلك وأنا معك عليهم ، فإنى لا أعلم بعد أمير المؤمنين أحداً أعلم منك ، فقال مالك : يا أمير المؤمنين ، إن مما يصدق القسامة ما فى كتاب الله من القتل ، والأخذ بالدم الذى كان فى بنى إسرائيل . قال الله عزّ وجـل : « اضربوه ببعضها » فذبحت البقرة ، ثم ضربوه بعضو من أعضائها ، فحيّ القتيل ، ثم تكلم . فقال : فلان قتلنى ، فقتله موسى ابن عمران عليه السلام بقوله ذلك، وهو حكم التوراة ، فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا ، فالذين أسلموا : محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وقد حكم بالتوراة رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، فى المرجوم اليهودى الذى زنى ، فرجمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكر أنس بن مالك رضى الله عنه . أن يهوديا لقى جارية من جوارى الأنصار فى بعض أنقاب(٢) المدينة ، وعليها أوضاح(٣) من ذهب ووَرِق ، فأخذ الأوضاح منها ، وشدَخ رأسها بين حجرين ، فأُدركت الجارية وبها رمق ، فاتهم بها اليهود ، فأتى بهم ، فمرُضوا عليها رجلاً رجلا وهى لا تتكلم ، حتى أتى بصاحبها الذى قتلها فعرفته . فقيل لها : هذا الذى قتلك ؟ فأومأت برأسها أن نعم ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فشدخ رأسه بين حجرين ، فهذا يا أمير المؤمنين حكم الدماء ، والقسامة فيها سنة قائمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء ، فقنعوا منـــه بذلك ، وصاروا إلى الرضا بقـوله ، والتصديق لروايته ، والتسليم لتأويل ما تأوّل من القرآن الكريم . ثم قال له مالك : إن أباك يا أمير المؤمنين بعث إلىّ فى هـذا المجلس كما بعثت إلىّ ، وحدثته بما حدثتك به فى شـأن أهل المدينة ، وما يصبرون عليه من البلاء ، وشدّة الزمان ، وغلاء الأسعار ، صبراً على ذلك ، واختياراً لجوار قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقال هارون:ذلك هو أبى وأنا ابنه ، وسوف أفعل ما فعل، وأمر لأهل المدينة بعشرة أبيات مال ، ضعف ما أمر به المهدىّ ، وكان أبو يوسف

---

(١) التدمية : التسهيل وقبول الحلف بدل البيّنة وإلحاق الدم بمن ذكره المقتول .
(٢) الأنقاب : جمع نَقب وهو المكان المرتفع .
(٣) الأوضاح : جمع وضح بفتح الواو والضاد نوع من حلى النســاء ، والورق بكسر الراء : الفضة .

القاضى مع الرشيد يومئذ ، فسأله أن يجمع بينه وبين مالك ، ليكلمه فى الفقه . فقال الرشيد لمالك : كلمه يا أبا عبد الله ، فأنف من ذلك مالك ، وتنزّه عنه ، وقال لهارون : ها هنا من فتيان قريش من تلامذتنا ، من يبلغ حاجة أمير المؤمنين ، ويخصمه[1] فيما يتكلم به ، ويذهب إليه ، فسرّ ذلك الرشيد حين أضاف ذلك إلى قريش . فقال : من هو ؟ فقال : المغيرة بن عبد الرحمن المخزومى ، فبعث إليه الرشيد فجمعه بأبى يوسف فقال : كلمنى بما بدا لك أجاوبك. فقال أبو يوسف القاضى : يا أمير المؤمنين إن هؤلاء ، يعنى مالكا وأصحابه ، يقضون بغير ما فى كتاب الله ، يقول الله عزّ وجل « وأشهدوا ذوى عدل منكم » : وقال : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم » وهؤلاء يقضون باليمين مع الشاهد ، ولا نسمع أن الله تعالى ذكر إلا شاهدين وأربعة شهداء ، ولم يصح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قضى به ، وإنما يدور هذا الحديث الذى روى فيه سهيل عن أبى صالح عن أبيه ، ثم نسيه سهيل ، فكان يحدث ويقول : حدثنى ربيعه عن أبى هريرة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى باليمين مع الشاهد » فلما نسيه سهيل بطل الخبر ، وأثبت أصله ، فلا معنى لذكره . قال المغيرة : قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقضى به علىّ بالكوفة ، فقال أبو يوسف : أنا أكلمك بالقرآن ، وأنت تكلمنى بأفعال الناس ، أتراك تعرّفنى بهذا ، وبما قضى به علىّ وغيره ؟ فقال المغيرة : فأنت كافر بنبى قضى باليمين مع الشاهد ، أو مؤمن به ؟ فسكت أبو يوسف فحجّه[2] المغيرة . فسرّ بذلك الرشيد ، وأمر للمغيرة بألف دينار . ثم أرسل الرشيد إلى مالك فقال : ما تقول فى هذا المنبر ، فإنى أريد أن أنزع ما زاد فيه معاوية بن أبى سفيان وأردّه إلى الثلاث درجات، التى كانت بعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال له مالك : لا تفعل يا أمير المؤمنين ، فإنما هو من عود ضعيف قد تخرّمته المسامير ، فإن نقضته تفكّك ، وذهب أكثره ، ومع هذا إنه يا أمير المؤمنين لو أعدته إلى ثلاث درجات لم آمن عليه أن ينتقل عن المدينة ، يأتى بعدك أحد فيقول أو يقال له : ينبغى لمنبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون معك حيث كنت ، فإنما المنبر للخليفة ، فينتقل كما انتقل من المدينة كل ما كان بها من آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما أعلم أنه ترك له عليه الصلاة والسلام بها نعل ولا شعر ولا فراش ولا عصا ولا قدح ولا شىء مما كان له ها هنا من آثاره إلا وقد انتقل : فأطاعه الرشيد ، وانتهى عن ذلك برأى

---

(١) يخصمه بضم الصاد : ينتصر عليه فى هذه الخصومة .

(٢) حجّه : انتصر عليه فى حجته .

مالك بن أنس وكان ذلك رحمة من الله لأهل المدينة ، وتثبيتاً لمنبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم .

مسير الرشيد إلى الفضل بن عياض

قال : وذكروا أن الرشيد كان كثيراً ما يتلثم ، فيحضر مجالس العلماء بالعراق وهو لا يُعرف. وكان قد قسم الأيام والليالى على سبع ليالى : فليلة للوزراء ، يذاكرهم أمور الناس ، ويشاورهم فى المهمّ منها ، وليلة للكتاب يحمل عليهم الدواوين ، ويحاسبهم عما لزم من أموال المسلمين ، ويرتب لهم ما ظهر من صلاح أمور المسلمين ؛ وليلة للقوّاد ، وأمراء الأجناد يذاكرهم أمر الأمصار ويسألهم عن الأخبار ، ويوقفهم على ما تبين له من صلاح الكور[1] وسدّ الثغور، وليلة للعلماء والفقهاء يذاكرهم العلم ويدارسهم الفقه،وكان من أعلمهم،وليلة للقرّاء والعبّاد يتصفح وجوههم ، ويتعظ برؤيتهم ، ويستمع لمواعظهم ، ويرق قلبه بكلامهم ، وليلة لنسائه وأهله ولذّاته ، يتلذّذ بدنياه ، ويأنس بنسائه ، وليلة يخلو فيها بنفسه ، لا يعلم أحد قرُب أو بعُد ما يصنع ، ولا يشكّ أحد أنه يخلو فيها بربه ، يسأله خلاص نفسه ، وفكاك رقّه : فبينما هو يوماً فى مجلس محمد بن السمّاك ،وقد قصد لرؤيته يسمع لموعظته ، ولا يعلم أحد بمكانه ، فسمع بعض أهل المجلس يذكر الفضل بن عياض ، ويصف فضله وعبادته ، وعلمه وورعه ، فاشتهى النظر إليه ، وتاقت نفسه إلى رؤيته ومحادثته ، فتوجه من العراق إلى الحجاز قاصدا إليه ، ومعه عبد الله بن المبارك فقيه أهل بغداد وعالمهم ، وكان الفضل بن عياض يسكن الغيران . فلما قربا من موضعه قال عبد الله بن المبارك : يا أمير المؤمنين إن الفضل إن عرفك وعرف مكانك لم يأذن لك عليه ، ويسفر عنك . فقال هارون : تستأذن أنت عليه ، وتخفى مكانى عنه ، حتى يأذن بالدخول فاستأذن عليه ابن المبارك . قال الفضل : من بالباب ؟ قال . ابن المبارك. قال : مرحبا يا أخى وصاحبى ، فقال ابن المبارك : ومن معى يدخل ؟ فقال الفضل : ومن معك ؟ قال : رجل من قريش . فقال الفضل : لا إذن ، لا حاجة لى برؤيه أحد من قريش . فقال له ابن المبارك : إنه من العلم والعناية والفقه فيه بمكان ، فقال له الفضل : أو ماعلمت أن إبليس أفقه الناس ؟ فقال له ابن المبارك : إنه سيد قريش فى زمانه هذا وفوقهم ، وإنما عنى أنه فوقهم فى الدنيا وسيدهم فقال له الفضل : فإن كان كما تقول فليدخل ، فدخل الرشيد فسلم عليه ، ثم جلس بين يديه ، فتحدثوا ساعة . فقال له ابن المبارك : ياأبا الحسن ، أتدرى من هذا قال : لاأدرى . فقال له:

---

(١) الكور بفتح الواو : القرى والبلاد الصغيرة .

هذا هارون بن محمد الرشيد أمير المؤمنين ، فنظر إليه الفضل بن عياض ساعة ، ثم قال : هذا الوجه الجيل يسأل غدا عن أمة محمد ويؤاخذ بها ، لئن كان العفو والغفران يسعك مع ما أنت فيه ، إن هذا لهو الفضل المبين ، وكان الرشيد من أجمل الناس خَلْقا ، وأحسنهم نطقاً ، وأبلغهم لسانا ، وأعذبهم كلاما ، وأكثرهم علماً وفهما ، ثم جعل الفضل بن عياض يعظه ويخوّفه حتى بكى هارون بكاء شديدا . قال ابن المبارك . ما رأيت أحدا يبكي بكاء الرشيد يومئذ ، ثم أفاق من بكائه ، فجعل الفضل يذكر مثالبه ، ومثالب أهل بيته ، ورداءة سيرتهم ، وخلافهم الحق ، ثم لم يدع شيئاً يعيبه به ، ولا أمرا ينتقصه فيه إلا واستقبله به . فقال له الرشيد : يا أبا الحسن ، أما لك ذنوب تخاف أن تهلك بها إن لم يغفرها الله لك : فقال الفضل : بلى . فقال الرشيد : فما جعلك بأحقّ أن ترجو المغفرة منى ؟ وأنا على دين يقبل الله فيه الحسنات ، ويعفو عن السيئات ، ومع ذلك فإنى والله ما كنت لأخير[1] بين شيء وبين الله إلا اخترت الله تعالى على ما سواه ، الله الشاهد على قولى ، والمطلع على نيتى وضميرى ، وكفى به شهيدا : وأنا مع هذا ألِىَ من الإصلاح بين الناس ، والجهاد فى سبيل الله ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، مالا تليه أنت ، فما جعلك أحقّ أن ترجو المغفرة منى ؟ فسكت الفضل ساعة ثم قال : ما غلبك من حجّك[2] ، ثم قام هارون للخروج . فقال الفضل : يا أمير المؤمنين ، إنى أخشى أن يكون العلم قد ضاع قبلك كما ضاع عندنا ، فقال الرشيد : أجل إنه ما قلت . فلما قدم الرشيد العراق كان أول ما ابتدأ فيه النظر أن كتب إلى الأمصار كلها ، وإلى أمراء الأجناد ، أما بعد : فانظروا من التزم الأذان عندكم ، فاكتبوه فى ألف من العطاء ، ومن جمع القرآن وأقبل على طلب العلم وعمر مجالس العلم ، ومقاعد الأدب ، فاكتبوه فى ألفى دينار من العطاء ، ومن جمع القرآن ، وروى الحديث ، وتفقه فى العلم واستبحر ، فاكتبوه فى أربعة آلاف دينار من العطاء ، وليكن ذلك بامتحان الرجال السابقين لهذا الأمر ، من المعروفين به من علماء عصركم ، وفضلاء دهركم ، فاسمعوا قولهم وأطيعوا أمرهم ، فإن الله تعالى يقول : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » وهم أهل العلم . قال ابن المبارك : فما رأيت عالماً ولا قارئاً للقرآن ، ولا سابقاً للخيرات ، ولا حافظاً للحرمات بعد أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأيام الخلفاء والصحابة أكثر منهم فى زمن الرشيد وأيامه ، لقد كان الغلام يجمع القرآن وهو ابن ثمانى سنين ، ولقد كان الغلام يستبحر فى الفقه والعلم ، ويروى الحديث ، ويجمع الدواوين ، ويناظر المعلمين وهو ابن إحدى عشرة سنة .

---

(١) الأخير : لا أفاضل بين شيء وبين الله .
(٢) من حجك : من غلبك بالحجة .

ذكر الحائك المتطفل

قال : وذكروا أن الرشيد لما انصرف من الحجاز وصار بالرّقة[١] قال لوزيره عمرو بن مسعدة : مازلت تكلمنى وتستلطفنى فى الرحجىّ حتى وليته الأهواز ، فقعد فى سرّة الدنيا يأكلها خضماً[٢] وقضما ، ولم يوجه إلىّ درهماً ، فاخرج إليه من ساعتك هذه ، حتى تحلّ ساحته ، ثم لا تدع له حرمة إلا انتهكتها ، ولا أكرومة إلا أهنتها ، ثم لا تسمع له حجة يرفعها ، ولاتقبل منه كلمة ينهيها ، إن اعتذر فلاتقبل له عذراً ، وإن قال فلاتقبل له قولا ، فشرّ قائل . وأكذب متظلّم ، فقلت فى نفسى : أبعد الوزارة أصير مستحثاً على عامل خراج ؟ ولكن لم أجد بدأ من طاعة أمير المؤمنين ، إذ كانت ولايته بسببى . فقلت : أخرج يا أمير المؤمنين ؟ قال : فاحلف أنك لاتلبث فى بغداد إلا يوماً ، فحلفت له ، ثم انحدرت إلى بغداد ، ثم خرجت ، فلما صرت بين دير هرقل وبين دير العاقول ، إذا رجل يصيح : ياملاّح ، ياملاّح ، رجل منقطع . فقلت للملاح : قرّب إلى الشط . فقال : ياسيدى هذا رجل شحاذ وإن قعد معك آذاك ، قال الوزير : فلم يلتفت إليه ولقوله ، وأمرت الغلمان فأدخلوه فقعد ، فلما حضر الغداء دعوته ، فكان يأكل أكل جائع بنهامة ، إلا أنه نظيف الأكل ؛ فلما رفع الطعام ، أردت أن يقوم ويغسل يديه فى ناحية ، فلم يفعل ، فغمزه الغلمان ، فلم يفعل ، فتشاغلت عنه ليقوم ؛ ثم قلت له : ياهذا ما صناعتك؟ قال لى : حائك ، فقلت فى نفسى : هذه شرّ من الأولى ، ما ألوم غير نفسى ، إذ لم أقبل ممن نصحنى ، وصرت أواكل الحوكة[٣] . فقلت : توضأ ياأخى ، فتوضأ ؛ ثم قال لى : جعلت فداك: قد سألتنى عن صناعتى ، فما صناعتك أنت ؟ فقلت فى نفسى : هذه شرّ من الأولى ، وكرهت أن أذكر الوزارة ، وقلت أقتصر على الكتابة . فقلت له : كاتب . فقال : إن الكتابة على خمسة أصناف : كاتب رسائل ، يحتاج أن يعرف الفصل من الوصل ، والصدور ورقيق الكلام ، والتهانى والتعازي ، والترهيب والترغيب ، والمقصور والممدود ، وجملاً من العربية . وكاتب جند يحتاج إلى أن يعرف حساب التقدير ، وشيات[٤] الدوابّ ، وحلىّ الناس ونعوتهم[٥] . وكاتب قاض ،

---

(١) الرقه : بلد على الفرات .

(٢) الخضم : الأكل مع ملء الفم ، وأكل الرطب ، والقضم أكل اليابس ، والمراد أنه يأكل خير الأهواز جميعه رطبا ويابسا ولا يترك من خيرها شيئا للدولة .

(٣) الحوكة : جمع حائك وهو خياط الثياب .

(٤) شيات الدواب : علاماتها .

(٥) نعوتهم : جمع نعت وهو الصفه أى أوصافهم .

يحتاج أن يكون عالماً بالشروط والأحكام ، عارفاً بالناسخ والمنسوخ من القرآن ، والحلال ، من الحرام ، والفروع والمواريث . وكاتب شرطة ، يحتاج أن يكون عالماً بالجروح والقصاص والديات ، فقيهاً فى أحكام الدماء ، عارفاً بدعوى التعدّى . وكاتب خراج ، يحتاج أن يعرف الزرع والمساحة وضروب الحساب ، فأيهم أنت أعزّك الله ؟ قلت : فوالله ماقضى كلامه حتى صار أعظم الناس فى نفسى وأحبّهم إلىّ ، وصار كلامه عندى أشهى من الماء البارد العذب على الظمآن. فقلت له : أصلحك الله ، تقدّم إلىّ ، وادن منى أكلمك ، وأقعدك المقعد الذى يقعده مثلك ، فلولا أن من البرّ ما يكون عقوقاً لأقعدتك مقعدى هذا . قال : مقعدى الذى أنا به أولى بى . فقلت : أمتع الله بك ، أنا كاتب رسائل . قال : فأخبرنى لو كان لك صديق تكتب إليه فى المحبوب والمكروه ، ويكتب إليك فى جميع الأسباب ، فتزوّجت أمه ، كيف كنت تكتب إليه ؟ تهنئه أم تعزّيه ؟ قلت : والله ماأدرى كيف الوجه فى هذا وهو بالتعزية أولى منه بالتهنئة . قال : صدقت ، كيف كنت تعزّيه ! فقلت : والله ما أقف على ماتقول . قال : فلست بكاتب رسائل ، فأيهم أنت ؟ قلت : كاتب خراج . قال : فما تقول أصلحك الله ، وقد ولاك السلطان عملاً فبثثت عمالك فيه ، فجاء قوم يتظلمون من بعض عمالك ، فأردت أن تنظر فى أمرهم ، وتنصفهم إذا كنت تحبّ العدل ، وتؤثر حسن الأحدوثة وطيب الذكر ، وكان لأحدهم براح ، فأردت مساحته ، كيف كنت تمسحه ؟ قلت : أضرب العطوف فى العمود ، وأنظر إلى مقدار ذلك . قال : إذا تظلم الرجل . قلت : فأمسح العمود على حدته . قال : إذا تظلم السلطان . قلت : والله ماأدرى. قال : لست بكاتب خراج ، فأيهم أنت ؟ قلت : كاتب جند . قال : فما تقول فى رجلين اسم كل واحد منهما أحمد ، أحدهما مقطوع الشفة العليا ، والآخر مقطوع الشفة السفلى ، كيف كنت تنعتهما وتحليهما ؟ فقلت : كنت أكتب أحمد الأعلم(١) ، وأحمد الأعلم . قال : فكيف يكون هذا ورزق هذا مائتا درهم ، ورزق ذاك ألف درهم ، فيقبض هذا عطاء ذاك ، وذاك عطاء هذا ، فتظلم صاحب الألف ؟ قلت : والله ما أدرى : قال : فلست بكاتب جند ، فأيهم أنت ؟ قلت : كاتب قاض . قال : فما تقول فى رجل خلف سرية(٢) وزوجة ، وكان للزوجة بنت ، وللسرية ابن ، فلما كان تلك الليلة التى مات فيها الرجل ، أخذت الحرّة ابن السرية فادّعته ، وجعلت ابنتها مكانه ، فتنازعتا فيه ، فقالت هذه ابنى ، وقالت هذه ابنى ، كيف كنت تحكم بينهما وأنت خليفة

---

(١) الأعلم : هو مشقوق الشفة .
(٢) خلف : ترك بعد وفاته ، والسرية الأمة التى تسرى بها أى جامعها فولدت له ، والزوجة هى الحرة .

القاضى ؟ قلت : والله ما أدرى . قال : فلست بكاتب قاض ، فأيهم أنت ؟ فقلت : كاتب شرطة. قال : فما تقول فى رجل وثب على رجل ، فشجه شجة موضحة[1] ، فوثب عليه المشجوج فشجه شجة مأمومة[2] ، كيف كنت تقضى بينهما ؟ فقلت : ما أعلم . قال : فلست بكاتب شرطة . فقلت : أصلحك الله : قد سألت ففسر لى ما ذكرت . فقال : أما الذى تزوجت أمه ، فتكتب إليه : أما بعد ، فإن أحكام الله تجرى بغير محابّ المخلوقين ، والله يختار للعباد ، خار الله لك فى قبضها إليه ،فإن القبر أكرم لها ، والسلام . وأما البراح : فتضرب واحداً وثلثاً فى مساحة المعطوف ، فمن ثم بابه . وأما أحمد وأحمد : فتكتب حلية المقطوع الشفة العليا : أحمد الأعلم . والمقطوع الشفة السفلى : أحمد الأشرم . وأما المرأتان فيوزن لبن هذه ولبن هذه ، فأيهما كان أخفّ ، فهى صاحبة البنت . وأما صاحب الشجة : فإن فى الموضحة خمساً من الإبل ، وفى المأمومة ثلاثاً وثلاثين وثلثاً ، فيردّ صاحب المأمومة ثمانيـة وعشرين وثلثاً . فقلت : أصلحك الله ؟ فما أتى بك هاهنا ؟ قال : ابن عمّ لى كان عاملاً على ناحية ، فخرجت إليه ، فألفيته معزولاً فقطع بى ، فأنا خارج أضطرب فى المعاش. قلت : ألست قد ذكرت أنك حائك ؟ فقال: جعلت فداك : إنما أحوك الكلام ، ولست بحائك الثياب . قال : فدعوت المزين فأخذ من شعره ، وأدخل الحمام وطرحت عليه من ثيابى ، فلما صرت إلى الأهواز كلمت فيه الرحجىّ ، فأعطاه خمسة آلاف درهم ، ورجع معى ، فلما صرت إلى أمير المؤمنين ألفيته قد توقد علىّ ناراً ، وامتلأ غيظاً ، وقد حلف بالمشى إلى الكعبة أن ينالنى منه يومُ سوء ، لطول مقامى ، واشتغالى عنـه بالرجل ، فلما دخلت عليه قال : ما كان من خبرك فى طريقك ، وما الذى شغلك بعد أمرى لك. أن لا تلبث ببغداد إلا يوماً واحداً ، ويمينك على ذلك ؟ فأخبرته خبرى ، حتى حدّثته بحديث الرجل ، وقصتى معه ، قال : لقد جئتنى بأعظم الفوائد ، فلأى شئ يصلح ويحك ؟ قلت : هو والله يا أمير المؤمنين أعلم الناس بالفقه والعلم ، والحلال والحرام ، والهندسة والفلسفة ، والحساب والكتابة . فولاه هارون البنـاء والمرمّة[3] ، والمهم من الأمور ، وأولاه على عمال الخراج يتقاضاهم ويحاسبهم ، فكنت والله ألقاه فى المواكب العظيمة ، فينحط عن دابته ساعياً ، حتى يقبل على يدى يقبلها ، فأحلف عليه ، فيقول : سبحان الله ، إنما هذه نعمتك ، وبك نلتها ، ويقول :

---

(١) موضحة : الموضحة هى التى تظهر العظام بعد شق الجلد واللحم .
(٢) المأمومة التى بلغت أم الرأس أى غارت حتى وصلت إلى داخل العظم .
(١) المرمّـة : إصلاح المبانى وترميمها وهى مبلية .

فلو أن للشكر شخصاً يرى ... إذا ما تأمله الناظر
لمثلته لك حتى تراه ... فتعلم أنى امرؤ شاكر

قال عمرو بن مسعدة : ثم قال لى هارون : ويحك ، لما أبطأت حلفت بالمشى إلى الكعبة أن ينالك منى يوم سوء ، ولا والله ما هذا جزاؤك لدىّ فما الرأى ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ، أنت أعلى عينا ، وأولى من برّ يمينه. فقال : والله ما أريد ذلك . قلت : فليكفّر أمير المؤمنين عن يمينه ، فإن النبيّ عليه الصلاة والسلام قال : من حلف على يمين فرأى خيرا منها فليكفر ، وليأت الذى هو خير : فقال : ويحك : إن العلماء لم يروا الكفارة فى هذا ، وإنما تأوّلوا قوله عليه الصلاة والسلام فى الأيمان بالله تعالى ، وقد أجمعت على المشى ، والمضىّ إلى الكعبة راجلا . فقلت : أنى لك بذلك ؟ وكيف تصل راجلا ؟ قال : لابد من ذلك. فقال عمرو : ياأمير المؤمنين ، فأمهل عامك هذا حتى أسهّل لك طريقاً ، وأحدّد لك مراحل ، وأوقّت لك مواقيت يسهل عليك ذلك إن شاء الله . قال : ذلك لك . فأمر عمرو بالأنهار فعرّجت عن مسيلها ، وبالآكام والجبال فسوّيت ، وبالخنادق والأودية فردمت ، حتى صار ما بينه وبين مكة كالراحة الموزونة ، وصارت الأنهار والأودية تسايره على طريقه ، ثم صنع له مراحل ، قد حدّد له عند كلّ مرحلة حدّا ، وابتنى فى كل مرحلة داراً ، وكانت المرحلة بريداً ، قدرها اثنا عشر ميلا ، ثم أمر بالمراحل ففرشت بالبسط الرهاوية(١) ، ونصب له جداراً بالستور ، وسمكها بأكسية الخزّ الرفيع الملوّن ، وقد ضرب عند كل فرسخ قبة مزوّقة ، قد أقام فيها الفرش الممهدة ، وقد أحاط بها الظلال الممدودة بالرواقات الكثيفة، فيها أنواع الطعام والشراب وألوان الفواكه : فلما تمّ صنعه ذلك : وأبرم أمره . قال : يا أمير المؤمنين ، قد تمّ ما أردته، وكمل ما حاولته ، فانهض على اسم الله العظيم ؛ وكانت زبيدة زوجته التى أغرته عليه ، وحملته على اليمين لماقبته ، فخرج الرشيد ماشياً ، ومعه دابّته وزبيدة ، فكانت المرحلة تفرش ، والستور تنصب ، والسُّمك ترفع ، فيمشى ثلاثة أميال، ثم ينزل فى قبة أمامها رواق(٢) ، فينال راحته، ويصيب ما اشتهى من لذّة فى مأكل ومشرب ، ثم ينهض ثلاثة أخرى ، فينزل على مثل ذلك ، فإذا استكمل مشى أربعة فراسخ ، نزل فى قصر قد شيد له ، ودار قد بنيت ، فيها حمام طيّب ، ينال فيها راحته مع أهله ، ويصيب لذّته مما شاء وكيف شاء ، ثم يكسر(٣) فيه يوماً ، ثم يخرج

---

(٢) البسط الرهاوية : نسبة إلى اقليم الرها وهو مشهور بجودة البسط .
(١) الرواق : السرادق أو الحوش المغطى بكساء .
(٢) يكسر فيه يوما : يحتجب فيه ويقيم .

فى اليوم الثانى إلى مثل ذلك . فد شـــايعه فى طريقه الوزراء والقوّاد ، وأمراء الأجناد ، والعلماء والفقهاء ، والجنود والعساكر قد صاروا منه بعزل يحاذونه فى طريقه . إذا نزل فى الرواق صار الخصيان حوله ، بحيث يسمعون كلامه ، ولا يرون شخصه ، فلا يشتهى شيئاً من معرفة أخبار الأمصار والبلدان ، إلا وخط فيه كتاباً ، يأمر فيه بإيصاله لحيث شـــاء من الأماكن ، مسيرة الأيام والليالى ، فيأتيه الجواب من يومه على النجائب من مسيرة ثمانية أيام ، ويأتيه الجواب من يومه من مسيرة شهر ونحوه على أجنحة الحمام ، يعلق الكتاب فى جناحه فيرتفع فى الجوّ ارتفاعاً يغيب شخصه عمن فى الأرض ، وينقضّ على وطنه ، وموضع فراخه ، فإذا نزل لا يستقرّ نزوله ، حتى يؤخذ الكتاب من جناحه ، فيجاوب بما أحبّ ، ثم يسرّح غيره ، فيرتفع فى الجو حتى يوازى وطنه وموضعه من بعد تلك الأماكن التى عليها طريق أمير المؤمنين ، فيؤخذ الجواب منه ، وقد صار الوكلون بذلك لا يهتمون بغير ما قلّدوا ، ولا يتشاغلون بغير ما حمّلوا ، فلم يزل كذلك ماشياً ، حتى وصل إلى مكة فى ثلاثة أشهر ، فقضى حجّه ، وشهد مناسكه ومشاعره ، ثم انصرف قافلاً إلى بغداد ، وذلك فى آخر شهر ذى الحجة من سنة ثمانين ومئة . فلما همّ بالانصراف ، وذكر القفول إلى العراق ، رفع إليه أهل مكة كتاباً يسألونه فيه أن يولى عليهم قاضياً عدلاً ، فأدخلهم على نفسه ، فقال : إن شئتم فاختاروا منكم رجلاً صالحاً أوليه قضاءكم ، وإن أحببتم بعثت إليكم من العراق رجلا لا آلوكم فيه إلا خيراً ، فخرجوا فاختاروا رجلاً ، فاختلفوا فيه ، فاختارت طائفة منهم رجلاً ، واختارت أخرى رجلاً آخر ؛ فلما اختلفوا ارتفعوا إلى الرشيد يذكرون اختلافهم . فقال لهم هارون : أدخلوا علىّ هذين الرجلين اللذين اختلفتم فيهما ، فإذا برجلين ، أحدهما شيخ من قريش ، والآخر غلام حدث من الموالى . فلما نظر إليهما الرشيد قال للشيخ : ادن منى ، فدنا منه ، فقال له الرشيد : أيها القاضى ، إن بينى وبين وزيرى هـــذا خصومة وتنازعاً ، فاقض بيننا بالحقّ . فقال الشيخ : قصـــا علىّ قصتكما ، فقصّا عليه ، فقال الشيخ : تقيم البينة يا أمير المؤمنين على ما ذكرته ، أو يحلف وزيرك هذا . فقال له هارون : إن أخى لا يدافعنى ما أقول ، ولا ينكر إلا قليلاً مما أدّعى ، فلم يزالا يردّدان القول بينهما ويتنازعان ، حتى قضى القاضى لأمير المؤمنين على الوزير . فقال له : قم ، فقام عنه . ثم دعا بالغلام الحدث ، الذى دعته الطائفة الأخرى ، فدخل عليه . فقال له : ادن منى ، فدنا منه . فقال له هارون : إن بينى وبين وزيرى تنازعاً وخصومة ، فاسمع منا قولنـا ، ثم اقض بيننا بالحقّ . قال لهما : إن مقعدكما مختلف ، ومجلسكما متناءٍ ، وأخشى إذا اختلف مجلسكما أن يختلف قولكما ، فإذا تفاضل مجلس الخصوم اختلف بينهما القول ، وكان صاحب المجلس الأرفع ألحن بحجته ، وأدحض لحجة صاحبه ،

وكان إصغاء الحاكم إلى صاحب المجلس الأرفع أكثر ، وإليه أميل .. ولكن تقومان من مجلسكما هذا الذى قد استعليتما فيه،فتجلسا بين يدىّ ، ثم أسمع منكما قولكما،وأقضى لمن رأيت الحقّ له،ثم لا أبالى على من دار منكما. فقال الرشيد : صدقت وبررت فى قولك ؛ فقام الرشيد، وقام عمرو بن مسعدة ، حتى صارا بين يديه جالسين . فلما جلسا بين يديه ذهب الرشيد ليتكلم. فقال له القاضى : لو تركت هذا يتكلم ، فإنه أسنّ منك . فقال الرشيد : إن الحقّ أسنّ منه . فقال القاضى : بلى ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لحويصّة ومحيصّة[1] : كبّر كبّر . يريد ليتكلم عمكما ، لأنه أسنّ منكما وأكبر ، فتكلم عمرو ابن مسعدة ، ثم تكلم الرشيد ، وتنازعا الخصومة ، وترافعا الحجة بينهما ، حتى رأى القاضى أن الحقّ لعمرو ، فقضى له به على الرشيد ، فلما قضى عليه قال لهما : عودا إلى مجلسكما ، فعادا ، فعجب الرشيد من قضائه وعدله واحتفاظه وقلة ميله ، فالتفت إلى عمرو فقال : إن هذا أحقّ بقضاء القضاة من الذى استقضيناه . فقال عمرو : بلى والله ، ولكن القوم أحقّ بقاضيهم إلا أن يأذنوا فيه ، فدعا الرشيد برجال مكة ، فأدخلهم على نفسه ، وأجزل لهم العطاء ، وأحسن على قاضيهم الثناء . ثم قال لهم: هل لكم أن تأذنوا أولّيه قضاء القضاة ، فيسير إلى العراق يقضى بينهم ؟ فقالوا : نعم يا أمير المؤمنين أنت أحقّ به نؤثرك على أنفسنا . فأرسل إليه الرشيد فقال : إنى قد وليتك قضاء القضاة ، فسر إلى العراق لتقضى بينهم ، وتولّ القضاة فى البلدان والأمصار من تحت يدك ، وتوليتهم إليك ، وعزلهم عليك . فقال القاضى : إن يجبرنى أمير المؤمنين على ذلك فسمعا وطاعة ، وإن يخيرنى فى نفسى اخترت العافية ، وجوار هذا البيت الحرام . فقال الرشيد : ما ينبغى لى أن أدع المسلمين وفيهم مثلك ، لا أوليه عليهم ، فخذ على نفسك فإنى مصبح على ظهر إن شاء الله . فخرج الرشيد ومعه الثقفى حتى قدم العراق ، فولاه القضاء ، وجعل إليه قضاء القضاة ، فلم يزل بها قاضيا حتى توفى ، وذلك بعد ثلاثة أعوام من توليته . فلما توفى اغتمّ الرشيد وشقّ عليه ، فجعل الناس يعزّونه فيه علماؤهم بما بلغ منه الغمّ عليه:فسأل عن قاض يوليه قاضى القضاة فى العراق بعد ذلك ، فرفعت إليه تسمية عشرة رجال من خيار الناس وعلمائهم وأشرافهم ، فلما رفعت إليه التسمية ، أمر بهم فأدخلوا عليه رجلا رجلا ، ليتفرّس فيهم من يوليه القضاء ، فنظر إلى رجل منهم توسم فيه الخير والعلم فأمر به فقدم إليه . فلما صار بين يديه، قال له:ما اسمك ؟ قال:معشوق.قال:فما كنيتك؟قال:أبو الهوى.قال:فما نقش خاتمك؟ قال: دام الحبّ دام،وعلى الله التمام. فقال له: قم لا قمت. ثم دعا بالآخر ، وكان قد تفرّس فيه ما تفرّس فى صاحبه فقال له : ما نقش خاتمك؟ فقال : «مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين» فقال

---

(١) هما حويصّة ومحيصّة ابنا مسعود الصحابيّان .

له اخرج . فدعا الرشيد يحيى بن خالد بن برمك ، وكان ممن رفع إليه أسماءهم ، فعنفه بهم ، وقال : رفعت إليّ أسماء المجانين . قال له : والله ما في العراقيين أعقل من الرجلين اللذين سالت ، ولا أفضل منهما . فقال : ويحك إني اختبرت منهما جنونا . قال يحيى : إنهما والله كانا كارهين لما دعوتهما إليه وإنما أراد التخلص منك . قال : ويحك : أعدهما عليّ ، فطلبا فلم يوجـدا .

ذكر الأعرابي مع هارون الرشيد

قال : وذكروا أن أعرابياً قدم على هارون الرشيد مستجدياً ، فأراد الدخول عليه ، فلم يمكنه ذلك ، فلما رأى أنه لم يؤذن له ، أتى عبد الله ابن الفضل الحاجب ، فقال له : توصل كتابي هذا إلى أمير المؤمنين ، وكان الرشيد قد عهد إلى حاجبه أن لايحبس عنه كتاب أحد قرب أو بعد ، فأعطاه الأعرابيّ كتابا فيه أربعة أسطر . السطر الأوّل فيه : الضرورة والأمل قاداني إليك . والثاني العدم يمنع من الصبر . والثالث : الانقلاب عنك بلا فائدة شماتة الأعداء . والرابع : فإما « نعم » مثمرة ! وإما « لا » مريحة . فلما وصل الكتاب إلى الرشيد قال : هذا رجل قد ساقته الحاجة ، ووصلت إليه الفاقة ، فليدخل ، فدخل فقال له الرشيد : إرفع حاجتك يا أعرابيّ . فقال الأعرابي : إن مع الحاجة حويجات . فقال له الرشيد : ارفع حاجتك وحويجاتك تقض كلها . قال الأعرابيّ : تأمر لي يا أمير المؤمنين بكلب أصيد به ، فضحك الرشيد ثم قال له : قد أمرنا لك بكلب تصيد به . فقال : تأمر لي يا أمير المؤمنين بداية أركبها : فقال الرشيد : قد أمرنا لك بداية تركبها . فقال : تأمر لي يا أمير المؤمنين بغلام يخدم الدابة . فقال له الرشيد : قد أمرنا لك بغلام . قال الأعرابيّ : تأمر لي يا أمير المؤمنين بجارية تطبخ لنا الصيد ، وتطعمنا منه ، فقال الرشيد : قد أمرنا لك بجاريتين ، جارية تؤنسك وجارية تخدمك . فقال الأعرابيّ : لابدّ لهؤلاء من دار يسكنونها . فقال له الرشيد : قد أمرنا لك بدار ، فقال الأعرابي : يا أمير المؤمنين يصيرون فيها عالة على الناس ، وعليّ كلالة ، لابد لهم من ضيعة تقيمهم . فقال له الرشيد : قد اقتطعتك مئة جريب[1] عامرة ومئة جريب غامرة [2] . فقال الأعرابيّ : ما الغامرة يا أمير المؤمنين ؟ قال الرشيد : غير معمورة تأمر بعمارتها . فقال الأعرابيّ : أنا أقطعتك ألف ألف جريب من أرض أخوالي بني أسد بالحجاز تأمر بعمارتها ، فضحك الرشيد وقال : قد أقطعتكها عامرة كلها . ثم قال الرشيد : تمنه

---

(١) الجريب : الوادي والعامرة الآهلة بالسكان .

(٢) غامرة : مغمورة مجهولة ليس بها سكان .

حوبجاجتك كلها ياأعرابى ؟ فقال نعم ، وبقيت حاجتى العظمى . فقال له الرشيد . ارفعها تقض فقال أقبل رأسك يا أمير المؤمنين ، فقال له الرشيد : هذا لاسبيل إليه . فقال الأعرابىّ : أعنعنى حقا هو لى ، وتدفعنى عما بذلت لى أمير المؤمنين ! فقال الرشيد ؟ هذا الأمر لايكون يا أعرابىّ ، ولا سبيل إلى مثل هذا . فقال الأعرابىّ : لابد من أن أصل إلى حقى ، إلا أن أغصَبه : فقال له الرشيد : يا أعرابىّ أشترى منك هذا الحقّ الذى وجب لك : فقال له الأعرابىّ : هذا الحقّ مما لايشترى ، وهل فى الأرض من المال ما يكون ثمنا لهذا أو عوضاً منه ؟ لا والذى نفسى بيده مافى الدنيا صفراء ولا بيضاء يشترى بها هذا . فقال الرشيد : تبيعه ببعض ما تراه من الثمن ، فإنه لايكون ولا يتوصل إليه . فقال له الأعرابىّ : فإذاً قد أبيت فأعطنى مما أعطاك الله ، فأمر له بمئة ألف دينار ، فأتى بها إليه . فقال الأعرابىّ : ما هذه ؟ فقيل له : هذه مئة ألف دينار تأخذها . فقال الأعرابىّ : هى للغرماء علىّ ، وهم أولى بها منى ، فضحك الرشيد ، ثم أمر له بمئة ألف أخرى . فقال : ما هذه ؟ فقيل له : مئة ألف ثانية ، والأولى للغرماء ، وهذه لك . فقال الأعرابىّ : هذه لضعفاء أهلى ، يصلهم بها أمير المؤمنين ، فيم أوسع على نفسى ؟ فأمر له الرشيد بمئة ألف ثالثة . فقيل له : هذه مئة ألف ثالثة ، توسع بها على نفسك فى معيشتك ، أرضيت يا أعرابى ؟ فقال : نعم رضيت ، فرضى الله عنك يا أمير المؤمنين ، وابنى فضالة يقرأ السلام عليك ، ويسألك مئة ألف ، يستعين بها فى نكاحه ، ويتزين بها فى دنياه ، وإنه قد جمع القرآن وعرف شرائعه وأحكامه ، وعلم ناسخه ومنسوخه ، وتفنن فى ضروب من العلم ، وأحكم أنواع الأدب ، وقد جمع الدواوين والكتب ، وتبّحر فى فهم الحديث والأثر ، قد أخذ من كل علم أعذبه ومن كل ضرب أمحضه إلى لبّ لبيب ، وعقل رصين ، وعلم ثابت ، ونظر عجيب ، وفضل ودين ، يصوم النهار كله ، ويقوم الليل أكثره ، وقد صار فى كثير من الأهل والعيال ، وعدد من البنين والصبيان . فقال الرشيد : أو لست تذكر يا أعرابى أنه يريد الاستعانة على النكاح ، والتوسع فى المعاش ، ثم أراك تصفه بكثرة العيال ، وبعدد البنين والصبيان ؟ فقال الأعرابىّ : يا أمير المؤمنين إنه ذوثلاث نسوة من حرائر النساء ، وتسعة من سرائر الإماء ، وهو ذو خمسة من الولد من كلّ حرّة ، وذو سبع بنات من كل أمة ، ويبتغى نكاح الرابعة الحرّة ، استتماما لما أمر الله به فى التنزيل المحكم ، وأباح فى كتابه الناطق ، بكلامه الصادق . فقال الرشيد : يا أعرابىّ لقد سألت كثيراً ، فهلا سألت مئة ألف درهم فتعطاها ؟ قال الأعرابىّ : فأعطه يا أمير المؤمنين تسعين ألف دينار ، واحطط عنك عشرة آلاف دينار . فقال الرشيد : والله لقد سألت كثيراً ، وحططت قليلا . قال الأعرابىّ : إنما سألتك يا أمير المؤمنين على قدرك ، وحططت على قدرى ، فاختر ما شئت . فقال الرشيد : يا أعرابىّ إنما تريد مغالبتى ، لا غلبتنى اليوم ، فأمر له بمئة ألف دينار ذهباً .

فقال له أمير المؤمنين : أرضيت يا أعرابيّ ؟ فقال : ما بقي لي شيء يا أمير المؤمنين إلا الحلان والكسوة ، وطرائف الكوفة ، وتحف البصرة ، وجوائز الضيافة وحقها . فقال الرشيد : وما يصلح لك من الحلان يا أعرابيّ ؟ فقال : أقصد ما يكون دابة للجمال ، وأخرى للعملان وثلاثة للاسترحال ، ولابني مثل ذلك ، ومن الكسوة ما لابدّ منه من ثياب المهنة والاستشمار ، ومالا غنى عنه من الوطاء والدثار ، مع رائع الثياب التي تكون للجمال والجماعات والأعياد ، ولابني وبنى ابنى مثل ذلك . فدعا الرشيد بجعفر بن يحيي وقال : أرحنى من هذا ، وأمر له بما سأل من الحلان ، وما أراد به من ثياب المهنة والجمال ، وأغدق عليه من التحف والطرائف ما ترضيه به ، وأخرجْه عني ؟ فخرج جعفر فأمر له بما سأل وأعطاه ما أراد . ثم انصرف الأعرابيّ راجعاً إلى الحجاز بأموال عظيمة ، لا يوصف أكثرها ، ولا يعرف أقلها ، وكلّ هذا يقلّ عندما عرف من جود الرشيد وسخائه ، وجزيل عطائه ،

قتل جعفر بن يحيي بن برمك

قال عمرو بن بحر الجاحظ : حدثني سهل بن هارون ، قال: والله إن كان سجاعو الخطب، ومحبرّو القريض لعيالاً على يحيي بن خالد بن برمك وجعفر بن يحيي ، ولو كان كلام يتصوّر درّا ، ويحيله المنطق السريّ جوهرا ، لكان كلامهما ، والمنتقى من لفظهما ، ولقد كانا مع هذا عند كلام الرشيد،في بديهته وتوقيعاته في أسافل كتبه ، عيين ، وجاهلين أميّين ، ولقد عبرت معهم وأدركت طبقة المتكلمين في أيامهم ، وهم يرون أن البلاغة لم تستكمل إلا فيهم ، ولم تكن مقصورة إلا عليهم ، ولا انقادت إلا لهم ، وأنهم محض[1] الأنام ، ولباب الكرام ، وملح الأيام ، عِتْق منظر ، وجودة مَخْبر ، وجزالة منطق ، وسهولة لفظ ، ونزاهة أنفس ، واكتمال خصال ، حتى لو فاخرت الدنيا بقليل أيامهم ، والمأثور من خصالهم كثيرَ أيام من سواهم ، من لدن آدم أبيهم إلى نفخ الصور ، وانبعاث أهل القبور ، حاشا أنبياء الله المكرمين ، وأهل وحيه المراسلين ، لما باهت إلا بهم ، ولا عوّلت في الفخر إلا عليهم ، ولقد كانوا مع تهذيب أخلاقهم ، وكريم أعراقهم ، وسعة آفاقهم ، ورفق ميثاقهم ، ومعسول مذاقهم ، وسنيّ إشراقهم ، ونقاوة أعراضهم ، وطيب أغراضهم ، واكتمال خلال الخير فيهم إلى ملء الأرض مثلهم ، في جنب محاسن المأمون كالنفثة في البحر ، وكالخردلة في المهمه القفر . قال سهل : إني لمحصل أرزاق العامة بين يدى يحيي بن خالد في داخل سرادقه ، وهو مع الرشيد بالرقة[2] ، وهو يعقدها جملا بكفه ، إذ غشيته سآمة ، وأخذته سِنة ، فغلبته عيناه . فقال :

---

(١) خلاصة الناس .

(٢) الرقّة : بلدى على الفرات وأخرى غربى بغداد .

ويحك يا سهل ، طرق النوم شفرىْ عينىّ ، فأظلمت وأكات السنة خواطرى ، فما ذاك ؟ قلت : طيف كريم ، إن أقصيته أدركك ، وإن غالبته غلبك ، وإن قرّبتـه روّحك ، وإن منعته عنّتك ، وإن طردته طلبك . فنام أقلّ من فواق بكية(١) أو نزح ركيّة(٢)، ثم انتبه مذعوراً ، فقال : يا سهل ، لأمر ما كان ، ذهب والله ملكنا ، وذلّ عزّنا ، وانقطعت أيام دولتنا . فقلت : وما ذاك أصلح الله الوزير . قال : كأن منشداً أنشدنى :

كأن لم يكن بين الحَجُون إلى الصفا أنيسٌ ولم يسمُر بمكة سامر

فأجبته عن غير رويّة ولا إجالة فكر :

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالى والجدودُ العواثر

فوالله ما زلت أعرفها فيه ، وأراها ظاهرة منه إلى الثالث من يومه ذلك ، فإنى لفى مقعدى ذلك بين يديه ، أكتب توقيعات فى أسافل كتبه لطلاب الحاجات إليه ، فقد كلفنى إكمال معانيها بإقامة الوزن فيها ، إذ وجدت رجلا ساعياً إليه ، حتى ارتمى مكبّا عليه ، فرفع رأسه وقال : مهلا ويحك : ما اكتتم خير، ولا استتر سرّ . قال له : قتل أمير المؤمنين الساعة جعفرا . قال: أو فعل ؟ قال : نعم ، فما زاد أن رمى بالقلم من يده وقال : هكذا تقوم الساعة بغتة . قال سهل: فلو انكفأت السماء على الأرض ما تبرأ منهم الحميم ، أو استبعد عن نسبهم القريب ، وجحد ولاءهم المولى ، واستعبرت لفقدهم الدنيا ، فلا لسان يخطر بذكرهم ، ولا طرف ناظرٌ يشير إليهم ، وضمّ يحيى وبقية ولده الفضل ، ومحمداً وخالداً بنيه ، وعبد الملك ويحيى وخالداً بنى جعفر بن يحيى ، والعاصى ويزيد ، ومعمرا بنى الفضل بن يحيى ، ويحيى وجعفرا وزيدا ، بنى محمد بن يحيى ، وإبراهيم ومالكا وجعفرا وعمرا بنى خالد بن يحيى ، ومن لفّ لفهم ، أو هجس بنفسه أمل فيهم .

قال سهل : وبعث إلىّ الرشيد فوالله لقد أعجلت عن النظر ، فدخلت ولبست ثياب أحزانى ، وأعظم رغبتى إلى الله الإراحة بالسيف ، وإلا نعيت كما نُعى جعفر فلما دخلت

---

(١) البكية كثيرة البكاء ، والفواق المقدار أى نام أقل من مدة بكاء باكية على من تبكيه .

(٢) الركية : البئر ونزحها استخراج الماء منها ، والمراد أنه نام قليلا .

عليه ، ومثلت بين يديه ، عرف الذعر فى تجريض(١) ريقى ، والتمايد(٢) فى طريقى ، وشخوصى إلى السيف المشهور بيصرى . فقال هارون : إيها يا سهل ، من غمط نعمتى ، واعتدى وصيتى ، وجانب موافقتى أعجلته عقوبتى . فوالله ما وجدت جوابها حتى قال : ليُفرخ رَوْعك(٣) ، وليسكن جأشك ، ولتطب نفسك ، ولتطمئنّ حواسك . فإن الحاجة إليك قرّبت منك ، وأبقت عليك بما يبسُط منقبضك ، ويطلق معقولك(٤) ، فاقتصر على الإشارة قبل اللسان ، فإنه الحاكم الفاصل ، والحسام النّاصل ، وأشار إلى مصرع جعفر وهو يقول :

من لم يؤدّبه الجميـلُ   ففى عقوبته صلاحه

قال سهل : فوالله ما أعلَمنى أنى عييت بجواب أحد قط غير جواب الرشيد يومئذ ، فما عوّلت فى شكره والثناء عليه ، إلا على تقبيل يديه ، وباطن رجليه . ثم قال لى : اذهب فقد أحللتك محل يحيى بن خالد ، ووهبتك ما ضمّته أبنيته ، وحوى سرادقه ، فاقبض الدواوين ، وأحْص حِباءه ، وحِباء جعفر لنأمرك بقبضه إن شاء الله . قال سهل : فكنت كمن نُشر عن كفن وأُخْرِج من حبس ، فأحصيت حِباءهما فوجدت عشرين ألف ألف دينار ، ثم قفل إلى بغداد راجعاً ، وفرّق البرُد إلى الأمصار بقبض أموالهم وغلاتهم ، وأمر بجيفة جعفر ، فنصبت مفصلة على ثلاثة جذوع ، رأسه فى جذع على رأس الجسر مستقبِلَ الفرات ، وبعض جسده فى جذع آخر فى آخر الجسر الأوّل وأوّل الجسر الثانى ، مما يلى بغداد ، قال سهل : فلما دنونا من بغداد ، طلع الجسر الذى فيه وجه جعفر لنا أولاً ، واستقبلنا وجهه ، واستقبلته الشمس ، فوالله لخلتها تطلع من بين حاجبيه ، وأنا عن يمينه ، وعبد الملك بن الفضل عن يساره . فلما نظر إليه الرشيد ، كأنه قُنِئ شعرُه ، وطلى بنور بشره ، واربدّ وجهه ، وأغضى بصره قال عبد الملك بن الفضل : لقد عظم ذنب لم يسعه عفو أمير المؤمنين . فقال الرشيد ، واغرورقت عيناه حتى لعرفنا الجهش فى صدره : من يرد غير مائه يصدُر بمثل دائه ، ومن أراد فهم ذنبه يوشك أن يقوم على مثل راحلته . علىّ بالنضاحات . قال سهل : فنضح عليها حتى احترقت عن آخرها ، وهو يقول : أما والله لئن ذهب أثرك ، لقد بقى خبرك ،

---

(١) تجريض الريق : ذهاب مائه وجفاف الحلق .

(٢) التمايد : التمايل وعدم الثبات .

(٣) الروْع : الخوف وإفراخه : ذهابه ، أى لتهدأ وتطمئن ويذهب خوفك .

(٤) المعقول : المقيد ، أى إنى سأعطيك ما منع عنك حتى تكون حرّا طليقا فى كل ما تبغى وتريد .

ولئن حطّ قدرك لقد علا ذكرك . قال سهل : وأمر بضم أموالهم ، فوجد من العشرين ألفاً التى كانت مبلغ جبائهم اثنى عشر ألف ألف مكتوباً على بِدَرها صكوك مختومة ، بتفسيرها وفيمن حبوا بها ، فما كان منها حباء على غريبة أو استطراف ملحة تصدّق يحى بها ، وأثبت ذلك فى ديوانها على تواريخ أيامها ، وساعات أعطياتها ، فكان ديوان إنفاق ، واكتساب فائدة ، وقبض من سائر أموالهم ثلاثين ألف ألف وستّ مئة ألف وستين ألفاً إلى سائر ضياعهم وغلاتهم ودورهم ورباعهم ورياشهم ، والدقيق(١) والجليل من مواعينهم ، فإنه لا يصف أقله ، ولا يعرف أكثره إلا من أحصى الأعمال ، وعرف منتهى الآجال . وأبرزت حرمه إلى دار البانوقة ابنة المهدى ، فوالله ما علمته عاش ولا عشن إلا من صدقات من لم يزل متصدّقا عليه ، وصار من موجدة الرشيد فيما لم يعلم من ملك قبله على آخر ملكه . وكانت أم جعفر بن يحى فاطمة بنت محمد بن الحسن بن قحطبة بن شبيب قد أرضعت الرشيد مع جعفر ، وكان رُبىّ فى حجرها ، وغُذِى برسلها ، لأن أمه ماتت عن مهده ، فكان الرشيد يشاورها مظهراً لإكرامها ، والتبرّك برأيها ، وكان قد آلى على نفسه ، وهو فى كفالتها أن لا يحجبها ، وأن لا تستشفعه لأحد إلا شفّعها ، وآلت عليه أم جعفر أن لا دخلت عليه إلا مأذونا لها ، ولا تشفعت لأحد لغرض دنيا . قال سهل : فكم أسير فكت ، ومبهم عنده فتحت ، ومستغلق منه فرّجت . قال : واحتجب الرشيد بعد قدومه ، فطلبت الإذن عليه من دار البانوقة ، ومتّت بوسائلها إليه ، فلم يأذن لها ولا أمر بشىء فيها ، فلما طآل ذلك بها خرجت كاشفة وجهها ، واضعة لثامها ، محتفية فى مشيتها ، حتى صارت بباب قصر الرشيد ، فدخل عبد الملك بن الفضل الحاجب ، فقال ظئر(٢) أمير المؤمنين بالباب ، فى حالة تقلب شماتة الحاسد إلى حنين الولد وشفقة أم الواحد ، فقال له الرشيد : ويحك يا ابن الفضل : أو ساعية ؟ فقال : نعم أصلح الله الأمير حافية . فقال : أدخلها يا عبد الملك ، فربّ كبد كريم غذتها ، وكربة فرجتها ، وعورة سترتها . قال سهل : فوالله ما شككت فى شىء قطّ ما شككت يومئذ فى إجابة طلابها وإسعافها بحاجتها . فلما دخلت ونظر إليها داخلة محتفية قام محتفيا حتى تلقاها بين عمد المجلس ، فأكب على تقبيل رأسها ومواضع ثديها ، ثم أجلسها معه . فقالت يا أمير المؤمنين ، أيعدو علينا الزمان ، ويجفونا خوفا لك الإخوان ، يحردك بنا البهتان ، ويوسوس لك بأذانا الشيطان ، وقد ربيتك

---

(١) الدقيق: الصغير الحقير ، والجليل الكبير العظيم .

(٢) الظئر : فى الأصل العاطفة على ولد غيرها ثم أطلق على المرضعة لولد غيرها ، أى مرضعة أمير المؤمنين بالباب ، ويطلق الظئر أيضا على الرجل زوج المرضعة لغير ولدها .

وأخذت برضاعي لك الأمان من دهري . فقال لها : وما ذلك يا أم الرشيد ؟ قال سهل : فآيسني من رأفته بتركه كنيتها آخرا ما كان أطمعني منه في برّه بها أوّلا . قالت له : ظاهرك يحيي وأبوك بعد أبيك ، ولا أرشحه بأ كثر مما عرفه به امير المؤمنين من نصيحته له ، وإشفاقه عليه ، وتعرّضه للحتف في شأن موسى أخيه . فقال : يا أمّ الرشيد ، قدر سبق ، وقضاء حمّ ، وغضب من الله نزل . قالت : يا أمير المؤمنين : يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب : فقال الرشيد : صدقت ، فهذا مما لا يمحوه الله . فقالت : الغيب محجوب عن النبيين ، فكيف عنك يا أمير المؤمنين ؟ فأطرق الرشيد يسيراً ثم قال :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كلّ تميمة لا تنفع

فقالت بغير روية : ما أنا ليحيي بتميمة يا أمير المؤمنين . وقد قيل :

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال

هذا بعد قول الله « والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس ، والله يحبّ المحسنين » فأطرق هارون قليلا ثم قال :

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكد إليه بوجه آخرَ الدهر تقبل

فقالت : يا أمير المؤمنين وهو يقول :

ستقطع في الدنيا إذا ما قطعتني يمينك فانظر أيّ كفّ تبدّل

قال الرشيد : رضيت . فقالت : يا أمير المؤمنين ، فهبه لله تعالى ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من ترك شيئاً لله لم يوجده الله ، فأ كبّ الرشيد مليا ، ثم رفع رأسه وهو يقول : لله الأمر من قبل ومن بعد . قالت : يا أمير المؤمنين : « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم » . واذكر يا أمير المؤمنين أليّتك[1] : ما استشفعتُ إلا شفّعتني . قال : واذكري يا أمّ الرشيد أليتك : أن لا شفعت لمقترف ذنبا . قال سهل ابن هارون : فلما رأته صرّح بمنعها ، ولاذ من مطلبها ، أخرجت له حقا من زمرّدة خضراء ، فوضعته بين يديه ، فقال الرشيد : ما هذا ؟ ففتحت عنه قفلا من ذهب ، فأخرجت منه خفضه[2] وذوائبه وثناياه ، قد غمست جميع ذلك في المسك . فقالت : يا أمير المؤمنين : أستشفع

---

(١) الأليّة : الحلف : أي اذكر يمينك التي حلفتها لئن تشفعت عندك لتقبلنّ شفاعتي .

(٢) خفضة : قطعة اللحم التي قطعت منه عند ختانه ، وذوائبه : شعره الذي قصّ عند أول حلاقته ، وثناياه : أسنان طفولته التي سقطت منه ، ونبت له غيرها .

إليك ، وأستمين بالله عليك ، وبمـا صار معى من كريم جسدك ، وطيب جوارحك ، ليحيى عبدك . فأخذ هارون ذلك فلثمه ، ثم استعبر وبكى بكاء شديدا ، وبكى أهل المجلس ، ومر البشير إلى يحيى ، وهو لا يظنّ إلا أن البكاء رحمة له ، ورجوع عنه . فلما أفاق رمى جميع ذلك فى الحقّ ، وقال لهـا : لحسنُ ما حفظت الوديعة : قالت : وأهل للمكافأة أنت يا أمير المؤمنين . فبكت ، وطبع الحقّ ، ودفعه إليها ، وقال : « إن الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها » ، قالت : يا أمير المؤمنين وقال عزّ وجلّ : « وإذا حكمتم بين النـاس أن تحكموا بالعدل » ، وقال تعالى : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم » ، فقال لها : وما ذاك يا أمّ الرشيد ؟ قالت : ما أقسمت لى به يا أمير المؤمنين ، أن لا يحجبك عنى حاجب . فقال لها : يا أمّ الرشيد ، أحبّ أن تشتريه محكمّة فيه . قالت : أنصفت يا أمير المؤمنين ، وقد فعلت غير مستقيلة لك ، ولا راجعة عنك . قال : بكم ؟ قالت : برضاك عمن لم يسخطك : قال : يا أمّ الرشيد ، أمالى عليك من الحقّ مثل الذى لهم ؟ قالت : بلى يا أمير المؤمنين ، إنك لأعزّ علىّ ، وهم أحبّ إلىّ . قال : إذاً فتحكمى فى ثمنه بغيرهم . قالت : بلى وقد وهبتكه وجعلتك فى حلّ منه ، وقامت عنه ، فبقى الرشيد مبهوتا ، ما يحير لفظة . قال سهل : وخرجت عنه فلم تعد إليه ، ولا والله إن رأيت عينى لعينها عبرة ، ولا سمعت أذنى لنعيها أنّة . قال سهل : وكان الأمين رضيع يحيى بن جعفر ، فمتّ إليه يحيى بن خالد بذلك ، فوعده استيهاب أمه إياهم ، ثم شغله اللهو عنهم ، فكتب إليه يحيى ، وقيل : إنها لسليمان الأعمى أخى مسلم بن الوليد :

يا ملاذى وعصمتى وعمـادى	ومجيرى من الخطوب الشداد
بك قام الرجاء فى كلّ قلب	زاد فيه البـلاء كلّ مـزاد
إنمـا أنت نعمة أعقبتهـا	أنعم نفعُها لكلّ العبـاد
وعد مولاك أتمّه فأبهى الد	رّ ما زين حسنـه بانعقـاد
ما أظلّت سحائب اليأس إلا	خلت فى كشفها عليك اعتمادى
إن تراخت يداك عنى فـواقا	أكلتنى الأيام أكل الجـراد

وبعث بها إليه ، فبعثها الأمين إلى أمه زبيدة ، فأعطتها الرشيد وهو فى موضع لذاته ، وفى إقبال من أريحيّته ، وتهيأت للاستشفاع لهم ، وهيأت جواريها ومغنياتها ، وأمرتهنّ بالقيام إليه معها . فلما فرغ الرشيد من قراءتها لم ينقض حبوته(١) حتى وقع فى أسفلها : عظيم ذنبك أمات

(١) لم ينقض حبوته : أى لم يتحرك من مكانه . وأصل الحبوة أن يجلس الرجل واضعا ركبتيه منصوبتى الساقين ملتصقتين ببطنه ، ولكن المراد هنا لم يتحرك من مكانه .

خواطر العفو عنك . ورمى بها إلى زبيدة ، فلما رأت توقيعه علمت أنه لا يرجع عنه . قال :
واعتلّ يحيى ، فلما شفى دعا برقعة فكتب فى عنوانها : ينفذ أمير المؤمنين أبقاه الله عهد مولاه
يحيى بن خالد ، وفيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، قد تقدّم الخصم لموضع الفصل ، وأنت على
الأثر ، والله الحكم العدل . فلما ثقل قال للسجان : هذا عهدى ، توصله إلى أمير المؤمنين ،
فإنه ولىّ نعمق ، وأحقّ من نفذ وصيتى فلما مات أوصل السجان عهد يحيى إلى الرشيد .
فلما قرأه استمدّ(١) ، فكتب ، ولا أدرى لمن الرقعة . فقلت : ياأميرالمؤمنين ، آلا أكفيك؟
قال . كلا : إنى أخاف عادة الراحة أن يقوى سلطان العجزة فيحكم الغفلة ، ويقضى بالبلادة .
قال سهل : فوقع فيها : الحكم الذى رضيت به فى الآخرة لك ، هو أعدى الخصوم عليك
فى الدنيا ، وهو من لا ينقض حكمه ، ولا يرد قضاؤه ، ثم رمى الكتاب إلىّ ، فلما رأيته
علمت أنه ليحيى ، وأن الرشيد أراد أن يؤثر الجواب عنه . قال سهل : قلت لبعض من أثق
بوفائه ، وأعتقد صدق إخائه من خصيان القصر المتقدمين عند أمير المؤمنين ، والمتمكنين من
كلّ ما يكون لديه . ما الذى نعى جعفر بن يحيى وذويه عند أمير المؤمنين ، وما كان من ذنبه
الذى لم يسعه عفوه ، ولم يأت عليه رضاه ؟ فقال : لم يكن له جرم ، ولا لديه ذنب ، كان والله
جعفر على ما عرفته عليه ، وفهمته عنه من اكتمال خصال الخير ، ونزاهة النفس من كلّ
مكروه ومحذور ، إلا أن القضاء السابق ، والقدر النافذ لا بد منه . كان من أكرم الخلق
على أمير المؤمنين ، وأقربهم منه ، وكان أعظمهم قدراً وأوجبهم حقاً فلما علم ذلك من حسن
رأى أمير المؤمنين فيه وشديد محبته له ، استأذنته أخته ، فاختة بنت المهدىّ وشقيقته فى إتحاف
جعفر ومهاداته ، فأذن لها ، وكانت قد استعدّت له بالجوارى الرائعات ، والقينات الفاتنات ،
فتهدى له كل جمعة بكرا يفتضّها ، إلى ما يصنع له من ألوان الطعام والشراب والفاكهة ،
وأنواع الكسوة والطيب ، كلّ ذلك بمعرفة أمير المؤمنين ورأيه ، فاستمرّت بذلك زمانا ،
ومضت به أعواما . فلما كانت جمعة من الجمع ، دخل جعفر القصر الذى استعدّت به ، ولم
يُرع جعفر إلا بفاختة ابنة المهدى فى القصر ، كأنها جارية من الجوارى اللاتى كنّ يُهدين
له ، فأصاب منها لذّته ، وقضى منها حاجته ، ولا علم له بذلك . فلما كان المساء ، وهمّ
بالانصراف ، أعلمته بنفسها ، وعرّفته بأمرها ، وأطلعته على شديد هواها ، وإفراط محبتها
له ، فازداد بها كلفا ، وبها حبا ، ثم استعفاها من المعاودة إلى ذلك . وانقبض عما كان يناله
من جوارنها ، واعتذر بالعلة والمرض ، فأعلم جعفر أباه يحيى . فقال له : يا بنىّ أعلم أمير

(١) استمدّ : وضع قلمه فى المداد وهو الحبر .

المؤمنين ما كان معجّلا ، وإلا فأذن لى فأعلمه ، فإنى أخاف علينا يوم سوء إن تأخر هذا ، وبلغه من غيرنا ، وإعلامك له فى هذا الوقت يسقط عنا ذلك الذنب، فهى أحقّ بالعقوبة منك. قال جعفر : لا والله لا أعلمته به أبدا ، فالموت علىّ أيسر منه ، وأرجو الله أن لا يطلعه عليه ، فقال له يحيى : لا تظنّ هذا يخفى عليه ، فأطعنى اليوم وأعلمه . فقال جعفر : والله لا أفعل هذا أبدا ولا أتكلم به ، وبالله أستعين ، فلم يرع الرشيد إلا أن رفعت إليه جارية من جواريها رقعة ، وأعلمت ذلك فيها فاستحق ذلك عند الرشيد باستعفاء جعفر لما كان من إتحافها ، واعتذاره بالعلة من غير مرض ينهكه ، فغفل عنه الرشيد ، ولم ير لذلك جفوة ، ولا زاد له إلا كرامة ، ولا لديه إلا حرمة ورفعة ، حتى قرب وقت الهلاك ، ودنا منقلب الحتف ، والله أعلم .

قد تمّ بعون الله تعالى ما به ابتدأنا ، وكل وصف ما قصصنا ، من أيام خلفائنا وخير أئمتنا ، وفتن زمانهم ، وحروب أيامهم ، وانتهينا إلى أيام الرشيد ، ووقفنا عند انقضاء دولته ، إذ لم يكن فى اقتصاص أخبار من بعده ، ونقل حديث ما دار على أيديهم ، وما كان فى زمانهم كبير منفعة ، ولا عظيم فائدة ، وذلك لما انقضى أمرهم ، وصار ملكهم إلى صبية أغمار[1] ، غلب عليهم زنادقة العراق ، فصرفوهم إلى كل جنون ، وأدخلوهم إلى الكفر ، فلم يكن لهم بالعلماء والسنن حاجة ، واشتغلوا بلهوهم ، واستغنوا برأيهم . وكان الرشيد مع عظم ملكه ، وقدر شأنه ، معظما للخير وأهله ، محبا لله ورسوله ، ولما دخلت عليه سنة تسعين ومئة أخذته الحمّى التى أخبر بها جدّه أبو جعفر المنصور ، وهو فى المهد صغيراً ، فعرف أنه قد دنا أجله ، وحان هلاكه ، فاجتمع إليه أطباء العراق يعالجونه ، ثم استعان بأطباء الروم والهند ، واستجلبهم من الآفاق ، فلم يزالوا يداوونه حتى مضت له ثلاثة أعوام ، وما أقلعت عنه ، ولم يزده العلاج إلا شدة . فلما دخلت سنة أربع وتسعين ومئة أثرت به ، وأنهكت بدنه ، واشتدّ ألمه ، وتمادى به وجعه ، فذكر البيعة لابنه للمأمون . فلما سمعت بذلك زبيدة ، وكان ابنها منه محمد الأمين ، هجرته وتغاضت عنه ، وأكربها ذلك وغمها ، حتى ظهر ذلك عليها ، وبدا أثر الغمّ فى وجهها ، ودخلت عليه تعاتبه فى ذلك أشدّ المعاتبة ، وتؤاخذه أعنف المؤاخذة.

---

(١) أغمار : جمع غمر بضم الغين وفتحها وكسرها :الشاب غير المجرّب ، الساذج الذى لم تحنكه التجارب .

فقال لها الرشيد : ويحك! إنما هي أمة محمد ، ورعاية من استرعاني الله تعالى مطوّقا بعنقي وقد ، عرفت ما بين ابني وابنك ، ليس ابنك يا زبيدة أهلا للخلافة ، ولايصلح للرعاية . قالت : ابني والله خير من ابنك ، وأصلح لما تريد، ليس بكبير سفيه ، ولاصغير فهيه ، وأسخى من ابنك نفسا، وأشجع قلبا . فقال هارون : ويحك ! إن ابنك قد زينه في عينك ما يزين الولد في عين الأبوين ، فاتقي الله ، فوالله إن ابنك لأحبّ إليّ ، إلا أن الخلافة لا تصلح إلا لمن كان لها أهلا ، ولها مستحقّا ، ونحن مسئولون عن هذا الخلق ، ومأخوذون بهذا الأنام ، فما أغنانا أن نلقى الله بوزرهم ، وننقلب إليه بإثمها ، فاقعدى حتى أعرض عليك ما بين ابني وابنك ، فقعدت معه على الفراش ، فدعا ابنه عبد الله المأمون ، فلما صار بباب المجلس سلم على أبيه بالخلافة ، فأذن له بالجلوس فجلس ، وأمر له فتكلم ، فحمد الله على ما منّ به عليه من رؤية أبيه ، ورغب إليه في تعجيل الفرج بما به ، ثم استأذن في الدنوّ من أبيه ، فدنا منه ، وجعل يلثم أسافل قدميه ويقبل باطن راحتيه ، ثم انثنى ساعيا إلى زبيدة ، فأقبل على تقبيل رأسها ، ومواضع ثدييها ، ثم انحنى إلى قدميها ، ثم رجع إلى مجلسه . فقال الرشيد : يا بنيّ إني أريد أن أعهد إليك عهد الإمامة ، وأقعدك مقعد الخلافة ، فإني قد رأيتك لها أهلا وبها حقيقا ، فاستعبر عبد الله المأمون باكيا ، وصاح منتحبا يسأل الله العافية من ذلك ، ويرغب إليه أن لا يريه فقد أبيه . فقال له : يا بنيّ إني أراني لما بي وأنت أحقّ ، وسلم الأمر لله ، وارض به ، واسأله العون عليه ، فلابدّ من عهد يكون في يومي هذا . فقال عبد الله المأمون : يا أبتاه ، أخي أحقّ مني وابن سيدتي ، ولا إخال إلا أنه أقوى على هذا الأمر مني ، ثم أذن له فقام خارجا . ثم دعا هارون بابنه محمد ، فأقبل يجرّ ذيله ، ويتبختر في مشيته ، فمشى داخلا بنعليه قد نسى السلام ، وذهل عن الكلام ، نخوة وتجبرا ، وتعظما وإعجابا ، فمشى حتى صار مستويا مع أبيه على الفراش . فقال هارون : ما تقول أي بنيّ ، فإني أريد أن أعهد إليك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ومن أحقّ بذلك مني ، وأنا أسنّ ولدك ، وابن قرّة عينك . فقال هارون : اخرج يا بنيّ ، ثم قال لزبيدة : كيف رأيت ما بين ابني وابنك ؟ فقالت : ابنك أحقّ بما تريد ، فكتب عهد عبد الله المأمون ، ثم محمد الأمين بعده .

فلما كان سنة خمس وتسعين ومئة ، توفي الرشيد رحمه الله ، وعبد الله المأمون خارج عن العراق ، وكان وجّهه أبوه بالجيوش إلى بعض الفرس لشيء بلغه عنهم ، فلظّ(١) بمحمد الأمين قوم من شرار أهل العراق . فقيل له : معك الأموال والرجال والقصور ، فادفع في نحر أخيك

(١) لظّ به : اتصل به وتقرب إليه .

المأمون ، فإنك أحقّ بهذا الأمر منه ،وأعانته على ذلك أمه زبيدة،فقدم أخوه عبد الله من بغداد، ومعه الجيوش قد أخذ بيعتهم ، فنهض إليه الأمين قاصدا ومعه الجيوش ، فلم يرجع ولم يمانع ، ولم يختلف عليه أحد ، ثم إنه غدر بأخيه الأمين لما بلغه عنه . فنهض المأمون إلى القصر فدخله ، فأخذ أخاه وشدّ وثاقه وحبسه ، وأشار إلى أمه لما أعانته عليه ، فهرب محمد من الحبس ، فبعث المأمون فى طلبه ، فأخذ وقتل ، والله تعالى أعلم .

وإلى هنا تم الجزء الثانى من الإمامة والسياسة وبتمامه يكون الكتاب قد كمل كله ، نسأل الله تعالى النفع به ، والتوفيق إلى إتمام مثله ، إنه سميع الدعاء ، وهو نعم المولى ونعم النصير ، وكان الفراغ من طبعه فى الخامس من شعبان سنة ١٣٧٨ هـ الموافق السابع من نوفمبر سنة ١٩٦٧ م .



الجزء الثانى من الإمامة والسياسة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة